مارتا ماكفي

المال العزيز

رواية

ترجمة: أ. د. منذر محمود محمد

مراجعة أ. عبد الودود العمراني

هل من الممكن خلق قواسم مشتركة بين عالم التجارة والمال، وبين عالم الفن والأدب؛ أم أنهما خطّان متوازيان لا يلتقيان؟ هل يمكن للأديب أن يتقمّص شخصية التاجر، وهل يمكن للفن أن يؤنْسِنَ المال؟

إنديا بالمر، الكاتبة الروائية وزوجها ثيودور، فنان النحت الموهوب اللذان يمرّان بضائقة مالية فرضتها عليهما رغبة إنديا في التماهي مع مظاهر البذخ الذي يطبع حياة الأغنياء، تربطهما بويل تشابمان المصرفي البارع الذي يعمل في وول ستريت وزوجته إيما صداقة متينة. المال أضحى بالنسبة إلى إنديا قِبلةً استحوذت على كيانها؛ وبالمقابل، وبدرجة أعلى من المفارقة، يُبدي ويل تشابمان افتتانًا بعالم الأدب قاده إلى اتخاذ قرار حاسم بالتخلي عن كل امتيازات عالم المال ليتحول إلى كاتب روائي.

هنا، يلج القارئ إلى عالم فريد شكّلتْه كاتبة هذه الرواية ببراعة فائقة؛ وهو عالم متعدد الأبعاد: وين جونز، الزائر المفاجئ الذي يُذكّرُ بقوةٍ بالشخصية المحورية في أغلب مسرحيات هنريك إبسن، هو صديق لآل تشابمان، وأحد أقطاب عالم وول ستريت، يقتحم عالم إنديا بالمر منذ بداية الرواية. «وين جونز» هذا، الذي يمسك بأطراف خيوط الفعل في الرواية كلها تقريبًا، يفرض على القارئ أسئلة تَمورُ في ذهنه وتَحْكُمُها الحيرة: هل هو «شيطان» كريستوفر مارلو الذي أغوى فاوست، أم هو «بيغماليون» برنارد شو الذي أراد أن يعيد تشكيل «الايْزا دوليتل»، بائعة الزهور شبه الأمية، أو «نَحْتِها» على شكل سيدة مخملية؟ ويبقى السؤال الأخير الذي لا يجد القارئ له جوابًا وهو يطوي الصفحة الأخيرة لهذه الرواية: هل متعة السلطة المرافقة للتغوّل المفرط للمال تستحق أن يسفح المرء من أجلها ماء إنسانيته أمام مذبح «ميفيستوفوليس» «الشيطان» الحاضر أبدًا أمامنا، وربما، فينا؛ وبالتالي: هل هي محنة عالم اليوم الأخلاقية، أم محنة الإنسانية بدءًا من الصراع من أجل البقاء، إلى الصراع من أجل السلطة؟ وقد يكون الجواب الوحيد على هذا السؤال، كما على ما قبله من أسئلةٍ هو: "ربما".

الناشر

دولة قطر
وزارة الثقافة والفنون والتراث

منشورات وزارة الثقافة والفنون والتراث
إدارة البحوث والدراسات الثقافية

26

مارثا ماكفي

المال العزيز

رواية

نقلها إلى العربية

أ.د. منذر محمود محمد

مراجعة

عبدالودود العمراني

الناشر: وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر

وحدة الترجمة: الدوحة ص.ب. 23700 قطر
هاتف: 44022789 974+
فاكس: 44022231 974 +

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية : 121 - 2012
الترقيم الدولي (ردمك):8 - 54 - 90 - 99921 - 978

الطبعة العربية: الأولى/2012

لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، باستثناء الاقتباس والاستخدامات المسموح بها، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

العنوان: «المال العزيز» (رواية)
تأليف: مارتا ماكفي
ترجمة: أ. د. منذر محمود محمد

العنوان الأصلي للكتاب:
Dear Money
Martha McPhee
Copyright © 2010, Martha McPhee. All rights reserved

• جميع الحقوق محفوظة لوزارة الثقافة والفنون والتراث بموجب عقد شراء حقوق الترجمة العربية الموقّع بين الوكيل الأدبي للمؤلفة ووزارة الثقافة والفنون والتراث بدولة قطر

التقديم

نالت رواية «المال العزيز» انتشارًا واسعًا ورحّبت بها الأوساط الأدبية الأمريكية والبريطانية لدى ظهورها سنة 2010. وقد نُشر في الملحق الأدبي لصحيفة نيويورك تايمز تعليقًا على الرواية جاء فيه: «في رواية ماكفي الجديدة «المال العزيز» تنسج الأديبة خلفية قصصية حول الرهونات العقارية عالية المخاطر والمتاجرة المحمومة بها في بورصة وول ستريت وتخلق رواية تقليدية تدور أحداثها حول شخصية تخضع تدريجيًّا لإغراء الثروة وبريقها...» لكن اللافت في هذه الشخصية أنها أديبة متزوجة من فنان نحات بارع، ولم تكن في البداية تولي أيّ اهتمام لعالم المال...

وهكذا تطرح الرواية عدة تساؤلات حول علاقة الأدب بالمال وعلاقة رجال ونساء الأدب برجال ونساء المال. وتنطلق عبر صفحات الرواية عملية استكشاف ودراسة النفس البشرية. رحلة ممتعة بفضل صنعة الكاتبة نشاهد خلالها كيف يستحوذ المال على شخصية أديبة رقيقة من ناحية، ويستحوذ الأدب في المقابل على شخصية رجل أعمال شرس يكتشف عالمًا ساحرًا غير الذي عرفه حتى ذلك الحين...

والأرجح أنّ رواية «المال العزيز» تتيح لنا وقفة تأمّل لا سيّما في عصرنا الذي انتشرت فيه في كل أرجاء المعمورة المؤسسات المالية والبورصات

التي تغري بالربح السريع، لكنّها حملت إلينا في الواقع المعيش إحدى أشد الأزمات الاقتصادية التي عاشتها الإنسانية منذ أزمة 1929م.

هي إذًا دعوة للتأمّل ولمتعة القراءة...

د. حمد بن عبدالعزيز الكواري

وزير الثقافة والفنون والتراث

الجزء الأول

لم يعد بمقدوري الاستمرار

الفصل الأول

تبدأ القصة طبعاً مع قضية العقارات؛ وتحديداً، في الفترة الصعبة من سنة 2003، بولاية مين في مقاطعة بوند بوينت حيث يقع ذلك المنزل الريفي القديم الذي تم بناؤه في العصر الفيكتوري، والمبني بإحكام على ما يبدو بطريقة التفافية. يقع هذا المنزل قبالة الكثبان الرملية التي تتخللها رقعة من أعشاب بحرية تشبه خندقاً مائياً، كما تحفّ به مجموعة من نبتات البازلاء الحلوة المذاق التي تتراقص براعمها الزرقاء على وقع نسمات بعد الظهر التي تهب قبالة الشاطئ. أما الشاطئ، فيسترخي على امتداد أميال من الرمال التي يتخللها نهران يصبّان في المحيط الأطلسي، أحدهما كبير والآخر صغير. هناك بضع جزر صغيرة تطفو فوق المحيط قبالة الشاطئ وتتصل فيما بينها عند انحسار المد بواسطة مرتفعات رملية تلتف حولها كأذرع.

تلكم كانت أيام شهر تموز، يوليو، الرائعة كما وصفتها إيما تشابمان بذلك الحماس الشديد المعروف عنها، والذي يعكس رغبتها في استثمار كل فرصة تمنحها إياها الحياة. تموز، هو الشهر الذي يُعتَبَرُ كل يوم فيه لغزاً، ومبعثاً على الدهشة. إذ قد تهب الأعاصير في أي يوم منه على حين غرة، ومن أي اتجاه. وقد يتكون الضباب الكثيف مثل ندف من القطن من رحم سماء كانت قبل لحظات في منتهى الصفاء، في الوقت الذي تكون الطيور من فصيلتيْ الطّيْطوى والزّقزاق تنقضّ بسرعة هائلة لالتقاط طعامها. كما قد تتشكل من دون سابق إنذار طلائع سحابة قَذَعية على شكل ركام يتبعها انفجار ناجم عن سقوط صاعقة. أما منظر المغيب، فإنه ظاهرة تخلب الألباب؛ ناهيكم عن السكينة التي تترافق مع الصباح الباكر في ذروة الموسم الذي قد يتبعه

ارتفاع كبير في درجة الحرارة خلال مدة وجيزة؛ أما الآن، وبعد انقضاء ساعة على انبلاج الفجر، فما تزال المناشف وثياب السباحة تتدلى رطبة على حبال الغسيل. تشرق الشمس مطلة من أعلى مجرى النهر مسببة ارتفاع منسوب الحرارة في الغابة، ما أدى إلى انبعاث رائحة نسغ الصنوبر النفّاذة في المطبخ حيث يتم تقطير القهوة. كانت إيما، وهي على الشرفة ترقب المحيط الذي تحيط به أشعة الشمس الذهبية، تبدو وكأنها حققت كل ما تبغي من هذه الحياة باستثناء أمنية واحدة تتمثل كما أظن في إشباع رغبتها بامتلاك كل ذلك الفضاء المتمثل بالبحر وهوائه المشبع بالملوحة وهما من متممات ذلك المنزل.

لم أحب المنزل في البداية؛ ذلك أنه عندما كانت الريح تهب، كانت تتغلغل بعنف من بين ثنايا جدرانه، وكانت السناجب كما الفئران قد جعلت منه كما من أسرّتنا، مرتعاً لها. كان بارداً ورطباً. كان بابه الواقي الخارجي يحدث صوتاً مكتوماً عندما يطرق بفعل الرياح. أما المنزل المجاور فكانت تقطنه عائلة من بوسطن. كان من السهل تبيان ذلك من خلال حرف الباء الكبير الذي يشير إلى فريق «بوسطن ريد سوكس» الذي كان من السهل رؤيته في كل مكان: على قبعاتهم، وعلى المئزر الذي يرتدونه في حفلات الشواء، وعلى طائرات أطفالهم الورقية التي يطلقونها إلى عنان السماء معلنين ولاءهم للفريق. ألقوا إلينا بالتحية ورسموا على وجوههم ابتسامة فيها الكثير من التكلف وكأنهم يريدون الإيحاء بأنه لن يكون هناك أي مبرر إضافي كي تتطور علاقة الجيرة فيما بيننا إلى ما هو أبعد من ذلك.

كان منزل البوسطونيين قريباً جداً من المنزل الذي نقيم فيه. قاموا بإزالة

الأعشاب الضارة من حول الأزهار وجزّ العشب بتؤدة من المرج الذي كان في معظمه مغطى بالرمال. كما عبّروا عن شغفهم برياضة الغولف من خلال قيامهم بشراء أدوات غولف بلاستيكية صغيرة لأولادهم الصبيان الذين كانوا يقذفون بكرات الغولف الصغيرة عبر تلك البقعة الصغيرة المساحة المخصصة لهذه الغاية، وعندما كانت واحدة من تلك الكرات تنحرف عن مسارها وتقع في الجانب المتهدم من منزل عائلة تشابمان المستأجَر، كان أولئك الصبية البوسطونيون يجلسون متجهمي الوجه وهم يحدقون عبر تلك البقعة باتجاه بناتنا عاجزين عن طلب المساعدة. وكانت تبدو على بناتنا ملامح السعادة وهنّ يشاهدن الانزعاج الذي كان جلياً على ملامح هؤلاء الصبية، ولكن سرعان ما كانت تتملكهن الشفقة عليهم حيث كنّ يعدن الكرات إليهم، وقد تقبّل الصبية هذه المبادرة من دون أن يعبّروا عن امتنانهم لذلك، ونقلوا مكان اللعب إلى موضع آخر. قال زوجي ثيودور تعليقاً علي ذلك: «سوف تعرفينهم من خلال سلوك أبنائهم». أجبته: «بلى». لكنني أعجِبتُ، لا بل انتابني الحسد في واقع الأمر من شغف إيما بالمنزل بالرغم من البرود الذي كان الجيران يبدونه تجاهها، وانتابتني رغبة في أن أرى المنزل من خلال عينيها بما أنه كان يمنحها الكثير من السعادة. كان المنظر منفتحاً بالكامل على المحيط، وكانت القوارب الشراعية تتمايل مع النسمات كما كانت طيور الغاق والنورس تحوم فوق الماء إضافة إلى حيوانات الفقمة التي كانت تطل أحياناً برؤوسها التي تشبه رؤوس الكلاب فوق سطح الماء.

استأجر كل من إيما وويل المنزل منذ ست سنوات، وكانا يصلان إليه بسيارتهما التي كانا يقودانها من نيويورك، ويمكثان فيه مدة شهر مع ابنتيهما.

وكان ويل يقضي هذه المدة مسافراً جيئة وذهاباً. كانت إيما هي من وجد ذلك المنزل. فبينما كانت تتمشّى على الشاطئ، سألت عدداً من الأشخاص الذين يأخذون حماماً شمسياً وكانوا حينها مجتمعين تحت مجموعة من المظلات فيما إذا كانوا من المستأجرين أو من مالكي البيوت التي يسكنون فيها، وكانت تعني بذلك المنازل الريفية المبنية بين الكثبان من ورائهم. آخر زوجين التقت بهما وكانا عجوزين، لم يكونا من المستأجرين. أعجبهما تصميمها وعنادها: «آه، هل هذا المنزل لكما؟ المنزل الذي يقبع هناك؟ المنزل ذو اللون الأحمر الذي يعلوه برج؟ إنه مبني على طراز هوبر المعماري. لا، لا؛ إنه على طراز وايث؛ إنه طراز وايث صِرف؛ أعتقد أنه مبني منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، أليس كذلك؟ يا إلهي كم أرغب في أن أقضي فيه أسبوعاً كي أتماهى مع كل ذلك التاريخ.»

اصطحبها الزوجان إلى المنزل وجالوا في أرجائه والمنطقة المحيطة به. كانت كل نافذة فيه تطل على منظر يأخذ بالألباب. كان بإمكانها أن ترى ضمن هذا الخليط غير المتجانس من الضيوف صور أبناء وبنات الأخوات والإخوة بأسماء مثل: ساكاغاواي – أنا هنا لا أمزح – تعم المكان. لم يكن للزوجين أبناء. قالت إيما: «كل نافذة في المنزل تطل على منظر خلاب.» كانت تضج بالحماسة. وهذه هي أكثر الخصال التي أثارت إعجابي بها. أثنت إيما على الأطفال الذين ظهروا بحفّاظاتهم وثيابهم الملطخة بالعصير، وأصابعهم اللزجة. قالت: «ساكاغاواي، يا له من اسم غير مألوف». كما أبدت إعجابها بالبيانو العتيق والزجاج العتيق للنوافذ، وكذلك بالستائر المهترئة. عند ولوجها إلى غرفة النوم البرجية، أطرَتْ على الصور القديمة المدلّاة بطريقة معقوفة

على الجدار. قالت وهي تتفحص توقيعاً على إحدى اللوحات: «إنها من رسم باكراك»، كما لاحظت أن جميع اللوحات الأخرى موقعة منه أيضاً. توجهت نحو السيدة هوف بابتسامة عريضة («يبدو أن الاسم مشتق من اسم تشيكوف»، كما ذكرت السيدة هوف). لمعت عينا السيدة هوف الحليبيتين الزرقاوين وقالت مؤكدة: «نعم، إنها من رسمه». وتابعتْ: «نشأت في ولاية كينيتيكت»، ذكرت ذلك كما لو أنها تريد أن تؤكد على أهمية ماضيها الأكثر شهرة، وكان صوتها ناعماً لكنه ينم عن الثقة بالنفس. كانت ما تزال امرأة بكامل أناقتها وذات أصابع رشيقة تعزف على البيانو بشكل بارع؛ أما اليوم فهي ترتدي ملابس منزلية بسيطة، لكنها كانت بالأمس الفتاة الباسمة في كل الصور المطبوعة بالصبغ الظليلي.

كان السيد هوف المتقاعد باحثاً في أدب جوناثان سويفت وكان أيضاً شاعراً هاوياً سار على خطى هاوسمان؛ كان يتميز بقوة شخصيته ودماثة خلقه. كان الزوجان في المنزل عندما وصلتُ برفقة زوجي ثيودور وابنتينا لقضاء عطلة نهاية أسبوع طويلة. كان هوف وزوجته موجودَيْن في المنزل من أجل إصلاح السخان، وكانا على وشك الرحيل. سوف يمكثان في ذاكرتي لمدة طويلة: الزوج هو نسخة مصغرة عن زوجته، فله نفس العينين الزرقاوين اللتين تعتريهما بعض الغشاوة. وكان شعرها الأبيض الكثيف يجلل رأسها بينما كان هو أصلع الرأس. كان يلقي قصيدة ألّفها بنفسه بصوت تشوبه مسحة من الجدية والرقة: «أحاول التشبث بالسنين التي تبحر من أمامي/ ولكن، انتبهوا جيداً لهذه الحكمة التي يتلوها علينا البحر!» كانت إيما وويل يصغيان، انحنت هي كي تربت على كتفه. كانت تقف على الشرفة المطلة

على الكثبان والمحيط. رسمت على شفتيها ابتسامة تحمل الكثير من معاني الصدق؛ إلا أنها لم تكن تتوقع كم ستطول مدة إلقاء القصيدة، وكانت تجاهد بقوة كي تتابع القصيدة، وتحافظ على تركيزها.

عند وصولنا، أنا وثيودور، وجدنا أنهم كانوا في حال من الانفصال عن الواقع. كان الرجل العجوز يتابع إلقاء قصيدته: «لمن سُلِّمَ زمانُنا / حين يُدسُّ الإنسان تحت الرمال أو تحت التراب أو في قاع البحر.» كانت هذه المُغنّاة تتناول مقاطعة بوند بوينت. كانت زوجة هوف تأتي إلى هنا منذ ثلاثينيات القرن العشرين. قاما بشراء المنزل سوية في خمسينيات القرن العشرين من أجل أغنية وذلك بعد أن استردا أسهمهما المرهونة على منزلهما الأول. بدأت السيدة هوف التي كانت تقف على شرفة منزلهما الثاني بشفتيها الملويتين قليلاً، والريح تلفح وجهها، وأضواء ولاية مين تنعكس على وجنتيها، ترقب بحبٍّ يديْ زوجها الرقيقتين وهما تنسجان كلماته: «تُحرّك الرمال المسنونة الحادة شفاهها و... / وتهمس من دون لسان بأغنيات واثقة / ليس أنت، بل نحن من يجب أن نتحمّل / من يجب أن نتحمّل!»

مرّت لحظة من الصمت تلاها تصفيق حاد من إيما. عقّب السيد هوف قائلاً: «إنها مجرد قصيدة بسيطة كتبتها سنة 1983.» استدار بعدها موجهاً تركيزه علينا بشكل كامل، حيث كانت عيون ابنتاي قد امتلأت بالفضول والاستغراب مما يجري. أردف قائلاً: «يبدو أن جميع ضيوفك قد وصلوا. لقد سمعنا عنكم الكثير: أصدقاء إيما وويل. أؤكد لكما أننا لم نسمع عنكما سوى ما يرضي. مرحباً بكم أيها النيويوركيون المشهورون! أدعوكم جميعاً لقضاء عطلة نهاية أسبوع رائعة بين ظهرانينا.»

كنا نعرف كل شيء عن قائمة أصدقاء إيما. كانت دائماً ما تقص علينا حكايات حول شلة أصدقائها المتميزين، من مثلِ أصدقاءَ لها تزوجوا وهم في المراحل الأخيرة من معاناتهم من مرض السرطان، أو زوجةٍ أضحى ديوان شعرٍ عاديٍّ ألّفته وكان يتناول علاقة حب محرّمة بينها وبين شاب من الهنود الحمر، في قائمة أفضل المبيعات؛ كما أدانت علناً بأقسى العبارات زوجها (الزاني هو الآخر) محمّلةً إياه وِزر خيانتها كما عزت إليه سبب نجاحها؛ كما قصت علينا حكاية تلك العروس الشابة التي تتفاخر بأسلافها الغجر مستخدمة نسبها ذاك من أجل أن تحجز لنفسها مكاناً في برنامج بتلفزيون الواقع الموسوم: «ليلة الزفاف». كانت عائلة هوف جزءاً لا يتجزأ من هذا الخليط ؛ إنه معرض وحوش إيما.

قدّمنا السيد هوف مستخدماً عبارات قليلة، وهي عبارات كانت إيما نفسها قد وصفتنا بها أمامه؛ كانت مليئة بالمبالغات والكثير من الإطناب. وكما آل هوف، فقد كنا مجرد شخصيات في مسرح حياتها، وكان بإمكانك أن تشعر بذلك لو بقيتَ في عالمها مدة كافية حيث سوف تتكشف أمامك حبكة قصصية فيها الكثير من الإثارة. كان السيد هوف ملماً بشكل جيد بتفصيلات التاريخ المحلي للمقاطعة التي بدأت بمستوطنة الساغاداهوكيين: «لقد وصلوا إلى المقاطعة سنة 1607، تماماً كما مستوطني مدينة جيمس تاون، بالرغم من أن أولئك المستوطنين لم تكن رحلتهم مريحة.» كانت تعبيراته تنم عن تفهم للدراما المرافقة لذلك الإخفاق القديم. قام بلفت انتباهنا إلى الصوت الحاد لطائر الزقزاق الذي يبني لنفسه عشاً بين الأعشاب الموجودة في الكثبان؛ تلك كانت طريقته في لفت انتباهنا إلى ضرورة الحذر عندما

نتوجه مشياً عبر تلك الكثبان نحو الشاطئ بحيث لا نزعج تلك الطيور بما أنها من الطيور النادرة والمحمية. قال بروح من الدعابة: «لا بد أنك ستمتم وجودنا؛ سندعكم ترتاحون منا.» التفت بعدها إلى زوجته وقال: «سأنتظرك في السيارة يا يونس.» حرص على أن ينطق كل كلمة بعناية فائقة. غادر بعدها وتبعته يونس ببطء وبكثير من السعادة.

قالت إيما وهي ترحب بنا وتقبّلنا وتحتضننا فرداً فرداً، وكانت تلك من التقاليد المعمول بها عند وصول الضيوف: «أليْسا زوجين رائعيْن؟ إنني سعيدة جداً لأنكم تعرفتم إليهما، لأن عليَّ كما تعرفون، أن أقوم بقتلهما.» ثم أردفت وبكثير من اللؤم: «إن هذا مدعاة للأسف، لأنهما لطيفان جداً، أليس كذلك؟» قامت بعد ذلك بسرد لائحة بكل الأشخاص التي عليها أن تقوم بقتلهم من أجل شراء ذلك المنزل بدءاً بابنة الأخ الشابة التي لا نفع يُؤمل منها، إضافة إلى زوجها وأبنائها وحتى ساكاغاواي الصغير أيضاً. تكاد الطريقة التي تحدثت بها إيما تجعلك تعتقد أنها تعني ما تقول. كما أن الطريقة التي تبتسم بها وهي تلوي شفتيها مثل شخص يريد أن يسرق حبة فاكهة لذيذة من متجر يعرض بضاعته على الرصيف، تكاد هي الأخرى تجعلك تعتقد أنها يمكن أن تنجو بفعلتها.

قالت إيما، تلك المرأة الأنيقة النحيلة التي تبدو عظامها مثل عظام عصفور: «أحب هذا المنزل، أحبه، أحبه». قادتنا في جولة في أرجاء ذلك المنزل، وأرَتْنا الأمكنة الذي تود أن تستحم فيها وتتناول طعامها فيها وتقرأ فيها وتنام فيها. قالت: «في الغرفة البرجية: كل ما تتخيلونه من الرومنتية سوف يكون في متناول أيديكم.» استطاعت بروحها الملأى بالحيوية، وبطاقتها التي تطفق

بالحبور أن تعطي الانطباع بأنها أطول بكثير مما هي عليه في الحقيقة. كان شعرها أسودَ منسدلاً على كتفيها عَقَصته إلى الخلف بواسطة عصابة للشعر، وكانت عيناها زرقاوين ووجهها مستديراً؛ وكان وجهها من النوع الذي يمكن للمال أن يحسّن من شكله بسهولة. كان من السهولة بمكان أن تشعر عندما تنظر في عينيها، أنها تتحلى برزانة امرأة لديها كل ما ترغب في الحصول عليه.

جاء ويل من خلفها وعانقها وانحنى لتقبيلها في عنقها (دائماً ما كانا يتبادلان القبل، وكنت أشعر أن ذلك مبعثه حب الاستعراض أكثر من أي شيء آخر، لكنني كنت أتمنى في سري أن يقوم ثيودور باستعراض مشابه عند تقبيله لي)، وبكثير من الود، خاطبها قائلاً: «سوف أساعدكِ في قتلهم، يا حبيبتي.»

قالت وهي تستدير باتجاهنا وترمقنا بتلكما العينين الزرقاوين الباردتين كالثلج: «هل لاحظتما كم أنا موفّقة في زواجي.» التصقت بزوجها وأضافت: «إنه طوع بناني.»

لم ألحظ عند جولتنا في أرجاء ذلك المنزل ما يشد الانتباه؛ فالستائر عمرها مائة سنة، والبيانو العتيق ثقيل جداً لدرجة أنه أحدث غوراً في أرضية الغرفة. كما أن المطبخ لم يتم استخدامه مطلقاً منذ أن قامت عائلة هوف بشراء المنزل. أما الماء الساخن فلم يكن أبداً بالسخونة المطلوبة بحسب ما قالاه لنا. كانت عوارض الأرضية الخشبية بحاجة ماسة للصقل والتنعيم (فقد دخلت شظية من الخشب في قدم ابنتي الصغرى بعد دقائق من دخولنا إلى المنزل)؛ كما لاحظنا أن تشققات دقيقة أحدثت شروخاً في زجاج بعض النوافذ. كان هناك ما يشبه متحفاً منسياً يحتوي على مواد للتنظيف ومكافحة الحشرات تنتمي

إلى ذلك الزمن الذي كانت فيه محطات الوقود تقدم مثل هذه الأشياء مجاناً عند تعبئة الزبائن لسياراتهم بالوقود، وكانت يمكن لمنتجات شركتيْ أمْوِي وغلف أويل المكدسة في ذلك المكان أن تكون ذات قيمة مالية لا بأس بها لو قُدِّر لها أن تعرض في أحد الأسواق الخيرية. تكدّس الركام في الزوايا حيث كان يتجمع هناك روث السناجب والغبار الناجم عن نخر السوس. تخيلت صوراً مضخّمة لتلك المخلوقات تمر عبر شاشة التلفزيون وهي تفرض على المشاهدين شراء منتجات بعينِها بالقوة. تسببت بعض تلك الحشرات بحكة شديدة في جسم ابنتي الكبرى. همست في أذن زوجي ثيودور: «إنه القمل» الذي يشاطرنا سريرنا؛ إنه يشاركنا ذلك القليل من الرومنتية التي يفترض أن نتمتع بها في تلك الغرفة البرجية في ليلتنا الأولى التي قضيناها فيها.

همس في أذني وهو يحتويني بجسده القوي والدافئ، مقبّلاً عنقي: «إنها البراغيث». قلت له: «أستمتعُ أيما استمتاع عندما تخاطبني بلغة بذيئة.» ادّخر شوقه إليّ إلى وقت يمكن أن ننفرد فيه بأنفسنا. وبدأنا بعدها نغط في نوم عميق على وقع عواء الرياح التي كانت تعصف في الخارج، كما لو كنا في معسكر تخييم.

كان زوجي وإيما يدرسان في نفس الجامعة؛ ولكن لم يكونا يعرفان بعضهما بعضاً إلا معرفة سطحية. فثيودور هو ذلك الشخص الغريب الأطوار ذو الشعر الطويل الذي يعيش في الاستديو الفني الخاص به ويدخّن سجائر الغولواز؛ أما إيما المنتسبة إلى عضوية أحد النوادي في الجامعة فكانت الفتاة الحلوة المرحة الودودة وذات الابتسامة الرائعة والطيبة التي ترغب في أن يحبها جميع من حولها. التقيت بها بمحض المصادفة في إحدى الحدائق بحيّ تريبيكا بالقرب

من الشقة التي كانا يقطنان فيها، وقد بدأت فيما بعد أحسدهما عليها كما على كل شيء آخر بما في ذلك تلك النوافذ الهائلة الحجم التي يمكن أن تطل من خلالها على نهر هدسون وتراقب غروب الشمس. كان ذلك المكان رائعاً في تصميمه. كانت النوافذ محاطة بالكروم وخشب الساج والحرير السنغالي، وكانت الخزائن مصنوعة من خشب الورد المطعّم بعظام الجمل؛ كانت الأشياء مبعثرة هنا وهناك وهي عبارة عن تذكارات من سفراتهما في كافة أرجاء العالم: فهناك الخشب المحفور من هاييتي والكريستال البولندي، وتمثال برونزي لبوذا ومزهريات من الصين المينغية والإله الهندوسي الراقص شيفا. كانت ابنتانا الكبيرتان اللتان ولدتا في نفس اليوم ونفس السنة في أول مراحل تعلمهما المشي. كانتا تلعبان وكنا نبدأ بتبادل الأحاديث. كنا نستمر في أحاديثنا طيلة فترة بعد الظهر إلى أن تبدأ الشمس بالغروب في تلك الأماسي من شهر حزيران، يونيو؛ بعدها، وباقتراح من إيما التي يمكن لي أن أصفها بأنها كتلة متقدة من الأفكار الرائعة، كنا نمشي لتناول العشاء باتجاه مطعم في منطقة باتري بارك يطل على نهر هدسون وتمثال الحرية الذي يتحول إلى اللون الأخضر مع انحسار الضوء وهبوط الليل. وفي نهاية الأمسية، كانت ابنتانا وابنتاها قد أعلنّ أنهنّ أصبحن صديقات حميمات.

لم يسمح لنا السن الذي كنا قد وصلنا إليه بالقيام بمثل هذا التصريح، لكن شعورنا بالسعادة كان عارماً، وهو نفس الشعور الذي ينتابك بعد أول موعد غرامي. باختصار، أحببناهم كعائلة كما يحدث عادة بين العائلات: كانت العلاقة بيننا أشبه ما تكون بالمواعدة والمحبة بين أشخاص متزوجين ولكن ضمن الإطار الأخلاقي الصحيح. كل واحد منا كان لديه شيء مما

يريده الآخر. كانا معجبيْن بنا لأننا فنانان، ولأن المليونيرات على ما يبدو يرغبون في اقتناء الفنانين (أنا كنت روائية، وكان زوجي ثيودور لارسون، نحّاتاً) وكنا كذلك معجبين أو (ربما عليّ أن أقول: كنتُ) معجبة بعائلة تشابمان لأنها كانت تكسب الكثير من المال (أو، ربما توجب عليّ أن أقول إن ويل كان يكسب المال، أما إيما التي كانت ربة منزل وأماً تشرف على تربية أطفالها، أو أية تسمية يطلق على من مثلها في هذه الأيام، فقد كانت تمضي وقتها في جعل حياة هذه العائلة هانئة). كما أن من المنطق القول إن الفنانين كانوا من الحكمة بحيث أنهم يقتنون المليونيرات.

جنى ويل أكداساً من المال في واحدة من الصفقات الكبرى في وول ستريت، وكان لديه رصيد قديم من المال بالرغم من أنه لم يكن قد بقي منه الشيء الكثير. لكنه كان يشبه المال ببشرته البيضاء الناعمة وفكه القوي الذي كان يطقطقه بكبرياء (بالرغم من أنه لم يكن رجلاً متعجرفاً أبداً)، وشعر رأسه الناعم الأسود وتلك العيون الخضراء الساحرة التي كانت تومض بالتفاؤل وهو يتحدث: الأول هو من خلق الثاني، أي بالطريقة التي يستدر الربحُ فيها الربحَ. مع ذلك، كان الرجل حصيفاً جداً عند الحديث عن ثروته وهو بذلك درج على نفس منوال الطبقة الراقية من سكان نيو إنجلاند. كان هذا المنزل في ولاية مين بالنسبة لي مثالاً على تلك الحصافة، وعلى عجزي عن فهمها أو استيعابها.

ومع عائلة تشابمان، بدأت مرحلة تحوّلٍ في حياتنا تمثلت في الانسلاخ عن حياة الفنانين المعوزين. كانت أشبه ما تكون بشيء يراه المرء فقط بعد حصوله حقيقةً: فقد تخلينا عن أصدقائنا المكافحين الذين يعيشون في مستودعات

قديمة متداعية في منطقة ويليامزبيرغ، أولئك الأصدقاء الذين يتحدثون بتباهٍ عن استيقاظهم صباحاً كي يَلجوا إلى عالم لا يمكن وصفه من خلال مقاهٍ غير مألوفة تقدم »كرواسانت« أطيب مذاقاً مما تقدمه أفضل مقاهي باريس، بل من خلال صناعة منسية وأعمدة أسلاك الهاتف، والأسلاك الكهربائية المنخفضة المتدلية من الأعمدة التي تلقي بظلالها على شوارع بروكلين المقفرة؛ إنها الأرض اليباب التي تعتبر وقوداً للخيال. لقد تخلينا عن أولئك الأصدقاء الذين كنا في ما سلف من حياتنا نقضي معهم ساعات طوال حتى آخر الليل ونحن نتحدث عن الفن وعن النضال إلى أن تخور قوانا ونشعر بالإنهاك، وننوء تحت وطأة بحثنا عن التحفة الفنية المنشودة؛ حينها كنا نبدأ بالدوران كظلال أو خيالات لما كنا عليه قبلاً معتمدين على الأمل كما لو كان خطةً لمرحلة ما بعد التقاعد.

بالمقابل، كان عالم عائلة تشابمان أجمل بكثير من أن يتردد المرء بشأن الرغبة في الولوج إليه لأنه عالم حقق ذاته؛ كما أن جماله المألوف أضحى من السهل تميزه من خلال المجلات وأفلام السينما. وعندما قامت عائلة تشابمان بوضع أول أولادها في مدرسة خاصة، فعلنا نحن الشيء نفسه بعد أن اعتصرنا كل ما نستطيع من مال عن طريق عمولات تقاضيناها أو سلف اقترضناها. دخلنا منذ ذلك الحين، إلى عالم خالٍ تقريباً من كل ما له علاقة بالفن. فعالمنا الآن هو عالم يعج بالأطباء والمحامين والمصرفيين ووكلاء ووكيلات الإعلانات وأصحاب دور نشر المجلات؛ باختصار، هذا العالم يحتوي على قائمة كاملة من الأشخاص الرائعين الذين يعملون ليل نهار، ويتبوءون مواقع يديرون من خلالها العالم. إنهم أناس أكبر من الواقع، ولديهم مقدرة أكبر مما ينبغي، ما

يمكّنهم بسهولةٍ من الترحيب بالفنانين إلى عالمهم. أثارت فضولي مسألة إقامة صداقة معهم. إنهم المدخل إلى طريقة حياةٍ مختلفة تماماً؛ فهم أشخاص كبار ذوو اهتمامات كبيرة، أهمها الاهتمام بالعقارات: وأعني بذلك وضع اليد عليها ومن ثم، تجديدها. بالتالي، فقد أصبح النضال ومحاولة الحصول على المعنى من خلال الفن شيئاً فشيئاً كمّاً مهملاً على شواطئ العالم الصناعي. لقد سبق لي الانخراط في مثل هذه المحادثة، ولا يبدو أن هناك الكثير مما يمكن قوله بعد هذا.

لم يكن ويل تشابمان ما تخيلته عن الصورة النمطية لشخص يمثل عالم وول ستريت. كان بمقدوره الخوض في غمار أي موضوع بكثير من الفطنة والمعرفة. فقد كان ملماً بالفنون والآثار والأدب. كان قارئاً، وهو شيء نادر في هذه الأيام. كان مطّلعاً على مداخل تاريخ الرواية ومخارجها؛ حتى إنه قرأ روايتيْ كلاريسا وباميلا، وكان بإمكانه أن يمخر في عباب هاتين الروايتين من دون أن يكون قد تلقى أي تعليم جامعي في هذا المجال. كان لديه حلم كبير؛ وبجانبه، كانت إيما تساعده في تحقيق هذه الرغبة وهذا الحلم. كان يرغب في أن تمتطي ابنتاه الجِمال في صحراء راجاستاني، وقد قام بتعليمهما كيفية جباية الضرائب، كما أرشدهما إلى كيفية تذوق جمال المنمنمات المغولية ودقتها، إضافة إلى أنه قام بتشجيعهما على رسم نسخ عنها، وعرّفهما على عالم الموسيقى؛ ولم يكتفِ بذلك، فقد طلب إليهما تعلم اللغة الصينية في المدرسة الخاصة التي سجلهما فيها لأنه رأى أن الصين ستكون مركز العالم في المستقبل، وبالتالي فهو لن يقبل بأقل من أن يهيئهما من أجل هذه النقلة في عالم الإمبراطوريات باتجاه الشرق. (بدوري، بدأت أشعر بالقلق على مستقبل نيويورك تحديداً، وعلى مصير أبنائنا البائسين الذين لن يكون

بمقدورهم التحدث باللغة الصينية.) كان عازفاً ماهراً على البيانو. كانت الحياة بالنسبة إليه روايةً لا بد أن تُعاشَ بأدق تفصيلاتها، وبكل ما تحويه من قصص ومغامرات.

كان ثيودور يقول في نبرة يشوبها بعض الحسد: «إنه ينتمي إلى عصر النهضة». وكان والد ثيودور ابناً لمهاجر من أصل سويدي عمل في مزارعَ كانت تعتبر سلة الخبز الأمريكية. عمل والد ثيودور بائعاً لمواد الدهان الصناعية، وتنقّل مع عائلته عشرات المرات في طول أمريكا وعرضها طمعاً في الحصول على فرص وظيفية أفضل إلى أن حط به المقام في أحد معسكرات المقطورات الأنيقة في تاكسون مع حماتي جينا، حيث توفيا بعد ذلك بفترة وجيزة وكانا في الستينات من العمر. أما مواهب ثيودور فقد تفتّحت بفعل إرادته وتصميمه وتعلمه الذاتي. كانت مسألة الامتيازات دائماً محط شكوك بالنسبة إليه لأن المظاهر الخادعة والمصداقية لها البريق نفسه.

تساءلنا بين بعضنا بعضاً: «هل هناك ما لا يستطيع هذا الرجل فعله؟» بدأنا نطلق عليه فيما بيننا لقب «الإنسان الكامل». أسميناه «الإنسان الكامل» لأنه كان كاملاً: فقد أحبَّ وول ستريت إلى درجة المغالاة، لكنه لم يقبل أن يكون أسيراً له. وعندما كان ينظر في كرته البلورية التي تختزن مستقبله، كان يرى أنه سوف يصبح يوماً ما، روائياً أكثر من أي شيء آخر. هذا لا يعني أن هذا «الإنسان الكامل» هو أقل كمالاً الآن. كلا، إنه فقاعةُ من الكمال تشق طريقها عندما يحين الوقت المناسب لكنه بطريقة أو بأخرى استطاع أن يكتشف مبدأ التكافؤ الصحيح، ومبدأيْ القوة والقدرة، كما في حال العنصر الكيميائي، فقد اكتشف القوة المدمجة الصحيحة التي تربطه

بالحياة وتربط الحياة به بواسطة الحياة ومن خلال الحياة باتزان ورباطة جأش. كان يفيق باكراً، ويخلد إلى النوم متأخراً، مستثمراً الوقت في الكتابة. كانت تعجبني إرادته، ولكنني لم أكن أؤمن بقدرته بالرغم من أنني لم أبح له يوماً بذلك. كنت بدلاً من ذلك أقوم بتشجيعه كما كنت أفعل مع الكتّاب المبتدئين الذين قابلتهم على مر السنين ممن يرغبون في السير على خطى المشهورين. لم أسعَ يوماً لكي أكون ناطقة باسم الحقيقة: «امنحي الحياة فرصة أيتها الحمقاء، فإنك لن تستطيعي أبداً الحصول على كامل مبتغاك.» ولو قبضتُ دولاراً واحداً مقابل كل شخص أراد أن يكون كاتباً، لأمكنني ذلك شراء منزل في ولاية مين.

بالمناسبة، كان المنزل في مقاطعة بوند بوينت جزءاً من مخططهما: فقد كانا ينويان قضاء الصيف فيه كي يتفرغ ويل للكتابة في غرفة الأدوات الموجودة في القبو الرطب المظلم محاطاً بالمفكات والبراغي والمسامير والمطارق والمنشارات وجدائل الحبال في ورشة عمل السيد هوف اللافتة للنظر (كان السيد هوف هو من قام بترميم المنزل بنفسه من أوله إلى آخره)، والتي تعتبر رواية أمريكية عظيمة. وبينما كان زملاؤه في وول ستريت مشغولين في بناء قصور لهم تحاكي روعة قصر فرساي كمعابد لتخليد ذواتهم، وهو عمل يمكن لأي أحمق يملك الكثير من المال أن يفعله، فقد أراد ويل تشابمان أن يخطو إلى ما هو أبعد من مجرد جمع المال، وامتلاك الخبرة الكاملة للقيام بذلك: لقد أراد أن يصنع الفن نفسه. أراد أن يصبح كاتباً روائياً. أراد أن يكون ما كنتُه أنا. أراد أن تكون لديه الجرأة والثقة وإظهار ما يكفي من الشجاعة، وكل ما يتطلبه الأمر

من جرعة (الأنا) عنده كي ينحّي وول ستريت جانباً ويبدأ الكتابة. أراد أن يجعل من أقرانه من أقطاب المال الذين يسرحون في نشوتهم ويتمددون في نفوذهم المالي عبر العالم يظهرون على حقيقتهم باعتبارهم مجرد قوطيين غربيين بذيئي اللسان. أراد أن يكون فريداً في شخصه حتى النخاع. وهكذا فقد أحبني جداً (وكذلك إيما) لأنني كنت أقوم بما أراد أن يقوم به أكثر من أي شيء آخر. كان بإمكانهما من خلال تمحيصهما لتجربتي الولوج إلى الحياة التي رغبا في تبنّيها وتجريبها، كما يقال؛ كان بإمكانهما القيام عن كثب بتقدير التضحيات والترتيبات التي لا بد لهما من القيام بها.

أما أنا، التي كنت أنظر إلى هذا العالم من الخارج، فقد كان لي وضعٌ اعتباريٌّ لا بأس به أيضاً. أنا، إنديا بالمر، التي تبلغ من العمر ثمان وثلاثين سنة، وذات رصيد يبلغ أربع روايات والخامسة في طريقها إلى النشر وعنوانها: «جيل النار»، ولديها ابنتان تتعلمان في مدرسة خاصة، وتعيش في شقة فاخرة في الجانب الغربي من المدينة بالرغم من أنها مستأجرة ولكن بأجرة مستقرة، والحائزة على الجائزة العالمية للكتاب والعضو في زمالة مونوغرام، والمرشحة لنيل جائزة واشنطن في مجال الرواية (كانت الجائزة الوحيدة التي لم أحز عليها هي جائزة آيزمان، وهي أرقى الجوائز الأدبية الأمريكية والتي دائماً ما أملْتُ في نيلها)، كنت محط إعجاب ويل تشابمان وتحت منظاره. أراد أن يكونني. ولكن ماذا عني؟ كيف يمكن لي أن لا أنجذب إليه وإلى زوجته وابنتيه؟

ولكن ما لم يعرفه هو أو إيما، كانت البقية الباقية: كانت التفصيلات

المتعلقةَ بحياتنا والتي أبقيتها بعيدة عن أنظارهما بكل ما أوتيت من قوة لأنني لم أكن أتحمل فكرة أن أدعهما يكتشفان كمّ الفوضى العارمة التي نتخبط فيها. فهما لم يكونا يعرفان على سبيل المثال أن أياً من رواياتي لم يُبَعْ منها أكثر من خمسة آلاف نسخة وأن الجوائز التي حصلت عليها كانت منذ فترة طويلة. (يذكرني هذا بما كان أحد الأساتذة في الجامعة يقوله لنا عندما يسأل أي طالب بإلحاح عن أفضل الطرق للحصول على درجة امتياز في الامتحان: «سوف أهب أياً منكم خمساً وعشرين سنتاً إضافة إلى قطعة من شوكولا هيرشي باللوز.» أتذكر الآن هذه الحكمة الرائعة كلما فكرت في نيل أية جائزة.) لم يعرفا أن طموحاتي أصبحت أكثر تواضعاً؛ وأن انتقالي من ناشر إلى آخر لكل واحدة من رواياتي الأربع ليست مؤشراً إيجابياً، وأن هذه الروايات نفدت بسرعة من الأسواق.

عندما استفسرت من وكيلي عن الكُتّاب الأخرين الذين ينشر لهم أعمالهم حول ما إذا كان قد طواهم عالم النسيان، أجاب: «إنه أمر شائع.» كان هذا الوكيل شاباً ومندفعاً ولمّاحاً؛ وكنت كلما التقيت به شعرت أنه ازداداً شباباً وبدا أقل من عمره الحقيقي. كان في الأربعين من عمره وينحو باتجاه العشرين؛ كان ذا ابتسامة عريضة تتوضع على جانب شفتيه وتكشف عن عيب خَلْقي في أسنانه زادت بطريقة ما، من جاذبيته. كان يتحدث ببطء وهدوء عن عمد، وكان مقصده في منتهى الوضوح. كان يُعرَف باسم الثعلب، وكان فخوراً بهذا اللقب؛ كان هذا اللقب مقتصراً في البداية على ماكسويل بيركينز، وقد استحق وكيلي هذا اللقب بسبب اهتمامه في الجانب التحريري. كان يعمل ليل نهار على المخطوط الذي يشرف على تحريره من أجل أن يظهر

بأبهى حلة. وكما الثعلب، كان حييًا وعنيداً ومصمماً على أن يصبح أفضل محرر في نيويورك. لم يكن يهمه الكم الذي عليه أن يبذله في سبيل تحقيق هذه الغاية: فقد كان مستعداً لاقتناص فرص الآخرين، والقيام بأي عمل متهور فيه الكثير من الإثارة كي يكون في دائرة الأضواء الإعلامية. كان أي كاتب يرغب بشدة أن يكون في صفه لأن مجرد وجوده على الساحة يضاعف أعداد النسخ المباعة، ويضيف إلى رصيد هؤلاء الكُتّاب. كانوا دائماً ما يتحدثون عن زيادة أعداد النسخ المباعة من كل أول رواية لأي كاتب يتولى رعاية شؤونه. لم يخجل من البوح بمكنونات نواياه وطموحاته التي كان يسعى إلى تحقيقها بطريقة تثير الإعجاب. قال ضارباً لي مثالاً عن كاتب آخر ممن نفدت نسخ رواياتهم من السوق: «إننا نواجه هذه المشكلة مع تشارلز هاميلتون كوننا نحاول استرداد حقوق النشر لصالحه.» كان صوته يصدح بثقة الشباب والاطمئنان إلى أن الوقت يعمل لصالحه. لقد أحببت رواية هاميلتون، وسألته: « ولكن ألم يمت هاميلتون؟» أجاب الثعلب وهو يرمقني بنظراته: «بالطبع، لقد مات.» لكن هذا الأمر كان مجرد تفصيل صغير بالنسبة للثعلب، ولا يجوز أن يشكل عائقاً أمام ما يبغي الوصول إليه. وأكّد على ذلك قائلاً، وهو يغمز بعينه: «في حقيقة الأمر، يمكن أن يكون لموت المرء وقع إيجابي قد يعمل لصالحه.»

كان المنحى الذي اتخذته لا يبشر بالخير، وبالكاد يسد الرمق. والسبب في ذلك هو الخشية من أنه إذا كانت مبيعات رواية «جيل النار» كسابقاتها من رواياتي، فلن يكون بمقدوري في أغلب الظن بيع رواية سادسة (هذا ما كنت أخشاه، على أية حال) وستتوقف حياتي في واقع الأمر ككاتبة روائية؛ وسوف

ألج إلى عالم الغسق الفني، حيث سأدخل إلى عالم ما بعد سوق الكتابة: أي أنني سأنضم إلى سلك التدريس في الجامعة بصفة غير متفرغة، ما يعني أن وظيفتي لن تكون دائمة أو مضمونة. إن مثل هذه الضمانة تعتمد في أقل تقدير، على دفقٍ من التقريظ النقدي الإيجابي للرواية بعد نشرها مباشرة من أجل لفت الانتباه إليّ، وبالتالي للجامعة. لا، لم يكن آل تشابمان يعرفون شيئاً عن هذا السر الذي هو أساس القنوط في حياتنا، وقوده الأمل الذي لا يمكن تميزه إلا بالكاد عن أولئك المتفائلين الذين يقفون في طوابير طويلة بانتظار أن تفتح أبواب محلات القرطاسية كي يبتاعوا منها بطاقات اليانصيب الحكومية. لقد بذلنا الكثير من الجهد؛ إذ أنه لم تكن أمامنا بدائل أخرى. كان على رياح الحظ أن تهبَّ باتجاهنا؛ وكانت حياتنا تعتمد على جملة من الركائز الهشة التي أتت مصادر الدعم إليها من الأموال التي حصلنا عليها منذ مدة طويلة عن طريق قروض كانت تعتبر كبيرة وطويلة الأجل، لكنها الآن لا تساوي إلا بالكاد شيئاً، ومن العمولات غير المنتظمة التي كان ثيودور يقبضها، ومن راتبي والديون المدوّرة التي كنا نقترضها من بطاقات الائتمان، إضافة إلى الأمل الذي لم نتخلَّ عنه.

لم يجنِ ثيودور من الفن إلا قليلاً، فقد اقتصر إنتاجه الفني على بعض القطع والمصوغات الذهبية والتماثيل الصغيرة، وكانت عبارة عن سلسلة منمنمات بدأ بتصنيعها على شكل دعابة دكناء لكنه اكتشف فجأة بدلاً من ذلك أنها تحولت إلى ماركة انتشرت واشتهرت بسرعة، وبدأت تتخذ لها بعض الحيّز في السوق. أظهرت قلة من الناس اهتماماً بها، وبدأ هؤلاء بالتوافد على الاستديو الخاص بثيودور لتفحص هذه التماثيل الصغيرة، إضافة إلى

أشخاص مهمتهم إجراء صفقات على الهاتف في المزادات العلنية لصالح مشترين غير معروفين، ومتنفّذين روس، وصناعيين هنود، وآخرين، الله وحده يعلم من هم. كان هناك أيضاً أشخاص غرباء لا هوية محددة لهم، وآخرون يتحدثون الإنجليزية بلكنة شعوب ما وراء الأطلسي زاروا الاستديو لمجرد «إلقاء نظرة». لم تكن هناك أرباح معتَبَرَةٌ بعد، لكن الأمل كان موجوداً.

تكمن المشكلة في أن المنمنمات كانت باهظة التكاليف وكان من المُحال على الإنسان العادي اقتناؤها، لكن هذا لم يكن يشكل مصدر إزعاج لثيودور. لم يكن من النوع الذي قد يسيطر عليه القلق. بدأت الطلبات الفعلية ترد تباعاً حيث قام بتصنيع كأس قربان مقدس لأحد الأساقفة (هذا الأسقف كان من بين المتورطين في واحدة من الفضائح الجنسية التي اجتاحت الكنيسة). قام أيضاً بتصنيع قصعة طعام لطفل الليدي إميليا ستارت، ابنة السير ستيوارت ستارت، ووريثة واحد من مليارديرات لندن السيئي السمعة. كانت تلك القصعة هدية من ابنة عم أم الملكة. لكن هذه الطلبات، على وفرة مردودها، لم تسلط ما يكفي من الضوء على فن ثيودور كي يحوّل هذا الفن إلى عمل ذي مردود مادي منتظم. لم يكن ذلك مصدر قلق لثيودور الذي لم تراوده مطلقاً فكرة التخلي عن مشروعه هذا (بعكسي تماماً). فهو لم يكن على عجلة من أمره أبداً. كان يعمل بصبر وتؤدة لتجويف قعر القصعة، وعلى تلميع الذهب كي يكون جاهزاً لتلقّي الضوء. كان يعمل من دون كلل أو ملل من أجل وضع أدق اللمسات على تجويف الثقوب الدقيقة لقبضة القصعة وكان يتفحصها تحت الضوء الطبيعي والضوء الاصطناعي من أجل التأكد من أن حركة الضوء واحدة في الحالين. وحتى عندما كان يتلقى

الطلبات، لم يكن ذلك ليحدث فرقاً كبيراً بالنسبة إلينا في مثل هذه الحياة التي تحدث فيها التغيرات بتواتر سريع لأن كل قطعة قام بتصنيعها، احتاجت وقتاً طويلاً لإنجازها. لم يكن يقبل أن يطلب معونة من أحد من الحِرَفيين على سبيل المثال. لم يكن يرغب في تدوير الزوايا لأن الإبداع الفني بالنسبة إليه كان إلهاماً له قداسته الخاصة به، كان أشبه ما يكون بالتوحد مع عالم يكتنفه الغموض. لم يكن ليعبر عن هذا الموضوع بهذه الطريقة بالضبط بالرغم من أنه كان يعي تماماً الجانب الروحي من المسألة: إنها الخوض الذي لا مندوحة منه في غمار تجربة حياة لا مفرٌّ منها في اللحظة الحاضرة التي ليست لها نهاية ولا بداية؛ بل هي لحظة تأمل وتواصل مع من قضوا ورحلوا، مع بيكاسو وتشيلليني؛ إنها مسألة تحطيم للساعة والزمن. في تلكم اللحظة، حدث ما يشبه عملية الخلق، فقد ظهر شيء من لا شيء: فمن رحم قطعة حديد لا شكل أو هوية لها، انبثقت الآن قصعة لابنة ملياردير، تماماً مثل ديفي كروكيت الذي يستفيق صباحاً كي يلج إلى الشمس.

كيف تحوّل هذا اللا شيء إلى شيء، وكيف أصبح المجهول معلوماً أو النكرة مُعَرّفة؟ عندما التقيت ثيودور كان يقتات على النودل المسلوق بماء الصنبور. أردت إنقاذه مما هو فيه. كان يقتات أيضاً على مَرَق الأعشاب البحرية الكورية والقريدس الضخم الحجم الرخيص الثمن الذي كان يبتاعه من باعة السمك في الحي الصيني. استحوذ عليّ ذلك الشعور بالتحدي: كنت أتوق إلى الأناقة القليلة الكلفة بحيث نقوم بتخزين الزمن تماماً كما يخزّن البعض المال. كان الزمن هو العملة التي تكونت منها ثروتنا؛ ولكن بغض النظر عن مستوى ذكائنا، فقد كان الزمن يمضي وي

لم يعرف آل تشابمان أي شيء مما ذكرته: أي أنه ليس بمقدوري التعاقد مع جليسة أطفال منذ ثماني سنوات، ولا دفع أقساط المدرسة الخاصة، أو دفع تكاليف الأطباء في العيادات الخاصة (كانت ابنتي الكبرى تعاني من مرض الربو، كما أنه لم يكن لدينا تأمين صحي لتغطية نفقات علاج أسناننا)، أو عن وضع استوديو ثيودور، أو مكتبي، أو حفلات العشاء التي كنت أود أن أقيمها، أو تكاليف ابنتيَّ لتغطية نفقات دروس البيانو والتزلج على الجليد والسباحة والتنس وكرة القدم ولعبة اللاكروس: («ماما، هل يمكنني التسجيل في رياضة الجمباز أيضاً؟») لم يكن بإمكاني تغطية المتطلبات الباهظة التي تنفقها الأمهات الأخريات اللواتي يُحرجْنَكَ في نزواتهن لأنهن يفترضن أنك تملك من المال مقدار ما يملكْنَه لدفع تكاليف دروس اليوغا الخاصة للأولاد في قاعات الجمباز الخاصة التي يتدربون فيها. كنت أعلم أن ابنتيّ ليستا بحاجة إلى أيٍّ مما تقدم، ولكن كيف لي أن أخبرهما أننا غير قادرين على تحمل مثل هذه النفقات؟ هل حدث ذلك بسبب أنني فشلت؟ فشلت لأنني عرّفتهما على نوع من الحياة لا أنتمي إليه بالأساس، وأنّ تلك كانت مجرد كذبة كبيرة؟

تكمن مشكلة الفنان الذي يعاشر المليونيرات في أنه ينسى بعد فترة وجيزة أنه لا يمكن له أن يحاكي نمط حياتهم. فلم يكن آل تشابمان على دراية بالكارثة التي تلوح أمامي؛ فإذا لم يحدث تغيير جوهري وسريع في ظروفنا المالية، فسوف يتم طرد ابنتينا من المدرسة النموذجية وسنضطر حينها إلى تسجيلهما في المدرسة الحكومية الرهيبة في المجمع الذي نقطن فيه (لهذه الكلمة بحد ذاتها وقع يُذكّر بالإصلاحيات الرهيبة في روايات ديكنز.)، وهي المدرسة

التي كنت أمر بها يومياً في طريقي إلى مكتبي وكانت تذكرني بالسجن؛ إنها المدرسة التي تعيد إلى الذاكرة قصص الرعب التي كانت تحدث في مدارس نيويورك الحكومية وتتعلق بالمخدرات والأسلحة والجنس الذي يُمارَس في بيت السّلّم إضافة إلى الازدحام الشديد. لكن الراهبات المشرفات على المدرسة الخاصة أعلنَّ في حديقة المدرسة بتأكيد يشبه الطمأنة حول ما آلت إليه الأمور في المدارس الحكومية، أنه بالرغم من كل ما تقدم: «إلا أن الأمور هناك آخذة في التحسن.» كما تبنّت تلك الراهبات أفكاراً أخرى ليبرالية ومنفتحة. فقد قمن بالتصويت لصالح الديمقراطيين ووقفن ضد فكرة القسائم التي توزع في المدارس الحكومية، ولكنهن في معظم القضايا الأخرى، كنّ حريصات على إبراز نوع من التمايز والتميز الجذاب والذكي والساخر الذي يؤكد على استثنائيتهن التي ربما كانت تعتبر شرطاً من شروط وجودهن في جزيرة من الاستثناءات وجزءاً من بنود فرعية تثير الازدراء في العقود التي وقّعن عليها ضمن قائمة الممنوعات المعمول بها على ذلك الجزء من الساحل المطل على وسط الأطلسي.

أهم ما لم يعرفه آل تشابمان هو أنه إذا لم تتغير حياتنا بشكل كبير وفي أقرب الآجال، فسأجدني مضطرة إلى التخلي عن مهنتي، وعن الاعتقاد بأنني حققت حلمي أو أن بإمكاني تحقيقه، وعن الحياة الفنية التي يحيطها الآخرون الذين لم ينخرطوا فيها حقيقةً، بهالة من القدسية. إذا جاز لي اقتباس تعبيرات أو مصطلحات من عالم وول ستريت، يمكنني القول إنني اخترت لنفسي ولثيودور طريق المخاطرة؛ لقد قامرنا بحياتنا باستثمارنا أقصى ما نستطيع من ذواتنا، لكن هذا الاستثمار لم يحقق أية منفعة. لم نحسب

حساباً لحماية أنفسنا في حال الخسارة. كنا نقود بسرعة مائة ميل في الساعة في سيارة أحلامنا لكننا كنا نتجه صوب حائط مسدود.

ومع ذلك، كنت ما أزال متشبثة بالأمل محاولة النفخ في رماد آمالنا وتوسيع حدود دائرة الواقع بما يشبه الجنون. كنت محكومة بالأمل. كانت رواية «جيل النار» عملاً كبيراً قياساً على الحجم الصغير لدار النشر التي أتعامل معها. أما دار بوك ليدر[1] للنشر الجديدة والصاعدة فقد نشرت لي خمس روايات على قائمة أفضل المبيعات في السنوات الثلاث الماضية. أطلقوا على روايتي وصف «فتح جديد في عالم الرواية»؛ كما اشتروا حقوق نشرها في وقتٍ لم يبدُ أن أحداً كان راغباً في شراء تلك الحقوق. كما عبرت شركات ستريملاند برود كشنز وبكتشورز أتوميك وبروذرز بوس بو[2] وهي أسماء من الشهرة بمكان بحيث تشبه الألماس الذي يشع تحت الأضواء في عالم الإنتاج في هوليوود، عن رغبة في الحصول على الحقوق الدرامية للرواية. وكانت طلبات المبيعات في الأسواق الخارجية مبشّرة وتدعو إلى التفاؤل. أما الناشر فقد كان يرنو إلى صدور مراجعة نقدية للرواية في المجلة الأدبية : «ليتراري ريفيو»[3].

كان لكل ذلك وقع هائل؛ فقد شعرت بالنشوة، وكان رئيس التحرير ورئيس قسم الإعلان يتصلان بي بانتظام، كي يبقيا على معرفة بأماكن تواجدي طيلة الوقت، ويتأكدا أنني في متناول اليد تحسباً لاحتمال القيام

Book Leader Inc- 1
Brothers Boss , Streamline Prodction - 2
Literary Review - 3

بجولات تعريفية بالرواية أو إجراء مقابلات مع مجلات تجري تحقيقاً عني وعن الرواية. وصل بهما الأمر إلى التفكير في إقامة حفلٍ للترويج للرواية، وهو ما يعتبر صفقة كبيرة هذه الأيام أشبه ما يكون بتصويت على الثقة. لا بد أن يتم ذلك هذه المرة. لا مفر من ذلك. كان هذا يعني النجاح؛ والنجاح بالطبع، يعني المال. قال لي ثيودور: «أقلعي عن كل هذه الأفكار؛ فقط اكتبي.» الآن، أقصى ما آمل حدوثه هو أن تكون آراء النقاد رائعة، وأن تتوالى تباعاً وفي الوقت المناسب؛ وأن تحلّق الرواية في الفضاء على أجنحة هذه الآراء. إن عبارة «ليْتَ» هي المفتاح الذي سيفتح آفاقاً للرواية لا نهاية لها من حيث إقبال القراء المراوغين على اقتنائها. كانت كل ذرة في كياني تتوق إلى تحقيق هذا الأمل الكبير.

ولكن بعد ذلك سَتَرِدُ الفواتير تباعاً: أقساط المدرسة والضمان على الحياة وبطاقة أمريكان إكسبرس مرفقة بقوائم نفقات العلاج للأطباء في العيادات الخاصة (كنت أرفض أن أصدق أنه يمكن لي القبول بأقل من أفضل ما يمكن من الرعاية الطبية)، ومتاجر الأغذية المتخصصة في الأطعمة التي يختبر الخبراء موادها ومذاقها، إضافة لنفقات الدروس التي تتلقاها ابنتاي، وهي دروس لا تنتهي. كنت قبل أن أخلد إلى النوم في وقت متأخر من كل ليلة، أدقق على ضوء جهاز الكومبيوتر الأزرق، في حسابي في البنك الذي يتآكل شيئاً فشيئاً، آملة في ارتفاع قيمة الأسهم أو وجود خطأ بنكي ما، يصب في صالحي. كنت أريد، وأريد، ثم أريد المزيد. كنت أحتاج. كنت مسكونة بالرغبة في امتلاك قطعة من أمريكا، وطننا؛ كانت هذه الرغبة نبيلة: الرغبة في تلقّي تعليم جيد، أو المقدرة على دفع الفواتير من دون أن تتلقّى منها طعنة في

القلب. مطلوب منا أن نضحي، ولكن من أجل ماذا؟ أمن أجل الفن؟ كنت أختبئ خلف ابتسامتي الواثقة. كنت أعقص شعري إلى الخلف بتسريحة ذيل الحصان، وأرتدي سروال الجينز وقميصاً من ماركة أنجي بي، وأتوجه إلى المدرسة مع ابنتيّ اللتين كانتا تحيطان بي من الجانبين وكنت أمسك بذراع كل واحدة منهما؛ كنت أسير كأي أم ليس لها سوى اليسير من الاهتمامات؛ كانت مشية توحي بالسلاسة والنجاح. أنا امرأة طويلة القامة ولا أسير بتثاقل أو بما يوحي بالترهل. «سوف نمضي جزءاً من عطلة الصيف في أوروبا لأن روايتي التالية ستدور أحداثها فيها.» هذا ما كنت أقوله لأمٍّ أخرى كل ما يعنيها كان هضم قطعة من أمريكا تبلغ قيمتها 5 ملايين دولار أمريكي، ومن ثم، العمل على تجديدها؛ وهي عبارة عن منزل في منطقة مانهاتن. كانت تلك الأم قد سألتني عن خططنا في الصيف. تندلق الكلمات من فمي بسهولة ويسر؛ لم أكن أقصد أن أكذب بطبيعة الحال، لكنني ربما كنت أتفوه بما أتمنى أن أفعله. أيٌّ من هاتين هي الأكثر مصداقية؟ كانت جدتي تقول: «إذا لم يعجبني ما يحدث، فإنني أعبر عنه كما كان يجب أن يحدث.»

يجب على الكاتب أن يكون مترفّعاً عن كل ذلك. فهو يملك الدافع والفطرة الأزلية التي لا يمكن كبح جماحها كي يصفَّ الكلمات الواحدة تلو الأخرى من أجل أن يبني منازل حقيقية، ومدناً حقيقية وعوالم حقيقية يعيش فيها أناس حقيقيون في حدائق خيالية. الكاتب يكتب بحكم الضرورة؛ وأجرؤ على القول إنه يكتب لأنه محكوم روحياً بتلك الضرورة، وليس بحكم الحاجة إلى الكسب المادي. الكاتب لا يهمه الكسب المادي. الكاتب يكتب، ولأن الكاتب يكتب، فإنه على ما يبدو، يذهب بعيداً، وتبدو

أمامه قائمة الماضي طويلة؛ كل محتويات تلك القائمة معروضة علناً كما كنت أنا وثيودور نفعل في كل عطلة صيف ننتقل فيها من منزل إلى آخر مثل العلماء السوفييت المحظور عليهم الهجرة حيث كنا نعسكر في منازل صديقات ابنتينا وننام في أسرّتهن. كان ثيودور الذي كان يهوى التلاعب بالكلمات يطلق على ذلك تسمية «الأنثربولوجيا الاجتماعية». هذا كل ما يتخلى عنه المرء من أجل الفن؛ لكن الفنان لا يأبه لذلك.

لم يكن ويل أو إيما على دراية بأيٍّ مما ذكرته عن الثِّقَل والضغط البطيء والمتزايد الذي نعانيه، أو عن قوة هذا الضغط المحطِّمة والمُهينة لنا. لا، لا لم يكونا على علم بأيٍّ من ذلك، ولا يجوز مطلقاً أن يعرفا أي شيء عنه. سوف لن يرياني مطلقاً على خط التوتر العالي. كانت حياتي جميلة! فقد حققت نجاحاً أدبياً منقطع النظير؛ كانت شهرتي محط أنظار الجميع كما كان يقول السيد هوف. كنت في قمة نجاحي أو قمة لعبتي، سمّوها ما شئتم؛ أما ويل تشابمان، ذلك الأحمق الطيب، فقد كان يريد أن يكوُنَني. وعليه، فقد قلت لإيما ونحن نقف داخل ذلك المنزل المتداعي الذي سوف يكمل حلمهما عصر ذلك اليوم الذي وصلنا فيه إلى ولاية مين، حينما كان الضوء يتدفق من بين ثنايا التشققات في زجاج النوافذ مشكلاً ألوان قوس قزح تغمر وجوهنا: «سوف نساعدكِ نحن أيضاً في قتلهم جميعاً.»

قال ويل رافعاً حاجبيه: «حبكة القصة تزداد تعقيداً.»

عقّب ثيودور قائلاً: «إنديا ماهرة في مثل هذا الفعل،» رمق بعدها كلاً من إيما وويل بتلك النظرة، بتلك النظرة العارفة؛ تلك النظرة التي تقول إنه يعرف زوجته عن كثب ويحفظ عنها كل شيء عن ظهر قلب، وإنه يعرف جيداً

ما الذي تقدر أن تفعله؛ بتلك النظرة، أدخلهما إلى دائرة معرفته اللصيقة بي. لم أكن متأكدة من أنني فهمت ما كان يرمي إليه من وراء ذلك، وأنا متأكدة أيضاً بأنهما، مثلي، لم يفهما مراميه أيضاً؛ لكننا وعلى الرغم من ذلك، ابتسمنا جميعاً. لقد وقعت في شَرَك أحلامهم، زاعمةً أنني فهمت ما كانوا يرمون إليه، وأنني كنت أريد ذلك أيضاً على ما أظن؛ لأنه كما تراءى لي من خلال الأسئلة الملحاحة التي كان قلبي يطرحها عليّ أن آل تشابان كانوا، ضمن هذا المنزل، ومن خلال تعلقهم فيه والإعجاب به، يتوقون إلى سماع جواب مني حول الموضوع.

الفصل الثاني

بدأت حياتي في يوم صافٍ من أيام شهر أيار، مايو، في وقت كانت تتفتح براعم ورود اللّيْلك، وكان عبقها يملأ جو الغرفة في المستشفى، وكانت باقة منها موضوعةً فوق الطاولة الصغيرة بجانب السرير. كنت أنتحب وأنا بين يديْ والدتي المنهكة والسعيدة في آن؛ كنت أنا، وليدتها الرائعة. كان كل شيء فيّ يوحي بالطول. كانت مفتونة بقدميّ وبكل إصبع فيهما؛ وكذلك بفمي الذي يشبه برعم الزهرة، وأهداب عينيّ السوداء الطويلة، وعينيّ الزرقاوين اللتين تتقدان ذكاء؛ وأخبرتني فيما بعد أنها كانت على شفا الخوف من شدّته. كانت سعيدة بإخباري بكل تلك الأحاسيس التي انتابتها عندما تمعن النظر بتلك القوة الآسرة التي تتمتع بها عيناي اللتان أضحتا أشبه بالأسطورة حتى بالنسبة إليّ. كان الإحساس بالمسؤولية هو ما أدخل إلى قلبها الرعب والإحساس بالروعة، والذي بلغ ذروته في عينيّ.

تغويني البدايات. أتوق إلى البدايات. آهٍ، كم أرنو إلى أن أبدأ من جديد. كتاب جديد. يوم جديد، فستان جديد ألج إليه كي أتحول إلى إنسانة جديدة قبل أن يصبح مآل الأشياء الفوضى، وقبل أن أقع في فخ المحتوم.

كنت أنا «المحتوم» بالنسبة إلى والدي الذي جلس في كرسي في إحدى زوايا غرفة والدتي في المستشفى، وكان إلى حد ما، مشدوهاً بحطام ما بعد الولادة: عينا والدتي السوداوان، ووجنتاها الغائرتان المتعبتان. ولم يكن وهو يرمقني بعينيه، أنا البنت الرضيعة التي ولدت للتو، يظن أنني جميلة. كان بدلاً من ذلك، يظن أنني أشبهه بشعر رأسي الخفيف ووجهي المستدير

وكثافة عينيّ الكبيرتين اللتين كانتا توحيان بتحدٍّ ينبئ بأنني سوف أفعل ما يحلو لي. كان يعرف هذا النوع من التحدي؛ كان يعيش هذا التحدي الذي دائماً ما كان يصبُّ في مصلحته.

كنت تلك الفتاة الهشة والناعمة التي تشبه الرجال، كانت تشبه أباها؛ لقد نضجتُ وأصبحت امرأة عجز أبي الذي كان يراقبني وأنا أكبر بين ذراعيْ والدتي، عن حمايتي. كنت أستكين في لفافة وكانت أمي تضمني إلى صدرها مدفوعة بالفطرة والرغبة. وكان من الأسهل عليه أن ينظر بتمعن في الفواتير الواردة عبر نظارتيه السميكتين المصنوعتين من القرن المحفوف: كانت فواتيرَ تتضمن نفقات الأطباء والملابس والطعام والتعليم والركوب في سكة الحديد في الملاهي بانتظاره. كان يعرف كيف يدفع الفواتير. أما أنا! فقد كنت صغيرة جداً وكنت أشبه بمادة من المطاط، فكيف سيتصرف معي؟

كان الرعب يسكنه: كنت مسؤوليته. استحوذ الهلع عليه فانقبض صدره. كان يعاني سلفاً من الدوار، حتى أنه لم يغادر الرصيف. كان عمره آنذاك ستاً وثلاثين سنة، وكان أخصائياً ناجحاً في أمراض المجاري البولية في واشنطن العاصمة؛ «كان موثوقاً جداً من قبل مرضاه الذين يعانون من مشكلات وأمراض بولية من أعضاء في مجلسيْ الشيوخ والنواب»، وكان متعاقداً مع المستشفى الحكومي في واشنطن ذي السمعة الطبية المتميزة. في مدينة مثل واشنطن، يُعتبَر القربُ فيها من مركز القرار معياراً للنجاح، كان يطيب له القول إن إصبعه في أسفل الكونغرس. كان مالكاً لمنزله، وكان ناجحاً في عالم الاستثمار وقد رُزِق بابنة، وبعد بضع سنين، سوف يرزق بابن (يعيش حالياً في لندن مع زوجته التي يحبها حباً جماً)؛ لم تكن والدتي

مضطرة للعمل أبداً. قادته إرادته وتصميمه لأن يخلق هذا الجو: جو الراحة لأسرته؛ وهو جو سترفضه ابنته وتزدريه وتتحدّاه. لقد ترعرعتُ أمام ناظريه وتحولتُ من طفلة غامضة حديثة الولادة متجذرةٍ في صدر أمها، إلى فتاة ساحرة الجمال زرقاء العينين، لا تعير أذناً لأحد. كيف له أن ينقذني إذا لم أكن مستعدة للإصغاء إلى أحد؟

حقيقةُ أنني كنت أرفض أن أصغي إلى أحد، أثارت سخطه. قلت له وأنا أقف في غرفة المعيشة في منزلنا، بشعري الطويل المتدلّي على شكل جدائل ناعمة فوق وجهي أنني سوف أنتسب إلى كلية الدراسات العليا، وأنني سوف أصبح كاتبة، وأنني لست بحاجة إلى موافقته. عندما كنت طفلة رضيعة، كان بإمكانه حملي بيد واحدة، ولكنه حتى في ذلك الحين، كان يشعر بالعجز. كان يود أن يكون بإمكانه تفسير ذلك لي: أي الشعور بالعجز والخوف، وكم هي هشة أجسام الأطفال في تلك المرحلة، وكم هي مكلفةٌ الخيارات الاعتباطية. في المحصلة، كان الخيار في أن أصبح كاتبة، خياراً اعتباطياً؛ إلا أنه لم يعرف كيف يطرح هذه الفكرة بلطف وكياسة على طاولة المفاوضات. فالخوف لا يولّد اللطف. قالت أمي في معرض دفاعها عن خياري حينما كان أبي يرغي ويزبد بسبب هذا الخيار، كما لو كان ذلك خياراً (وكان ثيودور غالباً ما يذكّرني بذلك): «لو سنحت لي الفرصة، ووجدت من يؤمن بموهبتي، لقمت بتأليف عدد من الكتب.» وردّ أبي قائلاً: «هذا هراء، فأنت امرأة ذكية لأنك قادرة على الخيار. معظم الكُتّاب لا خير يؤمل منهم؛ وأغلبهم عاجزون كسب قرش واحد، حتى المتميزون منهم؛ وعلى الأخص المتميزون منهم.»

دافعت عني أمي مرة أخرى عندما أعلنتُ عن زواجي (أو فراري من

المنزل للزواج من دون موافقة أهلي) من ثيودور الذي لم يكن له مستقبل واعد. قال أبي: «ليست لديك أدنى فكرة في حقيقة الأمر. أنت لا تفهمين؛ فهو ليس له أي مستقبل من الناحية المادية. لا يمكن لك أن تتصوري كم سيكون ذلك صعباً عليكما.» لكن أمي قالت بلطف: «ثيودور شخص لطيف، لو كان لدي الخيار، لأصبحت فنانة. إن أباك يحبك، وهذا سبب ثورته؛ إنه يخاف عليك.» أليس الحب دائماً هو السبب: أعني الثورة والغضب؟ لو لم يكن أبي مهتماً بشأني، لكان كَبَتَ ثورته في داخله، لكن الخوف تملّكه وكان يطوّقه مثل ثعبان يلتف حول جذع شجرة لأنني كنت أرمي مستقبلي في حاوية قمامة. «لا تلجأي إلي طلباً للمال إذا عجز زوجك هذا عن إعانتك مادياً.» فأبي الذي انطلق مادياً من الصفر، كان يسكنه الرعب من أن يعود حيث بدأ، وكان يظن أنني سأودي به إلى تلك الهاوية بطريقة أو بأخرى. الفن بالنسبة إليه كان موئلاً للأشخاص غير العمليين، كان فقط للحالمين، وللأشخاص الذين ليست لديهم بدائل أفضل يقومون بها، والذين لم يعانوا من عواقب مثل هذه الخيارات.

أما زوجي ذاك:

فقد التقيت به في حفلة عشية رأس السنة في الجهة الشرقية من نيويورك. كان يجلس على طرف إحدى الأرائك في غرفة تعبق برائحة التبغ، ومليئة بأشخاص غالبيتهم الساحقة من الرجال. كان بشعر رأسه الأسود والمجعّد وشفتيه الحمراوين ونظرته الساخرة والمرحة في آنٍ، هو ما شدّني إلى الناحية التي يجلس فيها في تلك الغرفة. كان غارقاً في الحديث حول الحال الفوضوية التي وصلت إليها البلاد، والتي أدت إلى التدني السريع والشديد لكمّ

التمويل الحكومي الممنوح للفنون. كنا حينها جميعاً شباناً يافعين، نرتدي ثياباً غير مألوفة من متاجر رخيصة الثمن؛ كنا مجموعة من الفنانين والكتّاب نقف على عتبة ما كنا نأمل أن يقودنا إلى شكل من أشكال النجاح الذي سوف يحدد شكل حياتنا المستقبلية؛ كنا ندخّن ونرتشف مشروبات يتناولها البالغون عادة مثل المارتيني. وكان هناك صحن من الجبن نمرره دورياً فوق رؤوسنا وينتقل من يد إلى أخرى بواسطة راحات أيدينا. وهناك، في إحدى زوايا الغرفة، كانت شجرة عيد ميلاد مسكونية صغيرة تتثنّى على شكل خيوط من الضوء الخافت بصور مختلفة كأنها فلفل حار أحمر أو سرطانات أو بقرات.

سقطت أشعة الضوء على وجوه ثيودور والرجال الذين كان ينخرط معهم في الحديث. انعكست تلك الأشعة على وجوههم بريقاً ملوناً سرعان ما تلاشى. أطلق هؤلاء الشبان عبارات غير منطقية وساخرة؛ محاولين إجراء تجارب على عالم الفن الساخر وغير المنطقي في نيويورك كي يتبينوا فيما إذا كان مواتياً أم لا. كان الفقر والثروة عند نقطة التقاطع تلك، فكرتين مجردتين وحسب؛ كانا مجرد مادتين يقتات عليهما النقاش الدائر: لم يكونا بالتأكيد شيئاً يعيشه المرء أو يكون مسكوناً به، بصفته شرطاً، أو شيئاً يمكن له أن يحدد مسار المرء، أو ربما في حال الفقر، أو أن يحرفه. وإذا كان البعض منا يعيش كالرهبان في مبانٍ مهجورة في حيّ ألفابيت سيتي، فهذا يعني أن ذلك النمط من الحياة هو خيارنا نحن. إن مثل هذا النوع من الحياة ليس سوى خيار يأتي ضمن شبكة الأمان الخاصة بها. لم نكن أغنياء أو فقراء. كنا مجرد شبان. أطلق جو الغرفة التي كنا فيها: أعني الموسيقى والضحكات، العنان للأنا داخل هؤلاء الشبان الذين كانوا يتنافسون من أجل أن يأتوا بجديدٍ

عبر ملاحظةٍ طريفة أو اثنتين؛ كل ذلك لكي يستثيروا، مثلهم في ذلك مثل الأزهار التي تبرعم فقط أثناء الليل، جرعات إضافية من الضحك المتملق والمُداهن، أو ابتسامات سريعة وذات مغزى؛ كان ذلك جلَّ ما كانوا يأملون تحقيقه في بداية ليلة طويلة لجعل الحياة تدب في جمعهم ذاك. كانوا في حقيقة الأمر شباناً في مقتبل العمر؛ كانوا مثقفين ومطّلعين على جوانب كثيرة من عالم الفن والأدب، ولكن عدا ذلك، كانت خبرتهم العملية شبه معدومة، وكان يمكن أن يضعوا علامات استفهام حول ظواهر كغروب الشمس أو شجر الصفصاف، أو سبب طيران مجموعات طيور الإوز المتجهة جنوباً في تشكيل يشبه رقم 7، باختصار كان يمكن أن يثير فضولهم أي شيء ينطلق من مصدر أو يتجه إلى هدف. كانوا شباناً طائشين ولكن لم تكن تعوزهم الحماسة. كانوا يضحكون ويتكئون على الحائط، وعلى بعضهم بعضاً، وعلى رفوف الكتب التي ألّفتها الأجيال السابقة من الكتّاب الذين حاز بعضهم على ما يكفي من الشهرة، و بعضهم الآخر طواه عالم النسيان.

كانت الشقة المطلة على سكة الحديد مملوكة لشاعرة؛ وهي امرأة في أواخر الثلاثينات من عمرها ذات شعرٍ أسودَ طويلٍ ووجه طويل وقوام طويل، وكان معارفها ينادونها باسم مورتيشيا بالرغم من أن اسمها الحقيقي كان جين. لعبت هذا الدور على طريقة المدرسة الدادائية التي تنتمي إلى ذلك العصر البعيد؛ وكانت تضبط إلقاء قصائدها على صوت ساعتها الجدارية المثبتة في زاوية مقابلة لواحدة من حقائبها التي تغص بالكتب. كان موسيل مصفوفاً بجانب زبيغنيو وفوق غيبون، وكانت كِعاب أغلفة هذه الكتب محنيّةً إلى الخلف بشكل كيْفيّ ومن دون ترتيب. كان أحدهم يحذّر الحضور: «انتبهوا؛

فالأمسية الشعرية على وشك أن تبدأ»، وذلك في الوقت الذي كانت هي تطلب إلى الحضور في الغرفة الهدوء. كانت ملابس جين قد تم نقلها من الشارع وتوضيبها بعناية فائقة. قال أحد الحضور وكانت تبدو عليه علامات الوقار في الوقت الذي كنت أندسُّ بين الجمع المحيط بثيودور: «إن مثل هذه العبارات المثيرة تشبه عبارة المسيح الأسود التي تستهلك كل طاقاتنا.» كان المتحدث شخصاً طويلاً ذا وجه مليء بالنمش وشعره أحمر مثل نار ملتهبة. كان يومئ بيديه أثناء حديثه بطريقة درامية وهو ينقر على كأس الشراب الذي أخذه من يد صبي يافع يقف إلى جواره. انسكب الشراب على مقدمة قميصه الوردي الذي ابتاعه من أكسفورد فبدأ بتنظيفه وعلى وجهه مسحة من الذهول بواسطة منديل يقدم عادة مع شراب الكوكتيل. قال: «لا بأس، لا تشغلوا بالكم.» لاحظت أنه كان يضع على طرف كُمّ قميصه زراً معدنياً.

سألته وأنا ألقي التحية: «المسيح، ماذا؟». كنت أعرف بعضاً من هذا الجمع من حفلات جين الأخرى، ومن الدائرة الفنية الشبابية: أحدهم كان شاعراً مثليَّ الجنس، وآخرُ كان رساماً واثنان من كتّاب الرواية ليست لديهما ميول جنسية مثلية، أحدهما طويل البنية والآخر قصيرها. كانت جين تهوى انتقاء أشخاص ذوي وجوه لافتة ومشوّقة وتجمعهم سوياً كما في الفن التمثيلي كطاقة بشرية قابلة للاحتراق؛ لكنها كانت مع ذلك محبوبة جداً من الجميع لأنهم كانوا يستمتعون أيما استمتاع بالحفلات التي تقيمها، وبسبب أنها، كما أحببنا أن نعتقد، كانت موفقة في انتقائها للأشخاص الذين تضمهم إلى دائرتها طالما أننا كنا جزءاً من هذه الدائرة. كانت دائماً ما تهتم بالانخراط في الثرثرة التي تعقب كل حفلة، وكانت توّاقةً لأن تعرف تفصيلات مثل من

ذهب مع من، بعد الحفلة. كانت دائماً ما تتعقب دقائق هذه العلاقات كما يدقق البعض بما آلت إليه أسهمهم في البورصة، وكانت تتبجح بدورها الذي لعبته في إنجاح مثل هذه العلاقات.

كنت أشعر بعينيْ ثيودور المشككتيْن تحطّان عليّ؛ وكان هذا شكلاً من أشكال الضغط المادي الذي مارسه في معرض محاولته فهم من أنا بالضبط وهو يرمقني بنظراته التقويمية الموضوعية طولاً وعرضاً. كنت، بعكس النساء الأخريات في الحفلة اللواتي شققن طريقهن إلى الغرفة وارتمين على الكراسي بعد أن انتقين لأنفسهن مواضع قرب النافذة المفتوحة بحثاً عن قليل من البرودة، مثل نقطة صباغ جميلة ظهرت على سطح ماء رقراق؛ كنت أرتدي ثوباً أسودَ باهظَ الثمن من حرير الشيفون أهدتني إياه أمي بمناسبة عيد الميلاد كما أعتقد، على أمل أن يلفت انتباه الرجل المناسب. لم تكن جماليات الثياب الجاهزة تناسبني أبداً. تخيلت أن ثيودور رآني خارج العصر، كما رأيت أنا ذلك الشاب الأشقر الذي يضع زراً معدنياً على طرف كمّ قميصه. كنت أريده أن يعرف أنني أنتمي إلى هذا الجو، لأن هذا العالم كان أشبه بالنادي. كنت قد بعت للتو روايتي الأولى إلى المجلة «ليتراري ريفيو» وكنت ما أزال مأخوذة بالنجاح الذي حققتُه، لكنني كنت أعي أنني غير قادرة على تقاسم هذا الخبر مع الآخرين؛ ذلك أنه يجب أن تدَعَ الآخرين يكتشفون بأنفسهم مثل هذا النوع من الأخبار حينما تكون أنت تقلب صفحات هذه المجلة. كان ثيودور ممتلئ القامة طويلَها، وكان يتمتع بجاذبية كبيرة زادت منها الحمرة التي تعلو وجهه، كما أن الفودكا جعلتني أشعر بالرغبة في شيء من المغامرة.

صاح الشاب الأشقر الذي علا صياحُه الضجيجَ الذي يملأ الغرفة: «إن كلاماً مثل هذا يثير غضب المؤمنين المسيحيين، والكاثوليك والجمهوريين. هذا الكلام يتم تداوله الآن في الأخبار.»

شرح لي أحدهم ما يعنيه كلامه قائلاً: «هو يرمي إلى عبارة «يسوع المصنوع من الشوكولاته».»

قلت: «آه! إذاً هذا ما يعنيه.» لقد قام الفنان بتصنيع الجسم بكلّيته من الشوكولاته وتركه عارياً تماماً. لقد كان يسوعَ أسودَ عارياً صالحاً للأكل، وهذا بحد ذاته مصدر إثارة قوية في فترة عيد الميلاد. الجماهير صبت جامّ غضبها عبر شاشات التلفزيون في الفترة التي حلّت فيها مواسم المسيحيين المقدسة علينا. بدأ استحضار مقارنات بين الأرباب المختلفة وبوذا وغيرها من الآلهة المصنوعة من الشوكولاته. «ما هو شعوركم؟» كان ذلك أحد العناوين في صفحات إحدى الصحف التي تعنى بالإشاعات. وضعت صورة للتمثال في منتصف الصفحة الأولى بينما تم حجب المنطقة التناسلية للتمثال بمربع أسود عريض. وكان العنوان العريض في صحيفة أخرى: «هل ترغب في التِهامي؟»

قال الشاعر المِثليُّ الجنس: «هذا النوع من الإثارة، وهو إثارة بحق، هو نوع من الخدمة الذاتية ولكن ماذا يعني ذلك؟ أعني: لنأخذ أنفسنا مثالاً: إننا نتحدث عنه. وصحيفة «ذو بوست»[4] تتحدث عنه هي الأخرى. وهذا يعتبر نجاحاً.»

---

4 - The Post

قال الروائي الطويل القائمة وذو اليدين الضخمتين، وكان قد تسلّم دفعة كبيرة مقدماً مقابل روايته الأولى، ويتحدث بكثير من الثقة بالنفس بالرغم من أن أحداً لم يكنْ يَكُنُّ الكثير من التقدير لموهبته، ومع ذلك كان موضع احترام من الجميع: «الفن يتحول إلى مادة إعلانية، وجميعنا غير معترض على ذلك؟»

علّق الروائي الآخر قائلاً من دون تفكير وهو يحيط خصري بذراعه مبتسماً، ثم يبعدها مرفقاً ذلك باعتذار صادق: «هذه أقدم مصيدة في المهنة.» كان قد ظن خطأً أنني شخص آخر، ولكن فجأة تحوّل إلى شخص حييٍّ وبدت عليه أمارات القلق. عرض عليّ أن يحضر لي كأساً آخر من الشراب، ثم قال: «لا عليك مني، فأنا بشكل عام شخص فوضوي للأسف.» كان مثله مثلنا جميعاً يقتات على الإكراميات التي يتلقاها بصفته نادلاً في اثنين من المطاعم، وكان أيضاً يرسل قصصاً قصيرة إلى المجلات الأدبية في نبراسكا وسياتل.

قال الشاب الأشقر الذي يضع زراً معدنياً في طرف كمّ قميصه كما لو كان يحاول إقناع نفسه: «إنه انتحار لحرية التعبير»؛ بدا وكأنه خارج نطاق تلك المجموعة. خطر ببالي أنه قد يكون مصرفياً يستطلع سوق الفن الشبابي في معرض بحثه عن استثمارات طويلة المدى. كان شاباً سليط اللسان. تحول النقاش إلى موضوع تمويل الفنانين. قلّبَ الشاعر المِثليّ عينيه وقال: «أيها الكتّاب، إن الجميع ينهشون الجثة بشراهة ويتناحرون على نتف من اللحم الذي لم يتبقَّ منه سوى القليل.» دار بعدها على عقبيه واتجه صوب المطبخ.

التقت عينا ثيودور بعينيّ وبقيتا مثبتتين عليهما لفترة وجيزة، شعرت بعد ذلك بكمٍّ وافر من الحلاوة ممزوجاً بدفقٍ من الشجاعة يندلق منه باتجاهي. كان يلبس بنطالاً موشّى بمربعات؛ هذا البنطال كان سيبدو مناسباً لو كان ذلك الشاب الأشقر يلبسه في مدرسة خاصة ولكنه بدا لائقاً على ثيودور الذي كان ينتعل خُفّاً أسودَ من دون جوارب، ويرتدي قميصاً قصير الكُمّيْن. بدا وكأنه أراد أن يقول شيئاً ما، لم أستطع تمييزه حينها بالضبط لكن ذلك الشيء كان يقبع هناك على شفتيه الجميلتين؛ وهو ما حرّك فيّ الفضول لمعرفته كائناً ما كان. كان لثيودور أهداباً طويلة تشبه أهداب فتاة.

قال الشاب الأشقر: «هذا ما تريده الحكومة. هل تراهنني في وقت ما، على أن هذا المحتال تلقّى دعماً من المال الحكومي؟ هذا يمنحهم ترخيصاً. أرأيت كيف تُنفَق أموال دافعي الضرائب؟»

«إياك والإصابة بجنون الارتياب.»

«جنون الارتياب؟ تريد الحكومة أن تضع يدها على كل شيء: على الفن والفلسفة والقانون وحتى الهواء، الهواء الذي نستنشقه، والذي تستنشقه أنت.»

«هذا يدل على أن الحكومة مهتمة بمواطنيها.»

هنا انبرى أحد الروائيين مبيحاً لنفسه الابتعاد كثيراً عن موضوع يسوع المصنوع من الشوكولاته: «لقد انكمش الفن إلى درجة مُذِلّة نظراً لأنه يعتمد في بقائه على مزاجية خَدَمِ الحكومة المطواعين.»

قال الرجل ذو الشعر الأحمر وهو يرتشف ما تبقى من المارتيني في كأسه: «خدم الحكومة المطواعين؟ حقاً؟ إن من يسمعك يظن أنك تشبه كاتباً ثملاً يعمل في صحيفة تتبع الحزب الاشتراكي.» بدأ بعدها ينقر بإصبعه على الكأس الفارغة أمامه. أخرج ثيودور من جيبه زجاجة افتراضية وبدأ بملء الكأس منها، ثم رفع كأسه وقال: «استمعوا إليّ جيداً. إننا هنا نناضل من أجل الفن، والفن...» توقف من أجل التأكيد على ما يقوله مثل سيارة تصعد باتجاه قمة التل...، «الفن شيء مهم جداً.»ضحك الجميع. تابع قائلاً: «استفسروا عن صحة هذه المقولة من الشوكولاته، ما هو نوع الشوكولاته التي استخدمها الفنان؟»

علّق الروائي الطويل القامة وغير الموهوب قائلاً: «استخدم بالطبع اهتمامات الفنان الجمالية.»

جعلتني سخافة الحديث برُمّته أشعر بالدوار، ولذلك وجدتُني أكرر السؤال عينه قائلة: «ما هو نوع الشوكولاته؟»

رد ثيودور قائلاً بطريقة جمعت بين السؤال والتقرير، تاركاً القليل من ذلك الشيء الذي استوعبه مثل صياد السمك الذي يرمي صنارته من أجل أن يصطاد السمكة: «إذا لم يكن باستطاعتك أكله، فإن بقية المسألة لا معنى لها، أليس كذلك؟» رفع كأسه باتجاه كأسي، وكانت عيناه تلمعان بينما كان يخمّن مدى الانطباع الذي تركه عندي.

سألته: « هل تعني القول إنه إذا استعمل الشوكولاته الرخيصة، فما الفائدة من ذلك؟»

«أعني أنه إذا كان من المفترض أن يكون التمثال قابلاً للأكل، وأنّ من نتحدث عنه هو يسوع، فمن الأفضل أن تكون الشوكولاته من النوع الجيد.»

سألته: «من نوع غوديفا على سبيل المثال؟»

«هذا نوع مناسب.»

«وماذا عن ماركة تيوسكار؟»

«ماركة كيلبوت البلجيكية تثبت جديته.»

قال الشاب الأشقر: «العظيم يتكلم.» عندما قال ذلك، لم تكن تبدو عليه أمارات المزاح.

قلت: «العظيم؟ إذاً من الكاهن الذي دهن رأسك بالزيت؟»

قال الشاب الأشقر: «لقد فاز مؤخراً بجائزة النمسا من «كونستيستوريش»»؛ وقد لفظ هذه العبارة الأخيرة بلهجة تكاد تشبه اللهجة الأصلية.

سألته: «ماذا؟»

قال ثيودور الذي لم أكن قد عرفت اسمه بعد: «بالله عليك! نحن لسنا بصدد كتابة سيرة ذاتية مختصرة الآن. أعتقد أننا هذه الليلة مجموعة من الاشتراكيين السكارى، أليس كذلك؟» لم أصدق أننا كذلك. إذا كان يملك إحساس الكاتب، فإن ما يحتاجه بالضبط هو سيرة ذاتية مختصرة.

سألتهما: «هل تعرفان بعضكما بعضاً؟» اصطدم بي أحدهم دافعاً إياي باتجاه الشاب الأشقر وثيودور بحيث كوّنّا نحن مجموعتنا المتألقة الخاصة بنا بينما بدأ الآخرون من حولنا بالتلاشي الواحد إثر الآخر.

قال الشاب الأشقر: «أنا الوكيل الموزع لأعماله.»

ضحكت وقلت: «الوكيل الموزع! هل أنت تحت تأثير مخدر ما؟ الأفيون مثلاً؟ تبدو وكأنك ما زلت طالباً في المرحلة الثانوية.»

اعترف بخجل قائلاً: «أنا أعمل عند وكيله الموزع.» كان تأثير الفودكا يعلو وجنتيه. كان يملك فماً رائعاً، وكانت أسنانه مستقيمة وناصعة البياض. كان زرّا قميصه المعدنيين أزرقيْ اللون وكانا من ماركة ويدجوود. كان مساعداً طموحاً وكان عزمه وتصميمه ثابتين. لا بد أنه سيحقق لنفسه مكانة معتَبَرة في بضع سنين.

سألت ثيودور: «ما هو عملك؟»

قال وهو يرفع نظره ليلاقي عينيّ: «هل هذا نوع من الامتحان؟»

أجبت: «بلى.»

أجاب: «أنا جامع، أجمع القمامة.»

قلت: «أرجوك، هل فزتَ بجائزة النمسا لجمع القمامة؟» كان هو الآخر تحت تأثير الكحول العارم.

أجاب وهو ينظر باتجاه الشاب الأشقر: «هذا صحيح.»

قال الشاب: «أقسم على ذلك بشرف الكشّاف.»

قال ثيودور: «هذه هي الحقيقة بالضبط، وأقول لك بما يشبه الاعتذار الشامل إن الجميع في هذا المكان بمن فيهم أنا شخصياً، سيكونون نَكِرات في المستقبل.» ابتسم الشاب الأشقر بطريقة تنمُّ عن معرفة عميقة بصديقه، انسحب بعدها ليغرق في حديث آخر مع عدد من الجمع الموجود في الغرفة.

قلت: «هذا مدعاة للتفاؤل، ويرفع الرأس.»

قال: «أنا شخص واقعي.»

كررت القول: «قمامة؟»

أجاب: «أنا أجمع الخردة وأعيد تصنيعها، ثم أبيعها. إنها خدمة قيمة مضافة.» بدأ يرمقني بعد ذلك بنظرة فاحصة ذات مغزى وتشعرك بالقشعريرة وأضاف: «ولكن أنت فتاة غنية.»

أجبت بطريقة دفاعية بالرغم من أن فكرة أن أكون غنية قد أعجبتني: «أنا كاتبة روائية.»

قال وهو يرفع كأسه ويشير إليّ بسبابته: «ولكنك أيضاً فتاة غنية.»

«هل كنتَ ستتحدث إليّ لو كنت فتاة فقيرة؟»

«هذا الفستان الذي ترتدينه يجعلك تبدين عروساً في ليلة زفافها، يا

حبيبتي.» شعرت فجأة أنني محبوبة ورسمت ابتسامة صغيرة حلوة على شفتيّ.

«ربما أكون قد سرقته.» أعجبتني هذه الفكرة أيضاً، أعني فكرة سرقة فستان جميل. يبدو أنها منحته شعوراً بالسعادة. كان الجو حاراً داخل الغرفة لأن جمعاً كبيراً كان منحشراً فيها وكان ذلك الجمع يتحرك كموجات بشرية.

رفع حاجبه الأيسر وقال: «لصّة، هذا أمر مُسلٍّ.» كنا نصيح من فوق رؤوس الجمع. نهض من على حافة الأريكة كي يقترب مني أكثر. كنا نُدفَعُ باتجاه حقيبة ملأى بكتب لووغ وييتس وفرويد وبورغيس.

قلت له بنبرة مؤكدة: «لصّة.» التمعت عيناه وقال: «من حسن المصادفة أنني بحاجة إلى لصّ.»

قلت: «أنت محظوظ إذاً.» شعرت بأنني خطيرة. كان يمسك بيده زجاجة من الشمبانيا الرخيصة. قام بملء كأسينا اللتين شربنا ما فيهما حتى الثمالة، قام بعدها بملئهما من جديد. امتزجت الشمبانيا والفودكا داخل رأسي بحيث جعلتاني أكثر جرأة.

سألته: «ما الذي سوف نسرقه؟ هل سنسرق كمّاً أكبر من القمامة؟

رد بشكل مؤكّد: «أجل، قمامة.»

«لا أحب ذلك.»

قال: «فتاة غنية!» كان شعره المتجعد فوضوي المنظر بشكل مثير.

مددت له يدي قائلة: «أنا إنديا، إنديا بالمر.»

قال وهو يأخذ بيدي بين يديه: «وأنا صحراء فرعية من إفريقيا، تشرفت بلقائك.» كانت أصابع يديه طويلة ونحيلة، وكانت راحة كفه باردة. كانت هناك شامة غائرة في إحدى غمازتي وجنتيه ظهرت حينما ابتسم لي.

قال لي فيما بعد: «إن الفستان كان هو السبب. لقد شعرت برغبة في أن أنزعه عنك.»

وقد فعل ذلك في الاستديو الذي يقطنه في حيّ غرين بوينت على ضوء صبيحة رأس السنة حيث كانت أشعة الشمس تتسلل عبر زجاج النافذة الكبيرة، وكانت تحتها أرومات إعلانية أجنبية باللغة البولونية تروّج لأطعمة بولونية غير مألوفة. في تلك الساعات الأولى الصامتة من أول يوم في السنة الجديدة كنت أدّعي أنني امرأة خطيرة: لصّة. تبعته، إلى حيث يقطن، عبر جسر بروكلين، حيث خرجنا من حفلة جين، كنا نرتجف من شدة البرد، وكانت شفتاي زرقاوين وأسناني تصطك. لم أكن تلك اللصة المثيرة جداً حينها. أمسك برأسي ورفعه باتجاه الأعلى كي يريني أسلاك الجسر المتشابكة بطريقة زخرفية رائعة وسط سماء منتصف الليل؛ أخذت دقة تصميم هذه اللوحة بمجامع قلبينا لروعتها التي زاد من إحساسنا بها أننا كنا حينها ثملْين. كان العلم الأمريكي يخفق من فوق أحد بروج الجسر. قال وهو يدثرني بمعطفه وذراعيه: «رومنتية وبعض الدفء، إنهما مزيج جميل.»

سرنا طيلة الليل في أنحاء بروكلين بدءاً بالجسر وانتهاء بالاستديو الخاص

به. سرت معه على ضفاف «جدول الخلاص» كما كان يحلو له أن يطلق عليه، وهو عبارة عن رقعة عريضة من النفايات التي تشق وسط المدينة كنهر كبير يتلوى كأفعوان عبر القارة أو مثل دوّار المياه الحارة التي تتدفق من خليج المكسيك باتجاه الجو، في الوقت الذي كان يأخذ من تلك الرقعة نفايات الآخرين من مواد معدنية وسيراميك كان ينوي إعادة تصنيعها في تماثيله. كان يستنبط الجمال من القبح؛ وهو بذلك كان يريد أن يثبت شيئاً ما، لكنه كان ثملاً (وكذلك كنت أنا) لدرجة أنه لم يكن بوسعه القيام بتلك المهمة. قال، وهو يسحب مزهرية مكسورة ملطخة بخط من الوحل الملتصق بسويقات النباتات المتعفنة، ويرفعها أمام وجهي بتفاخر كما لو كان يحمل ميدالية الفوز مستعرضاً ذكاءه: «إنني أريد أن أتباهى أمامك.»

قلت له: «عليك أن تبذل جهداً أكبر إذاً؛ فالمزهرية تفوح منها رائحة كريهة.» كانت تفوح منها رائحة الرطوبة العفنة المنبعثة من أوراق النبتة. نظر إلي من خلال خصلات شعره المتجعدة محاولاً أن يخرج بإجابة ذكية في الوقت الذي كان يتفحص المزهرية من جديد وهو يشمها، ثم قال: «أقسم بمقام القديس جرجس، أنك محقة»؛ قام بعدها بركنها برفق إلى جانب الرصيف بحيث لا يتعرض الزجاج للتشظي. تذكرت تلك الجزئية، أعني كيف وضع الكأس بعناية. ما كان ليدع الكأس الملأى بالفودكا والشمبانيا كما نحن، تنكسر. وكما تبين لي فيما بعد، كنت محقة بشأن الكثير من قطع الخردة التي أراد أن يضع يده عليها. ولكن مع ذلك، كنا نستمتع بوقتنا أيما استمتاع. كان يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يبدو ناجحاً أمامي، كما لو أنه يحاول أن ينزع طبقة من المدينة تماماً كما يفعل الوسيط العقاري الذي يرفع سجادة الموكيت عن أرضية الحجرة الخشبية تحتها كي يريها للشخص الذي

يود شراء البناء. تبعته لأن ما كان يفهمه هو ببساطة ما كان بحاجة إليه. تبعته بسبب أنه كان يقودني عبر البوابات البرناسية[5]، وكان يُريد أن يثبت لي أن ذلك المدخل لم يكن يستند إلى المؤهلات. هذا ما اكتشفته في أكوام القمامة تلك. كان ذلك نوعاً من السحر؛ أعني به استنباط شيء من لا شيء. وهو موهبة إما أن تكون تملكها أو لا تملكها. هذا هو السبب وراء رفض الفنان رفع قبعته للملك. تبعته. لم يكن يمثل لي خياراً بل ضرورة.

كان يقول لي لاحقاً: «أنا مَنْ تَبِعَكِ.»

تزوجنا في مبنى البلدية. كان ثيودور يحمل باقة من ورود القرنفل ويرتدي سترة بيضاء ابتاعها من أحد محلات بيع الملابس الرخيصة، وكانت خصلات شعره تتهادى بشكل كيفي فوق وجهه الوسيم. كنت أرتدي ثوب الزفاف الذي يعود لوالدتي؛ أخذتُه خلسة من علّيّتها؛ كان لونه قد استحال إلى اللون القشدي بفعل الزمن؛ كان الثوب طويلاً ومطرزاً بمائة من الأزرار تبدأ من أعلى الظهر وصولاً إلى الأرداف. كنا قد طلبنا إلى زوجين آخرين ممن تزوجا بعيداً عن موافقة الأهل أن يكونا شاهديْن على زواجنا؛ قمنا بعدها بالسير عبر النفق، ثم استقلّينا القطار متجهيْن إلى مطار جون كيندي، عبرنا منه البلاد باتجاه الغرب (وكنا ما نزال في ثياب الزفاف، وقد أُمطِرْنا بكمٍّ كبير من الابتسامات والتمنيات من الغرباء من حولنا). استقلينا حافلة من سياتل وبعدها مركبين نهريين، ثم أقلّتنا سيارة عابرة مجاناً إلى أحد الفنادق الصغيرة يسمى تايغر إن، وكان أيضاً كومونة صغيرة.

5 - البرناسية هي مدرسة شعرية فرنسية سادت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وركزت على الشكل على حساب العاطفة. (المترجم.)

كان ثيودور قد سمع عن هذا الفندق من بعض أصدقائه من الفنانين المتجولين، كما سمع أن أصحاب الفندق يرحبون بجميع القادمين، وكانوا يكنّون محبة خاصة للفنانين. كانوا يسمحون لنزلاء الفندق بتقديم بعض المساعدة في أعمال الفندق إذا لم يكن بإمكانهم تغطية نفقات إقامتهم. نزلنا في «جناح شهر العسل»، وهو عبارة عن غرفة صغيرة بنيت حول شجرة تطل على حيّ بوغيت ساوند، وعبرها كان يمكن رؤية حيوانات الفقمة تسترخي بتكاسل على شاطئ النزل الصخري الصغير. قمنا ببعض الأعمال المطبخية مما جعل النزلاء وسكان الكومونة يتعاملون معنا بكثير من الود لأننا كنا طبّاخيْن ماهريْن. قام ثيودور بصنع تمثال لغانيش، الإله الفيل الهندوسي من الخشب، وقدّمه هدية لأصحاب الفندق الذين تحولوا إلى الديانة الهندوسية. كان المكان مليئاً بتماثيل للآلهة الهندوسية مثل الإله شيفا والإله بارفاتيس، ولكن لم يكن من بينها تمثال للإله غانيش، الإله الفيل، وهو أيضاً إله العائلة والود والنجاح. بقينا هناك عشرة أيام عدنا بعدها جواً إلى موطننا؛ عدنا إلى حياة جديدة كل الجِدّة لكنها كانت حياتنا الخاصة بنا، وكنا نحن من سيصمم شكلها.

حطّتْ طائرتنا عند الغسق الذي كان يحيط بالمدينة. وكانت الشمس الغاربة ترسل بآخر أشعتها باتجاه مانهاتن. كانت السحب الوردية اللون تطفو كوشاح فوق ناطحات السحاب. وتحت، في أسفل المشهد، كانت الحركة المجنونة للحشود المتدافعة تملأ الشوارع: أبواق سيارات الأجرة والحافلات التي تنفث دخان محركاتها، وأصوات الآلات التي تستخدم من أجل البناء، والرافعات التي تشق عنان السماء؛ كانت كلها تشكّل صوت نيويورك التي

تنمو وتتوسع. تمنيت وقتها أن أكون هناك في الأسفل، تمنيت أن أكون جزءاً مما كان يجري هناك. كنت متعطشة لأي شيء كان ينبئ بالحياة؛ كنت أرغب في أن أتشرّب الحب والذكاء وكل ما تتطلّبه نيويورك من أجل نمائها. كنت أتوق بشدة للبدء في حياتنا الجديدة؛ كنت أتطلع لمواجهة نيويورك كمهاجر جديد وصل إليها وهو لا يملك شروى نقير، وانتهى به الأمر مَلِكاً للإعلانات. كان بإمكاني من خلال نافذة الطائرة رؤية جميع الأبنية المميزة بأسطحها التي تحجب السماء مثل القلاع الضخمة.

قلت: «أريد أن تصبح نيويورك ملكاً لنا.»

أجاب ثيودور: «هي بالفعل كذلك.»

رددت بحزم: «لا، ليست كذلك، ليس بعد؛ لكنها ستكون ملكاً لنا.»

الفصل الثالث

ها نحن، بعد اثنتي عشرة سنة، أجدُني برفقة إيما في ولاية مين نسترخي في ملابس السباحة على كرسيين على شاطئ البحر وسيقاننا نصف مطمورة في الرمال الدافئة بينما نقرأ في صحيفتين من خلف نظارات قاتمة اللون. كان ذلك عصر يوم بطيء الوقع، وكانت أوراق الصحيفة تخفق في النسيمات اللطيفة التي كانت تهب حينها، بينما تعرض غداؤنا الذي أحضرناه من أجل هذه النزهة للجفاف بفعل حرارة الشمس. حلّقت طيور النورس فوق رؤوسنا بانتظار أن تنقضّ على وجبة الطعام التي كانت تنتظرها بفارغ الصبر. كنا قد أحضرنا أجود أنواع الجبن الفرنسي الفوّاح الرائحة الذي يعرضه متجر سيتاريلا مثل نوع كاب غريس نيز وبونت ليفيك وإيبويسيس ولانغري. كانت تلك محاولتي السرية لترك انطباع قوي لدى ويل وقطع دابر الشك لديه حول سويّتي الاجتماعية، ولكن «الإنسان الكامل» كان بالطبع يعرف جميع أنواع هذه الأجبان والمناطق التي تنتجها، وكان بإمكانه أن يلفظ أسماءها بشكل صحيح تماماً كونه يتحدث بالفرنسة بطلاقة، ولأنه قام بزيارة لإحدى مزارع إنتاجها.

كنت قد قمت في وقت باكر من صبيحة ذلك اليوم بإعداد الخبز الكوبي الذي عجنتُه وخبزتُه بطريقة أثارت آهات الإعجاب من آل تشابمان. كانت إيما قد أعدّت للنزهة على الشاطئ طاولةً مُدثَّرَةً بغطاء من القماش الأخضر ووضعت عليه بعض زجاجات النبيذ ودلو لمكعبات الثلج، إضافة إلى أقداح ذات سيقان طويلة. كانت قد أعدّت أيضاً سلطة الكركند، إضافة إلى كمية من الكركند المطبوخ بواسطة البخار، والممزوج بزبدة الطراخون؛ وهي أكلة

استقتها من كتاب غورميت للطهي. لكنها أصرّت على القول وكأنها تعتذر سلفاً في حال لم تكن السلطة التي حضّرْتُها على القدر المطلوب من الجودة، إن «إنديا هي الطباخة الفعلية». لكن تلك الوجبة كانت شهية بقدر ما أملتُها أن تكون، لدرجة أن ابنتيها التهمتا أكبر كمٍّ منها. لا بد لي من أعترف بأنني كنت أتمنى لو أن ابنتيَّ تناولتا بعضاً منها. كانتا بالطبع في غاية التهذيب. اكتفيتا بتناول السلطة لكنهما تركتا جزءاً منها على جانب الصحن، وكان ذيل الكركند الأحمر الذي يلمع تحت أشعة الشمس دليلاً على محدودية ما يمكن لهما استيعابه من الطعام. سألتني إيما: «ألم تحب الفتاتان هذا الطعام؟ هل أحضر لهما شيئاً آخر؟ أعني طعاماً أكثر قبولاً لدى الأطفال؟ لا تترددوا في طلب أي شيء ترغبون في تناوله، إذ يمكننا شراؤه فوراً من المتجر القريب.» أكّدتُ لها أن كل شيء على ما يرام، وكذلك فعلت الفتاتان اللتان سمحتا لي أن أحشوَ فمَ كلٍّ منهما بمكعبات من جبن الإيبويسيس واللانغري آملة بأن لا تضطر أي منهما إلى لفظ ذلك الجبن الحاد المذاق. لم تفعلا ذلك. شاركت الفتاتان عموماً في اللعبة أيضاً. فقد تناولتا كمية جيدة من الطعام، ولم يطلبا أي طعام رخيص مثل أصابع الدجاج أو البطاطس المقلية أو الهوت دوغ؛ بل على العكس، فقد استمتعتا بكل متع الحياة المتوفرة أمامهما لأنهما، كما نحن الكبار، عرفتا على ما يبدو أن ذلك مطلوباً منهما كجزء من المواصفات التي يجب أن يتصف بها سلوك الطفل في مدينة مثل نيويورك.

استمتعت الفتيات باللهو في مياه المحيط الأطلسي الباردة، وكنَّ يطاردن الموج تارة ويهربن منه أخرى: ابنتي الكبرى اسمها غوينيث (وكنا نناديها باسم غوين في معظم الأحيان)، أما ابنتي الصغرى فاسمها روبي؛ أما اسم

ابنة إيما الكبرى فهو إليزابيث، والصغرى اسمها كاثرين. كن يقهقهن وتتعالى صيحاتهن وهن يلعبن. أما ويل وثيودور فقد كانا يبنيان قلاعاً من الرمال وهو ما بدأاه مع الفتيات. كنت أراقبهما بعينين متفحصتين: كانا يميلان إلى السمرة وكانا قويّيْ البنية؛ كانا ينحنيان إلى عمق الخنادق المائية التي حفراها حيث ترتفع فوقها القمم المعقدة الشكل، وحيث أقاما جسوراً معلقة تعلوها بروج، إضافة إلى أنفاق مخفية تعلوها دعامات معلقة في الهواء. وصل الأمر بثيودور إلى حد العودة إلى قبو المنزل القديم وإحضار مجرفتين، كما قام بجلب عدد من الدلاء التي يتسع الواحد منها إلى خمسة غالونات ومجرفة لِمَدّ الطين. لفتت القلاع الرملية التي بدأت تتشكل ملامحها ببطء مع انقضاء فترة بعد الظهر أنظار المتجولين على الشاطئ الذين توقفوا للتمعن فيها وإبداء إعجابهم بها.

قمت بمراقبة القلاع التي كانت تكبر شيئاً فشيئاً مع تقدم النهار، ولكنني الآن فقط بدأت أتميز ما تمثله من طموح. كما لفت نظري إيما وهي ترفع رأسها من وراء صفحات الجريدة لتتفحص أيضاً ما يقوم به زوجانا. قالت: «انظري إلى بنّائيْ القلاع هذين. سوف نستقبل في القريب العاجل طاقم التلفزيون المحلي من أجل إجراء مقابلة.» كانت كلتانا معجبتين بزوجينا. كانت الرمال تتطاير من مجرفتيهما في الوقت الذي كانا يبنيان بروجهما ويحفران الخنادق المائية؛ وكان يتم تجميع الرمال بشكل هندسي منظم. كان بإمكاننا رؤية ظهريهما والتقوس في عموديهما الفقريين وعضلات أيديهما القوية.

قلت: «الحجم مسألة مهمة خصوصاً عندما يتعلق الأمر ببناء القلاع.»

ردّت وهي ترفع حاجبها الأيمن: «إن تطور الفرد هو ملخص لتاريخ التطور العرقي.»

قلت بعد أن أمعنت التفكير في ما قالته لبرهة: «ماذا؟»

قالت وحدقتا عينيها تتسعان: «البيولوجيا.» كنت قد سمعت هذه العبارة آلاف المرات لكنني لا أتذكر ماذا تعني بالضبط. تابعتْ قائلة: «تعرفين العلاقة بين التطور الجنيني والتطور البيولوجي. ولكن ما تعنيه المسألة في نهاية المطاف يتلخص في شخصين داخل حفرة يحاول كل منهما أن يحفر أكثر من الآخر.»

أحسست بوجود شيء من المواربة في التفسير الذي قدّمتْه، لكنني مع ذلك ضحكت لأنه تبين لي أنها أرادت أن تثير إعجابي، وكانت تلك الرغبة وقرب تحقيقها هما ما جعلاني أكثر قرباً منها.

في تلك اللحظة، انقضّت طائرة قديمة الطراز صفراءُ فاقعة اللون، وذات طابقين من الأجنحة من السماء باتجاهنا. بدأت ابنتا إيما بالصراخ: «هذا وين؛ إنه وين قادم لزيارتنا!» بدأت الفتاتان بمطاردة الطائرة وهما تركضان باتجاه الشاطئ بأقصى ما تستطيعان من السرعة، كما لو أنهما كانتا تعتقدان أن بإمكانهما اللحاق بها. غطّتهما الشمس بضيائها البرّاق كما لو أنها كانت تغسلهما بأشعتها الذهبية. وبينما كانتا تطاردان الطائرة ارتقت هذه الأخيرة مرة أخرى صوب عنان السماء، وكانت تبدو كطائر أصفر يخلب الألباب.

قالت إيما: « يا لها من مفاجأة؛ إنه وين.» سبق لي أن سمعتهم يتحدثون عن وين؛ وهو أحد أصدقاء العائلة ممن حامت حوله الكثير من القصص

والشائعات؛ كان زير نساء مليونير، وكان دائماً ما يظهر متأبطاً ذراع إحدى الحسناوات، لكن أنا وثيودور لم نلتقِ به مطلقاً، ولم أكن ألقِ كثير بالٍ عندما كانوا يتحدثون عنه. كان ينتمي إلى جانب من حياة عائلة تشابمان لا يخصنا البتة؛ كان جزءاً من قبيلتهما، أعني حياة وول ستريت المدججة بالمال، واللاعبين الكبار والرهانات الكبرى. عادت الفتاتان عدْواً باتجاه أمهما وتهالكتا بين أحضانها وهما تقهقهان بكثير من الحماسة.

قالت إليزابيث وكاثرين بصوت واحد: «لم تخبرينا أن وين قادم لزيارتنا». كانتا تبدوان كتوأم بالرغم من أن سنتين تفصل بينهما؛ كانتا تبدوان وكأن الواحدة منهما امتدادٌ للأخرى؛ كانتا أشبه بفراشتين تمخران بجناحيهما عباب الحياة. لم تكن ابنتايَ على هذه الشاكلة. كانت غوين رائعة الجمال، وكانت تتمتع بروح استقلالية؛ إذ أنه وبالرغم من أنها كانت تهيم حباً بأختها فهي لم تكن بحاجة إليها كمصدر للتسلية. كان جمال غوين يكمن في سحر عينيها؛ كانت عيناها تفرضان نوعاً من الاحترام وتثيران الانتباه. كان جمالها نِدّاً لجمال أختها روبي التي لم يكن لعينيها ذلك السحر، ما جعلها في رأيي بحاجة إلى تأكيد ثقتها بنفسها من خلال صداقتها مع أختها.

أجابت إيما التي كانت تبدو عليها أمارات الدهشة: «لم يقل إنه قادم لزيارتنا عندما اتصل بنا.» كان الإحساس بالمفاجأة له وقع خاص على ملامح وجهها الذي بدا حينها سريع التأثر، وطغت عليه مظاهر الصدق. كانت صادقة مع ابنتيها ولم تكن تسمح لأية مسألة مصطنعة أو سطحية أن تؤثر في علاقتها بهما، وكنت دائماً أُعجَبُ بتلك السمات التي لاحظتُها في ذلك الجانب من شخصيتها التي أردت أن أقتحمها وألِجَ إلى داخلها وأُصبِحَ

جزءاً منها؛ كنت آمل أن تكون صداقتنا قادرة على التكيف مع الحساسية أو التأثر. استرخت إيما بعد ذلك وغارت في كرسيّها، ثم توجهت إليّ بالقول: «سنستقبل زائراً غير متوقع.»

ردّدتُ قائلة: «زائر غير متوقع، أحب هذا النوع من الزيارات في الروايات عندما يصل غريب إلى البلدة.»

قالت إيما: «أجل، إنه تحوّلٌ جيد يمكن أن يفيدَ في روايتك الجديدة حول عطلة نهاية الأسبوع هذه. لا تنكري أنك كنت تسجلين بعض الملاحظات!»

قلت: «بلى، لقد كتبت ما يلي: «منزل في مقاطعة بوند بوينت: قصة إيما تشابمان».

أجابت إيما وابتسامة تعلو وجهها: «ليكن الله في عوننا»؛ ثم دفعت بقدميها أكثر في الرمال بطريقة توحي بالعصبية، كما لو أنها استطابت فكرة أن تتحول إلى شخصية أكثر مما أرادت التعبير عنه. راقبنا الطائرة وهي تجنح باتجاه اليسار ثم تختفي. تابعت إيما قائلة: «سيصل إلى هنا بعد حوالي عشرين دقيقة».

سألت غوين بطريقتها المباشرة المعهودة: «وين؟ أي نوع من الأسماء هذا؟» كانت عيناها الذكيتان الثاقبتان مثبتتين على إليزابيث كما لو أنها كانت تريد أن تثبت شيئاً ما. استطاعت غوين بطريقة ما، أن تنحّي السذاجة جانباً وتتجه مباشرة إلى عالم المعرفة والمنطق. وقفت روبي إلى جانبي الآن وأحاطتني بذراعيها محاولة أن تجْلي ما يدور في خلد أختها كي تتأكد من أن

اسم «وين» له وقع إيجابي، أو أن «وين» هذا سيختلس شيئاً ذا قيمة من فترة بعد الظهر التي يتمتعن بها.

أجابت إليزابيث بطريقة وقائية: «هو اسم يدل على الربح.» كان عالمها يدل بوضوح على أن كل ما فيه جيد وآمن وجميل، كما أن الضياء الذي شعّ من عينيها كان وقائياً أيضاً. شكّل سؤال غوين تحدياً لشيء كان خارج نطاق وعي إليزابيث أو قدرتها على استيعابه؛ لكنها استوعبته بالفطرة. رمقت غوين بتلك النظرة من عينيها الكبيرتين وكأنها أرادت أن تقول لها: «اتركي عالمي وشأنه».

قلت: «دعيني أخمّن، اسم «وين» يعني الربح الكثير.»

« آه، هكذا إذاً!»

قال ويل وهو يقترب منا، مبتعداً عن قلعته الرملية: «إنه وين يا حبيبتي.»

قال ثيودور وهو يقترب منا أيضاً: «هل تعرف ذلك الشخص؟» أنا على يقين من أنه كان على وشك أن يقول: «ذلك المهرج في الطائرة ذات الطابقين من الأجنحة»، لكنه كبح جماح نفسه. كان يحمل بيده مجرفة، وكان الرمل منثوراً على ساقيه وكذلك على ذراعيه ووجنتيه، وحتى على شفتيه وشعر رأسه. حوّل الرملُ لونَ شعره الأسود إلى أبيض. ولكن لسبب ما، لم يتسبب الرمل في نفس الفوضى على جسم ويل. (قال لي فيما بعد: «ذلك لأنني كنت أبذل جهداً أكبر مما بذله»، فأجبته وأنا أشعر بنوع من الانتصار: «إذاً، فالمنافسة بينكما موجودة.»)

قال ويل: «علينا أن نحضر بعض الشمبانيا من المنزل.»

ردت إيما قائلة: «بالتأكيد»؛ هبّتْ واقفة وأمسكت بيدي ابنتيها وهرعت إلى المنزل عبر نباتات البازلاء والكثبان الرملية والأعشاب البحرية، ثم قفلت راجعة بعد برهة وبيدها كؤوس الشمبانيا وزجاجة شمبانيا مبردة، إضافة إلى دلو الثلج الذي أعيد ملؤه من جديد، وكان وين يتبعها وكأنه جائزة حصلت عليها. كان يضع نظارتين شمسيتين تتدليان حول عنقه، ويرتدي بنطالاً من الجينز الأزرق، وينتعل حذاء عسكرياً أسود اللون وسترة من الجلد فوق قميص أبيض قصير الكمين من ماركة هوارد هيوز. كان أميلَ إلى الطول، وكان بالتأكيد ممتلئ البنية (في الواقع كان أقرب إلى السمنة)، وبدا كما لو أنه قد تناول للتوّ عدداً من الوجبات الدسمة؛ كان من ذلك النوع من الأشخاص الذين لا ترغب في النظر إليهم مرتين لو لم يكن يتمتع بالثقة، وبالطبع، الكثير من المال.

لكن وين كان لديه كل ذلك. كان بإمكانك أن تشعر بذلك فوراً. وكان أسلوبه الذي ينمّ عن كثير من اللا مبالاة يوحي بثقة عالية بالنفس تتضح أكثر فأكثر مع كل خطوة كان يخطوها باتجاهنا — لم يكن يسير سيراً عادياً بل كان يتيه اختيالاً. كان كرشه المتخفي خلف قميصه القصير الكمين يندلق أمامه، وكان سروال الجينز الذي يلبسه ضيقاً جداً. لم يكن يتحلى بأي قدر من الوسامة؛ لكن ذلك لم يكن مهماً. كانت تنضح منه الخيلاء، وهذا ما كان يجذب انتباهك إليه. تصورت أنه كان رجلاً مغروراً اعتاد الحصول على كل ما أراده. شعرت بأنه شخص حقير. كان شعره الشبيه بلون الرمل خفيفاً ومتشعثاً بفعل الريح، وكان وجهه وأنفه ناعمين ومدوّريْن كعينيه، وكانت تحيط

بمعصمه ساعة من البلاتينيوم. كانت تنبعث منه رائحة المال؛ مال جديد كسبه حديثاً، ويبدو أنه يستمتع به أيما استمتاع، بتلك الطريقة الفوضوية التي فيها الكثير من التبذير، كما الكثير من الرغبة في تملك أية قطعة جميلة. لو نحّيْنا النظارتين الشمسيتين المنفرتين جانباً، فسنكتشف أنه نجح في إبراز صورة الرجل الناجح الذي تصورته في شخصه عندما كان يقوم بالاستعراض في طائرته التي انقضّت باتجاهنا.

انتابت ابنتا تشابمان نوبة من الدوار الناجم عن فرط الحماسة لرؤيتهما وين؛ بدأت كل منهما بشده نحوها، وكانتا تتنافسان فيما بينهما على الوصول إلى أذنه. كانت كلٌّ منهما تريد أن تسرَّ إليه بما أنجزته خلال الفترة القليلة الماضية: الوشاح الأزرق الذي فازت به كاثرين في استعراض ركوب الخيل، والجائزة الأولى التي نالتها إليزابيث في القفز على الحواجز، والجائزة التي حصلت عليها كاثرين في مسابقة تهجئة الكلمات في الصيف، ومشروع إليزابيث لتلقّي دروس في اللغة الهندية. قالت له: «سوف تكون لدينا مربية هندية.» قلت في سري: «يا إلهي! كم حققت هاتان الفتاتان من إنجازات». لكن ما أثار دهشتي أكثر هو إعجابهما المفرط بنفسيهما. هذا الوله بالذات هو وليد التأثير والإيحاء. تبيّن لي بالحدس أن افتتانهما كان امتداداً لنفس السمة في شخصية إيما. بدأ وين يداعب الفتاتين؛ كان يحوطهما ويقذف بهما إلى الأعلى ثم يمسك بهما من جديد. تصورت أنه اعتاد على أن يقذف بهما في الهواء مراراً وتكراراً عندما كانتا طفلتين صغيرتين، ونسي أنهما أصبحتا الآن أكبر سناً وأكثر وزناً. لكن ذلك لم يردعه عن القيام بنفس الحركات عندما أمسك بهما. مرّغ شعرهما بيديه ثم أخرج من جيب سترته الجلدية

علباً صغيرة خضراء اللون تحوي حلويات من نوع «تويسكرز». كان قد أحضر معه أربعاً من هذه العلب، أعطى اثنتين منهما لابنتيَّ، واثنتين أخريين لإليزابيث وكاثرين، وقد نصحهن بتقديم الشوكولاته إلى صديقتيهن. قلت في سرّي: «يا له من حقير فَطِن.»

في الوقت الذي اقترب منا، استطاع احتواءَنا: كان ثيودور منهمكاً في بناء قلعته وابنتانا تعودان من جديد لمساعدته في ذلك؛ وكان ويل يتحدث عن روايتي «جيل النار» وعن موضوع نشرها، وكذلك عن خطط الرحلة التي أزمع القيام بها والهواجس التي تنتابني بشأن هذه الرحلة (كان شخصاً صادقاً ورقيقاً ودافئ المشاعر وكانت الطريقة التي يهتم فيها بإيما وابنتيه مدعاة للإعجاب. كان يكبت الإفصاح عن طموحاته الأدبية لأن ذلك كان سيكلف عائلته الكثير. شعرت أنه بإمكاني التعبير عن مكنونات صدري أمام ويل؛ أن أكشف له عن هواجسي ومشكلاتي المالية، وأنني لو بحت أمامه ما يدور في رأسي فسوف يحل كافة مشكلاتي)؛ غزت هذه الأفكار رأسي في الوقت الذي كانت ساقايَ ممدوتين أمامي وكانت ترتاح فوقهما رواية «عمدة كاستربريدج». لاحظت فجأة أن وين كان ينحني فوقي وثقل ظله يضغط عليّ.

قال وين الذي كانت تعلو وجهه ابتسامة: «إنه يعرض زوجته للبيع». كانت ابتسامته جريئة لكن الدفء كان يغمرها، وهو ما أثار في جسدي نوعاً من القشعريرة الممزوجة بإثارةٍ أدهشتْني وروّعتْني؛ وكانت إثارةً سرعان ما طردتها من رأسي، وشعرت كما لو أن تلك القشعريرة التي أحسستُ بها كانت مرئية من جميع من حولي. لم أحب ذلك الرجل قط.

أجبت مُحاوِلةً بكل ما أوتيت من قوة إخفاء حقيقة أنه هز كياني: «ما الذي دهاكم يا جماعة وول ستريت؟ أنتم جميعاً من هواة القراءة. لم يخطر ببالي مطلقاً أنكم تقرءون.» ضحك ويل، وكذلك إيما اللذيْن كانا معتاديْن على تعجّبي من الموهبة الأدبية لجماعة وول ستريت.

سألني وين: «كيف عرفتِ أنني من «جماعة» وول ستريت؟» ركّز على كلمة «جماعة» كي يلفت انتباهي إلى حقيقة أنني قلّلْت عمداً من شأنه. رمقني بنظرة قاسية؛ وكان يقلّبني في عينيه يمنة ويسرة وكأنه يريد أن يقرأني، كما لو كنتُ سهلة المنال بالنسبة لشخص مثله؛ وكما لو أنه قرر في سرّه شرائي، في حال كنت معروضة للبيع.

قلت: «لا أدري، ربما بسبب الطريقة التي وصلتَ فيها بتلك الطائرة الثنائية الجناحين، والحذاء الذي تنتعله»؛ وقف الجميع فجأة، وقد أحسوا بالتوتر يسود المكان، وبدؤوا يتصافحون. لم يكن وين طويل القامة كما تراءى لي لأول وهلة. كانت الثقة التي يتحلى بها قد صوّرتْه أطول مما هو عليه في الواقع. كنت أنا، التي أُعْتَبَرُ طويلة بين النساء، بنفس طوله تقريباً. حدّقت في عينيه البنّيّتيْ اللون كقطعة شوكولاته سويسرية فاخرة وغامقة اللون، مثل الشوكولاته التي قدّمها للبنات.

قلت: «أنت تاجر سندات».

أجاب: «بل تاجر عقارات؛ وأنت كاتبة.»

قلت: «روائية».

قالت إيما وكأنها تغني: «إنها ستنشر روايتها في الخريف. سنقيم حفلة كبيرة على شرفها وسوف ندعو مئات الأصدقاء الذين سيتوجب على كل منهم شراء عدد من النسخ من روايتها وتعميم خبر صدور الرواية بين أصدقائهم ومعارفهم».

ولكن كان من الواضح على وجه وين أنه لم يكن بحاجة إلى مساعدة إيما كي يقرر فيما إذا كنت أرقى إلى مستوى الشهرة التي تحاول أن تضعني فيها. كان خلال بضع لحظات قد قاسني طولاً وعرضاً، وكوّنَ رأيه الخاص عني، وبالرغم من أنني ما كنت لأكشف أبداً أنني أردت أن أعرف رأيه بي، إلا أنني قمت بذلك. لم يسبق لي أن اختُصِرْتُ بهذه الطريقة الفجة أو الوقحة من قبل. تابعت إيما عرض خططها المفعمة بالحماسة، وبدا لي أنها كانت موجَّهة لوين أكثر مما كانت موجهة لي، كما لو كنت مجرد بضاعة تتم المتاجرة بها بالرغم من أنني لم أكن أعرف الهدف منها، أو لصالح مَنْ. ربما كانت المسألة برمّتها مجرد حماسة مرتجلة، وابنة لحظتها.

قالت إيما: «أنتِ موافقة، أليس كذلك؟»؛ ابتسمتُ موافِقةً. فتح ويل زجاجة الشمبانيا، وسرعان ما بدأنا نتحدث ونحن نحتسي الشراب، حيث تراجعت برودة ولاية مين أمام الدفء الناجم عن شراب الشمبانيا.

كنا نقف على تخوم الأطلسي، وكانت الشمس قد بدأت تنحو ببطء باتجاه الغروب، وبدأ المدُّ يُطبِقُ تدريجياً على القلاع الرملية من كافة الجوانب. انخرط ويل في حديث عمل مع وين. دخلت إيما على خط الحديث الذي تركز جلّه حول قضايا ومفاجآت تتعلق بطبيعة عملهما كفرص الاستثمار ومراهنات تتعلق

بسوق العقارات وفضائح الشركات؛ وكانت تلك أمور لها صلة بعالمهما المهني الذي لم يكن يعني شيئاً لي أو لثيودور. كان حديثهما بالنسبة إلينا أشبه بلغة أجنبية.

همس ثيودور في أذني قائلاً: «ها نحن في حضرة مزيد من الأنثربولوجيا الاجتماعية». لم يكن هذا هو العالم الذي ننتمي إليه. ولكن أليست هذه هي الطريقة التي تحدث فيها الأمور؟ يقال إن هناك حبكتين حقيقيتين لا ثالث لهما: هناك من يغادر البلدة، وهناك من يصل إليها. وصل وين مثل الغريب في الروايات التي أحبها جداً ليأخذني، أو ليأخذ حياتنا باتجاه لم يكن بإمكاني أبداً تصميمه أو تصوره بالرغم من كل النباهة التي أدّعيها. هناك غريب وصل لتوّه. وين وصل وهو يضجّ بالحياة والجِدّة والمفاجأة هابطاً بطائرة ثنائية الجناحين مثل قوة إلهية أتت لانتشالنا مما نحن فيه.

الفصل الرابع

صدّقوا أو لا تصدّقوا أن اسمه الحقيقي كان جونز واين[6]. (كان أبواه قد التقيا في إحدى ساحات السينما في الهواء الطلق التي كانت تعرض فيلم «عربة الجياد» ووقعا في الغرام بسبب إعجابهما المشترك بالممثل.) كان بارعاً في الرياضيات. كان أبوه مدرساً للرياضيات في بلدة أكرون بولاية أوهايو، كما كانت أمه مدرّسةً لمادة الاقتصاد المحلي. كان أبواه ينتميان إلى الحزب الجمهوري، وكانا ميسوريْ الحال، لا بل يمكن اعتبارهما من أهل الثراء. فقد كانا يملكان المنزل الذي يسكنانه، ولم يكونا يرزحان تحت وطأة الديون. قاما بتعليم أبنائهما الدقة في علم الأرقام. عندما التقيت به في ولاية مين في ذلك اليوم من شهر تموز، يوليو، كان قد بلغ الرابعة والثلاثين من العمر، أي أنه يصغرني بأربع سنين. كانت لديه ثلاث شقيقات أصغر منه سناً. كان اسم الطفلة الرضيعة بيتسي، وعندما كانت تخطو خطواتها الأولى، كانت تجد صعوبة بالغة في لفظ اسمه الأصلي واين بشكل صحيح ولذا فقد تخلت نهائياً عن محاولاتها تلك وأسمته وين. أصبح اسمه وين، وبدأ يقلد مشية جون واين المتباهية وابتسامته الموحية بالعجرفة، كما تعوّد أن لا يشغل نفسه بتقديم اعتذارات عما يقوم به.

التحق وين بجامعة يال وبعدها بجامعة كولومبيا، وهناك تعاقدت معه مجموعة الإخوة بوند وبوند[7] بعد أن تعرّف إلى زوجة أحد كبار المساهمين، وكان اسمها بريتي، في حفلة أقيمت على مصطبة سطح أحد الأبنية في جادة

Johns Wayne - 6
Bond & Bond Brothers - 7

بارك أفنيو حيث كان بالإمكان رؤية المدينة بأكملها ومن كافة جوانبها من ذلك الموقع. جذبت بريتي ابتسامةُ وين فاقتربت منه وهو يراقب المشهد. كما استهوتها حقيقة أنه كان طالباً في جامعة يال (مثل زوجها)، وأنه كان على وشك الانتهاء من التحضير لدرجة الماجستير في إدارة الأعمال، وأن المنحى الذي تتخذه مهنته المستقبلية قد بدأ يتضح وهو يحتسي رشفات متقطعة من شراب المارتيني. لم يتجاوز زوجُها في دراسته الجامعية مرحلة البكالوريوس؛ ولكنه عندما انخرط في عالم الأعمال قبل خمس عشرة سنة، لم تكن شهادات الدراسات العليا خصوصاً في حقليْ السندات والرهن العقاري شائعة أو حتى معروفة إلا على نطاق ضيق.

كان رالف رادالبيينو، زوج بريتي، من كبار رجال سوق الرهن العقاري والسندات، وكان فاعلاً جداً في موضوع نشر سندات الضمان العقاري في منتصف الثمانينات من القرن العشرين، وهو فكرة جديدة وضعت السندات العقارية المحلية في موضع أهم بكثير من السندات الأخرى، ما أدى إلى جعلها أكثر جاذبية، وتحويلها إلى مصرف واستثمارات في شركات الضمان. (لمدة طويلة، لم يكن أي من ذلك يعني أي شيء بالنسبة إليّ؛ ولكن بالعودة إلى بداية الأمر، فقد حاولت الزعم في الحدود الدنيا، بأنني كنت مهتمة بهذا الموضوع.) كان رادالبيينو يكسب المال، الكثير من المال، وفائض المال هذا، كما هو متوقع، تُرجِمَ إلى سلطة، ولا أقصد أنه كان سلطة بالنسبة إليه وحسب، بل إلى زوجته أيضاً. كانت بريتي الوسيط الذي أمّنَ وظيفة لوين لأنها أعجبت به: أعجبتْ باسمه وبابتسامته وبعينيه البنيتين البراقتين. انضم وين إلى رادالبيينو للعمل في شركة بصفة متمرن بعد أن أنهى البرنامج

التدريبي المطلوب الذي كان يُقصَد منه إقصاء غير المؤهلين ممن ينتمون إلى العالم الآخر؛ العالم السفلي الغريب التافه الذي نعيش فيه أنا وأنتم. بدأ عمله بعد ستة أشهر في مجال تجارة الرهن العقاري واستطاع خلال سنة جني أرباح تقدر بملايين الدولارات للشركة. كان وين مَعيناً لا ينضب من الأفكار الجديدة الملهمة والطاقة الخلاقة. كان على استعداد للعمل مدة ثماني عشرة ساعة في اليوم والاستمرار في الثرثرة حتى طلوع الفجر. كانت له معرفة تامة بمتطلبات السوق، وموهبة في تتبع بوصلة السوق في القضايا الكبيرة والصغيرة. وجد نفسه في قلب المشهد الذي يشبه الوسط الأولمبي، وتشاء الأقدار أن يزداد حجم قوته ونفوذه في ذلك الوسط.

كان بين الحين والآخر، يعود بذاكرته إلى البدايات: فمثلاً عندما كان سائقه الخاص يتأخر عن الموعد، ويعجز هو عن ركوب تاكسي تقلّه إلى إحدى الضواحي في المدينة، وتبدأ حبات المطر الباردة بالتساقط في كل مكان، كانت القشعريرة تسري في جسده حتى تصل إلى عنقه - كم كان من السهل أن تكون الأمور بعكس ذلك. ولكن لا، فقد كان خلّاقاً دائماً، وكانت بحوزته دائماً الموارد المناسبة: كانت رزمة من فئة المائة دولار يقدمها لسائق إحدى سيارات الأجرة الصغيرة مقابل بطانية يتدثر بها وتمنحه قليلاً من الدفء تكفي كي يُقلّه إلى مقصده؛ وكان وين بذلك يستثمر وقته بشكل أفضل مما كان يمكن أن يفعل لو انتظر لحين توفر سيارة تاكسي كي يستقلّها. وين هذا، ذكي جداً، وحاذق جداً. ذلك الولد القصير والسمين، ذو العينين البنيتين الصغيرتين من مدينة أكرون، كبر لدرجة أنه أضحى له من اسمه نصيب، وحقّ له التبجح والتباهي؛ فقد اشترى العديد من الزوارق الشراعية

والطائرات، كما قد يفعل أي شخص يحصد عشرة ملايين دولار قيمة مكافآت (بالمناسبة، كانت الطائرة ذات الجناحين مجرد لعبة بالنسبة إليه، لأنه يستعمل طائرة من طراز جي-14 في رحلاته الجوية البعيدة). كان يلج إلى أية محادثة بسلاسة ويسر، وكان يعرف الطريق إلى قلوب الحسناوات، وكيف يختار السيارات السريعة، وكيف يواجه أصحاب الأفكار السريعة في كل من دافوس وكوبرتينو؛ لقد ارتقى – كيف لي أن أوَصِّف المسألة بطريقة أخرى؟ – إلى مستوى الملوك.

أُحِطتُ علماً بكل هذه التفصيلات من كاتبة سيرة وين الذاتية غير الرسمية: إيما. لقد لازمنا في ولاية مين لاثنتي عشرة ساعة بالضبط؛ وبينما كنا نتمشّى طيلة فترة بعد الظهر وحتى هبوط الليل، كانت إيما تنفرد بي جانباً كلما سنحت الفرصة وتمطرني بمعلومات عن وين، وعن حياته بطريقة فيها الكثير من الحماس المعهود عنها كاشفة لي بذلك وفي كل مرة، جانباً غامضاً آخر من شخصيتها؛ وهو جانب لم أكن قد لاحظته فيها من قبل. كانت تردد الكثير من العبارات التي يقولها وين، كانت تبتسم له بكثير من التودد عندما كان يتحدث إليها، وتستفسر منه عن خططه في فصل الصيف، وكان بإمكانك أن تستشفَّ نوعاً من الانسجام الخفيّ بينهما يتمثل في المواءمة بين ما خططت له لقضاء عطلتها الصيفية وبين مقتضيات اللباقة الاجتماعية. توجهوا بعد ذلك، في شهر آب، أغسطس، إلى باريس، وأقاموا في شقة في حي سان جيرمان دي باري. وافق وين على الفكرة. سأل إيما: «هل الشقة في شارع «رو كريستيان؟» أجابت إيما التي اعتبرت موافقته بمثابة جائزة لها، بابتسامة تشعُّ على وجهها: «أجل، بالطبع».

كان للمال سطوته أيضاً، وقد شعرت بمزيد من الحميمية تجاه إيما لأنني عرفت أنها ليست بمنأى عن نار العقلية الاستهلاكية التي تستعر في داخلي أحياناً. ففي نهاية المطاف، لم تكن عائلتها من أثرياء نيو إنجلاند، بل كانت تعود في أصولها إلى ولاية إنديانا. كانت أمها أستاذة في الأدب الإنجليزي في حقبة القرن التاسع عشر بجامعة بلومنغتون، وكانت دائماً تزعجني بسؤالها المتكرر حول مبيعات رواياتي. وبالرغم من أن لقاءاتنا كانت قليلة، فإن هذا الموضوع كان أول ما تسألني عنه عندما نلتقي: «كيف بإمكانك أن تعيشي مع هذا الدخل المتدني؟» كانت امرأة جذابة ذات شعر شديد البياض وعينين فضيتيْ اللون. قضت أسرة إيما جلّ حياتها في الغرب الأوسط تاركة إيما غارقة في حياتها مع ويل وشقيقاته الخمس اللطيفات والشديدات الاعتداد بأنفسهن. وكانت جميعهن يعملن في وظائف محترمة؛ كما كنّ شديدات الانتقاد للطريقة التي يربي فيها ويل ابنتيه. قالت إحداهن ذات مرة: «البنتان ليستا بحاجة إلى الذهاب إلى غستاد[8]. هذه الرحلة غير ضرورية البتة، ومضيعة للمال. يمكن لهما السفر إلى غستاد عندما تكبران.»

كنا نتمشى على الشاطئ عندما اعترضنا وين فجأة بخطوة عريضة قافزاً أمامنا بطريقة مزعجة على كعب قدمه كما لو كان يريد أن يثبت، وهو يضع قدماً أمام الأخرى، أنه أكثر استعداداً منا، نحن الحيوانين الثنائييْ القدمين، للمشي. قام ثيودور وويل اللذان كانا يتقاذفان كرة قدم بركلها إلى وين. قامت الفتيات الأربع بجمع «دولارات الرمل»[9] من على حافة مياه الشاطئ.

8 - Gstaad هي منتجع جبلي في القسم الألماني من سويسرا. (المترجم).

9 - «دولار الرمل» هو الاسم الذي يطلق على القنفذ البحري الصغير المفلطح الشكل الذي يهوى التواجد في الأعماق الرملية. (المترجم).

وكنّ يبدين مزيداً من الدهشة كلما وجدن كمية منها، كما لو كان كل دولار رملي يوازي في قيمته جنيهاً إسترلينياً. همست إيما قائلة بالرغم من أن الريح كانت ستحجب كلماتها عن مسامعهم: «يقول ويل إن وين هو أفضل تاجر عقارات في وول ستريت؛ ليس باستطاعة أحد أن يطاله ؛ إنه بمثابة عرّاف». حين تراقبه وهو يركل الكرة، يتبين لك أنه لم ينتمي يوماً إلى أي فريق رياضي في الجامعة؛ ولكن الطريقة التي تحدثت فيها إيما عنه، وقلّبته فيها من كافة الجوانب في معرض تقديمه لي وهي تخبرني عن طائرته من طراز جي - 4 وقاربه الشراعي، وشقته في بارك أفنيو، ومسكنه الذي يستخدمه عندما يذهب للتزلج في سيرفينيا، والاهتمام الزائد الذي تبديه وهي تروي قصته، كانت توحي بأنها تتحدث ليس عن صديق بل عن شخصية أسطورية.

استدار وركل الكرة باتجاهي. كانت تلك الركلة أقوى من أن تكون مجرد لعبة؛ أما أنا التي كنت عضواً في أحد الفرق الرياضية الجامعية، فقد أعدتها إليه بركلة في منتهى القوة؛ إذ مرت الكرة بجانب أذنه محدثة صفيراً، ما جعله يتسابق مع غوين التي كانت يداها تطبقان على «دولارات الرمل»، باتجاه الشاطئ. حمل هواء الشاطئ القوي الكرة ورماها بعيداً جداً، ما جعل الجميع يركضون من أجل استرجاعها.

سألت: «أين صديقة كازانوفا؟»

قالت إيما: «أي واحدة منهن بالضبط؟»

قلت: «أجل، بالطبع.»

غمر ضوء عصر ذلك اليوم الجميع، وهو مشهد يعشقه عادةً الرسامون؛ كانوا يتسابقون بمحاذاة الماء الذي كان يتناثر بين أقدامهم. كان وين يستسهل الرغبة في الحصول على ما يريده من دون أن يكون لذلك هدف محدد. جنى ويل الكثير من المال بالتأكيد، لكنه لم يسعَ لتحقيق حلمه لأنه أراد أن يوفر لإيما ما تحتاج إليه. أراد أن يكون كاتباً؛ سبق له أن دوّن مئات الصفحات في الساعات القليلة المتوفرة له في الصباح الباكر. ما أرادته كان منزلاً، وتساءلتُ فيما إذا كانت ما تزال تريده حتى لو كان كل مال الدنيا بحوزتها. لكن وين يثبت من جديد أنه شيء مختلف تماماً. كان بإمكانه أن يبقى دائماً واقفاً على قدميه. كان يفعل كل ما يحلو له.

لم تكن لدي أية فكرة عما يقوم به تاجر الرهن العقاري، أو ماذا تعني سندات الرهن العقاري، أو لماذا وكيف يتم كسب مبالغ ضخمة من المال من خلال الديون الضئيلة المترتبة على الآخرين؛ هذا إذا كانت المسألة في واقع الحال هي كذلك. بقيت مدة من الزمن عاجزة عن فهم كيف أن مثل هذه الديون الضئيلة الحجم يمكن أن توضعَ في رزمة وتُكوّمَ فوق بعضها بعضاً لتكوّن بدورها ليس فقط جدولاً من المال يتشكل من دفعات الرهن العقاري الملفوفة والمكدسة، بل نهراً كبيراً من المال؛ نهراً يشبه نهر المسيسبي بدفقه الهائل. لم تكن لدي أدنى فكرة أن مُلّاك البيوت بمجموعهم، يرزحون تحت وطأة ما قيمته ثمانية تريليون دولار من الديون بزيادة كبيرة جداً عن حجم أسواق الأسهم الأمريكية مجتمعة بصفتها أكبر أسواق الأسهم في العالم قاطبة. لم يكن بإمكاني تقدير ذلك لأنه لم يدر في خلدي قبلاً أن هؤلاء التجار قاموا بتحريك كميات هائلة من هذه الديون ولمرات عدة، بين المَدينين

والمستثمرين؛ وبما يشبه لمسة زر، وبنفس السهولة التي يرمي بها المقامر حبات النرد في أحد كازينوهات لاس فيغاس، يمتزج الحظ بالذكاء من دون أدنى مراعاة لمزاج السوق.

لم أكن أعي أياً من ذلك. كان جهلي مطبقاً حول هذا الأمر لأن الموضوع برمته لم يكن يعني شيئاً بالنسبة إليّ. لم يحدث أي احتكاك بين عالمي الذي ينتمي إلى واقع الناس العاديين، وبين تعقيدات عالم المال الذي ينتمي إلى فضاء آخر. لم يكن المنزل الذي أسكنه ملكاً لي؛ وبالتالي فإن مسألة الرهن العقاري كانت بالنسبة إلي فكرة مجردة تخص الآخرين؛ أعني أشخاصاً بالغين راشدين، وليس الفنانين على سبيل المثال. كنت أتوق إلى تحقيق حلم امتلاك منزل خاص بي. كان الرهن العقاري على منزل بمثابة المطيّة التي ترفع المرء إلى حال سن الرشد، أي إلى عالم التجارة والجدّ والامتيازات. أما الديْن الذي يتراكم ويتجمّع كما تهيّأ لي، فقد كان بمثابة هوة تفصل بيني وبين هذه الفكرة. لكننا سرنا عبر هذه الهوة بالرغم من أنه لم تكن لدينا أدنى فكرة عن الأعماق السحيقة لهذا الحلم، وكيف تحوّل إلى شريان حياة لاقتصادنا. وهكذا، كان من الطبيعي أنني لم أكن أعرف شيئاً حينها عن سندات الضمان العقاري أو عن «فاني ميز» أو معدل الضريبة التي يطرحها بنك لندن الدولي «ليبور»[10] أو الأسهم أو تعافي الاقتصاد أو الدفعات المسبقة أو التذبذب في معدل الفائدة، أو مستوى استهلاك الديْن أو التحدّب السلبي. لم أقدّر أو أستوعب التأثير الذي يحدثه التغير في معدلات الفائدة، أو إيجابيات الإنفاق الاستهلاكي وسلبياته، أو التوقعات

10 - London International Bank

بشأن الشركات، أو سعر النفط والغاز الطبيعي، أو الاضطراب في قيمة العملات، أو أحوال الطقس (مثل الانهيارات الطينية والأعاصير وموجات الحرارة الشديدة والعواصف الثلجية)، أو نماذج الشخصيات (مثل القدرة على سَوْق الناس كقطعان من الأغنام)، أو قيمة الديْن. كما لو تكن تعني لي شيئاً عبارات مثل «الضرائب الأعلى على القروض» أو « الفوائد المهجّنة والمعدّلة على قروض الرهن العقاري» أو «الرهن العقاري العالي الخطورة» أو «الغرامات المدفوعة مسبقاً».

لكنني علمت أن وين كان يكسب كميات خيالية من الأموال. وكان واضحاً أن الطريقة التي كسب فيها وين المال لا تشبه من قريب أو بعيد الطريقة التي جنى فيها ويل أمواله. لم أكن أعرف أن هناك هرمية في وول ستريت، وأن الممولين السريين والتجار يقبعون في أعلى الهرم، وأن من هم على شاكلة ويل الذين يرتّبون الصفقات المالية للشركات الضخمة، والذين كانوا يكسبون من الصفقات التي يسهّلون عقدها في شهر واحد أكثر بكثير مما كنا نكسبه في سنة كاملة، يقبعون في مرتبة أدنى في الهرمية العائلية في عالم وول ستريت. ونظراً لأن دخلنا كان أقل بكثير بالمقارنة مع هؤلاء، فقد دفعني الفضول للتساؤل عن قدرة بعض الأشخاص على كسب هذا الكم الهائل من المال. مَن هم هؤلاء، وماذا كانوا، وأين كانوا، وكيف كانوا يفكرون، وما هي ماهية دوافعهم؟ كانت هناك لمسة من رومنتية الكاوبوي في كل ذلك، كان خيال جون واين الذي يمتطي حصانه ويمخر عباب السهوب وحيداً، يلوح في الجو. كانت روح المخاطرة مقرونة بغياب عنصر الخوف والحضور القوي للثقة الباردة بالنفس. الأهم من ذلك كله، كان طرح فكرة حث الناس على

استثمار أموالهم بصورة جماعية، من أجل فهم كيف يتصرف هؤلاء من الناحية النفسية كمجموعة تحت المراقبة والاختبار في محاولة لقراءة طرق تفكيرهم وترجمة ما قد يقومون به من أفعال إلى تكديس للأموال على نحو هائل لدرجة أن ما يكدسونه من أموال يتجاوز قيمة أسواق الأسهم الأمريكية مجتمعة، حبكةً أفضل من حبكة أية قصة قرأتها منذ مدة (هذا يعني أن وضع «الأنتَ» الجماعية و «الأنا» الجماعية مع كل أساليبنا وسلوكياتنا المختلفة حيال مسألتيْ الإنفاق والادخار، وتأثرنا بالميول والاتجاهات المختلفة، وآمالنا وطموحاتنا السخيفة التي ترمي بكل رهاناتها على الغد، يجعلنا نبدو اليوم حمقى). كل ذلك يشكل خطاً لرواية على السوية الأولمبية. هكذا تتم ترجمة الخيال إلى فعل؛ إنه الخيال ذو النتائج الملموسة؛ لا يمكن القبول بأقل من هذا.

جلسنا أنا ووين إلى الطاولة المعدّة للنزهة، وكنا وحدنا. كان يجلس قبالتي؛ لم يكن يمتلك أي قَدْر من الوسامة، لكنه مع ذلك كان يبدو جذاباً. كان ضوء الشمعة الموضوعة على وسط الطاولة يلقي بظلاله على وجهه كاشفاً عن شعره الخفيف. كان قد حلق ذقنه استعداداً للسهرة، وكانت المواضع المضاءة من وجهه تلمع مثل الخزف الصيني الصقيل. لم يبدِ أي تنازل أمام شركة بين لـ. لـ. للملابس الرياضية في ولاية مين. كان يرتدي قميصاً وردي اللون وزرّين معدنيين على كمّيْ القميص، كان الضوء ينعكس عليهما كلما رفع يديه ليومئ إلى هذا الشيء أو ذاك. الآخرون كانوا في الداخل: كان ثيودور يتأكد من أن البنات قد خلدن إلى النوم، وكان ويل يسلق الكركند، أما إيما فكانت تعد المشروبات.

كنا نسمع أصوات سدادات الزجاجات داخل المطبخ وهي تصطدم بالقدور. كان ويل هو المسؤول عن إعداد طعام العشاء ولذا فهو لم يسمح لي أو لإيما بمد يد المساعدة. لم يكن يرغب في تناول أي من الوجبات الفاخرة التي قد نعدّها. قرر أن يسلق الكركند والبطلينوس بماء البحر مضافاً إليها الأعشاب البحرية التي جمعها من المحيط حاملاً القِدْر الكبيرة إلى حافة الماء وهو يرتدي ثياب الكاكي الفضفاضة. تبيّن لي بينما كنت أتفحّصه وهو في طريقه باتجاه المحيط أن البساطة بالنسبة إليه تعني الإجازة؛ وهي صلة الوصل بينه وبين ما كان يتوق إلى تحقيقه: إنها الفسحة الواسعة التي تطبع حياة الكاتب. ليته كان يعلم.

طلبت إلينا إيما أن نرصد ظهور القمر الذي كان على وشك أن يطلع بدراً من جهة أقصى شمال الجزر الصغيرة. كان البحر في حال الجزر، وكان بالإمكان رؤية الأذرع الرملية تصل ما بين هذه الجزر التي تطفو قبالة الشاطئ مباشرة. كانت الشمس قد غربت وبدأ الظلام يهبط؛ إلا أن ما يشبه صفوفاً من الشجيرات الأرجوانية الشكل بدأت تتشكل في السماء، وبدأت زوارق صيد الكركند تبحر عائدة صوب الميناء إضافة إلى أن زوارق شراعية كانت ما تزال تبحر باتجاه الأفق. ربما لم تكن للمنزل قيمة مادية كبرى، لكن إيما كانت موفقة في انتقائه لإطلالته الرائعة. كان المنظر ساحراً، وهو ما أكد عليه وين الذي بدأ يتحدث عن إمكان اضطرار مالكيه الحاليين لبيعه في المستقبل القريب.

قال وين: «تلك الفتاة الصغيرة — ماذا كان اسمها؟ ساكاغاوي؟ حقاً؟» هز رأسه وتابع قائلاً: «تلك الفتاة الصغيرة ذات الكنية السخيفة سوف ترث

المنزل من آل هوف الذين لا أولاد لهم؛ لكن والديْ ساكاغاوي لديهما ثلاثة أولاد آخرين ولا يملكون شروى نقير. لكنهم متعلقون بالمكان وربما يرغبون في ترميمه والتمسك به. تابع شارحاً أنه لو تدلّى أمامهم مبلغ محترم، فسترجح كفته على كفة العاطفة التي يكنّونها تجاهه، في حال تدلى هذا المبلغ في الوقت المناسب. قال وين أيضاً: «ستكون ضربة إيما موفقة إذا أحسنت اختيار التوقيت المناسب. إذا استعجلت في عرضها فسوف ينفرون منها؛ ولو تأخرت كثيراً، فسوف يشتريه آخرون. إذا عرفت كيف تضبط توقيت عرضها لهم عندما يكونون بأمسّ الحاجة لبيعه ومن دون أن تثير ريبتهم، فإنها قد تبلي بلاء حسناً.

قلت: «لكن آل هوف لم يتوفّوا بعد».

رد قائلاً: «هذه مجرد تفصيلات، أنا فقط أروي القصة». دفعني هذا الموضوع لأن أفكّر في وكيل أعمالي، الثعلب. اهتمام وين بحلم إيما ومحاولته ترجمة هذا الحلم حرّك مشاعري في البداية، ولكن تبين لي لاحقاً أن اللعبة هي ما استهواه في المسألة برمّتها؛ كانت بالنسبة إليه مجرد رياضة تتمثل في التقاط ما يحلو لك من الحياة. كيف لأحد أن يستهتر بمصائر الآخرين على هذا النحو؟

ظهرت إيما عبر الباب الخارجي لتقدم لنا شراب الشمبانيا. كان شعرها رطباً ومستوياً. كان خشناً وجميل الشكل؛ كان شعرها يشبه شعر كليوباترا. ابتسمت لنا وناولتنا كأسيْ الشمبانيا (أحضرت هذه الكؤوس من نيويورك لأنه لم يكن بمقدورها شرب الشمبانيا بكؤوس من نوع آخر.) توجهت إليّ

بالقول: «سوف أساعد ثيو في جعل البنات يخلدنَ إلى النوم. إنه رائع يا إنديا مع البنات اللواتي يستلطفنه كثيراً. لكنني أظن أنهن سوف يقضين الوقت في التسلية بدلاً من النوم إذا لم أشرف على الموضوع قليلاً.»

لم يحب ثيودور اختصار اسمه إلى ثيو؛ لكنه لم يتقبل ذلك إلا من إيما. حاولت أن أشرح لها ذلك في البداية، لكنها أصرت تحبباً على مناداته بهذه الصيغة المختصرة، ولم نجد مفرّاً في مجاراتها في ذلك. استدارت كي تعود إلى داخل المنزل، وفي غضون ذلك، رمقتنا بنظرة من فوق كتفها وتوجهت إلى وين بالقول: «احترس من أسئلة إنديا. إنها لصّة. فأي شيء تقوله قد ينتهي به المطاف إلى إحدى رواياتها.» كانت تعبيرات وجهها تحمل في طياتها ابتسامة مصطنعة، هي ابتسامة العارف ببواطن الأمور، وهي ابتسامة استحوذت عليّ بالكامل من أجل صالح وين. قالت وهي تدير برأسها ضاحكة: «لقد بدأتْ بالعمل على رواية عني. ما اسم هذه الرواية؟ آه، «بوند بوينت، قصة إيما تشابمان»؟»

قلت: «تابعي حديثك يا إيما».

قالت قبل أن تصفق الباب الخارجي وراءها: «ألم أقل لك يا وين؟» كانت هي وويل يسخران دائماً مني لقيامي بتدوين ملاحظات والقيام ببعض الأبحاث. كانا متأكدَيْن من أنهما سيظهران بشكل أو بآخر في روايتي التالية. كنت أميل إلى الاعتقاد أن إيما ستكون واحدة من الشخصيات المهمة في الرواية؛ ربما لن تكون الشخصية الرئيسية، بل ستلعب دوراً أقل أهمية مثل دور زوجة تقف وراء زوجها الذي يتخلى عن كل شيء من أجل أن يكتب

رواية. سأل ثيودور إيما مرّةً: «هل ستستمرين في حبها إذا ظهرتِ في إحدى رواياتها؟» نظرت إليه وكأنها لا تصدق ما تسمعه منه وأجابت: «كيف يمكن لي أن أتوقف عن حب إنديا؟»

رمق وين إيما بنظرة إعجاب وهي تختفي داخل المنزل: تصميمها على أن ترتشف الشمبانيا فقط من الكؤوس المخصصة لتناول الشمبانيا، رغبتها في امتلاك هذا المنزل، ورغبتها كذلك في امتلاكي. قال: «سوف تمتلك هذا المنزل لو شاءت». شعرت بامتعاض شديد ليس بسبب أنني أرغب في امتلاك المنزل أيضاً، بل لأن وين كان يوجهها إلى أفضل السبل لوضع يدها عليه، وبالتالي تحقيق أحلامها، ولأنها كانت دائماً تملك القدرة على الوصول إلى ما تريده. كما شعرتُ، كما لو أنه بسبب قوة كونية، أو ربما بسبب طبيعة مهنتي، أنني لا أملك سوى أن أريد.

سألته: «هل ترغب أنت في شراء هذا المنزل؟»

أجاب: «ألا ترغبين أنتِ أيضاً بشرائه؟»

قلت: «بالطبع، لا». كنت أقول الحقيقة، لكنني لم أكن أقصد أن أقولها. قصدت أن أوافقه الرأي فقط. كان بإمكانه شراء أي منظر، في أي مكان يريده. لم أتوقع منه أن يرد بالإيجاب.

سألني بابتسامة ساخرة: «أنت لا تحبين البراغيث، أليس كذلك؟»

«هل هي براغيث؟»

قال وين: «تصوري أن إيما تحب البراغيث، ليباركها الله».

«هل لديها مناعة ضد عض البراغيث؟»

قال: «سوف ترغبين في اقتناء هذا المنزل إذا مكثتِ هنا عدة أيام أخرى، سوف ترغبين باقتنائه تماماً مثل إيما.»

سألته: «هل العرّاف في داخلك هو من يتحدث؟ لقد أخبرتني إيما أنك عرّاف.» بَرَقَ زرّا كمّيْه المعدنيين بفعل انعكاس اللهب عليهما.

قال بعد أن سحب من جيبه كرة سلطانية افتراضية، ومسحها بكمّ قميصه: «من محاسن الصدف أنني أحضرت معي كرتي البلورية. أرى أنك تناضلين من أجل امتلاك المنزل، كما أرى حربَ مزايدةٍ عليه بينك وبين إيما».

قلت: «سوف تكسب المزاد. لن تكون هناك منافسة. تذكّر أنا كاتبة.» غالباً ما أترفّعُ عن الحديث عن ضائقتي المالية، ولكن كان هناك شيء ما في شخصية وين دفعني إلى الإحساس بأن بإمكاني قول ما يجول في خاطري. لم يكن بإمكاني إخفاء هذه الحقيقة. كان عليّ أن أكون صادقة، وانتابني شعور للحظة، بأن ذلك منحني إحساساً بالراحة؛ لم يكن ذلك الاعتراف مخيفاً أبداً. افترضت أن هذه السمة لا بد وأنها خدمته كثيراً بصفته تاجراً. كان لديه من التأثير ما يدفع الآخرين كي يكونوا صادقين، وبالتالي، كانت تسهّل عليه قراءة أفكارهم.

سألني: «حدّثيني عنك. هل أنت حقاً لصّة؟»

قلت: «دماغي يعمل مثل آلة تسجيل.»

«ودماغي يعمل على نفس الشاكلة.»

«لكنك لستَ كاتباً.»

«أستطيع أن أفيد مما تقولينه، بنفس الأسلوب.»

«أنت شخص غامض.»

قال وين: «لقد سمعت عنك الكثير من إيما اليوم. أرغب في أن أعرف إلى أي مدى تتطابق روايتها عنك مع حقيقتك.»

تساءلت كيف لإيما أن تجد الوقت الكافي لتخبر كلاً منا عن الآخر كل هذا الكم من المعلومات، وتخيلتها منشغلة مثل نحلة تمتص الرحيق من العديد من الأزهار. كانت هذه أيضاً واحدة من السمات التي تثير إعجابي بها: كانت تحب الناس، كانت تحب خصوصياتهم، وكانت تريد لأصدقائها أن يتقدموا في الحياة، ويكتشف الواحد منهم في الآخر ما كانت تثمّنه فيهم عالياً.

سألته: «ما الذي قالته عني؟»

قال: «قالت إنك فزت بهذه الزمالة وتلك، وبالعديد من الجوائز المهمة الأخرى. جائزة مونوغرام، وجائزة واشنطن. يا إلهي، لقد كنتِ يا فتاة، مشغولة جداً.» توقف ونظر إليّ وهو يغمز بعينه، وتابع قائلاً: «لا بد أن إيما قد ذكرت لك الكثير من الهراء عني، من دون شك.»

أومأت برأسي بالإيجاب وقلت: «ما قالته عنك كان إيجابياً جداً.»

ضحك؛ تحول الحديث بعد ذلك إلى رواية «جيل النار» التي ما تزال مشروعاً معلقاً في الهواء. رويت له القصة باختيار: تدور الحكاية حول أختين تزوجتا الرجل نفسه. كانت الرواية عبارة عن محاولة مني لتأليف كتاب يمكن أن يجذب جمهوراً أعرض، بالرغم من أنني بشكل عام لم أكن أشاطر الآخرين هذا الطموح. على العكس من ذلك، كنت أشعر دائماً أن عليّ تعديل مسار القصة من خلال القول إن ما كنت أبحث عنه في حقيقة الأمر هو أعماق الحب ومشاعر الوفاء في وجه الخيانة الموجعة. إلى أي مدى يمكن للأخت أن تضحي (أو ترفض التضحية) في سبيل أختها؟ هذا ما فعلته مع وين كي لا يظن أن الرواية تافهة.

سأل وهو يحاصر عينيّ: «إلى أي مدى يمكن أن تضحّي؟» كانت عيناه برّاقتين وتشعّان ذكاء؛ حينها فقط فهمت أن جاذبيته تكمن في عينيه. لم أشأ أن أشيح بنظري بعيداً عنه بالرغم من الصعوبة التي واجهتها في تثبيت نظري على عينيه.

قلت: «عليك أن تقرأ الرواية». أردته أن يقرأ روايتي كما أردته أن يحبها ويعجب بها بنفس الطريقة التي أثار هو إعجابي به كونه يفعل ما يريد ويقول ما طاب له القول.

قال: «سيكون بإمكانك شراء المنزل بالمال الذي ستقبضينه مقدماً عن روايتك.»

ضحكت وأدرت عينيّ في محجريهما. قلت: «سأكون محظوظة إذا استلمت الدفعة الأولى من مستحقاتي عن الرواية. وإذا لم أتمكن من ذلك، أكون قد انتهيت كروائية.» في اللحظة التي أنهيت هذه الجملة، انتابني ندم شديد لأنني تلفظت بتلك الكلمات؛ كنت مثل ذلك السكران الذي تتجلى له الحقيقة في الخمرة. أخذت رشفة من الشمبانيا ونظرت إلى القمر. كان بدراً مكتملاً، وكان أحمر اللون، وكان يرتقي في السماء كبيراً، تماماً كما وصفته إيما. قلت آملةً أن يساهم ظهوره في تغيير الموضوع: «انظر إلى القمر». كان بإمكاني سماع صوت نافذة تغلق في الطابق العلوي وتصورت أن ابنتيّ تلتفّان حول ثيودور وهو يقرأ لهما في محاولة منه كي يساعدهما على النوم. كانت تلك صورة كاملة من حيث المبدأ لكنها كانت ناقصة بالنسبة إلي بما أنني غير قادرة على دفع كامل النفقات: الابنتان، والمربية، والمدرسة الخاصة، والأب الكسول الذي يساعدهما في الخلود إلى النوم. صدرت من المطبخ أصوات اصطدام القدور الثقيلة ببعضها بعضاً تسبب بها ويل. تخيلت الكركند وهو يتشبع بالبخار. كان بوق تحذير السفن على إحدى الجزر المقابلة يطلق أصوات التحذير بشكل منتظم بالرغم من أنه لم يكن هناك ضباب في الأفق. أخذت رشفة أخرى من الشمبانيا، وقف بعدها وين وأمسك بالزجاجة كي يصب لكلينا المزيد منها.

قال: «هل هذه هي الطريقة التي تتم فيها الأمور؟ هل يُحَمّلُ الكاتب مسؤولية قلة المبيعات؟»

قلت: «بلى»، لكنني لم أشأ الاستمرار في الحديث حول هذا الموضوع. تابعت قائلة: «ما رأيك في أن نساعد في أعمال المطبخ؟»

ذكّرني قائلاً: «إن مساعدتنا ليست مطلوبة، تذكرين ولا شك، أنهم طلبوا إلينا أن نبقى في الخارج». لم أكن بحاجة إلى من يُذَكّرني بذلك، وتمنيت أن يأتي ثيودور لإنقاذي بحيث نتوقف عن الخوض في غمار موضوع يبدو أننا نقترب منه كثيراً وبسرعة؛ فما يحدث الآن أشبه ما يكون بالرواية ذات المفتاح التي أكتب فصولاً منها يومياً ويختلط فيها الخيالي بالواقعي، بعنوان: «خرائب حياتي». كنت أعلم أن وين لم يكن يقصد جرح مشاعري، لكنه أصر على متابعة أسئلته: «ما هو عدد النسخ التي ستطبع من الكتاب عادة، وهل على رواية مثل «جيل النار» أن تباع بكثافة كي تعتبر رواية ناجحة؟» كان يتفحصني بعينيه ويتمعن فيّ ويقرأني. فقد قضى وقتاً طويلاً مع أشخاص حققوا كمّاً كبيراً من الكسب المادي، ولم يكن يعرف شيئاً البتة عن النضال من أجل الحصول على حياة كريمة، أو ما الذي يعنيه وجود قوى أكبر من المرء تدفع به كي يكون ناجحاً. كان هو مسؤولاً عن أحد الأقسام الكبرى في شركة رهن عقاري في وول ستريت. كانت هناك قوى خارجية بكل تأكيد، لكنها كانت جميعها جزءاً من معادلة كان بإمكانه أن يقود مسارَها إلى نتائج مُرْضية. ليس بإمكان الكاتب في معظم الأحيان القيام بشيء مشابه. الشيء الوحيد الذي يمكن للكاتب أن يسيطر عليه هو عمله: أي فعل الكتابة. بعد ذلك يكون الأمر مرهوناً بأيدي قوى غامضة لا يفهم ماهيّتها حتى الناشرون.

قلت من دون أن تكون لدي فكرة عن الطريقة التي أستطيع فيها السيطرة على دفة الحديث: «ثلاثون، ربما أربعون ألف نسخة سيكون أمراً رائعاً». تابعت قائلة من دون تفكير في محاولة أخرى لتغيير مسار الحديث: «سوف ألتحق بوول ستريت لو فشلت». لم يضحك. حاولت الانتقال بالحديث

إلى موضوع اسكتلندا، والرحلة التي نزمع القيام بها إلى هناك، وإلى موضوع القلعة التي كان أخي يستأجرها برفقة زوجته وأختيها قبالة بحر كينتاير، حيث الأخوات الثلاث دائماً ما يتقاتلن، ثم يتصالحن، ثم يتقاتلن من جديد على شكل دراما تصعيدية تبدو معها العودة إلى الود بينهن أمراً مستحيلاً، وهو أمر منافٍ للطبيعة الإنجليزية؛ ولكن في كل مرة كان الود يسود بينهن من جديد، كانت تلك العودة مقرونة بالضحك. كنت أتحدث بتخبّط وعصبية. قلت: «يطلق عليهم ثيودور عبارة: إلهات القَدَر الثلاث»، لكن وين لم يبدُ عليه أنه يستمع إلى ما أقول. كان يحدِّق بي بطريقة تنم عن ضجر شديد، بدا أن دوّامةً تعتمل داخل رأسه وتجرفه إلى مكان بعيد جداً.

قال: «يا له من مشهد مسلٍّ». حكّ أرنبة أنفه بطريقة تأملية. لم أكن أعلم أن العينين البنّيّتيْ اللون يمكن أن تكونا على ذلك القَدْر من الإشعاع مثل الجواهر.

قلت مُحاوِلةً رسم صورة للأخوات الجميلات في حالٍ من الغضب الشديد تتلوها نوبات من الضحك: «إلهات القَدَر الثلاث». المفارقة كانت أنني كنت مفتونة بطريقة تعبيرهن عن انفعالاتهن؛ فقد دفعنَني إلى الإحساس بالرغبة في أن أكون واحدة من عدة أخوات، عددهن أكبر حتى من أخوات ويل الخمس. بدا وكأنهن باهتماماتهن المشتركة، يعنين الكثير لبعضهن بعضاً. لم تكن لدي مثل هذه العلاقة العشائرية، ذلك أن صلتي بأخي كان يشوبها الطابع الرسمي.

«هل يمكن أن تفعلي شيئاً من هذا القبيل؟»

«تقصد، أن تكون لديّ أخوات؟»

قال: «وول ستريت». بدت عيناه الآن مركزتين عليّ تماماً وكانتا تلمعان كنجمتين. تابع قائلاً: «أعني هل ستأتين إلى وول ستريت؟»

سألته: «هل هذه دعوة لي، منك؟»

«ربما.»

«حسنٌ. إذاً، ربما.»

قال: «تعجبني هذه الفكرة؛ إنها فكرة مسلّية.»

أجبت ساخرة وأنا أتحاشى النظر في عينيه: «بالتأكيد».

قال: «إذاً، ستعملين عندي». لم يكن يبتسم. في الحقيقة، كانت هناك مسحة من الجدية في الطريقة التي تفوّه فيها هذه الكلمات. تابع قائلاً: «سوف تعملين تحت إمرتي؛ آمل أن تفشل روايتك».

قلت: شكراً».

«هل درستِ مادة «التفاضل والتكامل» في الجامعة؟»

«لم ألتحق بالجامعة.»

علت وجهَه أماراتُ الدهشة. شعرت بالارتياح؛ فقد بدأت أستعيد زمام الحديث من جديد. في هذه اللحظة بالذات، استطعت أن أطيح به من على

صهوة جواد قوته؛ وبالتالي، فقد استعدت السيطرة على الموقف. لقد أحببت وين. أحببته جداً، جداً.

قال: «إنكِ تضايقينني بسخريتك».

قلت: «وكذلك أنت. لقد كنت ممتازة في مادة الرياضيات. لقد كانت المادة الوحيدة التي كنت أحصل فيها على الدرجات الكاملة. لكن روايتي لن تفشل، وأنا لن أنتقل مطلقاً إلى وول ستريت. لا أستطيع أبداً أن أتخيل أن عليّ ركوب قطار الأنفاق يومياً». تخيلت نفسي بدلاً من ذلك راكبة في سيارتي الخاصة التي يقودها سائقي الخاص؛ تخيلت حياة موازية لحياته تكون فيها مثلاً طائرة الهيلوكبتر الباهظة الثمن الخاصة بي، تجوب سماء الليل الصافية. هذه الحياة التي تضج بالترف والروعة والوفرة العظيمة كانت واضحة في مخيلتي وتضفي إحساساً بالاستقرار يحيط بي كمكافأة لي مقابل توْقي إلى تتويج حياتي بالجمال.

«امنحيني ثمانية عشر شهراً، وسأجعل منك تاجرة. ولن تكوني تاجرة عادية بأي المقاييس.»

سُمِعَ صوت باب المطبخ يَصْفُق بعد أن ظهر ويل بوجهه الباسم وأمامه قِدْر المِبخرة. قال وهو ينظر إلى كليْنا: «ما الأمر؟ إنكما مثل زوج من حيوانات الأبوسوم»[11].

11 - الأبوسوم هو حيوان يعيش في أمريكا ويتظاهر بالموت عندما يحدق به الخطر. (المترجم.)

قلت: «لقد قدّم لي وين عرضاً للتو».

قال ويل: «ما الذي يجري هنا؟» وبعد أن اشتمّ رائحة هدوء في المكان، استدار صوب الطابق الثاني وصاح: «بدأت عطلة نهاية الأسبوع هذه تتخذ مساراً غريباً. يا ثيودور، إن وين يحاول إغواء زوجتك.!»

جاء صوت ثيودور المكتوم من غرفة النوم في الطابق الثاني: «قل له من فضلك أن يتوقف عن ذلك».

ظهرت إيما فجأة معلنة أن علينا تناول الطعام المُبَخّر حالاً وإلا فلن يكون مذاقه شهياً. بعد ذلك، وصل ثيودور، وجلس بجانبي. كان قد اغتسل وارتدى قميصاً جميلاً، وكانت خصلات شعره المجعد التي تتناثر فوق وجهه تمنحه مزيداً من الوسامة. قال وهو يرفع يدي إلى فمه ويقبّلها، عارضاً دعواه: «الآن، ما الذي تنويان القيام به أيها الماجنان الجامحان؟»

بدأنا بعدها في التهام البطلينوس بعد أن ننزع القشرة التي تغطي أعناقها الطويلة السوداء، ونغمسها بالزبدة. كان طعمها بطعم الزبدة بليونتها وسهولة ذوبانها في الفم. كان هواء الأطلسي يهب فوق رؤوسنا حاملاً طبقة خفيفة من الضباب.

سأل ويل وين: «كيف هي الحال في أوروبا؟»

أجاب: «لا شيء يذكر يحدث هناك. فالقوانين المختلفة هناك تشكل عقبة حقيقية. هناك الكثير من الدول فيها.»

«سوق السندات المالية الأوروبـي». شرح ويل لي ولثيودور ما تعنيه هذه السوق. لم تكن لديّ أدنى فكرة عما يمكن أن تعنيه عبارة السندات المالية.

«ترغب شركة وين تصدير بنية سنداتنا المالية، لكن الأوروبيين لديهم قوانين صارمة وعتيقة تحمي شعوبهم وهي تختلف من بلد إلى أخرى.»

قالت إيما: «لا يلجأ الناس في أوروبا إلى أسواق الرهن العقاري بنفس الحجم الذي يلجأ فيه الناس إلى هذه السوق في الولايات المتحدة.» لم أفهم شيئاً مما قالته.

قال ويل: «من الأفضل أن نسمح لهم بشراء رهانات عقارية عندنا، فنحن سنزداد غنى بفضلهم، على أية حال.»

قال وين وهو ينظر إليّ نظرة تآمرية: «في الحقيقة، لديّ خطة عمل جديدة نوعاً ما». كان ويل وإيما آذاناً صاغية. تابع قائلاً: «سوف أوظّف إنديا لديّ.»

قال ثيودور وهو يضرب جبهته بعنف فيه الكثير من المبالغة: «إذاً هذه هي طبيعة العرض الذي قدّمه لكِ، الحمد لله!»

قلت وأنا أبتسم ابتسامة تنطوي على بعض الخجل: «سوف يجعل مني تاجرة.» أعجبتني فكرة أن أعرف شيئاً لا يعرفانه.»

قال ويل: «نحن أمام قصة بيغماليون جديدة.»

قلت: «هذا صحيح.» وتابعت في سرّي: «أعِدْ خلقي من جديد؛ اجعلْني غنية مثلك». سوف أترك الأمر للفتى الكامل كي يضع إطاراً أدبياً بلاغياً لعرض تجاري سخيف.

قال وين: «لكنني أواجه صعوبات في التفاوض معها.»

قال ويل: «قل لنا ما هي تلك الصعوبات.»

قال وين: «لا تريد أن تستقل قطار الأنفاق.»

قال ويل بلغة العارف: «إنها تريد سيارة.»

أضاف ثيودور: «وطائرة خاصة أيضاً.»

قال ويل: «لا تنسي الأثر الرجعي لرزمة خيارات الأسهم يا إنديا.»

قال وين: «سوف يكون هذا مؤثراً.»

قلت وأنا مستغرقة في التفكير: «أعجبتني جداً فكرة الطائرة الخاصة.»

قالت إيما بأسلوب فيه الكثير من الحماية: «لن نسمح لشيء مثل هذا أن يحصل. لن نسمح لك بإفساد فنانتنا يا واين جونز.»

قال ثيودور وهو ينظر إليّ كما لو كنت قد فقدت عقلي: «أجل، سوف يفسدها بالتأكيد»؛ كان يتأمل ذلك الجانب في شخصيتي، الجانب الذي يعرف جيداً أنه قابل للإفساد، ويتساءل كما تخيلت، فيما إذا كنت قد أخذت هذا العرض على محمل الجد، أو أنني أوقعت نفسي في خضم

ورطة أو فوضى عارمة. رفعت حاجبيّ بطريقة إيحائية، وازدردت قطعة من البطلينوس، ورفعت كأسي لأشرب نخب ولاية مين والمنزل، وكذلك نخب فكرة أن يصبح ملك إيما يوماً ما، بالرغم من أنني شخصياً بدأت أقع في حب هذا المنزل، أم هل عليّ أن أقول: هذه البقعة. ارتقى القمر الآن أكثر في السماء، وشق ممراً عبر الماء بدءاً منه وانتهاء حيث نجلس؛ كان ذلك الممر ساطعاً لدرجة أنه بدا وكأن بإمكانك السير فيه.

في الصباح، غطى الضباب الكثيف المنطقة. لم أستطع إلا بالكاد تميز الكثبان قبالة المنزل مباشرة. هذا التغير المفاجئ في الطقس، أثار في داخلي دفقة أمل. كان ضباباً جميلاً أبيضَ يتماوج مثل حجاب يغطي الشاطئ والصباح. كنت آمل وأنا جالسة في السرير في الغرفة البرجية وبجانبي زوجي الذي يغط في النوم في ذلك المنزل الذي يعمّه الهدوء، أن يمنع الضباب وين من السفر. لم يكن أمامه مجال للسفر جواً في مثل هذا الطقس. لففت ثوبي حولي وانسللت إلى الطابق السفلي. لم أشعر بهذا القَدْر من النشاط عند الاستيقاظ منذ سنين عدة. أردت أن أرى وين مرة أخرى؛ أردت أن أرمق ابتسامته، وعينيه، وأصغي إلى تصريحاته الجريئة. كنت أشعر بالدوار. كنت أتوق إلى رؤيته في المطبخ وهو يرتشف فنجان الكوباتشينو الصباحي (كانت إيما قد أحضرت معها أيضاً آلة تحضير الكوباتشينو.) وأمارس رياضة المشي فجراً على الشاطئ.

لكنه كان قد سافر. (الأشخاص الذين يملكون أموالاً وثرواتٍ لا عد لها ولا حصر، لا يمكن أن يعرقل حركتهم على ما يبدو، شيء مزعج كالطقس مثلاً. تخيلت أن سيارة ليموزين أقلّته إلى مطار خالٍ من الضباب حيث تجشم

طائرته النفاثة من طراز جي - 4). حيث كان يجب أن ألقاه، كانت هناك أربع طائرات ورقية ملونة وملفوفة بعناية بالسلوفان؛ وتحتها كانت ورقة تحتوي على رسالة شكر مع وعد بسماء صافية ورياح قوية بعد الظهر. وقفت على الممر الخشبي قبالة الشاطئ، وكان الضباب يغمرني؛ كان من الكثافة بحيث أنه كان من المستحيل رؤية يدي عند مدّها أمامي.

الفصل الخامس

لم تُتَحْ لي رؤية وين مرة أخرى إلا في إحدى الليالي الشديدة البرودة في شهر تشرين الثاني، نوفمبر. دعانا وين أنا وثيودور إضافة إلى آل تشابمان إلى حفل خيري في متحف ميتروبوليتان للفنون بالقرب من معبد دندور. كان الثلج ينهمر بغزارة على الجدار الزجاجي الذي يطل على الحديقة. تمت إنارة المعبد الذي بدا وكأنه يطفو فوق مياه المسبح المظلم الذي يقع أمامه مباشرة في حين كان المدعوون الذين تسيطر عليهم روحيّة الإجازة ينتقلون من محادثة إلى أخرى. كانت شرائح الخبز المفروشة بالكافيار والجبن وأقداح الشمبانيا والموضوعة على صوانٍ من الفضة ويحملها خدم يلبسون قفّازات بيضاء طويلة، تتهادى فوق رؤوس المدعوين.

كانت إيما ترتدي معطفاً من المخمل أحمر اللون؛ وكانت تعقص شعرها على الطريقة الفرنسية، وتضع ظلاً أزرق حول عينيها. مالت نحوي وهمست في أذني كي تعلمني أن طاولة المتبرعين التي تم اختيارها لنجلس إليها تكلف خمسين ألف دولار. امتزج همسها بلا معقولية هذا المبلغ الخيالي الذي علينا إنفاقه مقابل بضع ساعات من التسلية. ظهر بعدها وين أمامي وهو يرتدي سترة من المخمل إضافة إلى ربطة عنق وردية شاحبة اللون؛ كان قد سرّح شعره الخفيف بطريقة ناعمة على أحد جانبي رأسه. أضاءت وجهَه وعينيه اللتين لهما لون الشوكولاته، ابتسامةٌ ماكرة، في الوقت الذي كنت أقترب منه، ما فرض عليّ رسم ابتسامة على شفتيّ؛ كما تملّكني حينها شعور بالثقة بالنفس والأمل. قال وهو يقبّلني على جبيني كأخ محب: «أهلاً بمُساعِدتي »؛ كانت شفتاه دافئتين، وعناقُه قوي ومرِحٍ بالثقة. تابع قائلاً: «لقد كنت

بانتظار قدومك». أبعدَني بعدها بكلتا ذراعيه قليلاً عنه كي يتأملني بإعجاب. ارتديت معطفاً طويلاً خاصاً بالمناسبة (وكان من الحرير الأسود الشفاف فوق فستان من الساتان الحريري ذي الخصر الفضفاض)، لأنني كنت أعلم أنني سأراه مرة أخرى. أدارني ببطء، كما لو أنني كنت ملكاً له، كان يتصرف كما لو أن جزءاً مني كان ملكيته الخاصة، وأن بإمكانه أن يفعل بي ما يشاء. تركته يعتقد أن بإمكانه ذلك لأن إحساسي بأنني ملكٌ له جعلني بشكل أو بآخر، أشعر بأنني أكثر قوة، وأكثر حياة. قال: «تبدين مذهلة؛ اشتقت إليكِ».

كل هذا حدث لاحقاً. أما الآن فإنني أتحدث عن مغادرة مين. تركنا مين بعد أن سافر وين بيوم واحد. كان ذلك في نهاية شهر تموز، يوليو. شعرت بالاكتئاب، بالرغم من أنني حاولت إخفاء هذا الشعور. قفلنا راجعين إلى نيويورك؛ إلى خمسة أسابيع من الكتابة قبل بدء الفصل الدراسي. كنت أخطط للبدء في كتابة رواية جديدة بحيث لا أصاب بالإنهاك بسبب نشر روايتي الحالية. تعلمت منذ مدة طويلة أن من الأفضل الانخراط في مشروع جديد يجعلني أقل اهتماماً بموضوع النشر. هذه كانت الفكرة التي دارت في مخيلتي؛ وقد أتَتْ أُكُلَها ذات مرة. كنت في غاية السعادة بعد نشر إحدى رواياتي ولم يكن يعتريني أي قلق من أي نوع كان؛ كان كل شيء على خير ما يرام: - المقالات النقدية التي تثني على الرواية، إلى ما هنالك - باستثناء قلة عدد المبيعات. مشكلتي هذه المرة كانت بسيطة: فبخلاف الرواية الافتراضية عن إيما تشابمان، لم تكن لدي أدنى فكرة عن رواية أخرى قادمة. وهكذا، فما هو أمامي الآن، إذا كنت عاجزة عن العمل، هو ذلك الكم من

الوقت قبل نشر رواية «جيل النار». الخيار أمامي الآن هو :»الهدوء الذي يسبق الهدوء»، كما عبّر عنه مرّةً أحدُ أصدقائي الروائيين.

كانت تنتابني مسحة من الحزن كلما ودّعتُ آل تشابمان. ولقد تعوّدت على هذا الإحساس. كان هذا يحدث بُعيْدَ انتهاء حفل العشاء البسيط الذي كانوا يقيمونه على شرفة منزلهم في حيّ تريبيكا. كنت أتوق، وأنا أقود سيارتي في طريق العودة إلى منزلي بمحاذاة مهبط طائرة الهيلوكبتر ومتحف الفضاء، إلى شيء أعجز عن وصفه، ربما كان اصطحاب شيء منهم كتذكار ينضم إلى جملة تلك الأجوبة التي يبدو أنهم يعرفونها جيداً. كنا، أنا وثيودور، نقترب من سن الأربعين؛ كنا أبوين لابنتين، لكننا عشنا كزوجين يبدأان حياتهما الزوجية للتو – على أمل أن تتغير الظروف بحيث أنه عندما تزدهر مهنتينا، فسوف ننتقل من شقتنا إلى مكان ألْيَقُ بمكانتنا، ونستبدل أثاثنا القديم الذي سوف نرميه بعيداً عن الشارع. لم يكن بإمكان أية مزاعم ندّعيها، أو حقائق نخفيها أو خداعات نمارسها أن تحجب الحقيقة عني ونحن نواجه كل ما كنا نملك، وما لا نملك. فمع الانتهاء من كل رواية أكتبها، وانتظار موعد نشرها، كنت أتمنى أن تتغير ظروفنا. وبغض النظر عن كمّ ما بنيت من حياتي حول فني، فإنني كنت آمل في كل مرة، أن تكون روايتي التالية بطاقة فوزي بالجائزة الأدبية حيث يلتقي الفن مع المال الذي قد يبتاع لك ما يقيك من مشكلاتك.

هذا هو التناقض الذي يعيشه الكاتب: «الأنا» التي تصب الزيت على نار الاعتقاد بأن المرء على وشك أن يصبح استثناءً. «الأنا المتضخّمة» هي ما جعلتني أستمر في الكتابة؛ كانت هي الضرورة اللازمة لهذه التجارة. كيف

للمرء أن يتقدم إلى الأمام من دون هذا الهاجس؟ كنت توّاقة لأثبت لأبي أن بإمكاني توفير نفقات حياتي، وأنني، من خلال موهبتي، اكتسبت القدرة على القيام بذلك في تحدٍّ واضح لتوقعات أبي لي بالفشل. كان النجاح بالنسبة إليه وإلى آخرين كُثُر يعني شيئاً واحداً وحسب. كنا جميعاً نعرف ماذا يعني ذلك. ولذا فقد أملْتُ، وتماديت في الأمل، لكن المشكلة مع الأمل الذي يعضّك في كعب قدمك مثل كلب البودل في فورة نشاطه، والذي يثير الجَلَبَة باستمرار كي تصغي إليه وتصدّقه، أن الأمل يتحول إلى توقع، ولو منحتَه بعض الوقت، ينتقل التوقع إلى شيء آخر من جديد؛ إنه يتحول إلى اعتقاد: اعتقاد بأنك تستحق ما تصبو إلى تحقيقه.

مَنْ منا لا يعتقد أنه يستحق أكثر مما حصل عليه، باستثناء قلة قليلة؟ كنا أنا وثيودور، ونحن نستقل قطار الأنفاق في طريق عودتنا إلى المنزل في وقت مبكر من إحدى الأمسيات، نتناقش فيما يتوجب على الفنان الحقيقي أن يفعله. كنت أقول إن الفنان الحقيقي لا يكون متطلّباً بنفس القَدْر الذي أتطلبه. فسعادة الفنان الحقيقي تكمن في فعل الإبداع. كان يجلس إلى جانبنا في عربة قطار الأنفاق شاب طويل أصلع، ومألوف الوجه. كان وجهه مألوفاً إما لأنه كان مشهوراً، أو بسبب أنني كنت أعرفه من أيام الجامعة. كان يرتدي قميصاً أخضر نظيفاً ومكوياً شاحب اللون مثنيّاً بأناقة فوق سروال الجينز الذي يرتديه؛ كما كان ينتعل خفّيْن لامعين من دون جوارب. كانت له تلك الملامح التي توحي بأنه من المُنعَمين، لكنه كان يتمتع بأناقة تجعل من ملابسه عنواناً لشخصه. كان يدفن رأسه وأنفه في المجلة الأدبية «ليتراري ريفيو».

وبينما كان قطار الأنفاق ينطلق بنا باتجاه الضواحي، كنت أحاول التثبت من شخصيته. كانت الماركة التي تظهر على أحد جانبيْ نظارتيه تشير إلى أنها من نوع برادا، وكانت ساعته أيضاً من ماركة برادا كما يظهر على أحد جانبيها. تابع القراءة. بدوري، تابعت محاولة تَذَكّرِ مَن هو بالضبط. نزل من عربة القطار في نفس المحطة التي نزلنا فيها. سرنا وراءه قاطعين عدة أحياء. وبعد وصولنا إلى المنزل، بحثت في موقع غوغل عن اسم كارلايل بي. سميديس، فتى الساعة البارز والشهير؛ الروائي الاسكتلندي صاحب أفضل المبيعات، وأعظم نجم أدبي: «هو صاحب الخيال الإبداعي، المليء بالحيوية، والخلّاق الذي لم يبزّه أحد في موضوع ضخ الحياة في الأدب المعاصر، وصاحب الأسلوب البهلواني؛ إنه صوت الانتقال إلى القرن الجديد». كان هناك إجماع عالمي في الثناء عليه، وكانت له صورة على الموقع – إنه فتى الساعة نفسه – نفس الرجل الذي رأيته في قطار الأنفاق. قالت لي صديقتي ليلي ستار، وهي أيضاً روائية على وشك نشر روايتها الأولى، عندما أخبرتها أنني كنت أجلس بجانبه، وكنا نتحدث عن الفرق بين الفنان الحقيقي والفنان المزيف: «ربما كان يقرأ قصة كتبها هو»، وتابعت قائلة: «نظارتان من ماركة برادا وساعة من ماركة برادا؛ لقد حصلت على إجابة على سؤالك.» ثم سألتني: «ألم يعلن مارك توين إفلاسه؟ ألم يراهن هيرمان ميلفيل على مزرعته ويخسرها؟»

«لا تنسي شيللي الذي كسب أربعين جنيهاً بالتمام والكمال ثمن رواية كتبها عندما كان ما يزال طالباً في المدرسة.» استمتعنا بهذه اللعبة.

«لكن جويس وباوند وميلتون ماتوا جميعاً في ظروف تعيسة، وفي ظل فقر مدقع.»

قلت في سرّي بنَفَسٍ فيه الكثير من الهرطقة: «يا لهم من حمقى!» في تلك اللحظة، لاح في خاطري طيف وين.

أن يكبر المرء يعني ما يلي: شراء شقة تشبه شقة آل تشابمان، أي أن تكون جدرانها ناعمة الملمس ومتّسِقَةً في تفصيلاتها؛ وأن يتم اختيار أدق الإكسسوارات لها: مثل أزرار الكهرباء ومقابض الأبواب وصنابير الماء إلى ما هنالك مما يؤهلنا في نهاية المطاف للمشاركة في الحديث حول موضوع العقارات، وهو الموضوع الذي يطبع الحياة في مدينتنا العزيزة نيويورك. من المعروف أن كارلايل سميديس أنفق مليونيْ دولار لقاء منزل من الحجر الرملي مكون من طابقين في منطقة شوغر هيل ابتاعه لنفسه ولكلبه، كما أنفق أربعة ملايين دولار على ترميم العقار: المرآب والساحات التسع كلها؛ محولاً بذلك الجوار إلى منطقة سكنية جديدة وعصرية للفنانين البارزين، ما جعل أسعار العقارات في المنطقة ترتفع بشكل جنوني. كتب أحد المدوِّنين على موقع إلكتروني خصص لمناقشة عملية الشراء التي قام بها سميديس: «إنه يطلق على نفسه لقب فنان، بحق الله!»

أن أكون كبيرةً يعني أن عليّ دعوة أبي وأمي إلى عشاء فاخر، وأن أخصص لهما غرفة نوم للضيوف، وأن أجعلهما يريان بأمّ العين ما الذي حققته لنفسي، كي أثبت لهما كم كانا مخطئيْن بحقي. كان هذا يعني كلفة أكبر بكثير من واردات أية رواية نشرتها حتى الآن؛ لكن لو تمت تغطية كل النفقات الآنفة الذكر من خلال مردود المبيعات لرواية ناجحة، فإن ذلك يُعَدُّ انتصاراً. كاد أبي يحرمني من الميراث بعد أن علم أنني دفعت قيمة عقد الإيجار لشقة مستأجرة بعقد ثابت. (الصفقة التي كنت فخورة بها كان فيها

بعض المخاطرة وقراءة للحظ ظهر على وجه إحدى الراغبات في استئجار الشقة؛ كانت أصابعها نحيلة وأظافرها طويلة مطلية، وكان هناك أيضاً رجل بصحبة سمساره، وامرأة أخرى إحدى رجليها مقطوعة؛ كان مبلغٌ مقداره خمسة عشر ألف دولار، موضوعٌ في كيس ورقي كافياً لاستلام عقد الإيجار الذي سيؤهلنا للسكن في مدينة نيويورك بشق النفس. اضطررت إلى اللجوء إلى منحة الدراسات العليا التي حصلت عليها إضافة إلى قرض طلابي، آملة في أن أردّها عن طريق تأجير شركاء في السكن؛ ومن خلالهم يمكن أن نسكن في الشقة مجاناً. قال ثيودور بعد أن دفعنا مبلغ الخمسة عشر ألف دولار، ولم نعد بحاجة إلى شركاء السكن فقد أصبحت الشقة بكاملها لنا وحدنا: «كان عليكِ أن تعملي في وول ستريت.» بدت الشقة واسعة جداً قبل مجيء الأولاد. استغرق سداد مبلغ الخمسة عشر ألف دولار سنة كاملة.) كان استئجار شقة بعقد ثابت مسألة مُذلّة في نظر أبي؛ كان يرى أنه نظام صمم لإذلال المُلّاك من رجال الأعمال المحترمين؛ وهو من نفايات الاشتراكية من الزمن الذي كان فيه الديمقراطيون يتمتعون بسلطات واسعة. كان تحت مظلة نظام الرعاية الاجتماعية، ليس إلا. قال لي إنني سوف أندم على ذلك يوماً ما لأنني في المستقبل، لن أصبح من أصحاب الأملاك، أو الأسهم، يا للعار! كان أبي ينتمي إلى الحزب الجمهوري، أما أنا فكنت فنانة، لكنني لم أكن أرغب في أن أعيش عيشة الفنانين. لم أعش أبداً عيشة الفنانين؛ لأنه لولا هذه الشقة ذات العقد الثابت، لما كان بإمكاننا أن نسكن في مدينة نيويورك.

عندما ابتعدنا بسيارتنا عن آل تشابمان وعن مدارهم المتألق المليء بالشمبانيا وأنواع الجبن الطيب المذاق، وأشخاص مثل وين، شعرت بأن حفرةً

بدأت تتسع داخلي تستطيع أن ترمي فيها منزلاً بكامله. الآن، وبعد مغادرة ولاية مين، بدأت أواجه حقيقة النشر المرتقب لروايتي «جيل النار» وما يمكن لفشلها المحتمل أن يعني بالنسبة إليّ. هذا ما ظهر فجأة أمام وجهي ونحن نترك وراءنا هواء البحر وأشجار الصنوبر. شيء ما في داخلي بالرغم من أنني كنت آمل العكس، كان يقول لي إن عملية النشر لن تجري على ما يرام. كانت الاحتمالات تتجه صوب هذا المنحى. تخيلت أن إيما سوف تتفهم ذلك. كنت أرى في مخيلتي عينيها تفصح عن هذا التفهم الذي هو مزيج من التعاطف معي، وشعور بالارتياح بسبب حُسْنِ طالِعها.

شعرت في الواقع كما لو أنني وثيودور مطرودان من عالم آل تشابمان كما لو كنا مستأجريْن منفييْن مُنِعا من حق استرداد عقارهما المرهون (بمعنى أنهم لن يشعروا بالانتماء إلى ولاية مين إلا إذا كانت ملكاً لهم. لقد فعلوا ما بوسعهم من أجل أن تصبح ملكاً لهم.) قالت إيما وهي تثبت عينيها عليّ: «عندما أراك في المرة القادمة، ستكونين على وشك وضع حملك». كانت تلك طريقة غبية في التعبير عن موضوع يتعلق بنشر كتاب. هل كنت أرى في تلكما العينين بقايا رغبةٍ نحسُّ بها جميعاً، وأعني بها السعادة التي تغمر امرؤ ما، عندما يقف متفرجاً على سقوط شخص آخر؟ كنت أنا من ابتدع تلك الفكرة، وأعني بذلك صورتي في مخيلتها. كانت تحبني، ولو كان لديها تصور عن طبقات الخوف في داخلي، والشك بنفسي الذي يعتريني، والأنا؛ أجل، «الأنا» التي تعتمل في داخلي، لحاولتْ تقديم الدعم والمساندة لي.

عندما كنا نقف في ساحة منزل مين بالقرب من سيارتنا مُثقَلين بكل أغراضنا الشخصية: من ألعاب وألغاز وطائرات ورقية ودراجات هوائية؛ أي

كل ما تتطلبه الإجازة من أدوات وأغراض للبنتين، كانت ذراعا إيما المَرِنتيْن تحيطان بزوجها. شعرت كما لو أننا كنا بالنسبة إليهم عائلة جود بالمقارنة مع آل جونز. قالت بكل كياسة: «أرجو أن تصلوا سالمين.» كانت صورة ويل وإيما وهما يحيطان بعضهما بعضاً مؤشراً على ضرورة مغادرتنا حالاً.

عندما كنا نقود السيارة عبر ولاية كنيتيكت، اتصلتُ بآلة تسجيل المكالمات في المنزل لاستعراض المكالمات الواردة على مدى أسبوع. أسندتُ جهاز الهاتف النقال إلى أذني بواسطة كتفي، وطلبت إلى البنتين أن تهدأا قليلاً. كتبت باليد الأخرى عدة أسماء وأرقام. حفظت بعض الأرقام والأسماء وحذفت البعض الآخر؛ ثم جاء الاسم الذي كنت بانتظاره طوال الوقت. ابتسمت. سأل ثيودور: «ما الأمر؟» طلبت إليه أن يصمت بينما كنت أسجل الرقم. وصلت بعد ذلك رسالة أخرى، أفضل من سابقتها. تلتها رسالة أخرى، وبعدها أخرى. لقد وقعت على منجم من الذهب.

قلت: «يستحق الأمر أخذ إجازة لمدة أسبوع.»

أصرّ على سؤاله: «ما الأمر؟»

أخبرته بالأمر. لقد أحبّت المجلة الأدبية «ليتراري ريفيو» روايتي. أحبّتْها! كان رئيس التحرير هو المتصل. لقد أحبتها! قالوا إنها أفضل رواية قرؤوها هذه السنة. عرضوا أن ينشروها على حلقات. عرضت مجلة «المرأة»[12] عليّ أن أكتب فيها؛ هل أستطيع أن أبدأ الكتابة فيها خلال عشرة أيام؟ أي موضوع أختاره بشرط أن لا يكون الموضوع موغلاً في التخصص الأدبي؛

Woman Magazine - 12

تريد المجلة أن أكتب موضوعاً موجهاً إلى نساء ذكيات وعصريات وصاحبات أعمال يهوين القراءة، ولكنهن لا يرغبن في التفكير بعمق. تريد المجلة أن تبدأ هذه الحلقات في شهر تشرين الأول، أكتوبر بحيث يتزامن هذا التوقيت مع صدور الرواية. وردتني رسالة من وكيل أعمالي أيضاً يقول فيها إن ثلاثة ناشرين أجانب أبدوا اهتماماً بلقائي في زياراتهم إلى نيويورك التي يزمعون القيام بها في شهر أيلول، سبتمبر القادم. وأخيراً وليس آخراً، أراد معدو برنامج «عرض نيويورك الصباحي»[13] التلفزيوني معرفة ما إذا كانت إنديا بالمر تعاني من أي رهاب من كاميرا البث المباشر الحيّ، لأنهم كانوا يرغبون في إجراء لقاء تلفزيوني معها. أطلق ثيودور صيحة استحسان، اتبعتها البنتان بهتافات الفرح.

قال ثيودور: «هاكم نجمتي!» لكنني بالكاد سمعته. كان المطر قد بدأ ينهمر، وكان كل شيء في الخارج يلمع بفعل المطر. كانت الأشجار بلون الزمرّد، وكنت أتوق للوصول إلى المنزل.

قلت: «لِنذهبْ إلى أوروبا. دعونا نقوم بزيارةٍ لأخي هناك.»

كان أخي هيث قد وجّهَ إلينا دعوة في وقت سابق من الصيف لزيارته، وكانت زوجته كلاريسا تتصل منذ ذلك الوقت وترجونا أن نزورهم. كانت هناك رسالة هاتفية منها أيضاً. لم أشأ أن أعترف أمام أخي وزوجته أن أحوالنا المادية لا تسمح لنا بتغطية نفقات الزيارة، ولذلك اعتذرت عن القيام بها بحجة انشغالي في موضوع الرواية ونشرها. قلت: «إن كلاريسا ترجونا

New York Morning - 13

أن نأتي لزيارتهم.» فكرت في إيما؛ فكرت في أن أتصل بها لأشكرها على استضافتنا في عطلة نهاية الأسبوع الطويلة، ولأخبرها أننا في طريقنا إلى لندن، ومن هناك إلى «قلعة مبنية على مصب نهر كلايد في اسكتلندا»؛ هذا ما فكرت في أن أقوله لها. «خمرة كينتاير»، يا له من اسم جميل.

كانت هناك رسالة واحدة على هاتفي الخلوي من وين. تساءلت من أين أتى بالرقم. يقول في الرسالة: «إن نجمك يسطع يا إنديا بالمر. لقد قرأت رواية «كيف ننجز الأعمال هنا» [14]؛ كانت تلك روايتي الأولى، وقد نفدت نسخها من الأسواق. من أين حصل على نسخة منها؟ «لقد قرأتها وأنا في الطائرة عائداً إلى موطني. إن لغة الرواية فخمة وأنيقة جداً؛ لم أشعر أنني كنت أقرؤها بل كنت أعيش في داخلها. أتطلع إلى لقياك وسأجعلك تحمرّين خجلاً عندما ألقاك في المرة القادمة.

لم أُعلِم ثيودور أن وين اتصل بي.

The Way We Do Things Here - 14

الفصل السادس

كانت بوسي جونز هي الأولى في سلالة آل جونز. أجل، نحن نعرف كل أفراد عائلة جونز. إنهم خصوم عائلة جود. من قبيل المصادفة أن إديث وارتون كانت قبل الزواج، هي بوسي جونز، ابنة جورج فريدريك جونز، وكان سيداً نبيلاً ورث موقعه الاجتماعي وثروته من صناعة السفن والأعمال المصرفية وصفقاتٍ مُغامرة في سوق العقارات ساعد الحظ في وضع نهاية سعيدة لها. كان رجلاً مُترفاً اصطحب أسرته للعيش في أوروبا، وكانت له أملاك في مانهاتن ونيوبورت. قيل إن اسمه وأسلوب حياته (إضافة إلى حسد الآخرين) أدى إلى شيوع عبارة «مجاراة عائلة جونز»، وهي عبارة استخدمها رسّام الكاريكاتير آرثر ماموند المعروف باسم بوب حيث ضمّنها في عموده الساخر. قام سنة 1913 بكتابة مسلسل كرتوني بعنوان «مجاراة عائلة جونز». استمر المسلسل طيلة ثمان وعشرين سنة، وتم تصنيفه تحت مسمى «الكوميديا التي تؤرخ للكفاح الأمريكي» والتي لم تنتهِ بالطبع مع نهاية واحد من القطاعات الكوميدية.

كنت دائماً أتوجه إلى طلبتي بالسؤال التالي: «ما الذي تريده شخصيتك؟ لا بد أن شخصيتك تريد شيئاً ما. فالرغبة تجعل منا فضوليين، وتدفعنا كي نكون جاهزين لنتْتبّعَ الشخصية عندما تطلب منا ذلك سواء كانت النتيجة ناجحة أم فاشلة.» كنت أطلب إلى طلبتي أن يقرؤوا مقطوعات من رواية «مأساة أمريكية»[15] تعرض لرغبة هورتينس، صديقة كلايد في اقتناء معطف.

American Tragedy - 15

لم يكن ليثنيها شيء عن رغبتها في الحصول عليه بحيث أنها وصلت إلى القناعة أنها عندما تحصل عليه سيتغير مجرى حياتها. تقوم على امتداد عشرين صفحة من الرواية بنسج مؤامرات وممارسة ألاعيب وتقديم رشاوى ورسم استراتيجيات إلى أن تحصل في نهاية المطاف على المعطف: عشرون صفحة من العرض الأخّاذ من أجل اقتناص معطف.

المسألة بالنسبة إلى الكاتبة هي أن الحاجة جزء من طبيعة الوظيفة؛ فمن دونها، تصبح الكاتبة لا شيء. فالكاتبة لا بد لها أن تشعر بالحاجة إلى أن تجلس وحيدة إلى مكتبها على مدى أيام طويلة. عليها أن تعزل نفسها عن العالم وتنتظر. أما الجائزة التي تنتظرها فهي مجرد ضحكة خفيفة، وهي الضحكة الخافتة التي لا يسمعها أحد سوى الكاتبة التي تجلس وحيدة إلى مكتبها. إنها تضحك على ما قامت به؛ على خيالها الذي يُركّز على جملة محددة لأنها تعرف، كما يعرف أي امرؤ بعض الأشياء، أن الجملة، والمشهد والقصة سوف تثير الضحك لدى الآخرين. مَنْ مِنّا بغض النظر عن طبيعة عملها، لم تقم في مرحلة ما، بفعل شيء أكبر لمجرد أنها التزمت القيام به؟ لا غنى لها عن تحقيقه حتى وهي تعرف أن غالبية من هم حولها لا يعنيهم ذلك.

لكن الحاجة، كما نقول عادة، تعاني من مشكلة مع الحدود. الحاجة تنزف. من هي الكاتبة الشابة التي لا تتوق إلى أن تتبوأ موقعاً في هذا العالم، وهي تجلس وحيدة إلى مكتبها؟ فسماء النهار الصافية وحرارة الصيف لا بد أن يغويانها للخروج والتوجه إلى أماكن التسوق والمقاهي، إلى المنطقة التي تعجّ بالحياة الحقيقية المليئة بالإغراءات والرغبة المُكْلِفة: الكوباتشينو والمجلة

وسيارة الأجرة والفساتين الجميلة. يزداد الإحساس بالحاجة مع التقدم في العمر: فهي بحاجة إلى إنجاب طفل، وبعده طفل آخر. تحتاج بعد ذلك إلى جليسة أطفال، ثم إلى منزل، ثم إلى سيارة، ثم إلى مدرسة جيدة للأطفال، ثم إلى دروس خاصة ومعسكرات تخييم؛ وتكرّ السُّبّحة: ربما تشعر بالحاجة إلى شراء فساتين جديدة أكثر، وإلى انتقاء جوارٍ أرقى كي تستقر فيه. سوف تصبح عمليّة أكثر: وهذا يعني توفير المال الكافي لمرحلة التقاعد، وشراء الأسهم وربما بعض السندات أيضاً. سوف تكون بحاجة إلى شراء بطاقات للمسرح، وتناول العشاء مع أصدقائها؛ ستكون بحاجة أيضاً لشراء مكتب خاص بها، وكتب، وإلى أخذ إجازة، وكذلك إلى التعاقد مع فرقة موسيقية جديدة للاحتفال بذكرى زواجها، وإلى غرفة نوم إضافية. لا حدود للحاجة؛ ذلك أن الحاجة تستجرُّ الحاجة.

•

ما الذي كنت أنا أريده؟ كنت بحاجة كي أعرف ماذا يعني أن أكون قادرة على امتلاك كل ما أرغب فيه، وأن أنحّي جانباً كل ما يدعو إلى القلق. كنت أريد أن آخذ حصتي من طبق الحلوى. كنت أريد أن أدعو الناس إلى العشاء من دون أن ينتابني القلق من المبلغ الذي يتوجب عليّ دفعه مقابل زجاجات الخمر. كنت أتمنى حتى استلام بطاقة مخالفة سير بمبلغ 115 دولار من دون أن أشعر أنها ستودي بي إلى كارثة مالية. أردت شقة تكون ملكي الخاص. أردت أن أكون قادرة على شراء منزل في ولاية مين بوسائلي الخاصة. أردت رؤية وين مرة أخرى. أردت أن أكون مرغوبة مرة أخرى من شخص جديد. أردت أن أكون محط أنظار أحدهم ومثار فضوله. استمعت إلى رسالة وين مرات عديدة وحفظتها على هاتفي النقال. «إن لغة الرواية فخمة وأنيقة جداً؛

لم أشعر أنني كنت أقرؤها بل كنت أعيش في داخلها». (بإمكانكم استيعاب ما تعنيه تلك الجملة.) باختصار، كنت أريد كل شيء.

وصلنا إلى منزلنا قادمين من ولاية مين لنكتشف تسرباً للمياه من السقف فوق سرير نومنا. كانت مياه الأمطار المرافقة للعاصفة التي عمّت ولاية كنيتيكت وغلّفتها بجمال برّاق في طريق عودتنا قد تغلغلت إلى السقف وعَبْرَهُ إلى فرشة سرير نومنا. كان الجصّ فوق السرير قد تغضّن وتحوّل إلى كتلة رمادية هائلة من الحشوة الرطبة. وسقطت نُدَفٌ من الدهان الجاف فوق السرير كالثلج. عليّ أن أعترف بأنني كنت سعيدة بهذا المنظر لأن هذا هو ما جعل بإمكاننا تدبر أمور حياتنا. كان سقفنا يتداعى بشكل منتظم. كدت أطلق صيحة استحسان ولكنني لم أفعل. كنا نسكن في الطابق العُلْوي؛ وحاول مُلّاك البناية الذين تعاقبوا على امتلاكها خلال الخمس عشرة سنة الماضية إصلاح سطح البناية ولكنهم كانوا يستخدمون دائماً مواد رخيصة: كانت النتيجة أنه كلما هبت عاصفة شديدة، كان التسرب يحصل عبر التشققات في السقف؛ وعليه فقد كنا نحصل على تخفيض في قيمة الضريبة السنوية من بلدية المدينة، ما أدى إلى خفض أكبر في أجرة شقتنا الرخيصة الأجرة أصلاً. كنا فعلياً نعيش في الشقة بالمجان. وهكذا فبالرغم من أنني كنت أعتبر المطر مزعجاً، كنت أتظاهر بالانزعاج من المشرف على البناية: «متى سيتم إصلاح هذا التسرب؟ هل تعرفون مع ماذا نتعايش؟ علماً أن لدينا أطفالاً.» لكنني كنت أصلّي من أجل هبوب العواصف. كانت أذنايَ تبتهجان عندما أسمع النشرة الجوية في الأخبار تتوقع اقتراب أسوأ فصل تهب فيه الأعاصير منذ عقود. كان المتنبئ الجوي يقول: «سوف تهب الأعاصير

وتنطلق بحركة تشبه حركة «صحن الفريسبي» عندما يُقذَفُ بقوة، وسيشمل كل المنطقة؛ وهناك احتمال وقوع فيضان على مستوى كارثيٌّ.» وكان ثيودور يعلق قائلاً وهو يراقبني متسمرة أمام شاشة التلفزيون: «هذا رائع».

قام ثيودور بوضع لاصق على الجصّ المتشقق. وعد صاحب المبنى خلال عدة اتصالات قمنا بها معه بإصلاح الجصّ والسقف معاً؛ لكن التسرب الذي كان ينزّ من السقف هو ما كان يعطيني شعوراً بالارتياح وأنا في سرير النوم. هناك في السرير، بدأت أفكر في وين. أردته أن يجعلني أحمرُّ خجلاً. أردت أن أرى تلكما العينين البنّيّتين وهو يتفوّه بتلك العبارات الرائعة عن عملي. لم أستطع أن أخلد إلى النوم.

أخيراً، سألني ثيودور: «ما الأمر؟» كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً.

في عتمة غرفة نومنا، شعرت بأن الوقت قد حان كي أتفوّه بحقيقة ستُحدِثُ كثيراً من الجلبة. قلت: «لم تعد لدي رغبة في الكتابة.»

كانت الشوارع في الخارج هادئة. أردت أن أعترف أنني شعرت بأنني مُستَهلَكَة لدرجة أنني كنت أتخيل أنني زوجة رجل غني. تراءت إلى مخيلتي صورة بيكي شارب وأندين سبراغ، وقوة إرادتهما وتصميمهما على الحصول على كل ما أرادتا تحقيقه. كما جالت في خاطري صورة سكارليت أوهارا. ومَنْ أيضاً؟ ليلي بارت؟ هذه الأخيرة لم تحصل على ما كانت تطمح للوصول إليه في نهاية المطاف. ماذا حققت أي من هاتيك النسوة لأنفسهن الآن؟ حتى ذلك الأحمق المتديّن الذي يجوب الشوارع مساءَ

كل يوم صائحاً: «ليتمجّدْ اسم الرب» كان قد خلد إلى النوم. كانت مروحة السقف تدور بقوة وتصدر حفيفاً من شفرات البلاستيك المصنوعة منه: «لم أعد قادرة على التفكير أبداً بعد الآن. أشعر أنني مُستهلَكةٌ تماماً.» استدار ثيودور في السرير. أما في الخارج، فقد بدأ المطر يهطل من جديد؛ وبدأ النور في المدينة يتسلل عبر حواف الظلال.

«أنا مُتعَبٌ يا حبيبتي.»

قلت: «لكنني مُستهلَكة.»

«اخلدي إلى النوم وسوف تشعرين بعدها بالتحسن.»

قلت: «بالله عليك». كنت أتساءل ما الذي يفعله وين الآن. استدار ثيودور نحوي من جديد. ربّت على شعري. انتابني إحساس لطيف وهو يمرر أصابعه على فروة رأسي. قلت: «أنت لا تفهم ما أرمي إليه. لقد رُميتُ خارج المضمار.» فكرت في جميع الكاتبات التي كنت معجبة بهن عندما بدأت الكتابة. أين هنّ الآن؟ كم منهن تابعنَ نشر كتاباتهن؟ كنت أستطيع تَذَكُّرَ عدد قليل منهن، وجميع هاتيك الكاتبات كنّ متزوجات من رجال من ذوي الدخول الضخمة ويشغلون وظائف ذات مردود مادي كبير.

هل كانت الأمومة هي السبب؟ هل تسببت الأمومة في فقداني لحماستي؟ كان ما يزال يربت على شعري. كان يمكن أن أجري معه هذا الحديث بأشكال مختلفة. أردته أن يتكلم؛ لأن اختياره للصمت أثار جنوني. جلست في السرير بشكل فجائي. إنه يتحمل المسؤولية أيضاً. انفجرتُ

صائحة: «أكره حقيقة أنني أحب سقفنا الذي تتسرب منه المياه. لم أعد أريد أن أصلّي كي تهب العواصف، خصوصاً إذا كنتَ لا تشعر بأنك معنيٌّ بما يحدث. لماذا عليّ أن أتحمل كل المسؤولية وحدي؟»

قال وهو يعتدل في السرير إلى جانبي: «يا إنديا». حاول أن يشدني إليه ولكن لم أتركه يفعل.

«إننا على وشك أن نبلغ الأربعين من العمر.»

«ولكن نحن فنانان.»

«أكره هذا التبرير.»

«لا تفعلي هذا بنفسك.»

«لماذا نحب أن نُبقي فنانينا على مستوى خط الفقر؟ الرجال والنساء على حد سواء؛ لماذا نريد لهم أن يكونوا مفلسين، ولماذا نريد لهم أن يموتوا من دون أن يكون في جيوبهم قرش واحد؟ النساء أذكى من الرجال؛ فهن يتخلّيْن عن الفن كي يركّزن اهتمامهن على أولادهن.» فكرت للحظة في ابنتيّ غوين وروبي، وفي كل المقالات التي نشرتها في المجلات على امتداد سنين كي يكون بإمكاني أن أدفع لمربيتهما أبريل لقاء عنايتها بهما. «أريد أن أكون أماً فقط. أريد أن أهتم بالبنتين. أريد منك أن تكون أنت من يكسب المال لفترة محددة، وأن تدعني أهتم بهما. أريد أن أخطط لهما برنامجهما اليومي، وأساعدهما في وظائفهما، وأن أقوم بغسل ثيابهما، وأقلّم أظافرهما، وأن ألتقي بأمهات أخريات في الحديقة وأعبر

عن تذمري من أشياء مثل سوء برنامج رعاية الأطفال، والوقت الطويل الذي تستهلكه عملية الترميم، ومتعهدو البناء البطيئين في تنفيذ العقود المبرمة معهم، ونوعية الطعام المقدم في المدارس الذي يتكون من الكثير من الحلويات والقليل من الأغذية العضوية.»

«أرجوك يا حبيبتي.»

«أرجوكِ، ماذا؟»

«أنتِ لا تريدين القيام بأي من ذلك.»

«وكيف عرفت؟»

«لأنني تزوجت من فنانة.»

«أنت تقول ذلك فقط لأنك لا تريد أن تتحمل المسؤولية. ليس هذا ما أريده، وليس هذا كل ما أريده. أنا تستهلكني الحاجة. إنها تلتهمني وأنا حية. أنا مجرد ثرثارة كبيرة.»

«من حسن الطالع أن لك ثغراً جميلاً.»

«لا تستخفَّ بما أحسّ به. أنا في منتهى الجدية.»

قال بنبرة صارمة وجادة، وهو يشدني إليه من جديد، لكنني استسلمت له هذه المرة: «سأكون على نفس السوية من الجدية أيضاً. إنني الآن جاد. دعينا نتحدث عن كل ما تريدينه.»

قلت: «أشياء سخيفة؛ أشياء لسنا بحاجة إليها، أشياء لا يفترض بي أن أحتاجها لأن من المفترض أنني مثقفة، والمثقفون لا يريدون أشياء من النوعية التي أريدها.»

ذكّرني بكارلايل سميديس الذي رشح لنيل جائزة « جسر لندن»[16] اللعينة للتميز العالمي اللعين. سألني: «ما الذي تريدينه؟ نظارتيْن من طراز برادا، وساعة يد من طراز برادا؟ بإمكانك أن تجيبيني همساً بحيث لا يسمعنا أحد.»

همست قائلة: «أريد رئيس خدم للمنزل.»

قال ضاحكاً: «وسائقاً؟»

قلت: «وذاك أيضاً؛ يا لها من فكرة سديدة.»

«وماذا أيضاً؟»

قلت: «لا تهزأ بي، أنا جادة.»

قال: «حسنٌ. أنا أتحدث بجدية؛ وماذا أيضاً؟»

قلت: «أريد أن أطمئن إلى أن باستطاعتي دفع مرتب المربية أبريل من دون أن ينتابني القلق حول مصدر المال الذي أدفعه لها.» تخيلتُ وجود خادمة خاصة بي لا تكون بحاجة إلى سؤالي عما أريد؛ بل تكون قادرة على

London Bridge Prize - 16

تخمين ما أريد قبل أن أتفوه بذلك. هذا ما قالته لي مرة أمُّ إحدى صديقات ابنتي روبي، وهو ما أثار فيَّ الاستغراب الشديد. فقد قالت: «أريد من جميع خدمي أن يتوقعوا مسبقاً ماذا أريد في كل شأن من شؤون حياتي حتى قبل أن أعرف أنا ما الذي أريده بالضبط.» يا له من شعور يبعث على الراحة. أردت أن أتحرر من الشعور بالحاجة – من خلال وجود أشخاص من حولي يقومون بذلك عني. تابعت تلك المرأة قائلة: «إنني أدفع لخادمتي راتباً مجزياً. وهي ترتدي زيّ الخادمة الرسمي؛ وأنا أعاملها بمنتهى الكياسة، وأقدم لها هدايا ثمينة؛ لكنها تعرف الحدود التي لا يمكن لها أن تتجاوزها، وهي حدود بالغة الوضوح: فهي خادمتي وأنا سيدتها.»

قال ثيودور: «حسنٌ. وماذا أيضاً؟»

قلت: «أريد غرفة خاصة؛ غرفة خالية من أي أثاث.» أعرف أماً أخرى كانت لديها غرفة خالية في شقتها في حي بارك أفنيو (كانت روضة الأطفال التي سجلت روبي فيها في الجانب الشرقي). كانت الغرفة عارية من أي أثاث، ولم تكن لديها أية نية في تأثيثها. كانت شقتها فسيحة جداً، وكان فيها نظام اتصالات داخلي يمكنها تَعقّبُ أماكن تواجد أولادها داخل المنزل. كانت عشرٌ من نوافذ الشقة تطل على بارك أفنيو، وعشر نوافذ أخرى تطل الشارع المقابل. كانت تتدلّى من كافة النوافذ ستائر من نفس النوع بحيث أن من ينظر إليها من الخارج يتضح له من دون أدنى شك أن النوافذ العشرين تعود لنفس المالك. أرادت أن تبقي على الغرفة خالية من الأثاث، فقط لأن العديد من الناس في نيويورك أرادوا أن تكون لهم غرفة إضافية أخرى في منازلهم. أرادت أن تكون لها تلك الغرفة التي تمنى الآخرون أن تكون لديهم.

قال: «هذا مثير للاهتمام.»

قلت: «أرغب أن تكون لي غرفة للمئونة.»

«وماذا أيضاً؟»

«ومنزلاً في ساوثمبتون.»

«لا بد أنك تمزحين.»

«تعني أنك لا تعترض على كل ما أرغب في اقتنائه باستثناء المنزل في ساوثمبتون؟

قال: «المشكلة تكمن في ازدحام حركة السير هناك.»

«سوف نستخدم طائرة هيلوكبتر.»

«حسنٌ إذاً.»

أمٌّ أخرى أقامت حفل شاي، ودَعَتني لحضوره كي أتحدث إلى جمهور المدعوّات. كان من المفترض أن أناقش مسألة التوفيق بين عملي ككاتبة ومسؤوليتي كأم، لأن الأمهات الحاضرات كان ينتابهن الفضول لمعرفة ذلك؛ وكانت تتملكهن الرغبة في معرفة كيف أوفّق بين المسألتين: أي كيف لي أن أكرس ما يكفي من الجهد للإشراف على شؤون عائلتي، وفي الوقت نفسه، أجد الوقت الكافي للجانب الإبداعي في حياتي؟ في غرفة الجلوس الفسيحة حيث الأرائك الوثيرة البيضاء اللون عرضتْ هذه التجربة لصديقاتها الثّريّات

اللواتي يقطنّ في الجانب الشرقي من المدينة، هاتيك السيدات الحسناوات اللواتي قمنَ بتعديل زينة وجوههن بحيث أصبحت الواحدة منهن تشبه الأخرى.

قلت للمضيفة ونحن نحتسي الشاي بعد تناول الغداء (وكان يتكون من قطعة صغيرة من الدجاج على طرفها شريحة من الليمون؛ وهي وجبةٌ «لن تتناولها السيدات في كل الأحوال» كما قالت المضيفة، «نظراً لأنهن يتبعن حمية غذائية»): «ما الموضوع الذي تحبين أن أتطرق إليه؟» كان اسم صاحبة الدعوة جانيس؛ لم تكن نحيلة بقدر الأخريات، كما أنها لم تكن قد عدّلت في زينة وجهها. كانت تبدو موفورة الصحة وذات جسم ممتلئ، وكنت أعتبرها جميلة. طلبت جانيس إلى الجمع التزام الصمت بواسطة الطرق على الكأس الزجاجي الذي تحمله معلنة عن استعدادي للخوض في أي موضوع يرغبن في سماعه.

قلت وأنا أبتسم في محاولة مني لإثارة اهتمامهن بروحِ الدعابة المعروفة عني: «حسنٌ؛ ليس أي موضوع». حدّقت النسوة في بأدب وقد زممن شفاههنّ، وخيم الصمت على الجمع لبرهة من الزمن. قالت إحداهن: «تم طرد أحد الأساتذة من المدرسة التي يدرس فيها أولادنا بسبب إشارته إلى تفصيلات تتعلق بخبرته التدريسية استخدمها في كتابة إحدى رواياته، ما أثار سخط معظم الطلبة. هذا ما يطلقون عليه وصف حرية التعبير كما تعلمين؛ إنه الامتياز الذي يتمتع به الفنانون.»

قالت أخرى: «لم يتسنّ لي قراءة الكتاب بعد؛ لكن بالكينا سميث انتقدت الكتاب انتقاداً لاذعاً في الصحيفة.»

قالت ثالثة: «بالكينا سميث تكره كل شيء. إنها تساعدكِ بالتأكيد، على إقصاء كافة الاحتمالات.»

«هي محقة في العادة.»

«ما رأيكِ يا سيدة بالمر؟»

قلت وأنا أشعر بأن هاتيك السيدات يضعنني في موقع المرجعية: «هل تعنين رأيي بسميث أم بالكتاب؟ فأنا لم أطّلع على الكتاب.»

«الكتاب يتناول شريحة من أطفال نيويورك الأثرياء المدللين في المرحلة التمهيدية، الذين ينفقون ببذخ وإسراف، ويستهلكون كل شيء، كما أن أولياء أمورهم الذين يعملون ليل نهار ضمن ظروف عمل فيها الكثير من التوتر والمنافسة، يغضّون الطّرْفَ عن هذا الإسراف، ذلك لأنهم غارقون في علاقات عاطفية خارج إطار الزواج.

قلت: «يبدو أن هذا الكتاب ممتع.» تذكرت فكرة يسوع المصنوع من الشوكولاته التي أعرفها منذ مدة طويلة. قلت: «إذا كان الكتاب جيداً، أليس هذا هو المهم؟» بعدها، بدأت النسوة يتحدثن فيما بينهن عن الأستاذ، وعن المدرسة، وعن الحملة التي قادها الطلبة من أجل التعاقد مع الأستاذ نفسه من جديد. الفن والإبداع الناجم عنه، بصفته موضوع اللقاء كان قد انتهى. وبينما كنت في طريقي صوب جانيس لألقي تحية الوداع، سمعت صوتاً يقول: «عليه أن يبتاعه لكِ. تشبّثي برأيك، ولا تتراجعي عن موقفك، فأنت تستحقينه.»

سألت بفضول: «ماذا؟ ما الذي تستحقه هذه المرأة؟»

جاء الجواب سريعاً: «منزلاً في ساوثمبتون. لقد استحقّتْ هذا المنزل.» تصورت رجلاً ضخم الجثة يجلس وحيداً إلى مكتب كبير يوقع على شيكات. تخيلت ثيودور في الاستديو الخاص به وهو يسبك الذهب إلى الفضة ويضع جوهرة بين النتوءين. تستحق؟ ما الذي نستحقه جميعاً؟ سافرت أنا وثيودور منذ مدة طويلة إلى سريلانكا. حاول أحد المتسكعين على الشاطئ هناك أن يبيعني بعض الماريجوانا. رفضت عرضه فثار جنونه بسبب عدم استجابتي له. نظر إلي بعينين قاسيتين مغرورقتين (بدت عيناه وكأنهما على وشك أن تقفزا من محجريهما من شدة الغضب) وقال: «تستحقين أن تكوني سريلانكية. ستكونين كذلك في حياتك القادمة. فقط، انتظري وسترين.» استدار وبدأ يمشي بتثاقل على امتداد الشاطئ.

بالعودة إلى سريرنا في تلك الليلة الممطرة، وكان حينها المطر ينهمر بغزارة تزداد وتيرتها تسارعاً، سألني ثيودور: «وماذا أيضاً؟»

استمرأنا هذه اللعبة لبعض الوقت. كنت أعرف ما الذي كان يرمي إليه. أراد أن يدفع بي باتجاه الجانب الآخر؛ إلى نَهَم الفنان للقيام باللعبة التالية، وأعني بذلك الومضة اللغوية التالية على صفحة بيضاء. تلك كانت الطريقة التي تعامل فيها مع لا موثوقية حياتنا من خلال الاستمرار في الدفع باتجاه الأمام، واستخدام كل ما هو متوفر وسيلة لتحقيق ذلك تماماً كما كان يفعل مع قطع المعدن التي كان يجمعها من الطرقات؛ فالجمال موجود في كل مكان، حتى في الأشياء التي كانت قبيحة، إضافة إلى أن الرغبة الخيميائية في

تحويل المعادن الرخيصة إلى سبائك ثمينة كانت في واقع الحال وقوداً يعتدُّ به في هذا السياق.

كان ثيودور حينها منهمكاً في العمل على قطعة لصالح متحف في منطقة فورت ورث بتكليف وتمويل من أحد الرأسماليين المغامرين الذي زاوج بين موهبته في جمع المال وبين عشقه للفن. كان الراعي الفني لثيودور، من ولاية تكساس في الأصل. كان ضخم الجثة كثير الجلبة وحاد الذكاء ينتعل الجزمة ويرتدي القبعة وربطة العنق التكساسية التقليديتين. كان يراهن على ثيودور تماماً كما كان يراهن على أية فكرة جديدة. بدايةً، قام بضخ الكثير من المال في سبيل هذا المشروع لشراء المعدات وكافة مستلزمات إتمامه من حيث التجهيزات والوقت، لكنه يرغب الآن في رؤية النتائج. كان يستفسر عن مدى تقدم ثيودور في العمل بمنتهى الكياسة، وعلى نفس السوية من الكياسة، كان ثيودور يبلغه أنه بحاجة إلى مزيد من الوقت لإتمام المشروع، لأنه حريص على إخراجه على الوجه الأمثل. كان مقرراً أن يكون هذا العمل هو الأهم في المعرض الذي كان يزمع المتحف إقامته كنموذج يختصر الأعمال الفنية لثيودور بكاملها. كان المتحف ينوي تتبع تاريخ أعمال ثيودور ويعرض هذه الأعمال على سبيل الإعارة من مالكيها الحاليين. كان من المنْوِي عرض ثلاثين من أعماله التي تؤرخ لتطور فنه؛ كل ذلك كان بتشجيع ورعاية من الراعي وارن ويليام سوليفان.

لكن المهمة لم تكن تسير على ما يرام مطلقاً. فقد كانت عملية تعشيق ورقة النبتة الذهبية بالفضة باهظة التكاليف، وكان التعامل مع ورقة النبتة الذهبية أشبه ما يكون بالتعامل مع جناحي فراشة. خارج هذا الإطار، لم

أكن أعرف عن هذا الموضوع إلا أقل القليل، لأن ثيودور لم يكن يتناقش معي حول الآلية العملية لفنه؛ إذ لم يكن يتحدث عن صعوبات المهنة إلا ضمن الإطار العام والنظري. الشيء الوحيد الذي كنت متأكدة منه هو أن جيوبنا بدأت تجف تدريجياً من المال، وأنه إذا لم يكن بمقدوره إنهاء العمل في الوقت المحدد كي يقبض ما تبقى من أجره فإن وضعنا المالي سوف يزداد سوءاً. كان يقول لي: «لا تقلقي». قال لي ذات مرة، وكان ذلك منذ مدة طويلة عندما كنا في بداية حياتنا الزوجية في نيويورك، وكانت خصلات شعره المتجعدة تتراقص حول وجنتيه اللتين تشبهان منحوتة: «سوف أبقى دائماً أشعر أن هناك شيئاً ما، ما زلت أريد تحقيقه. هذا هو الهدف. حافظي على فقرك يا فتاتي، انضمي إليّ في فقري كي نجعل من ذلك ممكناً.»

سألته الآن: «ما الذي تريده؟»

قال وهو يشدني إليه بقوة: «أنا أريدك، وأنت الآن لي.»

تلقيت في الصباح أخباراً سارة إضافية. علمت أن شركة ستريملاين برودكشنز للإنتاج السينمائي تريد أن ترشح رواية «جيل النار» كي تتحول إلى فيلم سينمائي. لم يكن المبلغ المعروض عليّ مقابل ذلك كبيراً؛ فقط ألفا دولار، لكنه كان مالاً على أية حال. أما المبلغ الذي قدمته لي مجلة «المرأة» مقابل مقالة نشرتها فيها فكان أربعة آلاف وخمسمائة دولار، إضافة إلى مبلغ ثمانية آلاف دولار مقابل نشر الرواية على حلقات في المجلة الأدبية «ليتراري ريفيو» ناهيك عن بضعة آلاف أخرى من الدولارات سأتقاضها قريباً مقابل المبيعات التي ستقوم بها ثلاث دور نشر أجنبية. أجل، كانت الأمور تسير

على نحو حسن . دونت في دفتر ملاحظات صغير كنت أخفيه دائماً في مكتبي، أرقام هذه المبالغ التي ستزيد من دخلنا الإضافي. كنت أدون أرقام الأصفار على شكل وجوه مدورة باسمة. لم أضمّن في تلك الحسابات العمولة التي سيتقاضاها ثيودور، أو حتى المبلغ المحتمل الذي قد أتقاضاه مقابل تحويل الرواية إلى فيلم سينمائي. فما سوف نتقاضاه حين ذاك سيكون مائتان وخمسون ألف دولار. كان هذا الرقم يقبع في مؤخرة رأسي مثل أضلاع المعيّن الأربعة. بالطبع لم أحتسب كل مصاريفنا، وما نحن مدينون به للآخرين، وفاتورة المدرسة التي يتوجب دفعها في أيلول، سبتمبر، القادم، إضافة إلى الذهب والجواهر التي يتعين على ثيودور شراءها من أجل القطعة التي يعمل عليها. بدلاً من ذلك كله، قابلت ليلي ستار في وسط المدينة.

التحقت أنا وليلي بالجامعة سوية، ولم تنشر منذ ذلك التاريخ أية رواية، بعكس ما كانت عليه حالي إذ نشرتُ منذ ذلك الحين أربع روايات، وكانت الخامسة في طريقها إلى النشر. عموماً، لم تكن لدي الرغبة في أن أحيط نفسي بشلة من الكتّاب. كنت أفضّل التواجد بين المصرفيين والمدراء التنفيذيين والمحامين الذين كنت مصدر فضول بالنسبة إليهم، كما أنه لم يكن هناك أي شكل من أشكال المنافسة المهنية بيني وبين أي منهم. لكن ليلي كانت بالنسبة إليّ تشكل استثناء، فقد أحببنا بعضنا بعضاً؛ ولكن كان هناك من جانبها شيء من الحسد تجاهي وإحساس بقليل من الماسوشية؛ فقد كان كل واحد من نجاحاتي يذكّرها بعجزها عن إنهاء أي كتاب تبدأ في كتابته. وهنا، لا بد لي من الاعتراف أن عجزها ذاك، وإحساسها بالحسد تجاهي كانا يمنحاني إحساساً أفضل فيما يتعلق بمهنتي ككاتبة، ومشكلة قلة المبيعات التي تعاني

منها رواياتي. كانت الأمور في طريقها إلى التغيير بالنسبة إلى ليلي التي سوف تصدر روايتها الأولى قبل شهر من صدور روايتي التالية.

قالت ليلي: «يقال إن نشر كتاب في فصل الخريف هو بمثابة ربيع جديد. فجميع أصحاب الأسماء الكبيرة الآن يختارون فصل الربيع لنشر أعمالهم؛ ولذا فالمجال مفتوح مرة أخرى لأصحاب الأصوات الجديدة لنشر أعمالهم في الخريف.»

كنا نتمشى في حديقة بارك أفنيو في منتصف النهار. كنا قد أمضينا سوية قرابة الساعة، وكنت قد بدأت أشعر بذلك الضيق الذي ينجم عادة عن الشعور بالتنافس بين الكتّاب. بدأت أتهمها بشيء من الخِسّة، أنها تتصف بِسمة مزعجة ألا وهي الادعاء بأنها لا تعرف إلا أقل القليل عن هذه المهنة بالرغم من أنها تعرف عنها أدق التفصيلات. فقد أشبعتْها على مدى سنوات عدة، دراسة وتمحيصاً؛ وصدقوني أنها تعرف ذلك جيداً. فما كانت تعرفه عن هذا الموضوع جعلني أشعر بالغيرة، وخلق لدي شعوراً بالتوجس. لقد كانت تعلم علم اليقين أن الرواية الأولى تثير عادة شهية من يعملون في هذا الحقل. فالرواية الأولى تكون عادة بمثابة لوحة بيضاء قد يُدَوَّنُ عليها مستقبل مهني هائل. الرواية الأولى أشبه ما تكون بالجوكر في ورق اللعب؛ وتتمتع بصفات تؤهلها لتكون أي شيء، وربما تصبح هي كل شيء. كنت معروفة في ذلك الوسط، ولذا فإن عملية تسويقي فيه أكثر، أضحت أكثر صعوبة؛ أما هي فقد كانت الوجه الجديد: فما يلزمها لا يتعدى القليل من العبارات المنمّقة، إضافة إلى غلاف رائع للرواية، وستُفتَحُ أمامها بوابات الأضواء والشهرة.

الحق أقول، إن ليلي كانت صديقة وفية لي منذ مدة طويلة؛ فقد قرأتْ

روايتي الأولى وأثنت على كل جملة فيها، ووصل بها الأمر حد إعطاء الفصل الأول منها لمديرها في العمل عندما كانت تعمل بصفة متدربة في مجلة «برشلونة ريفيو»[17]، وقد حاز هذا الفصل على إعجابه فقام بنشره؛ ما ساهم بولوجي إلى المشهد الأدبي في مدينة نيويورك. كان نشر هذا الفصل السبب في أن يتصل بي من أضحى فيما بعد وكيل أعمالي. نشرت المجلة الأدبيّة «برشلونة ريفيو» ثلاثة فصول من الرواية في الوقت الذي كانت ليلي تعمل بصفة متدربة مغمورة، وكان أقصى ما حصلت عليه حينها الثناء الجزيل بين الفينة والأخرى لأنها كانت هي من «اكتشف موهبتي» أولاً.

قلت معقّبةً على تواريخ النشر في فصل الربيع: «هل الأمر كذلك؟». قرأت روايتها المعنونة «لم تكن ترغب في أن تعرف»، وكان انطباعي عنها جيداً، بل ممتازاً في الحقيقة. لكنني كنت أعرف أيضاً أن من الصعوبة بمكان نشر هذه الرواية. سوف تُركَنُ روايتها في مكان ما، إلى جانب بقية الروايات، وستتفهم مع مرور الوقت طبيعة شعور المرء بصفته كاتباً: أعني بذلك التقدير والثناء. كانت دار بيكادلّي للنشر هي من ستطبع الرواية؛ ولكن وبالرغم من أن هذه الدار هي الأفضل بين الدور المتخصصة في نشر الروايات (فقد نشرت روايتي الثانية بعنوان Scion «السليل»)، فقد كنت أعرف لماذا لم تبدِ إلا القليل من الاهتمام بالكتّاب المغمورين؛ كانت تترك مثل هؤلاء لمصيرهم؛ فإما أن يطويهم عالم النسيان أو تتلقفهم عوالم الشهرة. (كما قال الناشر المفوّه كافيللي: «سوف يأخذ الكتاب موقعه يوماً» أو ما شابه.)

كان من المعروف أن دار بيكادلّي للنشر لا تفعل شيئاً يذكر من أجل

Barcelona Review - 17

تسويق الكتب. فشعار الدار الذي يتكون من اثنين من الأبواق هو كل ما تقدمه هذه الدار لتسويق الكتاب الذي تنشره. تظاهرت بعدم الاكتراث لهذه السلبية من دار النشر، وكأنني أسمع صوت هدير الأمواج أو صوت دوران رحى الطاحونة، علماً أن كل شيء في حياتي يعتمد على ذلك. كان يوماً قائظاً وكنت أرتدي ثوباً خفيفاً ابتعتُه من مخزن مارشال للثياب المستعملة بسعر خمسة دولارات. كان شريط أحد كتفيْ الثوب ممزقاً قليلاً. لكن الثوب كان جميلاً؛ كان رائع المنظر عندما كان جديداً، وكنت أشعر بالفخر لارتدائي ثوباً جميلاً كهذا مقابل هذا السعر الزهيد. كنت في الواقع أتبارى مع بعض صديقاتي في الجامعة حول من يمكنها شراء أرخص ثوب يعطي الانطباع بأنه الأغلى. تراءى لمخيلتي أن هذا الثوب تحديداً يجعلني أظهر بمظهر الفنانة، ويعطي انطباعاً بأنني امرأة رائعة الجمال بغض النظر عن نوع الثوب الذي أرتديه.

ثم وقعت عيناي عليها: الأرومة التي يتوسطها حرفان رومانيان كبيران (ب أند ب)[18] وهذان الحرفان بالتأكيد هما شعار شركة الإخوة بوند وبوند. لم تكن لدي أدنى فكرة أن الشركة هي في هذه المنطقة. كنت أظن أن كل البيوتات المالية تتركز في منطقة وول ستريت. بدأت الآن انتبه إلى أن منطقة بارك أفنيو تعجُّ برجال الأعمال وعدد محدود من سيدات الأعمال؛ وكان الجميع يرتدون سترات أنيقة ويتنقلون سيراً على الأقدام بين مكاتبهم والمطاعم الموجودة في الجوار لتناول وجبة الغداء. كانت الأبنية الشاهقة تحيط بنا من كل جانب بشرفاتها التي تم تحويلها إلى حدائق، وكانت الأشجار

B & B - 18

مزروعة فوق قضبان الفولاذ والزجاج. بدا وكأن هناك إيقاعاً من نوع ما، يصدر عن الخطى التي تتحرك في الشارع؛ كان إيقاعاً منتظماً ويشبه النبض الذي يضج بالحياة، بعكس الإيقاع الذي نسمعه في كنائسنا. كان مثل نبض الوردة التي يفوح شذاها، كان أشبه ما يكون بشذى أمريكا ذاتها. كانت الأعلام ترفرف مثل طائرات ورقية؛ وكان هناك رتل من سيارات الليموزين يتجه بتكاسل صوب المنعطف. كانت كنيسة بارثولوميو تبدو وكأنها واحة من العقلانية وسط صحراء كل تلك المصارف: مصرف كبير إثر مصرف كبير، إلى أن وجدنا أنفسنا تحت فيء شركة ب أند ب.

فجأة، تدفّق رتل من سيارات الأجرة. توقفت إحداها أمامنا مباشرة. قالت ليلي شيئاً لم أستطع سماعه جيداً لأن صوتها بدا خافتاً في زحمة الشارع. ترجلت امرأة من سيارة الأجرة؛ كانت ترتدي سترة بيضاء من الكتان مكويةً بأناقة. كانت ترفع شعرها الأسود الملفوف إلى الأعلى، وكانت تغطي عينيها نظارتان سوداوان كبيرتان، وكانت شفتاها مطليتين بلون أحمر فاقع. كانت تتأبط نسخة مطوية من صحيفة وول ستريت جورنال وتحمل بيدها اليمنى حقيبة حاسوب محمول جلدية. صفقت باب سيارة الأجرة وراءها واختفت داخل الأبواب الدوارة لبناية وينشستر.

سألتني ليلي وهي تحدق فيّ بطريقة بلهاء، تماماً كما كنت أحدق بتلك المرأة: «هل تعرفينها؟»

«لا.»

«إنها من فصيلة مختلفة؛ هل يمكنك تخيل ذلك؟»

قلت وأنا ألوّح بذراعي بشكل دائري كي أشمل جميع من يمشون في الشارع: «الجميع ينتمون إلى فصائل مختلفة». شعرت كما لو أنني أحمي تلك المرأة، لكنني كنت أشعر أيضاً بالضآلة لارتدائي ذلك الثوب الأنيق الذي دفعت خمسة دولارات ثمناً له. لماذا لم نكن جميعاً نجلس إلى مكاتبنا؟ لماذا كنا نتسكع في الشارع في منتصف يوم عمل في مدينة نيويورك؟ شعرت وكأنني فتاة صغيرة انسلّت من مدرستها خِلسة.

قالت: «يا لها من حياة! أشكر حسن طالعي كل يوم، فأنا سيدة وقتي، وأنا أقوم بفعل كل ما أحلم بتحقيقه.»

لم أنبس ببنت شفة لكنني تساءلت في سري: كم هي ساذجة. اتجهت ببصري إلى أعلى البناية، ثم خفضته باتجاه الأبواب. عندما فُتِحت الأبواب، غمرتنا نسمة من الهواء البارد المندفع من داخل البناية. هنا تهدر محركات التجارة؛ وهنا تتكدس صكوك الرهن العقاري وتتحول إلى سيل عارم من المال.

قلت: «هذا رائع.»

سألتْ ليلي بصوت فيه الكثير من التشكيك وبعض التأنيب: «تقصدين شركة الإخوة بوند وبوند؟»

قلت: «تعرفت على تاجر يعمل هناك».

«و — »

«حاول إغوائي بعرضٍ قدّمه لي».

«لا بد انك تمزحين.» واستطردت قائلة: «هل هو جذاب؟»

«أبداً.»

«وماذا عن ثيودور؟»

استأنفنا سيرنا، لكن ليلي استوقفتني ونظرت في عينيّ مباشرة، وبدا على ملامحها قلق حقيقي. تركت الفكرة معلقة لبعض الوقت بحيث أستطيع أن أتوضع داخل فقاعة سوء الفهم الذي أثرْتُه في نفسها. تخيلوا هذا العنوان: «إنديا بالمر على وشك أن تقيم علاقة غرامية مع ملياردير مصرفي». حتى الأفضل من بيننا يحب الثرثرة. أنا كنت بالتأكيد أحب الثرثرة. فالثرثرة في نهاية المطاف هي قصة مروية. «وماذا عن ثيودور الرائع؟ علمت أنهما تزوجا عندما كانا في بداية شبابهما. هما فنانان. هذا غير ممكن أبداً.» نظرتُ إلى ليلي، وأفسحتُ لعينيها المجال كي تحاولا قراءة عينيّ. كانت فتاة جميلة عالية الوجنتين وذات وجه بيضاوي الشكل ذي ملامح مرتبة بشكل أنيق كما لو أن أحداً قام بوضع كل قطعة منه بيده في مكانها المناسب بكل عناية. كانت قصيرة القامة وممتلئة قليلاً؛ لكن جسمها كان قوياً ورشيقاً بشكل مذهل، وكان من المرونة بحيث أنه كان بإمكانها القيام بكافة حركات اليوغا الصعبة.

قلت أخيراً: «لا تذهبي بأفكارك بعيداً، فأنا لا أقصد ذلك النوع من الإغواء.»

لماذا لم نكن نتحدث عن دو شامب أو مينا لوي أو واليس ستيفنز أو ويليام كارلوس ويليامز؟ لماذا لم نكن نتناقش حول تاريخ الرواية، أو موضوع السخرية عند ثاكيري أو مفهوم الرابط الموضوعي عند إليوت أو مرض دريزر؟ لماذا لا تتجلى روح التنافس عندنا في مجال المعرفة وميولنا الفنية؟ لماذا لا نتشاطر الأفكار حول العمل، فنحلل طبيعة الصراع ونجعل منه موضوعاً مُلِحّاً وذا ضرورة قصوى؟ لماذا لا نبتدع مبادئنا الخاصة بنا فنطلق بذلك ثورة جمالية على نسق أولئك الثوريين الجماليين الذين سبقونا ومهّدوا الطريق لما نحاول أن نكتب على نسقه الآن؟

قبل مجيء الأولاد، أي قبل الآن، وقبل أن تعترض مشكلات الحياة طريقنا، كنا نسهر أمسيات طوال مع أصدقائنا في الجامعة نقضيها في تحليل البنى وإعراب الجمل والمفردات الواردة في روايات كتاب روائيين مغمورين مثل هنريك فون كليست. كنا بالتأكيد مهتمين بسيرة حياته وموضوع الانتحار المزدوج الذي قام به مع عشيقه المصاب بمرض عضال على شاطئ بحيرة وانسي. كنا مُجْمِعين فيما بيننا على أننا سنكون ناجحين في حياتنا إذا لم نقدم على الانتحار قبل بلوغنا سن الخامسة والثلاثين. لكننا كنا مهتمين أيضاً بالكيفية التي استطاع كليست فيها أن يكتب روايته، وكيف تمكن من صياغة جملته الشهيرة الأولى فيها التي بدأها بعبارة «ماركيز ال -) تتناول الرواية قصة امرأة إيطالية ذات سمعة لا تشوبها شائبة تفاجأ بأنها حامل بطريقة غامضة. تنشر هذه المرأة إعلاناً في إحدى الصحف المحلية أملاً في معرفة هوية الأب. هذه حبكة روائية بمنتهى الروعة اختصرت في جملة فيها الكثير من الشحن العاطفي، كانت هي الجملة الافتتاحية في الرواية.

غمرنا فيض عارم من الفضول، فكل جزء من الجملة كان يدفعنا إلى أن نعرف المزيد. فإذا كان على شخصيتك أن تطلب شيئاً، فإن القارئ سيطلب الشيء نفسه أيضاً. لماذا لم نكن نتحدث عن الحروب على الأقل؟ كانت هناك حربان ضروسان مشتعلتين، ولم يبدُ أن أحداً كان يلتفت إلى ذلك. من أصبحنا، وما الذي آلت إليه أوضاعنا؟ لكن لم يكن أيٌ من ذلك هو ما انطلق به لساني. ما كنت أفكر فيه هو كاتبة موهوبة وشهيرة كنت أعرفها، وكانت ترتدي ثوباً أسود مخططاً منسدلاً على طرفيْ عظمتي كتفيها في الحفل الذي أقامته بمناسبة نشر روايتها الجديدة. أعجبني ثوبها. قالت وهي تعدل من قوة نبرة صوتها: «أكثر ما أحبه في مناسبة نشر كتاب جديد هو أنه يقدم لي مبرراً للتسوق».

توجهنا صوب منطقة ماديسون بينما كنت أصف لها وين، والعرض الذي قدّمه لي. كان الشارع يعبق بروائح العطور التي تنبعث من أبواب المتاجر الفاخرة. كان الناس يسيرون بسرعة ولهفة وقلق؛ كانوا يسيرون في الشارع بمحاذاة أكشاك الصحف وآلات بيع الصحف كما لو كانوا مدفوعين بقوة وحشية. كانت عناوين هذه الصحف تعلن عن أعداد القتلى من عسكريين ومدنيين، كما كانت تتحدث عن مجموعات عسكرية تبحث عن المفقودين، كما تحدثت عن سيارات مفخخة وانتحاريين ومعسكرات تدريب في أفغانستان. كانت روائح الليمون والفستق السوداني المحمص والممزوج بالعسل إضافة إلى ما تنفثه عوادم الحافلات وهي في طريقها إلى التوقف تعبق المكان. تجاوزتني إحدى النساء وهي مندفعة بسرعة فاصطدمت حقيبة التسوق التي تحملها وكانت من نوع شانيل بردفي. استدارت نحوي ونظرت

إلي بازدراء ثم تابعت طريقها. كانت الأبواق وأصوات مزامير السيارات تملأ المكان، إضافة إلى تلك المتاجر الأنيقة المرتبة بعناية بجانب بعضها بعضاً كمجموعة من الورود الجميلة.

أحببت أن أطلع ليلي على كافة التفصيلات مستحضرة تلك الأمسية في ولاية مين: تذكرت صورة الأقداح المصنوعة من الكريستال التي أتوا بها من مانهاتن خصيصاً من أجل احتساء الشمبانيا — كان عالماً لا صلة له بالعالم الذي كنا نعيش فيه؛ فقد كان عالماً ساحراً وسلساً نظراً لأنه كان خالياً من الكثير من مسببات القلق. كانت عائلة ليلي ستار مكونة من ولدين وزوج كان يعمل في سلك التدريس في مدرسة ثانوية حكومية. كانوا جميعاً محشورين في شقة فيها غرفة نوم واحدة. كانت ليلي تصف الشقة بأنها عليّة مصغرة. كان موقع الشقة رائعاً فقد كانت تطل على النهر وكانت ملكاً لهم. لكن خشبة الخلاص بالنسبة إليهم كما بالنسبة إلينا، كان دائماً وما يزال روايتها التي تنتظر النشر والتسويق. استغرقت كتابة هذه الرواية مدة خمس عشرة سنة. على امتداد خمس عشرة سنة، قامت بنفس ما نفعله بالأنا المتضخمة لدينا، نحن الكتّاب بشكل يثير الشفقة. كانت تؤمن بأن الرواية، أيْ روايتها سوف تشكل خرقاً لسجلٍّ كثير من الروائيين الذين يموتون مغمورين وفي حالٍ من العوز المادي الشديد. هذا ما كانت تؤمن به؛ وهو ما كنا نؤمن به جميعاً. ولِمَ لا؟

قالت ليلي: «إنديا بالمر تتاجر بسندات الضمان، وفي الرهن العقاري. سندات الضمان بوند[19]، جيمس بوند، على كل حال، ما الذي تعنيه

19 - سندات الضمان تعني بالإنجليزية Bond. ليلي ستار تتلاعب هنا بالكلمات من حيث المعنى حيث تستخدم هذه الكلمة أيضاً للإشارة إلى الشخصية السينمائية جيمس بوند. (المترجم.)

عبارة «سندات» الضمان؟» كانت عيناها تميلان إلى الزرقة الفاتحة، وكانتا تلمعان وهي تستمتع بالتحدث عن هذا الموضوع بطريقة ذكّرتني بالسبب الذي جعلني أتعلق بها إلى هذه الدرجة. كانت ذات شخصية مرحة. وكان بإمكانها أن تستشرف المستقبل وتتنبأ بالنتيجة بشكل دقيق، وبالتالي تقوم بتزيينها بكافة التفصيلات، ثم تقرر بعدها بشكل فوري، فيما إذا كان لهذه النتيجة معنى. تابعت قائلة: «كائناً ما كان المقصود بعبارة سندات الضمان، فإن انخراطك في هذا المضمار هو فكرة غبية جداً. هل كان جاداً في عرضه؟ هل قرأ روايتك؟ «جيل النار» هي أفضل رواية قمتِ بتأليفها حتى الآن. لم يكن بإمكاني إغلاقها قبل أن أنهي قراءتها بالكامل.»

قلت في نفسي: لقد قرَأَتْها إذاً. خيم عليَّ شعور بالسعادة الغامرة. فهي ما تزال مؤمنة بموهبتي. اعتبرتُ أن رأيها هو أول مراجعة نقدية للرواية. سلّمتها الرواية كمخطوطة منذ عدة أشهر، لكنها لم تقل حينها شيئاً. عندما ذكرتْ أنها «أفضل رواية كتبتها وأنه لم يكن بإمكانها إغلاقها قبل إنهاء قراءتها» فهذا يعني أنها أحبتها. هذه هي حال الكُتّاب: فهم دائماً يصدّقون أي مديح يسمعونه؛ أعني المديح الذي يتلقّونه من قرائهم وأصدقائهم. عندما يقول هؤلاء إنهم أحبوها، لا يخامر الكاتب الشك في ذلك مطلقاً. إنها تؤمن بأنها عبقرية، وأنها شديدة الذكاء؛ كما تؤمن بأنها نجمة يشعشع نورها في السماء. هذا ما تؤمن به بالرغم من أنها تعرف جيداً أنها كذبت مراراً في ظروف مشابهة.

وبينما استمرت ليلي في كيل المديح للرواية، تبين لي كم أخذت عرض وين لي على محمل الجد بالرغم من أنني لم أُعِرْهُ كثيرَ اهتمام، وتساءلت

إن كان بمقدوري القيام بذلك فعلاً؛ أي أن أصبح تاجرة. أجل: إنديا بالمر: نجمة في عالم التجارة في مجال الرهن العقاري: واحدة من قلة من النساء في وول ستريت: أسمع الصوت يردد: أنا: سيدة الكون. حسنٌ، عليَّ أن أجهدَ لأستحق هذا اللقب على الأقل. أجل، لقد طردت هذه الفكرة من رأسي بالسرعة التي طردتها فيها ليلي. كان هذا يعني أنني بدأت أؤمن بنفسي بصفتي كاتبة. هل كانت ليلي تعرف ذلك؟ تبين لي البون الشاسع بيني وبينها. فقد كانت تؤمن بموهبتها إيماناً مطلقاً. كان النظر إليها يشبه النظر إلى مشهد متغير مختلف الألوان؛ فقد كانت تمثل دوامة ملونة تمتزج فيها المحبة والغيرة واللؤم والإعجاب والمرامي الصعبة المراس.

قلت: «هذه المسألة لها جاذبيتها وسحرها كما تعلمين. أعني، الرهانات العقارية. لقد عرف هؤلاء كيف يكدّسون الديون الناجمة عن الرهان العقاري ويحولونها إلى سندات ضمان لها عموماً قيمة أكبر من قيمة سوق الولايات المتحدة بأكملها.» نسيت كم هي أكبر بالمقارنة مع ماذا، لكنني كنت أعرف أن ليلي لا تعرف عن الموضوع أكثر مما أفصحتُ عنه. تابعتُ القول: «تصوري كم هم أذكياء: فهم يأخذون كل الرهانات العقارية الضئيلة القيمة، ثم يجمعونها إلى بعضها بعضاً. تتحول هذه الرهانات الصغيرة مجتمعة فتتحول بدورها إلى قسيمة ثابتة ومضمونة بنسبة خمسة أو ستة أو سبعة بالمائة طيلة مدة القرض التي تبلغ ثلاثين سنة في معظم الحالات؛ أما الآن، فقد طلعوا علينا بخيارات لا تنتهي تجعل الاقتراض في متناول يد الجميع.»

استفضتُ في شرح الفكرة لجعلها تبدو على نفس السوية من الأهمية التي شعرت أنها تستحقها عندما كنت في ولاية مين؛ وكنت أحس وأنا

أتحدث بالرغبة في أن أطّلع أكثر على تفصيلات هذا الموضوع، كي أستوعبه بشكل أفضل؛ وهو إحساس يشبه ما شعرت به منذ مدة طويلة عندما دخلت في نقاش حامٍ حول المعنى الحقيقي لتلك الجملة الافتتاحية لأحد الكتّاب. فكرت في وين، وفي احتمال أن ألتقي به هنا. فكّرت في أن أفاجئه، واحتمال أن يدعونا لاحتساء فنجان من الشاي أو كأس من الشمبانيا. كنت أحس بعينيْ ليلي تراقباني عن كثب.

قالت ليلي وهي تتثاءب بمرح وتربت على شفتيها: «هذا رائع». أشارت وهي ما تزال ترمقني بنظراتها مثل الطبيب الواقف على طرف حلبة الملاكمة وهو يتفحص عين الملاكم، إلى ثوب سباحة معروض على واجهة أحد المحلات. كان ثوباً أسود اللون من نوع البكيني الفاضح. كانت ثمن القطعة السفلية منه يبلغ مائتان وخمسون دولاراً؛ أما القطعة العُلْوية منه فكان ثمنها مائة وخمس وتسعون دولاراً. أحببنا شكل ذلك البكيني. شجعتني كثيراً على أن أجرّب مقاسه مكيلة الكثير من المديح على تناسق جسدي. جرّبتُ ذلك الثوب ظناً مني أن ثمنه لا يشكل سوى جزء بسيط من المبلغ الذي سوف أتقاضاه مقابل المقال الذي ستنشره لي مجلة «المرأة» اللهم إلا إذا اختاروا عدم نشره. كانت الفكرة التي اخترت الحديث عنها هي الجمال وعلاقتي به. قلت لثيودور: «أنا عاهرة، أنا مستعدة للكتابة حول أي موضوع.»

قال: «لا بأس طالما أنك عاهرتي أنا.»

كانت أضواء المتجر الساطعة لطيفة وتوحي بكثير من الجاذبية، كما كانت المرايا مائلة نوعاً ما بحيث تعطي الانطباع بأن الجسم أطول مما هو عليه

في الواقع خصوصاً بطّتيْ الساقين والفخذين. بدوت أنيقة جداً في ثوب السباحة ذاك. لم يكن في ذلك المتجر الكثير من البضائع؛ كانت هناك فقط بضع قطع من حمّالات الصدر والألبسة الداخلية النسائية تتدلّى هنا وهناك، ويبدو أنها كانت منتقاة بعناية فائقة ومعروضة فقط من أجل إضفاء نوع من الفخامة على المتجر؛ لم تكن هناك حاجة إلى المبالغة في الاختيار. أحسست بأنني لست رخيصة أبداً، وأن قيمتي كبيرة. أحسست أن بشرتي أكثر نعومة وطراوة.

قالت ليلي وهي تبتسم بحلاوة: «أطلقي العنان لرغباتك، فأنت تستحقين ما ترغبين به.» أجل، مثل منزل هامبتونز.

قلت: «صحيح». ومع ذلك، أحسست أن الأمر سيبدو مسلياً أكثر لو أن رجلاً ضخم الجثة يجلس إلى مكتب كبير يكتب شيكات على بياض من أجل إشباع رغباتي. لكن ذهني قفز فجأة إلى ثيودور في الاستديو الخاص به. سألت ليلي: «وماذا عنك؟» تصورت إيما وهي تبدي إعجابها بلباس البكيني لو ذهبنا كي نسبح في نادي السباحة الذي يقع على سطح أحد المباني في منطقة سوهو. سوف تعرف بالتأكيد المتجر الذي ابتعته منه؛ سوف تأخذ علماً بذلك، وستتأكد حينها أنني أكسب دخلاً محترماً من مهنتي ككاتبة. إما أنها ستعتقد ذلك أو تظن أنني حمقاء، لكنني أعلم أنها لا تعتبرني حمقاء أبداً.

قالت ليلي: «إن ثمن ثوب السباحة هذا يعادل نفقات إطعام ولديَّ لمدة شهر كامل». من ناحيتي، بدأت أفكر في ابنتيّ غوين وروبي ووجهيهما

الصغيرين الجميلين، وثغريهما المطبقين، واللذين يفترّا كما يفترّ فم فرخ الطائر. ابتعت ثوب السباحة ذاك، مثيرة إعجاب ليلي ستار بالسهولة التي سحبت فيها بطاقة الائتمان من محفظتي. لقد عملت بكد؛ لقد بذلت جهداً لا يقل عن أي شخص آخر.

ابتعت فستاناً جديداً بنيّاً أنيقاً مطرزاً بخيوط معقودة مخرّمة لفصل الخريف من محلات بيرغدوف. كان ثمنه بعد حذف الضريبة سبعمائة وخمس وسبعون دولاراً. كان عليّ اقتناؤه كي أرتديه في حفل التوقيع على روايتي الجديدة. أشركت ليلي في خطتي هذه وضحكنا سوياً على فكرة إلغاء الضريبة. قالت: «إنه باهظ الثمن. سوف أكون شاهدة لو تعرضت لملاحقة من موظفي الضرائب. سأقول لهم: أيها السادة المحترمون، أؤكد لكم أنها لم تلبس هذا الثوب سوى مرة واحدة؛ فقد أرادت أن تبدو بمظهر شخص شديد الثراء، وإلا فمن سيشتري روايتها؟»

وقفت أمام المرآة، وأمَلْتُ برأسي باتجاه اليسار كي أرى كيف أبدو في ذلك الفستان بينما كانت ليلي تُرافع دفاعاً عني. تخيلت التالي: الثوب يعانق كل ثنية في جسدي، أما بشرتي فكانت تبدو من خلال خروم الثوب، ناعمة الملمس كقطعة حرير شاحب اللون. من المؤكد أن المال بإمكانه جعل المرء يبدو فاتن المظهر. ابتعت الفستان. قلت: «سوف أذكره في الرواية، وعند ذاك، سوف يكون الخفض الضريبي عليه حقيقياً وذا مردود مجز.» لماذا أردت أن أستعرض أمام ليلي من خلال إنفاق هذا الكم الكبير من المال؟ لماذا كان يهمني رأيها في المقام الأول؟ لا بد أن ما قمتُ به منحني الإحساس بأنني قد نجحت؛ لقد افترضتُ أن جزءاً من طبيعة الكذبة التي كنت أحاول

خداع نفسي بها لبعض الوقت، أنه بإمكاني كفنانة أن أعيش هذه الحياة التي تساوي قيمة ما أقوم به من عمل فيها، قيمة ما يقوم به الآخرون من أعمال.

سألتني ليلي بعد فترة وجيزة وهي ترمقني بطرف عينها: «حفل توقيع كتاب؟»

قلت: «إيما تشابمان ستقيم حفلاً. تذكّري هذا التاريخ، تاريخ نشر كتابي، السادس عشر من شهر تشرين الأول، أكتوبر. سيساهم الناشر أيضاً في هذا الحفل.» كانت تلك كذبة. فقد أرادوا في نهاية المطاف، أن يقيموا هذا الحفل الخاص بعيداً عن الأضواء، ولذلك فقد اعتذروا عن عدم المساعدة، علماً أنهم وعدوا بأن يرتبوا لقاءً يقدمون فيه الخمر والجبن على حسابهم الخاص في أحد دور بيع الكتب. قلت: «يجب أن نفعل شيئاً من أجلك.»

سألتني: «ألم أقل لك؟» ألقت عليّ هذا السؤال كما لو أنها تذكرت أن تطرحه الآن فقط، كما لو أن هذا السؤال لم يكن يعنُّ على بالها طيلة فترة العصر التي قضيناها سوية، وكما لو أنه لم يكن السبب في اتصالها بي كي نلتقي.

هل ظلمتها جداً بهذه الهواجس؟ يمكن أن يكون الكُتّاب على هذه الشاكلة؛ لطالما كانوا على هذه الشاكلة: إنهم خليط من المتناقضات: فشخوصهم مزيج من الأنانية والغيرية، كما يرغبون في الانعزال بقدر ما يتوقون إلى الشهرة. أشرق وجهها؛ لا، لم أكن ظالمة لها. كنا ننزل باتجاه الطابق الأدنى على السلم الكهربائي، وكانت صور وجهينا تنعكس بأعداد لا تنتهي في المرايا العاكسة من حولنا. كانت الحقائب تتدلى من ذراعيّ كما

لو كنت سيدة بإمكانها إنفاق مبلغ ألف وخمسمائة دولار في أقل من ساعة. كنت قد أنفقت في اليوم الذي سبقه ثلاثة آلاف دولار ثمناً لبطاقات الطائرة التي ستقلّنا إلى لندن.

سألتُ: «ما الأمر؟ هل هناك أخبار طيبة؟» كنت أعلم أن هناك أخباراً طيبة، كما كنت أعلم أيضاً أنه لم تكن لدي رغبة في سماعها. فجأة، تراءى لي المستقبل. سوف تحقق روايتها نجاحاً منقطع النظير. سوف تكون فتاة الساعة المُتوَّجَة في عالم الأدب. في نهاية المطاف، أضحت لديها رواية: لقد أمضت خمس عشرة سنة لكتابة روايتها الأولى التي ستكتسح السوق. كان بإمكاني تخيل عناوين الصحف: «هذه الرواية تستحق أن ننتظرها طيلة هذه المدة». ليلي ستار[20]: إنها اسم على مسمى.

قالت: «اتصل بي ليوناردو كافيللي ليعلمني أن دار بيكادلّي للنشر سوف تقيم حفلاً لأن هذه الرواية حدث مهم بالنسبة إليهم.» كان الجذل ينضح من ثناياها، ولمَ لا يكون الأمر كذلك؟ فهي تستحق أن يغمرها ذلك الشعور بالجذل، وأن تغوص في هذا البحر من الجذل. أما أنا، فكان عليّ أن أشعر بالسعادة من أجلها. كانت تلك الابتسامة الرائعة على وجهها تشع بالنجاح.

لم يكن بإمكاني مشاطرتها هذا الشعور بالجذل. لمَ لم أستوعب مثل هذا الإحساس بالجذل من قبل؟ قبل أن أنفق كل هذا المال؟ كان صوتها

20 - Star تعني «النجمة».

يشبه صوت صرير الباب. كانت تعلم علم اليقين أن مثل هذا الخبر سوف يتناهى إلى أسماعنا بهدوء. هذه المبادرة من دار بيكادلّي غير مسبوقة. لقد كان هذا الاتصال الهاتفي من كافيللي أشبه ما يكون اتصالاً من الرب، وهو امتياز لا يتمتع به إلا أصحاب الأسماء الأكثر شهرة.

قالت: «منحتني المقالة النقدية التي نشرتها مجلة «التقّدم»[21] تقدير نجمة، وكذلك فعلت مجلة «كرامر»[22]. ما زلت أنتظر ما ستطلع به المجلات الأخرى. لكن ما نشر في هاتين المجلتين أشبه ما يكون بتسجيل ضربة مزدوجة، أو أيٍّ مما تطلق عليه في مباراة بيسبول: أي رمية في الصميم. ستقوم مجلة «التقدّم» بعرض نبذة عن حياتي!»

من يعير اهتماماً في أي مكان في العالم كله لتقدير «نجمة» تمنحها مجلة «كرامر» اللهم إلا في مدينة نيويورك؟ من؟ لا أحد على الإطلاق، ولا في أي مكان آخر في العالم. لكنني كنت هنا، في نيويورك، وكنت أعير هذا الأمر كل الاهتمام؛ ولقد أحسست بالكره تجاه نفسي بسبب كل المشاعر الجياشة التي استحوذت عليّ حينها. وأكثر ما كرهته يومها هو تصوري أنها كانت تعرف بالضبط ما كنت أفكر فيه.

سألتُ: «ماذا؟» كنت في الحقيقة أسألها عما كانت تعنيه بعبارة «الضربة المزدوجة» – هل هذه العبارة مستعملة في كرة القدم أو البيسبول؟

سألتني: «فكرة عظيمة أليس كذلك؟» طريقتها في طرح السؤال كانت

Advance - 21
Cramer - 22

تنمُّ عن تواضع مصطنع، فهل من الممكن أن تكون النجوم فألاً سيئاً، أو أن يكون الحفل الذي سيقيمه كافيللي مجرد حدث عابر؟ أما النبذة عن حياتها التي سوف تعرضها مجلة «التقدّم» فهل يجب تجنبها بأي ثمن؟ ففي الآلة التي تنتج كتاباً يمكن تسويقه، تعتبر مثل هذه الأشياء الخيوط التي تؤسس لهذا النجاح. الأسوأ من كل ما تقدم كان ادعاؤها أن تجربتي هي بمثابة مرجعية لها، خصوصاً عندما تبيّنَ لها مع الصدور الوشيك لروايتها الأولى، أنها كانت تقترب من القيام بتلك القفزة الهائلة التي تُمكّنها من تجاوز أرقام مبيعاتي، وكلنا يعرف أن المبيعات هي أهم شيء في نهاية المطاف.

قلت: «حسنٌ، بالطبع». كانت تلك الحقائب الثقيلة التي أحملها تشدّني باتجاه الأرض. كنت أمارس شكلاً من أشكال الدجل. هذا ما كان عليه الأمر. إذا كان ما تظهره هي غير ما تبطنه، فقد كان هذا بالضبط ما كنت أقوم به. كنت أعيش في قلب الزيف، محاولة إثبات أن الكاتب يمكن أن يحيا مثل بقية الناس؛ مثل أولئك الناس الكادحين الشرفاء، وأن بمقدورنا الاستمرار. كنت أتظاهر أمام ليلي ستار بحيث تعتقد أن وضعي جيد جداً. كانت تعتبرني مثلها الأعلى. كنت أتظاهر أمام آباء أصدقاء وصديقات بناتي بأنني أملك ما يكفي من المال لتغطية نفقات الإجازات التي يدعوننا إلى قضائها بينهم، وشراء هدايا عيد ميلاد لأبنائهم، ودفع ثمن دعوات العشاء في المطاعم الفاخرة. كنت أتظاهر أمام مسؤولي مدارس البنتين أن باستطاعتي دفع أقساط التدريس التي لا طاقة لطبيعة مهنتنا بتغطيته.

ليلي التي لم تكن تحمل أية حقائب، كانت خفيفة مثل الريشة. كان بإمكاني تحسس نجماتها وصديقها كافيللي بكل ذرة من كياني؛ كنت أشعر

بالغثيان وبرغبة في الإقياء كما لو أنني ازدردت كمّاً من الشحم. أردت أن أعيد ثوب السباحة والثوب. كانت حرارة الشمس في الخارج لاذعة. تعلمت أن الكتّاب لا يطعنونك في الظهر؛ بل يولجون النصل بهدوء بين الأضلع في الوقت الذي يحدّقون فيك بعيونهم.

قالت: «إن في نيتهم طباعة خمسين ألف نسخة في المرحلة الأولى. أنا مصدومة فعلاً؛ هذا رقم كبير أليس كذلك؟» وأردفت قائلة: «هل أقاموا لك حفل ما قبل النشر لأي من رواياتك؟»

شعرت بالكراهية تجاهها بسبب استعمالها عبارات خاصة بالناشرين. كرهتها بحق.

كان الجواب بالنفي. كلا، لم يقيموا لي مثل هذا الحفل.

لو عدنا إلى موضوع آل جونز، فقد كان وين هو أول من أعلمني عن أسرارهم، وأطلعني على حقيقة أن آل جونز بصفتهم فصيلاً من المستهلكين كانوا في الحقيقة أكثر تقلباً ومزاجية من جيرانهم الذين عملوا جاهدين على الاستمرار في الأيام الخوالي، أي في عالم الرهن العقاري قبل ازدهار فئة نخبة النخبة. كانت طبيعة دخول الجيران التي يمكن التنبؤ بها إلى حد ما، قد جعلت من المراهنة عليهم أو ضدهم، تبعاً للحالة، عملية أكثر سهولة ودقة. فقد حاولوا جاهدين عدم السقوط، ولكن عندما حصل هذا السقوط، كانت الخسائر في حدها الأدنى وتم احتواؤها بسهولة. لكن الحال لم تكن نفسها بالنسبة لآل جونز. أولاً، كانوا مقتنعين تماماً بأنهم ينتمون إلى عائلة لا تقهر، ولذلك لم يخلقوا هوامش كافية لحماية أنفسهم. ثانياً، عندما حدثت عملية

السقوط، لم تكن المبالغ الطائلة حينها قد امْتُصّت بسهولة؛ ما جعل الرهان عليهم عملية أكثر مخاطَرة، ولكن أيضاً، أكثر ربحية إلى حد بعيد.

كانت إيما قد دعت آل جونز لزيارتها. قالت: «دعوت آل جونز المقيمين في مقاطعة بوند بوينت». كانت تعني تلك العائلة التي قدمت من بوسطن، وتقطن حالياً في المنزل المجاور؛ هي العائلة التي تقتني تذكارات من فريق «رد سوكس»[23] وتنشرها في كل زاوية من زوايا المنزل. كنا نلتهم الكركند بعد وجبة البطلينوس في تلك الليلة التي قضيناها مع وين في ولاية مين. كان آل جونز قد وصلوا لتوّهم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. كان الظلام قد هبط، لكن كل نافذة من نوافذ منزلهم كانت مضاءة، وكانت المصابيح كذلك مضاءة على مدخليْ المنزل الأمامي والخلفي. كان الضوء المنبعث من المنزل مُسَلّطاً على مساحة عريضة مغطاة بالعشب البحري أمامه لمسافة خمسين ياردة، يحل بعدها الظلام.

عندما أضيئت المصابيح، أبدينا إعجابنا بالمنزل مرة أخرى كما فعلنا أثناء النهار، ونحن نتمشى على الشاطئ. كان أصحابه قد أولوه عناية فائقة بعكس منزل آل تشابمان. كان المنزل قد تم طلاؤه مؤخراً. كانت علب النوافذ مغطاة بورود «إبرة الراعي» الحمراء القانية، كما كان مدخل المنزل مزيناً بحديقة فيها الكثير من الورود المقاوِمة للعطش. وكان هناك أيضاً العلم الأمريكي يخفق بأناقة في الهواء. أخبرتنا إيما أن العائلة بقضّها وقضيضها (الأم والأب والعمات والأعمام والخالات والأخوال، وحتى الأولاد) كانت تعمل من

---

23 - Red Sox

دون كلل أو ملل خلال عطلة نهاية الأسبوع على صيانة المكان وترتيبه. كانوا يقتلعون الأعشاب الضارة ويحفرون التربة ويقلّمون الشجيرات ويصلحون ما يتوجب إصلاحه ويكنسون ويطبخون ويجزّون عشب المرج الصغير أمام المنزل. كانوا أيضاً يعلقون ثيابهم على حبال الغسيل بكثير من الترتيب لتجف. لم يدر في خلدهم أبداً تأجير المنزل. قالت إيما: «حتى الكلب كان يتهادى مختالاً وكأنه يريد أن يوحي بأنه ساعد في هذه الأعمال، حيث كان ينقل العِظام بفمه هنا وهناك، ويحفر بعض الحُفَر.

العائلة كلها داخل المنزل الآن وهي تتناول عشاءها.

قال ويل: «إيما تتبع آل جونز مثل ظلهم لأنها تبقى على تواصل معهم أينما ذهبنا.»

قال وين: «لم أعرف أنها اكتشفت أنهم موجودون هنا في بوند بوينت. يبدو أن لديكم موهبة خاصة؛ فالجيران الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة هم الآن الطبقة الراقية الجديدة.»

قال ثيودور: «من الطريف أنك تذكر آل جونز، فنحن نمتُّ بصلة قرابة إلى عدد منهم في إنجلترا.»

قلت بينما كان ثيودور يهمّ بالخوض في هذا الحديث. «يا إلهي! لا تعدْ إلى سرد نفس القصة.» كان لمثل هذا الحديث أن يغوص في متاهات خصوصياتي العائلية، ويتطرق إلى موضوع أخي وقِيَمه، لكنني كنت في سرّي سعيدة برواية ثيودور للقصة؛ كنت سعيدة في أن أظهر في مقام أعلى من مقام آل جونز،

بمعنى أنه لم يكن لدي مانع في الاعتراف بأنني أدنى مستوى. في المحصلة، هذا ما كانت إيما تحب فيهم. لم نكن مختلفين عنهم كثيراً في العديد من الأوجه. مهّد ثيودور للمشهد: هيث وكلاريسا، الطبيب الأمريكي في لندن وزوجته الإنجليزية الراقية بلهجتها البريطانية الأنيقة وهي مزيج من لهجتيْ جامعتيْ أكسفورد وكامبريدج. كان أخي يناديها بقوله: «يا حبيبتي ...»، وكان يمط هذه العبارة بحيث تبدو أطول من جسم كلب الدشهند الألماني، «... لا تنسي جدول المواعيد...» كان يلفظ هذه العبارة الأخيرة باللكنة البريطانية، «... وكذلك موعد تناول الشاي مع عائلة هارينغبونز». كانت بناتهما الأربع: جينجر وتشانس وأولمبيا و هابي، أجل هابي، قد سمّين على شاكلة بنات روكفلر مثل اسم فيليسيتي. كانت البنات شقراوات وذوات عيون زرقاء ولكل اسم من أسمائهن معنى موحياً. كان أخي يكسب مبالغ ضخمة لقاء تقديم خدمات طبية للجماعات المصرفية من الأمريكيين المقيمين في بريطانيا. كان يتقاضى أجور معاينة مرضاه الأمريكان الذين لم تكن لهم ثقة بنظام الرعاية الصحية في بريطانيا مبالغ موازية لما يدفعونه في أمريكا. وكانت عائلته تقيم في منزل رائع في منطقة كادوغان غاردنز كان قد اشتراه مؤخراً مقابل بضعة ملايين من الجنيهات الإسترلينية، وكان مبنياً من الآجر الأحمر الموشّى بخشب أبيض وواجهة زجاجية بارتفاع طابقين. كان كل منزل في ذلك الجوار أجمل من المنزل الذي يليه. لكن منزل أخي كان الأجمل والأكبر حجماً والأكثر بذخاً في عملية ترميمه؛ لكن هذه الأخيرة لا يمكنك أن تتأكد منها إلا بعد التدقيق في تفصيلاتها، أو إذا كنت خبيراً في ملاحظة أدق التفصيلات. أمضت كلاريسا وقتها مع مهندسي التصميم الداخلي مبدية ملاحظاتها حول مجموعة من العينات التي كان عليها أن

تختار من بينها وكذلك لون الدهان ومقابض الأبواب واللمسات النهائية، وكانت هي من يقرر الشكل النهائي للنوافذ والتجهيزات والأدوات.

عندما كنا في زيارتهم بعد أن ابتاعوا المنزل، وبعد إلقاء نظرة متفحصة ودقيقة وشاملة على المكان بمحتوياته وتصميمه ونحن نسترخي على إحدى الأرائك، قال ثيودور لأخي بأسلوب فيه بعض الاستفزاز الرقيق: «أخبرني عن شعورك حيال التعايش مع آل جونز.» ضحكت بعصبية وبصدق لأنه كان يستفز أخي الذي لم يكن ليُستَفَزَّ بسهولة لأنه كان ينظر إلى الحياة نظرة جدية تماماً. كنا نسبح حتى أعناقنا في كم هائل من الشوكولاته الرائعة المذاق؛ كنا نغرق فيها، لكن أحداً لم يكن يعيش خارج هذه المتعة خلا ثيودور.

سألتْ كلاريسا بصوتها البريء الناعم وهي تلقي نظرة من على الأريكة عبر النافذة باتجاه المنازل الأقل فخامة في ذلك الحي: «آل مَنْ؟»

كانت دائماً تحصل على ما تفكر فيه، ولم تشعر أبداً أنها بحاجة لأن تطلب شيئاً. كان تعرف من هم آل جونز تماماً. لقد غطى صيتهم أرجاء العالم المتحضر. الجميع كانوا يعرفون آل جونز. كرر ثيودور العبارة وهو يكاد ينفجر بالضحك: «آل مَنْ؟» ضحكت هي بدورها. لم تكن تسمع باسمهم قبلاً، لكنها الآن عرفت من هم آل جونز، وبالتالي، فقد بدأت تضحك على نفسها بسبب سوء الفهم ذاك. اصطنعت جهلها بهم لأن آل جونز كانوا مجرد أمريكيين وكان إحساسها الفوقي بهويتها الإنجليزية يمنعها من الاعتراف حتى بوجودهم. كررت عبارة «آل مَنْ» مرة أخرى بطريقة ساخرة من الذات عرفت حينها لماذا كان أخي هيث يحبها.

كان هيث ضخم الجثة ومليئاً بالخُيَلاء المعروف عن الأطباء، ولكن كان في داخله أيضاً ذلك الصبي الصغير الذي تتملكه الرغبة المحببة ليس فقط في أن يُسعِد أباه، بل في أن يبزّه أيضاً. نظر إلى ثيودور وقال في نبرة لا تشوبها أية مسحة من السخرية: «نحن آل جونز.»

قالت إيما وهي تقهقه: «هو لم يقل ذلـك.» ضحك الجميع بعدها. بإمكانكم أن تدّعوا كما تشاءون كي تظهروا أنكم أدنى مستوى من آل جونز، ولكن أعانكم الله لو قمتم، لا قدّرَ الله، بوضع أنفسكم على نفس سوية آل جونز. من هو ذلك الشخص الذي لديه الجرأة للقيام بذلك؟

قال ويل وهو يمرر يده على وجنتيه ويرتدّ إلى الوراء في كرسيّه، معبّراً عن إعجابه بشخصية أخي الجريئة، وكاشفاً عن عمق وأهمية ما قد يبدو للبعض مدعاة للسخرية: «بارك الله بأخيكِ؛ لأنه قادر على أن يسمي الأشياء بأسمائها.»

قال وين وهو يقلّب هذه العائلة في ذهنه: «آل جونز هؤلاء، يقعون في مطب الفشل دائماً. فلكي يملكوا ناصية عالم التجارة يجب أن تكون لديهم القدرة على تقويم واستيعاب متى وكيف يمكن أن تنطلي عليهم الحيلة فيما يتعلق بالشعور العام السائد في السوق. هناك تصنيف فرعي قائم بذاته في عالم الضمان مصمم كي يستوعب انهيار سوق العقارات، ألا وهو الضمان الذي يقتات على خسائر آل جونز». كانت أمامه بقايا الكركند التي لم يبقَ في أي منها حتى الرأس، شيئاً من اللحم في الصحن. وكان ويل قد نصحنا بأن نبحث عن اللحم في أبعد زوايا رأس الكركند لأنها تحتوي على لحمه الأطيب مذاقاً.

جلس وين هناك مرتدياً قميصه الوردي الذي ينتهي كل من طرفيْ كمّيه بزرّ معدني متلألئ؛ يغمره إحساس بأن وجوده بيننا يخيم علينا جميعاً.

قال ويل: «هذا صحيح تماماً، فهو الآن من آل جونز، وهو يعلم ذلك حالياً.» كان وجه أخي يتراءى لمخيلتي وهو ينقبض وينبسط وهو يستمع إلى حوار يدور بين وين وويل حول توقعاتهما بشأن وضع السوق. كان ويل يستثمر في الحاضر بينما وكان وين يستثمر في المستقبل. وكانت الشخصية، كما هي الحال دائماً، في صلب ذلك النقاش.

• • •

مرة أخرى، أستيقظ من النوم وأنا في سريري على وقع عاصفة رعدية تمزق بعنف حجب سماء الليل. كان البرق يضرب في كل مكان وكان لمعانه في كل الأرجاء. بدأت أسمع صوت الماء يتساقط على السقف المستعار فوق رأسي. ظللت مستلقية في سريري أراقب العاصفة عبر النافذة. كان ثيودور قد انتقل إلى غرفة نوم ابنتينا ليهدئ من روعهما. أصبح الماء المتجمّع فوقي أثقل من أن يتحمله السقف المستعار أو الشريط اللاصق. كان الماء على وشك أن يندلق على السرير فعمدت إلى تغطيته بغطاء من البلاستيك من أجل حمايته قبل أن أنتقل للنوم على الأريكة.

في غضون ذلك، فإنني أستمع وأنا مستلقية هنا، إلى صوت الماء المتسرب الذي سهّل لنا حياتنا، وساعدنا في أن نعيش حياة مقبولة. هل كانت تنطبق علينا أية مادة من مواد الضمان؟ بالطبع لا، لأننا كنا مستأجرين، لا مالكين. حتى ليلي ستار استطاعت أن تَفيد من الميزات الرائعة للبنود الفرعية

لضمانات الرهان العقاري في مؤسسة وين. كانت زبونة جيدة وموثوقة وجريئة. كان صوت الرعد من العنف والشدة بحيث بدا وكأن نيويورك برمّتها تحت قصف شامل. غطّى صوت الرعد بالكامل على صوت الماء وهو يتساقط من السقف. بقيت لفترة طويلة أقبع خارج أسوار قوى السوق. كنت أنا وعائلتي مجرد قوة غير مرئية تعمل تحت السطح، وعاجزة أن تلفت الأنظار إليها. وإذا كان وين فوق السطح، فقد كنا نحن تحته. في كلتا الحالين، كنا نحن وهو دخلاء على السوق، وغرباء عن عالمه؛ وبالتالي، فقد كان بمقدورنا أن نجلس ونراقب عن بُعد، المسرحية التي بدأت فصولها تعرض أمامنا، ولدينا كل الفرص الممكنة. لقد كان توقي إلى هذا العالم ورغبتي الجامحة كي أكون جزءاً منه، وافتتاني بآليات عمل هذا النظام؛ هي ما حددت لنا أدوارنا الصغيرة ولكن الأساسية في كتابة رواية هذه الرغبة.

الفصل السابع

عندما كنت في المرحلة الثانوية، طلبت إليّ إحدى مدرساتي، وكان اسمها الأنسة فاين، القيام بوظيفة إضافية من أجل منحي فرصة أخرى لتحسين درجتي في مادة الفنون اللغوية. طلبت إليّ أن أقدم لها وصفاً لغرفة نومي، وأن أعود إلى منزلي وأدقق في محتوياتها بكافة تفصيلاتها. استلقيت على سريري ذي القوائم العالية، وظهري مشدود إلى فرشة السرير السميكة؛ رفعت بصري إلى الأعلى باتجاه المفرش المطرز بالإبرة المعقوفة، والذي يجلل سريري؛ وبدأت أدقق في تفصيلات التطريز. خلال فترة طويلة، لم يكن يلفت نظري سوى المفرش المكون من دوائرَ حجمُ الواحدة منها أربعة إنشات، وتشبه الواحدة منها الثقب الموجود في بيت العنكبوت، تم تطريزها يدوياً، وكان هناك أكثر من ألفٍ من هذه الدوائر. كان ذلك المفرش هائل الحجم. كان يمتد على مساحة السرير ويتدلى من حوافّ قوائمه الأربع وصولاً إلى الفرشة. كانت والدة جدتي قد صنعته لسرير جدتي عندما كانت تخطو خطواتها الأولى قبل أكثر من ثمانين سنة. لم أرَ والدة جدتي مطلقاً، لكن كان بإمكاني تخيل يديها وهما تمسكان بالصنارة والإبرة وتحيكان المفرش بهاتين الأداتين. كانت امرأة أنيقة وراقية اسمها مارغريت، وكانت تعيش مع زوجها وابنتيها في فيلادلفيا. كان زوجها هيث (الذي سمي أخي تيمناً باسمه) مصرفياً استثمر مبالغ ضخمة في مدّ السكك الحديدية وكذلك في البنية التحتية للمدينة وفي السيارات الثلاثية العجلات وسيارات النفايات، وما شابه.

كانت مارغريت امرأة شابة عندما بدأت العمل على مفرش السرير، ولم تكن يداها قد تأثرتا بعامل التقدم في السن كما هي حال يديّ وأنا في سن

الثامنة والثلاثين. كانت يداها ناعمتين أبيضتين ولا تشوبهما أية شائبة. لم تكن بحاجة إلى أن تغسل أطباق الطعام بنفسها. وكانت فتحة بيت العنكبوت في ذلك المفرش مطرزة بالكرات الصغيرة (بحجم حب الفشّار أو ما يسمى القطبة)، وقد تم لفّ الخيط القطني الرفيع ليشكل عنقوداً مكوناً من ثماني كرات. لو افترضنا أن هناك ثمانية آلاف دائرة، وأن كل دائرة تحتوي على ثمانين كرة صغيرة، فإن ذلك يعني وجود ثمانين ألف كرة قامت هي بحياكتها بيديها. استغرقت عملية حياكة مفرش السرير أقل من سنة. وكانت تعمل على هذا المفرش في ردهة منزلها قرب الموقد بينما كان زوجها يقرأ في الصحيفة المسائية، وبينما كانت جدتي إنديا ما تزال في مهدها، وفي الوقت الذي كانت نورا، طفلة مارغريت ما تزال في سريرها الصغير الأشبه بالسلة.

كان التمعن في دقائقِ مفرش السرير بمثابة عملية شحذ لعينيّ. لم يكن في الغرفة ما يثير الانتباه بشكل استثنائي. كانت مجرد غرفة فتاة صبية، كانت جدرانها مطلية بلون دهان وردي شاحب؛ توجد في الغرفة خزانة كتب ملأى بالكتب الشهيرة، وهناك أيضاً خزانة أخرى ملأى بلعب مدام أليكساندر، إضافة إلى خزانة ثياب بعضها كان لأمي عندما كانت صبية. كانت على مزينتي علبة دمى مليئة بربطات الشعر والشرائط والملاقط. هناك بضعُ صورٍ معلقة على الجدران من بينها صورة لأمي في أوروبا عندما كانت طفلة صغيرة مع والديْها، وصورة أخرى لي ولأخي عندما كنا طفلين رضيعين؛ كانت هناك مرآة قديمة ضمن إطار مُذهّب إضافة إلى لوحة لإوزّة مع صغارها. كانت المرآة لجدتي لوالدتي. كان في الخزانة أيضاً عربة أطفال خاصة بالدمى تعود لأمي.

هناك أيضاً، كان زوج من الأحذية المستخدمة في ركوب الخيل وقبعة، ومضربٌ للتنس، وأدوات التزلج على الجليد وكرة قدم وزوج من مضارب لعبة الهوكي على العشب. لم أعانِ أبداً من أي انزعاج حقيقي. ولم أعرف معنى للتواق الحقيقي. في تلك الحقبة من حياتي، لم أكن أتوق سوى لليسير، فهمت وأنا أستلقي على سريري، أن تلك الموجودات في غرفتي والتي انتهت إليّ جيلاً بعد جيل كانت نوعاً من الثروة. فهمت وأنا أقطن في منزل مليء بمكيفات الهواء في مزرعة في إحدى ضواحي ولاية ميريلاند، غير بعيدة عن المزارع التي تُربّى فيها الخيول حيث كنت أمتطي الخيول عندما كنت في سن أصغر، أنني كنت أملك الكثير.

بقيت مستلقية في سريري لمدة طويلة وأنا أحدق في ذلك النموذج المتّحد المراكز الذي حاكته يدا أم جدتي التي كانت يداها اللتان بدأت تظهر فيهما عدة عقد، تتقدم في السن وتعاني من التهاب في الشرايين. كانت قد حاكت المفرش المطرز كي يبقى بعدها، وقد حاكته من أجود أنواع خيوط القطن الإيطالي المعززة بخيوط حرير من نوع كومو. كان غطاء المفرش قد طُوِيَ بعناية، وتم حفظه في كيس بلاستيكي وحمايته بواسطة وضع كرات النيفتالين لصيانته من العث، واصطحبته جدتي معها إلى بلتيمور عندما تزوجت. كان زوجها يعمل في مجال المال أيضاً، وكان قد استثمر مبالغ طائلة في الهواتف وصناعة السيارات. كانت تطل نافذة غرفتي على حديقة كانت أمي تعتني بها، وكانت ورودها تعيش من شهر أيار، مايو إلى شهر أيلول، سبتمبر. كنا في شهر شباط، فبراير، وكانت الثلوج تغطي أرض الحديقة بطبقة رقيقة.

بينما كنت أدقق في مكونات الغرفة وتفصيلاتها تذكرت أن شيئاً جوهرياً

يتعلق بكينونتي كان غائباً، وأعني بذلك أبي. لم يكن له أي أثر في الغرفة على الإطلاق، وبالتالي، فقد كان مثل معادلة فيها طرف أو عامل مفقود، وعندما تتم معرفة هذا العامل، سوف تكتمل قصة من أنا: «أ + ؟ = ب». لم يكن في الغرفة ما يُذكّر بطفولته: لا صورة شخصية، ولا لعبة. كان غائباً بالكلّية كما لو كان غير موجود على الإطلاق، أو كما لو كان مُهمّشاً أو مغيّباً. كانت أمي بماضيها الزاهي هي ما يهم هنا، كما لو كانوا ينوون حذف تاريخ نضاله بشكل كامل من الصورة. كان دائماً في صورة ما هو عليه الآن: الدكتور المكافح ذو الأجر المرتفع.

تعرّف أبي وأمي على بعضهما بعضاً في الجامعة عندما كان طالباً في كلية الطب؛ وكانت هي طالبة في قسم تاريخ الفن في مرحلة البكالوريوس. كان رجلاً قوياً، وقد أحبت فيه أنه كان يملي عليها ما يجب أن تفعله. كان دائماً يملي عليها ما يجب أن تفعله. كانت تتمنى أن تصادف رجلاً يكمل ما بدأه أبوها، وهكذا، فعندما التقت بوالدي للمرة الأولى، وكانت حينها تجلس على مقعد خشبي وتقرأ في كتاب عن مايكل أنجلو تحضيراً للامتحان، وكان شعرها مشدوداً إلى الوراء ومربوطاً بعصابة من المخمل الأسود، وكانت عيناها الزرقاوان تفيضان بالتفاؤل وجاهزتين لخوض مغامرة، جلس إلى جانبها وقال: «أريد أن أصطحبك لتناول الغداء. أنت بحاجة إلى استراحة وأنا سوف أصطحبك لتناول الغداء.» علت ثغرها ابتسامة خفيفة ثم وقفت على قدميها وتبعته. لم يعنيها أن تسأله عن اسمه إلا بعد أن تناولا النصف الأول من وجبة الغداء.

لم يكن لماضي أبي أية علاقة بماضيها من قريب أو بعيد. كان ابن شخص

مدمن على الكحول من أصول اسكتلندية هاجر إلى هذه البلاد مع نهاية القرن التاسع عشر لأنه لم يكن لديه ما يخسره أو يفتقده في اسكتلندا. كان جدي لأبي فقيراً وشبه أمّيّ. كان يستخدم حرف X كي يوقع باسمه. ومع ذلك، فقد كان حالماً؛ فقد كان يحلم في أن يصبح شاعراً. عندما كان الليل يهبط، وكان أولاده ما يزالون صغاراً، كانوا يتحلقون حول طاولة المطبخ، وكان أبي يستمع إلى أبيه وهو يقص حكايات حول جزر الهبريديز، وحرير كينتاير، وبحر أيرلندا. كان يشدو بقصائد جميلة فيها مسحة من الحزن. وكانت جدتي لأبي تقوم بأعمال التنظيف بينما كان زوجها يصدح بالغناء؛ كانت تمسح الطاولة من أعلاها إلى أسفلها، وكان شعرها مربوطاً إلى الخلف بواسطة منشفة، أما ثوبها المنزلي وقوامها النحيل فكانا ملفوفين بمئزر.

وبينما كان أبي يشبُّ عن الطوق، ويرقب كيف أصبح أنف أبيه المدمن على الكحول أكثر احمراراً، وكيف انتفخ حتى أصبح يشبه البصلة، ويرقب كذلك أمه وهي تزداد نحافة بسبب نوعية الحياة التي كان أبوه يعيشها، أصبح له رأي ثابت في الفن والفنانين. فقد تابع دراسته بهدف أن يصبح طبيباً، وهو ما كان يعتبره اختصاصاً عملياً ومفيداً. وهنا يظهر كيف تشابكت المأساة في حياته، كما سوف تتشابك مع حياة الجميع على ما يبدو. فقد دعي بصفته طبيباً مقيماً في إحدى المستشفيات المحلية كي يشاهد إجراء عملية جراحية يقوم بها أحد الجراحين الموسمين على أمه؛ وهو إجراء كانت أمي في غاية الحرج في البوح عنه ولذلك فقد اختارت أن تطلق عليه عبارة «مرض نسائي». كان رحم جدتي هو موضوع العملية الجراحية، وفهمت فيما بعد أن العملية كانت عملية استئصال للرحم. جلس أبي في غرفة العمليات برفقة عدد

من الأطباء الشباب الذين ما زالوا تحت التدريب، وكانوا يرتدون ستراتهم المعقمة، ويلبسون القفازات ويضعون على وجوههم الكمامات. كان يراقب العملية عندما لاحظ أن الجرّاح ارتكب خطأً صغيراً.

سارت العملية في اتجاه مريع بهذه البساطة، فقط لأن الجرّاح لم تكن لديه الكفاءة المطلوبة؛ فقد قطع شرياناً لم يكن هناك من داعٍ لقطعه، وكانت النتيجة أن جدتي لأبي بدأت تنزف بشكل حاد ما أدى إلى وفاتها أمام ناظريه. حاولت الممرضة والطبيب المخدر وآخرون بكل شجاعة تصحيح ما لا يمكن تصحيحه. فقد تدفق الدم من الجرح بشكل لم يستطع كل القطن الموجود أن يتشربه، إضافة إلى المناشف التي ضغطوا بها على الجرح في خاصرتها لإيقاف النزيف، لكنهم لم يفلحوا في ذلك. كان يشعر بقبلاتها تنهمر على قمة رأسه، كانت تطلق عليه لقب ملكها المتوَّج؛ كانت تمطره بالقبلات. لم يكن هناك ما يستطيع أن يفعله لإنقاذها؛ وكان يراقب ما يجري بمنتهى العجز والاستسلام. غادر الطلاب الآخرون غرفة العمليات إلى الخارج، وحثّوا أبي على أن يرافقهم لكنه استحال حجراً أصم. التقت عيناه للحظة بعينيْ الجراح. لن ينسى أبي ما دام على قيد الحياة تلك النظرة التي رمقه بها الجراح. لم تكن نظرة تحمل اللوم أو الأسى أو اليأس أو الإحساس بالذنب؛ كانت عيناه تحملان الكثير من معاني التقريع. بدت عينا الجراح الكبيرتين البنيتين المنفعلتين المحمرتين بفعل القشرة والمتعبتين والمجهدتين؛ والمفعمتين بالتحدي، وكأنهما تقولان لأبي: «لو لم تكن جالساً هناك، لما حدث ما حدث.» قام الجرّاح بنزع القفازين من يديه ورماهما على طاولة العمليات، وبنفس روح التحدي تلك، غادر غرفة العمليات.

لجأ جدي لأبي إلى الخمرة التي استمر في معاقرتها إلى أن توفي هو الآخر بعد وفاة جدتي بفترة وجيزة. كان لا بد لأبي أن يخرج من هذه الأزمة، حيث كان يسكن في أحد الأحياء الفقيرة في بلتيمور، وكان عليه أيضاً أن يتحمل مسؤولية العناية بأخته الصغيرة. ولكن هل تبدأ القصة مع ولادة جدي لأبي في جزيرة اسكتلندية صغيرة شديدة البرودة لدرجة أن مادة البطاطس لم يكن من السهل زراعتها فيها، كما أن فكرة أن يكون بإمكان أحدهم كتابة كلمة واحدة، حتى اسمه الشخصي، كانت تقتصر على أشخاص محدودي العدد وأكثر حظاً من الباقين؛ وبالتالي، فالحلم الوحيد الذي كانت الغالبية من سكان تلك الجزيرة تتطلع إلى تحقيقه هو ركوب سفينة تبحر باتجاه أمريكا؟

هذه هي القصة التي روتها غرفة نومي. سلّمت المقالة للآنسة فاين التي قرأتها في اليوم التالي بصوت عالٍ أمام الصف. وقفتْ أمام الطلبة في الصف بعد أن ركزت نظارتيها على أرنبة أنفها، وهي تحمل بيدها صفحات مقالتي المطبوعة، وبدأت بقراءة كلماتها ببطء وصبر وثقة. كانت تلك لحظة سحر بالنسبة إليّ؛ فقد أحسست بما يشبه الدوامة تجيش في صدري. طلبت إلي أن أكتب قصصاً أخرى، وهو ما قمت به. حصلت على درجة امتياز في الصف، كما تملكتني الثقة بأن قصصي وكلماتي والجهد الذي بذلته في كل ذلك، كانت مثار إعجاب الجميع. تعلمت شيئاً محدداً وجوهرياً وأنا أتمعن في المفرش المطرز؛ تعلمت من خلال السوية الراقية التي صُنِّعت فيها هذه الدوائر الألف التي تتدلى منها ثمانون ألفاً من الكرات، والتي كانت من الدقة بحيث يظن المرء أنها مصنّعة ليس يدوياً بل آلياً لأن كل واحدة من هذه الكرات المتطابقة من حيث الشكل والحجم مع الأخرى، والمنسوجة والمربوطة

إلى بعضها بعضاً بواسطة إبرة استطاعت تحويل سرير عادي إلى حلم بالنسبة إلى فتاة صغيرة، باستعمال القطن المدعّم بخيوط الحرير الناعم بلون القشدة والمتدلي على شكل ثنيات من قوائم السرير الأربع المصنوعة من خشب الماهوغاني الفاخر؛ أقول، تعلمت شيئاً عن معنى الصبر، كما تعلمت أن عليّ استيعاب معناه على حساب أي شيء آخر. قرأت الآنسة فاين مقالتي في الصف على أقراني الطلبة الذين أبدوا إعجابهم بها، وقد ظنت الآنسة فاين وأقراني الطلبة أنهم أصبحوا على دراية أكبر بي وبخلفيتي الاجتماعية من خلال تلك المقالة. انتابهم حزن شديد على أبي، ذلك الرجل الصارم الذي لم يكونوا يلتقون به إلا لماماً عندما كان يوصلني بسيارته إلى المدرسة في حال كانت أمي مريضة، كما انتابهم حزن شديد عليّ أيضاً.

ما لم أقله لهم هو إن القصة التي رويتها كانت كذبة. فآل بالمر لم يكونوا اسكتلنديين بل إنجليز، كما أن المفرش المطرز لم يكن سوى غطاء سرير اشترته أمي من سوق تبيع السلع الرخيصة، وأن جدتي عاشت حتى سن المائة وأربع سنوات. هل هذا كافٍ، أم تريدونني أن أتابع؟

الحقائق يمكن قولبتها؛ هي ليست بضاعة ذات شكل نهائي لا يمكن اجتزاؤه، بل نوعاً من الخام الأصلي الذي يمكن إعادة صياغته وقولبته وحتى رميه جانباً من أجل كتابة القصة؛ كان ذلك اكتشافاً جديداً وشديد الفاعلية. جعلني هذا الاكتشاف أكثر قوة لأنني بدأت أفهم أن الناس يريدون تصديق أن ما قرءوه قد حدث فعلاً، وأنا على ثقة أن باستطاعتي أن أجعلهم يصدّقون ما يقرءون حتى عندما كنت «أكذب» عليهم.

التحقت بجامعة معروفة بتميزها في برنامج للكتابة الإبداعية في مرحلة الدراسات الأولى (البكالوريوس)، بعد ذلك غادرت إلى مدينة نيويورك لمتابعة دراستي العليا. قرأت كل ما استطعت وضع يدي عليه مما كتبه جميع الكتاب الأمريكيين الشباب ممن كنت أعتبرهم من أصحاب المواهب. قمت بدراسة وتحليل ما كتبوه كي أكتشف ما كانوا يفعلونه بالضبط. أردت أن أتبين فيما إذا كان بمقدورهم الولوج إلى داخلي وإثارة مشاعري، وعندما كنت أحس أنهم نجحوا في ذلك، كنت أخضِع للبحث والتمحيص كل كلمة وكل فاصلة في كتاباتهم لأعرف كيف استطاعوا إنجاز مثل هذه الأعمال الفذّة. أردت أن أقوم بما قاموا هم به. درست حياتهم المهنية أيضاً، كنماذج يحتذى بها في حياتي المهنية. تقدمت بطلبات للحصول على منح كانوا قد حصلوا عليها، وعلى جوائز كانوا قد نالوها. ذهبت إلى الأماكن التي كان يجتمع فيها أولئك الكتاب. كنت أضع حساباً لكل شيء؛ فقد زرت الأماكن التي كانوا متواجدين فيها منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة خلت، وتخيلت نفسي موجودة هناك حينها؛ نمّتْ لدي روح المنافسة، وبدأت أشعر أن بإمكاني القيام بما هو أفضل وأن عليّ أن أقوم بالأفضل. اعتكفت في غرفة نومي في الشقة الصغيرة الأولى التي سكنتها، وبقيت في الغرفة إلى أن أنهيت كتابة الفصل الأول من الرواية. كنت أعمل من الصباح حتى المساء؛ كنت أستيقظ باكراً وأصفف شعري من منتصفه. هذا ما أردت أن أقوم به. لم أشعر بمرور الأيام، ولم يلفت انتباهي تواتر الفصول. ولجتُ إلى داخلي، وبعد انقضاء سنتين ونصف، خرجت إلى العالم بروايتي الأولى التي تتناول قصة طبيب شاب كان أبوه مهاجراً من اسكتلندا؛ كان أمياً وسكيراً لكنه مع ذلك، أراد أن يصبح شاعراً؛ وكانت أم هذا الطبيب الشاب قد توفيت أمام ناظريه

أثناء خضوعها لعملية جراحية بسيطة. كانت قصة تتناول كيف استطاع هذا الطبيب الشاب تربية أخته الأصغر بعد وفاة أبويهما. الرواية كانت بعنوان: «الطريقة التي نتصرف فيها هنا». قابلت ثيودور، وبدأنا نحلم سوية.

بيعت الرواية لدار دويتش للنشر مقابل مبلغ زهيد من المال، وقد أغدق عليّ كل من الناشر ورئيس التحرير الكثير من الوعود. بعد انقضاء عدة أشهر على نشرها، رشحت الرواية لنيل جائزة واشنطن، ما أعطاني جرعة هامة من الثقة بالنفس وبأنني أسير على الطريق الصحيحة التي لا محيد عنها بالرغم من أن الرواية لم يُبَعْ منها سوى آلاف قليلة من النسخ. كنت حينها أبلغ من العمر ستاً وعشرين سنة. كان ثيودور وقتها قد تقاضى أجراً كبيراً للمرة الأولى لقاء مشروع كُلِّفَ بتنفيذه. وأصبح لدينا حساب مالي في المصرف، أكثر من الغالبية العظمى من أصدقائنا. كنا ما نزال في العشرينات من أعمارنا وكنا ناجحيْن كفنانين شابين. عندما بلغت سن الثلاثين رزقنا بأول طفلة، وفي الثانية والثلاثين من عمري رزقنا بالثانية؛ كما أصبح رصيدي من الروايات ثلاثاً، وكانت الرابعة في طريقها إلى النشر. كان نجمنا مستمراً في الصعود؛ وفي الوقت نفسه، كان شيء ما، يدفع بي إلى الأمام بصمت وبقليل من القوة الحاذقة، بعيداً عن العزلة التي ارتبطت بطاولة الكتابة؛ كان يدفعني باتجاه الخارج، إلى حيث الملعب الحقيقي وما وراءه. كانت بقية الحديقة والعالم من خلفها يقعان خارج محيط تلك الطاولة. لكن طاولة الكتابة انتصرت في تلك الحرب المُجهِدة في نهاية المطاف.

كنت بحاجة إلى المال. كنا بحاجة إلى المال. أذكر جيداً ما نُسِب إلى صموئيل جونسون الذي قال «فقط الأحمق هو من يؤلف كتاباً لهدف غير

المال». لم تكن تزعجني فكرة تقلّبي بين ناشر وآخر. لم أكن أؤمن بهذا النوع من الولاء؛ وكنت بذلك أتتبع خطى الحياة المهنية لكثير من الكتّاب. إذا لم يكن لديك المال، فلن يكون بمقدورك أن تكتب. وبالتالي، فقد كنت أتحرك بسهولة ويسر. وكنت أحظى في كل مرة بدعم قوي من الناشر، ما كان يدعوني إلى اليقين بأن هذه الرواية هي التي ستحقق الضربة الكبرى. لكن اليقين و «وجود خطة للتسويق» لم يكونا يعنيان بالضرورة أنك أصبحت تسيطر على ذلك الوحش المتقلب المزاج، وأعني به جمهور القراء. كنت أؤمن إيماناً لا يتزعزع بنفسي وبموهبتي وبمقدرتي على تحقيق النجاح. كنت على ثقة بأنني سوف أكسب ما يكفي من المال يوماً ما، يساعدني في الاستمرار بتحقيق ما أحبه وأتمناه. كنت أؤمن بذلك تماماً كما يؤمن شخص ما، بقدرته على تحقيق أشياء أحياناً. المشكلة أنني لم أكن أعرف متى سيحدث ذلك. انتظرت مثل مسافر في مطار بانتظار رحلة متأخرة إلى وجهة خلابة مثل تاهيتي أو بورا بورا؛ كنت أنتظر أن تصبح بعض الأحوال أكثر سهولة، كنت أنتظر اللحظة التي تبدأ فيها حياتنا بشكل صحيح. كنا محاطين بفنانين يعانون من الوضع نفسه: كلهم تواقون، كلهم متفائلون وكلهم منتظرون؛ كنا جميعاً قد عزلنا أنفسنا عن زملائنا الذين كنا نعرفهم أيام الجامعة، والذين تبوءوا مواقع مهمة، وكانوا يعيشون حياتهم بطريقة مسؤولة في هذا العالم والزمن الحقيقين. في غضون ذلك، وبينما كنا ننتظر، تابعت بيع رواياتي، وكان ثيودور يتقاضى أجره عن المهمات الفنية التي كان يكلف بتنفيذها. كان بإمكاننا الاستمرار على هذا المنوال. كان ذلك بمقدورنا. لو استطعنا أن نحدَّ من نفقاتنا، لكان بمقدورنا الاستمرار.

بدلاً من ذلك، وضعنا ابنتينا في روضة خاصة؛ وعليه، لم يكن هناك بدٌّ من تسجيلهما لاحقاً في مدرسة خاصة تلامذتها بجملهم كانوا من الطبقة الغنية التي تستوطن الجانب الشرقي من المدينة، وما يتبع ذلك من مخيمات كشفية ذات نفقات باهظة، (ناهيك عن حفلات عيد الميلاد، ونفقات قوارب التجديف في حوض القوارب، وحفلات السيرك في الحديقة) وقضاء سهرات وليالٍ في البيوت الريفية. هناك نفقات لا عد لها ولا حصر يمكن أن تودي بالمرء إلى الإفلاس بألف طريقة وطريقة: فهناك هدايا حفلات أعياد الميلاد، وبطاقات دخول لحفلات أعياد الميلاد الباذخة، والهدايا المنزلية، ودروس الباليه، والدروس الخصوصية بشكل عام، والانتساب إلى النوادي المسرحية لنا وللبنتين، ونفقات تناول العشاء مع أمهات الأولاد، وكذلك مع الآباء الذين يريدون أن يتعرفوا عليك بشكل أفضل، وحفلات جمع التبرعات للأعمال الخيرية (أعانكم الله إذا كانت أسماؤكم ضمن قائمة المتبرعين)؛ هناك أيضاً التبرعات وحفلات العشاء، وأجور الأطباء الأخصائيين في أمراض الصدر والحساسية في العيادات الخاصة لابنتي التي تعاني من الربو، والعناية الخاصة للأولاد الذين لا تشملهم الرعاية الصحية، وأجور أطباء الأسنان والفواتير (من كهرباء وخدمات الكابل والهاتف) وثياب البنتين، وثيابهما الرسمية الخاصة بالمدرسة، وسيارات الأجرة عندما تكون الفتاتان متعبتين وغير قادرتين على الركوب في حافلة المدرسة، وأجور قص الشعر حتى بالنسبة لثيودور وللبنتين ولي أنا (أجدني أسأل نفسي: هل تحتاجين قص شعرك فعلاً؟)، وثمن بطاقات السينما وما يرافق ذلك من ابتياع الفشار والصودا – كل ما تقدم يضاف بشكل دائم إلى كمّ النفقات في عقلي الذي يتحول إلى آلة حاسبة تعمل ليل نهار، وتضاف إليها أرقام جديدة بسرعة

مذهلة ومخيفة. هناك أيضاً بعض اللمسات الصغيرة من الترف التي تزيد من نفقاتنا: صباغ الشعر أربع مرات في السنة، وترتيب الحاجبين في صالون «أيبرو مان» في حيّ بارني، والتدليك. من بإمكانه شراء حقيبة يد بقيمة ألف وثمانمائة دولار، أو زوج من الأحذية بقيمة ألف دولار؟

هناك أيضاً تلك الرحلة القصيرة إلى وسيط روحي مع أم أخرى – تلك كانت نزهة لا شأن لي بها - تقول تلك الأم بكثير من الحماسة: «سارة جيسيكا باركر تأتي إلى هنا». بعد ذلك دخلنا إلى أحد محلات التجميل حيث اشترت تلك الأم لنفسها مرطباناً صغير الحجم يحتوي على مرهم للوجه بسعر مائتين وخمسين دولاراً (كان حجمها لا يتجاوز حجم علبة النشادر الفضية الصغيرة التي تعود لجدتي)، وكان هذا المرهم يحتوي على مصل قديم يتكون من غبار المومياء، ومواد أخرى تافهة يزعم مروجوها أنها تعيدك إلى شبابك الأول. في الحقيقة، قالت بنوع من الإصرار وهي تسلم بطاقة اعتمادها للبائع: «يجب أن تشتري لنفسك هذا المرطبان.» تبين لي بوضوح أنها عاجزة عن استيعاب الواقع؛ فهي ببساطة لا تعرف من أنا، ولم تكن لديها أية فكرة عمن أكون، وهذا خطأ أتحمل مسؤوليته أنا وحدي. كان على القارورة الزجاجية البيضاء لاصق أخضر مكتوب عليه الحكمة التي تصف القوة الخارقة لمصل المومياء الذي يسترخي الآن في راحة يد البائعة التي تشبه لون القشدة، وهي تؤكد أنه بالرغم من أن المرطبان صغير الحجم، إلا أنك لا تحتاجين سوى مقدار ضئيل جداً من محتواه كي يفعل السحر فعله، وأن المرطبان يكفيك لمدة سنة، وأن مثل هذا الترف سوف يعيد إليك الشباب من جديد. عند هذه النقطة، لكم أن تتصوروا ماذا فعلت.

ربما يمكن التسامح مع مثل هذه الأمور إذا وقفتْ عند هذا الحد، أي إذا قام المرء باستدارة خاطئة، أو انحرف عن مسار الفن. ما أهمية الحقيقة عندما يكون المال هو الحقيقة الوحيدة القادرة على التعبير عما في داخلها، وعندما يكون مبلغ المال الذي يجنيه المرء هو المعيار الوحيد للنجاح؟ ربما باستطاعتي أن أشير بدقة إلى سقوطنا الذي بدأ مع مرحلة ما قبل المدرسة. لا يعود هذا إلى المدرسة أو إلى الأصدقاء، بل بسبب أنني لم أكن أجيد لعب دور الفقير؛ وفي هذا الجزء العُلْوي الجديد من العالم، حتى ضمن معايير ما يعتبر سنة جيدة بالنسبة إلينا، فإننا نحن من تنطبق عليه مقاييس الفقر. ربما بدأ قبل ذلك، أي أنه تزامن مع بيع روايتي الأولى التي رافقها الاعتقاد الواهي الموحي بأن النجاح الأول الهائل سوف تتلوه نجاحات مماثلة، وأنني بواسطة هذه النجاحات سوف يكون بإمكاني أن أثبت لأبي أنني أستطيع أن أحيا الحياة الكريمة التي تمناها لي، وأنه ليس على الفنان بالضرورة أن يكون دائماً فقيراً. أو ربما يمكنني العودة أكثر إلى الوراء، فلربما يعود سقوطنا إلى ذوق أمي المعصوم عن الخطأ، لأنها كانت دائماً تتمنى الأفضل لأولادها؛ لم يكن يهمها كثيراً ماركة الملابس التي نرتديها بقدر ما كان يهمها أن ما نرتديه من ملابس مصنّعاً بطريقة استثنائية، وأن نفيد إلى أقصى حد من الدروس التي نأخذها، وأن تُوسِّعَ المدارس التي نتلقى فيها العلم من مداركنا. صحيح أنها كانت امرأة بسيطة في كثير من الجوانب، لكن اهتمامها بالتفصيلات كان دقيقاً ومتطلّباً. وربما كان الأمر برمّته يعود إلى رغبتي الشخصية، والمحيط الذي يتوسع باستمرار من حولي والذي أجّجَه جو مدينة نيويورك.

نحن الآن هنا في المنزل بعد أن عدنا من زيارتنا إلى إنجلترا وإلى أخي

وزوجته وحياتهما الفارهة. لم تكن هذه السنة جيدة بالنسبة إلينا، وكنت أنا من ابتليت بالفقر حيث تراكمت الديون مثل بلاطة من الصخر فوق رأسي؛ كل ذلك تزامن مع صدور روايتي «جيل النار» التي لم تكن تحمل آمالاً واعدة، إذ لم تتمتع بتغطية إعلامية برّاقة، كما لم تنشر عنها بعد، أية مقالات نقدية. (كان ناشر الرواية يقول لي: «ما يزال الوقت مبكراً على ذلك»، بالرغم من أن الصمت الطويل والمطبق الذي اعتدْتُ عليه في مرحلة ما بعد النشر من جميع من لهم صلة بالحدث السعيد كان لا شك قادماً، وكانت اتصالاتي بكل من وكيل أعمالي ورئيس التحرير تُجابَهُ بتأخير في الرد تزداد وتيرته المرة تلو الأخرى — في نهاية المطاف، لمِ العجلة؟ أنا الوحيدة التي كنت على عجلة من أمري. لأنهم أدّوا ما علَيهم تأديته.) كانت المقالة التي أرسلتها لمجلة «المرأة» على وشك أن تُطلَقَ عليها رصاصة الرحمة. كما كان المشروع الذي يعمل عليه ثيودور أبعد ما يكون عن الانتهاء، وكان كلٌّ من راعي المشروع والمتحف قد هددا بسحب دعمهما للمشروع إذا لم يقدم لهما شيئاً مقنعاً في القريب العاجل. اقترب موعد تسديد الأقساط المدرسية للبنتين، ولم تكن لديَّ أدنى فكرة عن كيفية تسديدها. كما حان موعد استحقاق دفع فاتورة بطاقة الاعتماد، ولم تكن لدي أدنى فكرة عن كيفية تسديدها، أما حساب التوفير الذي كان كبيراً يوماً ما، فقد جفّ بالكامل تقريباً، وعليه، كان لا بد من أن نعطي إشعاراً لكل من عاملة التنظيف وجليسة الأطفال بإنهاء خدماتهما. هكذا بدأت المعارك بيني وبين ثيودور:

أنا: علينا كسب المزيد من المال.

ثيودور: عليك التوقف عن الإنفاق ببذخ.

أنا: هل هذا خطأي أنا؟ ماذا عن المشروع الذي تعمل عليه؟ متى سينتهي؟ لم أرَ في حياتي شخصاً يعمل ببطء أكثر منك.

ثيودور: بالله عليكِ يا حبيبتي. ثقي بالله.

أنا: ثقة؟ ثقة؟ ماذا عن الواقع؟ الأقساط المدرسية؟ ماذا لو بحثت لنفسك عن وظيفة حقيقية؟

ثيودور: دائماً ما يجد الحل طريقه إلى مشكلاتنا. لا تدعيني أخسرك فقط لأننا نمر بظروف صعبة حالياً. لا بد من وجود حل.

هذا ما كانت عليه حالنا الآن؛ فنحن نجهد كي نطفو في قاربنا المتهالك في وسط ذلك البحر الرائع من الثروة الظاهرة للعيان، والمحيط بنا من كافة الجهات بتلك الطريقة الاستعراضية التي تبدأ مع ساعات الصباح الأولى بعد أن يستيقظ الآباء في هذه المدينة ليصطحبوا أبناءهم الأحباء إلى مدارسهم وهم ينتعلون أحذيتهم من ماركة فيراغامو، ويقودون سياراتهم السوداء اللامعة ذات الدفع الرباعي، ممسكين بكأس الكوباتشينو الذي ابتاعوه بخمسة دولارات إضافة إلى قطع الكرواسانت بالزبدة التي سيكون مآل بقاياها في سلة القمامة. تلك كانت الحقيقة الوحيدة التي كان بإمكاني استيعابها. كنت في واقع الأمر أكره حقيقة أنني أنا الفقيرة بين هؤلاء. أستطيع القول ببساطة، إنني مللت الانتظار؛ فقد أردت أن أكون بين الكبار، والمسؤولين والأحياء. لذلك، يمكنكم القول: أجل، لقد تخليت عن الفن. هذا ما يحدث عادة عندما تشعرون أنكم أصبحتم أكثر نضوجاً. فالفن يجد لنفسه المكان الصحيح فقط باعتباره لعبة أطفال، وهو مهنة أصحاب النفوس المحطمة، والأكاديميين

التعساء والموظفين السذج والاستعراضيين الذين نوليهم ثقتنا، ويا للغرابة، لتعليم أطفالنا بنفس الطريقة التي كان الأرستقراطيون الأثرياء في العصور السابقة يوظفون فيها مربيات لديهم. الفن هو لعبة أطفال، لا أكثر ولا أقل.

كان صباحاً بارداً ومنعشاً من أيام شهر أيلول، سبتمبر. كانت السماء شديدة الزرقة وتبدو في غاية المهابة. كانت كما يطلق عليها في علم الطيران «صافية بشدة». كان الصيف قد أضحى وراءنا، وعاد الأولاد إلى مدارسهم من جديد. ركبت في قطار الأنفاق إلى حيّ تريبيكا لتناول الفطور مع ويل تشابمان، الفتى الكامل، الرجل النهضوي، صاحب بيت الاستثمار المعروف بـــ : بول سمارت وسميث [24] أو ما كان يطلق عليه اختصاراً ابسس [25] حسب مزاجه. كان هو صاحب الدعوة. في الوقت الذي خرجت من قطار الأنفاق، انتصبت أمامي أبنية وول ستريت من جهة الجنوب وقد استيقظتْ مع شروق الشمس. كان الرجال والنساء ببذلاتهم الرسمية يشقون طريقهم إلى أماكن أعمالهم؛ كانت بشرتهم تميل إلى الصفرة، وكانوا مسترخين وجاهزين للانطلاق من جديد إلى أعمالهم كي يواجهوا العالم – كانوا يمثلون جيشاً بكامله. كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف صباحاً. كان الوقت ما يزال مبكراً، وكانت سيارات الأجرة تجوب المكان إضافة إلى السيارات الخاصة. سِرْتُ باتجاه الجنوب.

كانت دعوة غريبة، فانا لم ألتقِ بويل لوحدي قبل ذلك أبداً، ولكن كانت هذه هي طريقته؛ فعندما رغب في رؤيتي، أراد لهذا اللقاء أن يكون آمناً تماماً:

Paul Smart & Smith - 24

25 - الاختصار هو Pss وينطق Piss بمعنى : البول وهي غمزة بينهكم

على شكل دعوة لتناول الفطور. لا شبهة أو سوء فهم يمكن أن ينجم عن لقاء لتناول الفطور. تصورت أنه أراد أن يخطط لإقامة حفل مفاجئ لإيما، أو يرتب لمغامرة رائعة لنا نحن الأربعة أو لبناتنا (خصوصاً وأننا غير قادرين على تحمل نفقات هكذا مغامرة). انتابني الفضول لمعرفة سبب هذه الدعوة. سرت ببطء في محاولة مني لقتل نصف الساعة التي تفصلني عن موعد الفطور الذي كان مقرراً في التاسعة. توقفت أمام كشك لبيع الصحف وبدأت أتصفحها كي أرى فيما إذا كانت أخبار ليلي ستار قد بدأت تغزو الصحف.

مرّت طائرة من فوق رؤوسنا. رنّ هاتفي الخلوي مشيراً إلى ورود رسالة. أظهرت شاشة الهاتف أن المتصل يتصل من رقم خاص من دون أن يكشف عن رقم هاتف المتصل أو اسمه. أخذت نسخة من مجلة «المرأة» وقلبت صفحاتها وصولاً إلى الصفحة التي تتناول الكتب الجديدة، في الوقت الذي كنت أضغط بأذني على الهاتف. أخبرتني ليلي ستار عن إحدى صديقاتها التي ابتاعت زوجاً من أحذية المزلاج عندما صدرت روايتها كي تتمكن من الانتقال بسرعة من دار بيع كتب إلى دار أخرى كي توقع على نسخ منها. الغريب أنها ظنت أن نسخة الرواية الموقع عليها لا يمكن لدار بيع الكتب أن تعيدها إلى الناشر. قلت في سري: «كم كانت هذه الفكرة مثيرة للاستخفاف»، كما لو أن زوج أحذية المزلاج هو ما سيحدث الفرق. كما فكرت في نفسي السخيفة وأنا أقف هنا على وشك أن أبدأ بالتدقيق في كل مجلة من المجلات المعروضة بحثاً عن كمّ المقالات التي تتحدث عن رواية ليلي ستار بحيث أستطيع أن أنبش في ما بدا وكأنه جرح الكاتب الأبدي. جاءني صوته عبر المليء بالثقة عبر الهاتف: «صباح الخير يا حبيبتي الروائية.

أنتِ على وشك أن تتناولي الفطور مع ويل وتستمعي إلى أخباره السخيفة.» تغيرت نبرة الصوت عند ذكر كلمة «فطور» بطريقة توحي أن المتكلم أيضاً كان يعتبر موعد الفطور وقتاً غير منطقي لمقابلة امرأة جميلة بغض النظر عن ظروف هذا اللقاء. تابع المتكلم قائلاً من دون أن يفصح عن اسمه: «أود أن أدعوك أنا أيضاً، لتناول الشمبانيا قريباً جداً، فما رأيكِ؟»

أجل، أرغب في تناول كأس من الشمبانيا مع وين. أعدتُ مجلة «المرأة» إلى مكانها في الكشك. أحببت ذلك الشخص؛ فقد كان مصمماً على تحقيق مبتغاه من دون أن يكترث بالأعراف. أحببت تصميمه المتسم بالجرأة، وحقيقةَ أنه بدا وكأنه مقتنع في قرارة نفسه أن ما يفكر به الآخرون لا يعنيه على الإطلاق. تجلت اللمسة الفنية لتلك الثقة التي أبداها في حقيقة أنه يساعد الآخرين على الاعتقاد بأن ما يفكر به الآخرون لا يمكن أن يقرر مسار حياة أي شخص. بدأ قلبي يخفق بتسارع أكبر. لم أكن بحاجة لمعرفة حقيقة ما أنجزته ليلي ستار. من ذا الذي يهتم بما قد تفعله النجاحات الصغيرة التي حققتْها؟ تلك النجاحات: إنها تظهر لثوانٍ معدودات ثم تختفي. لا أحد يعرف مثل هذه الحقيقة أكثر مني. كانت الرسالة التي تلقيتها على هاتفي الخلوي من وين نفسه، ووددت أن أعرف ما الذي كان يريده مني بالضبط.

بالرغم مما تقدم، وفي أحد شوارع نيويورك، وقفت أمام كشك آخر مركون بجانب جدار ملطخ بالبول وتفوح منه رائحته. وجدتُني أقلِّب في المجلات وفجأة وقعت عيني على الصفحة التي توقعت أن أجد ليلي ستار موجودة عليها. كان ضياؤها يتلألأ على صفحات المجلات الصقيلة المعروضة هناك معلناً عن أعظم صوت في عالم الرواية «صدر عن امرأة» منذ حقبة

كارسون ماكوللرز. «روعة المدرسة القديمة»، «لا تُقاوَم»، «أخّاذة»، «ألمعيّة»، «رائعة حديثة»، هل تريدونني أن أتابع؟ كانت ابتسامتها التي كلفت خمسة آلاف دولار من أجل الدعاية للرواية تضيء كل تلك الصفحات، وكانت آلة العلاقات العامة ترتقي بها مثل ذراعين تتدليان من السماء كي ترفعاها إلى مستوى لا طاقة لنا نحن البشر بمجاراتها. بعد أن أعدت آخر مجلة إلى مكانها، نظرت إلى السماء متوقعة أن أشاهد لوحة إعلان تظهر صورتها هناك بموازاة السحاب وهي تبتسم لي من عَلٍ. ربما كانت تقول لي: «يا إلهي، كم هو عظيم هذا الذي يجري، أليس عظيماً يا إنديا؟ أليس عظيماً؟»

لكن مثل هذا كان سيحدث لاحقاً. أما الآن فلم أكن آبه لذلك. فلدي موعد لاحتساء الشمبانيا مع وين. أنا، المرأة المتزوجة، والأم لابنتين، والتي لا نية لي مطلقاً في أن أخون زوجي، سأبتاع فستاناً جديداً من أجل احتساء الشمبانيا مع وين في محاولة مني لإشباع رغبتي التي لا تقاوَم، وهي نفس الرغبة التي قادته إلى التفكير أولاً بنفسه وبكل ما كان يريد الوصول إليه. كنت أتوق إلى أن أحيا حياة كاملة مترفة، كنت أرغب في أن لا ألقي بالاً إلى آراء الآخرين، وأن أقوم بما أرغب فيه بالضبط، وأن أبتعد كلياً وجزئياً عن هذا العالم البغيض المثقل بالقلق والديون. كنت أشعر بأن قدميَّ أكثر خفّة وأن وجنتيَّ متوردتان قليلاً. أعجبتني فكرة أن يكون كل من وين جونز وويل تشابمان قد قاما بالحديث عني. ثم تساءلت: ما هي آخر أخبار ويل، يا تُرى، ولماذا يريد أن يشاطرني أخباره؟

المطعم الذي كنت أتوجه إليه، هو المكان الذي يجتمع فيه أقطاب الصناعة والمال لتناول الفطور. هناك الكثير من باقات الورود المرتبة بعناية، والطاولات

المغطاة بالمفارش البيضاء والأواني الفضية، والفوّط القماشية، كما كانت هناك الزبدة المضغوطة على أشكال القواقع ونجوم البحر وقنافذ البحر المدوّرة الشكل وفرس البحر. كان هناك أيضاً نادلو المطعم الذين يرتدون السترات السوداء والقمصان البيضاء. وكان كل اثنين من رجال الأعمال يجلسان إلى طاولة يتحدثان بصوت خفيض وهما يميلان الواحد منهما باتجاه الآخر، ويجريان الصفقات الصباحية. كانوا جميعاً قد استيقظوا قبل طلوع الفجر وبدؤوا ممارسة رياضة الهرولة في الحديقة.

كان ويل جالساً بقامته الطويلة وكامل أناقته يقرأ في صحيفة. رفع بصره إلى الأعلى بينما كنت أقترب منه ثم وقف وطبع قبلتين على وجنتيَّ. ويل رجل وسيم ذو شعر أسود ومكتمل، وعينين خضراوين، وفك قوي. كان نحيف البنية ويحب رياضة الهرولة، ويمكن أن تلاحظوا من خلال بنيته الجسمية وصحته التي يتمتع بها أن ما يتناوله من طعام يعتبر مسألة مهمة بالنسبة إليه. يشكل هو زوجته إيما ثنائياً جذاباً؛ لكن هناك شيئاً آخر حول ويل تشابمان، كنت دائماً معجبة به كثيراً: وأعني بذلك قدرته على أن يكون حيياً بالرغم من أنه كان شخصاً يحب أن يعرف الكثير عن كل شيء، وعلى أن يحني رأسه ويشيح ببصره مثل امرأة يغازلها رجل خطير. فالمرأة تحب ذلك وترغب في ذلك، ولكنها بنفس الوقت، تدّعي بأنها لا تريد ذلك. أما بالنسبة إلى ويل، فقد يطلق عليه البعض وصف الخجول، وأما أنا، فقد كانت نظراته وسلوكه العام، عندما كانت عيناه تطرفان قليلاً، تعطيان الانطباع بأن فيهما الكثير من التعقيد وتوحيان بالحساسية. كنت أحب ذلك فيه، وتصورت أن لدي من القدرة أن أفقده توازنه، وقد أحببت ذلك أيضاً.

جلسنا إلى الطاولة بعد أن عدّل النادل كرسيينا بلطف، وشكرني ويل على قدومي. ثم، وبتلك النظرة التي رافقتها حركة فكه إلى اليسار ثم باتجاه صدره، كما لو أنه توقف كي يمعن التفكير في طريقة سوف يتلفظ فيها بشيء غير مريح (وهو ما أثار فيّ فضول لا محدود)؛ بعدها، وبطريقة تشبه من خرج من الماء ليأخذ نَفَساً عميقاً، رفع ويل رأسه وثبّت نظره في عينيّ مباشرة وقال: «لقد استقلْتُ من عملي، وسأترك وول ستريت.»

قلت من دون تفكير وبطريقة أدهشتُ فيها نفسي: «كلا، لن تترك وول ستريت». قلت هذه العبارة بطريقة توحي وكأنه زوجي، وكأن هذا خبر كنت أتوقع حدوثه بكثير من الخوف منذ مدة. وفي لحظة مرت عليّ بثقلها كالدهر، رأيت التالي: كانت على الطاولة حقيبة تشبه مغلفاً كبيراً بما يكفي كي يستوعب أوراقاً بحجم المخطوطة؛ وكانت أبعاد محتويات الحقيبة في الواقع كبيرة بما يكفي كي تحتوي على مخطوطة؛ فقد كانت أبعاد تلك المضغوطة أحد عشر إنشاً في الطول وثمانية إنشات ونصف في العرض، وما كان يثير الجزع أكثر هو أن حجم المضغوطة لم يكن قليلاً. كان في الواقع كبيراً جداً. لكن أكثر ما أثار جزعي هو اسمي المكتوب على اللاصق الخارجي. تنهدت وقلت في سري إنه سوف يطلب إلي قراءة هذا الشيء؛ وهذا هو سبب وجودي هنا. سيكون الأمر مريعاً. فقد استقال من عمله؛ وعليه، فسيتوجب على آل تشابمان أن يبيعوا شقتهم، ولن يكون بمقدورهم أبداً أن يُبقوا على ملكيتهم للكوخ الفيكتوري في ولاية مين (بكل البراغيث الموجودة فيه، وما إلى ذلك). كما أن على إيما أن تتكيف مع نمط مختلف من الحياة لم تعتد عليه من قبل مطلقاً. (يا إلهي، ويا لشماتتي؛ فقد يتعين عليها حتى البحث عن وظيفة.)

قلت مرة أخرى بتأكيد يوحي بأنني قرأت المستقبل ورأيت أن ذلك كان قراراً تعوزه الحصافة: «كلا، لن تترك وول ستريت.» أطربتني قليلاً فكرة أن جوابي الأول والأكثر صدقاً، كان محاولة لإنقاذه.

سألني وهو يبتسم مُظهِراً لي أنه استوعب سبب قلقي: «هل الأمر سيء إلى هذه الدرجة؟» عند هذه النقطة، استرد وجهه معالم الثقة العامة والمعهودة.

«هل تعني حياة العاطل عن العمل الذي لا يجني المال؟»

«أظن أنك تستطيعين وضع الأمر في هذا الإطار.»

«هل تعرف إيما شيئاً عن قرارك هذا؟»

قال: «بالطبع.» هي تعرف بالطبع؛ إذ لا يعقل أن يفتح الموضوع معي أولاً. علمت أيضاً أنها ستقوم بالدور بطريقتها الخاصة وبشكل أفضل بكثير من قدرتي على القيام به، كما علمت أن ويل يحب فيها هذا الثبات وهذا التصميم، وأن هذا ما كان يعجبني أنا وثيودور في شخصيتها: أي قدرتها على اعتصار الأفضل من كل حالٍ تواجهها. فهي مثلاً لم تكن تتذمر أبداً، بل كانت تحوّل التحدي الذي تواجهه إلى ما يشبه الرياضة أو التسلية. وجدتني أفكر من جديد بالمنزل الريفي في مقاطعة بوند بوينت. كان ويل يرتدي بذلة رمادية مخططة بخطوط طولانية خضراء. وكان يرتدي قميصاً أخضر شبيهاً بالخطوط الخضراء في بذلته بحيث يتماشى كل ذلك مع لون عينيه وربطة عنقه. كان مظهره مرتباً بشكل هادئ ومتكامل. قلت في سري، هذا رجل يسيطر عليه جنون مطبق. لا بد أنه فقد عقله؛ فهو يكسب ما يقرب من

مليون ونصف المليون من الدولارات سنوياً بالحد الأدنى. ولو قلّبتم الأمر من جميع جوانبه فلا يمكن له أن يجني ما يمكن أن يقترب من هذا المبلغ من خلال الكتابة. قال: «إنها تدعمني في قراري هذا.»

«هل قمتَ بذلك فعلاً؟ أعني هل أخبرتهم بقرارك في العمل؟»

«أجل. ولكن يا إنديا، أنا لم أطلب إليك المجيء إلى هنا من أجل سماع رأيك في هذا القرار.»

سألته: «إذاً، لماذا تخبرني به؟» مرّ في فكري هذا الخاطر: «يا له من خبر سخيف.» أحضر لي النادل فنجاناً من الكوباتشينو تعلوه الرغوة المرشوش عليها بعض مسحوق القرفة. كانت الرغوة تشبه غمامة منتفخة. لماذا طلب إلي أن ألتقي به في هذا المطعم، ولماذا لم يختر مكاناً أكثر ملائمة لجو الكُتّاب؟ لماذا لم نلتقِ في مطعم صغير مثلاً، كالمطعم الكوبي في الجوار الذي أعيش فيه؟ لماذا استدرجني إلى فم الوحش ليزفّ إليّ هذا الخبر؟ قلت له: «إنك رجل شجاع.»

«لطالما أردت القيام بذلك منذ أن كنت طفلاً. وإذا لم أقم به الآن، فمتى إذاً؟»

سألته: «هل أَطلعتَ أحداً على عملك كي تتأكد من أن بإمكانك بيع الكتاب؟»

قال: «أنا رجل واقعي.» أجاب بعدها بالنفي. هل كان أحمقاً؟ نظرت إلى المغلف. كان في نيته أن يطلب إليّ القيام بمسؤولية الحكم على عمله،

وكنت أنا من كان عليها أن تخبره بأنه ليس أهلاً ليصبح كاتباً، ولكنني بالطبع لن أبوح له بشيء من هذا أبداً. لن يكون من السهل عليه العودة إلى وظيفة مثل وظيفته بعد انقضاء وقت على تركها. سوف يحتاج في أفضل الأحوال بضع سنين كي يستوعب طبيعة الأمور ككاتب. كنت أعرف ما يكفي كي أتبين أن بضع سنين من العمل في وول ستريت تشبه الأبدية. نظرت مرة أخرى إلى المغلف، وخمنت أن عدد صفحات المخطوطة لا تقل عن خمسمائة صفحة. سوف تكون قراءته أشبه بالأعمال الشاقة. أحضر نادلٌ البيضَ الطازج؛ وكانت في وسط الطاولة سلة فضية ملأى بقطع الكرواسانت الهشة واللينة.

سألته مُظهِرَة حميمية لم تكن على هذا الوضوح من قبل بالرغم من أننا نكنّ لبعضنا بصمت، الكثير من المودة والإعجاب المتبادلين: «هل تمّ فصلك من العمل؟»

ضحك وقال: «هل يجعل هذا قراري أسهل بالنسبة إليك؟» اخترقتني نظرات عينيه الخضراوين. هذا هو ويل الذي كان يعرف ويستوعب كل شيء. لقد علم لتوّه أنه كان يمهّد لشيء يهمني، وأن قراره ذاك جعلني أشعر بعدم الارتياح، ربما يشبه عدم الارتياح الذي كان سينتابه لو أخبرته بأنني تركت عملي ككاتبة كي أصبح مصرفية. قضينا السنوات الست الماضية ونحن نختلق أساطير عن بعضنا بعضاً؛ لم نروِ أياً منها أبداً، ولم نُخرِجْ أياً منها إلى العلن، لكننا استثمرنا الكثير من أنفسنا في هذه الأساطير لدرجة أننا كنا نعيشها في عقولنا بشكل جليّ. كانت كل واحدة من هذه الأساطير من الوضوح بمكان، بحيث أنها تحولت إلى واقع بالنسبة إلينا. فقد كنت

أنا الروائية الناجحة الحائزة على جوائز وأوسمة، وكان هو المصرفي الألمعي الذي يكسب الكثير من المال، والقارئ الجيد، والمتزوج من امرأة رائعة، ويحيا حياة رائعة؛ كان مثالاً يحتذى عن الصديق من أيام الجامعة؛ الصديق الذي حصل على وظيفة مهمة، وبالتالي، فقد تبوّأ موقعه باعتباره جزءاً معتَبَراً من العالم.

قلت: «أنت لا تطلب رأيي، ولكن ينتابني الفضول كي أعرف كم أمضيتَ من الوقت وأنت تفكر بهذا الموضوع.»

«أذكّرك بأنني واقعي.»

«إذا أردت أن تنجح في مجال الكتابة، يجب أن تتحلى بقدر من الواقعية.»

قال وهو يسحب بطاقته الرابحة لكنه أخطأ بالاسم: «لدي موعد مع لوسيندا بالنكمان.» جميع من كان في محيط عملها، كان يناديها باسم سيغ[26] لأن توقيعها كان يعني كل شيء. كانت سيغ أشهر وكيل أعمال أدبي في مدينة نيويورك. كانت تعقد صفقات قد تصل الواحدة منها إلى مليون دولار لصالح الكتّاب المغمورين. ومضت في ذهني فكرة بسرعة البرق مثل شهاب اخترق عقلي: لقد حصد الجائزة الكبرى. هذا ما أكدته لنفسي بعد أن استقرّت عيناي على حجم مخطوطته.

قلت: «هذا رائع.» كانت هذه العبارة سطحية نوعاً ما، لأن موعداً للقاء

26 - سيغ أو Sig هي اختصار لكلمة Signature أي التوقيع (المترجم)

سيغ بالنكمان له مدلول أكبر بكثير من كلمة «رائع»؛ لقد كان يعني أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من حصد الجائزة الكبرى قبل أن تصبح بحوزته بعد، وأن لديه من الخبرة ما يكفي ليعرف ذلك. ليس غريباً على ويل أن يكون هاجسه الآني هو البحث عن الأفضل. عندما ابتاع تمثالاً مغولياً لم يكن هناك أي قوس تعليمي. كان خياره الأول يقع دائماً على التمثال الأكثر ندرة والأكثر قِدَماً، أي ذاك الذي يحتوي على أكثر الألوان تنوعاً، والذي يصف أكثر المشاهد تعقيداً، وكان يتم شراؤه دائماً مقابل أغنية بالرغم من أن أغنيته وأغنيتي كان لهما لحنان مختلفان تماماً. لم يقدم لي أية معلومات إضافية عن سيغ، أو كيف رتّب معها هذا الموعد، أو من سهّل حصول مثل هذا اللقاء. من جهتي، لم أطلب إليه تفسير أيٍّ من ذلك.

«استأجرت مكتباً ليس بعيداً من هنا. صحيح أنه مكتب صغير في مبنى قديم يستخدم مستودعاً للتبريد؛ وأنا أقوم منذ مدة مع أحد الأصدقاء على الإنترنيت بحملة من أجل تسويق الكتاب. أعترف بأنني أستبق الأمور، ولكنني أعرف شيئاً واحداً عن عالم الأعمال: عالم الأعمال يعني التسويق. لقد بعت خردة في الشوارع وأقنعت الناس أنني أبيعهم ذهباً.»

وبينما كان يسهب في الحديث عن مكتبه وخططه التسويقية من أجل الوصول إلى الملايين عبر الإنترنيت فقد كان كل ما باستطاعتي التفكير به هو طاولة الكتابة التي تواجه متراس الشرفة المبني من الآجر خارج نافذة غرفة الخادمة الصغيرة الواقعة فوق السطح والتي لا تتجاوز مساحتها حجم حمامنا الكبير. كانت خزائن الكتب فيها تزحف باتجاه سقف الغرفة، ولذلك فعندما كنت أجلس إلى طاولتي، كنت أشعر أن هذه الكتب تخنقني، وتذكرني

بكل الكتب الموجودة هناك. كان هناك العديد منها، كمّ الكتب هناك مثير للسخرية، إذ يصدر منها حوالي ألفين نسخة أسبوعياً. ثم تذكرت أن مكتبي لا بد وأن يختفي، فلم يعد بمقدورنا تغطية تكاليفه. قرر ويل تشابمان بسبب نزوة عصفت بمزاجه كما أرى، أن يصبح كاتباً، فاتخذ لنفسه مكتباً فاخراً يطل على نهر هدسون وكل تلك القوارب الشراعية الجميلة وتمثال الحرية؛ رمى من يده بضعة آلاف من الدولارات فاشترى لنفسه حاسوباً محمولاً وأنشأ مؤسسة تجارية، ويظن نفسه الآن بلزاك العصر.

سألته: «إلى أين ستذهب بعد أن نغادر هذا المكان؟»

قال: «إلى مكتبي الجديد.»

سألته: «بهذه البذلة؟» لم أستطع منعَ نفسي من الضحك. كانت ضحكة دافئة وحميمية، ولم يملك هو سوى أن يضحك بدوره شارحاً أنه ارتدى هذه البذلة خصيصاً لمقابلتي وأنه سوف يلتقي لاحقاً بالشخص الذي كان يساعده في تصميم موقع إلكتروني له على الشبكة العنكبوتية، وفي حملته التسويقية. تابع شرحه أكثر لمزايا هذا الشخص، وكان اسمه جاك. جاك هذا كان بارعاً في استراتيجيات الدعاية والإعلان، وقد كان هذا الشخص بحق، «موطن قوة» ويل (لفظَ هذه العبارة على شكل مقطعين لفظيين وليس كما تلفظ بالفرنسية). ويل، الإنسان الكامل، تعثر في لفظها بالطريقة الصحيحة ولذا فقد قمت بتصحيح اللفظ له.

«واضح أنكِ قضيتِ وقتاً طويلاً في قراءة الروايات الأوروبية. ولكن هذا ما أحبه فيكِ يا إنديا؛ فأنتِ تأكلين السلطة بعد الانتهاء من تناول الوجبة

الرئيسية. كل خطوة تخطينها تتميز بالأناقة والرقي؛ ولا تطمحين إلا إلى الأفضل.» أخذ رشفة من فنجان الكوباتشينو بتلذذ ظاهر، وتابع قائلاً: «على أية حال، يعتقد جاك أن بإمكاننا التقدم كثيراً إلى الأمام من الناحية الدعائية استناداً إلى حقيقة أنني تخليت عن وظيفة ذات مرتب عالٍ من أجل الفن. هذه حيلة سوف تلفت نظر الناس إليَّ، ومن ثم، إلى الكتاب على ما آمل. إنها قصة تصور الانتقال من الغنى الفاحش إلى الفقر المدقع، إذا كان يقنعك هذا الوصف، وأنا من جهتي أرى أن الفكرة ذكية جداً. سوف ننشئ صفحة للمعجبين على الإنترنيت. ما رأيك؟ لم أتصور المدى الذي يمكن أن يذهب إليه المرء في التفكير بهذه الأمور. يبدو أن الجهد المبذول من أجل التسويق يجب أن يكون أكبر من الجهد الذي يكرس للكتابة. هل هذا هو الأمر بالنسبة إليكِ؟ ما رأيكِ؟ أعني، الانتقال من عالم وول ستريت إلى عالم الفن؟»

قلت في صوت خفيض: «الفن». بدت البيضتان الطازجتان لي وكأنهما عينان يملؤهما الحزن. ثقبت محّ البيضتين. رأس المال الوحيد الذي كنت أنا وثيودور نملكه كان الوقت الذي استثمرناه في فننا. دفعنا دماً لنكون حيث نحن في سبيل فننا. وأين كنا؟ أجدني الآن جالسة قبالة الصديق ويل تشابمان، وريث اسم عائلة مشهورة من نيو إنجلاند وإرثها، وإذا كان هذا الإرث العائلي ليس كبيراً من الناحية المادية (لكنه استطاع أن يعوض عن ذلك من خلال الجهد الكبير الذي بذله) فإن الوظيفة التي كان يشغلها رائعة (لم أكن أعرف ماذا كانت طبيعة وظيفته بالضبط، لكنها كانت رائعة من زاوية المكافآت)؛ هذا الصديق أعلن أنه بدأ يشعر بالسأم من كل ذلك، وقرر

أن يتخلى عن كل ما بناه في هذا المجال. لقد سئم من حقيقة أنه يملك كل شيء وأراد التخلي عن كل ذلك مقابل الولوج إلى عالمي الذي يعتبره ترفاً لا حدود له. رأيت ما يكفي من الناس الذين ملئوا عالم ويل لكي أعرف متى يبدءون الإحساس بالملل، فهم يفتعلون القيام بمغامرات مكلفة جداً من الناحية المادية من أجل فضح بعضهم بعضاً.

كنت أعرف أن أشخاصاً على شاكلة ويل سوف يطلعون علينا بأفعال غير مسبوقة كي يتمايز الواحد منهم عن الآخر، وينقذهم من كونهم مجرد أشخاص أثرياء. فريتشارد برانسون على سبيل المثال، جاب العالم في منطاده. وهذه نسخة ويل من مثل تلك المغامرة الباهظة التكلفة. علاوة على ذلك، كان بإمكانه تحديد زاوية التسويق. «من الغنى الفاحش إلى «الفقر المدقع»». هذه العبارة الأخيرة كان يضعها دائماً بين مقبوسين؛ هاكم شخصاً لم يعانِ يوماً الفقر المدقع. (أنا شخصياً لم أكن أعرف الكثير عن هذا الموضوع، لكنني شعرت أنني بدأت أعرفه في هذه المدينة). والآن، يريد أن يتحدث عن «الفن»! وسيناقش معي في النقلة التالية موضوع «الخطوات العملية»، عارضاً أمامي أحلامه، وكيف اكتشف في منطقة اللا شعور لديه الموضوعات التي رأى أنها تستحق المتابعة، وكيف سبر أغوار الحقيقة، وسيتحدث عن الصراع الذي خاضه من أجل انتزاع الأفكار من عقله وتحويلها إلى كلمات، وسيتحدث كما لو أنه كان يقوم بهذا منذ عقود.

قلت أخيراً: «المسألة ليست سهلة.»

قال: «أعلم ذلك، وول ستريت كذلك ليس سهلاً.»

جلب النادل طاساً من الفاكهة ملأى بالبرتقال الذهبي اللون والكيوي وفاكهة جوز الجندم وفاكهة الآلام الاستوائية والعنب المتدلي فوق هذه الفاكهة المتنوعة التي وصلت طازجة من المنطقة الاستوائية صبيحة هذا اليوم. هل سيتوقف هؤلاء عن إحضار مزيد من الأطعمة؟ كانت أكوابنا تُملأ من جديد بشكل متكرر بعصير البرتقال الطازج والماء الفوّار من أستراليا. وكان يتم تقديم الماء لويل وكأنه زجاجة من الخمر الفاخر.

«أي أحمق يمكنه أن يكسب الكثير من المال يا إنديا. لا يهمني المال. لقد كسبت الكثير من المال؛ كسبت ما يكفي منه على أية حال. لن يكون علينا أن نفكر بهذا الموضوع لسنتين من الآن على الأقل. إما تدعمني إلى آخر الشوط. أما الأولاد فإنهم كالحرباء. إنهم يتكيفون بسرعة.»

انتقل تفكيري مباشرة إلى ابنتيّ، وتذكرت كمْ من المرات فكّرنا في سحبهما من مدرستهما الراقية. لم يخطر ببالنا قط أنهما ستكونان مثل الحرباء. لم يكن بإمكاننا سوى تخيل عيونهما التي تنشب فيهما أسئلة من مثل: «لماذا علينا تغيير مدرستنا؟» أو «ماذا عن أصدقائنا في المدرسة؟» هل كان هذا فرقاً آخر بين من يملك ومن لا يملك؟ ما دفعنا إلى الاستمرار في هذا النهج، كان الخوف من أن نخذل ابنتينا؛ كان هذا الخوف هو الدافع كي نبحث عن طرق أخرى لإبقاء هذا الحلم جزءاً من الحياة السعيدة التي عوّدناهما عليها، وأن نلتزم بإبقاء هذا الوعد الذي قطعناه لهما كخيار اخترناه لهما حياً.

«يا إنديا، أنت وثيودور تشكلان بالنسبة إلينا مثلاً أعلى. فأنتما لا تبدوان وكأنما بحاجة إلى الكثير.»

قلت: «عليّ أن أوقفك الآن.» تبين لي أنه مخدوع بالمظاهر التي يرانا فيها، فقد ابتلع الصنارة والخيط والثّقّالة. لم تكن لديه أدنى فكرة كم أغرقُ بسرعة.

قال: «أوقفيني إذاً؛ لكنك أنتِ مَثَلي الأعلى، وأنا معجب بك إلى أقصى حد.» نظرتُ حولي وتفرّست في وجوه أولئك الجالسين الذين يعقدون صفقاتهم الصباحية. كم من بين هؤلاء من كانوا يبيعون الوهم. كنت وهماً. كنت مثل شركة إينرون قبل إفلاسها، أما ويل تشابمان الألمعي، فقد كان أشبه بمستثمر تأخر كثيراً في اللحاق بالحفل، وكان يستجدي السماح له بالدخول كي يأخذ لنفسه حصة من ذلك السحر. يا له من أحمق، يا له من أمل أحمق. أمسك بالمغلف الكبير الذي يضم المخطوطة، وأعطاني إياه. قال بكل بساطة: «هل يمكن أن تقرأي هذا المخطوط؟»؛ لكن الإحراج كان بادياً في عينيه لدرجة أنني بدأت أتساءل فيما إذا كان هذا ما يريده حقيقة، أم أن هذا ما كان يحبه في ولاية مين: الإحراج الناجم عن البساطة.

قلت وأنا أستلم منه المغلف، وكان أثقل مما تصورت لدرجة أنه كاد يقع من يدي: «بالطبع، سوف أقرأه. هل انتهيت من هذه الرواية؟» كنت بالتأكيد آمل ذلك.

قال: «أظن أن هذا الجزء يمثل نصف الرواية فقط.

قلت مُحاوِلة إخفاء إحساسي بالصدمة: «نصف الرواية؟ يوحي ذلك بأنها ستتجاوز الخمسمائة صفحة.»

قال: «طويلة؟» كان من الواضح أن طريقة طرحه للسؤال تدل على أنه لم يكن عليه طرحه في المقام الأول.

قلت: «لا أعرف من أين أبدأ معك، ما هو آخر كتاب قرأتَه بحجم ألف صفحة؟» ألا يعرف أن الناس لم تعد تستهويهم القراءة كما سابقاً؟ وعندما يقرأ الناس، فإنهم يفضلون الكتب الصغيرة بحجمها والذكية بمضمونها؛ أي الكتب التي تحترم ذكاءهم. تخيلت سيغ بلانكمان، وعلى طاولتها رواية ويل التي تبلغ ألفاً من الصفحات، وكيف أن هذه الرواية ستجد لها طريقاً إلى سلة المهملات بسرعة.

«رواية «ذكرى الأيام الخوالي»».

«هل أنت من المعجبين ببروست؟»

اكتفى بالابتسام.

«وروايات مثل: «الفتى المناسب» و «الحمامة الحزينة» و «الحرب والسلام» و«قصة فورسايت» و«توم جونز».»

«لقد تم فصلك من عملك، أليس كذلك؟»

«إقرأي الفصل الأول فقط من الرواية، وإذا لم تعجبك، فلا بأس. إذا كرهتِ الرواية، ارميها في سلة القمامة وصارحيني بالحقيقة. لن أشعر بالإهانة. سأشعر بالإهانة فقط لو اخترتِ ألّا تقولي لي الحقيقة.» مسح شفتيه بفوطته ثم أعاد وضعها فوق حضنه. أخذ واحدة من البرتقالات الذهبية من السلة،

وقام باعتصار سائلها في كوب من الماء، ثم شربه. قلت في نفسي: انقضت سنتان. كم يمر الزمن بسرعة عندما تستثني مدة الإجازة، والوقت الذي تقضيه مع الأولاد، وعطل نهاية الأسبوع والعطل الرسمية ومراجعة العيادات الطبية؛ عندما تجمع هذه المُدد فإنها تصبح سنة، والسنة تمضي في ومضة عين. رأيت إيما واقفة أمامي، ووجهها متصدع من القلق، عندما بدأتْ تتذوق طعم الحاجة.

قلت: «بالطبع سوف أفعل.» قلت في سري: الفن! يا له من مساوٍ عظيم بين الناس. هيا، حاوِلْ.

بينما كنت أخطو خارج عتبة المطعم باتجاه الشارع، سمعت صوتاً مألوفاً ينادي: «إنديا بالمر». كان ذلك صوت داروين سميث وهو زوج سالي، ابنة عم ثيودور الطويلة والممتلئة القامة. كان رجلاً قصير القامة، متروٍّ في طرح أفكاره، ويضع نظارتين؛ وكانت متعته تتجسد في النصائح التي يسديها لمن حوله من أجل تحسين أحوالهم. لا يمكن أن تلتقي بزوج ابنة عمك مصادفة في مدينة تعداد سكانها ثمانية ملايين نسمة إلا في مدينة مثل نيويورك.

كنت أستمتع بالإصغاء إلى داروين عندما كان يتوجه إلى ثيودور وإليّ بالقول إن حياتنا ستكون أسعد لو قررنا نقل سكننا من المدينة إلى الريف. كان يرسم لنا تلك الصورة المغرية عن الريف بحيث يجعلني أتخيل فعلاً أننا نعيش في دار قديمة ساحرة في إحدى المزارع بولاية فيرمونت، حيث تذهب البنتان إلى إحدى المدارس الحكومية، كما تخيلت وجود مرآب يكون بمثابة

استديو خاص بثيودور، واستديو آخر فوق شرفته العلوية لي أنا. استهوتني الفكرة لأن داروين أراد على ما يبدو أن يلعب دور المخلّص أو المنقذ، كما لو أن إنقاذه لشخص واحد يجعله يشعر بأنه أعطى لحياته هو معنى وقيمة. كان داروين يتحدث ببطء، ويسير ببطء. كانت إحدى ساقيه عرجاء لأنه أصيب في طفولته بشلل نصفي. كان في حقيقة الأمر مجبراً على جر ساقه عند سيره، لكنه استطاع بعد خبرة وتعايش طويلين مع مُصابه أن يجعل هذا الجهد غير بادٍ للعيان بنسبة كبيرة، بحيث يبدو أن ما يعاني منه ليس سوى عَرَج خفيف.

قلت بينما كنت أقبله وأحتضنه وأكاد أبتلعه لأنه كان ضئيل الحجم: «أهلاً بداروين، صاحب الصفقات؛ كيف حالك؟» قبل أن يصل إلى سن البلوغ أطلق عليه معارفه وبعض أصدقائه لقب «صاحب الصفقات» (لأنه كان يبيع شطائر إيطالية بأسعار باهظة في سكنه الجامعي، وأيضاً بسبب مغامرات مهنية أخرى).

قال وهو ينظر في ساعته: «يبدو أنك تبدئين يومك باكراً.»

قلت: «كنت أتناول طعام الفطور مع أحد الأصدقاء.»

«لم أكن أعلم أن الكُتّاب يتناولون وجبة الفطور.»

«أما أنا، فبلى؛ كيف حال سالي؟»

«إنها بخير.» سالي تعمل محامية وكانت تدافع عن الأثرياء المتهمين في ارتكاب جنايات ومتورطين في فضائح شنيعة تتعلق عادة باختلاس مبالغ

ضخمة من المال؛ كما تترافع بين الحين والآخر عن مومسات من بلدان أجنبية يمارسن الرذيلة مقابل مبالغ خيالية من أموال الشركات.

«هل هناك قضايا دسمة هذه الأيام؟»

«لا شيء يستحق الذكر. ماذا عن روايتك؟ هل صدرت؟»

«تاريخ صدورها هو السادس عشر من شهر تشرين الأول، أكتوبر.»

«هل صدرت أية مقالات نقدية عنها؟»

«من المبكر الحديث عن هذا الأمر.» كنت أكذب. فقد كان من المفروض أن تكون مقالات ما قبل صدور الرواية قد نشرت الآن.

«أتطلع إلى قراءتها بعد صدورها. كنت أنوي الاتصال بك. أردت أن أقترض منك ألف دولار.»

«هل تمزح معي؟»

«أبداً.» كان عليه أن يرفع بصره كي ينظر في وجهي نظراً لأنني كنت أطول منه بكثير. «تبدين جميلة للغاية، لا بد أنك جدّدتِ شيئاً في شخصكِ.»

«فقط الشعر، فكلما تقدمت في العمر، أصبح يميل أكثر إلى اللون الفاتح. لماذا تريد أن تقترض ألف دولار؟»

قال: «أريد أن أساعدك.» كانت عيناه البنيتان المرقطتان بلون ذهبي قد بدتا قريبتين جداً من بعضهما بعضاً، وجاحظتين، وأكبر مما هما عليه في الواقع

بسبب النظارتين. كان شعره المائل إلى الحمرة مردوداً إلى الوراء بشكل متموج بسبب الجلّ الذي وضعه عليه بحيث بدا وكأنه ملتصق بجلدة رأسه. كان يرتدي بذلة خفيفة لكنها كانت فضفاضة قليلاً عليه. تابع قائلاً: «أسعار البن على وشك أن تنفجر، ولدينا الآن فرصة للاستفادة من هذا الارتفاع الهائل في الأسعار، لذلك أريدك أنت وثيودور أن تستغلا هذه الفرصة. سوف تكون هزة كبيرة في أسواق القهوة في المستقبل، وعلينا أن نكون أول من يحاول الإفادة من هذه الفرصة. إن السوق على وشك أن تنفجر؛ وأنا متأكد أنني لم أرَ شيئاً مماثلاً منذ بداية الثمانينات.

«تريدني أن أتاجر بالبن؟»

استأنف حديثه مسهباً في شرحه مستسهلاً هذا الأمر. تحدث عن الطلب على البن ومستقبله والخيارات المختلفة وحق التاجر في شراء كمية من البن زنة سبعة وثلاثين ألفاً وخمسمائة أونصة من دون الحاجة إلى تقديم دفعة على الحساب مقدماً، كما شبّهنا براكبي الأمواج الذين يركبون الموجة ويستمرون في ركوبها إلى النهاية الناجحة. قال: «اشتري خياراً مستقبلياً. سوف تشترينه بسعر أقل مما سوف يكون عليه سعره في المستقبل. الأمر بسيط جداً. سوف تحلّقُ الأسعار قريباً. أريدكِ أن تعودي لتركبي الموجة. البنُّ الآن على حاله؛ لكن أسعاره سوف تنفجر.» هنا، أشار بيده إلى سماء شهر أيلول، سبتمبر، وإلى البدر الشاحب المكتمل في قبة السماء وقال: «إننا متجهون إلى هناك. ستحلق أسعار البن بمقدار مائتي ألف وخمسمائة ميل باتجاه الأعلى. بعد ستة أسابيع، ستصبح الألف دولار مابين ربع مليون ونصف مليون دولار. لقد أجريت كل الحسابات المطلوبة. لا تحتاج المسألة إلى تفكير كثير.»

تحدث بكثير من الحماس المعروف عنه والناجم عن رغبته في أن يلعب دور المخلّص أو المنقذ، وكان شعوري حينها شبيه بالشعور الذي انتابني عندما طرح فكرة الانتقال للعيش في مزرعةٍ بولاية فيرمونت. كان بإمكاني رؤيتها بنفس الوضوح الذي كنت أرى فيه القمر. لكنني لم أستوعب الفوارق الدقيقة التي عرضها، والتي أسهب في شرحها، وسهولة أو صعوبة أن تصبح الألف دولار نصف مليون دولار. مع ذلك صدّقته، وأصبحت أكثر ميلاً إلى فكرته. جعلته هذه الحماسة للفكرة أكبر حجماً مما هو عليه في الواقع. لقد جنى الكثير من المال في الماضي باستثماره في سوق السلع كما أخبرتني سالي، عادة عندما كان الآخرون يخسرون أموالهم. كان يعجبه أن يقول إن «هناك شخصاً أو اثنين يجنيان المال في الوقت الذي تكون السوق تعاني من الكساد.» وعندما أكون أركز على نشاطي الفني، كان يشعرني أنا وثيودور بالضجر من أحاديثه عن الذّرة والصويا والسكر وبطون الخنازير. كان متزوجاً من امرأة ذكية وأنيقة. كانت سالي دائماً فخورة به وبإنجازاته مُشيدةً بألمعيته. كنت أميل إلى الاعتقاد بشكل لا يرقى إليه الشك أحياناً بوجود حلول تهبط من السماء الزرقاء الصافية تقلب مصير المرء رأساً على عقب. وها أنا أمام داروين «الصفقات» المنافي للمنطق في الوقت المناسب. كان القمر غاية في الروعة في قبة السماء وكان يمنحني إحساساً بنوع من الأمان السماوي؛ إذ لا يوجد دائنون هناك، كما أنني لم أشعر في تلك اللحظة بثقل مخطوطة ويل التي أحملها في يدي. كانت مدّخراتنا في حساب السوق المالي الطليعي الذي كنا نلجأ إليه عندما نضطر لدفع مبالغ كبيرة لتغطية نفقاتنا الباهظة تبلغ ألفاً وتسعمائة وسبعة وعشرين دولاراً وثمانية وخمسين سنتاً بالضبط. لم تكن لثيودور أدنى فكرة، ولم يكن يعلم أن الفواتير المستحقة قد أصبحت خارج نطاق قدرتنا على سدادها، وأنني كنت أستدين من زيْد كي أسدّدَ

لعمرو. لم يكن يعرف أن أقساط المدرسة قد استحق سدادها منذ مدة، وأننا لم نسدد فاتورة بطاقة أمريكان إكسبريس لهذا الشهر، وأن عرض الصفر بالمائة على بطاقة الاعتماد لدينا والتي جمّدت ديوننا قد انتهت صلاحيتها، وأن علينا تسديد حساب البطاقة (أو تدويرها من جديد)، وأنني لم أدفع كامل الضرائب الفدرالية المستحقة علينا عن كامل السنة، أو الضرائب المستحقة لولاية نيويورك. لم أطلعه على حقيقة أنني استعملت مبلغاً أقل بقليل من ثلاثمائة دولار من راتبي الذي أتقاضاه من الجامعة (وهو الكتلة النقدية التي كنا نسحب منها كي نغطي نفقاتنا اليومية) كي أشتري بطاقات لحضور العرض الجديد لأوبرا «السيدة الفراشة» التي اعتبرت على نطاق واسع الأكثر إثارة في الأوساط النقدية ليس في هذا الموسم أو العقد، بل في تاريخ الأوبرا – بالرغم من أن ثيودور طلب إلي أن لا أفعل. كنت أحب الأوبرا. وكان بإمكاني دائماً إيجاد المبررات لشراء بطاقات للمسرح؛ مبررات مثل «بطاقات تتمتع بتخفيض ضريبي» أو تلك المصنفة تحت بند «المعاينة المهنية». زد على ذلك أنني فكرت أنه لو قلّصتُ مدة عمل عاملة التنظيف لدينا بمعدل مرتين أسبوعياً، فإن ذلك سيغطي عملياً قيمة البطاقات تقريباً. لم أخبر ثيودور بأي مما تقدم؛ ذلك أنني لم أشأ أن أزعجه بخلق مشاحنات إضافية. لم أرد له أن يفقد تركيزه على عمله؛ فكلما أسرع في إنجاز المشروع الذي كلف بتنفيذه، كان ذلك سيحسن كثيراً من أوضاعنا. أما الآن، فقد بزغ فجر أمل جديد، وكان يطبق عليّ من كل الجوانب ويستحوذ على تفكيري ببطء إلى أن سيطر عليه بالكامل. كان هذا الأمل بطعم البنّ ورائحة حباته؛ تلك الرائحة النفّاذة الرائعة المذاق المنبعثة من حبات لزجة تشبه في شكلها الخنفساء، ناهيك عن الكمية، وأعني بذلك تلك الكمية الهائلة من حبات البن. هل قال سبع وثلاثين ألفاً وخمسمائة أونصة؟ أجل سأضع يدي عليها. سأبتاعها

مقابل هذا المبلغ الزهيد وسأضع يدي عليها. وعندما تصبح هذه الكمية ملكاً لي، سيرغب الآخرون في ابتياعها مني؛ سيرغب الآخرون فيها بشدة لدرجة أنهم سيكونون مستعدين لدفع مبلغ أكبر بكثير مما دفعته أنا. بدأت أفكر في العدد الكبير من الناس الذين يحبون ارتشاف القهوة، أو يحتاجون لتناولها. وبالرغم من أنني لم أفهم شيئاً، فقد بدت الفكرة لي منطقية جداً.

بهذه الطريقة، سوف أجني الكثير من الربح، ولن يكون عليّ أن أعمل تحت الضغط، وسأكتشف بالتالي طريق العودة الصحيحة لاستئناف كتابة الرواية من جديد. أردت بشدة أن أعود إلى الكتابة؛ وهذا ما فهمت أنني بحاجة إليه الآن. أردت أن أكتشف طريق عودتي إلى الكتابة بأي ثمن. فقد كنت كاتبة. ورغبت في أن أتابع الكتابة. «الحالمون لا ينفكوا يحلمون والكُتّاب لا يتوقفون عن الكتابة»، هذا ما قاله لي مرة أستاذي القديم والعزيز روجر سالتر. أردت تطبيق هذا القول فعلاً، وناضلت من أجل تحقيقه، وسوف أحققه. تبين لي حينها كم كنت أغار من ويل؛ كنت أغار منه غيرة شديدة لأنه تخلى عن كل شيء بهذه السهولة.

البن! يبدو هذا منطقياً. في الحقيقة كانت الأقدار إلى جانبي؛ فقد اختار ويل المطعم بحيث أتواجد هنا في هذا المكان وفي هذا الوقت بالضبط كي ألتقي بداروين «الصفقات». شبكت ذراعي بذراعه وسرنا معاً لفترة وجيزة وأنا في منتهى السعادة. عندما وصلت إلى البيت لاحقاً، أرسلت له شيكاً بالمبلغ، وبقي في حسابنا تسعمائة وسبعة وعشرون دولاراً وثمانية وخمسون سنتاً، وهذا المبلغ لم يكن سوى قشة تطفو فوق حطام ما تملكه عائلتنا.

الفصل الثامن

السادس عشر من شهر تشرين الأول، أكتوبر، هو اليوم الذي اختير من قبل دهاقنة التسويق في شركة «ليدر بوكس»[27] للنشر. إنه اليوم الذي ستصدر فيه روايتي. كانت على غلاف الرواية المقترح صورةً لشقيقتين تتبادلان القبل. أبلغني مسئولو التسويق أن تلك الصورة ستكون جاذبة. أضيفت فيما بعد صورة لرجل على تصميم الغلاف. الرجل جالس في كرسي ويقيّم فعل الشقيقتين. قيل لي إن الصورة «مغرية لأن المبيعات تتمحور بشكل رئيسي حول شكل الغلاف». على صفحة الغلاف الأخيرة، هناك تقاريظ من خمسٍ من الروائيات اللواتي تعتبر رواياتهن الأكثر مبيعاً في مجال الرواية النسائية تكيل المديح للرواية – كانت تلك التقاريظ ذات هدف تجاري بحت، ولا يتم التركيز فيها بشكل كبير على البعد الأدبي للرواية لكن كان من المأمول أن تحقق شيئاً من هذا الهدف. أما صفحات الرواية فستكون مقصوصة على طرفيها الأماميين بشكل حاد.

الجو بارد بشكل غير مألوف لهذه الفترة من السنة. ألْتحفُ وشاحاً صوفياً وأرتدي ثوباً قطنياً مضلّعاً. أمضي الفترة الصباحية من ذلك اليوم بالتدريس في الجامعة. في الحصة الأولى، تصل إحدى الطالبات متأخرة عن موعد المحاضرة؛ وكان موعد تسليم قصتها قد حلّ. كانت بنتاً حلوة المظهر بشعرها الأسود الطويل المجعد وملامحها الحادة. من المؤكد أنها كانت تبكي؛ فعيناها البنيتان الداكنتان كانتا مغرورقتين بالدموع. يحدق بقية زملائها في الصف

Leaders Books Inc - 27

بها. لم أوقف ما نقوم به، لكنها هي من تفعل. تقول بهدوء لم يوقف بقية زملائها عن التحديق بها: «لا أستطيع قراءة قصتي أمام الصف هذا اليوم.»

هذا الامتياز الذي يتمتع به هؤلاء الطلبة يذكرني دائماً بالسن الذي وصلت إليه. فما يعتبرونه بحكم تحصيل الحاصل، لم يكن أبداً في متناول يد الجيل الذي أنتمي إليه – عرض المشكلات الشخصية على الملأ، والمطالبة بدرجات أعلى مما يستحقون، والهواتف الخلوية التي ترن أثناء المحاضرة، وإرسال الرسائل النصية. قلت: «لكن عليك أن تقرأي قصتك هذا اليوم.» قالت وهي ترخي بشفتيها: «أرجوكِ.» سألتها: «لماذا؟» أجابت: «لأنها تشعرني بالحرج.» أحطتها بنظراتي. كانت قد أسرّت لي عن «مشكلات نفسية» تعاني منها. كان طلبتي أثناء الفصل الدراسي ينظرون إليّ بعين الارتياب بينما كنت أحاول إيجاد طرق جديدة لمناقشة بعض القوانين الصارمة التي على الكاتب أن يتقيد بها مثل مقولة أن الفن ليس عملية اعتباطية، وأن الصراع والفوضى ليسا مترادفين أو متشابهين على سبيل المثال. لكن الطلبة كانوا غالباً ما يحدقون بي بعيون فارغة، كما لو أنهم أرادوا أن يقولوا لي: «من تظنين نفسكِ؟ فأنتِ لستِ جون غريشام».

أظن أن اليوم هو موعد صدور روايتي. أريد أن يعرف طلبتي هذا الموعد، وأن يعرفوا كذلك أن كاتبة حقيقية هي من تقوم بتدريسهم. غمرتني موجة عارمة من السعادة والنشوة لأنني فعلتها من جديد. لقد أطلقت رواية أخرى إلى العالم؛ وهي رواية لامعة المظهر وناعمة الملمس والأهم أنها لي. كان مجرد إلقاء نظرة عليها، وحملها بين يدي يقدح شرارة السعادة في داخلي. هنيئاً لي ما أنجزت. هذا المساء سوف يحضّر ثيودور لي طعام العشاء في الاستديو

الخاص به في منطقة ويليامزبيرغ للاحتفال بالمناسبة؛ أما الحفل الذي كان سيقام بمناسبة صدور الرواية برعاية آل تشابمان، والذي تقرر أن يتحول إلى احتفالية يقدم فيها الخمر والجبن بعد الانتهاء من قراءة مقاطع منها في مقهى تريبيكا فقد تأجل إلى موعد لاحق. لم أكن قد اطّلعت بعدُ على المشروع الذي يعمل ثيودور عليه أو التقدم الذي أحرزه فيه. قال لي وهو يقبلني على شفتيّ ويحتضنني بقوة بين ذراعيه: «سنتناول طعام العشاء على السطح بغض النظر عن درجة حرارة الطقس. مبروك يا فتاتي.» كانت الطريقة التي يتلفظ فيها كلمة «فتاة» تشعرني دائماً بأنني في سن السادسة عشرة.

كانت عينا الطالبة المضطربتان والموجهتان صوبي مثل أشعة الليزر بانتظار جوابي. قلت لها وأنا أتابع المحاضرة: «سنتحدث بعد انتهاء الدرس.» يقرأ طالب آخر القصة التي ألفها. القصة تتمحور حول طبيب أسنان يكتشف فجأة أن المريضة التي تستلقي على كرسي المعالجة هي صاحبته السابقة التي تخلت عنه عندما كانا في المرحلة الثانوية. المريضة لا تدري شيئاً عن هويته، ولا تستطيع تميز شخصية ذلك الطبيب الذي يخفي وجهه بكمامة طبية. ينتقم منها باستعمال المثقاب لتشويه وجهها. أنا نصف مصغية لهذه القصة؛ وأتخيل نفسي مثل طبيبة نفسية تجلس قبالة مرضاها وهم يقصون عليها حكايات لا تنتهي عن الإساءات التي عانوا منها. ليس عليّ أن أستمع؛ فانا أعرف تماماً التعليقات التي يجب أن أتلفظ بها مثل: «عنف غير مسوّغ وما يتضمنه مثل هذا العنف»، أو «العنف الإباحي»، أو «غير مثير للاهتمام»، أو «تنقصها العقدة»؛ من يهتم لذلك؟ واجبكِ هو أن تدفعي بنا إلى الاهتمام.

يذهب بي تفكيري إلى بواب عمارتنا. توفي الأسبوع الماضي فجأة بعض تعرّضِه لأزمة قلبية وهو في سن التاسعة والأربعين. كان يهوى رسم الصور

الكاريكاتورية، وهي رسوم تستحق أن تُنشرَ في مجلة «ليتراري ريفيو»، وكنت دائماً أفكر كم كان رائعاً لو نشرت المجلة إحدى رسوماته الكاريكاتورية: بوّابٌ يتحول إلى رسام كاريكاتير شهير. أردت أن أكون مخلّصته.

اليوم هو موعد صدور روايتي! ضوء النهار في هذا الصباح الخريفي يلج بخط منحنٍ إلى غرفة الصف بينما يفعل مثقاب الحفر فعلته في وجه المريضة. ترد إلى ذهني خاطرة: سوف أرسل إلى عائلة البواب مبلغ ألف دولار إذا كانت مبيعات روايتي جيدة. كما تراودني فكرة أن أطلب إلى عائلته تسليمي رسوماته الكاريكاتورية، وبدوري سأسلمها إلى مجلة «ليتراري ريفيو». أفكر في أن أجد له وكيل أعمال. أفكر في كل الأشياء الجميلة التي يمكن أن أفعلها بواسطة المال الذي سوف أكسبه. سوف أعرض على أبريل، جليسة الأطفال، وظيفة دائمة مدى الحياة. مثل هذا التفكير كان أفضل ما أقوم به في أوقات الفراغ. يا إلهي، سوف أكون في غاية الكرم في وضع هذه المشروعات موضع التطبيق. عاملة التنظيف أيضاً. سوف أنقذها هي الأخرى: سوف أعرض عليها كذلك وظيفة مدى الحياة؛ فقد كانت ملازمة لنا قبل أن تولد البنتان. أنا إنسانة وفية، وأشعر بالبهجة تغمرني. أحب أن أكون وفية؛ فالوفاء خصلة حميدة. هذا هو قدَري. على العالم بالمقابل، أن يكون كريماً معي.

اليوم هو موعد صدور روايتي! يشق المثقاب الوجه بدءاً من المنخرين وصولاً إلى الشفتين، ثم ينحرف مساره مروراً بالوجنتين باتجاه العظم. «كانت بنية عظامها جميلة، وبالتالي فقد استمتع بتشويهه. أحب السهولة التي صادفها في عملية تدميره لجمالها. تناثر الدم في كل الاتجاهات، وبدأ بالتخثر حالما لامس الهواء.» الطالب يقرأ قصته بحيوية ظاهرة، وبإحساس جليٍّ بذاته

وبقوة العمل الذي يقدمه في الصف. هو فتى قوي البنية مثل لاعبي كرة القدم وعيناه منتفختان مثل الكرة التي تصدر أزيزاً من شدة الرمية التي ترمى بها. كانت المرأة مُخدَّرةً موضعياً لكنها كانت واعية لما يحدث لها من دون أن يكون لها حوْلٌ أو طوْلٌ فيما يجري. كان خيار صفقة البن معقولٌ جداً. كان داروين «الصفقات» يتصل بي بشكل يومي تقريباً، وكان يقول: «الأسعار في ارتفاع مستمر، هناك وباء في البرازيل، وبالتالي فإننا نكاد نصل إلى نقطة الذروة، لكننا سوف نستمر في ركوب هذه الموجة إلى أن ... يا إنديا بالمر سوف تكونين في غاية السعادة لأنك تعرفت إلي». «يستمر الدم في التدفق رطباً من ذلك الوجه الذي كان قبل فترة وجيزة جميلاً مثل وجه طفل صغير، كما يتدفق من نبع. كانت تخبط بكلتا يديها كما لو أنها أرادت أن توقف هذا الرعب. الرعب!» لو فشلت الرواية، فإن صفقة البن سوف تعوض هذا الفشل. النهار جميل في الخارج بالرغم من كونه بارداً قليلاً؛ وتعبر السحب السماء. في هذه الأجواء، كنت ألقي الدرس على الطلبة.

لم أكن متأكدة وأنا أستمع إلى الفتى الغريب الأطوار ذي العينين الجاحظتين يتلو قصته، أن هذه القصة تحتوي على أية قيمة. كان الطلبة يعتبرونني سيدة عجوزاً؛ مظهرهم ينمُّ عن فوضوية كاملة. أحدهم ثمل جداً وعيناه شديدتا الحمرة. يرتدون ثياباً تشبه ملابس النوم. يبدأ أحد الطلبة التعليق على القصة بالقول: «العنف في القصة تم رسمه بطريقة مُقنِعة.» يتابع قائلاً كي يثبت هذا الرأي: «لقد أشعرتني بالفزع.» هذا الطالب اسمه بوب. أوضح في أول يوم من أيام الدراسة عندما عرّف بنفسه أمام زملائه في الصف أن «بوب» هو اسمه الجديد: «اسمي بوب. قبل اليوم كان اسمي مالكوم

بينيت جونستون الثامن، لكنني أعرف أن هناك العديد الذين يحملون نفس هذا الاسم. لقد انتقيت هذا المقرر الدراسي ليس لأنني قررت أن أكون كاتب روايات أو قصص – إذ لا مستقبل لمثل هؤلاء – بل لأتعلم كيف أصمم حبكة جيدة بحيث يمكنني أن أصمم ألعاب فيديو لأن هذه المهنة تدر الكثير من المال.» نظر في عينيّ مباشرة كما لو كان يريد أن يتحدّاني. أخيراً، توجهت إليه بالسؤال: «منذ متى قررتَ أن يعرفك الناس باسم «بوب»، يا بوب؟» نظر في ساعته ثم قال: «منذ ثلاث دقائق.» ثم أضاف: «أحب هذا الإحساس بالفزع.» ترتفع الأيدي ملوّحة بالكثير من الحماسة، لدرجة أثارت معها بعض النسمات، ويتلو ذلك نقاش ينخرط فيه كل الطلبة عن إيجابيات تلك القصة وسلبياتها مركزين على وجهة نظر الكاتب والصراع وتصوير الشخصيات، وهل النوع من الرعب الذي يَسِم القصة يشبه الرعب في روايات كونراد؟ يأخذ الطلبة القصة على محمل الجد وهم يناقشون نقاط القوة والضعف فيها. أما الفتاة التي تعاني من مشكلات نفسية، فإنها تغوص في مقعدها.

بعد انتهاء الحصة الدراسية، أجلس أنا والفتاة ونحن نلتحف معطفينا على أحد المقاعد في الخارج تحت الشمس. تشرح لي أن قصتها تتمحور حول صديقها الذي يسيء إليها جداً. تعتذر مني قائلة إنها لم تجد مفراً من كتابة هذه القصة. تقول لي: «لا بد لهذه القصة أن تخرج إلى العلن، لكنني لم أتحمل فكرة قراءتها أمام الطلبة في الصف.»

القصة قصيرة جداً، وأنا أقوم باختصارها أكثر فأكثر. اليوم هو موعد صدور روايتي. هنيئاً لي ما أنجزت. قصة هذه الطالبة ليست واضحة وفصولها تتوالى

مرفقة بصور موحية. من الواضح أن الاثنين يمارسان الجنس ولكن بطريقة منحرفة. القصة ليست جيدة المستوى. فالمرأة تبدو عدوانية بعد العملية، وغير متأكدة من الطريقة التي يجب أن تتحدث فيها إلى الرجل. أنا لا أفهم أين تكمن المشكلة، أو لمَ عليها أن تشعر بهذا القدْر من الانزعاج جراء ما حدث؛ أحاول شرح وجِهة نظري للطالبة. تقول إن مقاربة عملية الجماع بهذه الطريقة كانت جديدة عليها تماماً. قلت في سري: يا لها من ساذجة ويافعة عديمة الخبرة. تبدو بشعرها المجعد ووجهها الجميل ذي الملامح الحادة أكثر خبرة مما تريد أن تعترف بها. تشعل سيجارة. أكره حقيقة أن جزءاً من مهمتي كأستاذة يتضمن قراءة تجارب طلبتي الجنسية – والأسوأ من هذا كله، وجوب إعطاء رأي نقدي حول هذه التجارب. تطير طائرة هيلوكبتر فوق رؤوسنا على ارتفاع منخفض. اليوم هو موعد صدور روايتي، وها أنا أجدني أتحدث مع إحدى الطالبات عن الجنس.

تقول ويداها اللتان كانتا ترتجفان تُمسِكُ إحداهما بسيجارة وأخرى بالقصة : «لم أستطع مطلقاً قراءة هذه القصة في العلن؛ هل تفهمين ما أرمي إليه؟»

هل أفهم ماذا؟ المتعة التي يحصل عيها صديقها بطريقة منحرفة؟ المتعة الشبيهة بطريقة الكلاب، كما يقال؟ وهل كان ذلك الأمر يزعجها لدرجة أقنعتها بأن هذه التجربة تستحق أن تكون موضوعاً لقصة؟ أتمعّنُ في هذه الطالبة لبرهة قصيرة، وتحديداً في وجهها الطافح بالتوتر، والمليء بالقلق. أود أن أقترح عليها ألّا تلقي بالاً لأيٍّ من هذا، وأن تحاول أن تتنفس بشكل طبيعي. يمر أحد الزملاء ويقدم لي التهنئة لأنه رأى الرواية في أحد محلات بيع الكتب. هنيئاً لي ما أنجزت. أنا سعيدة لأن الطالبة تعرف الآن أن رواية

لي قد صدرت للتو. بقي وجهها على حاله من التوتر وبقيتْ غارقة في همومها الشخصية. أقول لها مُحاوِلةً تهدئتها وإعادتها إلى توازنها النفسي ووعيها لذاتها: «هذا النوع من المتعة المنحرفة ليس حالاً استثنائية.» أنتقل بعد ذلك إلى نقاط أخرى في القصة تتعلق بفنون القصة ورسم الشخصيات؛ أما هي، وقد ركزت على الرأي الأخير الذي أبديته. تنظر إلي بعينين فارغتين كالبكماء، وتحيطني بنظراتها لبرهة وجيزة وكأنها لا تصدق ما سمعته مني للتو، ثم تشيح ببصرها عني. أختم بسرعة رأيي النقدي بقصتها ثم أسرع إلى البدء بمحاضرتي التالية.

أستقلُّ قطار الأنفاق عصر ذلك اليوم باتجاه وسط المدينة للقاء إحدى زميلاتي من أيام الجامعة، اسمها كاثي بارك؛ كاثي هذه ستصطحبني إلى مركز نبع الملكة للساونا للمعالجة التجميلية على الطريقة الكورية. كانت هذه هي المفاجأة التي أعدّتْها لي كاثي، وهي حقاً نِعْمَ المفاجأة. تلك كانت طريقتها في الاحتفال بصدور روايتي «جيل النار».

كاثي امرأة طويلة القامة؛ ممتلئة وذات شعر أسود قصير وعينين كبيرتين حادتين توحيان بالكثير من روح الدعابة؛ تقابلني كاثي أمام البوابات الخارجية لمبنى التنين الذهبي وتقبّلني. أما داخل المبنى، فالديكور مُضاء بأنوار حمراء موشّاة بألوان ذهبية. كانت تماثيل من الأسود تقف وكأنها تحرس المكان، وكانت مجموعة من النساء بملابسهن الداخلية السوداء اللون يتجاذبن أطراف الحديث بينما تتهادى النساء العاريات في طريقهن باتجاه الساونا أو غرفة البخار أو غرفة الحرارة المشبعة برائحة نبات المِلْت. تتحدث كاثي إلى موظفة الاستقبال باللغة الكورية. قدمت كاثي إلى أمريكا عندما

كانت في الخامسة عشرة من عمرها، ولم تتخلص من لكنتها المشوبة قليلاً بلغتها الأم. تتمتع كاثي بشخصية صلبة وإرادة قوية وتتصرف دائماً من موقع القيادة. هذه السمات في شخصيتها هي من بين الكثير من الصفات التي أحبها فيها: فهي تتبوأ موقع المسؤولية، وتحقق ما تريد من خلال منطق صلب وقيادي. وهي محامية، وشريكة في التقاضي، متخصصةً بالقضايا الجنائية لكبار الشخصيات (مثل سالي)، وقارئة نهمة، وأنيقة المظهر بدرجة مذهلة، وطباخة ماهرة، وأم لثلاثة أبناء. زوجها طبيب متخصص بالجراحة الصدرية. لم تبدِ كصديقة، أي نوع من أنواع التعاطف مع مشكلاتي المالية؛ ولم تكن تملك بالتأكيد أية أجوبة أو حلول لمشكلاتي، أو على الأقل، الأجوبة التي يحلو لي سماعها. كانت تتمنى لو أصبحتْ عازفة بيانو لكنها تخلت عن هذه الهواية عندما أصبحت أماً لأن هذه هي الطريقة التي تؤول إليها الأمور: «عندما يكون لديك أولاد، عليكِ أن تشعري بالمسؤولية ما يعني أن عليك القيام بأفعال لا تريدين القيام بها.»

كاثي الآن منهمكة في الحديث بطلاقة مع السيدات الكوريات بلغتها الأم. عندما قدمت من كوريا، كان أبوها قد استوطن هذه البلاد منذ ست سنوات؛ وكان يعمل في الليل بحيث يستطيع أن يستقدم زوجته وكاثي وأختيها الأكبر منها إلى نيويورك. كان يسكن في وسط هارلم، وافتتح عملاً محترماً تركّز على تصنيع الشعر المستعار بكافة نماذجه وأشكاله خصيصاً للنساء الأمريكيات من أصل إفريقي. أمضت كاثي سنوات مرحلة الدراسة الثانوية في تصفيف الشعر المستعار وعقصه وتمشيطه إلى أن يصبح مزيّتاً تماماً ومتماسكاً مثل الأسلاك على طريقة النساء الأمريكيات من أصل إفريقي.

المرة الوحيدة التي شكوت همومي المالية إليها – وهي الصديقة الوحيدة التي أسرّيت لها بهذه الهموم – ردت عليّ بنفاذ صبر: «عليك أن تجالسي شخصاً يمكن أن يشرح لك همومك بالأرقام.» شددت على هذه العبارة بشكل خاص لإعطائها ما تستحق من التوكيد في عالم الأعمال، وقد أوحت أثناء ذلك بتقديس ذي طابع فيثاغورثي للأرقام، ولصناعتها، وإلى الطريقة التي تخترق فيها الأرقام، عندما توضع في موضعها الصحيح، حصون عالم البلاغة والفصاحة والتملق والمداهنة وقلاعها بهدف كشف حقيقة أي أمر من الأمور الحياتية مثل كلب أعجف مبلل. تابعت القول: «سوف تظهر لك الأرقام ما الذي عليكِ أن تتخلي عنه كل سنة. سوف ينتابك الذعر. الأمر مخيف حقاً. ولكن إن لم تقومي بذلك، فإنني لا أريد أن أسمع أية شكاوى عن معاناتك ومعاناة أسرتك. تمعّني في الطريقة التي تعيشين فيها. نحن جميعاً نجهد أنفسنا في العمل بينما تقومين أنت برحلات إلى أوروبا في إجازات طويلة.» ضمير «نحن» الذي استخدمته كانت تعني به بقية العالم بأسره.

لو كانت لديّ الجـرأة الكافية كي أشرح وجهة نظري، أو لو كانت لدي الجرأة للقول: «ولكن ليس لديّ خيار في المسألة برمتها»، أو «لست مؤهلة للقيام بأي شيء آخر»، أو «ولكنني فنانة»، لردّت كاثي بمحبة ممزوجة بالسخرية: «فنانة؟ لا تختبئي خلف هذا العذر؛ فإذا كنتِ فنانة، عليك أن تعيشي كفنانة؛ لا تعيشي مثل أية امرأة غنية، انتقلي للعيش في بلدة يمكن أن تناسب وضعك المادي، ضعي ابنتيك في مدرسة حكومية.» كانت تعمل ست عشرة ساعة يومياً منذ قدومها إلى هذه البلد. تركت وراءها عشرات الخدم، وخادمة خاصة تتبعها كظلها، وبيانو من النوع الفاخر. لو كانت وتيرة

حياتها في كوريا مجرد نزوات على شكل أحلام موسيقية، لكانت تحولت في أمريكا، أرض الأحلام، إلى شخص طموح صلب وعملي في معرض دفاعها على سبيل المثال عن شركات الأدوية الكبرى في التحقيقات الجنائية في عمليات احتيال في مجال التسويق والممارسات المتعلقة بتسعير الأدوية. توقفت عن البوح لها بمشكلاتي المالية منذ مدة، وبقيت أزعم أن كل شيء كان على ما يرام. واليوم نحن نحتفل. هنيئاً لي ما أنجزت!

قالت لي: «أنا فخورة بك؛ مبروك. لقد أحببت الرواية كثيراً.» لم أتبين كم هو مهم رأيها بالنسبة إليّ إلى أن قالت لي ما قالته.

تبتسم للسيدات، ثم تبتسم لي قائلة: «هيا إلى العمل.» نتعرّى من ثيابنا وندلف إلى غرفة كبيرة تضم طاولات ذات حواف، ويطلب إلينا الاستلقاء. طيلة مدة صداقتنا، كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها كاثي عارية. كانت نحيلة وطويلة، ولكن حتى وهي مجردة من ملابسها، كانت تمشي بثبات. أستطيع أن أتخيلها وهي ترتدي سترة من الجلد وهي تهرع باتجاه أحد الزبائن، وتوافقه على ما يقول من دون تردد.

ماذا يتضمن «العمل» الذي تدعوني إليه كاثي؟ هناك امرأة كورية ترتدي حمالة صدر سوداء وسروال داخلي أسود كذلك، تقوم بتدليكي وحفّ جسدي لمدة خمس وأربعين دقيقة أو تزيد، بكيس حمّام. يفترض بهذه العملية أن تعيد للبشرة شبابها، وتزيل الجلد الميت بحيث يلمع الجلد الجديد. في لحظة من اللحظات، أتساءل عن نوعية المادة الحبيبية التي تستخدمها في عملية التدليك، لأكتشف أنها ليست سوى جلد بشرتي الميت. جسدي مغطى بحبيبات صغيرة بحجم حبات العرق. بعدها بقليل، تدلق دلواً كبيراً

من الماء على جلدي الأغبر اللون والمنسلخ فتطفو نتف الجلد الميت على أرض الحمام وتختفي في مصرف المياه. وعندما تتم تغطيتي كلياً بالوحل تبدأ عملية التدليك. تمطيني المرأة وتضغط بركبتيها على عمودي الفقري، وتتغلغل أصابعها تحت أضلعي كما لو أنها أرادت أن تصل إلى رئتيّ وقلبي. هذه المرأة التي لا تعرف كلمة واحدة باللغة الإنجليزية تقلّبني ذات اليمين وذات الشمال من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ كما لو كنت سمكة بين يديها. تضربني بقوة على ردفي وتمطّ ذراعيّ وتلوي مفاصلي بطريقة فظة. تمت تغطيتي بالرمل وعجن جسدي وغسلي وغمري بالماء وشد جسمي، وإعادة ولادتي من جديد. فاليوم هو موعد صدور روايتي!

قبلات الوداع تُطبع على الخدين. تنهال عبارات الشكر والمحبة والأمنيات بالتوفيق والتهاني و «متى سأقرأ مراجعات نقدية عن الرواية في الصحف؟» أجيب: «قريباً، قريباً جداً» بالرغم من أنه ليست لدي أية فكرة متى سيحدث ذلك؛ إذ أنني لست متأكدة من أن أحداً قد كلّف من أجل القيام بذلك. لكنني لا أشرك كاتي بهواجسي. «قريباً». أوقف سيارة أجرة وأدلف إلى داخلها. أطبع قبلات أخرى وأنفخها عبر الهواء باتجاهها وأتجه صوب وسط المدينة. أقفز من السيارة عند توقفها أمام إشارة المرور لأنني أتبين أنه ليست بحوزتي نقود أدفعها للسائق. أنظر خلفي لأتأكد من أن كاتي اختفت، ثم أنزل درج الأنفاق لأصعد بعدها باتجاه منطقة سيتاريلا إلى أحد المطاعم. أطلب شريحة لحم العجل وبعض المعجنات والملفوف الصيني الطازج والماشيه والخبز والمعكرونة وزيت الزيتون. أطلب أيضاً بعض الورود (كانت تلك الورود جميلة للغاية). يبلغ مجموع الحساب مائة وثلاثة عشر

دولاراً وثمانية وسبعون سنتاً. لا أبالي بذلك، فاليوم هو موعد صدور روايتي. أسحب مبلغاً من النقود من آلة الصرافة، بالرغم من تجاوزي حد الحساب المصرفي (أحمد الله على التسهيلات المصرفية التي تسمح لي سحب مبالغ تزيد على حد حسابي الجاري)، أركب سيارة أجرة وأتوجه إلى المنزل. أجرّ أكياس التسوق بصعوبة إلى داخل المبنى وأدلف إلى شقتي.

إلى شقتي المشمسة والمتلألئة والتي يغمرها الضياء. عاملة التنظيف جانين موجودة الآن في الشقة. جانين لا تنبس أبداً ببنت شفة، لكنها وفية لنا بقدر ما نحن أوفياء لها. تصر على ارتداء مئزر أبيض اللون. أدفع لها مستحقاتها البالغة مائة وعشرون دولاراً نقداً (ملاحظة: سبق لي أن لاحظت أنها تتقاضى مبلغاً أكبر من المبلغ الذي أتقاضاه قياساً على الزمن الذي تستغرقه في أداء عملها. ملاحظة أخرى: سبق لي أن لاحظت أنه يجب عليّ أن أخبرها أنني سأستغني عن خدماتها لأنه لن يكون بإمكاني بعد الآن تغطية نفقات هذا الاستخدام.) شعرها طويل ترتبه على شكل ضفائر. أما مئزرها الأبيض فهو مشدود بإحكام فوق سزوال الجينز وقميص قصير الكمين في الوقت الذي تكوي قمصان الفتاتين والشراشف والفُوَط بعد استعمالها في حفل العشاء الذي أقمناه الأسبوع الفائت. تبتسم لي عندما أسلمها النقود كما تفعل دائماً. يلمع سنّاها الأماميان المذهّبان. يجب أن أعطيها إشعاراً بإنهاء خدماتها بعد شهر من الآن. أسمع أصوات الفتاتين صادرة من غرفتهما. أقول لها وأنا أدلف إلى غرفة نوم الفتاتين: «إلى اللقاء في الأسبوع القادم يا جانين.»

تهرع الفتاتان باتجاهي. تفترش أبريل، جليسة الأطفال بساطها وهي تقرأ عن الحسومات المقدمة على المواد الطبية والدوائية هذا الأسبوع. تحاول دائماً

أن تحصل لنا على صفقة تخفيضات على محارم الحمامات والمناشف الورقية وأدوات التنظيف. تحدثني عن العروض الخاصة وتسلّمني قسائم استعادة جزء من القيمة النقدية على بعض المشتريات بعد ملئها وإرسالها إلى مركز تجميع القسائم في ولاية داكوتا الجنوبية. بعد شهر أو شهرين سنستلم شيكاً بمقدار دولار واحد بالبريد. أقوم بالمهمة على أكمل وجه كما تطلب مني أبريل. ليس بإمكانكم تجاوز أبريل. تقول لي: «هل قرأت الصحيفة؟» تقرأ هي الصحيفة من الغلاف إلى الغلاف، وتهتم بالسياسة الدولية ورئاسة الجمهورية ومعدلات الفائدة وسوق العقارات والحروب. أحد الأشخاص وأسرته تحولوا إلى حزب الخضر في مدينة نيويورك. تقول بلهجتها الكاريبية الإيقاعية: «إنهم يمتنعون عن شراء مناديل الحمامات.» أبريل امرأة مكتنزة وفارعة الطول ؛ أصلها من «الجزر» كما تصفها، حيث عائلتها المكونة من زوجها وابنيهما البالغيْن.

تستهجن أبريل فكرة أن يذهب المرء إلى أي مكان من دون أن يصطحب معه المناديل الخاصة بالحمام وتعتبره مظهراً غير حضاري البتة؛ وهي بلا شك «تبالغ جداً» في هذه المسألة. أسمع إشاعات حول تذمر بعض الأمهات منها لأنها «تقرأ كثيراً؛ ولأنها تبالغ في القراءة بقدر ما تبالغ في تهذيب الأولاد تقريباً.» فقدت كلمة «التهذيب» قيمتها للأسف وأصبحت شيئاً من الماضي. الأولاد هم أصحاب الكلمة الفصل. لكن هذا لا ينطبق على ابنتيّ أو ابنيْ أبريل. تنساب أشعة الشمس عبر النوافذ. البنتان تعانقاني وتغمراني بالقبلات. صنعت غوين بطاقة لي وكتبت عليها «مبروك». روبي البنت الصغرى قالت: «أنا ساعدتها في صنع هذه البطاقة.» ردت غوين: «كلا، لم تساعديني.» «بل فعلت.» «كلا، لم تفعلي.»

قلت: «إنها جميلة.»

قالتا بصوت واحد: «نحن فخورتان بك يا أمي. رأت معلمتنا روايتك في محل بيع الكتب.»

ما زلت أرتدي معطفي، وأشعر بالحَرّ في الوقت الذي ما تزال الفتاتان تعانقاني. أقبّلهما على رأسيهما في الوقت الذي تأخذهما أبريل بعيداً عني كي تفسح لي المجال لإنجاز ما تبقى عليّ من واجبات في ذلك اليوم. أبريل تعرف إيقاعي اليومي. تبتعد الفتاتان عني وهما ترتديان ثيابهما المكوية والمنتقاة من قبل أبريل. تشعر بالفخر لمظهرهما الأنيق، كما لو أنهما امتداداً شخصياً لها؛ فهي تعتبر نفسها ملكة النحل التي تمتلك خزانة الثياب الأنيقة الخاصة بها. أشعر أحياناً أنهما ابنتاها بقدر ما هما ابنتاي أنا؛ وهذا الشعور شكّل رابطاً بيننا تعوّدنا عليه وقبلناه ثم بدأنا نستمتع به. كان شعر الفتاتين مُسرّحاً بعناية ومربوطاً إلى الخلف، وكانت أظافر يديهما وقدميهما مطلية بطلاء الأظافر، كما أن رأسيهما الصغيرتين كانتا شامختين وتعلوهما مسحة من الزهو. لم تكن لأي منهن أدنى فكرة عما يجول في خاطري: سوف أعطي أبريل إخطاراً أيضاً يتضمن إنهاء تعاقدها معنا. أما المسكينة أبريل، فلم تكن تدري هي الأخرى وهي تخطو خارج المنزل كم كنت مضطرة كي أعطيها هذا الإخطار. لم تكن لديها أدنى فكرة أننا نسكن هنا في الطابق الثالث عشر (البعض يعتبره الطابق الرابع عشر، ولكن دعونا نسمي الأشياء بمسمياتها.) في منزل متداع. يا إلهي! عليّ ابتداءً من الغد الاهتمام بكل هذه الأشياء بنفسي. أما اليوم فهو موعد صدور روايتي!

تضبطني غوين بنظراتها وتستمر في ذلك لبرهة قصيرة؛ إنها تلج إلى مكنونات صدري وتقرأني من الداخل؛ هذه هي ابنتي التي لا تتوقف عن طرح الأسئلة. إنها تعرف؛ إنها تعرف كل شيء: تعرف أن هناك فارقاً كبيراً بينها وبين أقرانها.

أدلفُ إلى غرفة النوم لاستعراض الرسائل الهاتفية آملة أن تكون إحداها من داروين. أنا بحاجة إلى سماع حماسته؛ أحتاج إلى سماع كيف سنركب موجة البن ونتجه بها نحو الأعلى. تمر في خاطري صورة طالبتي في هذه اللحظة أيضاً، وأتذكر الطريقة التي كانت ترمقني بها، كما لو كانت صراحتي معها قد صدمتها؛ وكما لو أن مثل هذه الصراحة قد كشفت عن جانب مروّع في شخصيتي. أقول لنفسي: هؤلاء الطلبة يافعون وعديمو الخبرة. لقد نسيتُ كم هم يافعون. لا رسائل البتة. أقوم بتشغيل الكومبيوتر ثم أرمي بالمعطف على السرير. أنظر في خزانة الثياب وأسحب فستاناً جميلاً، وجزمة سوداء جلدية طويلة. أحضّر الحمام، وفي هذه الأثناء يرن جرس الهاتف.

«مبروك.» إنه وين. أعرف الصوت. إنه صوت مميز. تجتاحني نوبة من الارتعاش، وأشعر بالذنب يغمرني. لم أرَهُ منذ لقائنا ذاك في ولاية مين.

أسأل: «وين؟»

«تعرفين أنه أنا.»

«حقاً؟»

«لا تتظاهري بأنك لا تعرفين.»

«متى سنحتسي تلك الشمبانيا التي وعدتَني بها؟»

«هذه الليلة.»

«هذه الليلة؟ ولكن – »

«أرفض كلمة «ولكن». تعرفين ذلك البار الصغير على سطح ...»

في تلك اللحظة، تقتحم الفتاتان الغرفة وتقعان فوق بعضهما بعضاً؛ تتصارعان بصخب من أجل هذا الشيء أو ذاك. تهرع أبريل وراءهما فوراً. وين يتكلم لكنني لا أسمعه؛ فأنا لا أسمع سوى صيحات الفتاتين وتوبيخ أبريل لهما. تبدو الغرفة متلألئة؛ فالسرير مرتب للتو، والشراشف مكوية، كما أزيل الغبار عن كافة محتويات الغرفة. في زاوية الغرفة هناك كرسي عملت على إصلاحها مؤخراً تبدو أنيقة وأثرية، قماشها محاك من خيوط الشنيل على طراز سكالامندريه مزينة برسوم لنمور تقفز في الهواء؛ وهذا القماش الفاخر اشتريته عن طريق الإنترنيت بعد حسومات كبرى على المنتج (من أجل الارتقاء بالمستوى الجمالي للأثاث الذي يتم أخذه من الشارع فيما بعد.) الوسائد منتفخة، كما يتدلى غطاء ذراعيْ الكرسي على جانبيها كما لو كانت تلك الكرسي سيدة أنيقة تستجدي العطف وإثارة الانتباه. لا يمكن أن أعطي جانين إخطاراً بإنهاء خدماتها. المال؛ كل هذا صنعه المال. فهناك وعبر النافذة، توجد مدينة نيويورك: الأبنية التي ترتفع نحو قبة السماء هي من صنع المال. يرفض ثيودور منح المال الاهتمام الكافي؛ فالمال بالنسبة إليه كالسرطان الذي يلتهم الفرد حياً. يبدو أن الحياة لم تَهِبْ إلا القليل إضافة إلى المال. هل نحن جميعاً أسرى المال؟ سوف أتصل بثيودور وأشرح له أن

أمراً طارئاً قد حدث. ما هو المدى الذي سأذهب إليه في ذلك الاتجاه؟

أقول: «سوف أكلمك فيما بعد.»

يقول وين: «سوف ألاقيك إلى هناك.» ويغلق بعدها سماعة الهاتف.

لو أن صديقاً وصف شخصاً لي بهذه الطريقة مصوّراً لي جرأته الزائدة عن الحد وتعاليه، لوجدت الأمر غير مريح، وغير مثير للإعجاب. ولكن كل ما أريده هذه اللحظة يتلخص في أن ألتقي به. أريد أن أكون تلك الفتاة الفقيرة في رواية دريزر، وأستمع إلى الرجل الثري يطالب بي قائلاً: «أنتِ الآن فتاتي. تعالي معي. أنتِ ملكي.» أريد أن يتخذ أحدهم قراراً عني.

أغلق صنبور ماء حوض الحمام. تصطحب أبريل الفتاتين إلى المتجر. تسود السكينة لبرهة وجيزة. ألحظ مخطوطة ويل على الطاولة الصغيرة بجانب سريري. كانت مركونة هناك منذ شهر من دون أن يمسّها أحد. كنت أقدم له أعذاراً لعدم تمكني حتى الآن من قراءتها وكان يطلب إلي دائماً ألّا أقلق، فهو متأكد من أنني سأقرؤها عندما أجد الوقت المناسب لذلك. أدلف إلى المطبخ عبر غرفة الطعام لأشرب كأساً من الماء. هناك باقة ورد عملاقة تحتوي على عشرين لون مختلف من ورود الزنبق بأنواعه المختلفة مثل الكالا والنمر والبوق وعيد الفصح والنيل وأنواع أخرى لا أعرف لها اسماً، تشرئب من مزهرية مثل ألوان الألعاب النارية مرتبة بشكل غير متكلف إلا أنها كان مرتبة ترتيباً متقناً. إحساس هائل يعتمل في داخلي ويعتصر صدري. فثيودور عاجز عن استيعاب مسألة أننا على وشك الإفلاس الذي تعبق رائحته في المكان. أفتح البطاقة المرفقة بباقة الورود: «نلتقي في نيرفانا الساعة الثامنة مساء.» البطاقة مغفلة التوقيع.

أضيء الشموع إضافة إلى عود من البخور، وأرشُّ ماء حوض الحمام ببعض الزيوت وأدلف إلى الحوض ممسكة بالفصل الأول من مخطوطة ويل. صفحة الغلاف تبدأ بالعنوان: «لا تقل مُتْ أبداً» أما صفحة الإهداء فهي على هذه الشاكلة: «إلى ثالوث رهاني: إيما بيللينغز تشابمان وإلى ابنتينا إليزابيث تشابمان وكاثرين تشابمان». يا إلهي، كم مرة عليه أن يكتب اسم عائلته!

تدور الرواية حول حكاية طويلة تبدأ في رحلة قطار يتجه إلى الغرب من أوهايو بحلول نهاية القرن التاسع عشر. تتمحور الحكاية حول فتاتين وأمهما، واللواتي يعانين من فقر مدقع. تصطحب هذه العائلة صندوق ملابس مليء بأثواب جميلة من الكتان. تحمل الأم معها آلة كمان تحاول من خلالها شق طريقها من الدرجة الثالثة إلى الدرجة الأولى حيث العربات فيها مدفّأة ومليئة بالرواد الأثرياء. هذه العائلة هاربة من جوْر أب الفتاتين، والأم مصممة على إعادة بناء هذه العائلة من جديد بشكل مستقل من خلال عملها كمعلمة في مونتانا. الفصل شتاء، والكتل الثلجية الضخمة تجبر القطار على التوقف؛ وهنا تتساءل البنت الكبرى واسمها ثيلما التي سميت كذلك تيمناً ببطلة رواية ماري كوريللي التي كانت شهيرة في ذلك الوقت، عما يمكن أن يحدث لهن. يرسم ويل صورة للبرد القارص الذي يخيم على عربة الدرجة الثالثة وموقد الفحم في وسط العربة؛ كما يصور الصندوق الأسود الذي يحتوي على الأثواب الكتانية المضغوطة فوق بعضها بعضاً بشكل قاسٍ، والمكواة التي تم توضيبها في الصندوق إضافة إلى عدم مواءمة هذه الثياب لهذا الفصل من السنة، بالرغم من أنها واعدة في المستقبل. بإمكان القارئ تخيل رؤية أقدام هاتين الفتاتين الصغيرتين الفقيرتين وحذاءيهما المهترئيْن. وبالرغم من

أن الكاتب يستخدم صيغة الغائب إلا أن القصة تتمحور حول ثيلما، وأنت بصفتك قارئاً، تريد أن تعلم ما الذي سوف يحدث لها، أو لهن جميعاً.

وجدتُني قبل أن أنتبه إلى نفسي، أنتهي من قراءة الفصل الأول المكون من ثلاثين صفحة، والذي ينتهي بأم ثيلما إلى الارتماء في حضن أحد الغرباء في عربة الدرجة الأولى وهما يتبادلان القُبلات. حوصر القطار ضمن كتلة ثلجية ضخمة، ولكن لم يكن هذا ليثير قلق ركاب الدرجة الأولى. تعزف أم ثيلما على الكمان، وتتسمر عيون الركاب جميعاً عليها، وعلى ثوبها الخفيف جداً بالنسبة لهذا النوع من الطقس؛ وعلى شعرها المائل إلى الحُمرة والمعقوص على شكل ضفيرتين كل واحدة منهما مشدودة بواسطة مشط ملتوٍ مصنوع من العاج.

وبالرغم من كبر حجم رواية ويل واستخدامه المفرط فيها لظروف الزمان والمكان والصفات (وهذه مسائل فنية لا بد لأي محرر للرواية من تهذيبها) فقد وجدتُني مشدودة إليها. أريد أن أتابع القراءة. أقرأ صفحاتها بسرعة. يتسم أسلوبه بالوضوح والإسهاب والدقة في الوقت نفسه. لا يستطيع إبقاء هذا الأسلوب على نفس المنوال طيلة الوقت، كما أظن. فهو مصرفي بالأساس كما أعتقد، ولذا لا يمكن أن يكون روائياً جيداً. هذا ليس ممكناً. لكن هذا الإحساس يعكس أنانية مفرطة في القسوة. أرمي بالصفحات جانباً، وأخرج من حوض الحمام وأتصل بداروين وكلي أمل في أن أتلقى منه أخباراً طيبة.

يقول: «لقد تعرّضنا إلى مطب غير متوقع في الطريق.»

قلت بحدّة، بينما كان الماء ينقط من جسمي: «ماذا؟»

يرد: «مطبّ؛ فقد ارتكبت خطأ لا يقع فيه سوى المبتدئين.»

«ماذا؟»

«خطأ.»

«كيف؟» على طاولة صغيرة مركونة في إحدى زوايا غرفة نومنا، بالقرب من جهاز الكومبيوتر، تتكدس مجموعة من الفواتير غير المدفوعة؛ وهذه الفواتير ترتفع كما الماء الذي يصل إلى رقبتي ويتابع ارتفاعه حتى يصل إلى مستوى خدي، إلخ. أسأله مرة أخرى ولكن بهدوء هذه المرة: «كيف؟»

يرد: «لقد أخفقت في أخذ الصين بعين الاعتبار. فالصينيون يعتبرون الآن من أوائل دول العالم في إنتاج البن أيضاً.» يذهب تفكيري باتجاه جميع الأولاد الذين يتعلمون اللغة الصينية، حتى أولئك الذين لم تتجاوز أعمارهم الثلاث سنوات في المدرسة التي تتعلم فيها ابنتا ويل تشابمان. لا يشربون القهوة في الصين، بل الشاي. أفكر في الاتصالات الهاتفية والإضرابات والقلق بشأن المستقبل، ولم أفهم إلى أين نحن سائرون. لم أشأ أن أفهم. كانت الفكرة مغرية جداً. خذ من حسابك ألف دولار وحوِّلْها إلى نصف مليونِ من الدولارات؛ فكل ما عليك أن تفعله هو «ركوب الموجة».

أسأل: «بحق الجحيم، ما علاقة الصين بأسعار البن؟» يشرح لي ذلك من جديد مراهناً على الأسعار المستقبلية التي يتوقع أن ترتفع جداً. هناك جملة من العوامل التي تدفع ثمن هذه المادة إلى الارتفاع؛ وهذا يعني أنه لكي يتم ذلك فإن كمية العرض يجب أن تنخفض بنسبة كبيرة وبطريقة

لم يشهدها داروين «الصفقات» منذ الانفجار الكبير الأخير في أسعار البن. عليّ أن أعترف أنني، وبعد الاستماع إلى مكالماته الهاتفية، والحماسة المفرطة في صوته، وقوة احتمالات النجاح، فقد شعرت بالسحر ليس بسبب المال الذي كان يمكن لي جمعه جراء مثل هذه الصفقة، بل بالحيوية والنشاط جراء انخراطي في مغامرات بعيدة كل البعد عن مجال اهتمامي ومخيلتي. لقد فهمت ما يكفي كي أعرف أنني كنت أراهن على كارثة سوف تؤدي إلى إخلال مريع بالتوازن بين منطقيْ العرض والطلب، وأن هذا الاختلال سوف يوفر لنا مزيداً من الفرص لتحقيق المكاسب. أما الآن فأشعر ببساطة، بالخواء في داخلي.

يحاول التخفيف عني بقوله: «حسنٌ. ما يزال بإمكاننا تعويض كل ذلك. ما يزال أمامنا متسع من الوقت مداه عشرة أيام « قبل انتهاء مدة هذا الخيار؛ يمكن أن تنقلب الأمور. ابقي على رأسكِ مرفوعاً.»

أسأله: «هل عبارة «تنقلب الأمور» تعني حدوث كارثة أو وباء في الصين، على سبيل المثال؟»

يبدأ المعزوفة محاولاً شرح ما يقصد: «حسنٌ.» لكنني لا أريد أن أصغي إليه. استمر يهذر لبعض الوقت، لكنني لا أصغي إلى ثرثرته. أحاول استيعاب الفواتير بعينيّ. سوف أعالج موضوع الفواتير غداً. سوف أقوم بنقل مزيد من الحسابات، وسوف أتحدث إلى آمري العمليات. سوف يسألونني: «هل هناك مناقلات أخرى للحساب تودين أن تقومي بها بينما ما تزال أمامك فرصة الإفادة من عروض معدلات الفائدة؟» إنهم يعرضون المال

بنسبة فائدة صفر بالمائة للحمقى الذين تستهويهم إغراءات المال، مراهنين على أنهم سوف يتخلّفون في نهاية المطاف عن الوفاء بالتزاماتهم تجاه المصرف وبالتالي فسيفرض المصرف عليهم دفع غرامات ذات نسب فلكية تصل إلى ثلاثين بالمائة من قيمة القرض؛ إنهم يراهنون كما أفعل، على كارثة، أو مرض غير متوقع، أو على الرغبة في ممالأة الجيران ومجاراتهم في مستوى معيشتهم المرتفع، أو على تلك الثقة التي لا تتزعزع بأنفسنا من أنّ مستقبلاً أفضل من صنع يدينا بانتظارنا. وسأجيب على كل ذلك ب: «أجل»، منضمة بذلك إلى جمهور أولئك الحمقى.

داروين «الصفقات» يعرض عليّ حيلة أخرى. فالذرة ترتفع أسعارها حيث تبلغ خمسة دولارات وخمسة وأربعين سنتاً للمكيال الواحد. وهذا ارتفاع في السعر غير مسبوق. إننا نبحر صوب ذلك الاتجاه. (ملاحظة: كلمة «نبحر» هي البديل عن عبارة «نركب الموجة».) يقول: «لا تقلقي، سوف أعوّضك عن الخسارة في صفقة البن.» تتوضع الفواتير في عقلي الذي أضحى يشبه المستنقع؛ وأشعر أن مكاييل الذرة تحيط بي من كل جانب في عالم مفروش بحبات البن. الرواية؟ أين كل الروايات في هذه الصورة؟ لم أخطّ كلمة واحدة منذ أن أنهيت رواية «جيل النار». لا تعيري الأمر أي اهتمام؛ لا تعيري الأمر أي اهتمام. سوف نسدد الفواتير كلها مما سيتقاضاه ثيودور بعد إتمام مشروعه مثل سفينة تصلُ، وعلى متنها حمولتها بعد انتظار سنين في عرض البحر. ليكن لديك اليقين كما ثيودور. ربما أستطيع أن أطلب إلى أبي أن يقرضني بعض المال كي نبقى نطوف فوق بحر ديوننا لبرهة من الزمن. سوف أطلب إلى ثيودور أن يعطيني رأيه حول هذا الموضوع.

أسير باتجاه غرفة الطعام وأنا أضغط بأذني على سماعة الهاتف؛ أرقب الورود بإعجاب؛ ذلك أن ورود الزنبق من نوع الكالا مثل الورود من نوع الأبواق ذات ألوان مختلفة ومتنوعة. كم تبدو هذه الورود رائعة على طاولتي. كيف سأفسر لثيودور وجود هذه الورود في منزلنا؟ سأخرج بتبرير لذلك. يقول داروين «الصفقات»: «أعدك يا إنديا، إذا فشلنا في صفقة البن فإننا سننجح في هذه الصفقة. الذرة. يا حبيبتي إنها تتبخر مثل الإيثانول. سوف أكسب هذه الصفقة من أجلك، لا تيأسي.»

أقول: «الإيثانول، النكتة الكبرى».

يرد قبل أن ينهي المكالمة: «النكات غير مهمة إذا كانت ستكسبنا المال.»

اليوم هو السادس عشر من شهر تشرين الأول، أكتوبر، موعد صدور روايتي. روايتي ذات الأطراف الخشنة والمكدسة نسخها الواحدة فوق الأخرى في صندوق مرسل من قبل الناشر. الأغلفة صقيلة ولامعة وجديدة يتكرر عليها عنوان الرواية مقروناً باسمي: «جيل النار» بقلم إنديا بالمر، معلنة عن حقيقة كينونتها غير القابلة للتفنيد، ومدعومة بثقلها ولمعانها ومادتها. لكن الحقيقة كما تبين لي منذ البداية، تكمن في أن أياً من هذا غير ذي جدوى؛ كما أن أياً منه لن يكون كافياً. كانت هذه بمثابة شحنة على ظهر سفينة من نوع ما، عادت متأخرة جداً إلى ميناء مدينة أتت عليها النيران بالكامل. لا وجود لناجين فيها. هذه الكتب المذيّلة في الصفحة الأخيرة لأغلفتها بتقاريظ مبالغ فيها من قبل الناشر، ومدائح مسبقة ليست سوى عملة غير قابلة للتداول في بلد ابتليت بالإفلاس؛

وهي لا تعدو كونها استثماراً تم توضيبه وترحيله تحت جنح الظلام. نحن في غاية الأسف. الشحنة وصلت إلى العنوان الخطأ.

في المصعد المؤدي إلى الشارع، تدخل امرأة من الطابق العاشر محمّلة بالأكياس في كلتا يديها وعلى ظهرها وكتفيها وتحت عينيها. إنها معلمة في إحدى المدارس؛ مطلقة وأولادها وصلوا إلى سن الرشد. تبدو مستنزفة تماماً. تتوجه بنظرها صوبي وتقول: «أنتِ إنديا بالمر»، أبتسم لها كما لو أن كل شيء على ما يرام، ولا يمكن أن يكون أفضل من ذلك. تتابع قائلة: «أنا آسفة لأنه لا يمكنني أن أضع من يدي هذه الأكياس. رواية يمكن تصنيفها في خانة الروائع. شكراً لك.»

فكرت في الأمر. فكرت في أن أمسك بسماعة الهاتف وأطلب الرقم الذي لم يتغير منذ أن كنت فتاة في مقتبل العمر. أتوقع أن تجيب أمي على الهاتف. تخيلت كيف تبدو أوردة الدم في يدها بارزة وهي ترفع سماعة الهاتف، وتضع شبكة على شعرها الأشيب، كما تخيلت كم سيكون ثوبها المحتشم أنيقاً ومرتباً. سوف تقول كما هي عادتها دوماً، وكما لو كنت أمثل لها مفاجأة: «أهلاً وسهلاً يا إنديا. كيف حال البنتين؟ إنني أفتقد حفيدتيّ الصغيرتين. متى ستأتون لزيارتنا؟ سوف تكون في المطبخ وأمامها قِدرٌ على الموقد تطبخ فيه أكلة ما. دائماً ما تحضّر اللحم المسلوق بالمرق أو الحساء. أبي الذي تقاعد الآن سوف يكون في غرفة الجلوس جالساً في كرسي يحسب الفوائد – إنها نفس الكرسي التي دائماً ما كان يجلس عليها وهو يقرأ الصحيفة. أما أثاث البيت فما يزال بالتأكيد في نفس الموضع الذي كان فيه عندما كنت في شبابي الأول – الأثاث يتكون من العاديات التي ليست بحاجة إلى إبدالها بنوع

آخر من الأثاث. إنهما لا يبذّران نقودهما على تجديد الأثاث. كانت أمي تتباهى دائماً بأن ذوقها في انتقاء الأثاث واقتنائه لا يغيّره أو يستهلكه الزمن.

«هل أبي موجود في المنزل؟» كنت أذكى من أن أطلب المال من خلالها. فعندما يتعلق الأمر بطلب معونة مالية، كان هو الحاكم بأمره في العائلة.

كانت لتجيب بصوت مرتعش قليلاً لأنها تعرف من خلال حدسها أن الأمور ليست على ما يرام. كانت دائماً صادقة في حدسها: «بالطبع يا حبيبتي. هل كل شيء على ما يرام؟ إنه يقرأ في الصحيفة ويتناول شاي ما بعد الظهيرة.»

«كل شيء على ما يرام يا أمي.»

أسمعها تناديه: «يا بابا، إنها إنديا على الهاتف. تريد أن تتحدث إليك.»

وسيجيبها بطريقة لا تفوح منها رائحة اللؤم بل الفضول: «ماذا تريد؟»

«إنه يوم صدور روايتها.» بعدئذ ستتحول كلماتها إلى ما يشبه الضجيج لأنها تغطي سماعة الهاتف بيدها.

سيرد بتلك الطريقة التي ينفرد بها والتي يستحضر من خلالها شبه القارة بأكملها، ومن ثم، يحتلها، قائلاً: «مرحباً يا إنديا.»

سأقول لنفسي: كوني شجاعة. سأقول بشكل مباشر ومن دون لف أو دوران: «عليّ أن أدفع الأقساط المدرسية للبنتين. سوف نحصل على المال قريباً جداً، أعني حالما يقبض ثيودور أتعابه عن المشروع الذي يقوم به. أريد

المال على سبيل الاقتراض، وسأعيده إليك مع فائدته.» سيسود الصمت لبرهة؛ ذلك الصمت الثقيل الذي لا بد منه، والذي يقع بين براثنه ذلك القلق الشديد الذي ينتاب أبي جرّاء وضعي المالي، والخوف الذي لازمه ويلازمه حول معنى أن يكون المرء فناناً؛ وهو القَدَر الذي كان يعلم طيلة الوقت أنه قادم لا محالة.

كان ليرد بالقول: «لطالما حذرتك من مغبة هذا التوجه.» كان بإمكاني تخيل بروز عروق يديه كما العادة في مثل هذه الحالات. وكان انحسار شعر مقدمة رأسه يوحي بأن وجهه أكبر مما هو عليه في الحقيقة وأكثر صرامة.

كانت أمي ستناديه: «بابا،» هكذا كانت أمي تناديه دوماً. كان بإمكاني تخيل سماعها في الخلفية وهي تحاول بكثير من التردد أن تقحم نفسها في الصورة.

«أنتِ أوقعتِ نفسكِ في خضمّ هذه الفوضى؛ وأنتِ من يجب أن تحاول انتشال نفسك منها. إذا كان هناك ما أعرفه عن ابنتي هو أنها ذكية. وأنا أعلم أنني لن أسدي لك معروفاً لو تدخلت لإنقاذك من معمعة هذه الفوضى. أنتِ ذكية. ذكية. ذ.ك.ي.ة. لقد دفعت لك كي تنتسبي إلى واحدة من أفضل الجامعات في طول البلاد وعرضها. بإمكانك أن تنتشلي نفسك من هذه الفوضى.» يسود الصمت لبرهة. «أنا أؤمن بقدراتك يا إنديا.» كان سيقول مثل هذا الكلام بكثير من الدفء الذي يَسِمَهُ هو وحده؛ وهو دفء يخفف من شدة الضربة التي يوجهها، ويخفف من وقعها عليّ. إنه لا يكلّ ولا يملّ من إلقاء الدروس والمواعظ. أجل، أعرف أن هذا سيكون الجواب، ولذا فلا طائل من الاتصال، ولا حاجة بي إليه.

وقعت في غرام ثيودور لأنه كان حالماً، والحالم كما هو معروف بداهة، شخص مؤمن. كان مؤمناً بنفسه وبفنه وبي وبفني. كان يؤمن بالحياة الفنية والتضحيات التي على المرء أن يقدمها استجابة لمقتضيات مثل هذا الخيار. ومع ذلك كان يؤمن بها كلها. الحقيقة هي أنني أنا من تغيرت. لقد انتقلت من هذا العالم من دون أن أترك لأحد عنواني الجديد. كنت أنا من سقطتْ وتركتْ ثيودور وحيداً في ذلك العالم. وبينما كنت أستقل قطار الأنفاق باتجاه وسط المدينة، قاصدة الشارع التاسع والخمسين، كنت أرغب بشدة في مغادرة عربة القطار للقاء رجل بالكاد أعرفه. كنت أتساءل عما يمكن أن يحدث لو نزلت من العربة، لو سرت بمحاذاة حديقة سنترال بارك باتجاه الجنوب في مثل هذا الوقت حيث لم تتجاوز الساعة، السابعة والنصف مساء ؛ وبدأ الظلام يخيم على الأرجاء؛ لو استقليت المصعد إلى الطابق الذي يوجد فيه المطعم المتوضع في أعلى الحديقة مثل وكر النسر. لم يكن المطعم يوحي بالرومنتية في الليل كما تكون عليه الحال عند الغسق. تبدو الحديقة مثل فراغ مظلم محاط بأنوار العديد من البنايات. لكن الرومنتية كانت تعبق بشكل جليّ من الدعوة نفسها، ومن الورود: كانت تعبق بالجرأة والخيانة والرومنتية الجسورة. هل سيكون جالساً هناك بانتظاري؟ هل سيقبّل يدي أو وجنتي أو شفتيّ؟ ما الذي سوف يفعله بي لو أتيت؟ هل سيتزوجني؟

أجل، لقد خطرت لي كل هذه الأسئلة، لقد خطرت ببالي كما تخطر ببال طالبة المدرسة، وهذه الأسئلة هي النتاج الطبيعي للموعد الغرامي مع أحد الفتيان. لو خرجت من قطار الأنفاق، لكان هذا موعدنا الغرامي الأول. كنا سنطرح كل هذه الأسئلة التي لا بد أنكم ستطرحونها بأنفسكم في معرض

تعرفكم على بعضكم بعضاً؛ أسئلة تدور حول الجامعة والكتب والطعام والرحلات حول العالم. هذه هي القصص التي تجعل منا بشراً. سوف يكون من النوع الذي يأخذني في عربة خيل تسير بنا عبر الحديقة، ويدس في يد السائق نقوداً إضافية، الكثير، الكثير من النقود الإضافية كي ينحرف بنا عن مسار العربة الأصلي باتجاه عمق الحديقة المظلم بعيداً عن أعين الناس. أردت أن أخرج من قطار الأنفاق. أردت أن أجرب معنى أن يتحرر المرء من القلق والمظاهر الكاذبة والخادعة. سيكون ذلك في غاية السهولة. قدم أمام الأخرى. الشارع التاسع والسبعون، الشارع الثاني والسبعون، الشارع السادس والستون، الشارع التاسع والخمسون. الخدْر المرافق لكل ما هو جديد، التوبيخ الأجوف، العقل الذي يشبه الصفحة البيضاء، والذي أحبه فوق الوصف. الثوب الجديد، الصفحة الجديدة، الشارع الخمسون، الشارع الثاني والأربعون؛ ما يزال هناك متسع من الوقت كي أغير رأيي، الشارع الرابع والثلاثون. عند وصولي إلى الشارع الرابع عشر، كان لزاماً عليّ أن أغير إلى خط كانارسي الذي سيقلّني إلى ويليامزبيرغ؛ كنت أتوجع بسبب نقص في معدل الجرأة لديّ، لأنني كنت أعلم أنه إذا كان وين جالساً هناك بانتظاري، فسيكون لديه ما يكفي من «الأنا» التي ستتحمل فكرة نهوضه عن الكرسي من أجل ملاقاتي.

بينما كنت أسير باتجاه استديو ثيودور بعد خروجي من قطار الأنفاق، مررت ببعض الهيبيين الشباب الذين يرتدون سراويل جينز سوداء ملتصقة بأجسادهم. كانت امرأة شابة من بينهم تحمل حقيبة آلة الغيتار. وبالرغم من أن المنطقة كانت غير مأهولة نوعاً ما، إلا أنني علمت أن الشركات العقارية

جنت أرباحاً طائلة من هذه المنطقة أيضاً. عدا ذلك، كانت هادئة وباردة. كانت أوراق الأشجار تتطاير في الهواء مع أكياس النايلون والأكياس البلاستيكية وتستقر بين أغصان الأشجار. وكانت أسلاك الهاتف والكهرباء متداخلة مثل خيوط بيت العنكبوت فوق رؤوس المارة. في نهاية الشارع، كان النهر الشرقي يلامس الرصيف بلطف. ظهر فجأة قارب مضاءٌ مَرّ بمحاذاتي. وكان مصنع السكر المطفأة أنواره ينفث دخانه في الجو.

كان ثيودور بشعره الأشعث المتطاير في كل اتجاه، يلبس قميصاً قصير الكمين وسروالاً من الجينز الأسود، وجزمة سوداء، ومئزراً جلدياً. كان يقف على مدخل البناية وبيده باقة من زهور الربيع: كانت البناية عبارة عن مصنع مبني من الآجر الأحمر اللون. كيف استطاع أن يجد مثل هذه الزهور في شهر تشرين الأول، أكتوبر؟ كانت مثل هذه الباقة هي ما حملتُه ليلة زفافنا. تزوجنا منذ ثلاث عشرة سنة. أردت فجأة أن أخبره بكل ما جرى معي هذا اليوم. أحاطني بذراعيه، وشعرت بالدفء بالرغم من أنه هو من كان يرتدي قميصاً قصير الكميْن.

«زهور الربيع؟»

قال بينما كنا ندلف إلى داخل البناية: «مبروك.» رواق طويل مضاء يؤدي إلى درج السلم الذي ارتقيناه لثلاثة طوابق. لم آتِ إلى هذا المكان منذ مدة. في كل طابق كان هناك استديو واحد. كانت هذه البناية من النوع الذي تم تحويله بسرعة إلى ملكية مشتركة. تمت إزالة الدهان عن أجزاء كبيرة من الجدران، كما كانت الأسلاك تتدلى عارية من السقف. وكانت البناية تحتوي

أيضاً على مدرسة للفنون. كان بإمكاني سماع أصوات أشخاص يعملون في البناية: كنت أسمع أصوات المطرقة والمنشار ووقع الأقدام ونقل الأثاث. لم تكن هناك نوافذ تطل على بئر السّلّم.

«روايتك رائعة. أنتِ رائعة. قرأتها مرة أخرى هذا اليوم.»

«حقاً؟» كان صوتي واضحاً وحاداً نوعاً ما. سماع المديح من هذا الرجل الذي ما يزال يعيش على الهامش كان يعني كل شيء بالنسبة إلي. طالما أنه يؤمن بي، فإن بمقدوري الاستمرار والمتابعة. أخبرته بالمديح الذي كالته لي معلمة المدرسة.

قال: «هذا هو المهم بالنسبة إلى المسألة برمتها. كل شخص بدوره.»

أخبرته عما مررت به أثناء اليوم: لقائي بكاثي بارك، وشرائي ثوب السباحة البكيني؛ وكان بودي أن أخبره عن وين.

نحن أمام الباب الآن. كان موارباً قليلاً وكان الاستديو مضاء في الداخل بشكل جيد. أرخى الضوء بظلاله على وجه ثيودور، ما جعله يبدو أكبر سناً مما هو عليه في الواقع. قال وهو يتفحصني بعينيه: «أنتِ قلقة.»

لم تكن لثيودور أدنى فكرة عن تعقيد شبكة الفواتير التي وقعنا في شراكها، والديون التي نرزح تحتها، والرغبات التي تنتابني، والمقامرة التي تورطت فيها. لو عرضت له كل ذلك، لأنهكتُه بتعقيدات هذه المشكلات التي تواجهنا. كنت غالباً ما أتساءل ما الذي سيفعله لو مُتُّ. كيف سيتصرف حيال الفوضى التي سيرثها من بعدي. لم يكن يعرف أبداً متى تصله الشيكات،

أو كيف تُصرفُ، أو على ماذا يتم إنفاقها. أقمت جدار حماية له. لقد كنا في هذه المعمعة سوية؛ لكنني مع ذلك، لم أشأ أن أقحمه في خضم هذه الفوضى لأنني لم أكن أرغب في أن أفقد السيطرة. كان الحل الذي سيخرج به هو أن نترك الشقة التي نقيم فيها. كان سوف يقترح مثلما فعلت كاثي، أن نسكن في مكان نستطيع أن نغطي تكلفته. لم أكن أريد أن أسمع أن البنتين سوف تُسحبان من المدرسة الخاصة، لم أكن أريد أن أسمع كلاماً مفاده أنه ليس بإمكاني شراء هذا الثوب أو هذا الحذاء، أو أدفع نفقات علاج ابنتي غوين للأطباء الذين بدأنا نحبهم. ثم ماذا عن نوعية الجيرة التي يمكن أن نتعايش معها في المدينة — أو خارجها؟ فالأجرة الثابتة التي ندفعها مقابل السكن في شقتنا تجعل من المستحيل علينا تركها — ناهيك عن وظيفة التدريس التي أمارسها؛ إذ لم يكن من السهل أبداً إيجاد بديل أفضل لوظيفة تدريس محترمة سواء هنا أو في أي مكان آخر. كنت في المصيدة؛ ولكن لو أخبرت ثيودور بكل هذا، فلن ينتابه القلق؛ بل سيجد سبيلاً للتأقلم مع هذا الوضع الجديد بالنسبة إليه بحيث يمكن لنا أن نجد التمويل الكافي لنعيش حياتنا كفنانين. لا يمكنني البتة أن أقحمه في هذا الجو القلِق الذي يبدو أنه سيستمر في وضع حياتنا ضمن الإطار الذي أردت أن تكون عليه.

سأل: «ما المشكلة؟» أبقى على مسافة ذراع بيني وبينه ونظر إلي بتمعن. أردت أن أعترف له بشيء. كان الأمر ملحّاً وكان لساني على وشك النطق به. «أنتِ لست قلقة بشأن إزاحة الستار عن التمثال، أليس كذلك؟»

«هل أنجزتَه؟» فتحت باب الاستديو الخاص به وبعد أن دخلت إليه، كنت آمل أن أجد كأس القربان جاهزاً هناك وموضوعاً على الطاولة المعدنية

في البهو. وجدت على الطاولة بدلاً من ذلك، مزهرية ملأى بزهور الربيع، وكأسيْ شمبانيا وزجاجة شمبانيا في دلو مليء بمكعبات الثلج. كنت أحب دائماً المجيء إلى استديو ثيودور. لقد كان الدخول إلى الاستديو أشبه ما يكون بالدخول إلى عقله. كان الطابق السفلي مرتباً بعكس المَشغَل في الطابق العلوي. كانت هناك غرفة صغيرة مقابل البهو وكان في داخلها سرير مرتب بعناية. هناك أيضاً غرفة أخرى تحتوي على طاولة للقراءة وكتبه. يوجد أيضاً حمام (مرتب هو الأخر) ومطبخ صغير يحتوي على حوض للاستحمام. في الجانب الأخر من المطبخ، هناك سلم لولبي يؤدي إلى الاستديو نفسه وينتهي إلى السطح.

كان المكان في منتهى الروعة. القدور تغلي وتفور على الموقد. سكب لنا بعض الشمبانيا وشرب نخبي؛ أخذ بيدي وقادني عبر المطبخ باتجاه الدرج وصولاً إلى الاستديو الذي كان عبارة عن غرفة كبيرة توجد في نهايتها نوافذ مقوّسة من الأعلى ومُقطّعة بشباك مربعة من قضبان الرصاص. أما تحت النوافذ، فكانت هناك مجموعة من التذكارات النحاسية التي سبق لنا شراؤها منذ سنين عديدة من منطقة نوارا إيليا الواقعة في إحدى المناطق الجبلية في سريلانكا. ولقد كلفنا شحنها إلى الوطن أكثر من قيمتها الفعلية بكثير؛ لكنها كانت جميلة جداً وما تزال تحتفظ حتى الآن بوزنها وقيمتها. حتى في تلك الفترة البعيدة، كانت له رؤية حول الاستديو الذي أراد أن يشيده يوماً ما. في وسط الغرفة، كانت هناك منضدة العمل الخشبية الطويلة المغطاة بالكامل تقريباً بالأدوات وكذلك بقطع وأجزاء من كأس القربان الذي يعمل عليه، والأقداح، وملعقة صغيرة للأطفال مع مجسم لفيل على المقبض. كانت هناك

أدراج صغيرة من الخشب ملأى بصحائف من الأوراق الذهبية والكرات الزجاجية المنفوخة، وبعضها كانت عليه مجوهرات ملونة. كما كانت هناك صحائف من النحاس ولفائف من الذهب وقطع من الفضة ومنشار للمعادن وعِدّة كبيرةٍ وأخرى صغيرةٍ للّحام. أما فوق المنضدة فقد كان هناك مصباح إنارة قوية. وكان الجدار المبني من الآجر مغطى بالأدوات التي تتدلى من خطّافات ثبّتها ثيودور بواسطة ثقوب حفرها في حجر الآجر. في وسط تلك الأدوات المُدلّاة من الجدار، رأيت منحوتة إيتيان ديلون التي اشتريناها من مشغل أحد الصاغة، ويعود تاريخ صنعها إلى سنة 1576. اشتريناها في لندن عندما كنت هناك في رحلة من أجل الترويج لروايتي الأولى، وكانت معروضة في إحدى صالات عرض للصور الفوتوغرافية في منطقة ساوث كينسينغتون. كان ثيودور يحلم في إقامة مشغل على نفس شاكلة تلك الصالة. وقد تحقق له هذا الحلم. لم تتغير الأدوات كثيراً، ولم تتغير كذلك حاجيات الصائغ مثل النار والذهب والنوافذ الكبيرة كي تتخللها الإنارة الطبيعية، والموضع الذي يجب أن تكون المنضدة فيه من أجل تجنب تأثير الظل على العمل. كل ما كان يدور في خاطري في تلك اللحظة تمحورَ حول الديون التي نرزح تحتها، والتي يمكن تسديدها بعد بيع بعض القطع المعدنية والمجوهرات الموجودة في الاستديو: مثل حبات الكوارتز الصغيرة وكرات الجاد والتركواز والكهرمان الأسود الفاحم والزمرد والياقوت الأزرق، وحتى أصغر الجواهر حجماً، فهي في المحصلة جواهر. يمكننا توفير نفقات استئجار الاستديو التي تبلغ ألفاً وثمانمائة دولار شهرياً بالرغم من أن من يدفع أجرته الآن هو راعي المشروع ومموله. أنّبت نفسي على الشطط الذي ذهبت إليه بتفكيري. من المفترض أن أكون سعيدة لوجودي هنا، في هذا الاستديو. كنت أعشق هذا المكان.

أين المشروع؟ أخذتني عيناي مباشرة إلى منحوتة ديلون. يمكننا بيع هذه المنحوتة.

قال: «عليك أن تأخذي فترة استراحة. سأصب لك كأساً ثانية.»

قلت: «كيف لي ذلك؟»

«إذاً، أنتِ قلقة.»

«هل كانت تلك مصيدة؟»

قال: «لا أستطيع منعك من القيام بذلك.»

قلت بطريقة دراماتيكية: «كنت أقامر.»

ضحك ورمقني بتلك النظرة التي تحمل معاني الاستفهام.

قلت وأنا أشير بيدي وكأني أقلد حركة الريح، وأطلق زفيراً في الهواء: «طار ألف دولار في الهواء.»

«بماذا كنتِ تقامرين؟»

«بالبن.»

ضحك أكثر.

قلت بصوت عالٍ: «أنا جادة فيما أقول. هل يمكنك أن تستمع إلي بجدية ولو لمرة واحدة؟ أرجوك.» عند ذاك، رويت له كل شيء: أخبرته عن داروين

«الصفقات» وخيارات مادة البن، وسندات الدفع، والديون المؤجلة، وشروط الاقتراض التي لم أفهم منها شيئاً. أخبرته عن الوباء الذي أفسد المحصول في البرازيل وفائض إنتاج البن في الصين، وكمية البن التي تبلغ سبعاً وثلاثين ألفاً وخمسمائة رطلٍ، جميعُ حباتها تدور داخل دوامة في رأسي.

قال ثيودور: «حمداً لله أنك لم تكسبي ربع مليون دولار من صفقة البن هذه. أين كنا سنضع كل هذه الكمية؟»

«أنت تختصر كل المسألة في نكتة. كل شيء بالنسبة إليك يتحول إلى نكتة.»

«لم يكن عليك أن تفعلي ذلك. كما أننا لسنا بحاجة إلى معركة فيما بيننا.»

«لماذا أنت هادئ هكذا دائماً؟»

«لأنني كنت دائماً أعرف إلى أين أتجه. الأمور تكون أحياناً جيدة، وأحياناً أخرى تكون عكس ذلك. نقطة على آخر السطر. أنت بحاجة إلى تنشيط ذاكرتك.»

أمسكت بالملعقة الملصق على مقبضها فيل. كانت مصنوعة من الفضة. خرطوم هذا الفيل مرفوع ومنثنٍ باتجاه الأعلى، وعلامات السعادة بادية على محيّاه. تلك الملعقة الصغيرة كانت ملعقة للأطفال. تصورت أنه قام بتصنيعها كهدية لإحدى الفتيات على سبيل هدية بمناسبة عيد ميلادها. كان يصنّع لهم دائماً دمى غريبة الأشكال، دمى قابلة للتحول للأطفال الرضع، إضافة

إلى أنواع من الدمى التي تحدث قعقعة وأصواتاً عند تحريكها. كان يحب الفيل على وجه الخصوص لأن شكل فمه كان يوحي بأنه سعيد. لماذا لم يتمكن من بيع مثل هذه الأشياء الطريفة بأسعار معقولة للمحال التجارية الأنيقة في منطقة ويليامزبيرغ، والتي انتشرت في كل مكان كالورود البرية؟

لا توجد قطعة في هذه الغرفة إلا كان هو من صنعها بيديه. تذكرت استديو ثيودور الصغير الحجم؛ ذلك الاستديو الذي كان يملكه عندما التقيت به أول مرة. أحسست بأن ذلك المكان كان يطبق على صدري: بدءاً برائحة المعدن المنصهر، والمئزر الجلدي الثقيل الذي كان يرتديه، وأصابعه المحترقة، ونثرات الذهب في شعره. تداعت إلى فكري كل المصطلحات والأسماء المتداولة حينها: الرؤساء، والغلاظ الشداد، والمتهتكون المعربدون، والمُتَخَفّون وراء الأقنعة والتماثيل الزجاجية المصقولة، والحبيبات على نمط صاغة كاستيلاني الذين كانوا يمارسون المهنة بنفس أسلوب الصاغة الإيتروسكانيين، والأفيال المذهبة. كنت مهتمة بكل ذلك: أعني كافة الأشكال الفنية والجماليات التي جاءتنا من الإغريق العظام. بدا وكأن بالإمكان خلق حياة خالصة، فقط من خلال الفن. هذا ما كانت عليه الحال لقرون عدة. يمكن لهذه الظاهرة أن تعود من جديد. كان محقاً: كنت أخشى من إلقاء نظرة على المشروع. لكنني رأيته للتو في نهاية الطاولة، مغطى بقماش من المخمل.

«الآن، هنا وفي هذا المكان، دعنا نتفق على أن لا نتصادم مع بعضنا بعضاً هذه الليلة. أعدكَ بذلك. يمكننا أن نفعل ذلك طيلة يوم الغد.» صبّ مزيداً من الشمبانيا التي احتسيتها بسرعة شديدة. بدوره، تابع قائلاً: «صحيح؛ أما الآن فدعيني أريك ما الذي أنجزته حتى الآن.»

عصب عينيّ وقادني باتجاه المنضدة. قال: «افتحي عينيكِ.» رفعت غطاء المخمل، فوجدت التمثال هناك. كان منتصباً تحت ضوء المصباح. كان مصنوعاً من الزجاج المصقول المطعّم بأحواض مذهّبة وبعِرْق اللؤلؤ الذي يوحي بأنه ممتلئ بالماء. كان ارتفاعه يبلغ قدماً ونصف القدم. وكانت قاعدة التمثال تشبه جذع شجرة غير مشذبة، وكان التثلم فيها يظهر على المعدن الممزوج بالنحاس. وكانت مجموعة من الحيوانات تحيط بأطراف قاعدة التمثال؛ وهي من النوع المألوف في أمريكا الشمالية كالدب والأرنب والأيل والذئب والحصَون، إضافة إلى طيور حطت فوق الأغصان المتفرعة من الجذع، وسنجاب. أما المنطقة التي تلتقي فيها الكأس بالجذع، فإن هذا الأخير يبدو وكأنه مقطوع قليلاً، كما لو أنه مكسور أو على وشك أن ينكسر، وكما لو أن صَبَّ كمية كبيرة من السوائل فيه قد يتسبب في قلبه رأساً على عقب. المسألة برمتها تتعلق بمبدأ التوازن، أو ربما القدر. وكان داخلُ الكأس يتكون من منحوتات من السمك. على أطراف الكأس من الداخل هناك حيوانات غريبة كالفيل والزرافة والنمر وحمار الوحش منقوشة بعناية. أما الخطوط التي تَسِمُ حمار الوحش فهي مطعّمة بالكهرمان الأسود. لم يكن قد انتهى من نحت حمار الوحش بعد، لكن معالم الصورة النهائية له كانت قد اتضحت. كانت الحيوانات تلك تقتات على الرمان الأحمر الداكن وحب الديس اللازوردي اللون؛ وكانت أعين الحيوانات ما تزال حفراً بانتظار أن يتم ملؤها. أما الغطاء العُلْوي للكأس فكان مدوّراً. عند التمعن في تفصيلات هذا الغطاء، يمكن تبين خريطة العالم عليه بقاراته وبحاره ومحيطاته مرسومة بزركشة دقيقة جداً. كان ذلك المجسم رائعاً. لم يكن قد انتهى بعد، لكنه كان رائعاً.

قلت: «لا عجب في أن هذا العمل قد استغرق وقتاً طويلاً. سوف يحبونه. أما الكِسر في الغصن، فأرى أنه يمثل لفتة في غاية البراعة.»

قال وهو يلفني بذراعيه من الخلف: «إنه مشروع صغير أعمل عليه.» هذه هي الصفقة الحقيقية. سوف تجد هذه الصفقة طريقها إلى التنفيذ. فهمت أن هذه هي الطريقة التي تسير فيها الأمور، وأنها ستكون دائماً كذلك. لا تحتاج الحيوانات إلى أكثر من عيون توضع في الحفر المخصصة لها في المنحوتة. قصدتني طالبتي بعينيها الباكيتين اللتين تشبهان عيني ظبي ترمقاني بنظراتهما، وشعرِها المتموج والجدية البادية على محيّاها، وبدأت أنا بالضحك – أكثر بكثير مما كان الإلهام الذي أتمتع به يجيز لي. لكن هذا ما كان يحدث. كنت أمر بتجربة إلهام. قبّلني ثيودور في رقبتي وجذبني باتجاهه.

قال: «لم يكن في نيتي أن أجعل كأس القربان يبدو مضحكاً؛ لكن يمكنك أن تستمري في ضحكك.» كان يضحك هو أيضاً. لم تكن لديه أدنى فكرة عن السبب الذي دعاني إلى الضحك. طلب إلي أن أشرح له سبب ضحكي. كان هذا مصدر راحة بالنسبة إلي؛ كان بمثابة انعتاق بالنسبة لي. كان الضحك يتدفق مني كما لو كان رسماً تمثيلياً لما مررت به في هذا اليوم الذي يشبه أي يوم خارج السياق – وهو واحد من العديد من الأيام المكدسة فوق بعضها بعضاً كي تشكل بمجموعها ما يمكن أن نطلق عليه اسم «الحياة» لا علاقة للواحد منها بالآخر، لكنني أنا من قامت بخلق علاقة فيما بينها من خلال سخفي، ونزوعي الطبيعي نحو القلق. أبلغت طالبتي أن الموقف الذي وضعت فيه الشخصية في القصة لم يكن غير مألوف. كنت ما أزال أرى تلك الصدمة في عينيها الداكنتين اللتين تحيطاني بنظراتهما

وتحدقان بي كما لو كنت أمامها هناك في ذلك الوضع المشين. ضحكت أكثر فأكثر.

قلت: «آه يا ثيودور.» أخبرته بحكاية طالبتي وقصتها. قلت: «قلت لها بكل ما استطعت من منطق مهني أن هذا الموقف ليس غير مألوف؛ فرمقتني بأغرب نظرة يمكن تصورها، كما لو كانت تحدق بي وأنا عارية أمامها. ولكن يا ثيودور، الآن فقط فهمت ما كانت ترمي إليه في قصتها، وهو أن صديقها كان يجامعها بطريقة منحرفة.

قال ثيودور بصوته المهني المعهود: «هذه الطريقة ليست غير مألوفة البتة.» بعد ذلك مباشرة بدأنا نضحك سوياً أمام كأس القربان الذي يمثل العالم الذي التُقِطتْ صورته قبل أن ينهار أو بعد أن انهار، مباشرة. تم طرح السؤال الكبير. لكن العالم الآن كان مُلكُنا نحن، وانزاحت كل مظاهر القلق التي انتابتنا هذا اليوم. سيكون كل شيء على ما يرام؛ وكان زوجي، زوجي هو من سينقذ الموقف.

الفصل التاسع

رحلة الترويج للرواية. كلنا سمعنا بمثل هذه الرحلات: الكاتب يقرأ مقاطع من روايته على الجمهور المكون من ثلاثة أشخاص أو شخصين أو شخص واحد، أو ربما لا أحد. تطيرُ عبر البلاد من ولاية إلى أخرى حتى تصلَ إلى كاليفورنيا، فتشعر بأهميتك. تركب سيارة يقودها سائق خاص إلى دار بيع الكتب، وحولك مجموعة من المرافقين الأدبيين. هناك لافتات تغطي جدران دار البيع تعلن عن الفعالية التي تبدأ الساعة السابعة مساء التي تكون أنت محورها. يعلن صوت في مذياع الدار ما يلي: «سوف تلتقون بإنديا بالمر في قسم الأطفال. سوف تقرأ مقتطفات من روايتها الجديدة: «جيل النار» وسوف تقوم بعدها بتوقيع نسخ الرواية. سوف يبدأ العرض بعد خمس دقائق.» هناك، بضع عشرات من الكراسي محشورة في قسم الأطفال بين صفوف من مجلات «مازي» و«أوليفيا» و«ستيتش» و«غودنايت مون» [28] أمام هذا الكم من الكراسي هناك طاولة عليها مايكروفون وكومة من روايتك مرتبة فوق بعضها بعضاً بعناية؛ والبعض الآخر منها معروض في الواجهة بشكل دائم.

تجلس سيدة عجوز في الصف الأخير. استغرقت رواية «جيل النار» ست سنوات كي تكتمل! حسنٌ. تفكر بشجاعة: يجب أن يستمر العرض. تلاحظ أن تلك السيدة العجوز تخرج شيئاً من كيس ورقي تحمله. تُخرِج علبة تنك وتضعها في يدها المليئة بالعقد، والتي تعاني من التهابات في المفاصل؛

28 - Mazy, Olivia, Lilo, Stitch, Goodnight Moon

وتحاول بيدها الأخرى نزع غطاء العلبة. أما شعرها فهو طويل وأبيض وأشعث. وبالرغم من العديد من الصفوف التي تفصل بينك وبينها، فإنك ستلاحظ أن العلبة التي فتحتها تحتوي على سمك التونا. تفوح رائحة السمك الزيتية وتصل إلى أنفك. تبدأ بالتهام محتوياتها بواسطة شوكة بلاستيكية قامت بسحبها من إحدى ثنيات ثوبها.

هيا نبدأ! تقرأ لها. تقرأ بكل ما أوتيتَ من انفعالات. هناك أيضاً شخص آخر في الجمهور: فتاة شابة وصلت متأخرة بعض الشيء. عندما تنتهي من قراءتك، ترفع يدها بمنتهى الجدية. تسأل أنت: «نعم؟» عيناها تلمعان وبشرتها تتلألأ بمراهقة الشباب. قوامها رياضي البنية وتعلو وجهها مسحة من البراءة التي تجعلك تشفق عليها. تقول: «لدي واجب مدرسي علي القيام به في مقرر الأدب الإنجليزي. يتعين عليّ إجراء مقابلة مع أحد الكتّاب. هل تسمحين لي بإجراء مقابلة معك؟»

المحطة التالية: مدينة ممفيس! مهرجان الكتاب. كُتّاب، العديد من الكُتّاب الذين يمشون مُصعِّرين خدودهم للناس. كتّاب وفدوا من كل مكان بمختلف الأحجام والأشكال. المشهورون من بينهم تم عزلهم بعيداً كي يظهروا في فعاليات خاصة يحضرها فقط المدعوون في صالات خاصة، وتتم مرافقتهم عبر الأبواب الخلفية مثل نجوم موسيقى البوب باستثناء «فتاة الساعة المتوّجة» في العالم الأدبي. هناك سيدة في الخمسين من عمرها (ما زال لدينا أمل) كل ما ترتديه هو باللون الأخضر: الثوب والجوارب والعقد والكنزة ونظارات القراءة والقبعة – لها ولع في الانخراط في صفوف الجماهير بجرأة وترغب في أن تكون تحت الأضواء. تريد أن تكون محط إعجاب الجميع. لم تنل حظها

من الشهرة بعد. أما الآخرون فهم الكتّاب العاديون وكتّاب اليوميات. إنهم مذهولون ومتحفظون حول ما يجري من حولهم. يرتدون ثياباً أنيقة ولافتة؛ شعرهم طويل معقوص على شكل عُرْفٍ متباه، وقد يكون شعرهم مسرّحاً أو غير مسرّح؛ أما المتقدمون في السن من بينهم فإنهم يردّون شعرهم الطويل إلى الخلف كذيل الفرس؛ هناك أيضاً الفنانون الذين تشمئز النفوس من مظهرهم القذر، أو تكاد. بعضهم الآخر حليقو الذقن؛ هناك أيضاً الخيال الفاتن لوجه ذلك الشاب المتأنق من دالاس، والرجال من ذوي اللحى التي تشبه لحية المعزاة، وهناك أيضاً أصحاب اللحى الكثة، والرجال الذين يرتدون سراويل تغطي الردفين حتى القدمين، وأصحاب السراويل الضيقة، والمتأنقون المعجبون بأنفسهم، والفتيات المرتديات ثياباً خليعة (وهي ثياب ذات مفعول جيد!). كل هؤلاء يُظهرون الحماسة والامتنان لهذه الدعوة. يشكل الكتّاب فيلقاً كاملاً غالبيتهم الساحقة هم ممن لم تسمع بهم قبل في حياتك. الكتّاب منتشرون في كافة أرجاء المكان حاملين نسخاً من كتبهم المدون عليها ملاحظات وهوامش من أجل استخدامها كدليل يوجه القارئ نحو أفضل الطرق لقراءتها بشكل يخدم الغاية المرجوة منها.

هل تعلمون أنه يوجد في الولايات المتحدة شخص من بين كل ثمانية أشخاص يزعم أنه كاتب محترف، وأن معدل الدخل التقريبي لكل واحد من هؤلاء لا يتجاوز ثمانمائة دولار في السنة؟ هنا، وفي هذا المكان يختلط الحابل بالنابل؛ جميعهم على منصة العرض في ممفيس يجوبون أروقة وقاعات مركز الاجتماعات المزخرفة جدرانه بالجص في فندق الماريوت. يركب الكتّاب في مصاعد الفندق الزجاجية إلى الصالون الموجود على سطح الفندق من أجل

ارتشاف جرعة أخرى من الفودكا أو المارتيني بانتظار أدوارهم كي يقدموا ما في جعبتهم من إبداعات. في إحدى الزوايا، يقبع ذلك الشاعر الاستعراضي من لاتفيا بانتظار إلقاء قصيدته حول البؤس العنيف. وهناك أيضاً ذلك الثمِل من كينتاكي يتحدث إلى تلك الشابة النكرة من مانهاتن التي أنهت لتوها روايتها الأولى. ينحني فوقها بحيث يكاد يلتصق بها، ويؤكد لها أنها ستحقق نجاحاً باهراً؛ فقد اطّلع على المقالات النقدية حول روايتها في مجل«ذي مونت» و مجلة «برنش»[29]. تطلق ما يشبه زقزقة عصفور طافحة بالبهجة وموحية بالغزل، وتنظر إليه بمنتهى الجدية. أغرق السوق برواياته التي كان يصدر واحدة منها كل سنة. إنها نفس القصة: مبيعات محدودة للغاية. هيا نبدأ! هنا، يشعر الكاتب بأنه ملك. هنا، الكاتب هو الحاكم بأمره. هنا، سيُسمَعُ صوته. إلى هنا، يأتي محبّو الروايات بالمئات من مختلف الجهات في الولاية. إنهم يعملون كمتطوعين، يبيعون الكتب ويشترونها، ويعرّفون بالمؤلفين ويقلّونهم من المطار إلى الفندق، ثم إلى المطار.

المفصل الأهم في الحدث الكبير يتجسد في جلسة النقاش، وعنوانها: «خيانة المهنة الروائية في مشهد الحلم الأمريكي.» بعض المشاركين في جلسة النقاش يتغيبون عن الجلسة؛ مدير الجلسة يتغيب هو الآخر عن الحضور. لا يوجد سوى ثلاثة أشخاص في مقاعد الجمهور. وهؤلاء يأخذون قسطاً من الراحة مستخدمين الكراسي لكي يزيحوا عن كواهلهم عناء التنقل من حدث إلى آخر. بالطبع، عليك أن تقرأ مقطعاً من روايتك؛ وهو المقطع الذي يتناول موضوع الخيانة بالطبع. يرتطم صوتك بالجدران ويرجع صداه في

The Month, Punch - 29

القاعة الخاوية من الناس. يبدو الجمهور وكأنه يصيخ بانتباه؛ إنه جمهور جيد. أحد الأشخاص في الزاوية يدوّن بعض الملاحظات.

تستمع إلى صوتك المخنوق وأنت تسأل: «هل هناك أية أسئلة؟» تمر لحظة كأنها الدهر تتخيل فيها أنك أنت من سيرفع يده طلباً للسؤال.

يرفع الرجل الجالس في الزاوية، والذي يدون الملاحظات، يده. (الأشخاص الثلاثة مبعثرون في صفوف مختلفة.)

يسأل: «هل هذا نثر روائي أم غير روائي؟» عيناه رماديتان وشعره أشيب ووجهه ذو ملامح استفزازية وقاسية؛ وهي ملامح صممت كي تثير الاستياء، كما يتبين لك لاحقاً. يتابع قائلاً: «هل زوجك تزوجك أولاً ثم تزوج أختك، أم أنه تزوج أختكِ أولاً ثم تزوجك؟»

كان لهذا السؤال وقع المفاجأة الشديدة؛ ومع ذلك، كان لا بد لك من أن تحافظ على البرودة التي يجب أن يتحلى بها المبدع الأدبي، فتسأل: «هل تقصد في سؤالك أن الرواية هي شكل من أشكال السيرة الذاتية؟»

«حسنٌ. باختصار، دعيني أكون صريحاً معك للغاية. حسنٌ. أجل، أجل أود أن أعرف. أريد أن أعرف مثل هذه الأشياء؛ فهي تجعل القراءة ممتعة أكثر بشكل أو بآخر.»

تُجيب: «طالما وضعتَ الصورة على هذه الشاكلة، دعني أسألك سؤالاً واحداً: أيُّ الأختين تظنني؟»

يقول وهو يربت على وجنته: «الأخت الخائنة بالطبع.»

تقول: «أصبت كبد الحقيقة فيما يتعلق بالنسخة غير السردية من القصة.»، تصفقُ أنتَ بعدها، ثم يتبعك الثلاثة الآخرون بالتصفيق.

في طريق العودة إلى المطار، كانت هناك امرأة متقدمة في السن قد ألّفت كتاباً يتضمن سيرتها الذاتية التي تتمحور حول علاقتها بقطتها؛ تخبرنا هذه السيدة كيف أنها نسيت أن تحضر معها نسخة من كتابها إلى المؤتمر، وبالتالي فقد وجدت نفسها مرغمة على اجتراح قراءة منه بشكل ارتجالي: «كان الأمر في غاية الصعوبة. أنا منهكة تماماً. ما قمت به كان أداء تمثيلياً. إنهم يتطلبون منك الكثير. أشعر بأنني انتهيت.»

تتساءل: من هم الذين يتطلبون منها هذا الكثير؟

تقول: «كنت أتمنى أن أتحدث عن قطتي أنا.»

تظهر أول مراجعة نقدية لرواية «جيل النار» بعد مرور ستة أسابيع على صدورها. تُنشَرُ هذه المراجعة في مجلة «فري مومنت»[30] بقلم مخلوقة مسكينة مُجهَدة مقابل أجر زهيد. تستخدم هذه المخلوقة الفصول الثلاثة الأولى من الرواية (التي توقفت كاتبة المقال عن قراءتها منها عند نهاية الفصل الثالث) كمنصة انطلاق لهجوم مرير على صديقها. تعودت على مشاهدة هذا النوع من الأداء كل أسبوع أو أسبوعين على الأقل من واحدة أو اثنتين من مقالات طلبة الدراسات الأولى الذين أشرف عليهم؛ ومثل هذه المقالات

30 - Free Moment

تبدأ بافتتاحية متعجرفة تتناول مسألة كبيرة مثل: «بداية الزمن» على سبيل المثال، أو في مثل هذه الحال: «الأدب الأمريكي»، ثم تغيّر وجهتها باتجاه الكاتب المسكين معتبرة إياه «الدليل (أ) على كل ما هو خطأ». يلي ذلك قلب المقالة الذي هو عبارة عن ثلاثة مقاطع تعكس قراءة خاطئة متعمدة للرواية. يتبع ذلك مقطعٌ تخطُّ فيه كاتبة المقالة عبارات وجُمَلٍ أفضل من أي شيء كتبته أنا خلال سيرتي المهنية؛ هذه السطور لا تبارح مخيلتي وتستحوذ على تفكيري؛ إنها سطور تمثل ما هو أبعد مني ومن قدراتي الطبيعية على التعبير، وشكّلت من خلال إصراري ومتابعتي، ما يشبه مكافأة لي لأنها استوطنت في مناطق مختلفة من روايتي. هذه الجمل نفسها هي التي هزت ثيودور من أعماقه وكانت بمثابة ضربات بكعب المسدس وجّهتها لي كاتبة المقالة.

«تأمّلوا السيرة المهنية لإنديا بالمر إذا أردتم أن تعرفوا المنزلق الذي هوت إليه الرواية الأمريكية. الدرجة المستحقة: رسوب.»

أنا أتقبل درجة «مقبول»؛ أما درجة الرسوب؟

هي دارٌ لطيفة وصغيرة لبيع الكتب في شيكاغو. كل الكتب الموجودة فيها منتقاة بعناية وبشكل متأنٍ وشخصي، ومقروءة مسبقاً من قبل صاحب الدار ومساعِده اللذين يشكلان ثنائياً مرِحاً: أحدهما مكتنز والآخر نحيف؛ أحدهما يضحك بصوت عالٍ، أما الثاني فيضحك بشكل متحفظ. مجموعة من خمسة أشخاص متواجدين الآن في الدار للاستماع إلى قراءة مقتطفات من رواية «جيل النار» سيقررون بعدها فيما إذا كانوا يريدون اقتناءها. سيكون

قرارهم مبنياً على المقطع الذي سأقرؤه منها. يعلق أحدهم بابتسامة ماكرة: «لا نرمي إلى ممارسة أي ضغط عليكِ.»

يقول صاحب الدار بصوت صاخب: «كانت ليلي ستار هنا الأسبوع الفائت. ذكرت لي أنها صديقتك. إنها رائعة وموهوبة. كانت الدار مليئة عن بكرة أبيها؛ ولو قيّضَ لي استضافتها للتوقيع على نسخ الغلاف الورقي للرواية، فأعتقد أننا سنضطر إلى بيع بطاقات لحضور حفل التوقيع.»

واشنطن العاصمة: الجمهور مكوّن فقط من أبي وأمي. تكيل أمي المديح لهذه الدار، وكم هو مهم أن يطلب إلى المرء أن يقرأ مقاطع من كتاباته هنا. ولكن من المؤسف أن الطقس خذلنا لأن هذا المساء الرائع يشجع الناس على الخروج إلى أماكن سهر مفتوحة.

مدينة نيويورك: دار بيع الكتب ممتلئة عن آخرها بالجمهور. ثيودور يدعو كل أصدقائنا وأبناء عمومتنا وأولياء أمور الطلبة في مدرسة ابنتينا. آل تشابمان يدعون الجميع إلى حفل شراب بعد الحدث.

في المدرسة التي ترتادها ابنتاي، تسأل إحدى الأمهات: «هل فاتتني أيٌّ من هذه المقالات النقدية؟» تنشر إحدى الصحف في اليوم نفسه خبراً مفاده أن ليلي ستار هي الفائز في جائزة واشنطن لهذه السنة. بعد ثلاثة أيام، تنشر الصحيفة أنها رُشّحت لنيل أرفع جائزة، وهي جائزة «آيزمان للجزّة الذهبية»[31]

The Eiseman Golden Fleece - 31

منتصف الليل: أنا على متن سفينة نقل الركاب العالية السرعة في طريق عودتي إلى المنزل بعد قراءتي مقاطع من الرواية في دار النّشر «ليتل سيلفر»[32] روز بولاية نيوجيرسي. كنت وحيدة؛ كل زبائن السفينة الذين يستقلونها يومياً من أعمالهم وإليها يرقدون الآن بسلام في أسرّتهم. الظلام دامس في الخارج في الوقت الذي تمخر السفينة بنا عباب الأطلسي. إنها تمطر لكنني لا أستطيع رؤية المطر بسبب الظلام. لا أستطيع رؤية أي شيء عبر النافذة؛ أما داخل المقصورة، فالأضواء ساطعة. كانت القراءة قد أعطت انطباعاً حسناً. كانت هناك ثلاثون سيدة في الجمهور، وكان هناك العديد من الأسئلة. هكذا تصبح عليه الأمور وتجعلك مفعماً بالأمل. قالت إحدى النساء: «أهنئك على رائعتك. لقد قرأت كل أعمالك، لكن هذه هي الأهم. إنها الأفضل. صدقيني. أنا قارئة. لقد أصبتِ كبد الحقيقة في تناولكِ لمسألة الانفصام الشخصي الذي يحس به المرء مقابل حاجز ما يسمى المتعة في القرن العشرين المنصرم.» لقد قدّروا عالياً عملي في دار النّشر «ليتل سيلفر» واستوعبوه واحتفوا بي لأجله. حسنٌ. لقد كان ذلك بمثابة جائزة ترضية بالنسبة إليّ على أية حال.

نعبر المياه السوداء في منطقة ناروز. يلوح بعدها جسر فرزانو في الأفق. هناك أيضاً مجموعة من الزوارق لكنني لا أستطيع رؤيتها بوضوح. أنا وحيدة في تلك السفينة ذات السرعة العالية أضغط بوجهي على زجاج النافذة. بإمكاني أن أختفي من الوجود بسهولة تامة من دون أن أترك ورائي أي أثر. هل سيسترعي اختفائي أي انتباه؟ مخطوطة ويل تشابمان تسترخي في

---

32 - Little Silver

حضني. الرواية جيدة بالرغم من أنها طويلة. هي من الجودة بمكان لدرجة أنها استغرقت مني وقتاً طويلاً لأكمل قراءتها، ويعود ذلك إلى أنني أستمتع بها من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنني أشعر بالغيرة. ستكون هذه الرواية ضمن قائمة أفضل المبيعات.

ينتصب أمامي فجأة شاب، أول ما لاحظته كان انعكاس خياله على زجاج النافذة. فجأة ومن دون مقدمات، يقول لي إنه في التاسعة عشرة من العمر. يقول لي إن السماء تمطر في الخارج، وإنني بحاجة إلى مظلة. يقول: «من المضحك أنه في ليالٍ كهذه، لا تستطيعين رؤية أي شيء.» يخبرني أيضاً أنه يعمل على متن هذه السفينة كي يعيل نفسه في الوقت الذي يتابع تحصيله الجامعي. يقول أخيراً: «هل يمكنني التحدث إليكِ؟»

أسأله: «ألستَ تتحدث إليّ الآن؟»

يضحك ضحكة خافتة ويقول: «هذا مضحك»، ويتابع: «أنت تجلسين بمفردك.»

أقول: «هذا دليل على دقة ملاحظتك.» يضحك ثانية. نحن تحت الأضواء. كلانا. في خضم تلك العتمة. يفتح مظلة مكسورة ويقول لي إن بإمكاني أخذها.

أقول له: «شكراً لك. أين الجسر؟»

يقول: «هناك.»

«حقاً؟» أضغط بوجهي على زجاج النافذة من جديد، ولكن لا أستطيع رؤية أي شيء في الخارج.

«حسبت أنك قد ترغبين في بعض الرفقة.» هو يريد أن يتكلم، لذلك تركته يفعل. «هذه آخر رحلة ليلية للسفينة. مانهاتن تعني نهاية الرحلة. أحب هذه السفينة. هل تسافرين على متنها غالباً؟» ينظر في عينيّ مباشرة. إنه فتى رائع، ليس فارع الطول، لكن جسمه رياضي، ومفعم بالحماسة وحب الحياة؛ وهو ما يطفح به وجهه؛ إضافة إلى تلك البراءة اللا متناهية التي تبدو وكأنه قد تعرّف مسبقاً كيف يتحرك العالم بأسره كما لو كان في سباق، وفي أي اتجاه. «يعلّمني هذا القارب كل ما أريد أن أعرفه؛ هل تعرفين ذلك؟ هذا ما يفعله هذا القارب. من المدهش كيف يمكن لقارب أن يعلّمك ما تريدين أن تتعلميه. الأشخاص الذين يركبون على متنه هم رؤساء أولئك الذين يستقلون قطارات الأنفاق والحافلات والقطارات. الأشخاص الذين يركبون على متنه هم من القطط السمان. إنهم يدفعون سبعمائة دولار شهرياً فقط ليركبوا هذا القارب للحاق بأعمالهم. يصلون إلى هنا وأمارات التعب والإنهاك على وجوههم. كما يتصرفون بنفاذ صبر ونزق وردّات فعل عصبية. أتفرس في وجوههم وأشعر بالشفقة عليهم. وبالرغم من كل الأموال التي يملكونها فإنهم يبدون لي وكأنهم من فصيلة القوارض التي لا تشبع.» يتوقف قليلاً، ثم يسألني: «هل تمانعين في أن أتفوه بمثل هذا الكلام؟»

«بالطبع، لا.»

«بالمناسبة، لماذا أنتِ على متن هذه السفينة ؟»

«قمت ببعض القراءة في دار دار النّشر «ليتل سيلفر» هذه الليلة.»

«قراءة؟»

«أنا كاتبة.»

قال بدهشة حقيقية لأنه لم يكن ذلك الفتى الذي يتحدث بسخرية: «صحيح، أنت كاتبة؟ هذا رائع. يبدو أن المسألة لها علاقة بالقَدَر. هل تعلمين أن عندي فكرة تصلح لأن تكون نواة لرواية؟ هل تريدين سماعها؟»

أرد بأدب: «بالتأكيد.»

«إنها تدور حول فنان؛ فنان انتابه القرف من كل أدعياء الفن، القرف الحقيقي من هؤلاء المحتالين، وهم كما تعلمين الأشخاص الذين يقولون إنهم فنانون لكنهم ليسوا كذلك؛ فكل ما يسعون وراءه هو الدولار؛ وهم من النوع الذي يكسب ذلك الدولار، أو كمّاً كبيراً من الدولارات لأن الناس يصدقون أن مثل هؤلاء هم الفنانون الحقيقيون؛ وهؤلاء ينجحون في إعطاء مثل هذا الانطباع لأنهم يعرفون المدخل إلى ذلك، ويعرفون كيف يسوّقون أنفسهم. حسنٌ. أما الفنان الحقيقي فلا يمكن له أن يقبل مثل هذه النماذج. الفنان الحقيقي هو على شاكلة جاكسون بولوك أو جونز، أو، اللعنة، على شاكلة، حتى بيكاسو. إنه ماكوي الحقيقي. حسنٌ. إنه يتفوق على كل أولئك المحتالين ويشتت شملهم في الحانات والحفلات الفنية وصالات العروض الفنية، وفي أي مكان يستطيع الوصول إليه. بعدها يستخدم دماءهم مادة لرسوماته، وستكون رسومات رائعة مادتها دماء أولئك المحتالين. ما رأيكِ؟»

أسأله: «هل يقوم بقتل جميع أولئك المحتالين؟»

«لا، لا . هو بالتأكيد لا يقوم بقتلهم أبداً. فما يبتغيه هو فقط دماؤهم. يضربهم بقليل من العنف، لكنه لا يقتلهم.»

«أقول له: «إذاً أنت كاتب. تكتب في النهار وتعمل على السفينة في الليل؟»

«لا.»

يثير هذا الجواب بالنفي فضولي فأسأله: «إذاً أنت رسام؟»

يرد قائلاً: «أنا مجرد مستخدم على هذه السفينة ما يساعدني على إكمال تحصيلي الجامعي. أتطلع إلى بناء جسور صغيرة؛ لا أقصد جسوراً كبيرة بل تلك الجسور التي تساعدك في العبور فوق الجداول وما شابه ذلك. أنا أتعلم هذه المهنة في الجامعة. أريد أن أتعلم فعلياً كيف أفعل شيئاً، أتعلم كيف أصنع الأشياء بيدي، بعكس جميع من يركبون هذه السفينة. لا أحبهم مطلقاً. هؤلاء الذين يركبون على متن هذه السفينة هم أشبه بالقطيع الذي يتجمع أمام البوابات؛ يحتشدون إلى أن يسمح لهم بركوب السفينة. ليست لديهم كرامة، فهم يتدافعون أمام البوابة ثم يهرعون داخلها كي يظفروا بمقعد يجلسون فيه، وينتظرون إلى صباح اليوم التالي كي يعيدوا الكرّة من جديد. هذا ما يقومون به يومياً. لا تبدو على محيّاهم ملامح السعادة، فلا ابتسامات تعلو وجوههم. أتعرفين مَن رؤساؤهم في العمل؟ إن رؤساء هؤلاء هم الذين تقلّهم طائرات الهيلوكبتر إلى أعمالهم. ثم يصلون هم بعد ذلك إلى مواقع

أعمالهم. هؤلاء هم في مقدمة ذلك القطيع. هذا ما يريدونه. لك أن تتخيلي ذلك.» يمشّط شعره إلى الخلف بيده مستخدماً زجاج النافذة كمرآة. يقوم بعد ذلك بإنزال سحّاب بنطاله ويفكه من أجل ترتيب قميصه تحت البنطال.

يقول: «إنهم مجرد قطعان.» ثم يسألني قائلاً: «هل أحببتِ فكرتي؟»

الفصل العاشر

في الأيام الخوالي، كما يحلو لابنتيَّ أن تصفاها؛ أي منذ خمسين أو ستين سنة، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة، كان الرهن العقاري مسألة بسيطة نسبياً. فقد كان الناس يودِعون أموالهم في المصارف المحلية مقابل فوائد بسيطة. وكانت المصارف بالمقابل تمنح قروضاً بمعدلات أعلى؛ كانت هذه القروض في أغلب الأحوال منْ أجل شراء مساكن على أساس الرهن العقاري. كانت الأرباح بطبيعة الحال تعود إلى المصارف. كانت الرهانات العقارية قبل الحرب أكثر تعقيداً نسبياً. كان الناس المدفوعون بعامل الخوف يهرعون إلى المصارف من أجل الحصول على سندات القروض، وهذا يعني أن المصرف له كامل الحق وتحت أية ذريعة بالمطالبة باسترداد الدين في أي وقت يشاء. هذا الأمر جعل من موضوع الاقتراض أمراً شبه مستحيل بالنسبة للعائلة المحدودة الدخل. أما بعد انتهاء الحرب، فقد تغير كل ذلك. فقد تدخلت الحكومة بقوة أكبر، ونتج عن ذلك طرح سياسة إسكان تمكنت من تمويل جزء كبير من الرهانات العقارية من أجل شراء المنازل، ما جعل هذه المساكن في متناول يد الجميع تقريباً (ما عدا الأمريكيين من أصول إفريقية لأن الاعتقاد كان سائداً بأنه إذا شملهم هذا المشروع فسوف يخفض ذلك من قيمة المساكن إلى حد كبير، ما يجعل عملية الإقراض مخاطرة غير مضمونة العواقب). يقوم زوجان شابان بزيارة مصرف المدخرات والقروض المحلي، ويقدمان كشفاً بوضعهما المالي إلى الموظف المسؤول عن الإقراض. الزوج يعمل في السوق المالية، وهو ينتقل يومياً بين مسكنه ومكان عمله؛ أما الزوجة فهي سيدة منزل. أجل، إنهما يخططان لتكوين عائلة، وسوف

يسكنان في أحد المنازل بعد فترة وجيزة. يحتاجان إلى ثلاث غرف للنوم، ويرغبان في أن تكون كبيرة. المنزل الذي يريدانه يقع في الحي الذي توجد فيه المدرسة المحلية. هذا رائع. الأشجار مزروعة على جانبيْ الشارع؛ المنزل بجانب المنزل، وكوة البريد بجانب كوة البريد، والممشى بعد الممشى. إنها الضاحية الأمريكية النموذجية حيث السياج يحيط بكل واحد من هذه المنازل إضافة إلى المروج العشبية الزمردية اللون، والمِرشّات المائية المتحركة، وربما أيضاً عوارض لكرة السلة في الممشى الجانبي للمنزل ومسبح وألواح وعوارض خشبية تمتد داخل البحر، وسياج مدعم بأوتاد، وبيت وردي اللون لكلب المنزل؛ كل هذا ترجمة للمنزل الحلم. إنهما زوجان وسيما الشكل، وسوف يكون لهما أولاد بهيّو الطلعة؛ سوف تكبر هذه العائلة في هذا المنزل، ثم يغادره أفرادها فيما بعد. سوف يضطرون إلى زيادة عدد الغرف بحيث تصبح أربع أو خمس غرف نوم. ثم سيغادر الأولاد يوماً ما، المنزل. المنزل في تلك الضاحية الصغيرة، وفي ذلك الشارع الراقي، كبير جداً، وقيمته الآن أكبر بكثير من المبلغ الذي اشتروه به. يبتسم الزوج والزوجة لبعضهما بعضاً كما لو أن ثلاثين سنة من عمريهما لم تكن قد مرت بعد — كل تلك الذكريات وكل تلك الأرباح!

لنعد ثلاثين سنة إلى الوراء. أمام الموظف المسؤول عن الإقراض وقف الزوجان اللذان كان يتملكهما شيء من الخوف والعصبية (الزوجة ترتدي قفازين جلديين رقيقين، أما هو فكان يعتمر قبعة خفيفة). مُنِحَ الزوجان قرضاً بقيمة ثلاثين ألف دولار مدة سداده تبلغ ثلاثين سنة بفائدة ثابتة مقدارها 10،8 بالمائة. الزوج وموظف الإقراض يتناقشان في التفصيلات، أما

الزوجة فتفكر بصمت في أنها أو أنهما حققا قفزة عملاقة باتجاه أعلى السلم الاجتماعي. كانت تؤمن دائماً بالأفضل.

الأفضل: هذا يعني رأسمال اجتماعي واقتصادي، وتخفيضات ضريبية مجزية سوف تساعدهما في جني ثروة، والحصول على تعليم أفضل بالنسبة لأطفالهما، والحصول على الإنصاف بحيث يمكنهما إرسال أولادهما إلى جامعات خاصة، ويوفر لهما فرصة الادخار لمرحلة ما بعد التقاعد، ومنح أولادهما جزءاً من هذه الثروة. الأفضل: يعني أن هذا المنزل سوف يسمح لهما بتحسين فرصهما في الحياة، وبالتالي فرص أولادهما وأحفادهما؛ وتستمر العجلة في الدوران. لا عجب في أن الزوجة بدأت تتصبب عرقاً بينما كان موظف الإقراض يدقق في الوثائق، ويطرح أسئلة حول راتب زوجها. ثلاثون ألف دولار كانت بالنسبة إليهما مساحة شاسعة. ضربت بعصبية فخذَها بقفازيها الجلديين، ثم تمالكت نفسها، وتوقفت؛ ثم تمالكت نفسها من جديد. كانت هذه بالنسبة إليها هي الحرية: الحرية في أن يتملّكا أرضاً – قطعة صغيرة من أمريكا. النتيجة: الطلب مقبول!

اعتُبِرت المدخرات والقرض بمثابة الضمان للرهان العقاري. كان الزوجان يدفعان الفاتورة الشهرية التزاماً بعقد القرض. استحقا فوائد على القرض، وقبضا الدعم الحكومي وبدأا بتكوين ثروتهما – وكانت صيغة مقبولة من الإقراض والنمو المالي. حقق الزوجان ما كانا يطمحان إليه من مساواة اجتماعية، فقد أضحت كلمتهما مسموعة في الجوار، وأصبح لهما رأي مؤثر وذو ثقل في إدارة المدارس المحلية. كانا يتواجدان في أيام السبت في النادي الريفي – حيث كان الزوج وموظف الإقراض يلعبان جولة من الغولف. ولو

حدث أن واجهت الزوج نقاط ضعف في أية صعوبة، أو فقدَ وظيفته على سبيل المثال، كان يعرف إلى من يلجأ في مثل هذه الملمّات؛ كان يعرف نقاط الضعف في الزاوية التي يمكن أن يهاجمه منها موظف الإقراض، وكان يعرف الإحساس بالإحباط الذي يعاني منه بسبب الضربات القوية المتكررة. كان الزوج دائماً ما يكيل المديح لموظف الإقراض لأن هذه كانت الطريقة الفعالة والعملية: ربما احتاج الزوجُ الموظفَ يوماً ما، طالما أنه وموظف المصرف كانا صديقين ... كانا يلتقيان للصلاة في الكنيسة أيام الآحاد. كانا يصليان معاً كل أسبوع، وهكذا استمرت الحال. لقد تقدما في السن سوياً، وحلّت سبعينيات القرن العشرين؛ حينئذ تغير كل شيء.

لنكن أكثر شخصانية. هل تتذكرون آل هوف؟ هذان الزوجان العجوزان اللذان كانا يملكان ذلك البيت الريفي من العصر الفيكتوري في ولاية مين، وهو المنزل الذي طمعت إيما تشابمان في امتلاكه من أجل إكمال دائرة أحلامها؟ في سنة 1951، اشترت عائلة هوف مزرعة من ضمنها منزل مكوّن من ثلاث غرف للنوم في منطقة ريلفيل بولاية نيوجيرسي. كان السيد هوف يشغل وظيفة دائمة في دار روتجرز[33] للنشر – وكان باحثاً شهيراً متخصصاً في أدب جوناثان سويفت. كان هو وزوجته يأملان في تكوين أسرة. بلغت تكلفة اقتناء المنزل أربعاً وعشرين ألف دولار. ومع تخفيض قدره عشرون بالمائة، استطاع الزوجان الحصول على رهان عقاري بمعدل ثابت لمدة ثلاثين سنة بقيمة تسعة عشر ألفاً ومائتي دولار.

33 - Rutgers

بحلول سنة 1958، ارتفعت قيمة المنزل، ما حقق للعائلة أرباحاً كبيرة؛ ولذلك عندما أصبح سعره في تلك السنة عشرين ألف دولار، تأهلت عائلة هوف بسهولة للحصول على رهان عقاري ثانٍ (كانت السيدة هوف تقضي إجازتها في مقاطعة بوند بوينت منذ نعومة أظفارها). بحلول ذلك الوقت كان السيد هوف قد أحيل على التقاعد، وكانت العائلة حينها قد سددت ثمن كلا المنزلين بالكامل، وأصبحا ملكاً للعائلة لا ينازعهما فيهما أحد. لم يكن من الممكن أن تجعل منه وظيفته في دار روتجرز للنشر ثرياً أبداً. لكن قراره بالاستثمار في الرهن العقاري جعله كذلك. في خريف سنة 2003، اتصل كل من السيد والسيدة هوف هاتفياً بإيما وويل تشابمان بعد أن استقال هذا الأخير من وظيفته بفترة وجيزة ليتحول إلى كاتب روائي متفرغ، وقبل أن ينقضي وقت طويل على لقائي بهما مرة أخرى في الحفل الخيري في متحف الميتروبوليتان للفنون. قال كل منهما على حِدَه لإيما وويل تشابمان في ذلك الاتصال: «قدّموا لنا عرضاً لا نستطيع رفضه.» كان صوت السيد هوف أعمق من صوت زوجته بقليل.

قالت إيما بصوت هو أقرب إلى الزعيق: «هل تعرضون المنزل على البيع؟» إيما التي كانت تقف في المطبخ بمنزلها الكائن في حيّ تريبيكا المطل على القوارب الشراعية في نهر هدسون الذي كان سطحه يشبه الكروم ودرجة حرارته تحت الصفر، قامت بوضع يدها على سمّاعة الهاتف وأطلقت صرخة امتزجت فيها البهجة بالدهشة، ثم رقصت رقصة قصيرة وزفّتْ بعدها البشرى لويل الذي كان على الهاتف بدوره؛ يا لحظّهما الرائع الذي يكاد لا يُصدّق. لماذا كان كل شيء، «كل شيء» يصب دائماً في

مصلحتهما؟ أخيراً، سوف يكون المنزل ملكها. كان ويل يحب أن يراها على هذه الصورة التي تبدو فيها وكأنها تشع سعادة وبهجة. سوف يكون الآن لديه هو متسع من الوقت. سيكون بإمكانهم قضاء أشهر الصيف بأكملها في بوند بوينت، والقيام ببعض الإصلاحات والترميم، لجعل المنزل مريحاً أكثر، وصقل أرض المنزل بالرمل، وتغيير النوافذ، وتحديث المطبخ.

قال ويل: «سنتصل بكم لإعلامكم بقرارنا. هذا خبر مفرح.» استخدم إلى أقصى حد ممكن خبرته المهنية في عقد الصفقات لجعل صوته يتناغم مع حماسته نتيجة سماعه هذا العرض. فكّر ملياً. دلف إلى المكتبة وأغلق الباب وراءه؛ طلب إلى إيما أن تمهله بعض الوقت. «ولكن هل نملك ما يكفي من المال لشرائه؟ وهل هذا قرار حصيف؟» من جديد، يطلب إلى زوجته إمهاله لبعض الوقت.

جلس إلى طاولة القراءة وأمامه قلم ورزمة من الأوراق. شعر وكأنه عاد إلى عمله السابق من جديد. كان يسعده أن يفكر من منطلق استراتيجي، وأن يضبط أوتار الصفقة. ذهب تفكيره إلى أبعد من ذلك. فقد كان بإمكانه الإمساك بخيوط الموقف برمته، وكانت حساباته دقيقة وثابتة. فقد كان رصيده غير قابل للاهتزاز؛ فعندما تملّكوا الشرفة في تربيكا، كان سعرها بخساً، لكن أسعار العقارات ارتفعت الآن بشكل صارخ، وتنامى بموازاتها رصيدهم الاجتماعي. أسعار العقارات لا تنخفض مطلقاً — أقله على المدى الطويل. ولكن بالنظر إلى ظروفه المستجدة، فقد تقلصت ميزانيته إلى حد ما؛ لكن ذلك المنزل لا يستحق أن يكون ثمنه مرتفعاً فهو يقع وسط أرض مساحتها لا

تتجاوز ربع فدان. قال لإيما التي كانت ما تزال في المطبخ: «يا له من حظ يكاد لا يصدَّق.» ذلك كان خطؤه الأول.

أثبت البحث أن العقار في هذه السوق يمكن أن يباع بسعر مرتفع للغاية (ليس صحيحاً أن ما أرادوا شراءه ينطبق عليه اسم «المنزل» لأنهم لم يكونوا يشتروا المنزل فقط بل المنظر المرافق له). العرض الذي لا يمكن لآل هوف أن يرفضوه هو مليون دولار بالحد الأدنى، ولكن حتى هذا الرقم لم يكن مضموناً أو نهائياً. سألت إيما بدهشة واستغراب، وقد تحولت عيناها الزرقاوان إلى ظل أكثر جاذبية بفعل الخوف: «مليون؟» كان مبلغ المليون الذي طلبه آل هوف خارج نطاق قدرتهما على تأمينه خصوصاً وأن ويل ليست لديه الآن وظيفة؛ إضافة إلى أنهم لن يسكنوا فيه سوى أربعة أشهر في السنة في أفضل الأحوال. فالمنزل لم يكن معداً للسكن في فصل الشتاء ولا يمكن تهيئته مطلقاً من أجل هذه الغاية اللهم إلا إذا تم هدمه وإعادة بنائه من جديد، وهو ما لن يقوموا به أبداً.

تفرّست في وجه زوجها وفي فكّه الجميل وعينيه الخضراوين وشعره الكثيف في الوقت الذي كان يفكر هو بالعرض المقدّم من آل هوف. كان كل شيء فيه مألوفاً تماماً بالنسبة إليها لدرجة أن ملامحه فقدت تلك الجاذبية الموحية. كانت تأمل من خلال تفرّسها في وجهه أن تعرف فيما إذا كانت خطتهما قابلة للتنفيذ أم أنها كانت مجرد نقلة حمقاء في حياتهما. لكنه على عكس ذلك، قام بإجراء اتصال مع آل هوف عارضاً عليهم مليون دولار. قام آل هوف بدراسة هذا العرض؛ وأثناء ذلك، انقضت أيام عدة من الترقب وقضم الأظافر وفتل الشعر وزرع البيت جيئة وذهاباً وتخيل ما يمكن القيام

به في حال الحصول على المنزل وهما مستلقيان في سريرهما في عتمة الليل، ورسم صور لما يمكن أن يكون عليه المنزل بعد الترميم في حال شرائه. كانت إيما المستلقية على سريرها وهي ترتدي قميص نومها الحريري تبرم وعداً للنجوم بأنها لن تعتبر الحظ بعد اليوم تحصيل حاصل. من جانبه، كان ويل قلقاً بطبيعة الحال؛ لكنه كان مصرفياً كما نعلم: فإذا لم يكن بمقدوره إتمام مثل هذه الصفقة، فماذا يمكن أن يكون قد تعلم طيلة هذه السنين؟ لقد كان يعرف كيف يقترض من زيد ليدفع لعمرو، ويبرم صفقة رائعة من خلال هذه العملية. هذا ما وجدت أسواق الاعتماد من أجله، وكانت الأوراق المالية رخيصة في تلك الأيام.

في نهاية المطاف، قَبِلَ آل هوف بالعرض؛ بالتالي فإن ذلك المنزل الفيكتوري سيؤول إلى آل تشابمان رسمياً؛ وعليه أيضاً سيصبح آل هوف من طبقة المليونيرات بشكل رسمي أيضاً. وهكذا، فقد أدت السوق العقارية ما كان متوقعاً منها أن تؤديه.

كانت عملية الاقتراض من زيد لتسديد ديْن لعمرو مهمة سهلة. فنظراً لكون معدل الفائدة منخفضاً جداً بشكل لم يسبق له مثيل، قام ويل بإعادة تمويل كلفة الشرفة التي يملكها في حي تريبيكا التي ابتاعها سنة 1998 بمبلغ مليون وثلاثمائة ألف دولار، والتي تساوي اليوم مليونين ومائة ألف دولار. أخذ الأسهم العادية واستعملها كدفعة أولى، لكي يضمن في الوقت نفسه القدرة على تغطية نفقات دراسة ابنتيه ونفقات العائلة لسنوات أخرى قادمة. كانت نفقاته العائلية باعتباره رجلاً مصرفياً تتجاوز الخمسة والأربعين شهرياً؛ أعني خمسة وأربعين ألف دولار شهرياً بعد حسم الضرائب. أما القرض

الذي حصل عليه من أجل بناء فسطاط فقد كان في هذه السنة أي سنة 2003، مجرد قرض بفائدة. وكان هذا يسمح لويل بتسديد دفعات شهرية بمبالغ أقل خلال السنين القليلة التالية؛ وبالتالي، فإن مثل هذا سيضمن قدرة العائلة على الالتزام بمهل الدفع في الوقت الذي يتأقلمون مع ظروفهم المستجدة.

أما فيما يخص منزل العائلة في ولاية مين، فقد استخدم ويل جانباً آخر من نظام الرهن العقاري. فبدلاً من تخفيضه بنسبة 28 بالمائة، فقد قام بتخفيضه بنسبة صفر بالمائة وحصل على رهن عقاري بقيمة 2/28– وهذا يعني أن الرهن العقاري بمعدل فائدة مرهق لمدة سنتين من حيث المبدأ يبلغ ثلاثة ونصف بالمائة، يمكن أن يتكيف خلال سنتين مع معدل يتم تعديله مع متطلبات السوق بحيث تصبح قيمته أعلى عادةً (وهو أمر لم يغب عن باله). بهذه الطريقة يوفّر لنفسه المزيد من الوقت من أجل بلورة صورة وضعه المالي.

توحي مؤشرات السوق أن منزل ولاية مين والشقة التي يملكونها في حي تريبيكا ترتفع قيمتهما بصفة مستمرة. يمكنه أن يعيد تمويل المنزل في ولاية مين أو في أسوأ الأحوال، ربما يتوجب عليه عرضه على البيع. لكنه كانت لديه ما يكفي من الخبرة لكي يعرف أنه يجب على المرء أحياناً أن يخاطر من أجل الفوز، وكان يملك ما يكفي من الذكاء والمال الضروريين من أجل القيام بمثل تلك المخاطرة، وكان الأفق بالنسبة إليه واضحاً وممتداً. كان همه الأول في واقع الأمر هو احتمال أن تهب الأعاصير التي قد تقتلع المنزل من جذوره؛ لكن ذلك لم يكن يثير إلا القليل من القلق لديه؛ ذلك أن التأمين سيتكفل

بهذه المسألة بالرغم من كلفته العالية. لقد بُنِيَ المنزل في ثمانينيات القرن التاسع عشر، ولم تستطع أية عاصفة أو إعصار تدميره منذ ذلك الحين بعد؛ ولو حدث وتهدم المنزل بفعل العاصفة، فبإمكانهم بناؤه من جديد.

لقد وضعوا أيديهم على ولاية مين.

عندما التقيت إيما ثانية في قاعة الاحتفالات في متحف ميتس، بإزارها المخملي الأحمر، وشعرها المعقوص إلى الخلف على الطريقة الفرنسية، كانت تضج بالحماسة. كان المكان مضاء بشكل جيد بأنوار تشبه تلك التي تستخدم من أجل تقديم النذور والقرابين، ومليئاً بزجاجات الشمبانيا. أخذتني إيما من يدي وقبلتني على خدي، وغمرتني بالأخبار المتعلقة بمنزلها الجديد، وقالت بابتسامتها التي تشبه فتحة القوقعة: «عليك أن تأتي للإقامة معنا، وتكملي كتابة روايتك...».

قلت: «لقد حدث تحول في حبكة القصة.»

قالت: «من دون شك.»

سألتها: «كيف استطعتم قتلهم؟» لم أستطع أن أتمالك نفسي. نظرت إلي باضطراب، ثم علت ابتسامة مرتعشة على شفتيها، كما لو كانت على وشك أن تقفز من فوقهما وتطير في الهواء. لكنها أبقت على ابتسامتها. تحولت تلك الابتسامة إلى ضحكة، ثم بدأت فقاعات تتطاير من بين شفتيها وهي تتذكر مغزى الإشارة التي لَمحت إليها.

قالت وهي تقف أمامي بأناقة وبمنتهى الثقة التي تنتاب امرئ بإمكانه

تحويل كارثة مالية إلى دعابة: «في الواقع، أظن أن آل هوف هم من قتلونا.»

هناك فرص دائمة يمكن من خلالها للمرء الحصول على المال، والمال قد يجر مزيداً من المال. فالمال لا ينفد. هذه الغرفة الموجودة في ذلك المتحف الضخم والمليئة بكل شيء، هي أبلغ شاهد على ما أقول. تساءلت فيما إذا كان لديها المزيد من الأخبار؛ أخبار حول مبيعات رواية ويل مثلاً. «الفشل» كلمة غير موجودة في قاموس آل تشابمان؛ فقد يكون بإمكانه بيع حقوق نشر روايته مقابل مليون من الدولارات، وقد تكون هذه الرواية الأولى ضمن سلسلة من حلقات. لقد تبين لي ذلك بعد الانتهاء من قراءة روايته (سبق له أن أعطاني أيضاً الجزء الثاني) أن الرواية ستنشر على جزأين – وتتناول حياة امرأة اسمها لورا إنجلز وايلدر، تمتد من القرن العشرين باتجاه العالم الجديد بقلم شخص أتى من عالم المصارف إلى عالم الأدب والرواية؛ أي من عالم الثراء الفاحش إلى عالم الفقر المدقع. ربما كانت الرواية قد بيعت بالفعل بفضل خبرته في عالم التسويق وعقد الصفقات. بطبيعة الحال، لم تشرح لي تفصيلات التسهيلات الخيالية في مسألة الرهن العقاري ودقة ويل وبراعته في التعامل مع القضايا المالية وكيفية معالجتها. لست متأكدة في أنها كانت تعرف التفصيلات، أو أنها كانت تعي جملة المخاطر المرافقة للصفقة، وماذا يعني كذلك أن يتمتع المرء بالنفوذ في مثل هذا العالم. ولو حاولت شرح هذه التعقيدات لي (وهو ما لن تفعله أبداً لأنها كانت تشتمُّ من خلاله رائحة مخطط رسمه شخص ليس بمقدوره أن يدفع مالاً أكثر لقاء ما حصل عليه؛ وهو ما يشبه القروض المسحوبة على بطاقات الاعتماد التي تبلغ نسبة الفوائد

عليها صفر بالمائة، وكنت أنا شخصياً مغرمة بهذا النوع من القروض)، ما كنت لأفهم منها إلا أقل القليل. أصبح المنزل في ولاية مين ملكهم الآن – الأمر كان بمثل هذه البساطة من وجهة نظري – ولكن ليس من وجهة نظر المصرف أو من زاوية التعقيدات المرافقة لأنظمة الرهن العقاري الخيالية. باركت لها في المنزل الجديد.

كان ثيودور الذي بدا أنيقاً في بذلته يقف إلى جانبي ومعنا كانت سالي وداروين «رجل الصفقات». كانت سالي ترتدي فستاناً بلون القشدة، وذا أربطة تلتف حول رقبتها بإحكام وتتدلى من هناك في كل الاتجاهات بشكل فضفاض في محاولة فاشلة منها لتغطية الجزء الأكبر من جسدها. أما «رجل الصفقات» فقد كان يرتدي بذلة أكبر بكثير من مقاسه، وهو ما كان يفضّل في حجم البذلات التي يرتديها لأنها كانت توحي بالحجم الذي كان يرغب في أن يكون عليه. كان الجميع يتبادلون التعارف فيما بينهم، وكانت هناك الكثير من التحيات والقُبَل على الخدود. انضم ويل بدوره إلى ذلك الجمع. كان يرتدي ربطة عنق حمراء معقوفة مثبتة بمثزر معدني بنفس اللون. قبّلني وشكرني على الاتصال به والرسالة الإلكترونية التي أرسلتها له بشأن روايته. قلت: «إنها رواية رائعة». كان من الممكن أن أشعر بالغيرة، إلا أن حقيقة موهبة ويل في الكتابة ارتشفت سمّيّةَ تلك الغيرة من مشاعري.

«تظنين إذاً أن مبيعات الرواية ستسير بشكل مُرْضٍ؟»

قلت: «من دون أدنى شك.»

«إذاً لم تعودي غاضبة مني لتركي وول ستريت؟»

«ما زلت أعتقد أنك ارتكبت حماقة بفعلتك تلك.»

«أنا سعيد لكونك تتمسكين برأيك.»

قلت بصوت عال لكل من سالي و«رجل الصفقات»: «لقد ألّف رواية رائعة»، ثم شرحت لهما عن النقلة الجنونية التي قام بها في انتقاله من عالم المال إلى عالم الفن. شعرت بقليل من الدوار، وأخذت راحتي في الحديث عن ويل تحت تأثير الشمبانيا. وبينما كنت أنظر إلى «رجل الصفقات»، كنت أفكر بالفشل الذريع الذي مُنيتُ به في صفقة البن بسبب الصين، لكن «رجل الصفقات» لم يكن يجرؤ على طرق هذا الموضوع، أو موضوع الذرة أو الصويا أو أية مادة أخرى. أسهب بدلاً من ذلك، في الحديث عن أسواق الضمان والرهن العقاري مُشرِكاً ويل في الخوض في هذه الموضوعات، في الوقت الذي كانت سالي تنتقل بين الجموع في القاعة الكبرى. وجّهت ضربة قوية إلى صفقة البن لأن الحظ لا يهبط من السماء؛ أما صفقة الذرة فقد كانت مجرد مناورة لجعل مذاق خسارة صفقة البن أكثر قبولاً.

كانت الأرائك تغطي المكان، وبدأت الموسيقى تصدح. الأخبار التي كانت في جعبة إيما تعلن من جديد – ترافقها جملة من الابتسامات وتبادل الأنخاب – يلي ذلك تشعّبٌ في الحديث ثم تنشطر تلك الأحاديث ضمن مجموعات أصغر مثل رف كبير من الطيور ينقسم إلى مجموعات منفصلة تكبر وتصغر وينضم بعضها إلى البعض الآخر بشكل عشوائي، ثم يتفرع الحديث باتجاه مختلف: المدارس الخاصة والمدارس الحكومية وحراس الأبنية، وكؤوس البطولات الرياضية، والمسرحيات التي ستبدأ عروضها

قريباً، والمسرحيات التي على وشك إنهاء عروضها، وإقفال بعض المصالح التجارية، وكلفة جليسات الأطفال، والمخابز الموجودة في الجوار ومزايا وجود الجرارات الصغيرة في البلاد. عندما تخوض في مثل هذه الأحاديث الشيقة التي تتطلب بداهة وحضوراً قويين، سيكون من المستحيل عليك أن تتبين أن صوتك (بما في ذلك المسافة التي يصل إليها، والتوجه المحدد الذي تسير فيه، والتأثير المتوقع الذي سوف تحدثه بواسطة جملة من البهلوانيات الغريبة التي تقوم بها كي تثبت وجهة نظرك) ما يزال مضبوط الإيقاع ومحكوماً، ضمن معايير محددة، بالفضاء الذي تتحرك فيه مع البقية. فأنت جزء من مجموعة من الطيور: ولنقل طيور الحمام، كل واحد من هذه الطيور يطير بشكل منفصل ولكن ضمن مجموعة. وفي النهاية، يحط هذا الجمع بمجمله حول بناء مكون من مجموعة من الشقق السكنية: أي أننا نعود إلى عالم العقارات مجدداً. هناك جزء متفرع عن هذا العالم: إنه عالم مانهاتن الذي يمثل سوقاً مشهوداً له عالمياً بالتميز؛ إنه قصة تروى لذاتها. هو قصة يمكن لها أن تتجه منطقياً صوب خط لا تستطيع أن تحيد عنه: إلى الأعلى.

هكذا إذاً: يجد المرء نفسه يقول: «مليونين ومائتي ألف دولار» أو «ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف دولار»، ثمناً لشقق الواحدةُ منها لا تتجاوز مساحتها مساحة الشقة التي نستأجرها، كما يجد المرء نفسه في شقق لسماسرة العقارات في الأبنية المتناثرة في حي هارلم مع مجموعة من الشرّاء الآخرين الجادين وهم يتفحصون المكان، والمواقد والمناظر التي يطلّون عليها من هذه الشقق مُجرين حسابات دقيقة محصيّة بشق الأنفس للوصول إلى مبالغ شهرية أقل يمكن أن يدفعوها على شكل أقساط تكون بمثابة بدلات افتراضية

لأعمال الصيانة التي يمكن أن تحتاجها الشقة؛ ثم يكتشف أحدهم أن هذا الرقم ليس أعلى بكثير من معدل استئجار شقة بالأسعار الدارجة هذه الأيام (بغض النظر عن كوننا، أنا وثيودور، دفعنا ربع معدل السوق كبدلات للإيجار). هناك أيضاً بطبيعة الحال، قصص أبطالها أشخاص دخلوا إلى عالم السوق العقاري في فترة سابقة، ربما لم تتجاوز عشر سنين؛ وهؤلاء أشخاص ابتاعوا شققاً بمبلغ بدا حينها خرافياً وكان لا يتجاوز ثمانمائة ألف دولار بينما تبلغ قيمة كل شقة حالياً أكثر من مليونين ونصف المليون من الدولارات.

أولئك كانوا أشخاصاً نعرفهم جيداً؛ فهم أولياء أمور أصدقاء وصديقات أولادنا، غير مدمنين على الكحول أو المخدرات، ويعون مسؤولياتهم تماماً، ويولمون للآخرين على شكل دعوات على موائد العشاء؛ هم أشخاص كانوا يتولون إدارة شركات كبرى، ويعرفون من أين تؤكل الكتف، إنهم أشخاص بإمكانهم أن يجيبوك من دون مواربة عندما تسألهم عن أسعار الشقق في وسط حي هارلم: «مليون وتسعمائة ألف دولار هو سعر ممتاز في هذا الجزء من البلدة.» أما سوق العقارات في مانهاتن فهي استثناء لكل قانون على وجه البسيطة. هذا ما كانت الأمور تسير عليه هنا، ولا أحد سوى المغفل يمكن أن يفكر عكس ذلك.

أقلعت إيما بخططها من أجل تجديد المسكن في مقاطعة بوند بوينت، حيث بدأت بتحديث أجهزة المنزل، وإعادة عمارة القرميد وكذلك رصف أرضية المنزل بخشب الصنوبر من جديد. كم عدد المطابخ المجهزة بالكروم والفولاذ المقاوم للصدأ في طول أمريكا وعرضها؟ – تلقت عروضاً من شركات كبرى متخصصة في التجهيزات مثل شركة ولف وفايكنغ وسابزيرو لحفر آبار عميقة.

تبلغ تكلفة حفر كل واحدة منها بين خمسة آلاف وعشرة آلاف دولار. هذه التغييرات لا جدوى منها. يعرض البعض الأخر آراءهم حول شركة فايكنغ : الفرن والحرّاقات تسخن بسرعة إلا أنها ممتازة. أما شركة ولف الرائعة التي تبيع المقابض الحمراء اللون فهي مكلفة جداً. غرقت كل من إيما وصديقتها الجديدة سالي في التفصيلات الدقيقة لكل ما يتعلق بالمواعيد المتصلة بشؤون المطبخ؛ وقد تعمقت صداقة الطرفين لأنهما اكتشفتا قاسماً مشتركاً ألا وهو اهتمامهما المشترك بمواقد المطبخ الحارّة جداً، ولكن ذات الأداء العالي (وهي مواقد لم تستخدماها أبداً). كانت سالي من ذلك النوع من النساء اللواتي يَقَرْنَ في أماكنهن لا يبرحنها في الحفلات لأنهن ذوات طبيعة خجولة أو انطوائية. كانت سعيدة لاكتشافها أن إيما تحب أن تصغي إليها وتبدي اهتماماً بها، ولذلك فإن الأولى كانت متشبثة بالثانية؛ أما إيما نفسها التي كانت بارعة في فنون الاختلاط بين الجموع، فقد كانت سعيدة بهذا النوع من الأحاديث حول مواقد فايكنغ المودعة هناك بالقرب من معبد ديندور.

انغمسنا جميعاً في تلك الأمسية الخاصة في متحف الميتروبوليتان في قلب مدينة نيويورك. كانت تحفّ بنا ورود الزنبق النيلية المستوردة من مصر؛ أما الخبز فقد كان مكدساً على شكل أهرامات فوق الطاولات المغطاة بأغطية قماشية، وكانت النادلات اللواتي يرتدين شعراً مستعاراً يشبه تسريحة كليوباترا ويزيّنّ أعينهنّ بالكحل يقدّمْن أطباقاً مصرية من الخبز المحمص المحشو بجبن الماعز وثمر شجر الديس الشائك والدجاج المطبوخ بالزعفران والمحشو بحب الصنوبر إضافة إلى أطباق كبيرة من البقلة في أطباق الحمّص والجوز المغمس بالعسل. كانت سالي وإيما منهمكتين في الحديث عن

تفصيلات تتعلق بأفضل السبل الممكنة للتعامل مع شركة فايكنغ. أما أنا، فقد كنت أقف على تخوم الحفل أراقب ما يجري بعينيْ الروائي ومحفظة نقود المتسوّل، مبهورة بكل ما يجري من حولي من مشهد سريالي.

سألت إيما: «هل رأيتِ وين؟ كان من المفترض أن يصطحب معه صديقته الجديدة بياتريكس، لكنها مريضة.» أجفلتُ؛ لقد شعرت بصخرة من الغيرة تطبق على صدري. بياتريكس؟ يا له من اسم بائس. بدأت أرسم في خيالي ملامح صورتها من وحي اسمها؛ شعرت بأنها غير مناسبة لوين. تابعت إيما القول: «من الواضح أنها رائعة الجمال؛ هذا هو عهدنا بذوقه لأنه لا يختار سوى الحسناوات.» انتقلت بعدها للخوض في حديث آخر. بالطبع سوف تكون لديه صديقة. ألم تصفه إيما ذات مرة بأنه زير نساء سيء السمعة؟ أجَلْتُ بصري في أرجاء القاعة لكنني لم أعثر له على أثر.

بدأت القاعة تضيق بالمدعوين الذين كانوا يتوافدون تباعاً. كان المصورون يلتقطون الصور، وكان هناك العديد من نجوم المجتمع والفن – إذ توافدت العديد من الشخصيات الشهيرة إلى هذا المكان من أجل الاحتفال بالفنون والمحافظة عليها. في خضم تلك الفوضى التي كانت تضج بها القاعة، احتضنتني كاثي بارك التي كانت ترتدي معطفاً ذا شرائط سوداء وعقداً من اللؤلؤ المستخرج من البحر الجنوبي بين ذراعيها قائلة: «لا تتصوري مدى سعادتي برؤيتك.» وبعد أن طبعت على خدي قبلة وربتت على ذراعي، اختفت بين الجموع؛ بعد ذلك، برزت أمامي أماً لإحدى الطالبات في مدرسة روبي اسمها ميلا فيراغامو، وكانت هي من اصطحبتني إلى الوسيط الروحي الذي تتردد عليه سارة جيسيكا باركر التي ابتاعت مرهماً من غبار المومياء

وهو ذلك الدواء المركّب القديم الذي يعيد إلى بشرة الوجه نضارتها وشبابها مقابل مائتين وخمسين دولاراً. قالت: «لقد رأيت روايتك يا حبيبتي؛ غلاف الرواية مثير جداً». كانت عيناها السوداوان الكبيرتان تلمعان وهي تتحدث عن نفسها: فقد حصل زوجها على عرض للعمل في سنغافورة « ونحن نفكر جدياً في قبوله؛ فسنغافورة هي الحي الشرقي الأعلى الجديد. لا فرق بين الاثنين، هذا حقيقي؛ فجميع النسوة يرتدين أزياء متشابهة.»

كانت مجموعتنا ما تزال في فورة نشاطها؛ فقد كانت مثل خلية منشطرة: كان ثيودور منهمكاً في نقاش مع «رجل الصفقات» حول مشروع كأس القربان الذي يعمل عليه. أما ويل فقد انسحب كي يلقي التحية على بعض الأصدقاء ثم عاد سريعاً كي يرحب بزملائه القدامى. هناك المزيد من نجوم المجتمع يظهرون فجأة الواحد إثر الآخر ما حوّل انتباه الجميع إلى مدخل القاعة، وبدأت الكاميرات تعمل بشكل جنوني. مادة التحول كانت: كارلايل سميديس بثيابه المصنوعة من ماركة برادا، وكان يبدو وسيماً للغاية — كانت طريقة هندامه وموقعه الاعتباري يضفيان هالة من الهيبة على قامته الطويلة بشكل ملحوظ. كانت هناك ابتسامة دافئة على وجهه الطافح بالبِشْر؛ وكان يتأبط ذراع كافيللي «الجَسور» (الذي كان يضع ربطة عنق عريضة، أثارت العديد من التعليقات من قبل الصحافة المتلهفة لمثل هذا النوع من الأخبار). كان ناشر إحدى رواياتي الأولى. اعترتني موجة من الحزن وأنا أفكر فيما كان يمكن أن يكون عليه الأمر. ثم شعرت أن عليّ أن أنظر مرتين: أن أفرك عينيّ ثم أنظر من جديد. دخلت ليلي ستار إلى القاعة وكانت تبدو مرحة ونحيلة القدّ (بالرغم من أنها لم تكن نحيلة قبل عدة شهور)، وكانت ترتدي معطفاً

مريميّاً، وقلادة لافتة من الألماس حول عنقها – كم هو فجائي وكاملٌ التحول من نكرة إلى شخصية شهيرة! أتحدث هنا عن الثالوث: كافيللي بالنجاح المزدوج الذي حققه، إضافة إلى الكاتبين اللذين تبنّاهما وأصبحا على قائمة أفضل المبيعات، وتحولا إلى نجمين متلألئين في عالم الأدب. كانت أربع نسخ منحوتة من الحجر للإلهة ساخميت في خلفية الصورة – وهي إلهة الحرب، وإلهة العواصف المدمرة، وإلهة الطاعون – في الوقت الذي وقف هذا الثلاثي لفترة قصيرة للتصوير أمام كاميرات الباباراتزي تغمره نشوة الانتصار، هذا إذا كانت قراءتنا للوجوه صحيحة آخذين بعين الاعتبار صورة الإلهة ساخميت في الخلفية. كم كان سهلاً على ليلي امتطاء صهوة الشهرة وهي تمشي وتبتسم بتعالٍ. كانت تمشي وراءها في الاستعراض الخاص بها وكيلة أعمالها الجديدة سيغ بلانكمان التي كانت ترتدي ثوباً من المخمل الأسود ببشرتها الناعمة السمراء الجميلة ووجهها الذي يعلوه النمش. دلفت إلى القاعة برشاقة تشبه رشاقة البجعة.

أشحت بوجهي بعيداً. هنا كان ينتصب جدار القرميد الذي كنت متجهة للاصطدام به. بحثت عن مخرج، لكن المخرج الذي كنت أتوق إلى الوصول إليه كان مختلفاً.

كان يمكن أن نقوم بما قمنا به بشكل مختلف. كان بإمكاننا توضيب أغراضنا والانتقال للعيش في ولاية فيرمونت، وهو ما اعتبره «رجل الصفقات» بمثابة الحل لمشكلاتنا، إذ كان من الممكن أن نسجل الفتاتين في إحدى المدارس الحكومية، ونبتاع منزلاً بقيمة ثلاثمائة ألف دولار، ونراقب حركة الأسهم وهي تكبر بمرور الزمن، وأتابع أنا الكتابة؛ أما هو فكان بإمكانه الاستمرار في

العمل على منحوتاته وكان يمكن أن نعيش على الأجر الذي يتقاضاه ثيودور لقاء العقود التي يقوم بتنفيذها، والمقالات التي أنشرها في المجلات إضافة إلى ما يردنا بين الحين والآخر من مبيعات لرواياتي. كان بإمكاننا اختيار نمط بسيط من الحياة؛ وأن يكون أمام منزلنا فناء واسع ننصب فيه أرجوحة، وربما كذلك حديقة يمكن أن نزرعها في فصل الربيع، ونقطف ثمار ما زرعناه في فصل الخريف. كان يمكن لنا أن نلغي كافة النفقات الباهظة التي تكلفنا فوق طاقتنا: الأقساط المدرسية ورواتب جليسات الأطفال، وأجور عاملات تنظيف المنازل، ونفقات استئجار المكاتب والبطاقات السخيفة التي تثبت عليها أجور الدروس، والتبرعات وهدايا أعياد الميلاد، إضافة إلى النفقات الأساسية التي تتطلب معيشتنا في المدينة تأمينها. كان هناك بديل. لكن مجرد كوننا هنا في هذا المكان ونحن نتفرّس في هذا البحر المتلاطم من الناس مبدين إعجابنا بشموع النذور والقرابين، والآلات الموسيقية ذات الأوتار الأربعة، والبعد المصري في هذه الفنون، في الوقت الذي نتجول بتؤدة في ردهات متحف الميتس الخالية من الرواد مروراً بالمومياءات ونذورها الإلهية، فقد تيقنت بشكل لا يرقى إليه الشك أنه ليس بمقدوري مغادرة مدينة نيويورك. فأنا أعيش هنا منذ خمس عشرة سنة، ولن يجبرني شيء على مغادرة هذا المكان. إن هجر نيويورك الآن، والتراجع عن كل ما حققناه، والتنازل عن ما أنجزناه يعني أن نعيش تحت مظلة الندم ومرارة سوء الاختيار والإحساس بالمنفى.

إن عصب الحياة مكوّنٌ من مزيج من الأحلام والعاطفة والأمل — إنه مُكوَّنٌ طيفيٌّ وضبابي كالخمار؛ وهو أشبه ما يكون بستارة، إنه طريق الحليب لكنه خيوطه مشدودة ومتينة. لولا هذه المواصفات لكنت عشت حياة هادئة

وحصيفة ومتواضعة على نمط سكان الأرياف. هل كنت لأجرؤ على الولوج إلى عالم الكتابة وأكون كاتبة روائية؟ هل كنت سأجرؤ على تحدي إرادة أبي؟ لا، ما كنت لأعيش هذا المنفى. لم أُخلَقْ لمثل هذه الغاية. قال أحد المحاضرين المشهورين الذي كان يعاني من سرطان في البنكرياس في آخر محاضرة له أمام حشد من الحضور قبل وفاته إن جدران الحياة الصلبة تنتصب أمامنا كي تبين لنا مدى وحشية رغباتنا التي تدفعنا إلى تحقيق ما نصبو إليه. أجَلْتُ بصري في أنحاء القاعة بحثاً عن وين. لقد جئت إلى هذا المكان فقط لألتقي مع وين، وأريد أن أراه الآن.

رأيته فجأة ينتصب أمامي وكان يرتدي سترة مُدَخَّنة وربطة عنق وردية شاحبة اللون؛ انحنى قليلاً كي يحييني. قال بعد أن قبّلني على جبيني: «ها هي المرأة التي وضعتها تحت رعايتي.» كان عناقه لي قوياً ومُطَمْئناً. كان كما رسمت له صورة في ذاكرتي: لم يكن جذاباً أبداً، لكنه مع ذلك، كان مراوغاً، وكنت أشتمّ ذلك من خلال عينيه البنيتين الكبيرتين وثقته العالية بنفسه. أدارني ببطء وبطريقة أشعرني فيه أنني ملك خاص به، وقال: «تبدين رائعة». لم يعد لبياتريكس أية أهمية، واختفت من دائرة مخيلتي بالكلية. قلت له في لحظة شعرت خلالها أن كل الموجودين في القاعة اختفوا فجأة، ولم يبقَ سوانا نحن الاثنين، مباشرة قبل سقطتي، إذا كان يمكن أن نطلق عليها لحظة سقوط: «اشتقت إليك.» ما الذي قاله سقراط لأديمانتوس؟ هناك سببان لتقهقر الفنون: الثروة والفقر. شعرت بأنني انتهيت، وكانت الإثارة قد أبهرتني. كان بإمكاني تغيير نمط حياتي. كان بإمكاني أن أتحول إلى شخص آخر. كان حوض الماء بمثابة مجسّم لنهر النيل الذي يحيط بالمعبد، وتلمع في قعره عملات معدنية رماها فيه المبارِكون.

قلت له: «أشكرك على الرسائل وباقات الورود التي أرسلتَها». اعتذرت عن عدم وفائي للوعد الذي قطعته للقائه. انتابني شعور يشبه شعور فتاة في موعدها الأول، إذ لم أكن متأكدة مما سأقوله له، وبالتالي فقد انتابتني موجة من الحرج وأنا أنظر إلى ثيودور الذي كان منهمكاً في حديث مع كل من إيما و«رجل الصفقات».

سأل: «هل ربحتُ الرهان؟»

لم أنبس ببنت شفة، إلا أنه كان يعرف أنه ربح الرهان. لم يكن هناك ما يمكن قوله.

قال: «فعلتِ أفضل ما بوسعك.»

نظرت إليه بعينين فارغتين. كان يتحدث عن شيء كما لو أنه قد سقط من ارتفاع شاهق. راقبت هذا الشيء وهو يتلاشى؛ أما الآن، وفي هذه القاعة التي يتردد فيها الصدى، لم يعد بإمكاني أن أتذكر بعد الآن ماهية الشيء الذي تركته بامتنان يفلت مني في نهاية المطاف.

تمعّن في وجهي لبرهة قصيرة، فهم بعدها كل شيء. فشخصٌ مثل وين لم يكن يقتات أو يعيش على المشاعر. قال: «أريدك أن تلتقي بآل رادالبينو، رالف وبريتي، وهما مديري في العمل وزوجته ومضيفينا.» ومن دون أن يتكلف عناء سماع ردي على ذلك، شبك ذراعه بذراعي وقادني إليهما. كانت بسيطة للغاية ولم يكن هناك في الواقع ما يميزها من الناحية الجمالية. كانت في الستينيات من عمرها على ما أظن وكان تصرفها في منتهى اللطف. كان ذراعاها يتألقان بأسوار ذهبية لامعة أفعوانية الشكل. كانت قد غيرت

مجرى حياة وين منذ عشر سنوات لأنها أحبت ابتسامته وروح الدعابة لديه. كما أحبت إحساسها بالسلطة وهي تمارسها بشكل فعلي وتتذوق مدى قوتها. كان رالف في نفس سنها تقريباً. كان ضخم الجثة وبديناً وشعره فضياً وخفيفاً. كانت البذلة التي يرتديها مناسبة له عندما كان أقل بدانة مما هو عليه الآن؛ ويبدو أنه حشر نفسه فيها، أو ربما كان متفائلاً.

قال رالف وهو يمد يده لمصافحتي: «سيدة بالمر، نحن سمعنا بك قبل أن نلتقي.» لم يكن ما قاله مجرد كلام؛ فقد كان مباشِراً في كلامه، لكنه لم يعطِ أية تفصيلات. ما الذي يمكن أن يكون قد سمعه؟ ما الذي قاله له وين؟

قالت بريتي وهي تتفرس في ملامحي: «إنك تشبهين الصورة التي كونتها عنك تماماً من خلال وصف وين لك. يقول إنك كاتبة روائية. هذه لفتة شجاعة منك.»

سأل رالف: «كيف تكسبين لقمة عيشك؟»

قالت بريتي: «إنه يدخل في صلب الموضوع مباشرة.» كنا نقف قريبين من النوافذ وكان الثلج قد بدأ يهطل الآن، وتتساقط نُدَفُه بلطف ونعومة على الزجاج. كم كنت أشعر بالحسد تجاه نساء مثل بريتي التي لم تكن يعني لها طرح أسئلة كالتي طرحها رالف سوى الدعابة، وأنه لا مغزى ولا نتائج تترتب على طرح مثل تلك الأسئلة على الإطلاق.

قال وين من دون أن يعقّبَ بعبارة أخرى: «إنها تعيش من ريع رواياتها.»

بدأ رالف بدوره يتفرس بي كما لو كنت رسماً أو عملاً فنياً، يحاول تقدير ثمن له.

قالت بريتي: «يا للحياة التي يعيشها الفنانون.»

قال رالف: «إنها مليئة بالمتعة.» اعتذر بعدها كلاهما وهمّا بتركنا، ذلك أنه تمّتْ دعوة الجميع إلى مائدة العشاء.

مددت يدي لأصافحهما قائلة ببطء وأنا أزن كل كلمة أقولها: «أشكركما على دعوتكما اللطيفة لي.»

قال وين بعد أن غادَر الزوجان: «هذه لفتة ذكية منك.»

قلت: «كنت أخضع لعملية تثمين.»

«رأيتك قبل أن ألتقي بك. تبدين متعبة.»

«هل كنت تتجسس عليّ؟»

شعرت بشخص يربت على كتفي، وتلت ذلك قبلات حارة على الوجنتين. كانت ليلي ستار وحيدة من دون مرافقيها ومصوّري الباباراتزي تقف أمامي قاطعة الحديث بيني وبين وين، وقالت: «يبدو أنك غارقة في حديث جِدّيّ. أستميحك العذر.» مدت يدها إلى وين مصافحة وعرّفت بنفسها. قالت وهي تكشف عن أسنانها المصفوفة بأناقة: «أنا ليلي ستار. أنا سعيدة جداً لرؤيتك هنا يا إنديا.» مدت كلتا ذراعيها كي تمسك بكلينا.

قال وين: «إنها رفيقتي إلى هذه الأمسية.»

قالت ليلي وهي تغمز لي بعينها: «هذا مثير. حسنٌ. تمتعا بصحبة بعضكما بعضاً. أنا هنا للعمل وليس للتسلية للأسف، وبالطبع أنت تعرفين معنى ذلك!» لوّحتْ بذراعيها كما لو كانت ترمي بالفحم إلى الفرن وقالت: «دحرجوا الفنانين بواسطة الحبل والبكرة!» بدأت تعبث قليلاً بشعرها المجعد ثم رتبت فستانها عند فتحة الصدر. كان واضحاً أنها ثملة بفعل الشمبانيا، أو بفعل حسن طالعها، وقالت: «ليت هذه هي المخاطر الوحيدة! تمنّي لي حظاً سعيداً.»

قلت: «استمتعي بوقتك.»

قالت وهي ترمقني من فوق كتفها: «لا بد لي من الاستمتاع بالوقت؛ فأنت تعرفين كيف تجري الأمور»، مشت بعدها بخفة بعيدة عنا. أضحت القاعة الآن مليئة عن آخرها بالمدعوين؛ وكان المعبد يلوح من فوقنا.

قال وين: «اتصلي بي في الصباح»، وبعدها ابتلعه الحشد بدوره.

جلستُ إلى طاولتنا متوسطةً إيما وويل؛ أما ثيودور فقد جلس قبالتي إلى جانب وين؛ وكان الرجلان يجلسان بين الزوجين بريتي ورالف رادالبينو. جلسنا إلى طاولة العشاء وبدأنا نرقب عملية المزاد المرافقة له. كان المشرف على المزاد العلني بديناً وقصير القامة وذا كرش كبير، وكان يضع حمالات بنطال، وله شاربان معقوفان يشبهان مقود الدراجة. وقف الرجل أمام شاشة عرض سينمائية لعرض البضائع التي ينوي بيعها. قام بأسلوبه الذي يتصف

باللطف والتهريج اللذين تتطلبهما طبيعة تجارته ببناء برج مكون من رسوم مختلفة شبيهة ببرج بابل من نوع مختلف تحركه أعداد كبيرة من الأذرع التي تشبه المجاديف والمرصعة بالمجوهرات. كانت أشبه بالجوقة التي اختتمت فعاليات الأمسية. بدأ المزاد بالعبارات المألوفة: «من يزيد، من يزيد؟ بيعت المادة». قام بعرضٍ لجزيرة نائية خاصة في أرخبيل تواموتو، ثم عرض لجولة في أرجاء وادي الملوك. العالم كله بكنوزه ونفائسه معروض للبيع أمام أعيننا المليئة بالدهشة. عرضت كذلك حقيبة من ماركة كيللي، وطرق معالجة لاستعادة الشباب بواسطة الزفير، وقطعة ألماس صاغها هاري وينستون، ولؤلؤة من صياغة ميكيموتو، وصورة من رسم ساشا ماكدوميرت. كان ينادى على كل هذه السلع: «من يزيد، من يزيد؟ بيعت المادة.» ويتبع ذلك عبارة «شكراً جزيلاً لك يا سيدي!» يتم صب مزيد من الخمر. أما عريف الحفل الطويل والنحيل، ونظير المشرف على المزاد، فقد كان يشجع الجميع على احتساء المزيد من الخمر. عريف الحفل هذا، كان المشرف على الأمسية وعلى جمع التبرعات، وكان يقول: «احتسوا قدر استطاعتكم من الخمر. تصرفوا على سجيتكم هذه الليلة، وسامحوا أنفسكم في الصباح. كل ما نقوم به هذه الأمسية هو من أجل غاية نبيلة. إنه من أجل الفن.»

لكنني كنت قد قررت أن أنهي علاقتي بالفن – قررت التوقف عن اقتطاع شرائح من لحمي من أجل أن أمنح الحياة لمخلوق ما، أي لكي أصل إلى الحقيقة وأجعلها تتبعني مثل ظلي عندما ألبي دعوة إلى الغداء أو العشاء، أو إلى حيث أمضغ الطعام في فمي – لا أقصد الطعام حرفياً، بل الفكرة؛ الفكرة التي يمكن لي تهذيبها وتشذيبها ومراجعتها كما أشاء، لكن المطاف

سينتهي بي إلى احتقارها لأنها لن تكون امتداداً صادقاً للتصور الأصلي؛ وهو التصور الذي رسمته في مخيلتي بشكل كامل قبل البداية، وأعني به التصور الذي يحاكي الحياة بشكل ثابت لا يقبل التأويل. كل هؤلاء الأشخاص المُحَبّبين الموجودين في هذه القاعة، والمليئين بهواجس تتعلق بمنازلهم الجديدة والمواقد التي يرغبون في اقتنائها والمزادات العلنية، كانوا متحررين من هذا الهاجس؛ وأعني به الهاجس الناجم عن طغيان الفن واستبداده.

في الخارج، كان ثلج شهر تشرين الثاني، نوفمبر، يكسو المدينة برداء أبيض، وكان الطقس بارداً جداً. مشيت برفقة ثيودور إلى المنزل عبر الحديقة في منتصف الليل. كنا نتوقف من حين لآخر من أجل إبداء إعجابنا بالأشكال التي رسمها الثلج على أغصان الأشجار، وجمال تصميمها. كان يتفحص بعضها بإمعان من أجل أن يستلهم منها بعض النماذج لمنحوتاته. كان الثلج يتساقط بغزارة وكان يحيك ما يشبه الشرنقة حول أجسامنا. كنا وحدنا في الحديقة، وكنا نشعر أنها ملك لنا. كنا ثملَيْن قليلاً وخدودنا متوردة. كان إحساس بالشوق يغمرني وكنت أحس بالجوع. أحببت فكرة أن تكون الحديقة ملكاً لنا، وأنها كانت مجللة بالبياض ونظيفة وتضج بالحيوية؛ وكان لونها يميل إلى الرمادي الشاحب.

قدّم لي ثيودور غصناً اقتطعه من إحدى الأشجار. تمعّنتُ في نتف الثلج المتوضعة فوقه حيث شكّل الثلج لوحة فنية على ذلك الغصن العاري. أما عن مسألة الفن، فلم تكن هناك أية معركة تعتمل في داخل ثيودور حول استمراره في العمل في مجال الفن من عدمه. هذا كان محور الاختلاف فيما بيننا: كانت المعركة في داخلي أنا، بينما لم يواجه هو مثل هذه المعركة.

قلت محاولة أن أبدأ حديثاً من نوع ما: «يا لها من مجموعة من المهرجين تلك التي التقينا بها هذا المساء.»

سألني ثيودور: «يبدو أنك لم تستمتعي بالسهرة بدورك، أليس كذلك؟» كان الارتياح بادياً على وجهه الوسيم. شعرت بأن حجراً من القرميد يسد أنفي، وأن حلقي يتشنج.

قلت: «أرجــوك. إنهم كانوا عاجزين عن لفظ حرف G في كلمة Gstaad[34] بشكل صحيح.» استسهلت الكذب؛ لقد كذبت. فقد كانت خيانتي الأولى، لكن الإحساس بالذنب سيأتي لاحقاً.

ترك ثيودور الغصن يثب من بين يديه فتناثر الثلج من على الغصن. لقد كانت فجائية الحركة تعبيراً رمزياً عن انطلاقي إلى عالم الحرية.

قال: «دعينا نتفق على أن لا نلبي مثل هذه الدعوات مرة أخرى.»

قلت موافِقةً: «لن نلبي مثل هذه الدعوات مرة أخرى أبداً.»

في صباح اليوم التالي، اتصلت بوين.

34 - منتجع ريفي في القسم الألماني من سويسرا الاتحادية (المترجم)

فاصل مسرحي

رسائل فورية

إلى رالف: هل يمكنك أن تمنحني دقيقة من وقتك؟

إلى وين: لدي متسع من الوقت لا حدود له. فأنا جالسة هنا أعبث بأصابعي. هل لك أن تمنحني دقيقة من وقتك؟ هذه هي المسألة. يجب أن يكون الجواب: كلا. أم أنك صدمت الكثيرين أمس ليلة البارحة بظهورك مع تلك المرأة الحسناء المتزوجة ذات الاسم الغريب؟ هل كانت راقصة شرقية، ربما؟ ذكّرني، أين التقيتَ بها؟

إلى رالف: من الواضح أن بإمكانك منحي بعض الوقت. ظننت أنها أعجبتك. في الواقع أنا أكتب إليك لأبلغك أنني قررت التعامل مع شركة بغمليون المحدودة.

إلى وين: إذاً ما زلتَ ثملاً!

إلى رالف: كلا، يا سيدي.

إلى وين: أيها الفتى الشاطر، يعجبني أنك لا تنسى أن ترفع قبعتك لي احتراماً عندما تراني.

إلى رالف: أجل يا سيدي. لقد انضمّت إلينا. فقد دعت إلى اجتماع. سوف يكون أداؤها في غاية الروعة؛ إنها ضربة معلم يا سيدي.

إلى وين: أنا لا أفهم. هل تعتقد أن الأمـور تسير ببطء على أرض الواقع؟

إلى رالف: الفرق الماهرة ترابط في خنادقها.

إلى وين: كيف هي حال الأمور مع سنيك؟

إلى رالف: علينا أن ندعه يجري بمحاذاتها. ولكن هذه قد تكون أكثر الخطط غباء أو أكثرها شجاعة. سنعرف ذلك مع مرور الوقت.

إلى وين: المسألة كلها تتعلق بالمال. لكن أثرها مع ذلك يبقى مثيراً للفضول. إنه يكتشف طريقاً لئيمة للعودة.

إلى رالف: بعض اللفائف تعمل بشكل جيد في المراحل النهائية من السلسلة؛ إنها نفس الهراء المعتاد. قد يتسبب جمود رأس المال بمنع حركة المبلغ المسترد على قيمة الأرباح لشبكة قيادة الأعمال

إلى وين: هناك احتمال بنسبة ثمانين بالمائة في أن يتم اقتطاع نسبة خمسين بالمائة من قيمة الفواتير المستحقة الدفع.

إلى رالف: اتلُ صلاتك.

إلى وين: من ناحية أخرى، أنا لا تستهويني فكرة النحس الذي يطغى على العمل التجاري. لماذا لا تستمر في دعاباتك السمجة، وتختلق المسابقات مثل منافسات التهام شطائر الهامبرغر؟ لا تقل لي إنك كبرتَ على مثل هذه الأشياء.

إلى رالف: تأخرتَ كثيراً يا رالف. لقد ذهبتُ بعيداً في ذلك الاتجاه. إنها تسيطر بالكامل على الميدان التجاري وتضبط إيقاع عمل الفتيان.

إلى وين: أنا من تقرع الأجراس هنا – هذه المرة أنا أقرعها من أجلي أنا: نهداها جميلان. بريتي أخذت علماً بذلك. بالمناسبة، أعجبتها خطتك الصغيرة.

إلى رالف: انتبه إلى ما تفعله يداك أيها العجوز.

إلى وين: يلزمني الابتعاد عنك عدة أسابيع كي أنسى كم أنت أحمق.

إلى رالف: يؤسفني سماع أن أوروبا ليست فعّالة كما ينبغي؛ ولكن سبق لي أن قلت لك إنها لن تنجح. فقوانينها قديمة وبالية، وتبقى القصة الحقيقية هنا؛ وهي تكبر وتكبر، وما يكبر هنا سوف يتم التهامه هناك. سوف يأتون بكميات كبيرة من المال إلى هنا. الحلم الأمريكي ما يزال قوياً وفي وضع جيد. هل تنتبه إلى الولايات الرملية؟ ربما تتحول إلى مشكلة في نهاية المطاف.

إلى وين: لهذا السبب، نحن ندفع لك المال.

إلى رالف: ثلاثة أشهر. بعد ثلاثة أشهر، سوف تشترك في وضع ثمن للمعابر مع الأفضل في السوق؛ وبعد ستة أشهر، سوف تجني المال، وبعد ثمانية عشر شهراً، سوف تعمل في مجال التجارة بسهولة ويسر، وبعدها سوف تسترعي انتباه الصحافة، وسوف تنهال عليها عروض العمل.

إلى وين: أكرر ثمانية عشر شهراً؟

إلى رالف: أعرف أنني أتحدث بلغة رفيعة يا رادالبينو. سوف أدرّبها على طريقتي وسوف تحوز على القصة. المسألة كلها تتمحور حول القصة، أليس كذلك؟

إلى وين: أفضّل استخدام كلمة «سيدي».

إلى رالف: يا سيّدي!

إلى وين: انتبه إلى نفسك أيها الفتى. إذا كنت ترغب في لعب دور بيغماليون مقابل الحصول على مبلغ ضئيل مني، فاعملْ على أن تربح.

إلى رالف: ما الحياة سوى سلسلة من الحماقات الملهَمَة، أليس كذلك؟ لقد كسبتُ هذه الحماقة.

إلى وين: لا بأس. طالما أنني خسرت الجولة الأخيرة، فمن المسموح لي أن أراهن على كل شيء أو لاشيء. إذاً، الرهان هو: كل شيء أو لا شيء، يا حبيبي.

إلى رالف: هذا هو القول الفصل. اتفقنا يا سيدي؟

إلى وين: لا تنسَ أنها متزوجة.

إلى رالف: من فنان.

إلى وين: نسخة أخرى من بائعة الورود؟

إلى رالف: هي كذلك أيضاً.

إلى وين: أنا من تقرع الأجراس. وسيكون الانطلاق إلى الأمام بأقصى سرعة!

الجزء الثاني

زماننا الحاضر

الفصل الحادي عشر

لم أشأ إطْلاع ثيودور على حقيقة أنني أقابل وين. أردت أن أحس بتلك الإثارة لغاية في نفسي، كما أردت أن أعرف كيف تساهم طريقة لباسي، وكذلك اختياري لمواد التجميل، إضافة إلى المعطف الذي كنت أرتديه في هذا الشعور بالإثارة. كنت على وشك التوجه إلى بارك أفنيو، وانتابني إحساس بأن ما أقوم به هو مغامرة جريئة في أرض غريبة. تلك كانت مزحة، لكن احتمال تغيير الإنسان لمسار قدره ومصيره كان نوعاً من المخدّر المثير للانتشاء.

بعد انتهاء الحفل الخيري في متحف الميتس، اتصلت بوين الذي دعاني إلى ملاقاته من أجل إجراء حديث معه ومع رالف رادالبينو. الآن، أنا داخل سيارة أجرة في الطريق إليهما، وأنا على وشك إقامة علاقة غرامية. كان الوقت ضحىً؛ وهو الوقت الذي يكون فيه الناس المحترمون في أعمالهم، وعلى وشك أن يقوموا بجولتهم الثالثة من احتساء القهوة بانتظار وجبة الغداء، وهي فترة الاستراحة التي تعيدهم إلى العالم من جديد. كان أكبر أحمد من التابعية الباكستانية هو سائق سيارة الأجرة. كان أكبر يقود سيارته برشاقة وخفة في الزحام حيث كانت العمارات تبدو وكأنها تبتعد عن بعضها بعضاً تحت سماء المدينة الداكنة كي تفسح لنا الطريق؛ كانت تلك العمارات تبدو أكثر كثافة وارتفاعاً، وكان ضوء النهار يخبو أكثر فأكثر كلما توغلنا أكثر في قلب وسط المدينة، إلى أن توقف عند منعطفٍ تحت البرج الزجاجي الذي كان يضم شركة الإخوة بوند وبوند للاستثمار؛ وكان الجزء الخارجي من المبنى ما يزال مزيّناً ببقايا زينة عيد الميلاد: شجيرات أمريكية

استوائية ضخمة، وأكاليل تحتوي على أقواس مذهبة عملاقة. كانت بقايا تلك الزينة تبدو عليها مسحة من الحزن لأن زمنها مضى وانقضى.

ربما تبادر إلى ذهن ثيودور أنني كنت في العلّيّة التي تبيت فيها الخادمة تحت رفوف تتوضع عليها العديد من الكتب – من قواميس ومسرحيات لشكسبير، وحتى الكتاب المقدس مفتوحاً على طاولتي بينما أبحث بلهفة عما يمكن أن أكتبه في روايتي. بدلاً من كل ذلك، كنت هنا. كنت أعرف ما الذي أقوم به. تبين لي فيما بعد كيف يمكن لملاحظات الآخرين أن تشعرك بهذا القيد الشديد، لكنني لا أشعر بمثل هذا الإحساس الآن. فالعديد من الأشخاص في وول ستريت يمكثون فيه لفترة طويلة بعد أن يكونوا قد أتموا صفقاتهم التي تبلغ الملايين، ليس لأنهم يرغبون في ذلك، بل لأنهم يخشون من ملاحظات الآخرين إذا هم غادروا هذا المكان – الخشية من اتهامهم بعدم القدرة على تحمّل أو استيعاب ما كسبوه، الخشية من اتهامهم بأنهم لا يملكون ما يكفي من الحيوية، أو من اتهامهم بانعدام روح المبادرة لديهم، أو الخشية من إبقاء المساحة التي يتركونها سائبة وبالتالي فقد يحتلها غيرهم – تماماً كخشيتك من إخلاء المكان الغالي الذي تركن فيه سيارتك في مانهاتن، والذي لا ترغب في أن يحتله غيرك حتى لو لم تعد بحاجة إليه. (بعد أن استوعبت كل هذه الأمور، تبين لي كم كان ويل تشابمان شجاعاً وجريئاً عندما اتخذ قراره بالتخلي عن كل شيء، لأنك عندما تتخلى عن شيء، فلن يكون بإمكانك استعادته.) إن وجودي هنا الآن سيُفهَمُ على أنني فشلت في مهنة الكتابة. كان يمكنني تصور ليلي ستار تهمس في أذن أحد أصدقائنا في الجامعة التي أدرّس فيها قائلة: «هل سمعتَ بما فعلته إنديا بالمر؟»

لكن لم أكن لأُلقي بالاً لأيٍّ من تلك الهواجس، إذ أنني وللمرة الأولى، لم أعد أشعر بأن الكتابة تهمني. تبادرت إلى ذهني صورة طاولتي مرة أخرى، وأنا أجلس إليها وحيدة في الطابق العلوي، وفوق رأسي رفوف تحتضن العديد من الكتب. تذكرت كيف كنت أجلس هناك لساعات وأيام وأسابيع عديدة أحاول أن أستوعب ما الذي يمكن أن يخبأه لي المستقبل. لم تعد صفحة الكتابة الفارغة أمامي تستهويني أو تأسرني - الساعات التي قضيتها وأنا أحدق خارج النافذة - المتعة التي كنت أشعر بها وأنا أتلقّى رسائل بالبريد الإلكتروني - البريد اليومي - التدقيق في الصحيفة اليومية - الاتصالات التي كنت أجريها مع وكيلي أشكو فيها من غياب أية مقالات نقدية حول رواياتي، أو أشكو فيها من أي شيء يمكن أن يمنحني الدافع كي أكون فاعلة ومنتجة - الومضة المرافقة لفكرة مبهمة تطمح أن تتحول إلى شيء أكبر من ذلك بكثير - الشعور بالارتياح لأن ذلك اليوم قد انقضى - الإسراع إلى المنزل من أجل البنتين - الأمل، الذي لا يبدو أنه يلوح في الأفق، في أن يعود الاندفاع وتعود الحميّة إلى عالم الرغبة لديّ كي أتمكّن من الانطلاق من جديد.

شعرت وأنا أقف في ظل البرج الزجاجي الذي تتوضع فيه مكاتب شركة بوند وبوند بنوع جديد من الأمل. وفهمت أن عدم إعلامي لثيودور بما أنا مقدمةٌ عليه يشبه امتناع العشيقة التي تخون عشيقها عن إعلامه بخيانتها له، لأنه سوف يحوّل أملي الجديد الذي أتوق إلى تحقيقه إلى كابوس مرّ. ثيودور، المؤمن بالفن، والذي نذر العفة الفنية سيكون ذلك الشخص الذي سيحول هذا الأمل إلى إحساس بالذنب. دفعت لسائق سيارة الأجرة وترجّلت منها

إلى الخارج المشبع بالبرودة. كان ذلك يوم الجمعة، الثاني من شهر كانون الثاني، يناير، سنة 2004. كانت أضواء الزينة تلفُّ الأشجار على امتداد بارك أفنيو.

تحتل شركة بوند وبوند ستة طوابق من ذلك المبنى إضافة إلى الملحق في الطابق الثالث والأربعين منه. في الطابق الأرضي، هناك حراس أمن تابعون للشركة، كانوا مرابطين أمام مجموعة المصاعد المخصصة للشركة. أحد هذه المصاعد كان مخصصاً للطابق الأعلى فقط من دون توقف. اتصل أحد الحراس كي يبلغ وين بوصولي. قال له وهو يرمقني بنظرة خاطفة: «هناك سيدة اسمها إنديا بالمر ترغب في مقابلتك يا سيدي.» استقليت المصعد السريع إلى الملحق.

رحبت بي الآنسة لين وهي امرأة في أواخر مرحلة منتصف العمر، كانت تتمتع بقدْرٍ وافر من الجمال في شبابها الذي كانت تصارع من أجل الإبقاء على بقاياه التي كانت تميزها عن غيرها من قريناتها – فالبوتوكس على سبيل المثال، لا يزيل التجاعيد إلا بنسبة ضئيلة، على شاكلة المكواة التي لا تكوي القماش بصورة جيدة لأنها ليست حارة بما فيه الكفاية. كان شعرها الأشقر معقوصاً بأناقة على قمة رأسها، وكانت عيناها الزرقاوان تلمعان بطريقة متلألئة في الوقت الذي كانت تزفُّ إليّ معلومة مفادها أن « الفتَيَيْن» هما بانتظاري في مكتب السيد رادالبينو. قامت بتمرير بطاقة تعريف بلاستيكية في جهاز من أجل فتح سلسلة من الأبواب الزجاجية، ولجنا بعدها إلى ما يشبه محميّةً من الزجاج والجدران البيضاء معلقة عليها مجموعة رائعة من اللوحات التي يمكن استثمارها فنياً – كان المكان فسيحاً جداً، وسقفه عالٍ بحيث تشعر

أنك في صالة عرض فنية. علمت فيما بعد، أن هذه كانت نوعاً من البدعة الجديدة التي قد يجدها المرء في عالم مصارف الاستثمار، خصوصاً تلك المصارف التي تبلي بلاء حسناً، وهي بمثابة جنة تعاونية لا يسمح بالولوج إليها أبداً إلا للقلة القليلة جداً من الأشخاص المُنتَجَبين.

تبعت الأنسة لين إلى الجانب الأخر من الملحق حيث مررت بلوحات لألفريد ستايغليتز وآرثر لايبزغ وعدد لا يحصى من الفنانين الأخرين – البعض منهم مغمور والبعض الأخر مشهور – وكانت كعاب أحذيتنا تطرق أرضية المبنى المرصوفة بالمرمر. لم يكن في ذلك الممر الطويل مكان للجلوس. كان جو الغرفة يغمره الضوء الطبيعي حتى في ذلك اليوم المليء بالسحب الداكنة. كان بإمكاني تميز التفاوت في درجة البياض كلما توغلنا أكثر في تلك البقعة من الملحق.

كانت الأنسة لين تسير أمامي ببذلتها البيضاء وتقودني إلى المكان الذي نقصده مثل كائن أثيري. كانت الصورة التي التقطها إدوارد ستايخين لغلوريا سوانسون بوجهها الذي تنسدل عليه قطعة قماشية عليها رسوم من الزهور تبدو وكأنها تراقب المكان. كنت أعلم طبيعة حياة مثل هؤلاء الفنانين، وكنت أتفهمهم بطريقتي الخاصة البسيطة. كنت أميز الرائحة الكريهة لذلك الخليط من حساء الملفوف وماء تحميض الأفلام، ورائحة الجسد التي تساهم في إخراج مثل هذه الصور؛ لكن كل هذه قد تم فصلها عن حياتهم، ووضْعُها خارج نطاق حياتهم كي تستقر هنا في غرف معبد الإله أبوللو التي يغشي ضياؤه الأبصار.

هناك مجموعة أخرى من الأبواب الزجاجية؛ ومرة أخرى تقوم الآنسة لين بتمرير بطاقتها الشخصية البلاستيكية في الجهاز المخصص لذلك، ندخل بعدها إلى غرفة انتظار فارغة هي الأخرى إلا من طاولة صغيرة زجاجية وعربة خفيفة ذات عجلات أربع، إضافة إلى أريكة تتسع لشخصين وكرسي منجّد بقماش مغزول بلون القشدة يتنافر مع درجات اللون (أجل) الأبيض. كان هناك باب زجاجي مطلي بلون دخاني يؤدي على ما يبدو إلى مكتب رادالبينو. قدّمت الآنسة لين لي كرسياً، وأخذت معطفي وسألتني فيما إذا كنت أرغب في شرب شيء ما. كانت هناك صورة التقطتها سالي مان لابنتها الشابة وهي تمسك بلفافة من التبغ، معلّقة على يسار مدخل المكتب. إلى يمين المدخل، علقت صورة من رسم غيرترود كاسيبير، لفتاة الاستعراض إيفيلين نيسبيت في بدايات القرن العشرين وهي ترتدي ثوباً أبيضَ عاري الكتفين. كانت الفتاة تنحني إلى الأمام بعينيْن وشفتيْن نصف مفتوحتين، وتحمل في يدها إبريقاً صغيراً مصنوعاً من السيراميك. كان الهدف من كل ذلك في رأيي، وهو ما أثار شعوراً في داخلي يشبه جرحاً قديماً، الإيحاء بأن المكان أصبح احتياطاً خاصاً لأحد أقطاب المال الذي جعل ركبتيَّ تصطكان.

جلست وشعرت أنني مأخوذة بالمشهد مرة أخرى. كنت على عتبة مرحلة جديدة مستلّة من عالم دانتي، وهذا هو رواقه الأبيض بالكامل. كان ذلك أشبه بامتحان لم يصممه أو يقرره رادالبينو، بل أنا. كانت دائماً ما تستهويني التفصيلات. كانت بمثابة الدم الذي يسري في عروق حياتي؛ لكنني كنت ألِجُ إلى عالم يجب أن يتطهر فيه المرء من مثل هذه التفصيلات إذا أراد أن ينجح فيه. هذا ما كان يطلق عليه تجار الضمان اسم «الضجة». كانت

مطالبهم تنسجم مع المطلب الأبولوني الذي يتوق إلى التماهي مع الإشارة الأكثر نقاء من أجل تنقية تلك الضجة (أي حساء الملفوف) والأزمات الأخلاقية المرتبطة بها، واستيعاب كل الأجزاء الصغيرة التي تحرف الانتباه، والتي استخدمتها مرة في حياتي اليومية – لكي يتم التخلص من كل ذلك، واقتناص تلك الإشارة، وذلك التوجه، أي انسياب التاريخ نفسه.

قلت للآنسة لين إنني لا أرغب في تناول أي مشروب، أقلّه ليس من النوع الذي كانت تعرض تقديمه في ذلك الصباح. قالت لي وهي تغمزني بطرف عينها غمزة العارف ببواطن الأمور من دون أن تضيف شيئاً أخر: «حسنٌ إذاً، أتمنى لك حظاً سعيداً معهما.» تصورت أنها كانت تلازم السيد رادالبينو منذ البداية. انتظرت هناك لبعض الوقت، وكانت لحظات من الصمت الذي يشعرك بالأمان. كان بالإمكان سماع أصوات مجموعة الدارات الكهربائية الخافتة. عادت الآنسة لين، وكانت هذه المرة تلفُّ وشاحاً أصفر من الحرير حول عنقها، كما كانت تحمل بين يديها صينية من الفضة وعليها ثلاثة أكواب من الكوباتشينو؛ قالت لي: «هل تحبين الكوباتشينو؟» لم تكن تتحدث بلهجة محددة. كانت تحمل الصينية بيدها اليسرى برشاقة وخفة، وبيدها اليمنى فتحت الباب. تبعتها إلى داخل الغرفة. كانت تنبعث من الآنسة لين رائحة تشبه رائحة الليمون. أحسست أن هناك شيئاً ما، يتعلق بشخصها كانت حريصة على أن تخفيه كما تبين لي لاحقاً. ما عرفته هو أنه لم تكن لديها حياة خارج نطاق المكتب. فوجودها كان ينحصر هنا فقط، أي ضمن هذه الجدران الزجاجية. كان من الغريب أن أكتشف أننا نتحدث اللغة نفسها تقريباً.

كان رالف رادالبينو يجلس خلف مكتب جدرانُه من الفولاذ والزجاج، وكان يظهر من ورائه الجانب الشرقي من المدينة، وكذلك النهر الشرقي الذي يتلوى مثل ثعبان بدين تحت السماء ذات اللون الرصاصي، كما كان بالإمكان رؤية منطقة بروكلين وما بعدها. كان بإمكانك من هذا المكان رؤية الحدود الفاصلة بين الطبقات بكل وضوح بدءاً من المركز الأسطوري لبارك أفنيو الفاحش الثراء وصولاً إلى أبعد نقطة في منطقتيْ كنارسي وشرقي مدينة نيويورك. كانت هناك مجموعة من الطائرات تنتظر دورها للهبوط في مطار لاغوارديا. كان وين يجلس على كرسي جلدية مصممة تصميماً فاخراً ولكنها كانت تبدو غير مريحة، لكنه هبَّ منها واقفاً عندما دخلت إلى الغرفة. مدّ يده إليّ مصافحاً وبعد أن أمسك بيدي جذبني إليه وقبّلني ثم قال: «وأخيراً». ابتسمت. كانت هناك سبع شاشات كومبيوتر مرتبة على نسقين وموضوعة على أحد أطراف مكتب رادالبينو الموشّى بخطوط خضراء غامقة، إضافة إلى بعض الصور والتماثيل.

«آسف لأننا تركناك تنتظرين طيلة هذه المدة.» كانت الطاولة التي يجلس إليها كبيرة، وكذلك كانت الكرسي التي يجلس عليها؛ لكن حجم جسمه الضخم قزّم الاثنتين، ناهيك عن وين. لو لم أكن كاتبة روائية، ولو لم تكن المسألة برمتها نوعاً من أنواع الدعابة، ولو لم أكن أعمل في حقل التدريس (بالرغم من بساطة هذه الوظيفة)، لكنت شعرت بالرهبة من هذا المشهد. قال رادالبينو: «أحد التجار أراد أن يكون ولوجه إلى عالم التجارة استعراضياً، وقد أحببنا محاكاته في هذا الأمر.»

وضعت الآنسة لين فناجين الكوباتشينو على طاولته. بعد جهاز الهاتف

مباشرة، كان هناك مجسَّمٌ لجهاز دوراني أسود قديم الطراز، وجرس مصقول يشبه الجرس الذي يستخدم لاستدعاء خدم الفنادق أو الحانات، لكنه مصنوع من الفضة الخالصة. عدا ذلك، كانت الطاولة فارغة على شاكلة أرض غرفة المكتب. غادرت الآنسة لين الغرفة مغلقة الباب وراءها. تحركت الصور على شاشات العرض أمام رالف. عرضت إحدى الشاشات رقصة لم يكن بإمكاني فهم مصدرها مطلقاً، وعلى شاشة أخرى، كان هناك عرض لأخبار المال والأعمال، لكن الصوت كان صامتاً.

قلت له: «هذا مصرف من نوع ما». كان شعر رأس رادالبينو البدين من وسطه، قصيراً وفضي اللون، ما أضفى على عينيه الزرقاوين الفولاذيتين المليئتين بالأسرار مسحة إضافية من القسوة بالرغم من أن غمّازتيْ خدّيْه كانتا تخففان من قسوة ملامحه عندما كان يبتسم. رمقني بتلك النظرة المليئة بالأسئلة والغموض. أضفت محاوِلةً شرح ما بدأتُه: «لم أكن أعرف أن المصارف هي على هذه الشاكلة.» كان يرتدي بذلة زرقاء اللون مخططة بخطوط ناعمة. كان خاتم زواجه يضغط بقوة على الإصبع الذي يضعه فيه. تابعت قائلة: «أين كل تلك الفوضى؟ أليست الفوضى هي المحرّك الذي يتسبب في كل ما يحدث؟»

قال: «هناك فوضى، لكنك لن ترينها هنا. لأن هذا المكان هو الدماغ، أما الفوضى فهي في الأسفل، أي في منطقة الأحشاء والدماء المتخثرة.»

قلت: «إذاً، فقد منحتموني بقدومي إلى هنا شرفاً عظيماً.»

«إنه شرف تستحقينه. ليس بإمكان أي شخص الدخول إلى هذا المكان؛

وربما لن تُدْعَيْن إلى هنا مرة أخرى.»

قال وين: «إنه صريح ولغته مباشِرة.»

«هذا واضح جداً.»

قال رادالبينو وهو يحدق في عينيّ مباشرة وبتحدٍّ لطيف: «وجودك هنا يثير فضولي.» تبين لي مرة أخرى أنه كان من الممكن أن أشعر حياله بالخوف لو كان...لو كان يجلس مكانه كافيللي الذي يعتمد توقيع عقدٍ لنشر إحدى رواياتي اعتماداً كلياً على قرار منه.

قلت: «أردت أن أستمع إلى ما سيعرضه عليّ وين.»

قال رادالبينو: «نحن نحب المراهنة. ربما نحن — كيف سأعبر عن ذلك يا وين؟ - مغرمون قليلاً بها. فالمراهنة بالنسبة إلينا هي بمثابة مغامرة مهنية، كما ستلاحظين في حال قررتِ الانضمام إلينا. فقد راهنني وين على أن بإمكانه أن يتبنّاكِ ويجعل منكِ تاجرةً، تاجرةً ناجحةً.»

قلت: «أنا ملمّة بالمصطلحات.»

«لكنني أعتقد أن من بين سلبيات وضعك، أنك كبيرة جداً في السن.»

قلت: «أشكرك.»

«كم يبلغ عمرك؟ ثلاث وثلاثين سنة، أو قريب من ذلك؟»

«قريب من ذلك.»

سأل رادالبينو وقد انتابه الذعر ليس خوفاً على نفسه بل على وين: «هل تعنين: أكثر؟»

أجبت: «أنت تعرف أنه لا يجوز أن تسأل سيدة عن عمرها الحقيقي.»

تدخّل وين قائلاً: «إنها أيضاً مباشِرة في مراوغتها في الرد على هذا السؤال.»

قال رادالبينو كما لو أنني لست موجودة في الغرفة: «إنها مادة خام جيدة المستوى.»

وجّه كلامه لي مرة أخرى قائلاً: «معظم صبيتنا هم من فئة الشباب.»

قلت: «هذا جزء من التحدي الذي نحن بصدده.»

«ما الذي تعرفينه عن المعارك؟ القتال؟ هل تحبين الدم؟»

قلت: «لا أظن ذلك.»

«إذاً، لماذا أنتِ هنا؟»

«هل من الضروري أن تراق الدماء؟»

«الأشخاص الذين يعملون لديّ تسيل منهم دماء خضراء[35]. من هذه المرأة التي أحضرتَها لي يا وين؟»

35 - المقصود بذلك أنهم يجنون له الكثير من الدولارات التي يرمز إليها باللون الأخضر (المترجم)

كدتُ أضحك وأنا أسأله: «دماء خضراء؟»

هَدَرَ قائلاً: «أجل، خضراء!»

قال وين: «استمعْ إلى ما ستقول.» ابتسم وين لي مشجعاً. لم ينتابه القلق حيال أيٍّ مما جرى حتى الآن. كان يحيط نفسه بهالة من الثقة التي أثارت إعجابي وغيرتي منذ أن وقعت عيناي عليه للمرة الأولى بعينيه الجاحظتين وسترته الجلدية وهو يشق طريقه وسط الرمال. كان ذلك يبدو وكأنه حصل منذ مدة طويلة. ومع ذلك، فلقد كان يوحي وهو يقبع في هذه المكاتب بأن التواضع هو جزء من طبيعته وسلوكه أيضاً.

«ما الذي تعرفينه عن عالم المال؟ هل لديك خلفية في علم الرياضيات؟ هل لديك أية فكرة عن الضمانات المالية، أو كيف يتم تسعيرها، ولماذا يرغب الناس في الحصول عليها، وكيف يتوقعون أن تكون سلف مدفوعاتهم، وماذا تعني عبارة «معدل تقييم قيمة العقار قبل عملية الإقراض» أو عبارة «تقييم نسبة المخاطرة»، أعني أساسيات العمل؟» توقف رادالبينو وبدأ يتمعن في ظاهر يده قبل أن يتابع أسئلته: «ماذا عن موضوع الرهن العقاري؟ ماذا يمكن لك أن تخبرينا عن كيفية تصميمها؟ ولماذا يريد أيٌّ كان اللجوء إلى الرهن العقاري؟ ما الذي يجعل المستثمر يرغب في منح قروض بفوائد أعلى لزبائن قد يتضمن إقراضهم العديد من المخاطر بغرض تجنب المنافسة في العديد من الولايات الرملية؟[36] فالرهان العقاري مسألة لها علاقة بالرياضيات.»

36 - المقصود بهذه العبارة ولايات كاليفونيا وفلوريدا وأريزونا ونيفادا وتتميز هذه الولايات بارتفاع أسعار المنازل فيها (المترجم)

كان يتحدث كما لو أن الناس جميعهم هم مستثمرون من نوع ما، وكان لدي حدس بأن مجرد وجوده قد أفسد الفكرة برمّتها. قال محاولاً تقدير ثمني وهو يركز نظره على صدري وكأنه يريد أن يرسم إشارة تعجب: «أنتِ، أيتها المرأة الجميلة الصغيرة، بالله عليك أخبريني ما الذي يدفعك للخوض في غمار هذا النوع من الأعمال؟ ألا يجدر بك أن تكوني في منزلك مع ابنتيك، وأن تشغلي وقتك بإعادة ترتيب أثاث المنزل؟» انحنى وين متجاوزاً إياي (كنت ما أزال حينها واقفة) والتقط الجرس من على الطاولة وقام بهزه. أراد أن يرن مرة واحدة. كان ذلك تصرفاً غريباً. قال: «من الأفضل أن تُبقي هذا الجرس في يدكَ يا جونز، لأننا سنقوم ببعض التدريبات هذا الصباح.» ثم خاطبني من جديد قائلاً: «سندات الضمان، أيتها الشقراء؟ وهذه البذلة سوف تؤدي بك إلى إقامة علاقة جنسية.» (كانت البذلة من المخمل الأسود المخرّم، أما التنورة فقد كانت ضيقة، وكان الحذاء الجلدي مفرّغاً من الجوانب.) قرع الجرس مرة أخرى. (لفتت نظري هذه الجزئية. لو كنت أتفحص هذا المشهد لأضمه إلى رواية أكتبها، لدونته على النحو التالي: هناك شخصان غريبا الأطوار يفصل بينهما جرس، وكل المال الموجود في العالم.)

قلت: «أنا لا أدّعي أنني أعرف الكثير عن أي شيء؛ لكنني أؤمن بحقيقة أنني أعرف القليل عما يرمي إليه وين.»

سألني رادالبينو وهو يقف ويشير إلى الأريكة والكراسي: «هلاّ تفضلتِ بالجلوس؟» ألقى بثقله على الأريكة، أما أنا ووين فقد جلس كل منا على كرسي. دخلت الآنسة لين وهي تحمل صينية عليها إبريق مليء بالماء المعدني وثلاث كؤوس وضعتها على الطاولة الزجاجية، وبينما كانت تهم بالخروج

سألها رادالبينو فيما إذا كانت تظن أنني أصلح لكي أكون سيدة أعمال ناجحة. قال لها وهو يضع إصبعه على شفتيه: «لكن الصمت هو أبلغ من الكلام.» ثم سألها: «هل يمكن أن تنجح النساء في عالم التجارة؟» وتابع قائلاً: «أستطيع أن أعدّ على أصابع يد واحدة من يديّ عدد سيدات الأعمال التي تساوي الواحدة منهن سنتاً واحداً في وول ستريت.» قرع وين الجرس في الوقت الذي عَلَتْ وجهَه ابتسامةٌ خفيفة.

بينما كان رادالبينو ينظر باتجاه الآنسة لين، كنت أتفحص وين بعينيّ. كان يرتدي بذلة بنية اللون أضفتْ بريقاً إضافياً على عينيه الجميلتين. كان يبدو جذاباً جداً بأسلوبه الطفولي المتميز الذي عرفته فيه، وهو السمة الملازمة له كنموذج لرجل الأعمال – من المنزل إلى الجامعة إلى جني الملايين؛ لقد كانوا مجموعة منغلقة على ذاتها مثل الشرنقة. كانت سيارات الشركة تقلّهم من وإلى كافة أنحاء المدينة؛ وكانوا يطيرون إلى باريس فقط لأنهم كانوا يحبون الطريقة التي كان أحد الفنادق ينظف فيها ملابسهم. كان تذوّق السيجار الذي يكلف الواحد منه مائة دولار، واحتساء النبيذ الذي يبلغ ثمن الزجاجة منه ألف دولار جزءاً من متطلبات الوظيفة. ومع كل ما يفترض بأثاث هذا الطابق أن يوفر من هدوء لنازليه، إلا أن وين لم يكن يبدو أنه يتمتع بكامل هذا الهدوء الآن. ربما كان هادئاً إلى حد ما، أو أنه كان يحاول أن يبدو هادئاً؛ خصوصاً وأنه يعلم أن الهدف هو أن عليه أن يبدو هادئاً. لكنني كنت أعلم علم اليقين أن هذا الهدوء المصطنع، يخفي تحته الكثير من الحماسة والجاهزية للانطلاق – مثله مثل شخص يقف أمام طاولة الروليت والحظ يقف إلى جانبه وهو يقرع جرساً غريباً. كان واضحاً أيضاً أن رادالبينو واقع تحت سيطرة

وين الكلّيّة، بالرغم من أنه غير مدرك البتة لوضعه هذا. رمقني وين بعينيه ثم نقلهما بسرعة باتجاه الأنسة لين، وقال: «إن الأنسة لين ملازِمةٌ لرادالبينو منذ ثلاثين سنة.» ومن خلال عينيه التي شعرت أن سهامهما تخترقني، تساءلت فيما إذا كانتا توحيان بشيء من التوتر يعتمل في داخله. فنحن لم نقابل بعضنا بعضاً قبل هذه المرة من دون أن يكون كلانا قد احتسى جرعة لا بأس بها من الشمبانيا. أم أنني كنت فقط أشبع غروري؟

أضاف رادالبينو: «لم تشأ يوماً في أن تغامر بالانخراط في مجال عملنا. فهي بصفتها امرأة، أذكى من تقوم بمثل هذه المغامرة.» (الجرس قرع من جديد.) ألحّ عليها مرة أخرى قائلاً: «إذاً، ما رأيك يا آنسة لين؟»

قالت بلطف تشوبه مسحة من الكبرياء الممزوجة بتوق للالتصاق أكثر بالجنس الذي تتحدث عنه: «هذه النسوة العصريات يُبدين ثقة متزايدة بقدراتهن على فعل أي شيء.»

أعاد رادالبينو وضعي في دائرة الضوء مؤكداً على كلمتيْ «لماذا» و «ماذا» متجاهلاً الأنسة لين حين وجه سؤاله لي: «إذاً لماذا أنتِ هنا اليوم، وما الذي تأملين تحقيقه بقدومك إلينا؟» كانت تلك فكرة راودته فيما بعد — وكان معتاداً على ما يبدو على أن تأتيه الأفكار متأخرة. تابع متسائلاً: «أليس باستطاعة زوجك إعالتك؟» من جديد، قرع وين الجرس.

قلت ببساطة، في الوقت الذي كنت أحاول أيضاً استيعاب ما يعنيه قرع الجرس: «أنا هنا من أجل المال. جميعكم يكسب الكثير منه؛ من ناحيتي، أشعر بالفضول لأعرف كيف تكسبون هذا الكم الهائل من المال، ولماذا.

إنني لا أقل فضولاً عن وين لمعرفة فيما إذا كان محقاً، لأفهم فيما إذا كان بإمكاني القيام بما تقومون به هنا — أن أخطو فوق طريق لم يخْطُ فوقَها أحدٌ بعد. هذه هي الفكرة بتقديري.»

قال، وقد ازداد حجمه البدين انتفاخاً: «بتقديرك؟ نحن لا نتعامل بالافتراضات هنا. إنني أقتلع حلق كل من يقول لي إنه يفترض.»

لم يكن ليخيفني بلغته الحربية. قلت: «لقد قمت بإجراء بحث صغير. أفهم ما الذي يفعله وين إلى حد ما. فهو يدير باقتدار ميدان التجارة التي تتناول كل أشكال الرهن العقاري والأسعار.» تابعت شرح كل ما أعرفه عن الموضوع. لقد هيأت نفسي لهذه اللحظة. تحدثت عن الاتفاقيات بين المضاربين في البورصة وعدد الأسهم التي يملكها مساهمون في الشركات، وكيفية تحويل سندات الرهن العقاري إلى خيارات استثمارية قابلة للحياة بالنسبة إلى المستثمرين الكبار، وشركات التأمين وصناديق التقاعد — وهي بنىً وفّرت العديد من خيارات المخاطرة. علمت أيضاً، وتأكدت من أنه يعلم أنني أعلم، أنه في فترة الثمانينات، كان من بين المهندسين الأوائل لفكرة الالتزامات المتكافئة للرهن العقاري، وهو ما أدى إلى تأمين تخوم الأمان الذي يوفره الرهن العقاري الذي ازدهر في أيامنا هذه. تركني أتحدث بنفس الطريقة التي تسمح فيها للسمكة أن تتحرك. «لديك عقل رياضي بإمكانه استيعاب كيف تتحول الاتفاقات الكبرى بين المضاربين إلى سندات ضمان تشكل عوامل جذب للمستثمرين من كافة الفئات.

كنت أتحدث بتوازن لكنني شعرت أنني أنزلق إلى حفرة الأرنب. فلقد

قرأت الكثير عن رادالبينو في الصحف وعلى الإنترنيت. كان هناك الكثير مما يمكن أن أقرأه عنه. فقد كان يسكن في قصر مكون من عشرين غرفة في منطقة إيست إيتيز، وعلى سطحه، كانت هناك مساحة للتزلج في الشتاء، يحولها إلى مسبح في فصل الصيف. وكانت أكثر مقتنيات القصر قيمة تتمثل في المجموعة التي تمتلكها زوجته من الفنون المعاصرة أهمها كان لوحة من رسم داميان هيرست، وهي عبارة عن قرش نمري ينفث غازاً ساماً. لكن المنزل وسمكة القرش ليسا سوى تفصيل، أو تجهيزات تمثل ما أنفقه كل من رالف وبريتي من فائض أموالهما. لقد كان هذا ما جَنَياه طيلة حياتهما نتيجة لجهود مضنية بذلاها في هذا السبيل، وكان الفضل الرئيسي يعود إليه بالتأكيد. استطاع أن يضع يده على شركة بي أند بي من خلال دخوله خلسة إلى إحدى مؤسسات الضمان التي كانت على وشك الإفلاس، وعلى شفير الانهيار، والتي حوّلها إلى واحدة من أكثر شركات بيع الملابس ربحاً ونجاحاً بمنافسة نظيفة في وول ستريت. استخدمت عبارة «منافسة نظيفة» بقصد التركيز على النتيجة. أطلعته على كل ما كنت أعرفه، بالرغم من أن ذلك لم يتضمن أية معلومة عن قصره أو لوحة سمكة القرش.

شبك يديه وبدأ يتفحصني. كان يعبث بإصبعيْ أبهامه. أظن أنه كان سيسرّه سماع ما قد أقوله عن قصره أو سمكة القرش، فقط بسبب أنه قد تعجبه فكرة اهتمام أحد الغرباء بمعرفة التفصيلات حول ما مهّدَ له سبل الوصول إلى ما وصل إليه من مال وشهرة.

أضفتُ قائلةً ليس بقصد المجاملة بل بقصد الدقة: «تبلغ قيمة كفالات سوق الرهن العقاري اليوم ثمانية تريليون دولار؛ ويعود ذلك إليك وإلى

زملائك من المستثمرين. لقد وضعتم اليد على الديون الضمنية للرهانات العقارية الفردية وقمتم بتحويلها إلى أكبر سوق رأسمالي في العالم، متجاوزين بذلك بأشواط، قيمة أسواق الأسهم الأمريكية مجتمعة. أنا أحب القصص؛ وهذه بالتأكيد، قصة رائعة.»

قال: «وأنت تحبين المال، يعجبني فيك حبك للمال. عليكِ أن تحبي المال. هذا النبض الخام هو بمثابة القلب. لذا أتوق إلى سماع ما ستقولينه عن المال. ما هي القصص التي يمكنك أن ترويها لي؟»

قبل أن يتسنى لي الظهور بمظهر من تملّكته الحيرة، تدخّل وين في الحديث. قال: «يريد أن يطّلع على البرامج التي انخرطتِ فيها عندما كنت فتاة في مقتبل العمر، أعني الملامح الأولى لطبيعتك المهنية. هذا هو السؤال المفضل لديه عندما يجري أية مقابلة؛ ذلك أنه عندما ينتهي من الأسئلة المتعلقة بقضايا الرياضيات، فإنه يرغب في سماع قصصٍ تصف هذه العاطفة.»

سألت وين: «ما هي قصتك؟»

قال: «الألعاب النارية. كانت ممنوعة قانونياً في البلدة التي كنت أعيش فيها، ولكنها لم تكن كذلك في البلدة المجاورة. وهكذا كنت أذهب إلى تلك البلدة راكباً دراجتي كي أشتري كمية منها وأحضرها معي إلى بلدتي بغرض بيعها وجني بعض الأرباح منها. كنت أشتري كميات كبيرة منها وأقوم بتقسيمها إلى كميات متساوية — »

قال رادالبينو: «إلى أسهم.» ضحكتُ.

«لقد استوعبتِ الدعابة.»

قلت وأنا أتخيل شكل وين في صباه وهو يركب دراجته متنقلاً بين البلدات حاملاً مجموعات من الألعاب النارية: «أجل استوعبتها». لكنني كنت أحاول اجتراح قصتي الخاصة بي. لم تكن لدي قصة جاهزة. فحياتي في طفولتي كانت سهلة وآمنة. عنّت على خاطري إحدى صديقاتي التي مرّت بطفولة تنبض بالحيوية. كان هناك الكثير من الأطفال، وزوج أمها المجنون. كانوا يسكنون في منزل بمنطقة من السكن العشوائي. وقد كتبت إحدى صديقاتي من كلية الدراسات العليا التي درستُ فيها رواية حول هذه المرحلة من طفولتها؛ وتذكرتُ مشهداً كانت فيه راوية القصة التي تبلغ من العمر عشر سنوات قد أجّرت غرفة نومها لأحد أصدقاء أخيها مقابل عشرة دولارات بحيث يصبح بإمكانه استئجار مكان يستطيع الاختلاء بحبيبته فيه. قلت لهما: «لقد أجّرْتُ غرفتي»؛ ورويت لهما القصة. كانت قصة ديرك فاندووتر وصديقته سنشاين. كان ذلك في سبعينات القرن العشرين – كانت الأسماء والتواريخ جميعها مقتبسة من رواية كالي كرين الموسومة: «ثغر النمر». كنت أعرف أن أياً منهما لم يقرأ هذه الرواية قط؛ حيث لم يتجاوز عدد النسخ التي بيعت منها الألفين على أبعد تقدير. قلت: «استثمرت المال الذي جنيته من تأجير غرفتي في شراء منتجات «آفون» التي كنت أبيعها متنقلة من منزل إلى منزل. وعندما بلغت سن السادسة عشرة، كان في حسابي المصرفي ما يزيد على ستة آلاف دولار.»

«إذاً، فقد كنتِ قوّادة.»

قلت وأنا أرفع ذقني مُتابعةً عبارته: «...راقية».

«وما الذي فعلتيه بالسيولة النقدية؟»

«سافرت إلى أوروبا، وتعلمت اللغة الإيطالية، ووقعت في الحب.»

«أنفقتِ المبلغ بكامله؟»

«أنا أحب المال لأنني أستطيع إنفاقه.»

«تحبين؟»

كان محقاً. لم أشعر بالراحة وأنا ألفظ كلمة «أحب» عندما كان الأمر يتعلق بالمال. فلم أتربّى على مثل هذه الطريقة. لكنني قلتها الآن. قلت إنني «أحب المال» لأنني فهمت الموضوع فجأة، ولأنني أردت ذلك. أردت ذلك بشدة.

سأل وين رادالبينو: «بكم تراهن عليها؟» تابعت الطائرات الهبوط في المطار، الواحدة إثر الأخرى، وكانت تطير على علو منخفض فوق منطقتيْ بروكلين وكوينز. من هذا المكان، كان النهر الشرقي يبدو مغرياً وجذاباً، وكانت المدينة تبدو هادئة كالهدوء المصطنع الذي يلف هذه الغرف من حولي.

سألت: «هل أنا فرس رهان؟»

قال وين: «أجل أنتِ بالفعل كذلك، يا حبيبتي. وهذه هي ساراتوغا.»

أمسك رادالبينو بالجرس وبدأ بقرعه.

سأل وين رادالبينو: «حقاً، هي كذلك أيضاً؟» ابتسم رادالبينو بدوره، وقام بهز الجرس من جديد.

أكد قائلاً: «هي كذلك بالفعل.»

قال وين: «كما تشاء.»

سألني رادالبينو: «كم تجنين الآن؟»

قلت: «ما الذي تعنيه؟»

أجاب باقتضاب وقد غارت مسحة المرح من فوق وجهه بسرعة فائقة: «أنتِ تعلمين تماماً ماذا أعني.»

وضّح وين السؤال قائلاً: «يقصد المرتّب.»

«لست متأكدة في أنني أرغب بلعب دور إليزا دوليتل.» لقد كنت أكذب؛ فقد كانا يتحركان بسرعة.

قال رادالبينو: «لا تكوني خجولة. أنت هنا لهذه الغاية. لقد قلتِ ذلك بنفسك.» توقف قليلاً كي يتفحص أبهامه مرة أخرى ثم أردف قائلاً: «سوف يكون الأمر مسلياً.» كانت نغمة المرح في صوته قد أعادت جو الغبطة إلى اللقاء مرة أخرى — بالرغم من أنني لاحظت أن تلك الغبطة أخذت وقتها في احتلال تعبيرات وجهه بالكامل.

كان كل ذلك شكلاً من أشكال الدعابة. كانت لعبة. كنت مجرد

سمكة قرش أخرى تنفث غازاً ساماً، أو مجرد قطعة فنية في المكتب؛ لم أكن أكثر من صورة حية تتبختر في قاعات هذا الطابق. خطرت ببالي عينا غلوريا سوانسون، فأي شيء قابل للشراء. وإذا كانت هذه بداية علاقة غرامية، فذلك يعني الوصول إلى نقطة اللا عودة.

قال رادالبينو: «سوف أراهن على راتبها، وسأمنحها راتباً مقدماً، كما سأمنحها مكافأة في حال أدائها مهمتها بنجاح. وسيكون ذلك بضمان عقدي. هي كاتبة. ما هو الراتب الذي تعتقد أنها تستحق الحصول عليه؟» كبس زراً متوضّعاً في مكان ما تحت طاولته، وتحدث إلى الآنسة لين طالباً إليها أن تحيط قسم الموارد البشرية علماً بذلك. «سوف أدعمها بالرغم من أنني أضع رهاناً ضدها. هذه ضربة وقائية لتجنب الخسارة. هل هذا يلبي متطلباتك يا جونز؟ أو «حماقتك» كما تصفها؟»

قلت: «عندما كنت في سن أصغر، كنت أتخيل مستقبلاً مغايراً.»

قال رادالبينو: «اقرع الجرس، إنها تتحدث بلغة فلسفية. لا نريد فلسفة هنا يا آنسة بالمر، بل أدمغة تتحرك بسرعة.»

سألت: «ما هذا الجرس الذي لا تنْفكُّ تقرعه؟»

قال: «ستعرفين القصد من ذلك في الوقت المناسب يا آنسة بالمر.»

قال وين وهو يغمزني بعينه: «أدمغة تتحرك بسرعة.» وبالرغم من أن وين كان يسيطر بوضوح على الموقف، إلا أنه بدا شخصاً مختلفاً في حضرة رادالبينو؛ فقد كان أكثر وعياً بالجهد المبذول من أجل التحكم بأمثاله، كما لو

أن تلك القوة يمكن أن تختفي بلمح البصر وتتحول إلى بِرْكةٍ من الوهم تحت قدميه، أو إلى سراب لما كان يوماً ما، حقيقة.

«كم يبلغ راتبكِ؟»

«أجني بعض المال. فأنا أكتب في بعض المجلات، وأجني بعض المال من ريع رواياتي، إضافة إلى وظيفتي التدريسية.»

سأل وين: «هل كانت سنة جيدة على الصعيد المالي؟ لا تكوني خجولة. إن المسألة لا تتعدى حدود المال.» «لا تتعدى حدود المال»: فقط بالنسبة لمن يملكون الكثير منه.

هززت كتفي باستخفاف وقلت: «سنة جيدة؟ ربما وصل دخلي إلى ما يقارب المائة وخمسين ألف دولار.» كنت أشعر بأنني أتعرى أمام حفنة من الغرباء. كان جني مثل هذا المبلغ يشعرني بالفخر فيما مضى. لو عرفت عندما كنت في سن العشرين أنني عندما أبلغ سن الثامنة والثلاثين، سوف أكسب مثل هذا المبلغ من المال، لظننت أنني سوف أكون قد حققت نجاحاً باهراً، حتى لو كنت قد بالغت في الرقم قليلاً الآن.

سأل وين: «هل وصلت الأمور إلى هذه الدرجة من السوء؟» توجه بعدها بالسؤال إلى وين: «لماذا لا تعيّنها في قسم المبيعات؟ أعطها شيئاً يكون الربح فيه مؤكداً. فابتسامتها جذابة، وسيغرم بها اليابانيون.»

قرع وين الجرس ثم قال: «لأنني أنوي أن أجعل منها نجمة، وكما تعلم، فإنك لا تعثر على النجوم في أقسام المبيعات.»

خطرت ببالي ليلي ستار وتصورتها وهي تثرثر هامسة بأحاديث عني وهي تنتقل من أذن إلى أذن. أردت أن أكون نجمة. أردت أن أعمل بجدٍّ، باذلةً الكثير من الجهد؛ وتملكتني مرة أخرى هذه الإثارة الرائعة التي تسري عادة في دم المقامرين. كنت أقامر بكل شيء على لا شيء.

قال رادالبينو: «فهمت.» مدّ هذه العبارة بحيث تبدو وكأنها توحي بأكثر مما تعنيه في الواقع. تابع القول: «إن سياستنا تؤكد على وجوب دفع رواتب عالية جداً. يجب أن تكوني على علم بذلك. باستطاعة وين أن يوضح لك هذا الأمر، وسوف يضعك في صورة كافة التفصيلات. هذه فرصة جيدة بالنسبة إليك، ومثل هذه الفرص لا تقع بالمصادفة في حضن أيٍّ كان. أعتبر كلمة وين هي الكلمة الفصل. حياتك الشخصية هي ملكك وحدك في نهاية المطاف، على ما أظن. ستكونين حرة.» ظننت أن الحرية هي عملة الكتابة. ختم قائلاً: «إياك أن تقللي من شأن ما يمكن للمال أن يفعله.»

سألته: «ماذا تتوقع أن تجني من وراء كل ذلك؟» لم تستطع طريقته الفظة في الكلام أن تردعني. في هذا اليوم لم يكن بإمكان هذا الشخص بإمبراطوريته وعالمه الموشّى باللون الأبيض والأضواء ممارسة سيادته عليّ. ليس بعد. كان كل ما تَقدّم، لا يعدو كونه جزئياً على الأقل، تكتيكاً رائعاً في فن المماطلة — لم يكن سوى هروب من الصفحة البيضاء الفارغة والطاولة الموحشة. كانت حياتي الماضية ما تزال بانتظاري بالرغم من أن كسب مائة وخمسين ألف دولار إضافة إلى مكافأة مؤكدة، قد استحوذ على تفكيري بشكل مطبق بعد أن أزحت من تفكيري كل ما عداه. كان المطلوب هو التمهل، تماماً كما نفعل عند الدخول إلى حوض الاستحمام المليء بالماء الحار.

قال رادالبينو: «أنا موجود هنا كي أوفر السعادة لوين جونز. فهو يوفر لي السعادة، وأنا بدوري أوفر له السعادة.» كان يتحدث بنبرة فيها القليل من السخط، لكنني شعرت بأن هذه النبرة مفتعلة أكثر مما هي حقيقية. كان واضحاً أنه يستمتع إلى حد كبير باللعب – اللعب بأي شيء، وبكل شيء.

سألت وين: «إذاً، ما الذي تتوقع أن تجنيه من كل ذلك؟» كنت أعلم أن مرتبي لن يشكل أي فرق بالنسبة لطبيعة العمل؛ فمن الممكن أن يتم اقتطاعه من المكافأة التي يحصل وين عليها أو حتى من راتبه من دون أن يلاحظ هو ذلك.

أحاطني وين بنظراتٍ من عينيه اللتين تشبهان لون الشوكولاته وقال: «أنتِ». ترك هذه العبارة الجريئة معلقة في الهواء لبرهة – تمثلت في رغبته في أن يتركني في حال من عدم الاستقرار. تابع قائلاً: «لقد أظهرتِ رغبة في اللعب. أعجبني ذلك. فقد أثار لدي شعوراً بالدافع.» توقف قليلاً ثم أضاف: «وأنت فنانة وكاتبة موهوبة تعجبني أعمالها، ويبدو أن الفنون بحاجة إلى قليل من المدخرات هذه الأيام.» تبين لي بعد سماعه أن التحدي أضحى أكثر تعقيداً. هل أراد بفعلته إنقاذ الفنون أو تحطيمها؟ انتهى به المطاف إلى القول: «أنا أملك من المعرفة ما يكفي لأستبين أن باستطاعتي القيام بذلك.»

قال رادالبينو: «يعتقد أنه لا توجد لمسة من السحر أو الجاذبية فيما نقوم به. كما يؤمن أن نجاحنا ليس نتاج موهبة كامنة فينا أو فطنتنا المالية، وبالتالي فإن أي شخص يمكن أن يقوم بما نقوم نحن به.»

قال وين: «نحن تجار سيارات مستعملة؛ هذا كل ما نحن فيه وعليه في واقع الأمر.»

«أجل، إنه يحب استخدام مثل هذه الاستعارة. سوف تتاجرين بأعداد كبيرة من سيارات التويوتا والهوندا؛ ولكن حذار من الاتجار بسيارة فورد القديمة من نوع «تي»، إذا حدث واقتنيت واحدة منها.»

قال وين: «إذا فشلتِ، وأنا متأكد من أنك لن تفشلي، فقد أتحول إلى شخصية في روايتك القادمة – مثل إيما تشابمان، صحيح؟ وبالتالي، فكما تلاحظين، أنا سأنجح حتى لو خسرت. لكنني لن أخسر؛ فأنا لا أخسر.»

«إنه يقوم بعمله كما ينبغي يا جونز. إن فتاكِ يحقق ما يصبو إليه من جديد رغم المخاطر.» قفز الاثنان من مقعديهما وتوجّها صوب الشاشات – خطوط خضراء تعلوها. بدأا يتحدثان بلغة غير مفهومة. توجّه إلي بالقول: «سنيك يتحكم في السوق بكاملها. كان محقاً بشأن المنعطف على الطريق 6 س. إنه كمين. لن تكون النتائج الوخيمة قليلة أبداً. «تنفيذ خطة جيدة الآن بطريقة عنيفة أفضل بكثير من خطة كاملة خالية من النواقص الأسبوع القادم.» يا جنرال باتون.»[37] كان وجهه الذي أرى صورته على الشاشة الخضراء، مليئاً بالحبور. قال رادالبينو وكأنه يغني، رافعاً قبضتيه وهو يهزهما باتجاه السماء بحيث بدا وكأنه يريد أن يستمطر الثلج الذي بدأ يتساقط بلطف خارج النوافذ، وكما لو كان يريد أن يستجلب بقعاً من الضوء من أجل ضمها إلى مجموعته المنيرة – وهي بقع تشبه كل تلك الدولارات التي كان أبي

37 - الإشارة هنا إلى شخص الجنرال جورج باتون (المترجم)

يحاول أن يوفرها وهي تتناثر على الأرض كي يبذّرها فيما بعد، وليس لأي هدف آخر: «آه! كم أحب ذلك.»

«إننا سننقله إلى قسم القروض ذات الفوائد الأعلى التي تمنح للزبائن الذين يتضمن إقراضهم مخاطر أعلى، يا جونز. سوف يكون هو رئيساً للمكتب. مهّدْ لصديقتكَ الجميلة الصغيرة الطريق للقيام بذلك، وستكون يا جونز الساحر النجم.»

أخذني وين من القصر الزجاجي إلى القبو. كان مكتبه، وحال الفوضى التي تخيلتها في مثل هذا المكان حيث الأوراق والكتب وأجهزة الكومبيوتر مبعثرة هنا وهناك، له واجهة زجاجية أيضاً؛ لكن الزجاج في هذه الحال، كان شفافاً وليس مُدخّناً، وبالتالي فقد كان بالإمكان رؤية طابق المعرض من خلاله – لقد كان بمثابة إمبراطورية بحد ذاتها بمساحة ملعب للتزلج أو كرة السلة. كان السقف عالياً، وتحت ذلك السقف، كانت هناك صفوف خلف صفوف من الطاولات مفتوحة على بعضها بعضاً من أجل سهولة انسياب المعلومات بين طاولة وأخرى. خلف كل طاولة، كان يجلس رجل (لم تكن هناك سوى أعداد قليلة من النساء)، وكان الجميع منهمكين في التحدث على الهاتف أو مراقبة شاشات الكومبيوتر، وكانوا ينقرون على لوحات مفاتيح لا سلكية، كما كان بالإمكان سماع أصوات خافتة صادرة عن التيار الكهربائي، ورنين أجراس الهواتف. في وسط الغرفة، هناك مساحة فارغة، تتدلى فوقها من السقف علبة ضخمة تحتوي على عدد من الشاشات تعرض نفس الأشكال والمخططات والجداول والمعلومات المعروضة في مكتب رادالبينو. كانت هناك شاشة خاصة بالأخبار – في حال حدوث كارثة، كما أخبرني لاحقاً. ففي

صباح الحادي عشر من أيلول، سبتمبر، سنة 2001، على سبيل المثال، كانت الأخبار المباشرة التي ظهرت على تلك الشاشة تتناول قرار جميع التجار بتجميد كافة التعاملات التجارية على الفور. كانت الضجة مستمرة لكنها لم تكن عالية النبرة، كانت بمثابة إيقاع رتيب للمال الذي يتم جنيُه. كانت الأضواء المنبعثة من الأعلى ساطعة لدرجة أنها كانت تغطّي على أي ضوء طبيعي يمكن أن يتسلل إلى جو الغرفة.

قلت: «هذا منظر ساحر؛ إنه يشبه الآلة.» عندما أغلق وين باب مكتبه، تلاشت الأصوات المنبعثة من صالة المبيعات، ولكن كان بإمكانه رؤية كل شيء فيها حيث هو. كان مكتب وين يطل على الجانب الشرقي من المدينة أيضاً، وبالرغم من أنه كان في طابق أدنى من الطابق الذي يحتله رادالبينو بعشرة أدوار، إلا أن المنظر لم يكن يقل روعة، بالرغم من أنه كان أكثر فوضوية. وكانت طائرات الهيلوكبتر التي لمحتها قبلاً تطن مثل الذباب. لم تبدُ المدينة من هنا على نفس الدرجة من الهدوء، وبدا الأمر كما لو أن القوة الإلهية أرادت للأمر أن يكون على هذه الشاكلة: الطاقة تولّد الطاقة. فتحتُ الباب بسرعة فقط كي أسمع الصوت من جديد، ثم أغلقته بسرعة مماثلة. نظر إليّ وين وأمارات المتعة على وجهه. كانت هناك آلة تحتوي على كرات من المطاط متوضعة خارج الباب وكانت مليئة بالكرات الملونة.

قلت له: «ليست لدي أدنى فكرة عن طبيعة عملك؛ إننا في خضمّ من الفوضى الجميلة، أو دعني أقول: إنك أنت في خضم هذه الفوضى. هذا المشهد هو إما نكتة كبيرة، أو أنك أحمق بالكامل.» فتحت الباب مرة أخرى ثم أغلقته وأنا أقول: «إن هذا المكان أشبه ما يكون بخلية نحل؛

فهناك الكثير من النحلات العاملات اللواتي يجمعن كماً كبيراً من العسل اللذيذ.»

«ما قلتيه هو استعارة عملية. سوف تتعرفين على طبيعة عملنا. الجانب الإيجابي في المشهد هو أنه لن يكون عليك فهم هذا المشهد بكامله – المطلوب منك هو استيعاب طبيعة عملك أنتِ فقط. لا أحد يفهم المشهد بكليته؛ ليس في هذه الأيام بطبيعة الحال، ولا حتى رادالبينو المختلي بنفسه فوق، في صومعته. في حقيقة الأمر، ربما كان هو أقل العارفين ببواطن الأمور هنا، ولهذا السبب فهو لديه الكثير من وقت الفراغ، وبالتالي يستطيع أن يمارس رياضة الغولف. لكن هذا ليس له الكثير من الأهمية.»

طلب إليّ الجلوس – كانت كرسياً جلدية عتيقة لكنها مريحة. «العمل بسيط. هناك معادلة واحدة فقط. التاجر تهمه مسألتا الربح والخسارة. هل ترين أولئك الرجال؟» رفع رأسه كي ينظر إلى أرض الصالة. لم يشرْ إلى أي منهم بعينه؛ لكنه تابع قائلاً: «إنهم يأتون إلى مانهاتن يومياً؛ يعبرون الجسور ويستقلون القطار المعلق الذي لا يتوقف عن الحركة تحت الأضواء، وهم يسعون إلى وضع أيديهم على المدينة بأكملها. «قد يكون هذا هو اليوم الذي أحقق فيه النجاح.» هذا ما يفكر فيه كل واحد منهم. يصر رادالبينو على أن يكون المشهد على هذه الشاكلة، ويردد: «لِتَسِلِ الدولارات، لِتَسِلِ الدولارات.»

عرّج بعد ذلك على استعارته المتعلقة بتجارة السيارات المستعملة، وطريقته المتواضعة التي يعرض فيها لبساطة طبيعة العمل؛ وكان بإمكانه من خلال

ذلك إزاحتهم جميعاً من موقع المنافسة. هناك عدد محدود من صالات عرض السيارات في الجوار؛ وتحتوي هذه الصالات على مجموعة من مختلف أنواع السيارات. مالك أحد المعارض لديه أعداد كبيرة من السيارات القديمة (Pacer) التي تسير بسرعات متدنية – هل تتذكرون تلك السيارات القبيحة التي تصدر أصواتاً أشبه بالمفرقعات أثناء سيرها؟ ويعرف هذا الشخص أن استهلاك هذا النوع من السيارات للوقود اقتصادي بالمقارنة مع أية سيارة مستعملة أخرى، كما يعرف أن أسعار الوقود على وشك أن ترتفع. ويعرف أيضاً أن الاقتصاد ليس معافى، وأن هناك أخباراً سيئة بانتظار المستهلك. يعرف أن سيارة بايسر هي من أكثر أنواع السيارات أماناً في الطقس الممطر، وأن أمطاراً غزيرة سوف تهطل في الشتاء القادم، كما يتوقع خبراء الأرصاد الجوية. يتصور هذا المالك أن بإمكانه فتح سوق لهذا النوع من السيارات، وهو يعرف من أين يحصل عليها، كما يعرف أن تاجراً آخر بحاجة إلى بيعها، وبالتالي فهو يصل إلى استنتاج مفاده أن بإمكانه جني أرباح طائلة من الاتجار بهذا النوع من السيارات. لهذا السبب، يبدأ بتكديس أعداد كبيرة منها وشرائها على حساب رأسمال الشركة. أصبحت لديه الآن أعداد كبيرة من سيارات Pacer ما جعله يعرضها للبيع بأسعار متدنية مبدئياً قبل أن يحدد سعراً نهائياً لها فيما بعد؛ وفي الوقت الذي يبدأ الناس باستيعاب الأسباب التي تدفعهم لاقتناء سيارة بايسر مستعملة، ونظراً لوجود رغبة كبيرة لديهم في القيام بذلك (جميعنا يعرف عن قوارض اللاموس) فإنه يبدأ بالترويج لفكرة وجود طلبات كثيرة عليها، ثم يبدأ برفع سعرها تدريجياً بينما يبدأ تجار السيارات المستعملة الآخرون يفركون رؤوسهم وهم في حيرة من أمرهم حول طبيعة ما يجري من حولهم فيما هو يتحفز من أجل الوثوب عليهم،

وتوجيه الضربة القاضية إليهم. الآن، جميع التجار الآخرين يريدون المتاجرة بسيارات بايسر أيضاً، ولذلك فإن صاحبنا ينتقل إلى المتاجرة بسيارات أوبل وإسكورت وأسباير ويستخدم الأسلوب نفسه مرة أخرى.

كان يتحدث بسرعة وثقة، وكان يتلعثم أحياناً بسبب نقص في طلاقته في التعبير وليس بسبب سوء قدراته البلاغية – كان يتكلم بطريقة ابن اللغة الأصلي الذي يتحدث بسرعة. كان لدى تاجر السيارات أداة أخرى يحتاجها في طبيعة عمله ألا وهي قائمة تتضمن أسعار السيارات مثل كتيب كلّي بلوم؛ «وهكذا فإن صاحبنا هذا لديه مائة سيارة من نوع تويوتا، وسيأتي يوم يلج فيه صاحب أحد مكاتب تأجير السيارات إلى صالة العرض ويطلب شراء السيارات المعروضة كلها دفعة واحدة. «إذاً، ذلك التاجر، أي صاحبنا نفسه، يعرف أن قيمة كل سيارة من هذه السيارات تبلغ عشرة آلاف دولار استناداً إلى كتيب أسعار السيارات. هو يرغب في أن يبيع بسرعة، ولذا فهو يعرض بيع المجموعة كلها بقيمة مليون ونصف المليون من الدولارات. تمت الصفقة. الآن لم تعد لديه أية سيارة. هل سيتسكع في الجوار وينتظر، أم سينطلق لشراء المزيد منها؟»

«سوف يشتري مزيداً من هذه السيارات.»

«بالضبط. ولكن هذه المرة قد لا تكون الصفقة الجديدة تتضمن سيارات من نوع تويوتل . ربما اختار سيارات من نوع هوندا هذه المرة، أو ربما عرضَتْ له فكرة شراء سيارات فورد قديمة الطراز من نوع «تي». وهذه من الأنواع النادرة جداً. ربما جاءه زبون يريد شراء اثنتين منها، أما صاحبنا فهو متأكد

من أنه يمكن أن يشتري الثانية بنفس سعر الأولى، ولذلك فهو يقول إنه سيبيع الواحدة منها بسعر عشرين ألفاً . المشكلة الوحيدة التي يواجهها تكمن في أنه عاجز عن إيجاد سيارة ثانية من نفس النوع. مهما حاول جاهداً إيجاد سيارة أخرى من نفس الطراز فستبوء محاولته بالفشل. حسنٌ، دعونا نفترض أن الزبون استطاع وضع يده على واحدة منها بسعر خمس وعشرين ألف دولار، فإن القاعدة تقول إن صاحبنا عليه أن يدفع القسيمة على الكفالة بالسعر الذي وجده الزبون: وهذه تعتبر بمثابة غرامة.»

قلت: «آه، لقد فشل فشلاً ذريعاً.» لقد فهمت المقصود من ذلك. فقد باع ما لا يملك، وما لم يستطع الحصول عليه.

«هذا ما حصل بالضبط صبيحة هذا اليوم مع أحد الباعة الذين يعملون لدي. لقد خسر مليون دولار في صفقة سيارات فورد من نوع «تي.»

«وهل صرختَ في وجهه؟»

ضحك وين وقال: «أنا لا أصرخ. عليّ أن أحصل على أفضل ما أستطيع من التجار الذين أتعامل معهم، وبالتالي فالصراخ لا يحقق لي ذلك. الصراخ لا يغلق صالاتهم. إذا لم يكن بمقدوره الاستمرار، فعليه أن يترك العمل. وهم جميعاً يعرفون عواقب مثل هذا الفشل.»

لم أصدق تماماً أنه لا يصرخ أبداً.

سألته بقصد مضايقته: «ومن هو ذاك الذي قد يرغب في اقتناء سيارة من نوع Pacer؟» لكنني تبينت بسرعة أن أي شكل من أشكال الغزل الذي

كان بيننا قد تبخّر الآن. فالقضية بالنسبة إليه الآن هي قضية عمل لا أكثر ولا أقل.

«يمكن إقناع أيٍّ كان بأي شيء. انظري إلى نفسكِ الآن وأنتِ موجودة هنا.»

سألت وقد انتابني إحساس مفاجئ بالجدية: «لماذا؟» أعني «لماذا أنا موجودة هنا فعلاً؟»

فَهِمَ ما أرمي إليه. كل ما قاله هو: «لأن الحظ وقف إلى جانبي.» كان هذا الشرح وافياً. لو لم يقابل بريتي رادالبينو بمحض المصادفة، أين يمكنه أن يكون الآن؟ قال: «سوف أتعامل مع هذا الأمر بمنتهى الجدية. عليك أن تتخذي قراراً حاسماً بشأن عملك في سلك التدريس. فحجم العمل هنا كبير جداً كما تعرفين. عليكِ قضاء ساعات طويلة من العمل هنا؛ وبالتالي فإن علينا أن نشمّر عن سواعدنا.»

«فهمت.»

«هل أنتِ متأكدة من أن ما أنتِ مقدمةٌ عليه هو الخيار الصحيح بالنسبة إليك؟»

«إن استطعتُ أن أكون صادقة، عليّ أن أصدقك القول إنني خائفة نوعاً ما.»

«لا بأس بالإحساس بالخوف هذا اليوم. أما يوم الاثنين القادم فيجب أن تتركي الخوف وراءكِ في المنزل. لا يستقيم الخوف مع منطق التجارة. لا بأس

بقليل من الخوف؛ فهو يبقيكِ واقفة على رؤوس أصابع قدميكِ. لكن كثيراً من الخوف سيؤدي بك إلى التهلكة. سنبدأ باللفائف.»

«أنت نجم في ما تقوم به.»

سأل: «كيف عرفتِ ذلك؟» لم أتأكد من أنه كان يقصد أن يتحدّاني بذلك السؤال أم أنه كان يريد أن يرى صورته في مرآة شخصي.

«من خلال التحدث إليك. العاطفة التي تغلّف بها عملك. هذا جدّ واضح.»

«أحب هذه المنظومة، كما أن عرْضَها أمامكِ يجعلها جديدة في نظري.»

قلت: «الشخص صاحب سيارة بايسر؛ إن لديه قدرة ليس على تحسس الفرص قبل أن يتحسسها الآخرون، بل على إقناع عدد كبير من الناس أن تلك الفرصة هي ما يريدونه وما يحتاجون إليه.»

«أنتِ كاتبة روائية – لهذا السبب أردتكِ أن تعملي معي. معظم الناس يقودهم مبدأ الإجماع، ولكن في الوقت الذي يسيرون في ذلك الاتجاه، ستكونين منهمكة في القراءة في محاولة منك لاستيعاب القصة الأكبر، ولهذا السبب فنحن سنكسب هذا الرهان. ثم، في حال أنك أحببت هذا النوع من العمل، فستغوصين في خضمّه أكثر فأكثر، بحيث ستصلين إلى نقطة تصبح فيها القصة غير ذات قيمة.» نظر عبر الزجاج إلى حيث صالة العرض وقال: «جميع من في هذه الصالة من أشخاص يتساءلون فيما بينهم الآن عمن تكون هذه الفتاة التي ترافقني في هذا المكان، ولماذا تطرح كل تلك الأسئلة.»

قبل أن أغادر المكان، اصطحبني وين في جولة في أرجاء صالة العرض. ما استوقفني أكثر من أي شيء آخر هو أن معظم الباعة العاملين في الصالة هم من الشباب. بطبيعة الحال، يبدو هذا وصفاً مألوفاً لمن هم في مثل حالهم، لكن شبابهم الجمْعيّ يجعلهم يبدون يافعين جداً، كما أن مواجهة مثل هذه الحال التي قد تبدو مألوفة بالنسبة إلى شخص ذي خبرة في هذا العالم، كانت تجربة مخيفة. ذلك أن أولاداً يافعين لا تجرؤ على تركهم يديرون منزلك، هم في واقع الأمر، من يتصرّفون بمليارات فوق مليارات من الدولارات. إن هؤلاء في الحقيقة هم من يديرون شؤون منزلك — الفرق الوحيد هو أنك لا تعرف ذلك.

لا يوجد بينهم من خطّ الشيب مفرقه؛ إنهم شباب يافعون من كل مكان من أنحاء العالم: هناك الهنود والكوريون والصينيون واليابانيون — جميعهم يرتدون ملابس موحدة: شعر قصير مقصوص بعناية، وبذلات داكنة وقمصان خفيفة، وأكمام مرفوعة إلى الأعلى، وسترات معلقة على مساند كراسيّهم. كانوا يجلسون خلف مكاتبهم التي تبلغ مساحة الواحد منها أربعة أقدام بأربعة أقدام؛ أعينهم مثبتة على الشاشات أمامهم، وكان كل واحد من هذه المكاتب له خصوصيته المميزة من صور عائلية وصور جماعية لأعضاء فرق رياضية مثل فريق اليانكيز وما شابه ذلك، كما كانت هناك زجاجات ملأى بالصلصة الحارة. أحد هؤلاء كان يضع صورة لديك تشيني موقعة بخط يده، وآخر كان يضع صورة وليده الجديد. كان هناك أكثر من خمسمائة من التجار والباعة ومساعديهم. كان تركيزهم الشديد على ما يقومون به يستهلك أعصابهم؛ إذ أن كل واحد منهم كان عليه أن يتعامل بشكل فوري

مع أية صفقة تعرض أمامه على الشاشة، وكانت الصفقات تبدأ وتنتهي في أقل من دقيقة؛ كل ذلك عبر محادثة على الهاتف وكذلك مع أحد الباعة المجاوِرين أو أحد الموظفين أو مع تاجر آخر.

يبدو أن حركة السوق النشطة قد انعكست على جو الغرفة، وعلى التجار؛ وكان بإمكان المرء أن يشتَمّها في الهواء المرافق للأصوات التي تُسمَعُ همساً، يقطع رتابتها أحياناً جهدٌ خاص يبذله أحد الموجودين من أجل إسماع صوته بشكل منفرد عن الجمع الموجود. كان وجود الجميع في مواضِعَ قريبة إلى بعضها بعضاً يُسَهِّل عملية إتمام هذه الصفقات. وبالرغم من أن المال كان غير مرئيٍّ البتة، إلا أنه كان في حركة دائمة، وتبين لي أن نبض المال كان مُعْدِياً. وهو ما كان بادياً للعيان من قبل الجميع – ظهر هذا جلياً في السعادة التلقائية التي يشعر بها هؤلاء في حال الفوز بإحدى الصفقات، أو في السعي من أجل الفوز بها. «ربما كان هذا اليوم هو يومنا». كانوا يشكّلون مجموعة متكاملة. لو بدوت للآنسة لين وكأنني أنتمي إلى فصيلة مختلفة، فإن هؤلاء أيضاً لهم فصيلتهم المختلفة الخاصة بهم – انتابني إحساس غريب بأن هؤلاء هم أبناؤها: كانوا مدربين تدريباً جيداً، وكانوا عديمي المشاعر، كما كانوا تواقين ليكونوا منتجين، وكانوا يتمتعون بنعمة المقدرة على ضخ الدولارات. قال وين: «لن تقفي على ما ترينه أمامك الآن في أية تجارة من أي نوع، أو في أي مكان.»

قادني عبر الصالة إلى مجموعة من التجار ممن يعملون في السوق الوسيطة كما يطلقون عليها، وهي أحد تفرعات عالم الرهن العقاري، والتي تعاملت بثلاثة تريليونات من مجمل سوق الثمانية تريليونات دولار، وكانت الأكثر أماناً

بين الضامنين للرهن العقاري – المدعومة كلياً أو جزئياً من قبل الحكومة، أو الموجودات المدعومة من قبل الحكومة والمعروفة باسم فاني أو فريدي أو جيني. قدّمني وين إلى ستة من أفراد هذه المجموعة، وكانوا جميعاً في العشرينات من أعمارهم، وكانوا أيضاً من خريجي أفضل الجامعات، وبارعين في عالم الأرقام. كانت مكاتبهم مزينة بلمسات شخصية. وكان أفضل ما يميزهم كمجموعة هو العقلانية الكاملة ووعيٌ لا لبس فيه لاهتمامهم بمصالحهم. أو ربما كان هذا ما أتذكر أنني كنت أعتقده في تلك اللحظة، قبل أن أتعرف عليهم كما ينبغي، أو قبل أن يتحولوا إلى بشر في نظري. كيف يمكن للمرء العودة إلى تلك اللحظة التي مرت، هل من خلال تذكر تلك الانطباعات الأولى (التي يتبين فيما بعد أنها كانت دقيقة)؟

من كان هؤلاء في ذلك اليوم؟ «سنيك»، أو الثعبان من كلكوتا يرتدي قميصاً مزركشاً أبيض من دون أكمام مرفوعة، كان في غاية الأناقة بالنسبة إلى شخص اسمه «ثعبان»، بوجهه الناعم والوسيم وخصلات شعر طويلة مصفوفة إلى اليمين من جبينه؛ كان هناك أيضاً النمر، «تايغر»، وهو شاب أبيض ذو وجه عريض وودود؛ على مكتبه صورة فتاة نحيلة القد وهي تلبس البكيني على شاطئ البحر الذي تحيط به أشجار النخيل؛ وإلى جانب صورتها كانت هناك ست عبوات ملأى بأنواع غريبة من المياه. أما الفتى سام، الذي لم يكن يختلف عن زميليه، فقد كان أحد نجوم فريق اللاكروس الرياضي في الجامعة، ويبدو أنه يفضل أن يظهر من دون قميصه؛ وهناك كذلك جوش، الأمريكي من أصل إفريقي الذي كان يضع بطاقة بريدية صغيرة موشّاة بإطار على مكتبه مطبوعة عليها صورة وينونا رايدر، ومطبوع عليها عبارة: «الحرية

لوينونا»؛ وإلى جانبها كانت هناك صورة لكلينت إيستوود وهو يمسك بيده أنشوطة. خامس هؤلاء كان غاس من أصل كوري، وهو فتى تعلو وجهَه مسحةٌ من الجدية، وعيناه مثبتتان على شاشة الكومبيوتر أمامه، ولم يبدِ أي اهتمام يذكر باقتحامي لعالمه؛ وأخيراً ماكسي، الفتى التشيلي الذي خسر لتوه مليون دولار لأنه باع سيارات فورد من نوع «تي» لم يكن يملكها ولم يكن باستطاعته الحصول عليها؛ وهو شخص يتسم بالتصميم والإرادة، وشديد الاعتداد بنفسه.

عندما قدّمني وين إلى هذه المجموعة لم يُطْلع أياً من أفرادها على من أكون، أو لماذا كنت هناك في ذلك المكان. ابتسموا جميعاً بكياسة. حاولت أن أتذكر ماذا كنت، وأين، عندما كنت في مثل سنهم. كيف استوعبوا أن من مصلحتهم أن يكونوا في مثل هذا المكان؟ ما هو نوع الإلهام أو الدافع الذي كانوا يتحلّون به كي يأتوا إلى هنا؟ كان الدافع هو المال بالطبع، ولكن كيف استوعبوا ذلك في تلك السن المبكرة؟ تخيلتهم وهم متوجهون إلى باريس بالطائرة من أجل كيّ قمصانهم. بدا وكأن ذلك يحتاج إلى خبرة وتجربة عُمْريتين أكبر من أن يستوعبهما سنُّهم المبكر. كادوا يفقدون هذه البراءة التي تطبع تلك المرحلة العُمْريّة. بدوْا مثل فتيان ينتمون إلى أحد الفرق الرياضية — مثل سباحين يتنافسون على المستوى الفردي إلا أن مثل هذه المنافسة تصب في المصلحة العليا للفريق. كان بإمكانك أن تشعر بذلك من خلال التركيز المنبثق من أعينهم.

قال سنيك: «تشرفنا.»

أجاب وين: «الحركة جيدة هذا اليوم.»

ردّ سنيك قائلاً: «هذه من نِعَم السماء.»

«لقد حزتَ على إعجاب رادالبينو. إنه يطلق دعابات حول ترقيتك إلى قسم القروض التي تمنح بفوائد أعلى للزبائن الذين تتضمن عملية إقراضهم نسبة أعلى من المخاطر.»

قال سنيك: «الغرب المتوحش؛ سأعتذر عن عدم قبول هذا العرض مبدئياً.»

أجاب وين: «هذا موقف شجاع منك.»

كان سنيك الأكثر وسامة بين رفاقه ببشرته السمراء الداكنة وعينيه البنيتين الفاتحتين ورموش عينيه الكثيفين. تصورت أن أبويه كانا من المهاجرين، وأنهما لم يكونا متأكدَيْن مما يجب عليهما أن يفعلوه تجاه هذا الولد الأمريكي الذي جاؤوا به إلى هذه الدنيا. مدّ يده إليّ مصافحاً، وحذا الآخرون حذوه. كانوا جميعاً يثبّتون أعينهم على شاشاتهم ويتحدثون على الهاتف ويتفقدون بريدهم الإلكتروني في الوقت الذي كانوا يحاولون استيعاب أسباب تواجدي بينهم.

ابتعدنا بعد ذلك عن هذه المجموعة. ابتسمت لهم مودّعة وأنا أنظر باتجاههم من فوق كتفي بينما كان وين يصطحبني باتجاه المصعد، وقد مرر بطاقته البلاستيكية مرة كي نخرج من الغرفة، ومرة أخرى كي يطلب المصعد.

قال وهو يلوي شفتيه موحياً بمعرفته بكل ما يجري مِن حوله: «لقد بدؤوا بالمراهنة عليك منذ الآن.» كان على علم بما يفعلونه حتى عندما لم يكن يراقبهم وهو يقف خلف كراسيّهم. لقد كان هو من صنعهم؛ وبالتالي، فقد كان يفهم كل شاردة وواردة عنهم.

سألته: «من الذي سيربح من بينهم باعتقادك؟»

«سنيك. لأنه يمتلك الفطرة السليمة. إنه يُطلع الفتيان الآخرين على ما أخططه لك. إنه يقول لهم إنك المادة الخام التي أنوي أن أمنحها شكلاً؛ وهو يراهن على نجاحي في ذلك. لديه الرغبة في التلقي والاستيعاب، وهذا هو مفتاح تجارته. إضافة إلى ذلك، فهو يتمتع بقدرة فائقة على التحكم بعواطفه.»

«بكم يراهن عليّ؟»

«إنه يضع على هذا الرهان مبلغاً كبيراً. أستطيع القول إنه يراهن عليك بمبلغ أربعة آلاف دولار. أستطيع القول أيضاً إنه يقرأ أفكارهم، ويقول لكل منهم بماذا يفكر كل واحد من بينهم. إنه سيربح الرهان من كافة الجوانب؛ سوف تكون هناك رهانات جانبية أو فرعية حول مشتقات النجاح الذي ستحرزينه من فوق ومن تحت، وهناك أيضاً رهان على الزمن أو المدة؛ وأخيراً، عليك. الفتى مدرب تدريباً جيداً.»

«ما الذي يظنه الآخرون؟»

«يظن ماكسي أنك خليلتي. إنه يؤمن بأسهل الشروح؛ ذلك أنه مشغول

جداً لدرجة أنه ليس لديه الوقت ليفكر بعقلية سباق الخيل. تتبنى عائلته مجموعة من نجوم الفن في تشيلي. وسوف تحلين محله في مكتبه عندما يحين الوقت لذلك. أما الآخرون فهم بينَ بينيْن؛ إنهم يرغبون في أن يطّلعوا أكثر قليلاً على إمكانياتك قبل أن يلزموا أنفسهم بإعطاء رأي حولك. ولكن سيكون هناك دائماً خيار انتقاء الأفضل للوثوق به بدلاً من الوثوق بحدسهم الفطري. سوق يقومون بخيارات جيدة بالرغم من أن هذه الخيارات ستكون بطيئة. لكن النجم الحقيقي هو سنيك.»

فتحت أبواب المصعد واختفيت بداخله، ومنه دلفت من جديد إلى العالم المعتاد.

كان الثلج ما يزال يهطل في الخارج ويتكوّم بكميات كبيرة، وكان يهطل أحياناً بغزارة. سمعت أحدهم يقول وهو يتجاوزني بسرعة متجهاً نحو المنعطف وبرفقته صديق له أنيق المظهر، رافعاً يده لإيقاف سيارة أجرة: «إنهم يتوقعون هبوب عاصفة ثلجية.» نظرت إلى الأعلى. كانت السماء منخفضة وملأى بالثلج الكثيف. كانت الأفكار تردني بطريقة التنقيط. ازدادت وتيرة العاصفة الثلجية؛ لقد كانت عاصفة نيويوركية رائعة. خطر ببالي رادالبينو وهو يطلُّ من عَلٍ، ملوحاً بقبضتيه؛ إنه مهندس المشهد برمّته.

الفصل الثاني عشر

كان الجو ينبئ بأن العصر قد أضحى عصر العقارات، تماماً كما كانت نهاية تسعينات القرن العشرين تمثل عصر ازدهار سوق الأسهم في مجال التقنية العالية، وكما كانت قد ارتفعت كل أنواع الأسهم في نهاية العشرينات من القرن العشرين عندما كانت كافة الشرائح الاجتماعية بدءاً من ماسحي الأحذية الذين تُدفعُ لهم الإكراميات تستطيع أن تتنبأ بالنهاية. بحلول شهر كانون الثاني، يناير، من سنة 2004، كان الجميع – من سائقي سيارات الأجرة، ورجال الشرطة الذين يجوبون كافة أنحاء الجوار، والطباخين الذين يعملون بموجب عقود قصيرة الأجل، وسعاة البريد المحليين فوق دراجاتهم، والأولاد الذين يقومون بتمثيليات صغيرة، والأمهات، والآباء – في الشوارع، وفي حفلات الكوكتيل، وفي المدارس عندما كانوا يُقِلّون أبناءهم إليها في الصباح – كل هؤلاء اكتشفوا الإوزة التي كانت قد باضت تلك البيضة الذهبية التي تدعى «العقارات».

التسمية بحد ذاتها تفرض هيبة من نوع خاص؛ فهي توحي بالقوة والصلابة، ويُستدلّ على معناها من اسمها: إنها حقيقية.[38] قالت إحدى الأمهات لأم أخرى في المصعد الذي يقلّنا إلى حيث صفوف الدراسة في مدرسة البنات المليء عن آخره، والذي ساده الصمت: «راودني حلم ليلة البارحة. فقد كنا في منزلك في بالم بيتش، ننتقل من غرفة رائعة إلى غرفة أخرى لا تقل روعة.» انحنى ثيودور باتجاهي وهمس في أذن صاحب المنزل الذي نستأجره: «هذه هي دعارة سوق العقارات.» لم تكن لدينا حصانة

38 - أصل التسمية بالإنجليزية هي : Real Estate؛ وهذا ما يشير إليه النص الأصلي من أن الاسم يدل على المعنى (المترجم)

ضد مثل هذه الدعارة: فقد كنا نتوق إلى امتلاك منزل؛ أنا كنت أريد امتلاك منزل بشدة. أردت أن أنخرط في ذلك الحديث.

جميل أن يكون المرء صاحب ملكية؛ لكننا لم نكن نملك المال الكافي لتحقيق ذلك. كنا فقراء بالمعايير النيويوركية. لم نكن نملك شروى نقير. لو كنا نعيش في أي مكان آخر، ربما اعتبرنا الآخرون في عداد الأغنياء. مع ذلك، أُسْدِيَتْ لنا بعض النصائح بوجوب «شراء شيء.» لذلك بحثنا عن استديو، وهو مسكن يشبه المستودع، تفوح منه رائحة بول القطط، وكان هناك عمود هوائي وموقد يمكن أن يتم تسخين صحون الطعام عليه. كان يمكن شراء تلك الشقة بسعر زهيد بمعايير المدينة. كان ثمن أية شقة سكنية يفوق ثمن هذا الاستديو يعني أن ينوء كاهل المرء تحت وطأة ديون تبدأ بمليون دولار. وكان مثل هذا الأمر يبدو خارج حدود العقل بالنسبة إلى ثيودور، إلا أن البعض كان مستعداً لمثل هذه الصفقة. ظهر اسم ليلي ستار في الصحف لأنها ابتاعت منزلاً بقيمة مليون دولار في منطقة أماغنسيت، وكان الخبر تحت عنوان: «ليلي ستار القادمة من عالم الأدب تبني عشاً لها بين النخبة من سكان جزيرة لونغ آيلاند.»

في حي هارلم، كانت الأسعار مرتفعة؛ وكذلك في حي كوينز وجزيرة ستاتين. الأسعار مرتفعة جداً في كل مكان تقريباً؛ والجميع لهم آراؤهم حول هذا الغلاء. كان الإسكافي الذي يملك محلاً يقع على زاوية الشارع، يتحدث إلى أحد الزبائن عن منزل كان بصدد شرائه في منطقة تلال كراون. أتذكر أنني قمت برحلة طويلة في إحدى سيارات الأجرة التي يقودها سائق كان

يستخدم سماعة أذن وهو يتحدث في هاتف خلوي مع زبائن عن صفقات لبعض العقارات في منطقة شرق نيويورك. كانت موجات الهواء تحمل في طياتها مشروعها الذي لا يتغير أو يتبدل: عروض لتجديد المنازل، وعروض للبحث عن منازل، وعروض لترميم المنازل، وعروض لمعاينة المنازل. كل شيء كان سعره يرتفع ويرتفع، ويرتفع. لقد حلّت المنازل مكان الأراضي الزراعية حتى في البلدات ذات الطابع الريفي. وكانت القصور الفخمة تنتصب على تلك الأرض العظيمة وتتكاثر كالفطر.

كان الحصول على قرض من أجل الرهن العقاري أسهل من الحصول على حقنة مضادة للأنفلونزا. وكانت هذه القروض تأتي على أشكال وصور شتى: قروض ثابتة الأجل مدتها ثلاثون سنة، أو خمس عشرة سنة؛ قروض ضخمة، أو قروض ميسرة بمعدلات مغرية لمدد تتراوح من ثلاث إلى أربع إلى خمس سنوات، أو رهانات عقارية يمكن التحكم بمعدلاتها وضبطها[39]، أو قروض بمعدلات عالية، أو من دون فوائد، أو قروض تسدد على شكل فوائد فقط، أو قروض لا تتطلب إبراز وثائق للحصول عليها، وهذه أصبحت من القروض النادرة، أو قروض من دون دفعات مسبقة. هناك أيضاً قروض مفتوحة الأجل، وقروض من دون وسطاء، أو نقاط. وهناك القروض التي تتم دراستها وتقييمها مجاناً، والقروض التي لا تحتاج إلى أية ضمانات للحصول عليها. هل ما زلتم تحبسون أنفاسكم؟ بإمكان أي منكم الحصول على رهن عقاري على ما يبدو. كانت العقارات هي البطاقة التي تخولكم الولوج إلى عالم الرهن

39 - تُعرضُ هذه الرهانات العقارية على الذين يشترون المساكن بمعدلات فوائد منخفضة، ولكن من دون الحصول مقابل ذلك على أية ضمانات (المترجم).

العقاري. كانت القصور تبنى فوق أسطح العمارات ذات الشقق الطابقية في جادة ويست إند؛ وفوق العمارات المبنية من الحجر الرملي المخصصة للسكن العائلي، ومكاتب وزارة المالية التابعة للولاية، والأبنية المدرسية، ومحطات الإطفاء، والكنائس، والمستشفى القديم لمعالجة مرضى السرطان؛ كان كل شيء يتم تحويله إلى منازل سكنية. أصبح مالكو المنزل الواحد يملكون اثنين، ومالكو المنزلين أصبحوا يملكون ثلاثة؛ وهنالك أيضاً من يشترون منزلاً ليس لأنهم كانوا بحاجة إلى شرائه، بل لأنهم كانوا يعرفون أن آخرين بحاجة إلى اقتنائه. نشأ من ذلك المناخ جيل جديد من المضاربين. أصبح مُلّاك المنازل يشكلون نسبة 68،6 بالمائة من مجموع سكان الولايات المتحدة، وهي أعلى نسبة في التاريخ. كانت قيمة سوق العقارات سنة 2004 تبلغ أكثر من ثمانية تريليون دولار، وبعد ثلاث سنوات ارتفع بصورة مدهشة إلى ما قيمته 11 تريليون دولار؛ ولن يتراجع هذا الصعود الحاد في قيمة سوق العقارات مطلقاً لأن عدد السكان في تزايد مستمر، في حين أن الأراضي المخصصة للبناء محدودة. الأمر برمته كان على هذا الشكل من الوضوح. قالت لي إحدى الأمهات التي كانت تقرأ لابنتها من النسخة المخصصة للأطفال من كتاب «العهد القديم»: «كل شيء من حولنا أصبح يدور في فلك سوق العقارات.» قالت هذه العبارة وهي جادة تماماً حتى لو كانت تعلوها مسحة من الدعابة، وأضافت: «القصة كلها تتمحور حول سوق العقارات. إنها الأرض الموعودة: تضعين يدك عليها، وتحتفظين بها، وتسترجعينها، إلخ، إلخ...»

هل تتذكرون آل هوف من ولاية مين؟ هل تتذكرون رهنهم العقاري التقليدي، وكيف تتبعنا أصول هذا الرهن حتى نهاية السبعينات من

القرن العشرين عندما تغير كل شيء حينها؟ وصلنا الآن إلى بقية القصة؛ وهذه البقية هي الجزء الهام من هذه السيرة الذاتية، والتي لولاها لما حدث لي ما حدث. لقد دفع سوق العقارات اثنين من عُتاة رجال المال الموهوبين اللذين يبدو أنه انتابهما الملل من الرتابة الناجمة عن النجاح الدائم، لاصطياد فنانة تهيم في شوارع اليأس، وزرْعِها في قلب تلك العاصفة الجميلة المتوحشة التي تدعى سوق ضمانات الرهن العقاري؛ إنها العاصفة الأشبه بالدوامة؛ إنها العاصفة الثلجية الرائعة التي تضرب بشدة وتخيم فوق المدينة كالسحر.

إن عائلة كعائلة هوف التي ابتاعت أول منزل لها في ثمانينات القرن العشرين، قررت التوجه إلى مصرف محلي يعنى بالادخار والإقراض، وسحب قرض للرهن العقاري بقيمة مائة ألف دولار تسدد على أقساط بفوائد ثابتة تبلغ 12.5 بالمائة على مدى ثلاثين سنة. (هل تتذكرون تلك الأيام؟) لكن في هذه المرة، لم يبقَ الرهن العقاري في عهدة المصرف؛ بل تم بيعه إلى مصرف استثماري في وول ستريت حيث قاموا هناك بضمه إلى رهانات عقارية أخرى من أجل إنشاء مطيّةٍ استثمارية هي من الضخامة بحيث تبدو جاذبة للمشتركين وكذلك للمستثمرين لآجال طويلة؛ وهذه المطية كانت عبارة عن صندوق للتقاعد، وشركة للتأمين، حتى إن أحد المستثمرين فيها كانت إحدى الحكومات الأجنبية. كانت الدفعات الشهرية التي يدفعها مُلّاك المنازل والفوائد المستحقة على القروض ورأس المال الرئيسي بمثابة الجدول الذي يضخ المال في بحيرة المستثمرين. إضافة إلى ذلك، كان بيع أسهم الرهانات العقارية يضخ سيولة أكبر في حسابات المصارف؛ وهذه السيولة

بدورها كانت تستخدم من أجل تقديم قروض أخرى؛ وهكذا بدأت هذه الدائرة تتسع أكثر فأكثر.

ما حدث أن أستاذيَّ الجديديْن بدأا يشرحان لي طبيعة المشهد بكثير من الصبر، مستخدميْن في ذلك أكثر الأمثلة بساطة ووضوحاً: أخذا مبلغ مئة ألف دولار وقسما هذا المبلغ على عشرة بحيث أن كل مستثمر حينها يكون في حوزته عشرة آلاف دولار (هذا المثال، وهذا الرقم لا يشكلان سوى نقطة صغيرة في تلك البحيرة من المال). هذا هو الضمان المترافق مع توفير مبالغ دورية لإيفاء الدين بفائدة قدرها 12 بالمائة موزعة على فواتير مستحقة الدفع عددها 37 فاتورة، معظمها تذهب لصالح شركة فريدي / فاني للاستثمارات العقارية من أجل الضمان و12،5 فاتورة مستحقة الدفع تذهب لصالح الشركة التي توفر هذه الخدمة كدفعة مستحقة لقاء إرسال الفواتير الشهرية. لكن استنباط أسهم الضمان من خلال الرهن العقاري لم يكن بمثل هذه السهولة. يعود ذلك إلى أن الحُزم الصغيرة من الديون المترتبة تخضع للتغيير في الوقت الذي يدفع الدائنون جزءاً من رأس المال مع الفوائد، ما كان يعني أن مدفوعات الفوائد للمستثمرين قد تلاشت مع مرور الوقت. إضافة إلى ذلك، فقد كان مُلّاك البيوت يقومون بتصرفات غير محسوبة: كانوا أحياناً يتخلّفون عن دفع ما عليهم من ديون، وأحياناً أخرى كانوا يدفعونها مسبقاً فيما لو تصادف أنهم حصلوا على كسب غير متوقع، أو إذا كانت معدلات الفائدة قد انخفضت بشكل ملحوظ، أو إذا اضطُرّوا لبيع منازلهم. توفر مثل هذه المفاجآت للمستثمر رأسمالاً مفاجئاً لا يمكن إعادة استثماره بسهولة مقابل مردود مغرٍ. أسهم الضمان التي يغطيها الرهن العقاري التي تعرف

بالضمانات الوسيطة معروفة في هذا الوسط منذ مدة لا بأس بها، إلا أنها لم تكن تشكل عامل جذب على نطاق عريض بسبب هذه المشكلات المتوارثة. لكن كل ذلك تغير بسرعة كبيرة.

كانت البُنْيَة الاستثمارية التي تعين عليّ الإلمام بها بسرعة كبيرة هي الأساس الذي انتشر من خلاله الحلم الأمريكي في ملكية المنازل. فقد أضحت حجر الزاوية بالنسبة لجيل جديد من بارونات أصحاب الأملاك (الكبار منهم والصغار) وعزز ذلك وجود قيم أخلاقية متجذرة في وثيقة ولادة الأمة الأمريكية مثل الحق في الحياة والحرية وحق الكسب والتملك وحماية الممتلكات. تحول مفهوم الملكية من قبل الأخرين حيث أصبح هذا المفهوم يعني «السعادة»، ولم يُعِدْ أحدٌ النظرَ في هذا التعريف منذ ذلك الحين. كان الحق في التملك يعني أن يتملك المرء نصيبه الملموس من السعادة. والآن، وبعد ما يقرب من مائتين وثلاثين سنة، امتزجت قلة قليلة من الطرق مع بعضها بعضاً من أجل منح هذا الحق للمواطنين الأمريكيين بشكل لا لبس فيه ومن دون أي تحامل — وهو جزء لا يتجزأ مما يحدد هويتنا كشعب ضخ فيه الأجانب من حكومات ورجال أعمال مبالغ هائلة على شكل استثمارات في سوق الضمانات المدعومة من الرهن العقاري الأمريكي المزدهر.

حصلت على هذه المعلومات من كتاب لفرانك فابوزي الموسوم «دليل الضمانات المدعومة من الرهن العقاري» الذي يعتبر المرجع الأول في السوق، إضافة إلى أعداد لا تحصى من الكتب الأخرى التي تَوَجّبَ علي قراءتها في الأسابيع التالية من أجل استيعاب أدق التفصيلات المتعلقة بكيفية عمل هذه المنظومة.

قمت بتطوير فهمي للمساهمات التي قدمها رادالبينو وآخرون لسوق الضمانات المدعومة من الرهن العقاري المتزامنة مع طرح سندات الرهن العقاري الثابتة؛ وكان ذلك بمثابة مخرج يعالج المخاطر الناجمة عن مرحلة ما قبل استحقاق تسديد القروض، وبالتالي فقد أسّس هذا المخرج لبناء مجموعة من السندات أكثر جاذبية بالنسبة إلى الزبائن. قام كبير موظفي التسويق بتقسيم الاتفاقيات بين المضاربين إلى سندات تسدد على أقساط خلال سنتين، ثم إلى خمس سنوات وبعدها إلى عشر سنوات، ما يجعلها ذات جاذبية أكبر بالنسبة إلى قطاع عريض من المستثمرين؛ خصوصاً وأن الحصول عليها يتطلب جاهزية أكثر نضوجاً؛ وكان هذا العامل من بين أكثر العوامل تحريضاً على الانتشار الهائل للاتجار بالضمانات المدعومة من الرهن العقاري في نهاية الثمانينات من القرن العشرين، وذلك من خلال تحديد مواعيد استرداد الديون بشكل أكثر دقة.

بعبارة أخرى، استطاع كبير موظفي التسويق تقليل نسبة المخاطر التي يواجهها المستثمر بحيث أصبح بإمكان هذا الأخير أكثر ثقة بالنسبة إلى الزمن الذي سيسترد فيه رأسماله. وهذا يعني أن قسماً من المبلغ الموجود على شكل أسهم سيقوم بتسديد ما هو مستحق عليه إلى رأس المال في الموعد المحدد حيث يتحمل القسم الأول من المبلغ المستوى الأعلى من المخاطرة من خلال استيعابه للدفعات الأولى. أما القسم الثاني من المبلغ فيستوعب الخسائر التي تنجم عن ذلك في حال انخفضت قيمة القسم المرتبط بالأسهم العادية. أما القسم الثالث الذي يتضمن أقل المخاطر فإنه يستوعب كل ما يتبقى، وهو ما أصبح يعرف ب «الدفعة التالية» أو ما أُطلِقَ عليه وصف «الفانيلا الصرفة».

ترافق مع عملية إعادة هيكلة الاتفاقيات بين المضاربين انتشارٌ هائلٌ لأنواع أخرى من الضمانات المدعومة من الرهن العقاري: فقد انتشرت ظواهر مثل ظاهرة كبار موظفي التسويق، ولجان الحسابات العامة، ولجان النقل الاستشارية، والسندات غير محددة القيمة، والمُدخلات، والمخرجات، والسندات ذات المعدلات العائمة، والسندات غير المغطاة بالضمانات المدعومة من الرهن العقاري؛ إضافة إلى أعداد لا تحصى من المنتجات المنبثقة عنها والتي لم يكن يفهم معناها الحقيقي سوى أولئك الذين ابتكروها، والتي سمح المشرّعون السياسيون برفع القيود عنها؛ ولم يكن يضاهي هذا الانتشار سوى الانتعاش الاقتصادي الذي عمّ بهدوء فترة التسعينات من القرن العشرين بدرجة لا متناهية. كما ازدهرت في تلك الفترة أيضاً أنماط مختلفة من المضاربات. فقد تم ابتكار ما يسمى بمنتجات التأمين، وخيارات التبادل، والدعوات، والمدخلات والمخرجات، إلى ما هنالك. كما تضاعفت بشكل ملحوظ أعداد ما يسمى السوق الفرعية، وسوق الظل، والسوق المبنية على عجل، والجاهزة للانطلاق؛ وتزامن ذلك مع وجود العديد من الفرص للمراهنة على السندات أو تقسيمها إلى سندات أقل قيمة (أنشئت شركات في فرنسا وتكساس على سبيل المثال، وكانت هذه الشركات تملك نفس الرهانات العقارية) أو حمايتها؛ كما تضاعف الطلب على الرهانات العقارية من السوق الرئيسية (أي استصدار الرهانات العقارية) وازدادت الحاجة إلى وجودها، والتعريف بها. كان هناك كمّ هائل من الطلب على الرهانات العقارية لدرجة أن السوق الرئيسية لم تستطع تزويد السوق الفرعية بحاجتها منها بالسرعة الكافية. وهكذا، ومع مرور الوقت، فقد أضحت منتجات الرهن العقاري المتنوعة الألوان والأحجام في متناول أيدي شُرّاء المنازل؛ كما

تضخمت السوق الفرعية بشكل ملحوظ. أما الفائدة المجنيّة من ذلك فقد تمثلت بتقلبات في معدل فائدة الرهانات العقارية التي تبلغ 12،5 بالمائة.

في البداية، كانت هناك مبررات منطقية لمنتجات مثل هذه الرهانات العقارية الحالمة، والقروض المغرية، والرهانات العقارية التي يتم التحكم بها وضبطها بما أنها صممت من أجل مساعدة الأثرياء أمثال المصرفيين والمحامين الذين كانوا يقبضون أرباحهم صافية على شكل مكافآت وذلك من أجل شراء المنزل قبل قبض المكافأة. فويل تشابمان على سبيل المثال، اشترى المنزل في ولاية مين مستفيداً من واحد من هذه القروض غير المألوفة. قام بتخفيض الفائدة إلى نسبة صفر بالمائة مقابل حصوله على معدل مُغْرٍ. كان يراهن على أنه سيبيع روايته إلى إحدى دور النشر مقابل مبلغ كبير من المال؛ وهذا المال سوف يوفر له إمكانية إعادة تمويل قيمة المنزل بطريقة تؤمن له فرصة أكثر ضماناً لدفع الأقساط الشهرية بصورة منتظمة. لم تكن مبيعات الرواية هي ما ستضمن له حياة كريمة لأن ميزانية مصروفه المنزلي كان قد اقتطعها من المال الذي أعاد به تمويل شقته، ومن الكم الكبير من المال الذي يمتلكه على شكل مدخرات، عندما كان يعمل في القطاع المصرفي. وبما أن روايته كانت ضخمة جداً (وبعد الاستماع إلى نصيحة من سيغ بلانكمان — أجل، لقد أصبحت وكيلة أعماله)، فقد قسمها إلى مجلدين. وكان ذلك سيوفر له سلفتيْن ماليتين ضخمتين بدلاً من سلفة واحدة. ولو حدث وباءت جهوده هذه بالفشل، كان بإمكانه حينها العودة إلى وول ستريت لملء خزائنه الحديدية بالمال من جديد. كان بارعاً جداً في ما كان يفعله، وكان محبوباً من الجميع. أما في حال فشله في العودة إلى وول ستريت، فسيكون بإمكانه بيع

منزله في حي تريبيكا والانتقال إلى حي هارلم، ولن يجد حينها أية صعوبة في التأقلم مع هذا النمط من الحياة الاجتماعية. (كم كنت أحب الطريقة التي كان يتحدث بها أولئك الرجال؛ فقد كانوا يتكلمون وكأنهم يخططون لشراء الولاية بأكملها، وما يجاورها كولاية مين وحي تريبيكا وحي هارلم.)

وهكذا، فعندما حدث ذلك الانفجار في سوق العقارات، أصبح المنتج الذي صُمِّمَ أساساً من أجل الأثرياء، في متناول أيدي الجميع تقريباً، كما أصبح في خدمة أولئك الذين كانوا يحلمون بأن الغد يَعِدُ بما هو أفضل – وأعني بهم أولئك الذين لم ينتابهم القلق قطّ من أن يحمل الغد في جعبته ما هو أقل. تم منح أحد جامعي الفراولة من أصول مكسيكية في منطقة بيكرزفيلد، الذي لا يتجاوز دخله السنوي 14000 دولار قرضاً بقيمة 720000 دولار، وهذا المبلغ هو كل ما يحتاج إليه من أجل شراء منزل. كانت العملية الحسابية في منتهى البساطة: قيمة العقار لا سبيل أمامها سوى الارتفاع؛ أما ما نقوم به نحن فهو لا يتعدى إعادة التمويل وتخفيض معدلات الفائدة التي نجنيها عندما ترتفع قيمة المنازل التي قمنا بتمويلها. هذا ما كانت المصارف تقوم به. كانت تلك خطة محكمة، لكنها كانت تستند إلى عقيدة في غاية الوضوح: كان الغد يمثل الأمل الأمريكي العظيم، أما اليوم فعلينا أن نعي أن هناك مالاً يجب علينا كسبه.

وهكذا استمر تعلم الدرس. تحدثت عن طرُقٍ تصب في ملتقى واحد. كانت إحدى هذه الطرق تمثل اعتقادنا الوطني بوجوب تملّك منزل؛ وهي فكرة نشأت ونمت منذ إعلان الاستقلال، وقام بتوطيد دعائمها الرئيس

فرانكلين روزفلت خلال فترة الأزمة الاقتصادية من خلال طرح «البرنامج الجديد»[40] والرابطة الأمريكية الحكومية للرهانات العقارية، ومرة أخرى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر. تم شق الطريق الأخرى بعد الانتشار الهائل للإنترنيت الذي تلاه مباشرة الهجوم الإرهابي الذي وقع في الحادي عشر من أيلول، سبتمبر، 2001، والركود الاقتصادي الذي أعقب ذلك الهجوم، والذي تسبب في انخفاض الفائدة التي وضعها صندوق النقد الفدرالي من 6 بالمائة إلى 1،25 بالمائة؛ وقد أدى ذلك من وجهة نظر ويل تشابمان إلى هبوط معدل الفائدة، وإلى هبوط مماثل في معدل الفوائد الذي طرحه مصرف لندن الدولي وقد حذت المصارف الأخرى حذوهما من أجل طرح الرهانات العقارية التي يتم التحكم بها وضبطها.

أما الطريق الثالثة فقد كانت تتمثل في سوق الضمانات المدعومة من الرهن العقاري بشقيْها الرئيسي والفرعي المتحفزيْن والجاهزيْن للانتعاش والتوسع. وفي الوقت الذي انخفضت كلفة اقتراض المال، أصبح اقتراض المال من السهولة بمكان. فالمنزل الذي يبلغ ثمنه 600000 دولار يمكن شراؤه اليوم برهن عقاري يعادل دفعات شهرية تعادل قيمتها مبلغاً لا يتعدى 300000 دولار؛ وهو مبلغ كان قد تم إقراره قبل عدة سنوات. في ظل ذلك، مَنْ مَنّا لا يرغب في اقتناء مسكن؟ وكيف يمكن لجامع الفراولة أن لا يغتنم مثل هذه الفرصة؟ ولماذا يرغب المصرفي في السماح له باقتراض مثل هذا المبلغ؟ فالمصرفي بإمكانه في نهاية المطاف، أن يمنح هذا القرض إلى مؤسسة

40 - هذا البرنامج طرحه الرئيس فرانكلين روزفلت من أجل الإنعاش الاقتصادي والإصلاح الاجتماعي خلال العقد الرابع من القرن العشرين (المترجم)

مالية في سوق الظل التي يمكن أن تقسم هذا القرض وتستثمره في الصين أو فرنسا أو سواساليتو على سبيل المثال؛ وبالمقابل، يمكن لهذه المؤسسات أن تضارب من خلال الخيارات التبادلية والمشتقّات و ... وذلك المنزل الكبير والجميل بمطبخه من طراز فايكنغ، وحمامات من الأناقة بمكان بحيث أنها تشبه نظائرها في الفنادق الفخمة – إضافة إلى مشاجب مُسخّنة من الكروم تعلق عليها المناشف، وكذلك مواسير دش الحمام تتدفق منها المياه بدقة وسلاسة متناهيتين يمكن أن تحمِلاك معهما باتجاه القمر؛ ناهيك عن حمام الجاكوزي وحوض الاستحمام المصنوع من المرمر والجدران المبنية من حجر الجير المستورد من مقالع خارج روما، وهي نفس المقالع التي كان مايكل أنجيلو وبرونيليسكي وبيرنيني يستخدمون حجارتها في نحت تماثيلهم – كل ذلك يمكن أن يكون مُلْكك.

ازداد الطلب على المنازل بشكل مذهل. فجأةً، أصبح الجميع يرغبون في اقتناء منازل. فجأةً، تم استرجاع الحلم الأمريكي بتملك المسكن من الذاكرة بقوة، وفجأة، وجدتَ نفسَك موضعَ اتهام بأنك لست أمريكياً بما فيه الكفاية، أو أنك لست في موقع موازٍ لتلك الطبقة المزدهرة إذا كنتَ مثلي ومثل ثيودور، لا تملك المسكن الذي تعيش فيه. الرهانات العقارية الرخيصة جعلت المساكن الغالية الثمن رخيصة بدورها؛ وفي الوقت نفسه، أدى ازدياد الطلب على المنازل إلى ارتفاع في أسعارها؛ كانت أسعارها ترتفع وترتفع، وترتفع. إنه قانون العرض والطلب. العرض قليل والطلب كبير – هذه هي المعادلة الوحيدة التي قد تعني أي شيء في وول ستريت.

هكذا تم فتح الطريق الرابعة، وأعني بذلك الحاجة إلى رأس المال –

أعني بذلك المال الذي يتم إقراضه بغرض تمويل كل تلك الأحلام. من أين كانت ترد هذه الأموال؟ كانت ترد من أولئك المستثمرين في الصين وفرنسا وألمانيا وواكو. هنا بدأت الطرق بالتقاطع والتفرع: هناك طريق واسعة تتفرع عنها مخارج على شكل منحدرات ومداخل من الطرق الفرعية إلى الطريق السريعة، وتقاطع طرق بمستويات مختلفة. هنا يكمن مبتغاك: أسعار المساكن ارتفعت، ومُلّاكها يمشون بخفة نحو الثروة التي اكتشفوا أنها أضحت بين أيديهم، وهم يعتصرون آخر قطرة من القيمة التي يستحوذون عليها من مساكنهم. أصبحت المنازل تشبه آلات سحب النقود التي تزودنا بوسائل تمويل رغباتنا وتحقيقها. الأجهزة المنزلية المقتناة أصبحت أكثر فخامة، والرحلات والأسفار بدأت تتوجه نحو بلاد بعيدة وغريبة، وعدد الأبناء في العائلة ازداد هو الآخر – فالعائلة المكونة من ولدين أصبح عدد أولادها ثلاثة، والثلاثة أولاد أصبحوا أربعة؛ وتحول الرصيد إلى مدخرات. عندما يَمّمْتُ وجهي شطرَ وول ستريت في سنة 2004، كان ذلك هو المحفل الذي انضممت إليه.

كذبت على ثيودور بشأن تعاقدي مع شركة بوند أند بوند في الأسابيع الأولى. قلت له إنني أجري بعض الأبحاث من أجل روايتي الجديدة التي أنوي البدء في كتابتها، وإن عليّ مغادرة الشقة في وقت باكر من صباح كل يوم لعدة أسابيع، ما جعله غير مضطر للاستفسار مني حول طبيعة هذا البحث. قال وفمه يفترّ عن ابتسامة عريضة صادقة: «أنتِ غامضة. قصة؟ حول ماذا؟ أنتِ لا تكتبين قصصاً.» كان ذلك يوم السبت وكنا نحضّر وجبة شطائر محلّاة للبنتيْن. كانت حياتي القديمة ورائي تماماً؛ كانت مهترئة ورتيبة ومألوفة

إلى درجة الملل. أما ما كان أمامي، فهو يوم الاثنين المثقل بالكد والغموض والنشوة.

قلت: «لا تطرحْ عليّ أية أسئلة.» استمر في تبسّمه، وكان واضحاً بالنسبة إليّ أن عقله كان في حال من الاسترخاء التام. استعادت تلك الابتسامة ذكريات الأيام الخوالي، أي المرأة التي كنتُها حينها، والتي لم يعد لها وجود الآن. كان يشعر بسعادة غامرة عندما أنتقل من مرحلة عدم الكتابة إلى مرحلة الكتابة – كما لو أن ذلك كان يُضفي بعض الحقيقة بالنسبة إليه حول عملية الإبداع الفني عندي وعنده. كانت ابتسامته وغمّازتا وجهه والمعرفة التي كانت تستقر على شفتيه تبعث في نفسي الشعور بالاطمئنان، وكانت مؤشراً على عودتي إلى سيرتي الفنية. أما الآن، فقد أشعرتني ابتسامته بكثير من الانزعاج. فقد انتابني إحساس بالنفور من المكان الذي نسكن فيه، وبالملل من ذلك الأمل الضعيف في أن لا يبقى وضعنا على نفس حاله من السوء. لا بد أنكم تتفقون معي على أنه من غير الممكن أن نزاوج بين الغد والأمل، وأن الغد سيحمل في طياته الأمل الشبيه بالمدّ الذي يحمل معه الماء. لكنني لم أنبس ببنت شفة بطبيعة الحال.

لعقت غوين المخيض المنسكب على الشطيرة المحلّاة وهي ترفع حاجبها الأيسر إلى أكبر حد ممكن – كان حاجباها يتصل الواحد منهما بالآخر؛ هذا ما كانت تحب أن تقوله لأختها روبي وهي تستعرض مواهبها أمامها مع كل الإثارة المرافقة لتلك الحركة. كانت تعرف أنني كنت أكذب، لكنها كانت أصغر من أن تتهمني صراحة بذلك. أذكر أنني كنت حينها حاضرة الذهن تماماً، وهو نفس الشعور الذي ينتابني عادة قبل القيام برحلة طويلة

باتجاه أحد الشواطئ النائية – حيث كنت أثمّن وأقدّر عالياً كل ما سأتركه خلفي، كما لو أنني لن أعود إلى هذا المكان ثانية. سكب ثيودور المخيض في المقلاة وكانت غوين تقف مستعدة لتذوق الشطائر وهي تحمل بيدها المِبسَط. هل سأعود إلى تلك الحقبة؟ هل سأبوء بالفشل، هل سأسقط؟ هل سيقبل ثيودور أن يستعيدني عندما يعرف ما أنا بصدده؟ انتابني شعور بالنشوة والقذارة في آن، بنفس الطريقة التي تصورت فيها أن أية زانية لا بد أن ينتابها الشعور ذاته. ماذا لو كان وين محقاً في رهانه على نجاحي؟ ما هو نوع الشعور الذي سينتابني فيما لو كسبت بصورة جلية كماً كبيراً من المال؟ خطر في بالي من جديد مشهد صالة العرض، والطاقة التي سرت في أوصالي، وكل ذلك الطنين والهمس الذي ساد أرجاء تلك الصالة التي كانت تضخ كل ذلك المال (أم أن عليّ أن أقول: «تدرّ كل ذلك الدخل»)؛ هنا، في هذا المكان الذي يعتبر المركز الملحمي لصناعة المال – صالات كهذه في كافة أنحاء العالم تعمل بالتناغم مع بعضها بعضاً من أجل تأليف إيقاع لحن مالي عالمي – لا مجال فيه للنوم أو الاسترخاء بينما يتداعى الزمن من منطقة زمنية إلى منطقة زمنية أخرى. كانت خطوط الزمن تحفر لنفسها أخاديد حول زوايا عينيْ ثيودور. كانت أمارات الإرهاق بادية على مُحيّاه. بدأت أتساءل فيما إذا كان يعي مدى أثر الزمن عليه أيضاً.

قال ثيودور: «أنتِ لم تكتبي أية قصة منذ سنين. أنا مسرور لأنك تستعيدين هذه الموهبة مرة أخرى.» إشارته إلى «الموهبة» كانت تعني كليْنا. التطابق ضروري في مثل هذه الحال. كان ذلك مثالاً على هويتنا ومن نكون. استمرت غوين في ملاحقتها لي بعينيها النَفّاذتين.

أقيم الحفل الذي انضممت إليه سنة 2004 في السوق الفرعية، وهي السوق التي كانت تجني رأس المال الذي يستخدم من أجل تمويل قروض لمُلّاك البيوت في مناطق الشمال والجنوب والشرق والغرب، في الوقت الذي كانت تضخ الثروة في حسابات الشركات الكبرى ومختلف الدول على حد سواء. لقد كان رأس المال هذا يدور دورته الكاملة. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة مساء، وكانت الغرفة تعجُّ بالحضور؛ كانت الشمبانيا تتدفق في الكؤوس بكميات كبيرة وكان الجميع يشعر بالانتشاء، كان الحاضرون ودودين، وكانوا يشعرون بالدوار لفرط الشراب، وكانوا كذلك شديدي الحفاوة. استمرّت معدلات الفائدة بالهبوط. كانت سدادات زجاجات الشمبانيا تفرقع وهي تُفتَح؛ كان صوت فرقعتها عالياً لكنه كان يعطي انطباعاً جميلاً. كانت الحصيلة الإنتاجية لوزارة المالية الأمريكية قد انخفضت بنسبة 4 بالمائة على امتداد السنوات العشر الماضية. شكلت البيئة الضريبية إضافة مهمة إلى ذلك الوسط المتسم بالأجواء المفضّلة. كانت كؤوس الشمبانيا تتكدس فوق بعضها بعضاً؛ الواحدة فوق الأخرى إلى أعلى مستوى ممكن. كانت ترتفع وترتفع وتزداد ارتفاعاً؛ وكذلك نسبة العمالة التي ارتفعت إلى أعلى مستوى لها. تحوّل قرار المبادرة النقدية الذي كان يمثل الحلم الأمريكي إلى قانون في شهر كانون الأول، ديسمبر، سنة 2003، ما وفّر مبلغ 200 مليون دولار سنوياً من أجل مساعدة الناس على دفع أقساطهم الشهرية وتغطية كلفاتها النهائية، وبالتالي إعطاء زخم إضافي لقدراتهم المالية. اندفعت كميات كبيرة من الفقاعات الصغيرة الذهبية اللون إلى سطح شراب الشمبانيا المصبوبة في الكؤوس، وبدأت تندلق على حواف الكؤوس وتسيل تحتها — كان هناك معين لا ينضب من الشمبانيا يصب في إحدى الكؤوس ثم ينتقل

إلى أخرى. كانت مبادرة إلغاء الدفعة الأولى قد تحولت هي الأخرى إلى قانون، ما فتح الباب أمام إدارة الإسكان الفدرالية لتأمين الرهانات العقارية من دون الحاجة إلى تسديد دفعة أولى؛ وهذا بدوره وفّر الفرصة لأكثر من 250000 شخص كي يصبحوا من مُلّاك البيوت في تلك السنة — وهذا يمثل وقوداً إضافياً لحركة رأس المال. هناك ما نسبته خمسة وعشرون بالمائة من مُلّاك البيوت ممن لم يكن يتوجب عليهم تسديد دفعات أولى؛ كما ارتفعت القروض ذات الفوائد الأعلى للزبائن الذين يتضمن إقراضهم المال بعض المخاطر والتي بلغت 2 بليون دولار بنسبة 8 بالمائة.

هل حدث أن وصلتم متأخرين إلى حفل؛ أعني حفلاً ضخماً بكل معنى الكلمة يستمتع كل من فيه بوقتهم إلى أقصى درجة ومزودين بأجهزة تنصت، ويعلمون أنهم مقدمون على أمر عظيم؟ كل واحد من بينهم يشعر بأن لديه ما يقوله من أنباء سارة، وبالتالي، فهو مشبع بالحماسة. لا بد أنكم ستشعرون حينها بالحاجة إلى ازدراد عدد من كؤوس الشمبانيا كي تستطيعوا الانخراط في جوّهم.

وصلت يوم الاثنين، وبدأت العمل مباشرة في الطابق الثالث والثلاثين في شركة بي أند بي حيث دلفت إلى مكتب وين، وغرقت في التعقيدات الرياضية لسوق الرهانات العقارية. كنت على امتداد أسابيع عِدّة أقرأ وأستمع وأتعلم وألاحظ وأراقب بينما كانت حياتي تتحول من ذلك المدار المعزول الذي قبعت فيه ككاتبة، باتجاه هذا العالم الاجتماعي المسعور لتجار الأسهم والسندات. انزلقت إلى لعب هذا الدور بسهولة وثقة بالنفس تماماً كما تنغمس الممثلة في لعب دورها في التمثيلية. كنت ممثلة بارعة، ذلك

أنني أردت القيام بكل ما كانوا يرغبون في أن أقوم به. فقد كنت أستيقظ في الساعة الخامسة صباحاً، وأمارس رياضة الجري لمسافة طويلة، ثم أرتدي واحدة من البذلات الأنيقة (التي كنت أستمتع بشرائها)، ثم أتبرّج وأسرّح شعري بجهاز الهواء الكهربائي، وأصل إلى المكتب بحلول الساعة السابعة صباحاً (بعد أن أكون قد قبّلت زوجي وابنتيّ النائمين)؛ كنت أعدّ نفسي لاجتماع الساعة السابعة والنصف، وأرافق وين في اجتماعه بمكتبه مع التجار والباعة الذين يعملون في الصالة؛ كنت بعدها أتناول طعام الغداء الذي كنت أدفع لقاءه مبلغاً زهيداً بسرعة – تعلمت الهرمية بسرعة – المحلل يعمل تحت قيادة التاجر: «أنت تحلّق، وأنا أبيع»)، يبلغ معدل العمل ذروته بحلول الظهيرة ثم تنخفض وتيرته بحلول الساعة الرابعة؛ أخرج بحلول الساعة الخامسة والنصف لاحتساء بعض الشراب مع الزبائن، أعود بعدها إلى المنزل كي أحل محل أبريل، وأقبّل الفتاتين متمنية لهما نوماً هانئاً؛ ثم أتهاوى على السرير منهوكة القوى بحلول الساعة العاشرة وأتهيأ لبدء دورة جديدة من نفس الروتين في اليوم التالي.

أمضيت أسبوعاً بكامله حتى تعودت على هذا الروتين اليومي، ولم يُتح لي الوقت لأفكر بمسألة الكتابة التي كنت قد أهملتها كلياً؛ لم يكن لدي الوقت لأفكر بالرواية التي أصبحت في متناول يد القراء للتو، والتي بدأت المقالات النقدية تصدر حولها؛ فقد كنت في رحلة طويلة إلى أرض غريبة كل الغرابة أتعلم (أو أحاول أن أتعلم) لغة أهلها. كان المنهاج غامضاً تماماً، وكانت اللغة الإنجليزية هي اللغة الشقيقة لتلك اللغة التي كنت أحاول تعلمها؛ كانت تشبهها ولكنها كانت مختلفة جداً عنها في العديد من جوانبها تماماً كما هي

حال المقارنة بين اللغتين الأسبانية والإيطالية. كانت العبارات المركبة الغريبة عن عالمي والتي تشوّش العقل، تحيط بي من كل جانب؛ عبارات مثل: «الضمانات المدعومة من الرهن العقاري» و «الضمانات التي سيتم الإعلان عنها لاحقاً»، و«كبير موظفي التسويق» و «ضمانات الرهن العقاري المدعومة تجارياً»، و «مكتب الشحن الأمريكي» و«الرموز الكومبيوترية». أما القسم المتخصص في شؤون عالم الرهن العقاري الذي أراد لي وين أن أركز عليه فقد كان يضم شركات مثل فريديز وفانيز وشركة فريدي للذهب وكذلك شركة جينيز والعديد من الشركات الضخمة الأخرى؛ كانت هناك مصطلحات مثل «الأقزام» و «اللقيمات» و«الصغار» و «الأقزام الخرافية التي تحرس كنوز باطن الأرض». كانت الصفقات التجارية «تُعقَد» أو «تُرهَن». أنتَ «أجريتَ» المناقصة و «رفعتَ» العرض. وكانت عبارة «الهدف الشخصي» تشير إلى ما كنتَ ترغب في القيام به.

أحببت هذه العبارات بالرغم من أنني لم أكن أفهمها. فقد جعلت العالم من حولي يبدو حقيقياً، تماماً كما كنت أرغب في معرفة الكيفية التي أسأل فيها عن الوجهات، أو أعبر عن حاجتي أو رغباتي بلغة أجنبية عندما كنت أزور بلداناً أخرى. كان ما اصطلح على تسميته «عالم الرهن العقاري» من الضخامة والاتساع بحيث أنه كان يشير ليس إلى بلدان بعينها، بل إلى كون فسيح الأرجاء له مجرّاته الخاصة به وكواكبه وأنجمه. في هذا العالم، كانت هناك نقاط أساسية وعبارات مثل: «أوسع / متّسع» «/أضيَق /متضيّق»، «فرط الأداء» أو «أداء دون المستوى المطلوب». كانت هناك أيضاً مقبوسات، وكذلك عبارات مثل «المنتصف» و «المزايدة». كان الناس يبنون أسواقهم الخاصة

بهم، وكانوا يغلقون الأسواق أيضاً. كان الناس يذهبون «لصيد السمك». كان الناس «يقتفون الأثر»، وكانوا «يرمون العلم». كانت الصفقات تُغسَل، وكانت تُقتَل، أويتم تحطيمها أو تدويرها.

كان عليّ أن أقوم بحركاتي المكوكية الخاصة. ففي نهاية الأسبوع، أجريت اتصالاً بالجامعة وأبلغتهم أنني بحاجة إلى إجازة. كان من المقرر أن أدرّس مقرراً واحداً فقط في فصل الربيع. بالتالي، كان سهلاً على القسم أن يجد بديلاً عني. لقد كذبت عليهم؛ فقد قلت لهم إنني أمر بأزمة خاصة. كم كان حجم هذه الكذبة؟ فها أنا، امرأة في الثامنة والثلاثين من عمرها، تمتهن الكتابة (ما شاء الله) ليس لديها سوى القليل من الخبرة المالية، تتجه صوب وول ستريت كي تصبح تاجرة تعمل في مجال السندات والأسهم المالية؛ أظن أن مثل هذه القضية يصح أن يطلق عليها وصف الأزمة؛ إنها أزمة منتصف العمر بكل تجلياتها.

بالرغم من أنني أبلغت الجامعة برغبتي في الحصول على إجازة، إلا أنني لم أقم بإبلاغ ثيودور بما أنا بصدده. قال: «إنك تجهدين نفسك كثيراً.» قلت: «أجل.» قال: «هل أنتِ على علاقة حميمة مع أحدهم؟» أجبت بسرعة: «هذا السؤال ليس من شيمك مطلقاً.» لم أشأ أن أعطي الموضوع أهمية أكثر مما يستحق، لكنني كنت أشعر بوجنتيّ وهما تحمرّان خجلاً في غرفة نومنا المعتمة. قال كما لو أنه كان يريد أن يشرح ذلك لنفسه ملمّحاً إلى رائحة خيانة: «أنتِ تهربين.» قلت: «إنني أقترب من سن الأربعين. إنها السنة الجديدة؛ إنه قرار سنة جديدة.» لازمنا الصمت لبعض الوقت، وكنا نسمع أصوات ليل نيويورك تنبعث من النوافذ المغلقة. أردت أن أخبره بكل شيء

حينها، لكن الخوف تملّكني. كنت أخشى أن يستشيط غضباً لأنني كذبت عليه؛ كنت أخشى أن أفقد احترامه لي، وأن يرى من تزوجها على حقيقتها. تذكرت الأمسية التي التقينا فيها لأول مرة: كان هو مجرد لص، أما أنا فقد كنت تلك الفتاة الثرية التي ارتمت بين ذراعي شخص بوهيمي: لقد كانت تلك الأمسية هي التي صاغت قصة أسطورتنا.

أشعر الآن بأنني واقعة في غرام حقيقةِ أن كمّاً كبيراً من المال يكاد يكون في متناول يدي: الكثير من المال، أعمال تجارية صغيرة تدرّ الملايين، وأعمال تجارية متوسطة المستوى تدرّ بضعة مليارات من الدولارات. سأل: «هل تقومين بإجراء أبحاث؟» أجبت مباشرة: «أجل أنا أجري بعض الأبحاث.» قال: «ساليفان قادم لزيارتنا.» سألته وأنا أغالب النعاس: «من؟» قال بكثير من اللا مبالاة: «إنه ساليفان من فورت ورث. إنه قادم لمتابعة بعض الأعمال. يرغب في رؤية التمثال، وأنا جاهز لأريه إياه.» لو أن هذا الحديث تمّ قبل أسبوعين من الآن، لكنت قفزت من السرير، وأضأت نور الغرفة، وطرحت عليه آلاف الأسئلة التي تدور كلها حول موعد استلام المال مقابل هذا العمل كي نسدد تلك الكومة من الفواتير التي تتكدس أمام ناظرينا. أجل، وكنت سأهنئه على إنجاز هذه التحفة الفنية. كان بإمكاني رؤية تلك المرأة: شخصيتي السابقة وهي تقوم بهذا كله، لم أشعر حيالها بأي ود، لم يكن يعجبني إحساسها باليأس، أو الكم الكبير من الإنهاك الذي كان يطغى على حياتها. كان يمكن أن أهتم لذلك فوراً. كان هذا الخبر يعني لي الكثير: وارن ويليام ساليفان الذي يعتمر قبعة راعي البقر ، ويضع ربطة عنق من نوع البولو حول ياقته، ويحشو مبلغاً كبيراً من المال في حقيبته، قادم إلى نيويورك؛

وبمجيئه سوف نسدد جميع ديوننا، وندفع أقساط مدرسة البنتين لمدة سنة كاملة بعد أن يدفع أتعاب ثيودور.

بالرغم من كل ذلك، لم يكن بمقدوري إظهار الحماسة الحقيقية، وكنت أعرف أن ثيودور سوف يكون على علم بحقيقة ما يجري. لكنني لم أهتم حينها في شرح حقيقة موقفي أو تبرير ما قمت به. كل ما أردت أن أفكر فيه هو موضوع الرهن العقاري – كل ما قرأته، وما أردت أن أقرأه – قرأت الكثير لكنني لم أفهم شيئاً مما قرأت. هل سيكون بإمكاني القيام بذلك؟ كيف يمكن إقراض المال لأشخاص غير قادرين على تسديده بسهولة؟ إن ذلك يشبه إقراض المال لأشخاص مثلي ومثل ثيودور. من يمكن لها أن تفعل ذلك وهي في كامل قواها العقلية؟ لا يمكن أن أقرض نفسي مالاً. كان ذلك هو أحد مظاهر الحماس الزائد في الحفل؛ الحماس الذي كنت أجهد في محاولة فهمه. لماذا يجد المصرف الاستثماري هذا النوع من الرهن العقاري، والرهانات العقارية المشابهة شكلاً من أشكال الاستثمارات الجاذبة، ناهيك عن بلدان بأكملها مثل أيسلندا والصين؟ المادة التي كنت أقرأها لم تضفْ أي جديد. لماذا يرغب الناس في اقتراض مبالغ من المال ستضاعف من ديونهم خلال بضع سنين؟ ألا يعرفون أن هذه السنين تمر بسرعة؟ ألم ينبئهم التاريخ أن الأسواق تتغير، وأن التغير نحو الأفضل ليس هو الاتجاه الوحيد؟ ولماذا تشجع الحكومات الناس على الاقتراض؟ هل لأنها تهتم لهم؟

كنت، وأنا أستلقي إلى جانب ثيودور في السرير، «الكذبةَ» التي تعيش حياتها المزدوجة. المجيب الآلي كان يحتوي على رسالة من المحرر وأخرى

من وكيل أعمالي. أليس هذا ما يحدث عادة عندما تكون مسافراً؟ يمكن لأسبوع أن يبدو وكأنه دهر، وكل شيء تتركه وراءك يبدو بعيداً جداً وغير ذي قيمة عندما تواجهك اللحظة الحاضرة؟ استحضرت في ذاكرتي تلك الرحلة إلى المغرب من أجل كتابة مقالة لصالح إحدى المجلات. كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً داخل خيمة لأحد السكان المحليين من البربر منصوبة فوق أحد السطوح في مدينة مراكش، وكانت نسمات من هواء الشمال الإفريقي تداعب وجهي في الوقت الذي كان الهلال معلقاً في السماء مثل إحدى علامات التنقيط. أما تحت، في الشارع فقد كان هناك رجل يغني حيناً وينفخ في البوق أحياناً؛ كانت أغنية جميلة تغلغلت في أعماق داخلي. استمرت الأغنية فترة طويلة؛ كانت بمثابة دعوة للناس كي يستيقظوا ويتناولوا طعام السحور قبل انبلاج الفجر بما أن الوقت كان في شهر رمضان. شعرت بأنني بعيدة جداً؛ وكان إحساس بالسعادة يغمرني لأنني كنت بعيدة جداً عن البنتين وعن ثيودور وعن متطلبات حياتي المنزلية. كنت أشعر حينها أنهم جميعاً كانوا يعيشون في حياة أخرى وفي زمن آخر، بالرغم من أنه لم يكن قد مضى على غيابي أكثر من ثلاثة أيام.

قبّلتُ ثيودور وقلت له إنني أرغب في رؤية التمثال في أي وقت يراه مناسباً، كما سألته فيما إذا كان يرغب في أن أكون موجودة عندما يزور ساليفان الاستديو.

حينها سألني: «إلى أين ذهبتِ؟»

هنا: إلى عالم الرهن العقاري. كنت أخضع لفترة تدريب على تجارة

الوساطة، وعلى التعامل مع وكالة الضمانات الثابتة المدعومة من الرهن العقاري. هنا كانت نقطة البداية بالنسبة إلى وين؛ وكان هذا أحد مجالات اختصاصه: إنه عالم شركات مثل فريديز وفانيز وجينيز — وهو العالم الذي يخفف الضغط عن الرهانات العقارية المدعومة بشكل كامل، أو شبه كامل من قبل الحكومة. كان وين واضحاً وشديد الثقة بالآمال التي كان يعقدها على هذه الشركات. تعلمت فوراً كيف أتعامل مع الكشوف المالية؛ وخلال شهر واحد، أصبح بإمكاني كتابة تعليقات يومية حول الإيرادات المالية ومستوى الأداء والرأي المكتبي حول وضع السوق:

كانت حركة الرهن العقاري التجارية جيدة يوم أمس، حيث كانت حركة المال كثيفة بالاتجاهين. وبينما لوحظ أن الأرباح استنزفت جزءاً من المال المحلي الحقيقي قبل حلول موعد وضع جدول الرواتب، لم تتم ملاحظة وجود الكثير من المخزون الأساسي في السوق. وبالرغم من أن أكثف حركة يومية منذ أسابيع قد حدثت اليوم، فإن حركة المال خلال اليوم انحرفت بشكل كبير باتجاه الشراء، وهي بذلك امتصت العرض بأكمله.

تبدو هذه اللغة بعيدة كل البعد عن المصطلحات السردية لرواية «جيل النار» التي بدأت إحدى الصحف، بالمناسبة، تنشر حولها مقالات نقدية يومية بعد ثلاثة أسابيع على بدئي العمل في وول ستريت. إحدى هذه المقالات كالت الكثير من المديح للرواية واقتبست منها مقاطع طويلة، وإن شابها بعض الانتقاد. كان لمثل هذه المقالة، أن تضفي الكثير من الحيوية عليّ طيلة السنة؛ فقد اتصل كل من المحرر ووكيل أعمالي مهنّئيْن، كما اتصلت بي ليلي ستار وويل تشابمان، وكذلك كل من أبي وأمي وأخي للغرض نفسه؛

صدرت أيضاً تبريرات للتأخر في نشر الرواية بسبب سوء التوقيت (حيث أن التنافس كان على أشده بين دور النشر في مرحلة ما قبل عيد الميلاد)؛ تلا ذلك نشر مقالة نقدية عن الرواية في إحدى الصحف التي تصدر يوم الأحد، وتضمنت هذه المقالة فيما تضمنته تساؤلات حول خطوتي التالية، وحول طبيعة الرواية التالية التي سأعمل عليها؛ كل ذلك منحني راحة نفسية كبيرة ليس بسبب هذه المقالات النقدية الإيجابية، بل بسبب هذه الحرية الجديدة التي حققتها: أعني التحرر من حاجاتي الملحة: من همومي الحياتية اليومية، واحتياجاتي المالية التي تعتمد على تلك القوى التي صممتها القوة الخفية الأعظم. كان رادالبينو محقاً. فقد أصبحت حرة. لم أشأ أن أقوم بذلك بعد الآن – أي أن أستلّ لاشيء من لا شيء لأنتج لا شيء:

كما كان متوقعاً، تسبب تجميع آخر لثلاث فواتير مستحقة الدفع على حساب الرهن العقاري الممتد على مساحة ثلاثين سنة في الكثير من التشنج في الحسابات المُحَدّبة، كما لاحظنا بعض الانخفاض في نسبة المخاطرة في وقت لاحق اليوم بعد شهر من الارتفاع في نسبة التبادل التجاري الذي...

إذا كانت الأيام تتميز بالأرقام، ومنحنى العوائد وما يليه، فإن الأمسيات تتميز بالموكلين: هم رجال في منتصف العمر مع زوجاتهم وعائلاتهم وبيوتهم الفخمة وبناتهم اللواتي يتمنين الحصول على بطاقات حضور في الصف الأول لحفلة هيلاري داف. أما الأحاديث التي تجري، بينما يحتسي الجميع الشراب، فإنها لا تعنى بالأرقام مطلقاً، بل تتناول كل ما من شأنه أن يبني الثقة والاحترام فيما بين الموجودين. فأنتَ تقصد البارات كي تمنح نفسك بعض الراحة بعد عناء يوم عمل طويل، وبالتالي تستعيد شخصيتُك رونقَها

وبريقّها. قال لي وين في مكتبه بعد أن بدأ الضوء يتلاشى تدريجياً مع تصرّم النهار: «إننا جميعاً نبيع نفس اللحم المقدد.» قلت: «ظننت أننا نبيع السيارات المستعملة». ابتسم وقال: «لكننا اليوم نبيع اللحم المقدد، وهو من نفس النوعية التي يبيعها الآخرون، لا شيء مميزاً حول هذا المنتج، وهو ليس منتجاً عضوياً. إنه اللحم المقدد التقليدي نفسه، ذو القيمة الغذائية نفسها والطعم اللذيذ نفسه، نحن لا نساوم على ذلك. نحن جميعاً نبيع المنتج نفسه. لذا، عندما تتساءلين لماذا يختارون شراء اللحم الذي أعرضه أنا بدلاً من اللحم الذي تعرضينه أنتِ؟ إليكِ السبب: أنا أتحدث إلى إحدى الزوجات عن الأولاد، وأسأل عن أدائهم وأحوالهم في المدرسة عموماً، كيف حال مارجوري، الوافدة الجديدة، وكيف كانت رحلتهم إلى آسبين؟ وهل زاروا منطقة كاش؟ أتلاعب ببعض الخيوط، وأقوم بتأمين بطاقات للأولاد في الصف الأول لحفلة هيلاري داف. ولماذا أعرف عنها الكثير؟ لأنني عازب وأهتم بالنساء والمال والطائرات. أنا أعرف عنها الكثير لأنني بحاجة إلى ذلك، تماماً كما أنا بحاجة لمعرفة الكثير عن أحوال البلديات ومعدلات الفائدة التي يتعين على المقترض دفعها، وكما أحتاج للتعرف إلى عالم الأقزام. بالطبع يتخلل ذلك حديث عن استنباط الأفكار ونقاش حول حال السوق، والكثير من المعلومات. لكن هؤلاء يفدون إليّ أيضاً من أجل شراء اللحم المقدد لأنني حزت على إعجابهم، وبسبب أنني أعرف الكثير. هذا كل ما أتميز به عن الشخص الآخر المنافس. لقد حزت على ثقتهم، ولذا فإنهم يؤمنون بما أقوله لهم.»

كان متألقاً، وكان في غاية الأناقة بالرغم من أن أناقته لم تكن استعراضية

مطلقاً – كان شخصاً يعرف تماماً ما هو الشيء المناسب لحجمه البدين. كان بإمكانه أن يظهر أحياناً على شاكلة شخصية الأنسة لين المراوغة؛ أي أنه مجرد نتاج لهذه الجدران، وليست له أية حياة خارجها. كنت بالتأكيد أعرف ولعه بالطائرات من خلال زيارته السريعة التي قام بها لآل تشابمان؛ أعرف ما يكفي عن طفولته وعن الألعاب النارية التي كان يتعامل بها. أما داخل مكتبه فلم يكن يوحي البتة بأي شيء يمكن أن ينبئ عن وجود عالم خارج إطار جدرانه. فلم تكن النساء تتحدث إليه عبر الهاتف أو ترسل إليه رسائل بالبريد الإلكتروني – وهو نفسه لم يكن ليسمح بذلك. فلا اتصالات من أمه، أو صور من موطنه الأصلي. فأنت تعرفه من خلال ما صنعت منه شركة بي أند بي.

سألته: «إضافة إلى كل الحسابات الرياضية، هل عليّ أن أكون محبوبة أيضاً؟» هل عليّ أن أسوّق أو أبيع نفسي؟»

قال: «بكل تأكيد.»

قلت: «هذا يشبه كثيراً عملية النشر.»

كان إجراء مثل هذه المحاكاة مع عملية النشر هو ما ساعدني على استيعاب طبيعة عمل هذه الإمبراطورية المالية. فالدردشة التي تتم بين التاجر والزبون تشبه ما يحدث بين وكيلة الأعمال والناشر عندما تحاول الأولى تسويق الكُتّاب الذين تمثلهم. فالتاجر هو وكيل الأعمال الذي يعقد الصفقات بين الكاتب، أي (المبدع)، والناشر، أي (المستثمر). ويبدو أن وين بصفته مخططاً استراتيجياً، يمكنه القيام بذلك: أي أنه يأخذ مجموعة من الكُتّاب

الطموحين الذين ليس لدي الواحد منهم أي دخل (أعني بذلك الرهانات العقارية والقروض المرتبطة بها التي تمنح لزبائن تتضمن عملية إقراضهم مخاطر عديدة) فيضعهم ضمن بوتقة واحدة ضمن رزمة أنيقة مترافقة بهَرَج ومَرَج، ويستخدمهم في مجال التجارة ويكسب من خلالهم المال: أكوام فوق أكوام من المال.

كان وين يعشق عمله. كنتَ تستطيع أن ترى ذلك في خفة حركته، ومن خلال الطريقة التي يتحدث فيها عن السوق والخطط التي يصممها، وبعد أن يطمئن إلى أن صبيانه يقدمون له أفضل ما في جعبتهم. بسبب موقعه كرئيس للدخل الثابت، فإنه لم يعد مهتماً بالتجارة؛ كان يفتقد هذه الخصلة كثيراً (ولو حدث وانتابه القلق بشأن أي شيء، فقد كان يتمثل في خوفه من أن يفقد مهارته التجارية)، وبالتالي، فقد كان جميع الباعة العاملين في المؤسسة يدورون في فلكه. أراد أن يكون أداؤهم كما كان أداؤه هو. كنت أراقبه في الأسابيع الأولى تلك، وهو يحثهم على إبراز تلك المواهب من خلال الاستفسار منهم بهدوء عما حدا بهم للقيام بما كانوا يقومون به. كانت نبرة صوته الهادئة توحي بالثقة، وكانت الكلمات تخرج من زاوية فمه ليس على شكل تمتمة رقيقة، بل تحمل في طياتها الكثير من الطلاقة؛ كانت كلماته إيحائية بشكل واضح؛ كما كان مسترخياً وواثقاً من تمكنه من تعقيدات اللغة التي يجيد استعمالها.

في تلك الأيام الأولى، كان يبدي سعادةً جمّة لوجودي إلى جانبه بالرغم من أنه لم يعد يشعر بأن عليه أن يبرر وجودي معه لأي كان. كان يعطي الانطباع بأنه شخص يحب التأمل؛ كما بدا وكأنه يتلذذ بالضيق الذي يحس

به البعض لوجودي معهم، والذين كانوا يعتبرونني كالبول المتوضع في أسفل فراش السرير. كانوا يتساءلون: «من تكون هذه المغناج الصغيرة؟» كان عجزهم عن استيعاب سبب وجودي بينهم يثير فيهم الكثير من الضيق النفسي؛ أما وين فكان يتفهم كل ذلك، وكان يعرف كيف يتلاعب بأعصابهم. كان يريد أن يعرف كيف يتعاملون مع هذه الحالة، فقط ليثبت أن إحساسه تجاههم كان صحيحاً. أما أنا، فقد فهمت الدور الذي يتعين عليّ تأديته من دون أن يطلب إليّ أحد ذلك. أراد أن يعرف المدة التي سيستغرقها صبيانه كي تتكون لديهم ما يكفي من الجرأة كي يسألوا ذلك السؤال. كانت مباراة في الجرأة في واقع الأمر. من الذي سيقر بالهزيمة أولاً؟ لم أكشف سوى عن القليل. كان من السهل على أي منهم أن يبحث عن سيرتي في موقع غوغل بطبيعة الحال، لكن ذلك لن يفسر لهم سبب وجودي بينهم في هذا المكان. بدلاً من كل ذلك، كنت ألاحظ وأستوعب؛ وهو نفس الأسلوب الذي كنت أتّبعُه بصفتي كاتبة. لم أتواجد في الصالة كثيراً في الأيام الأولى، لذلك بقي انطباعي عنه على النحو التالي: الصالة عبارة عن هيكلية منظمة تنظيماً جيداً، تتفاعل كافة أجزائها بشكل جماعي من أجل بلورة العمل بمهارة وكفاءة.

كان وين يرغب أحياناً في إعلامي أن جميع الفتيان موجودون الآن على رأس عملهم، وأنهم قد وضعوا رهاناتهم. كان سنيك الأكثر مباشرة وهو يحشرني عندما كنت في طريقي باتجاه الحمام، بعيداً عن الصالة والباعة الآخرين الذين كنت تحت مجاهرهم. أفصحَ بشكل مباشر عما كان يدور في خلده: «أتـى بك إلى هذا المكان لأنك جاهلة تماماً بطبيعة العمل هنا، ولأنه

يريد أن يثبت أن بإمكانه أن يعلمك كل شيء.» سنيك، هذا الشاب الوسيم الطويل القامة والنحيل ببشرته السمراء، والذي يمتلك قوام السباحين؛ القوام الذي بإمكان المرء تبينه تحت قميصه المخاط بأناقة فائقة، لم يكن بحاجة إلى سماع جواب مني أو تعليق على ما قاله لي للتو. كان ما عبّر عنه يشير إلى أن عليه أن يقطع مسافة طويلة كي يحقق ذاته في هذا المجال؛ إلا أنه كان متأكداً أنه كان محقاً في ما قاله، وبالتالي، فهو لم يطلب أو يتوقع مني أن أؤكد على أن ما قاله كان صحيحاً. تابع قائلاً: «رفعتُ قيمة الرهان؛ أما الآن، فإن عليهم أن يطلعوني على طبيعة ما تقومين به، والموعد الذي سيطلب إليك فيه الجلوس وراء هذا المكتب.» انسلّ بعيداً وأدار رأسه باتجاهي ليضيف قائلاً: «أنا جاهز دوماً لمساعدتك، إذا كنت بحاجة إلى أية مساعدة...» خطا خطوة واحدة إلى الأمام، ثم توقف واستدار نحوي، ثم عاد إلى حيث كنت أقف. انحنى صوب أذني؛ كانت أنفاسه دافئة وحلوة. قال هامساً: «أنت تعرفين طبيعة العمل بالفطرة، ولكن عليك أن تتعلمي ذلك الآن بالممارسة. المسألة برمتها ترتبط بالرهان في هذا المكان. إننا نراهن على كل المستويات؛ ونحن مشدودون إلى هذا النوع من الأعمال وهدفنا الوحيد هو الفوز.»

تبين الأمر لي حينها؛ وهو تماماً ما أرادني سنيك أن أفعل: فالرهان بين وين وبين رادالبينو عليّ لم يكن يختلف في حقيقته عن الرهانات الأخرى. كان هو أساس اللعبة التي تصف هذا النوع من الأعمال الذي يشبه في طبيعته الكازينو. الرياضيات مهمة؛ لكن مظاهر الخداع، ووجه لاعب البوكر الخالي من أي تعبير لا تقل أهمية عنها. في هذه الحال، كنت مجرد حصاة ألقيت في بحيرة، فكانت الدوائر والحلقات الناجمة عن ذلك مجرد صدى

لكل الرهانات الأخرى التي بدأت تُطرح هنا وهناك. كان من المهم جداً فهم المسألة من هذه الزاوية. فقد كنت أمثل رهاناً بالنسبة لرادالبينو ووين؛ تحول فيما بعد إلى رهان أيضاً بالنسبة إلى الفتيان الذين وجدوا أنفسهم في خضمّ صخب هذه المقامرة التي كان مُلّاك البيوت بعضَ أقطابها – فقد كانوا يراهنون على أن معدلات الفائدة سوف تستمر في الانخفاض، وأن أسعار البيوت ستستمر في الارتفاع؛ كان يراهنون على الربح السهل والسريع الذي سوف يموّل أحلامهم (وأحلام الآخرين)؛ من أجل ذلك، راهنوا على حكمة وول ستريت. أما وول ستريت فكان يراهن على حقيقة أن مُلّاك البيوت سيتصرفون على هذه الشاكلة، وهكذا، وبحلول سنة 2005، ستكون عناوين الصحف على الشكل التالي: «الرهان المقدّرة قيمته بتريليون دولار: مُلّاك البيوت يخاطرون في المراهنة على دفعات أقل لتسديد أقساط الرهانات العقارية.»

هذا ما فهمته من خلال المواجهة التي تمت بيني وبين سنيك: لم يكن لأيٍّ من هذا، أية صلة مع القيمة الحقيقية؛ بدلاً من ذلك، كانت تعبر فقط عن قيمتها السوقية لا أكثر ولا أقل – «أي ما تتحمله السوق» كما قال وين. لهذا السبب كان من السخافة بمكان محاولة فهم أسباب ازدهار عمليات الإقراض التي لا معنى لها. لم تكن لذلك أية أهمية، تماماً كما لم يكن لتحوّل كاتبة روائية إلى تاجرة أية أهمية. فطالما أن بإمكان السوق إعطاء قيمة وأهمية للرهانات العقارية المضحكة، سيكون ثمن هذه الأخيرة كبيراً. فهم سنيك هذه المعادلة وقام بتمريرها إليّ: وكان ذلك بمثابة البقشيش الكبير والوحيد الذي حصلت عليه من تاجر آخر (باستثناء ما حصلت عليه من

وين). كان سنيك على هذه الشاكلة؛ كانت ثقته بنفسه عالية جداً لدرجة أنه كان في غاية الكرم في هذا العالم المهني الذي لا تتوقع فيه وجود أشخاص على استعداد لمساعدتك في كسب المال لأنهم هم أنفسهم مشغولون جداً بكسبه. كان كسب المال على حساب الآخرين هو عنوان اللعبة. سلّمني سنيك الوصفة: الرهانات على قيمتها السوقية، وليس على قيمتها الفعلية. لقد صنع وين مني بهدوء وبشكل خيالي سوقاً بحد ذاتها، وقد تمت المتاجرة بي على أساس القيمة التي يمثلها هو من وجهة نظر التجار إلى الباعة مروراً بالمحللين. كان يدير العرض برمته من دون أن ينبس ببنت شفة.

عندما أصبحت مؤهلة لاستلام المكتب، كنت قد اجتزت امتحانات السلسلة 67 والسلسلة 7 (التي لا بد من اجتيازها قبل الحصول على رخصة من الرابطة الوطنية لتجار الضمانات كي يكون بالإمكان ممارسة مهنة التجارة – وهي امتحانات تستقصي معلومات المتقدم للامتحان حول الموضوعات التقنية، والتسويات والأسهم والبلديات وأخلاقيات المهنة)، استشْرَتْ ظاهرة الرهانات في مدينة نيويورك (هل تتذكرون الحفل؟) انتشرت الشركات في كافة أنحاء المدينة، وفي طول البلاد وعرضها، وكذلك في شتى أنحاء العالم، واتسع نطاق عملها، وتضاعفت أعدادها، وكانت تعيّن موظفين لديها برواتب خيالية مستندةً إلى الرهان على جني أرباح وفيرة من سوق الإسكان. راهن رادالبينو على أن سنيك سوف يلهب سوق الطلب على القروض بفوائد أعلى لزبائن تتضمن عملية إقراضهم بعض المخاطر، وهي سوق ملتهبة أصلاً، ولذلك أراد أن ينقله لشغل منصب رئاسة ذلك المكتب. رفض سنيك. كان يراهن على أن رفضه الانصياع لرغبات رئيس الشركة وكبير الموظفين

التنفيذيين فيها لن يكون له أي تأثير سلبي عليه، وأن ذلك سوف يُثْبت جَلَدَه وقدرته على التحمل، وكأني به يقول: «لا يعجبني ما أشتمّه هناك.»

وكان سنيك محقاً. كان يعرف قيمته ومقامه في الشركة، ولذلك فقد أصرّ على موقفه. أتى وين ببديل له ليرأس ذلك المكتب. البديل كانت جوُن سكرابيتي من شركة الإخوة سيلفر، وقد راهن عليها هي الأخرى من أجل تجاوز سجل شركة بي أند بي الممتاز عهداً أمامها سبل إبراز مكامن مهارتها بطريقة لم تسمح بها الشركة من قبل؛ ذلك أنها كانت تجمع بشكل ملموس بين استعدادها للمخاطرة وبين رغبتها في المكافأة. (كانت واحدة من القلائل من بين النساء في وول ستريت ممن يمكن أن يطلق عليها لقب خبيرة في هذا النوع من التجارة. كانت ابنة أحد ضباط شرطة نيويورك، نشأت في منطقة كنارسي، وكانت تهتم كثيراً لأناقة مظهرها، كما كانت مولعة بالحديث عن تجربتها الشخصية في التسوق.) خسر ماكسي كل رهاناته بما في ذلك رهانه على سيارة فورد العتيقة من طراز T، وبالتالي فإنه خسر مقعده أيضاً. قفل عائداً إلى موطنه الأصلي في تشيلي، وإلى أحصنة السباق التي تمتلكها عائلته؛ وعليه، فقد استلمت أنا، مكتبه.

هذا ما كان عليه مشهد المكتب في الأول من شهر حزيران، يونيو، سنة 2004: هناك سنيك، المدير الذي يبلغ من العمر ثمان وعشرين سنة، ويعمل في وول ستريت منذ ست سنوات؛ كان بطل السباحة في جامعة ستانفورد، عبقري في الرياضيات، وكان يصاحب امرأة تكبره بأربع سنوات وهي تاجرة مثله، كانت حديث البلدة ليس لموهبتها المتميزة كتاجرة في العملات، بل لبراعتها في اقتناص الفرص. هناك أيضاً تايغر وصديقته المغناج التي كانت

تحب أن ترسل له صوراً لقطّته في وضعيات طريفة (مثل اللقطة التي ترتشف فيها الحليب من زجاجة لإرضاع الأطفال، وما إلى ذلك)، إضافة إلى ولعه بأنواع غريبة من المشروبات. كما أن هناك سام، نجم لعبة اللاكروس السابق الذي اكتشفت أنه يميل إلى التمرد بطبعه وليس مجرد نسخة كربونية عن تايغر الذي كان أبواه (وكلاهما كانا فنانيْن) قد قاما بتوجيهه نحو حياة فنية بوهيمية، لم يستطع أن يماشيها أو يتأقلم معها؛ ولذلك فقد خذلهما بانضمامه إلى عالم وول ستريت. يأتي بعد ذلك جوش بهوايته في اقتناء صور «فري وينونا» وأحاديثه المستمرة عن البنات — هناك دائماً بنت جديدة في حياته: «إنني أتخلى عن لينيت لوجود الكثير ممن هن أهم منها هنا في هذا المكان.» كان هناك غاس، الكوري الذي كانت صرامة وجهه بمثابة قناع يخفي إحساسه بالخجل، والذي كان محقاً في محاولته إخفاءه بما أنه لا يجوز للمرء أن يكون خجولاً في مثل هذا النوع من الأعمال. وأخيراً، كنت أنا أيضاً هناك: أنا التي خرجتْ للتو من قبعة الساحر، كنت أسير في ظل سنيك أكثر مما أسير في ظل وين كي أحتكّ بشكل مباشر مع عالم التجارة، حيث كنت أقوم بالإشراف على بعض العمليات التجارية الصغيرة بنفسي من حين لآخر، عندما يكون سنيك مشغولاً بعقد الصفقات التجارية الكبرى.

بعد مضي ستة أشهر على وجودي بينهم، أصبحت جزءاً لا يتجزأ من المشهد؛ كنت مثل سيارة دخلت إلى الطريق الرئيسية السريعة من طريق جانبية. ولجت إلى ذلك العالم وأصبحت جزءاً منه؛ لم يعد هناك داعٍ أو مجالٌ للالتفات إلى الخلف؛ كانت قيمة هذه التجارة تقدّرُ بالملايين، لاَ بل بالمليارات من الدولارات؛ لكن دوري فيها لم يقتصر على الزمن وحسب، بل

كان يثبت لهؤلاء الأشخاص أن بإمكاني النجاح فيما أقوم به، وأن بإمكاني أن أكون واحدة منهم. خلال تلك الأشهر الستة، تم رفع واجهة الصالة التي بانت على حقيقتها تماماً كعملية جزّ العشب من الحقل، والتي تكشف حقيقة ما يجري تحت تلك الطبقة العشبية – كالديدان والبزّاقات والنمل واليرقات الدودية وأنواع أخرى من الحشرات، كل منها منهمكة في روتين حياتها وأعمالها اليومية، التي تميز كل واحدة منها عن الأخرى.

كانت المراهنة في صميم معناها تعبيراً عن المنافسة، وهكذا، فكما أكّد سنيك، كانت المراهنات في كل مكان. لم أكن أعرف بالضبط إلى أي مدى كنت أتمتع بروح المنافسة إلا بعد أن اتجهت صوب وول ستريت. لكنني أردت أن أنجح فيما أنا مقدمة عليه بأي ثمن كأي واحد منهم. في الأشهر الأولى تلك، دخلت في كل أنواع المنافسات التي يمكن لكم أن تتصوروها. كانت تلك هي الطريقة التي أنفّس فيها عن الاحتقان الذي يعتمل في داخلي خلال الفترة التي كنت أتدرب فيها على القيام بالمهمات الكبرى، وأعني بذلك الصفقات التي تقدر بمليارات الدولارات. كنت في امتحان ما يشبه تذوق أنواع عديدة من المشروبات. كانت المراهنات على أنني عاجزة عن تمييز ستة أنواع من السوائل المعبأة في زجاجات على مكتب تايغر بشكل تلقائي هي بنسبة عشرين إلى واحد. لكنني استطعت أن أقوم بذلك. كانت هناك مراهنات أيضاً على عدد الأهداف التي يحققها لاعب بمفرده في لعبة البيسبول خلال موسم رياضي واحد، والزمن الذي يستغرقه أحدنا في الجري لمسافة ميل واحد، ومن منا يستطيع أن يزدرد الطعام الحار المذاق الذي تعدّه أم سنيك من دون أن تسقط منه قطرة عرق واحدة، ومن منا يستطيع أن

يغوص برأسه إلى أعمق نقطة ممكنة في حوض من الجليد المذاب في اليوم الذي أقاموا فيه معرض شراب مياه الصودا – وهي المياه التي انغمست فيها الأيادي القذرة لجميع الحاضرين طيلة صبيحة ذلك اليوم.

كانت هناك أيضاً مسابقة لالتهام الهامبرغر. هذا ما كان يحدث تحت سطح تلك الآلة المخيفة. بدأت تقاليد مسابقات التهام الهامبرغر قبل عدة سنوات من انضمامي إلى شركة بي أند بي. تبوّأ الرابحون والخاسرون في تلك المسابقات مواقع لم يكونوا يحلمون بها. كان المطلوب في مثل هذه المسابقة أن يلتهم المتبارون أكثر من عشرين شطيرة من الهامبرغر خلال ساعة من الزمن. تمكن أحدهم وكان يعمل في إحدى الأسواق المحلية الناشئة، من التهام اثنتين وعشرين قطعة. وفي السنة التالية، اشترك شخص من أستراليا، وكان أحد نجوم لعبة كرة الركبي هناك، ويبلغ طوله ست أقدام وأربع بوصات، ويلعب في مركز الجناح الأيمن، في هذه المسابقة. الْتَهَمَ ستاً من تلك الشطائر، لكنه توقف بعدها لأنه لم يستسغ طعم البصل في الشطائر – وقد مثّل ذلك فشلاً ذريعاً بالنسبة إلى المراهنين عليه. «البصل؟ توقف بسبب البصل اللعين؟» انتقل بعد تلك المسابقة إلى دالاس للعمل لدى إحدى الشركات التي كانت تعمل في مجال حماية الثروات الخاصة. كان هناك ما يشبه الإجماع على أن مسابقة الهامبرغر تلك، قضت على مستقبله.

كانت مثل هذه القصص هي الشائعة في ذلك الوسط. كان هناك سبب حقيقي لكنه غير مكتوب لوجود مثل هذه القصص. حقيقة الأمر أن لا شيء معدٌّ سلفاً لتهيئة أيٍّ كان من أجل البدء في العمل داخل صالة البيع تلك. فلم تكن هناك حاجة إلى أية شهادة أكاديمية من أي نوع، كواحد

من متطلبات العمل؛ كما لم يكن هناك أي نوع من أنواع اختبار الذكاء الذي قد يشير إلى مدى قدرتك على القيام بمثل هذا النوع من الأعمال. الطريقة الوحيدة التي اكتشفها وين لانتقاء أشخاص موهوبين قادرين على القيام بمثل هذا العمل، كانت في الأساس رمي شبكة صيد كبيرة على ذلك الخضمّ الهائل من البشر، وبعدها يقوم بعملية الغربلة. كان المدى شاسعاً، بعبارة أخرى، وكنت أنا خير دليل على ذلك بالنسبة لجميع الحاضرين هنا. وهكذا، وكجزء من عملية الانتقاء الأكثر دقة، ولأسباب أخرى تتعلق بمفهوم روح الفريق الواحد والثقة، تبين لي أنه إذا كانت ستُقَيّض لي فرصة حقيقية للقيام برهان في تلك السوق، فإنه سيتوجب عليّ يوماً ما، أن ألج عبر باب أحد المكاتب، وستكون خلف ذلك الباب طاولة كبيرة عليها صف طويل من شطائر الهامبرغر؛ وسيكون هناك جمع من الأشخاص الذين تتسع ابتسامتهم لتصل بين الأذن والأذن الأخرى.

إليكم كيفية ما حدث: كان عدد منا، من ذوي الرواتب الثابتة يتجمع في احتفال «يوم الذكرى»[41] في موقع «حوض السفن» في سنترال بارك بمدينة نيويورك، حين عرّج أحدهم على ذكر مسابقة التهام شطائر الهامبرغر؛ فبدأت جوُن سكاربيتي تروي للجميع كيف أنها في إحدى المرات التهمت شطيرة بيتزا كاملة لوحدها. من السهل أن يلاحظ المرء كيف يتصرف الآخرون في مثل هذه الحال — لم يرغب أيٌّ منا في عدم متابعة دراسته الثانوية، على ما أعتقد. كانت جوُن سكاربيتي الضئيلة الحجم، بشعرها الأسود المتدلي

41 - يوم الثلاثين من شهر أيار، مايو ، الذي يحتفل فيه معظم الأمريكيين بذكرى الجنود الذي قتلوا في ساحات المعارك (المترجم)

فوق كتفيها، وعينيها الزرقاوين الحادّتين اللتين تشبهان عينيْ الحرباء، ذات سجل ممتاز وحائزة على درجة جامعية في الاقتصاد، تعمل في مجال تصميم تسويات وصيَغ مرحلة ما قبل تسديد القروض الذي يضاهي، بل يتجاوز، كل المؤشرات الأخرى – وهو ما كان الجميع يأمل حدوثه، على أية حال. كانت ترتدي فستاناً شفافاً مُوَشّى بكثير من الرسوم لورود الزنبق لدرجة أنها تكشف عن طيف واسع من الألوان. كانت شابة وذكية، وكانت تتباهى أمامي وهي تروي لنا كيف أنها التهمت شطيرة كاملة من البيتزا من الحجم الكبير بمفردها.

قالت: «ازدردتُها بأربع لقمات كبيرة». أخذتْ رشفة من الجعة؛ وبدأتْ وجنتاها بالتورد. الجميع كان يعرف أن كلامها هو مجرد هراء. «أربع لقمات! وكأننا نصدّقها.» تنحنح أحدهم. كانت الورود تملأ المكان بعبق رائحتها. سرحت بفكري باتجاه الكُتّاب والحفلات – فهمْ نموذج بشري مختلف تماماً. لكنني لم أكن أشعر بالملل. تجاوزت مثل هذا الشعور منذ مدة طويلة بالرغم من أنني كنت ما أزال ألاحظ الفرق بين هذين النمطين من الحياة. أتلفّتُ حولي متمعنةً بهذا الجمع من الأشخاص المتأنقين؛ إذ لا يوجد بينهم شخص يكسب أقل من ثلاثمائة ألف دولار في السنة. أعادت القول: «أقول لكم الصدق: شطيرة بيتزا من الحجم الكبير، ازدردتُها بأربع لقمات». تحول الحديث باتجاه أمور غريبة تتعلق بما يتناوله الناس من طعام. كان الجميع يحتسون كؤوسهم حتى الثمالة ويتحدثون عن الكلاب في الصين والقطط في الهند والثعابين في المستنقعات وحيوانات الراكون والخفافيش. كان عصر ذلك اليوم دافئاً؛ وكانت العائلات والأولاد يملئون المكان ويجدّفون في البحيرة

في كل الاتجاهات. وصلت سكرابيتي إلى درجة قصوى من الثمل حتى أنها لم تعد قادرة على حفظ توازنها. كانت تستطيع وهي في حال الصحو أن تنسى أو تغض الطرف عن حكاية شطيرة البيتزا ذات الحجم الكبير، لكنها الآن، وهي ثملة، تصر على التأكيد على أن هذا هو ما حدث فعلاً، كما أنها لم تشأ أن تنتقل إلى موضوع آخر. قالت: «أنتم لا تعرفون معنى أن يلتهم المرء شطيرة بيتزا من الحجم الكبير بأربع لقمات. الأمر مختلف تماماً.»

قلت: «يا جوُن،» تعمدت أن أخاطبها باسمها الأول. كانت أصغر مني بعشر سنوات، لكن سلطتها كانت أقوى؛ فقد بدأت العمل في هذا المجال منذ ست سنوات، وهي تكسب أكثر من مليون دولار في السنة. بإمكانها أن تطلب إلى أي شخص أن يخاطبها بأي لقب تختاره، وكانت تحب أن يخاطبها الآخرون باسم سكرابيتي. كسرتُ هذه القاعدة غير المعلنة من خلال مناداتها باسمها الأول، لكنني تعمدتُ أن أخاطبها من جديد باسمها الأول. كانت تثير أعصابي. قلت: «يا جوُن، أنتِ على وشك أن تكشفي عن شيء ما.» نظرت إلي بوجه يعلوه وميض خافت وكأنها ضائعة بين رغبة الأخت الصغرى في إثبات أنها لم تكن مذنبة من جهة، وبين القناع الاجتماعي الذي ترتديه عادة — كان الفتيان يطلقون عليها وصف: «آكلة الرجال». أحاطتني بذراعها وقالت بما يشبه التنهيدة: «هل الأمر يتعلق بمسابقة من نوع ما؟»

ظهر سنيك في تلك اللحظة من غامض علم الله، وكأنه كان ينتظر دوره. كان يبدو مرتاحاً جداً في سروال الجينز الذي يرتديه والقميص ذي الياقة البيضاء والمكوي بعناية، والمربوط بأزرار كمّيه على رسغيْ يديه بالطريقة المفضلة لديه، كما لو كان يخفي عيباً ما، في ذراعيه عن طريق تغطيتهما. كان

على وشك المناداة على الرهان، وكان ذلك يبدو واضحاً من خلال الابتسامة الخبيثة التي تحيط بكلتا عينيه. قال بصوت حرص على أن يسمعه جميع الحاضرين كي يتوقفوا عما كانوا يقومون به، وينتبهوا إلى ما سيقوله: «هل تعرفون ما هو الشيء الأكثر إمتاعاً؟ إنه المبارزة الفردية: التاجر ضد التاجر؛ المرأة ضد المرأة؛ الروائية المغناج ضد آكلة الرجال.»

صرخ الجميع باستحسان: «آآآآآآآه!» بدأت الطاولات تهتز، ما تسبب باصطدام أواني الفضة ببعضها بعضاً محدثة قعقعة. ازداد عدد المتجمهرين حولنا، وقد اجتذبتهم الأصوات الصاخبة. قلت: «هذا مستحيل. أنا أنسحب. لا أريد أية مراهنات. أنا أخلي المكان لتكون أنت الطرف الآخر في المباراة»؛ لكن ذلك كان من دون جدوى.

عندما وصلت إلى مقر عملي في اليوم التالي، كانت هناك بضعة آلاف من الدولارات، هي قيمة المراهنات. كان الجميع متحمسين جداً لمعرفة ما إذا كنت أملك أي شكل من أشكال الخبرة قبل انضمامي إلى الشركة. أشعرني كل ذلك بالجوع، ودفعني إلى قبول التحدي، والانخراط في هذه اللعبة، وأحيا فيَّ من جديد روحَ المشاكسة والمناكفة التي كنت قد نسيت أنها موجودة لديّ، والتي أضعْتُها في إحدى مراحل دراستي الثانوية. قلت: «راهنوا بنقودكم عليّ، فأنا بطلتكم.» كنت أراقب هؤلاء الفتية طيلة فترة بعد الظهر، وهم يتفرّسون بي، ويمازحون سكاربيتي التي رفعت رأسها باتجاهي وقالت: «هل تعلمين ما أفكر به؟ أنا أقول: ليذهب هؤلاء الرجال إلى الجحيم، ألا توافقين؟ لذلك، استمعي إليّ جيداً: تجاهليهم وحسب. إنهم يعانون من قلة التركيز، لكن الأكثرية الساحقة منهم نسيتْ هذا الموضوع بالكامل.»

«أعتقد أنك مخطئة في ما تقولينه يا جوُن.»

كنت أراقب هؤلاء الفتية طيلة فترة بعد الظهر؛ كنت أفكر أنهم لو كانوا يعيشون في جيل مختلف لكانوا أصبحوا أطباء أو محامين أو أساتذة في التاريخ أو صحفيين. شعرت بأنني أنتمي إلى عالمهم. لم أكن أختلف عنهم. الفرق الوحيد هو أنني وصلت إلى عالمهم متأخرة. أمضيت طيلة فترة بعد الظهر وأنا أؤكد للجميع أنني أنا بطلتهم.

في اليوم الموعود، أخذت إجازة صباحية من العمل كي أحضّر نفسي للمباراة. قلت لهم إنني سأتأخر عن موعد وصولي إلى العمل لأنني على موعد مع الطبيب (لا أستخدم ابنتيّ أبداً لتقديم الأعذار.) لم تكن هناك أية مشكلة؛ فقد قبلوا اعتذاري. تناولت في الليلة السابقة وجبة باستا على العشاء، وركضت مسافة ستة أميال في الصباح بهدف تقوية جسمي وتجويع نفسي. توجهت نحو المكتب بحلول الظهر، وأول من وقعت عيناي عليه كانت سكاربيتي التي قالت لي إنها أخذت الفترة الصباحية إجازة هي الأخرى. كانت ترتدي بذلة رياضية، وكانت تبدو مرتاحة تماماً. لم تخطر ببالي مثل تلك الفكرة، فقد كنت أرتدي بذلة رسمية.

سألتني: «هل أنت جاهزة؟» كانت عيناها الزرقاوان مليئتين بالثقة، وكان شعرها الأسود الفاحم مربوطاً إلى الخلف على شكل ذيل الحصان؛ كانت تضج بالشباب بشكل لا يصدق. ابتسمت. قلت: «أنا جاهزة.» سألتني: «هل كنت تتمرنين؟» كانت تقفز من قدم إلى أخرى مثل لاعبة التنس التي تتهيأ لاستقبال ضربة الإرسال. كان كل جوابي على ذلك هو: «أجل.»

كان هناك الكثير من الهياج. تم اقتياد كلينا إلى قاعة اجتماعات. تذكرت اللاعب الأسترالي في مركز الجناح الأيمن الذي تم نفيه إلى دالاس لأنه لم يستسغ طعم البصل. بدأت شطائر الهامبرغر بالوصول، وكانت كلها ملفوفةً بأناقة على شكل هدايا صغيرة، وكانت محشوة بالبصل والمخللات. كانت هناك عبوة من عصير الطماطم متوضعة أمامي وأمام سكاربيتي. جلسنا إلى طاولة ضخمة بيضاوية الشكل في مواجهة بعضنا بعضاً، وكل واحدة منا كانت أمامها شطائر الهامبرغر المخصصة لها. كانت سكاربيتي تبدو على هيئة قزم وهي تغوص في كرسيها – المرأة التي وصفت بأنها آكلة لحوم البشر الأنيقة والضئيلة الحجم. تحلّقَ الجميع حول الطاولة، وكان يتراوح مجموعهم بين ثلاثين وأربعين شخصاً، أغلبهم من الذكور يحشرون أنفسهم حشراً في تلك القاعة لدرجة أن بعضهم كان يتدافع أمام الباب. المهم في تلك اللحظة كان شيئاً واحداً فقط، أعني به شطائر الهامبرغر. خلع سنيك ساعة يده ووضعها في منتصف الطاولة تماماً، معلناً عن نفسه أنه هو مؤقت المباراة الرسمي. تجاهلت وجوده بالكلية، وركّزت بالكامل على شطائر الهامبرغر. قال سنيك بصوت عالٍ وسلطوي فيه من لهجة الأمر أكثر بكثير مما يستحقه هذا الحدث: «هل أنتما جاهزتان؟ تهيّأا، انطلقا!»

وهكذا انطلق كلانا. الشطائر الأولى التي التهمناها كانت لذيذة الطعم بشكل أدهشنا. وفي الوقت الذي كنت ألتهم شطيرة من الهامبرغر، كنت أنزع اللفائف عن الشطيرة التالية مثل ذلك المراهق الذي يحاول مرتبكاً فك حمّالة صدر الفتاة التي يواعدها. تابعت عدّ الشطائر التي ألتهمها، وكنت مثابرة على الاستمرار في التحدي. كانت سكاربيتي قد وصلت إلى

تحقيق منتصف مهمتها تقريباً، وكانت وجنتاها منتفختين مثل وجنتيْ ديزي غيليسبي لأنهما محشوتان بلحم الهامبرغر المطحون. مرّ طيفا ابنتيّ على خاطري في تلك اللحظة. ماذا يمكن أن يكون رأيهما بي لو حدث ورأتاني على هذه الحال؟ طردت طيفيْهما من مخيلتي. خمسة، ستة، سبعة، ثمانية. يستمر العد تصاعدياً ويتبين لي أنني متخلّفةٌ عن آكلة لحوم البشر. كانت النتائج تعلن بشكل مستمر. ازدردتُ قطعة كبيرة من الهامبرغر دافعة إياها باتجاه حلقي في محاولة مني اللحاق بها. تسعة، عشرة، إحدى عشرة. كان جمهور المشاهدين يبلغون زملاءهم الجالسين خلف مكاتبهم بآخر النتائج. هناك تصفيق. كانت قطرات من عصير الطماطم تتساقط فوق خدي، وعلى بذلتي. تابعت تركيزي على شطائر الهامبرغر من أجل تسهيل انزلاقها إلى داخل معدتي. كدت أمزق البذلة. من يمكن أن يلقي بالاً لذلك؟ هذا موضوع أساسي. شطائر الهامبرغر كانت مسألة بدائية. فآكلة لحوم البشر لم تكن سوى صبية لاهية، أما أنا فقد مررت بآلام المخاض والولادة مرتين، وكنت أعرف حجم قدرة الجسد على التحمل؛ ولذلك فإنني سوف أجعل إستَ هذه القذارة الصغيرة الآتية من منطقة كنارسي، بخزانتها الملأى بالثياب الفاخرة، يتغوّط شطائر الهامبرغر.

بدأت عملية عدّ الشطائر الملتهمة من قبلي، وكذلك من قبل سكاربيتي بالتباطؤ. كان الجميع يشجّع الطرفين؛ فقد كانوا يستمتعون بمشاهدة هذا السباق. أعلن وين عن مدى التقدم في هذا السباق عبر مكبر الصوت بحيث يسمعه جميع من كان يعمل خارج منطقة المباراة. كان رادالبينو يبتسم وهو يشاهد هذه المباراة في مكان ما. وكانت الأنسة لين تقرع الجرس. كنت أتابع

التهام شطائر الهامبرغر، وكان ذلك عرضاً ممتعاً بالنسبة إلى الفتيان. كانت أغلفة لف الشطائر تتكدس فوق بعضها بعضاً، وكانت الشطائر تتطاير بين الطاولة و فم كل منا. خمس عشرة، ست عشرة، سبع عشرة. كان الجمهور بأكمله يراقبني وأنا أزدرد المزيد منها. أما جوُن سكاربيتي الضئيلة الحجم فكانت تحشو فمها. هذا ما كانوا يريدون رؤيته. بدت وكأنها تريد أن تقول: حسنٌ، وماذا بعد؟ كان شعرها الأنيق المربوط إلى الخلف على هيئة ذيل الحصان يتحرك يمنة ويسرة وهي تحشو فمها بشطائر الهامبرغر.

لا خيار أمامي سوى التفوق عليها. لكنني غير قادرة على ذلك. أراقبها. كانت سريعة ومسيطرة وتتمتع بكفاءة عالية. إنها من فصيلة مختلفة؛ وهي محاطة بأشخاص من نفس عمرها تقريباً. هؤلاء الأشخاص كانوا متأقلمين مع مثل هذا الموقف، ومهيأين للتطلع إلى ما هو أبعد منه. كان جمهور الحاضرين يهتف باسمي: «إنديا، إنديا.» شعرت بغصة في حلقي، لكنني كنت أدفع بقطع الهامبرغر بقوة باتجاه معدتي. كان سماعي الهتاف باسمي قد أعطاني دفعاً كبيراً. حسنٌ. أنا أفهم المسألة الآن. هذا هو الحد الذي أرغب في الذهاب إليه. عليكم جميعاً مراقبة هذا المشهد، وأنتم تقفون في ذلك المكان مرتدين سراويلكم المكوية؛ تستطيعون مراقبتي وأنا أحشو فمي بشطائر الهامبرغر. حسنٌ. أنا أفهم المسألة الآن. فالطعام يتطاير من فمي وبقع الخردل تلطخ خدي، ونثرات صغيرة من الخبز تلتصق بشفتيّ.

تلتْ ذلك لحظات من الصمت بينما كان صوت مقطوعة موسيقية مستلّة من سيمفونية «فور إيليس» لبيتهوفن يصدر من ساعة سنيك من ماركة باتيك

فيليب، والمصنوعة من الذهب الأبيض عيار 18 قيراط. صرخ أحدهم: «كم عدد الشطائر التي التهمتها المغناج، الوافدة الجديدة؟» بعد ساعة على بدء المسابقة كنت قد ازدردت إحدى وعشرين شطيرة بينما التهمت آكلة لحوم البشر تسع عشرة شطيرة فقط. كان الهتاف أشبه ما يكون برصاصة أطلقت من بندقية في قاعة الاجتماعات الصغيرة. كسبتُ المباراة. صاح أحدهم: «مبروك، يا آنسة هامبرغر الصغيرة.» وقال آخر: «هذه المباراة اللعينة قد تكون قاتلة.»

ساد الصمت مرة أخرى؛ وتبين لي فجأة أنه ليس هناك شك حول وجهة ما أنا بصدد القيام به. شعرت بأن تلك اللحظة قادمةٌ لا محالة، وقررت أن أستثمرها إلى آخر الشوط؛ كما شعرت أن هناك طريقاً واحدة فقط لاستثمار تلك اللحظة بطريقة مناسبة، وتغليفها وتطويقها والإحاطة بها والانتصار عليها بشروطها. لا طريق إلا باتجاه الأمام، كما يقول بوذا. وهكذا، فقد هببتُ واقفةً حين دلف وين إلى القاعة، وفتحت فمي كما لو كنت أريد أن أبدأ بالكلام، لكن ما قلتُه لم يكن خطاباً بالمعنى الدقيق للكلمة، بالرغم من أنها كانت كلمة موجهة إلى الحضور بطبيعة الحال. خرج من فمي صوت طويل من التجشّؤ، يشبه الصوت الذي سبق أن سمعت مثله عدة مرات، وكان يصدر من صالة البيع بعد انتهاء الدوام الرسمي؛ كان تجشؤاً طويلاً، يشبه صوت الكمان، وكان خفيض الصوت ومصدر راحة بالنسبة إلي بشكل واضح، لكن وتيرة ذلك الصوت كانت ترتفع بشكل متصاعد وتشبه صوتاً منافياً للذوق، كما كان ذلك الصوت ينتهي بحركة مسرحية صغيرة ومختصرة تتلخص في إشارة من إصبعي باتجاه سقف القاعة مثلما يفعل سيلين ديون

عادة، وهو يعزف نغمة صوت موسيقي عالية الوتيرة، كما لو كنت أرغب في أن أقول: «أيها الفتية، أنتم لا تعرفون مع من تتعاملون، أليس كذلك؟».

الموجة الثانية من الهتاف المعبر عن الاستحسان، كانت تختلف عن الأولى. لقد كانت جولة قوية من الهتاف في كافة أرجاء القاعة تشبه ما يحصل بعد التوقيع على إحدى الصفقات، وقد امتد هذا الهتاف إلى المكاتب الأخرى مترافقاً مع رفع الأيدي وإشارات النصر والتصفيق وترقيص الكتفين، بينما كنت أتوسط هذا الجمع السعيد والمتضمخ بالإحساس بالرضا. لقد فاجأتُ الجميع وأثبتّ أنني الأفضل بينهم (يستحق هذا الحدث أن يُدوّنَ في تاريخ هذه الشركة، وان يعتبر ملحمة من ملاحم شركة بي أند بي، وكان ما يحبونه أكثر من أي شيء آخر هو أن يُهزَموا على هذه الشاكلة. لقد تفوقت عليهم جميعاً. لهذا رحّبوا بي عضواً في جمعهم، وهكذا فقد أصبحت واحدة منهم.

كان بإمكاني بعد ذلك العودة إلى المنزل لأخبر البنتين وكذلك ثيودور أنني قضيت يوماً ممتعاً في العمل؛ ولكن كان من المستحيل أن أخبرهم بما أحاول أن أخبركم به الآن بالضبط، علماً أنني فشلت في البوح به أمامكم. وحقيقة أنه ليس بإمكاني ولا بإمكان أيٍّ كان، أن يخبركم - وأنه كان يتعين عليكم أن تكونوا حاضرين في القاعة، تمثل حقيقة الهدف وراء هذا الاحتفال. لا توجد كلمة مرادفة له في قاموس اللغة. فأنتم تستطيعون تبيّنه حالما تشعرون به. أقصى ما يمكن أن تذهبوا إليه هو الإشارة إليه بكل تداعياته الصاخبة والمفرطة، والأمل في أن يتفهم أحدهم ذلك. كان ذلك العالم هناك، وأنا الآن أشعر للمرة الأولى بأنني شخص مرحب به في هذا العالم، وبأنني قد حزت على شيء لا يُقدَّر بثمن.

لقد شعرت في تلك اللحظة بالخِفّة بالرغم من توضع كلِ شطائر الهامبرغر تلك في معدتي. كنت أسير فوق السحاب. نظر سنيك إلي وقد التمعت عيناه بنور غريب قائلاً: «مبروك. لقد انتشرت أنباء فوزك الآن في كل زاوية من زوايا هذه المدينة.

حينها همست جوُن سكاربيتي في أذني بحيث لا يسمع أحد ما كانت بصدد البوح به قائلة: « ذلك — أعني به التجشؤ — كان لفتة جميلة منك. أكره أن أقرّ بأن هذا التجشّؤ يمكن أن يكون سبباً في تطوير مهنتك والدفع بها إلى الأمام.»

الفصل الثالث عشر

ولكن، لِنَعُدْ إلى البدايات، أي إلى اليوم الذي أعلمت فيه ثيودور بوظيفتي الجديدة. كنت ما زلت أرغب في أن أبقي الأمر سراً لأنني كنت أخشى أن يتهمني ثيودور بخيانة العهد الذي يقطعه الفنان على نفسه في أن يبقى مفلساً (وأن يجول في أقطار الأرض بِحُرِّيَة، ومن دون قيود أو تمويل من أحد)، وبأنني أصبحت خائنة شأني في ذلك شأن العديد من أصدقائي الفنانين الذين علّقوا أحلامهم وجعلوها بحكم المؤجلة «مؤقتاً» في البداية، فقط إلى حين يتداركوا أمورهم ويتخلصوا من بعض ديونهم، ويدوّروا بعض الزوايا من خلال انخراطهم في سلك تجارة العقارات على سبيل المثال. يمر الوقت وتصادفونهم في وقت الغداء مثلاً، وتلاحظون أنهم يكرسون وقتاً أطول مما تظنون للحديث في شؤون العقارات، أو للحديث عن شؤون أولادهم أكثر مما يمكن لكم أن تتذكروه، أو حول المكان الذي قضوا فيه آخر إجازاتهم. لقد ثقبوا البطاقة التي بواسطتها تُخْلي حياةً من نوع ما، موقَعها من أجل إفساح المجال لحياة أخرى كي تحل محلها، وربما تكون هذه الحياة الجديدة أكثر نضوجاً. هكذا سقطت القيود بنفس الخفة التي تسقط فيها الريشة في الهواء على الأرض.

كنت أبدو أنا أيضاً وكأنني نحّيْتُ جانباً حياتي القديمة، متبنّية حياتي الجديدة بكل إثارتها وإغراءاتها وغرابتها. ولكن بالنسبة إليّ، لم ينتابني مطلقاً الشعور بالذنب الذي قد ينتاب الشاري عادة. فلقد قفزت بشكل أو بآخر من الطريق التي تمثل حياة الفنان القاسية والمشبعة بالكد والتعب إلى نقيضها؛ أي إلى حياة الطبقة المُنعَمة التي تكدس الثروات، واكتشفتُ أن كل

ما أردت أن أعرفه عن عالم المال كان مجرد شكل من أشكال الكاريكاتير الرديء المستوى. كانت الحياة الجديدة أكثر تغوّلاً وأكثر فاعلية وأكثر غرابة من أي شيء يمكن أن يخطر في بالي. لم يكن هناك أي شيء غير متوفر؛ وكنت أنا ماهرة في التأقلم مع ذلك الوضع، كما أجمع عليه الفتية الخارقون في القسم الذي أعمل فيه.

على الأقل إلى حين حلول الوقت الذي كان لا بد من اقترابه والذي توجب فيه عليّ أن أخبر ثيودور بالحقيقة. كان ذلك يشبه الاعتراف له بأنني أقيم علاقة غرامية مع أحدهم. وأنني سوف أتركه من أجل أن أعاشر رجلاً آخر؛ رجلاً آخر يجني الكثير من المال. ولكن وبالرغم من أنني لم أكن على علاقة غرامية بشخص آخر، وأنني أحبه أكثر من أي شيء آخر – وعليه أن يكون على علم بذلك – فإنه كان سيتمعّن بي وبما أصبحت عليه، ويقول الحقيقة التي تَصادَفَ أنها أسوأ ما يمكن أن يقال لإنسانة كانت الكلمةُ المكتوبة محورَ حياتها؛ والتي تمثلت في اتهامي بأنني تحولت إلى مجرد جثة حية تتنفس، وأنه لا يمكن أن يتعايش مع مثل هذا الوضع. لذا فقد خطر ببالي أن أطلعه على الحقيقة مجتَزَأةً، أي أنني كنت قد ذهبت في ذلك الاتجاه كنوع من قبول التحدي الذي رمى به وين إليّ لأنني قررت أن ذلك يمكن أن يكون موضوعاً جيداً لقصة قصيرة، أو حتى لرواية. لكن مجرد التفكير في الكذب على ثيودور جعل إحساسي بالذنب تجاهه يتضاعف، وبالتالي فقد كان من الأسهل عليّ الآن أن ألتزم الصمت حيال هذا الموضوع برمّته وذلك كي أجد طرقاً أخرى لتبرير ما أقوم به، وهو ما فعلته اعتقاداً مني أنني فقط أجرب هذا الأسلوب، وأن بإمكاني دائماً التوقف والعودة من أجل قول

الحقيقة، وأنه من الأفضل أن أكتشف بنفسي فيما إذا كان ذلك ما كنت أريد أن أفعله حقاً قبل أن أعترف لثيودور بما فعلت. لكنني في نهاية المطاف، حاولت فقط أن لا أفكر بالموضوع من أساسه.

يبدأ يومي في الساعة الخامسة صباحاً بممارسة رياضة الجري في حديقة ريفرسايد. كان الطقس بارداً جداً، وكانت طبقة سميكة من الجليد تفترش سطح نهر هدسون. كان معظمها متكسّراً ومقطّعاً إلى قطع وكتل متلبدة، وكانت الشمس التي بزغت حديثاً تلقي بأشعتها الساطعة في تلك الساعة الهادئة التي اقتربت مثلها مثل ذلك العدّاء الذي يجري وحيداً من الاتجاه الآخر. كان من الصعب أن لا ينحني المرء على الأقل احتراماً لتلك اللحظة الاستثنائية من التوحد الوديّ القصيرِ المدة زمنياً مع العالم كما بدا في تلك اللحظة – والذي وضع يده عليه كل أولئك الذين كانوا على وشك أن يربطوا منبهات ساعاتهم قبل أن يخلدوا إلى النوم.

كانت شريكتي في رياضة الجري واسمها إيزابيلا باور، أماً لإحدى البنات في المدرسة التي ترتادها ابنتاي، كانت ربة منزل وأماً لأربعة أطفال، وكان وقت الفراغ الوحيد لديها هو تلك الفترة القصيرة من الصباح الباكر. كانت ابنتي روبي في نفس الصف الذي يرتاده ابنها الثاني. كانت إيزابيلا قد رأتني في إحدى المرات وأنا أركض مرتدية سروالاً قصيراً حول المدرسة، وبدأت تمارس هذه الرياضة برفقتي كل صباح منذ ذلك الوقت. لم يكن بإمكانكم الركض في حديقة ريفرسايد بمفردكم في مثل هذا الوقت المبكر من اليوم بالرغم من أن معدل الجريمة مع انتعاش الوضع الاقتصادي في هذه المدينة أصبح منخفضاً، وبالرغم من وجود مراقبة مشددة على الحدائق. عندما

انتقلنا للسكن في ذلك الجوار، كانت ممرات الحديقة ملأى بالحقن والواقيات الذكرية المستعملة وأعقاب سجائر الأفيون، ولكن ذلك كان قبل تعرّفي على إيزابيلا بمدة طويلة. كانت واحدة من الأمهات الأصغر سناً، فقد بلغت سن الثانية والثلاثين منذ مدة قصيرة، وكانت قد وضعت طفلها الأول في سن الخامسة والعشرين. آخر أطفالها عمره الآن خمسة أشهر، وهو نائم الآن في البيت تحت رعاية المربية المقيمة معهم في المنزل. كانت إيزابيلا قد سمعت أخباراً عما كان الجوار عليه، وما كانت لتخطو خطوة واحدة في الحديقة من دون وجود مرافق؛ وهكذا عندما استأنفتُ رياضة الجري من جديد كجزء من التدرب على حياتي الجديدة، وافقتُ على عرضها بأن تكون شريكتي في هذه الرياضة.

أحببت المدينة في هذا الوقت الباكر، حيث لم أكن أسمع سوى وقع أقدامنا وهي تلامس أرضية الرصيف، وكانت أنفاسنا تترافق مع سحابة من البخار، عندما كان الظلام ما يزال دامساً في الغرب، مع المحاولات الأولى لنور الصباح شَقّ طريقه في عالم النهار. لم يكن هناك ما يضاهي تلك اللحظة روعة وجمالاً؛ لكن ذلك لم يؤثر على ما يبدو على إيزابيلا التي كانت تحب تجاذب أطراف الحديث. لقد اشترت مؤخراً قصراً في جادة ريفرسايد، وكان في الأصل مدرسة أراد أصحابها الاستفادة من الارتفاع الهائل في أسعار العقارات، وكذلك من حاجة أكثر سكان نيويورك ثراء لمساحات شاسعة تحيط بمقرات سكنهم. وعندما لم تكن تتحدث عن المنزل، كانت تتحدث عن المدرسة أو المال الذي تبرعوا به، أو كانت تشكو من ارتفاع أقساط المدارس – كونها أماً لأربعة أبناء، ثلاثة منهم يدرسون في مدارس خاصة في مدينة نيويورك، وهو ما جعل من هذا الموضوع

مادة دسمة للنقاش على ما يبدو. كان يحلو لها كذلك الحديث عن حفلات العشاء وحفلات جمع التبرعات لصالح الأعمال الخيرية وحفلات افتتاح لمناسبات فنية وقوائم المدعوين لمثل تلك الحفلات، وأسماء أهم الأعضاء في جمعية المدرسة. كل ذلك كان على مائدة حديثها، أعني بذلك، السهولة التي يرتقي بها الأثرياء إلى أعلى عليين في سماء المواطنة. كانت الأمهات الأخريات يتعاملن مع إيزابيلا باحترام، وكنّ يرتبن مواعيدهن كي يلتقي أطفالهن مع أطفالها في الملاعب، وكانت أصوات ضحكاتهن تتردد في كل ملاعب المدينة. أما زوج إيزابيلا الذي كان مصرفياً، فلم يكن من النوع الذي يهوى الظهور في المدرسة أو في أي مكان آخر. كان يمد يده للمصافحة، ومن ثم يدخل مباشرة في الموضوع التقليدي، أو الطقوس المتعلقة بوضع الأولاد في المدرسة – إيصالهم إلى المدرسة في الصباح، والحضور لمشاهدة أدائهم في نشاطات فنية مدرسية مختلفة – وكان يحني رأسه لآباء آخرين محيياً، كما لو كان يخطب في كتيبة من الضباط الأدنى رتبة.

في صباحِ هذا اليوم وبينما كنا نمارس رياضة الجري سوية، كانت إيزابيلا تتحدث إلي عن مرآة هائلة الحجم مطعّمة بالذهب وذات إطار من الكريستال تم إرسالها إليهم عصر اليوم السابق. لكن تعذّر إدخال الحاوية عبر الباب الخارجي. قالت بكثير من الامتعاض: «هل تصدقين ذلك؟ لقد قرروا أن يخرجوها من الحاوية في الشارع، وسيلزم القيامَ بذلك ثلاثةُ رجال أشداء، لأنه لا يجوز أن تلمس المرآة الأرض. فالكريستال المحيط بالمرآة هو من ماركة باكارات القديم الطراز وقد تم تصنيعه يدوياً بواسطة نفخه بالفم. لا يجوز أبداً أن يحتك الكريستال بالأرض.»

كنت أستمتع بالاستماع إلى مثل هذه الهموم، فقد كانت مسالمة وغير مُراوِغة. لم يكن ما يشغل بالها محزناً أو يودي بها إلى التهلكة. كان أشبه ما يكون بتقليب صفحات إحدى المجلات — فمثل هذه العملية لا خطر منها، ومحشوّة بقصص ذات تعقيدات تكاد لا تُرى، ويمكن معالجتها داخل جدران المنزل. سبق لها أن أخبرتني في أحد الأيام عن اثنتين من اللوحات الزيتية اللتين قام بتمويلهما أحد أصدقائها الذين يقطنون في الإيست سايد — اللوحة الأولى كانت لها ولزوجها بملابس البيت التي يتم ارتداؤها عادة في المساء بِنِيَّةِ تعليقها في غرفة المكتبة، أما الثانية فكانت لصديقتها التي ظهرت في ثوبٍ أسودَ عاري الكتفين. همست في أذني من دون أن تجرؤ على البوح بالاسم بصوت عالٍ بالرغم من أننا كنا نركض حينها: «الصورة تشبه جداً صورة مدام إكس.» أما الرسام فقد كان الفنان الشهير ساشا ماكدوميرت، وهو حفيد رسّام تكعيبي اسكتلندي معروف جداً، لم أسمع به قبل ذلك، لكنني أفترض أنه كان عليّ أن أفعل. تابعت القول: «ماكدوميرت له لوحات في جميع المتاحف الكبرى في كافة أنحاء العالم.» الآن فقط تذكرت أن لوحاته الزيتية عرضت في المزاد العلني في إحدى أمسيات شهر تشرين الثاني، نوفمبر الماضي في متحف الميتس. قلت: «الموجة السائدة هذه الأيام هي اللوحات التي تجمع الزوج والزوجة.»

إذا كان ما يشبه المأساة قد طرق باب حياة إيزابيلا يوماً، فقد كان جزءاً من ماضٍ يمكن أن يعود بين الحين والآخر، كما تفعل الذاكرة عادة. كما أثار مشاعرها في أكثر ساعة من ساعات حياتها خصوصية وهدوءاً — وهذا بالطبع (عليّ أن أضيف) لا يشمل الساعة التي نركض فيها سوياً. ولكن

مثل هذه الأمور كانت في الغالب تُصَنّفُ وتُوضَّبُ بكثير من العناية. وهكذا، فقد تابعت الحديث عن المرآة. كان على الرجال أن يستخرجوها من الحاوية ويحملوها إلى داخل المنزل، ثم يقوموا بتعليقها على الحائط مباشرة. قالت: «إذا حدث وانكسرت ...»؛ توقفت مفسحة المجال للتفكر في عواقب مثل هذا الاحتمال الذي كان يحيط بنا في الوقت الذي كانت أطراف أصابعنا تلامس الأرض؛ بعد ذلك، تابعت قائلة: «إن من اللا معقول إنفاق مبالغ طائلة على مثل هذه الأشياء.»

سألتها: «كم يبلغ ثمن هذه المرآة؟»

ضحكت وقالت: «آه يا إنديا، أسلوبك في الكلام مباشر جداً.»

لكنها لم تفصح عن الثمن. لم يكن من اللائق السؤال عن اللاصق الذي يوضع عليه السعر. رفعت من وتيرة سرعتها كما لو أنها كانت تتهرب من الإجابة على ذلك السؤال، وكانت خصلات شعرها المصففة إلى الخلف مرصوصة وراء أذنيها. كان لون شعر إيزابيلا أجعداً وبلون الكرز، وكان خدّاها مكتنزيْن وشفتاها منفوختيْن بالسيلكون؛ أما خطوط فكها السفلي فكانت منتظمة وأنيقة المظهر. اعترفت لي في أول مرة نركض فيها سوية أنها كانت تتطلع إلى التعرف بي على نحو أفضل لأنها كانت ترغب في أن تصبح كاتبة هي الأخرى، ولهذه الغاية، فقد قامت بتجهيز مكتب لها في الطابق العلوي من المنزل مزود بأبواب زجاجية تفتح بشكل جانبي وتؤدي إلى الشرفة التي قام بتجهيزها أحد النحاتين؛ كانت تطل على النهر، وفيها مقعد على شكل عربة بعجلتين فوقه بطانية، كان يمكنها

الاستلقاء على ذلك المقعد والقراءة حتى في الأيام التي يغلب عليها طابع البرودة. قالت: «إنها تتشبه بهانز كاستورب في المصحة التي يُعالَج فيها.» كانت امرأة متعلمة، تعمل على إعداد أطروحة الدكتوراه في الأدب المقارن عندما وضعت وليدها الأول – بالرغم من أن هذا المشروع موضوعٌ على الرف في الوقت الحالي.

تساءلت عما يمكن أن يكون رأيها بي إذا علمت أنني تركت مهنة الكتابة، وأنني منهمكة في هذه الأيام بمشاغل مختلفة. كنت على سبيل المثال، متأكدة أن بإمكاني أن أشرح لها الوضع الدقيق لرهانها العقاري، وأضع لها جدولاً زمنياً يمتد طيلة حياتها. لكنني كنت أعرف أنها لن تعير مثل ذلك العرض أي اهتمام؛ ذلك أن أحد أبرز مظاهر الترف الذي تعيش فيه، كان يكمن في قرارها بأن لا تهتم البتة للشؤون المالية، لأنها لم تكن في حاجة لكي يعرف عنها المرء أي شيء. لم تكن تعرف نوع العمل المصرفي الذي يقوم به زوجها. قالت: «لن أدّعي أنني أشرح شيئاً. إنه يعمل ضمن مجال يتعلق بالسندات والأسهم، لكنني أجزم بحق أنني لا أعرف طبيعة عمله بالضبط.»

تجاوزنا حوض السفن وصولاً إلى الرصيف البحري بمحاذاة الشارع رقم 72، ثم قفلنا عائدتين باتجاه ملاعب التنس في الشارع رقم 120، ووصلنا إلى نهاية خط السباق أمام عتبات الحديقة. كانت تفوز بالسباق حيناً وأفوز أنا أحياناً. اليوم كان الفوز من نصيبي. تركتها أمام منزلها ومشيت باتجاه شقتي. استحممت وارتديت ثيابي وتبرجت ثم خرجت من الشقة بحلول السابعة إلا ربعاً، ووصلت إلى المكتب في السابعة وعشر دقائق. فتحت الباب

مستخدمة بطاقة الدخول الخاصة بي، ومشيت باتجاه الركن الذي أعمل فيه وأنا أدندن بصوت خفيض، يغمرني شعور بالحيوية والنشاط.

يوم الجمعة، السادس عشر من شهر كانون الثاني، يناير: مضى على انضمامي إلى شركة بي أند بي أسبوعان بالضبط. وضع الفتية رهاناتهم، وكان كل واحد منهم يراهن على معرفة حقيقة من أكون أو من كنت في السابق: كنت صحفية، وربما كنت المنتج في صحيفة دايتلاين أو صحيف إكسترا؛ ربما كنت مراسلة لصحيفة نيوزداي موفدة إلى هذا المكان من أجل كتابة تقرير أو قصة عن هذا المكان. ربما أكون ممثلة مبتدئة أحضَر لدور مهم في هوليوود؛ ربما لست سوى موظفة متدربة، أو عشيقة لوين الذي يدين لها بمعروف كبير؛ ربما كنت ابنة أحد أقربائه البعيدين، أو فنانة أو طبّاخة أو مدمنة مخدرات، أو روحاً بائسة أراد وين أن ينتشلها من محنتها؛ لن أوفّقَ أبداً في محاولة استلام أي من المكاتب، أو أنني سأستلم مكتباً في غضون ستة أشهر، أو سنة، أو شهرين، أو خمسة أشهر. وضع هؤلاء رهانات مالية كبيرة عليّ تجاوزت 4500 دولار. شعرت خلال هذين الأسبوعين بأنني أشبه جهاز الجيروسكوب: نقرة واحدة على هذا الجهاز سوف تقلّني إلى مدار مختلف تماماً.

كانت خطة وين في عدم البوح بأي شيء يخصني مصدر دعم بالنسبة إليّ، وأنا متأكدة أنه كان يعلم ذلك علم اليقين، وأن ذلك سيدفعني إلى تعلم المهنة من دون أية ضغوط – وبذلك فقد أطلق يدي في استيعاب المسألة على طريقتي الطبيعية الخاصة من دون أن يتدخل هو شخصياً في الوقت الذي كان يحتفظ بي كأحد ممتلكاته التي سوف يقوم بتصميمها وإعادة تشكيلها. كان

ينتابني أحياناً شعور شبيه بشعور أية مبتدئة، وأعني به شعور المرأة التي تتعلم مهنة جديدة بالكامل؛ وكنت أحياناً أخرى أشعر بعودة شخصيتي القديمة: الكاتبة التي تعمل جاسوسة في بلادهم، وتراقب كل السخافات التي تَسِمُ عالمهم: الهواتف الضخمة المربوطة إلى شاشات زرقاء براقة، والموصولة بأربعين خط هاتفي، والمبرمجة كي تتصل بكبسة زر واحدة، مع المتعاملين، والمكان نفسه الذي يعتبر ملجأ ذكورياً ومُوَصِّفاً نوعياً – فعبارة «أن يعلَقَ المرء مثل حصان» كانت تعني أنك تاجر في مجال فحول الخيل، أي أنك شخص يحسب له ألف حساب، إلا إذا كنتَ للأسف، «معلّقاً مثل فأر الحقل»؛ إضافة إلى استخدام المصطلحات الرياضية والعسكرية – وهذا التوصيف النوعي يشبه لغة فينس لومباردي أو جورج باتون الذي أصبحت كلماته شعاراً للشركة: «الضغط يصنع الألماس. السلام الدائم هو حلم خائب. لم ينتصر أيُّ ابنِ زانية في حربٍ من خلال الموت في سبيل وطنه؛ بل ينتصر فيها من خلال دفع ابن زانية آخر أحمق للموت من أجل وطنه.»

لم أكن فرساً أو فأر حقل. كنت أبحث عن موقع أفيد منه وحسب. أحببت فكرة أن أكون جاسوسة، أو غريبة عن المكان. كوني جاسوسة سيمنح وجودي في هذا المكان منظوراً آخر بالرغم من أنه لم تكن لدي أدنى فكرة عما يمكن أن يقدمه له هذا المنظور، أو ما يمكن أن يضيفه إلى رصيدي. عندما قلت لوين إن الكثير مما أقرؤه في الصحف وعلى صفحات الإنترنيت ليس له معنى، قال إنه ليس من الضروري أن يكون له معنى. فما يجب أن يكون له معنى هو تقدير قيمة السندات والأسهم مقابل طلب السوق عليها. كانت مهمته تنحصر في وضع إستراتيجية لذلك: ما هو المدى الذي يجب الذهاب

إليه، وما هو عمقه، ومتى يحين وقت الانسحاب. قال: «لكن ما ذكرتيه يثير اهتمامي؛ وأعني بذلك أن ما تريدين التركيز عليه بشكل أساسي هو أن كل ذلك ليس له أي معنى.»

كنت أجلس في مكتب وين، كما كنت أفعل في الأيام الأولى، وكان بابه يطل على صالة البيع. كنت لأيام عديدة على ما يبدو أحني رأسي بهدوء موافقةً من دون أن أفهم أي شيء، لكنني كنت أفتعل الإصغاء الشديد، أبدي الكثير من الانتباه إلى ما يقال. وعندما كنت أبدأ الكلام، كان صوتي يكاد يصيبني بالهلع.

«لا أفهم لماذا يعتبر القيّمون على صندوق التقاعد الهائل الحجم مجموعة الرهان العقاري التي تحتوي على الكثير من المخاطر، استثماراً موثوقاً؟» هل كانت لديّ أدنى فكرة عما يعنيه مثل هذا السؤال؟ فَطرْحُ مثل هذا السؤال يمكن أن يتم في حلقة بحث لطلبة الدراسات العليا. ولو حدث وتم مثل هذا الطرح فإنه بالتأكيد، لن يكون بطريقة يُعتدُّ بها هناك في صالة البيع. لمحت فجأة أحد العاملين في صالة البيع يضع قطعة معدنية في آلة خارج مكتب وين لأخذ قطعة من اللبان. كنت قد بدأت أستوعب أسماء الجالسين خلف مكاتبهم، وطبيعة عمل كل واحد منهم. كان اسم الفتى الذي ابتاع قطعة اللبان «جود». رمقنا بنظرة ثم ابتسم ووضع قطعة اللبان في فمه وقفل عائداً إلى مكتبه. تابعت قائلة: «تصور، إذا كنتَ تملك نفوذاً كبيراً، فلا بد أن تكون لذلك نتائج ملموسة، أليس كذلك؟»

كنت أفكر حينها في نفسي وحسب، وكيف سأتمكن من تغطية نفقات

الفواتير المستحقة منذ ستة أشهر: الاقتراض على حساب بطاقة الاعتماد، أو اعتماد خطة تساعدني في كسب الوقت؛ لكن في نهاية المطاف، تركت تلك الفواتير مكدسة فوق بعضها بعضاً بجانب الكومبيوتر في غرفة نومنا. أبدى المستثمرون اهتماماً بالديون المستحقة عليّ. كانت لدي بطاقة اعتماد تبلغ نسبة الفوائد عليها صفر بالمائة وحدّ ائتمان أقصى بقيمة عشرة آلاف دولار. لو استطعت أن أؤمّن الحد الأدنى من قيمة الفواتير المستحقة الدفع، فلن تترتب عليّ أية فوائد لمدة ثمانية عشر شهراً. كما لم تكن هناك أية رسوم على تحويل الحساب. وطالما أنني كنت أدفع في الوقت المحدد، فإن بطاقة الاعتماد لن تحتسب أية رسوم على ذلك القرض. ومع ذلك، كان لذلك الديْن قيمة كبيرة بالنسبة إلى المستثمرين لأنهم افترضوا أنني سأرتكب خطأ ما، مثل تخلّفٍ عن دفع أحد الأقساط ، وأنني في نهاية الأمر سأكون عاجزة عن دفعه، وسيترتب على ذلك ارتفاع الرسوم بشكل كبير. لكنني كنت أنوي أن أسبقهم دائماً بخطوة واحدة من خلال الحصول على قرض آخر بنسبة فائدة قدرها صفر بالمائة من مصرف آخر من دون أن يترتب عليها رسوم مقابل تحويل الحساب، ثم أقوم بتحويل هذا القرض لخدمة القرض الأول. كانوا يراهنون على أنني سوف أصل إلى طريق مسدودة عاجلاً أم آجلاً. مشكلة عويصة. شيء ما، لا بد أن يحصل؛ لا بد أن تظهر قوة من غامض علم الله، تغير مجرى حياتي، وعندها سوف يكون ظهري إلى الحائط. سوف أودع الحياة الرغيدة وسيترتب عليّ مواجهة المشكلة العويصة. هناك احتمال يتعلق بالتأمين مفاده أن سوء الطالع قد لازم الجميع، وأنني سوف أعاني من غشاوة سببها حدث غير متوقع يجعلني غير قادرة على دفع ديوني. ولكن هل كنت أختلف عن أي مصرف في هذا السياق؟ لماذا لا نضع احتمالاً بأن المصرف نفسه قد يستفيق فجأة ليجد نفسه مفلساً؟ أنا لا أتحدث عن مصرف

واحد بعينه بل عن العديد من المصارف؛ مصارف في نفس القارب مع جميع المَدينين الحزانى والبؤساء؟

قال وين: «أنتِ محقة تماماً، ما يجري هنا هو لعبة تخمين، ولعبة تقييم، وكما هي الحال في أية لعبة أخرى، يمكن أن تخرج الأمور فيها عن السيطرة. هذا ما يحدث دائماً، وهذه هي وظيفتي: أي التنبؤ بالتوقيت الذي ستخرج الأمور فيه عن السيطرة، وأن نكون جاهزين لمواجهة عواقبها مسلحين بخطة مقابلة، والإفادة من الوقت في غضون ذلك.»

«هل بإمكاني طرح رأيي في هذا الصدد؟»

«هذا واجبكِ. تذكّري أنكِ أنتِ راوية القصة. ولكن عندما تبدئين العمل بصفة تاجرة، فسوف تصبحين أكثر تخصصاً بكثير. سوف تركزين على الجزئيات بدلاً من الكليات، وبشكل عمودي بدلاً من الأفقي.»

كان النهار قد أبحر باتجاه التلاشي؛ لأن الظلام في الشتاء يهبط بحلول الساعة الرابعة بعد الظهر. كنت أستطيع عبر نوافذ مكتب وين رؤية المدينة وهي تنير أضواءها مثل شموع على إحدى الموائد، مُذكّرةً إيايَ بأن عليّ أن أغادر العمل باكراً وأتوجه إلى حي ويليامزبيرغ. كان ساليفان مدعواً لتناول العشاء، وكذلك من أجل مشاهدة التمثال.

«سوف تلتقين هذه الليلة بويل وإيما.» كان ذلك بمثابة إشارة واضحة جداً من قبل وين تدل على أنه يريد لي أن أعرف أنه يعرف الكثير؛ إذا لم أقل إنه يعرف كل شيء.

قلت: «هذا صحيح.» لقد قمنا بدعوتهما إلى مائدة العشاء مع ساليفان وزوجته، للاحتفال بانتهاء العمل على التمثال. لم ألتقِ بآل تشابمان منذ ذلك الحفل الخيري لجمع التبرعات في «الميِتس». شعرت فجأة بقشعريرة تسري في جسدي. سألته بحدّة: «هل أخبرتَ ويل؟» تخيلته يسخر مني هذه الليلة أمام ثيودور.

رمقني وين بتلك النظرة التي تحمل في طياتها أمارات الاستفهام، ثم قال وهو يتفرّس بي: «ما الذي يقلقكِ؟»

«هل أبدو لكَ قلقة؟»

«قولي لي أنتِ.» توقف قليلاً ثم قال: «آه، هذا واضح.»

لم أنبس ببنت شفة.

أصر على السؤال: «ألم تخبري الزوج؟» تلفّظ وين بهذا السؤال بنَفَسٍ شيطاني. كان واضحاً أنه يستمتع بكل لحظة من هذا الحوار. كان يتكلم كما لو أنه يلمح إلى حدوث شكل من أشكال الفضيحة حيث أنه أشار إلى ثيودور ليس باسمه وإنما بصفة «الزوج». همس قائلاً: «أنا التزمت معكِ، وأنا بحاجة إليكِ كي تلتزمي معي.» ترك لهذه العبارة أن توضح ذاتها بذاتها. ابتسم. كانت تلك طريقته، وعليّ أن أتعوّدَ عليها: لم يكن يلزم نفسه بأية لياقة اجتماعية عندما ينتابه شعور بخيبة الأمل. لم يكن يحس بالانزعاج، بل قال ما قاله ببساطة كي يذكّرني بما عليّ أن أقوم به بينما يأخذ بي إلى وجهة يستطيع عبرها أن يعتصر أفضل ما يمكن أن يحصل عليه مني. وعندما تحقق

من أنه أوضح ما يريده بشكل لا يقبل التأويل، أردف قائلاً: «هل سمعت آخر أخبار ويل الممتازة؟» نظرت إليه، وانتابني من جديد إحساس بالصدمة. لسبب ما، مرّت بخاطري مرآة إيزابيلا. أملتُ في أن يكونوا قد نجحوا في إدخالها عبر الباب الخارجي ووضعها في المكان المخصص لها.

قلت من دون أن أكشف عما يعتمل في داخلي لأن ذلك كان امتحاناً أيضاً: «أتطلع إلى سماع أخباره كلها هذه الليلة.» كنت أحس بعينيه وهما تتفرسان بي بينما كنت أغادر المكتب متوجهة صوب المصعد. سرتُ عبر الحديقة باتجاه الشارع 57، ومنه إلى الشارع الخامس قاصدة محل بيرغدورف. استقليت المصعد إلى الطابق السابع لأشتري مجموعة من الفوَط لحفل العشاء. كان ثيودور قد صنع مجموعة من الفوَط على شكل حلقات، وأسلاكاً من الذهب التي لفّها إلى تماثيل الفيَلة التي صنع أعينها من حبّات الكهرمان. أخبار ويل قد تكون مسألة عارضة، لكنني لم أكن قد تحررت بعد، من طبيعة الكاتب اللاهثة والمنافِسة: وأعني بذلك أن نجاح أحدهم هو بالضرورة فشلٌ بيّنٌ لكَ.

في محل بيرغدورف، انتابني للحظة شعور بالتأرجح بين بيْنيْن؛ فقد كنت موزّعةَ الهوى بين حياتي القديمة وبين حياتي الجديدة. كنت أعرف حق المعرفة أن التسعيرة الموضوعة على كافة معروضات المحل غير عقلانية البتة، لكنني كنت أيضاً أعرف أن بإمكاني أن أجد هنا شيئاً يليق بحفل العشاء الذي دعا إليه ثيودور. كنت أعرف أيضاً أنه لن يفاتحني أبداً بهذا الموضوع. لقد تحمّل طيلة حياتنا الزوجية مظاهر البذخ الذي كنت على وشك تكراره هنا والآن، لكننا كنا نعرف، هو وأنا، أن ذلك كان يشكل جانباً من حياتنا

المشتركة، واعترافاً من قبله بصحة تقييمه لي عندما التقينا للمرة الأولى منذ سنين طويلة حين قال: «أنت فتاة ثرية.» لم يكن صائباً حينها، لكنه لم يكن مخطئاً تماماً، وكنت على وشك مساعدته في إثبات وجهة نظره. لم أكن قد استلمت راتبي الأول بعد؛ لكنني سوف أستلمه قريباً جداً. لذا، فقد كنت في واقع الأمر ما أزال مفلسة. فما زلت حتى الآن، أنتظر استلام الشيك الذي يبلغ مقداره ضعف ما أتلقّاه من الجامعة، وهو الأول من بين شيكات كثيرة سوف أستلمها مستقبلاً.

من بين الأشياء اللا منطقية المعروضة هنا والتي يطلقون عليها اسم «الأفكار»، هناك معروضات يتم تجريبها على الزبائن لوقت قصير ويمررونها بين أصابعهم، كما يقال. فقد وجدتُني أرتدي الثياب المخصصة لتحضير وجبة العشاء. اقتربت مني إحدى العاملات في المحل، وكانت في تقديري في المرحلة المتوسطة من عمرها، ولكن ألسنا جميعاً كذلك؟ ما أعنيه هنا هو أنها استطاعت أن تجمع أو «تولّفَ» مظهراً جريئاً وغير مألوف من الترتيب مُستلّاً مما جمعته من حطام الحياة، وقد ظهر ذلك جلياً في النماذج الذي رتبت عليها أطباق المائدة التي كانت أسماء أنواعها وأشكالها وأحجامها المختلفة تُقرأ كما يُقرأ دليل السفن. سألتني بضعة أسئلة ذكية، وأجبتها عليها كما لو كنت أجيب على أسئلة الكاهن في كرسي الاعتراف. كان واضحاً أنها ملمّة ببعض المسائل المتعلقة بطبيعة النظام الذي يسير عليه العالم، ولذلك فقد وجّهتني بلطف ولكن بحزم نحو طاولة تعرض عليها مجموعة من الفوَط. كانت امرأة منطقية؛ فلم تكن لتتركني أتوه خارج المسار بحيث أتجه من دون قصد إلى قسم الأدوات المطبخية أو الأدوات أو مستلزمات غرف النوم، كي

لا أصاب بالإحباط. ما أتيت من أجله فقط موجود على الطاولة التي تعرض عليها فوَط المائدة وحسب، على الأقل في الوقت الراهن. فهمت هي ذلك تماماً. كانت ستحتفظ لنفسها بسرّي الصغير هذا. ولقد أثّرت بي حصافتها تلك أيما تأثير.

اخترت ما ارتأيت أنه الأفضل، أي ما اعتبرت أنها الفوَط الأكثر ملائمة والملفوفة بإحكام مثل سيجار كوبي داخل أسطوانة مذهبة تشبه تلك الأسلاك الموضوعة تحت الفيِلَة في التصميم الغني والذكي للتمثال الذي صنعه ثيودور. كانت تلك الفوط من الكتان القشدي اللون، والمطرزة على جوانبها الأربعة بإطار رفيع جداً مصنوع من نسيج حريري. كانت جميلة وناعمة جداً بحيث يمكن أن تُضَمَّ إلى مجموعة الملابس الداخلية في الدرج بين القطع المعطّرة. كان سعر الواحدة منها 60 دولاراً. أود القول إنني لم أتردد بدايةً في شراء ستٍّ منها. ولكنني غير قادرة على فعل ذلك لأن نمط حياتي القديمة ما يزال حياً في داخلي. شعرت برغبة عارمة في اقتنائها لكن قلبي بدأ يخفق بشدة. همست البائعة وهي تأخذ الفوَط من يدي وتعدّها واحدة، واحدة برفق كما لو كانت تؤدي طقوساً يابانية سرية: «أليست هذه الفوَط فخمة؟ هل هذه القطع الست هي كل ما تحتاجين إليه؟»

أجبتها بصوت خفيض أجش وأنا أمد يدي إلى حقيبتي من أجل إخراج محفظتي القديمة التي طرّز عليها ثيودور منذ مدة طويلة بخيط حريري رفيع كلمة «الفوضوية»: «أجل، شكراً لك.» أخرجت من محفظتي الفوضوية بطاقة اعتماد وقلت لها: «هذا كل ما أريد أن أبتاعه هذا اليوم.» ابتسمتْ، وأخذتْ بطاقة الاعتماد الخاصة بي.

«إنديا.» سمعت صوتاً يناديني. «هل هذه أنتِ يا إنديا؟»

كانت ورائي؛ وكانت أصابعها تمسك بشوكة من الفضة الخالصة منحوتة عليها حبات من العنب تتدلى من مقبضها؛ كانت صاحبة الصوت هي النسخة الجديدة المحسّنة من ليلي ستار. لم ألتقِ بها بعد الحفل الخيري. أصبحت أكثر جاذبية الآن وهي ترتدي الجينز الضيق المدسوس داخل جزمتها المصنوعة من جلد السّوَيد البني اللون، وكنزة من الكشمير ذات الياقة الضيقة العالية، وكان شعرها قصيراً. كانت محفظة من جلد التمساح اللازوردي اللون تتدلى من رسغها. لم أكن خبيرة بما يكفي كي أعرف اسم مصمم هذه المحفظة. كانت تلك المحفظة جميلة حقاً. كانت أقدام صغيرة مُصاغةٌ من الفضة تتدلى من زوايا قاعدة الحقيبة. أصبح المال وفيراً بين يدي ليلي، ولم تتردد في إظهار تأثيره في حياتها. كانت تحمل على ذراعها الأخرى سترة من الجلد.

قالت بلهفة: «أنت ترتدين بذلة، لماذا بالله عليك؟» هذه الفتاة المتأنقة تشاركني الرأي من خلال إلقاء نظرة سريعة على ما أرغب في شرائه.

قلت: «تخيلي المصادفة التي قادتني للقائك هنا.»

قالت وكأنها تبرر ذلك: «أنا هنا من أجل شراء هدية للعروس. فقريبتي طلبت أن تقتني هذا النموذج.» أمسكت بالشوكة التي تتدلى منها حبات العنقود المتداخلة وقالت: «الغلاء في هذا المكان غير معقول. تسع وثمانون دولاراً ثمن المجموعة الواحدة.» وأضافت شارحة: «سوف تتزوج من رجل مصرفي.»

قلت: «إنها فتاة ذكية.»

قالت وهي تحيط بي بابتسامتها الكبيرة التي جعلتني أبتسم بدوري: «حسنٌ. بماذا كنا نفكر؟» شعرت بأن شيئاً ما يلفنا إلى بعضنا بعضاً في صداقة لا تنفصم عراها. تذكرتُ أنها قالت لي مرة بعد أن وُفِّقَ زوجها في الحصول على وظيفة في سلك التدريس بعد فترة طويلة من البطالة إن الراتب الذي تقاضاه من هذه الوظيفة جعلها ترغب في ممارسة الجنس معه مرة أخرى. قالت ليلي ستار وهي توحي بأنها تتحدث إلى آلة تسجيل افتراضية: «ملاحظة شخصية: في المرة القادمة، أتمنى أن يصبح مصرفياً.»

يا إلهي، لقد كانت تحاول أن تسترجع الصداقة التي كانت تربط فيما بيننا، أي أن تعيد صلتها بمن كانت تظن أنني ما زلت عليه، وربما بمن كانت تظن أنها ما زالت هي عليه، وبما كانت عليه قبل نشر روايتها التي أصبحت ضمن قائمة أفضل المبيعات، والدعوات التي تتلقاها مقابل 5000 دولار لكل دعوة من أجل قراءة مقاطع من روايتها في مختلف الجامعات في طول البلاد وعرضها. (اعترفت لي بأنه لم يعد لديها وقت للكتابة.) الماضي: هو عندما لم يكن هناك ما تخسره، وعندما كان الدافع الذي يحركها هو الحرارة الصادرة عن بياض الصفحة»، أو المسرح المثير الذي تبلغ مساحته ثمانية أمتار ونصف مضروبة بأحد عشر متراً» كما وصفه أحد الكُتّاب، أو «اللعبة الوحيدة المثيرة للاهتمام في البلدة» كما عبّر عن ذلك كاتب آخر؛ أو المكان الذي عاش فيه المرء ومات بعد أن يكون قد ترك بصمته الجريئة على العالم. أما الحاضر، أي الآن، فإنها تتباهى بملكيتها لمنزل ريفي يبلغ ثمنه مليون دولار في منطقة هامبتونز، على ما أذكر. استرعت البذلة

التي أرتديها انتباه ليلي مرة أخرى، وكان بإمكاني رؤيتها وهي تتداخل مع مشهد الحنين لهذا الماضي.

سألتني وهي تدير عينيها: «ماذا عن البذلة؟»

قلت: «أنا متنكرة.»

رفعت حاجبيها وجالت ببصرها في أرجـاء المكان، وقالت مُحاوِلةً استفزازي: «ممن تهربين؟»

كانت أم وابنتها تتهاديان بالقرب منا؛ وكان يبدو أن البنت تُحضّر لحفل زفافها. كانت تبدو عليها أمارات الضيق وهي تقلّب في بطاقات الأسعار الموجودة على البضائع المعروضة برفقة أمها من أجل تسجيل قائمة بهدايا الزفاف. كانت تسير وراءهما إحدى البائعات وبيدها قلم ودفتر لتدوين المواد التي ترغب الأم في ابتياعها من أجل هذه الغاية. قالت الأم: «سوف نبتاع مجموعتيْن من الأواني الفضية الفاخرة من نوع بوشلاّتيس واحدة كبيرة وأخرى صغيرة. أمسكت بكأس لشرب النبيذ وعرضته على ابنتها لتتفحصها؛ أمالت برأسها وزمّت شفتيها كما لو أنها تسأل ابنتها فيما إذا كانت توافق على شراء تلك المجموعتين؛ كانت تنظر إلى ابنتها وكأنها تسألها عن رأيها في ذلك، وكانت تلك النظرة تتضمن سؤالاً مفاده: هل تستحق هاتان المجموعتان إنفاق مبلغ 215 دولار. قبل أن تتمكن الابنة من الإجابة، أعلنت الأم أنهما ستبتاعان مجموعتين كل واحدة منهما تحتوي على ست عشرة قطعة — لاستخدامها في تناول النبيذ الأبيض والنبيذ الأحمر والشمبانيا والماء.

قلت: «تعرفين أنني دائماً ما كنت أرغب في التناغم مع الجو العام والمزاج العام.» هذه كانت المرة الثانية التي أشعر فيها أنني محشورة في الزاوية هذا اليوم. بدأت تقهقه مثل طفلة صغيرة اطلعت على سر صديقتها.

قالت: «آه يا إنديا.» كنت أعرف ما الذي كانت ترمي إليه. كان ذلك واضحاً جداً على تقاطيع وجهها؛ كان واضحاً أنها تعرف ما كنت فيه وما صرت عليه؛ كانت ملامحها مزيجاً من الفضول والإحساس بالانتصار. كان بإمكاني قول الكثير، لكنني لم أشأ أن أبدو في موقع الدفاع أو التبرير، أو أن أبدو مهزومة. علمت أيضاً أن عليّ المكوث معها لبضع دقائق إضافية.

«هل تعملين الآن لدى الرجل الذي يعمل في صندوق المضاربات؟»

صححت لها التسمية قائلة: «بل في سوق الأسهم والسندات.»

«بالطبع، جيمس بوند؛ ما زلت لا أفهم ماذا تعني عبارة الأسهم والسندات. لقد حاولتِ بدوركِ شرح العبارة لي، لكن الشرح دخل في أذن وخرج من أخرى.»

وصلت البائعة وهي تحمل الرزمة التي ابتعتها، إضافة إلى الفاتورة كي أوقع عليها. كانت ليلي تتفرّس بي؛ ليلي هذه، التي لا تتمتع بنعمة الخجل، كما كنا نطلق عليها عندما كنا طلاباً في مرحلة الدراسات العليا، هي كاتبة القصة القصيرة الوحيدة التي نعرف، ممن لم تقرأ طيلة حياتها قصة قصيرة. حددت الفتاة التي تتمتع باسم مثالي للكاتب هدفاً وموضوعاً مثيراً للفضول والاهتمام، والآن، هي مدرّبة على الطريقة التي تستخدم فيها نظرتها المهنية

الثاقبة (التي أمثّلها أنا) مثل يافطة مضاءة بالنيون ومكتوب عليها: «الكاتبة موجودة في الداخل.» كنت أشعر أنها على وشك أن تقرأني بطريقة خاطئة، وتخرج باستنتاجات غير صائبة، مُعبِّرةً عن عواطفَ فيها الكثير من التكلف باتجاهي، كما تفعل دائماً. لم تكن ليلي ستار تعترف بفضل أحد عليها. لا شيء سوى يد الله الجبارة التي هبطت إلى الأرض وانتشلتها. كنت أستطيع استشعار ذلك من خلال حِدّة نظرتها إليّ. كانت متلهفةً لاستيعاب علم النفس بينما لم تكن تفقه فيه شيئاً. أثارت حياتي الجديدة في داخلها الكثير من الحماسة الممزوجة بالسعادة التي كانت تشبه بالنسبة إليها، قصيدة في طور الاكتمال، أو ربما قصة قصيرة تتناول موضوع الفشل، أو إلقاء أحد من أعلى قمة جبل بارناسوس.

«وول ستريت، هذه وظيفة بدوام كامل، أليس كذلك؟ وماذا عن كتاباتك؟ ماذا بعد كل تلك المراجعات النقدية الإيجابية؟» توقفت الأم بالقرب منا وأبلغت ابنتها أنها تبدو متعبة. كانت فعلاً متعبة. كان شعرها الأشقر الخفيف مصفوفاً بأناقة وراء أذنيها، وكانت وجنتاها الشابتان تميلان إلى الشحوب. «قولي لي إنك لم تقومي بذلك فعلاً. أنا لا أصدّق أنك قد تقومين بذلك. هل وصلتك رسالتي حول المراجعات النقدية؟» تحدثت ليلي بسرعة، وكانت تطلق أسئلتها في اللحظة التي كانت ترد إلى ذهنها.

«آسفة، لأنني لم أتصل بك.»

كانت تبدو متألمة؛ ذلك أن انشقاقي مثّلَ نذير شؤم بالنسبة إلى المهنة،

وخيانة لنقابة الكُتّاب – فالمرء لا يجوز له أن ينهض فجأة ويغادر النقابة إلى عالم ليس للأدب فيه أية قيمة.

«تابعت بإلحاح: «إلى متى سوف تتغيبين عن عالم الكتابة؟»

قلت: «سأبقى مبتعدة حالياً.»

قالت بكثير من الجدية والصدق: «هذا ليس قراراً صائباً.» هذا ما كانت تتميز به ليلي: كانت زئبقية، ولم تكن تحس بأي شكل من أشكال الإحراج. فقد كانت أفكارها تندلق عبر فمها من دون مواربة، وأمام الجميع؛ وليقل من يشاء ما يشاء. أما الآن فقد أوشكت على أن تثير في داخلي الرغبة في أن تنتشلني مما أنا فيه وتعيدني إلى الحظيرة التي تعتقد أنني أنتمي إليها. لكنني استعدت توازني ورباطة جأشي، واستعدت ثقتي بنفسي.

«أرجوكِ يا ليلي.»

لكنها استمرت في محاولتها وهي تمسك بكلتا ذراعيّ، وتنظر إلي عن كثب، كأننا داخل عرزال نقسم فيه على أن نبقى أفضل الأصدقاء إلى أبد الأبدين. كنا فيما مضى صديقتين مقرّبتيْن جداً من بعضنا بعضاً؛ فقد تقاسمنا نفس السرير في الفترة التي كانت على خلاف مرير مع صاحبها. كانت الواحدة منا تقرأ ما تكتبه الأخرى في فترة صداقتنا الأولى، كما كانت الواحدة منا تساعد الأخرى في دعم ثقتنا بأنفسنا من أجل أن نستمر في التقدم إلى الأمام. فرّقت بيننا الأيام، وقد حملتني الظروف إلى شواطئ مختلفة تماماً. لكنّ عينيْ صديقتي القديمة الصادقتين أرادتا بلهفة المحب أن

تنتشلاني مما أنا فيه، ليس من أجلي أنا، بقدر ما كان ذلك من أجلها هي — يستطيع المرء دائماً الاعتماد على مصلحته الشخصية — كما لو أن العذاب البطيء الناجم عن طبيعة مهنتي في الكتابة وما رافقها من فشل أبقى بشكل أو بآخر على فكرتها حول الكيفية التي يتحرك بواسطتها العالم من حولها، وأن هناك نظاماً أو مخططاً يسير العالم على إيقاعه. لكن انشقاقي ساهم في تحطيم رؤيتها تلك.

فكّرت في ثيودور. لا بد لي من إخباره بكل شيء الآن. فوراً. ستهرع ليلي إلى استعمال هاتفها الخلوي وتخبر جميع أصدقائنا من الكُتّاب إلى أين اتجهت وماذا فعلت. تنتشر الأخبار بسرعة توازي سرعة الثرثرة. كان بإمكاني سماع صوتها المليء بالقلق والجذل والدهشة.

«لا تقلقي يا ليلي. فأنا أستمتع بوقتي. إنه أمر رائع. كم عدد الفرص التي تحين للمرء في حياته كي يصبح شخصاً آخر؟» هذا ما أشعر به الآن؛ أشعر بأنني مثل دافني[42] وهي بصدد تحولها إلى شجرة، فكل ما هو مألوف فيّ يختفي تدريجياً — لا أقصد أطرافي بطبيعة الحال — بل كل اهتماماتي الكتابية الصغيرة.

قالت: «أرجوك، لا تتابعي على هذه الشاكلة.»

غمزت بطرف عيني وقلت لها: «المسألة ليست كما نتخيل. إنهم في واقع الأمر أذكياء وفي منتهى الكياسة؛ وهم يقرؤون أيضاً.» قبّلتها وأخبرتها أن

42 - دافني هي الحورية التي طاردها الإله أبوللو وكان قد هام عشقاً به. لكنها لم ينجُ منه إلا بتحويل نفسها إلى شجرة (المترجم)

عليّ أن أذهب بسرعة لأن ثيودور على وشك أن يرفع الستارة عن التمثال كي يراه راعي العمل.

سألتني: «ثيودور. ما هو رأيه في كل ذلك؟» ابتسمت، وأنا أخرج مسرعة من المكان، لكنني لم أقل شيئاً.

كنت قد وضعت فستاناً في حقيبتي، وكان مطوياً بعناية، وملفوفاً بورق ناعم؛ كان فستاناً قديماً ومألوفاً بالنسبة إلى ثيودور. كنت أنوي تغيير البذلة التي أرتديها، لكن هذا يبدو غير مهم الآن. عندما وصلت إلى الاستديو، خلعت معطفي ووضعت حقيبتي جانباً، وأعطيته الرزمة التي تحتوي على الفوَط الجميلة تلك، كما وضعت الورود التي أحضرتها معي في المزهرية الموجودة على الطاولة المركونة في الردهة، ثم أخبرته بكل شيء. كان يرتدي مئزر العمل فوق قميص أبيض وبنطال من الجينز وحذاء مزركش. كان شعره رطباً وممشطاً إلى الخلف، وكان شعره المجعد مستوياً ومسطّحاً. أعرف جيداً كيف تعود هذه التجعيدات إلى الحياة من جديد بعد أن يجف شعره، كما لو أن جزءاً منه يستيقظ بعد أخذ قسط من النوم. لم أكن صادقة مع هذا الرجل بالمعنى الكامل للكلمة؛ وكانت هذه هي المرة الأولى التي أكذب فيها عليه طيلة حياتنا سوية. كان شعره المُسطّح قد جعله يبدو وكأنه شخص آخر. كانت ملامحه أكثر وضوحاً من دون تلك التجعيدات التي تحرف الاهتمام عن أشياء أخرى فيه أهم بكثير منها، وأعني بذلك أن الخطوط المرتسمة حول عينيه وشفتيه تضفي على ملامحه لمسة أكثر قسوة. هذه الملامح جعلت ما أريد أن أبوح به أسهل إلى حد ما.

قلت: «كنت أكذب عليك.» كان ينزع اللفافة عن الفوَط التي كانت بين يديه، وكذلك الفاتورة.

سألني وهو يبدي إعجابه بالفوَط الكتّانية: «بشأن ماذا؟» رمقته وهو يلقي نظرة على الفاتورة. تمعّن فيها للحظة ثم نظر إليّ، رافعاً عينيه متسائلاً.

قلت: «لقد انشققت.»

قال وهو يرمقني بنظرة سريعة: «السيدة الغامضة، المرتدية بذلة، هكذا! لاحظت أنك تكثرين من ارتداء البذلات مؤخراً. هل هذا جزء من طبيعة متطلبات البحث الذي تقومين به؟» طرح هذا السؤال بشيء من الاستهزاء. شعرت بتحفظ في طريقة كلامه، وكان بإمكاني تبين أنه يحاول جاهداً إخفاء شيء ما، يعتمل في داخله، ولم يشأ إطلاعي عليه.

قلت: «أنا أعمل في مجال الأسهم والسندات.» استسهلت قول هذه العبارة كما لو أننا نلتقي للمرة الأولى. أنا متأكدة أنه لو حدث ذلك قبل سنين عدة في تلك الحفلة في نيويورك، عندما التقينا للمرة الأولى، فإنه لم يكن ليزعجه الخوض في موضوع كهذا معي لو صرّحت له إنني أتاجر بالأسهم والسندات. الآن، أحببت الطريقة التي تلفظ فيها بكلماته: كانت قوية. ماذا قال؟ سيد الكون، سيدة الكون؟ «أنا لا أؤلف قصة قصيرة. أنا لم أعد أعمل في مجال الكتابة. لقد توجهت صوب وول ستريت كي أتحدى وين في رهانه الذي وضعه عليّ.»

انفجر ثيودور بالضحك، كانت ضحكته مدويّة وهو يحمل الفوط بين

يديه. لوّح بالفاتورة وقال وهو يلفّني من خصري بين ذراعيه: «يا حبيبتي.»

قلت بسرعة: «لا تتصنع التواضع.»

«ما الذي تريدين مني أن أقوله؟»

«ما الذي تريد أنت أن تقوله؟»

«أريد أن أضحك؛ هذا خبر مضحك.»

«لماذا لا تريد أن تأخذ الموضوع على محمل الجد؟» ضحكتُه جعلتني أشعر بالغضب. أردته أن ينفجر غضباً. أردت أن تنتابه عاصفة من الغضب، وأن يشعر بأنه تعرض للخداع والخيانة.

قال محاولاً بكثير من الجهد أن يبقي على وجهه متماسكاً: «إذاً، أنا متزوج من فتاة ثرية.» بالطبع هو سوف يقول مثل هذا الكلام؛ فقد أصبحت ليلتنا الأولى القاعدة الأسطورية لقصتنا، أليس كذلك؟ قصة يمكن أن نرويها لابنتينا في السنين القادمة: الدعابة الضمنية التي تحتويها قصة ثيودور مع تلك الفتاة الثرية. بدأت تجعدات شعره تتوضح وتبدو أكثر جلاء كما لو كانت صدى لروح الدعابة التي يمارسها الآن.

سألته: «ألا يعنيك هذا الأمر؟ لقد استهلكتني ذلك الإحساس بالخوف من أنني خنتك، وأنت لا تبدي أي اهتمام بهذا الموضوع؟ لقد بعت نفسي. أنا الآن لست المرأة التي تزوجتَ. لم أعد أحب تلك المرأة أبداً، وكل ما تستطيع أن تفعله هو الضحك؟»

أفلتني من بين ذراعيه ووضع الفوّط جانباً. رفع معطفي وعلّقه على المشجب ثم ذهب إلى المطبخ وتفقّد الفرن. بعدها، فتح باب الثلاجة ليخرج منها زجاجة من النبيذ. نزع السدادة وأمسك بكأسين استخرجهما من الكابينة وصب فيهما النبيذ لي وله. هذا كان الجانبَ المثيرَ للجنون في شخصية ثيودور: فقد كان يتجنب النقاشات الكبرى التي قد تؤدي إلى المشاحنات. كان غارقاً في التفكير بالطبع. فيما بعد، عندما فكرت في هذه اللحظة، كان يخطر على بالي أنه ربما شعر بالارتياح، وأن نوبة الضحك التي انتابته ما كانت سوى تنفيس عن قلق هائل مكبوت. ألم يسألني قبل عدة ليالٍ فيما إذا كنت على علاقة غرامية مع أحدهم – وهو قلق لم أكن أعتبره مبنياً على أية وقائع ملموسة؟ فالخيانة التي مارستها تعتبر تافهة قياساً على ما كان يخشى وقوعه. لكنني في هذه اللحظة لم أشعر بكثير من التعاطف معه. أردت أن يتم تأديبي. أردته أن يشعر بأنه لا يعرفني، وأنني أصبحت إنسانة أخرى تنتمي إلى نفس الطبقة المنغلقة التي تنتمي إليها إيزابيلا باور وزوجها. أظن أن بإمكانكم القول إنني أردت لغضبه مني أن ينقذني، وأن تلك كانت الفرصة الوحيدة التي بقيت أمامي لتحقيق ذلك.

بعد ذلك، قال بكثير من الجدية والهدوء: «أنتِ فنانة. سوف تبقين فنانة دائماً بغض النظر عما تقومين به. لا يمكن لك أن تديري ظهركِ لما أنتِ عليه بطبيعتك.»

قلت: «أنا لا أفهم ما ترمي إليه.» بدت الغرف في الطابق الأرضي من الاستديو الذي يعمل فيه أصغر وأكثر قرباً. تابعت القول: «أنا أهتم الآن

بالرهانات العقارية وما يحدث في عالمها، وكيف تتحول إلى أسهم وسندات، وكيف يتم تسعير هذه السندات؛ أين الفن من كل ذلك؟»

«لا أدري. ربما أنتِ لا تعرفين الجواب على هذا السؤال، بعد. لكنني أراهن بمبلغ كبير على أنك سوف تجدين جواباً له في وقت لاحق.» كانت لديه القدرة دائماً في الأخذ بي بعيداً عن كل ما هو آنيّ، بكل تفصيلاته الدّقِيقة، وإبدال ذلك جميعه بصورة أكبر وأكثر وضوحاً. كيف انتقل كل من «دو شامب» و «ورهول» من «الشبكانية» إلى الجانب النظري؛ أي من مجال إنتاج العمل الفني والحاجة إلى صنع وثيقة، إلى الانخراط في العملية نفسها. «توقفَ عن الرسم وبدأ بممارسة لعبة الشطرنج، وإقامة مباريات استعراضية في لعبة الشطرنج مع راقصات التعري. كان يبيع قطعاً صغيرة من الخردة في المعارض الفنية. أصبحت مسألة المعيشة فناً بحد ذاته بالنسبة إليه. أما ورهول فقد عمل في مهنة جديدة مزج فيها بين الفن والتجارة. كان يحب أن يمزج بين الأشياء الغريبة، ويجلس كي يستمتع بمشاهدة الألعاب النارية. يمكن أن تفسري ذلك على أنه تخلٍّ عن المبادئ يا إنديا، أو يمكنك اعتباره مرحلة في مسار مهنتك، والجلوس والاستمتاع بمشاهدة الألعاب النارية. افعلي ما أنت ماهرة في القيام به: وهو أن تراقبي.»

كنا نقف في المطبخ الصغير. استدار باتجاه الخزائن وبدأ بإخراج الصحون وكؤوس المياه منها ووضعها على الطاولة، ثم التفت إليّ وسألني مبتسماً: «هل تعاملت معك بالجدية التي ترضيك؟» قال وهو يضع الصحون والأواني الفضية في يدي: «يجب أن نتهيأ لاستقبال المدعوين.» هرعت إلى الطابق العلوي من أجل إعداد طاولة الطعام. كانت الطاولة الطويلة التي يعمل عليها

قد تم تنظيفها بالكامل من أجل إعدادها لتناول طعام العشاء. كان التمثال متوضعاً في منتصف الطاولة. كان العالم كله يتدلى من ذلك التمثال أو على وشك السقوط منه، وكانت العيون الجميلة للحيوانات المثبتة عليه تتلألأ؛ كان ذلك هو العمل المعقد المترافق مع كثير من الجهد والألم، الذي صنعته يدا ثيودور: سنتان من الزمن والجهد بذلهما في سبيل ذلك. كانت الفاكهة تملأ مدار ذلك التمثال، وكانت تتدلى من قمته حبات العنب بلون الشمبانيا. كنت أعلم بالطبع ما الذي كان يرمي إليه. كنت مجرد جزء من المشهد؛ وهذا ما كنته بشكل أو بآخر بالنسبة إلى وين ورادالبينو: لم أكن سوى لعبة مثيرة للاهتمام في عالم لا يعترف إلا بالمال. تابعت استعمال درج الاستديو صعوداً ونزولاً، من أجل إعداد مائدة العشاء؛ ارتديت ثياباً تليق بالمناسبة، وكان ذلك فستاناً أسود قديماً كان ثيودور يحبه، خصوصاً أنه واسع من الخلف ويكشف عن طرفيْ كتفيَّ.

قال: «الآن أستطيع أن أعرف من تكونين.»

قلت: «شعرت وكأنني جاسوسة في تلك البذلة.»

بدأت تفوح من المطبخ رائحة الدجاج المشوي، وكان الجبن متوضعاً على الطبق الكبير ويحيط به البسكويت الجاف.

«طبعاً، جاسوسة! هذه هي العبارة. أنت لم تكوني تنوين القيام بذلك من أجل المال؟»

«بالطبع، من أجل المال؛ لأن ما قمتُ به من حرف مساري الصغير باتجاه الفن الراقي لم يكن يعني أنني لم أفعل ذلك من أجل المال.»

قال: «هذا من حسن حظي، إذاً؛ ذلك أنني كنت دائماً أشتهي اقتناء فوّط بقيمة ستين دولاراً.»

«هل هناك ما يمكنني أن أفعله كي أستحثك على التوقف عن حبك لي؟»

«هناك الكثير. لكن قيامك بتحدّي أحدهم في رهان كهذا ليس واحداً منها. كم عدد الأشخاص تتاح لهم الفرصة لتجريب مسار آخر في الحياة يختلف كلياً وجزئياً عما اعتادوا القيام به في حياتهم؟ كم عدد أولئك الأشخاص الذين يمتلكون مثل هذه الجرأة؟»

أفرغت كل ما في جعبتي من أحداث مررت بها خلال الأسبوعين المنصرمين ونحن نعدُّ مائدة العشاء؛ فقد أخبرته عن القصر الزجاجي وعن مجموعة الصور، وكذلك عن رادالبينو والجرس الفضي، والرجلين اللذين يقومان بقرعه بشكل مستمر، كما أخبرته عن وين وعن فتيانه ورهاناتهم مقابل رهانه هو، وعن راتبي، وعن الهواتف، وعن صورة ديك تشيني. كنت أشعر بالخفة والارتياح وأنا أُخرِجُ كل ما في جعبتي من مخزون الأسبوعين الماضيين، كما كنت أتوق إلى وصف تفصيلات تتعلق بهذه البلاد الغريبة عني، وعما ستؤول إليه هذه المغامرة التي انخرطت فيها.

وصل التكساسي متأبطاً ذراع زوجته الثالثة مرتدياً ربطة العنق البولو

التكساسية التقليدية ومنتعلاً جزمة كاوبوي مصنوعة يدوياً. أبدى بكثير من الحماس إعجابه بجمال التمثال. أما زوجته، وكانت امرأة لطيفة جداً، فقد كانت سعيدة جداً بخروجها من عالم «إلباسو» بأسرع ما يمكن. كانت أكبر سناً من ساليفان بحدود عشر سنوات، لكنها كانت تبدو أصغر، من خلال الطريقة التي كانت توافقه فيها على كل شيء، فقد كانت تبدي إعجابها بما كان يعجبه، وتوافق بسهولة على كل تعليقاته. همست في أذن ثيودور عندما كنا نضع اللمسات الأخيرة على طعام العشاء في المطبخ قائلة: «هذه المرأة تشبه الروبوت.» وضع فمه في أذني وقال بهمس: «أراهن على أنها تمارس الجنس أيضاً مثل الروبوت.»

ملأ صخبُ حضورهما الاستديو بصوته الجهوري وفرقعة صوت سدادة زجاجة الشمبانيا التي كان يفتحها، وشذى عطرها المضمّخ برائحة الفواكه ولمسةٍ من رائحة القرفة. كان من ذلك النمط من الأشخاص الذين يفترضون أن العالم مصمم على قياس متعتهم. بهذا المعنى، يمكن النظر إلى جميع أهل تكساس باعتبارهم أقرب إلى عقلية مجتمع عصر النهضة الذي كان أفراده يظنون أن العالم كله يتمحور حول عبقريتهم. في حال ساليفان، كان ذلك يتمثل جلياً في ولعه بتكديس أكبر كم ممكن من المال الذي كان يجمعه في الأصل من تجارة النفط والغاز. كان يعتبر «رجل البر»، بمعنى أنه كان يشتري عقوداً لاستخراج النفط والغاز الطبيعي قبل أن يتحول إلى المضاربة برأس المال. أما الآن فإن جل اهتمامه ينصبُّ على الفن والفنانين، وأما هذه الليلة فإنها ليلتنا نحن – الفنانين من منطقة ويليامزبيرغ. كنا بالنسبة إليه التسلية التي كان ينشدها، وسوف أعطيه حقه بالقول إنه استمتع بنا بالكامل، كما

لو أنه قام بلفّنا وتدخيننا، وأنا لا أقصد السخرية هنا – لفّي وتدخيني أنا، «الكاتبة»، كما وصفني؛ ويبدو أن هذه العبارة أعجبته وسحرته؛ وباعتبار أن ثيودور قام بصنع تمثال من الذهب له، فإن إعجابه به لم يكن أقل؛ وفي نهاية المطاف، أثار كلانا إعجابه. لقد كانت ليلة مميزة ستحكي زوجته دينا لأصدقائها عنها لأسبوع على الأقل.

وصلت إيما وويل في وقت لاحق، وكانا جذّابيْن كما دائماً، ولم يبدُ على محيّاهما أي تغيير قد يفرضه تغيير ويل لمهنته: كانت هي لطيفة وضئيلة الحجم وترتدي فستاناً أسود صغيراً مثنياً على الركبتين، أما هو فكان يرتدي بذلة وقميصاً مثنياً عند طرفيْ الكميْن وحذاء من الموكاسّان. إطراء آخر على جودة التمثال وجماله، تبعته جولة على السطح من أجل مشاهدة خط الأفق، بعدها تنحى التكساسي بثيودور جانباً وسأله فيما إذا كان بحاجة إلى بعض المال قبل وصول الشيك الذي يحتوي على الدفعة الكبرى. قال: «لا أدري كيف تقومون بمثل هذا العمل هنا، لكنني على يقين من أن هذا لن يضرّكم.» سحب من جيبه دفتر شيكاته وكتب شيكاً بمبلغ عشرة آلاف دولار، وهو جزء بسيط من المبلغ الذي يدين لثيودور به؛ لكن هذا المبلغ سوف يكون بمثابة زخم كبير بالنسبة إلينا، وكان سيحل الكثير من المعضلات التي كنا نعاني منها لو استلمناه قبل عدة أشهر. كان ثيودور يقول: «هذا هو منطق الأمور عند ركوب الأمواج؛ أمواج الحظ، أو أمواج الفاقة. ما علينا القيام به هو أن نحافظ على توازننا في الكيفية التي نركب فيها تلك الأمواج.»

أضحكتُ الجميع على مائدة العشاء عندما أعلن ثيودور أنني انضممت إلى عالم وول ستريت، وتحولت إلى تاجرة للأسهم والسندات، وأنني نحّيْتُ

الكتابة جانباً في الوقت الحالي. ضحكوا كما قد يضحك آخرون عبر السنين القادمة عندما يسمعون بأخباري، المهم هو ردة الفعل الأولى – المتمثلة في ضحكات تتردد صداها في المكان، وتذكرني بردة فعل ثيودور الأولى.

«الوغد!» قالت إيما، ساد بعدها صمت خيّم فوق طاولة العشاء، والتفت الجميع إليها. كانت الغرفة مضاءةً بأضواء الشموع فقط، وكان الضوء المنبعث من لهب الشموع يتساقط فوق وجوهنا وينعكس على جدران الغرفة: «لقد نال منكِ بالرغم من كل اعتراضاتي.»

سأل الرجل التكساسي: «من هو؟»

رد ويل شارحاً: «إنه وين جونز الذي يعمل في شركة بي أند بي؛ أخبرتهم بعدها بقصة الرهان، ويبدو أن هذه القصة داعبت خيال ساليفان الذي كان يهوى كل ما هو غريب وغير مألوف. لكن كان بإمكاني أن أخمّن وأنا أتفرّس في وجوه المتحلّقين حول طاولة العشاء أن ويل الذي أحب أن يعرف كل شيء، لكنه لم يكن يعرف شيئاً عن المغامرة التي انخرطت فيها؛ كان يناضل كي يُبقي على هدوئه وتوازنه، وأن لا يوحي بأي إحساس بالدهشة. قال وقد ارتخى فكه السفلي من الدهشة، ثم عاد إلى وضعه الطبيعي قبل أن ينسدل إلى الأسفل مرة أخرى، بينما كنت أكمل قصتي: «لا يمكن أن تكوني جادة.» ويل، الإنسان الكامل، فتى الكشّاف النسر والرائد، والذي تعوّد أن لا يدهشه شيء أبداً، أصيب بالذهول.

قالت إيما: «لقد منعته من القيام بذلك.»

قلت: «لقد أغواني.»

قالت: «إنه الشيطان بعينه.» بدأت ترجو ويل أن يؤنبه أو يوبخه وأن ينقذني من براثنه.

قال ويل: «إنه ابن زانية.» أما زوجة التكساسي، فقد رفعت عينيها كي تشير إلى ما كان الجميع يتساءلون عنه أيضاً. شرح الفتى الكامل ما يعنيه بالقول: «يجب انتشالها من بين فكّيْ الشيطان.»

قال ثيودور: «لا تنزعجوا كثيراً. إنها جاسوسة.»

قالت إيما: «جاسوسة؟ بالطبع، إنها إنديا التي تلاحظ كل شيء. إنني أغيّر موقفي من المسألة برمّتها، وأنا الآن، أشعر بالأسف على وين.»

قال ويل: «لا تأسفي عليه؛ إنهما يناسبان بعضهما بعضاً.»

قلت للتكساسي (أحب أن أطلق عليه اسم التكساسي): «أسأل ويل عما حدث له.»

قال التكساسي لويل وقد رضخ لطلبي: «وماذا عنك؟» كنت أهيئ نفسي للاستماع إلى أخبار ويل. كنا حتى هذه اللحظة قد ارتشفنا كمية لا بأس بها من النبيذ. لم يعد أي شيء مهماً الآن: فالحياة ليست سوى لعبة مضحكة وفوضوية.

قال ويل: «"ماذا عني"، بشأن ماذا؟»

قلت له: «أخبره إلامَ تحولتَ.»

قالت إيما التي يبدو أنها بدأت تستمتع بما آل إليه مسار الحديث: «هذا ضرب من الجنون.»

قلت: «لقد أصبح كاتباً روائياً؛ لقد تبادلنا الأدوار.»

«لم أكن يوماً تاجراً يا إنديا؛ كنت في مرتبة أدنى بين أقطاب الطوطم، كنت مصرفياً صغيراً أعمل في مجال الاستثمار من خلال تقديم خدمات على الهاتف للبلدان الفقيرة.»

قالت الزوجة؛ الفتاة التي تشبه الروبوت بلهجتها الجنوبية الواضحة، وهي ترسم ابتسامة ترفرف على شفتيها: «أنتم جميعاً مشوشون؛ فلا أحد بينكم تجاوز سن الأربعين ولو بيوم واحد.» كانت تلك المرة الأولى طيلة الأمسية التي تصرح فيها عن رأيها.

قالت إيما متوجهة إلى جميع الجالسين إلى الطاولة: «لقد باع روايته إلى شركة بيكاديللي. تسوّقه وكيلة أعماله باعتباره توماس وولف الجديد بالرغم من أنه ليس الأفضل بين أقرانه؛ على الأقل، ليس بعد.»

أضاف ويل قائلاً: «قامتي ليست بهذا الطول.»

بالرغم من أنني كنت بانتظار أخباره، فقد شعرت بوخزة خفيفة وبدأت أتساءل: ما هذا الذي أفعله؟ ولماذا فعلت ما فعلته؟ إن بحوزتنا الآن عشرة آلاف دولار، إضافة إلى مبلغ أكبر في طريقه إلينا. لم أكن بحاجة للقيام بما انتهيت إليه. لماذا تحوّل ويل إلى مهنة الكتابة؟ شعرت بحاجة ماسة كي أدوّن شيئاً في دفتر ملاحظاتي الذي أحتفظ به في حقيبتي، والذي كنت أحشو فيه ملاحظات على مدى الأسبوعين الماضيين. شعرت بحاجة لإيجاد حل لبعض المعضلات، كما قال ثيودور. انكمشت قليلاً؛ على قدْر ما استطعت

بعد ارتشاف العديد من كؤوس النبيذ، أي عندما اتضح لي بما لا يقبل الشك أن الإثارة المرافقة للسُّكْر لن تستمر طويلاً، وأن الحفلة على وشك أن تنتهي. كنت سعيدة أن اليوم التالي كان يوم سبت، وأنه ما تزال هناك فرصة لتغيير رأيي حول ما أقوم به.

قالت إيما: «تذكرين أن بيكاديللي كانت الشركة الناشرة لإحدى رواياتك، أليس كذلك؟»

«أجل، هذا صحيح.»

تابعت إيما قائلة: «باع ويل ليس كتاباً واحداً، بل اثنين؛ أحدهما لشركة كافيللي.» لم يكن الاسم يعني شيئاً للتكساسي وزوجته، لكنه كان يعني الكثير بالنسبة إلي. كانت ذلك كافيللي دون سواه. لم يقع اختيار ويل على أفضل وكيل أعمال في المدينة وحسب، بل تعاقد مع أفضل ناشر وأكثرهم موثوقية.

سألني ويل: «كنتِ معجبة به أيما إعجاب يا إنديا، أليس كذلك؟»

قلت ببساطة: «أجل.» كان فاتناً، وكان يبدو رشيقاً في بذلاته البيضاء وفي منتهى الأناقة والجاذبية. كان من لونغ آيلاند ويتحدث بنبرة أجنبية. كانت مكاتبه تغص بالأوراق والكتب من الأرض حتى السقف، ولم تكن هناك سوى ممرات ضيقة جداً في الأروقة، ما جعل الانتقال بين غرفة وأخرى عملية شبه مستحيلة. عاد العالم القديم بكل جاذبيته وسحره إلى الظهور أمامي من جديد.

قال التكساسي: «يا أصدقائي البوهيميين، كيف يمكنكم القيام بذلك؟ أعني كيف تشقون طريقكم في عالم رجال المصارف مستندين إلى ميزانية كاتب؟» لوّح بيديه بتبجح كمن أراد أن يحيط بخط أفق مدينة نيويورك التي كانت تقبع في الجانب المقابل لجدران الاستديو القرميدية.

قال ويل الذي يعتبر نفسه الآن واحداً منا: «نحن متفائلون.» انفجر الجميع بالضحك باستثنائي أنا. عرفت ما تعنيه تلك الإجابة، فقد عشتها بنفسي؛ وهي شكل من أشكال اللا مبالاة التي يمر بها المرء تجاه مصيره كما لو كان يتقمص شخصية ليرمونتوف[43] الذي يجابه خصمه في مبارزة على قمة إحدى التلال، أو شخصية في إحدى الروايات. هذا ما يطلقون عليه وصف التفكير السحري. أدهشني أن أسمع ذلك من ويل، لكنني أفترض أنه كان يحاول فقط أن يقدم سيرته الذاتية الجديدة أيضاً. المرء يتدرب على كيفية إلقاء عباراته كي يتأكد من وقعها على المستمع. متفائلون؟ لقد انهار العالم القديم بنفس السرعة التي بُعِثَ فيها من جديد. لم يعد يعنيني أي من ذلك. فأنا الآن أبحث عن حيوان من نوع مختلف تماماً.

انتهى العشاء بزجاجة براندي من نوع أرماغناك التي تم إحضارها من سيارة الليموزين العائدة للتكساسي، والتي سوف تقله مع زوجته دينا إلى الفندق في مانهاتن، وكذلك الزوجين تشابمان إلى شقتهما في حي تريبيكا. تبادل الجميع قبلات الوداع؛ وبدورها أصرّت إيما التي كانت ترتدي معطفاً من الفراء على أن نزورهم ثانية في ولاية مين الصيف القادم.

43 - الإشارة هنا إلى ميخائيل ليرمونتوف، (1841 - 1814) الشاعر والروائي الروسي الذي يعد واحداً من ألمع الشعراء الروس (المترجم)

قال التكساسي وهو يهز برأسه ويبتسم في الوقت الذي كان يرتدي معطفه استعداداً للخروج: «تاجرة أسهم! أعتقد يا ثيودور أنك أنهيت العمل على تمثالك في اللحظة المناسبة، إنها اللحظة الحاسمة؛ وربما ليست كذلك. لكن ما صنعني ليس تلك اللحظة – فأنا لست على هذا المستوى من الذكاء؛ هناك العديد من الأشخاص ممن هم أذكى مني بكثير – لكنني أحس بأنني أمتلك موهبة خاصة في إيجاد اللحظة المناسبة. أنا أعرف ماهيتها جيداً، ولذلك فإنني أشتمُّ رائحتها هنا، وفي هذا المكان. لا يخامرني شك في ذلك أبداً. أعتقد أنك موهوب وبارع في عملك أيها الفتى العجوز.»

الفصل الرابع عشر

انتقلت إيما إلى ولاية مين في شهر نيسان، أبريل، من تلك السنة حالما أصبحت حرارة الطقس مقبولة، وبعد أن أصبح من غير المحتمل تساقط الثلوج. كانت تسافر جواً في نهاية الأسبوع من حين لأخر، كما كان ويل والابنتان يأتون لزيارتها. الآن، وبعد أن تحول ويل إلى مهنة الكتابة، فقد صار باستطاعته أخذ البنتين من المدرسة حين يشاء، كما أصبح بإمكانه قضاء وقت أطول برفقتهما. أنهيا خدمة جليسة الأطفال التي قضت ثماني سنوات في خدمة المنزل كي يوفرا بعض النفقات، وتعاقدا بدلاً من ذلك لنفس الغاية مع طالبة بدوام جزئي. كان قراراً مؤلماً بالنسبة للعائلة كون الأولى أصبحت جزءاً منها بعد تلك الفترة الطويلة؛ لكن مثل ذلك القرار كان منطقياً كون هذه العائلة اتخذت منحى جديداً لحياتها. فالمال الذي تم توفيره جرّاء تسريحها من الخدمة، يستعمل الآن لتغطية النفقات المستجدة على المنزل في ولاية مين. في شهر حزيران، يونيو، سوف يوضّب ويل والبنتان الشقة ويسافرون لقضاء عطلة الصيف مع إيما، وهي المرة الأولى التي تجتمع فيها العائلة بكاملها في مقاطعة بوند بوينت. بالطبع، كان من الصعوبة بمكان، الابتعاد عن العائلة، لكنها كانت مصممة على أن تجعل المنزل جاهزاً بشكل كامل لاستقبالهم في فصل الصيف.

وهكذا، أمضت إيما فصل الربيع بأكمله في ولاية مين، وهي تقوم بما تجيد القيام به على أكمل وجه: أي جعل عالم العائلة جميلاً. كان وصول إيما المتزامن مع حلول فصل الربيع بكل ما يرمز إليه من بعث وتجديد، ونظافة، إذا أردنا أن نكون أكثر دقة، قد أعطاها دفعاً إضافياً لإتمام مهمتها التي كانت، لو

نظرنا إلى وضع المنزل نظرة أكثر قرباً، مهمة صعبة للغاية؛ لكنها قامت بها بكل عزم وتصميم؛ فقد شمّرت عن ساعديها، وراقبت كل شاردة وواردة في المنزل من الداخل. لم يكن ذلك يتعلق بالديكور بل بالتصميم الداخلي للمنزل، وقد قاربت مهمتها تلك كما لو كانت بالنسبة إليها نداء خفياً – بالرغم من أن جدّيّة مثل هذا النداء لا يمكن مقارنتها مع النداء الداخلي الذي يشكل الدافع بالنسبة إلى الفنان. لكن في البداية، كان هناك الكثير من أعمال التنظيف وكشط الجدران، والإشراف على رمي تلك النفايات بعيداً. كانت تلك العملية أشبه بنزع اللحم عن العظام بما أن ذلك المنزل الريفي قد تم شراؤه على تلك الحال. لذا قضت إيما الأسابيع الأولى التي بدت طويلة جداً في تنظيف ما هدم في الداخل وإخراج كل الأثاث القديم من أسرّة وكراسي وأرائك وكل الأواني وقدور الطبخ وأواني المطبخ والعلب المعدنية القديمة والتوابل والطعام وكافة تجهيزات المطبخ، والفرش والمصابيح وإطارات الأزرار الكهربائية والكتب والألعاب بمختلف أنواعها والشراشف والبطانيات وجهاز التلفزيون والأدوات الموجودة في القبو وكافة محتويات الحمامات الثلاثة والسجاد والبيانو والأكاليل، ورميها جميعاً في مكبّ النفايات.

كانت بضع لحظات من الراحة في منتصف صباح أحد الأيام قد منحتها الفرصة للتأمل في هذا الفضاء الجديد المنبثق من تحت هذا الركام. كانت تشعر بمزاجها وهو يرتفع مترافقاً مع تقدمها في إنجاز هذا العمل؛ ولم يكن هذا بالطبع من قبيل المصادفة، بل كان ترجمة لأكثر المبادئ القديمة ذات البعد العملي تكتلاً ووضوحاً. كان ترتيب المكان ليس بالمسألة التي يمكن النظر إليها بازدراء بالرغم من أن معظم الناس كانوا يفعلون ذلك. لكن إيما ليست

معظم الناس. كان آل هوف، وفّقهم الله، مثل معظم الناس؛ بمعنى أنهم لم يفكروا مطلقاً بتغيير التصميم الداخلي للمنزل بحيث يحدث تناغم حركي في المشهد بين داخل المنزل وخارجه. كان المنزل بالنسبة إليهم، يمثل انغلاقاً عن العالم الخارجي؛ ويشكل كذلك حماية لهم من العالم وانعزالاً عنه؛ وبالتالي كان تكديس الأثاث فيه بمثابة الأسلحة التي يواجهون العالم الخارجي بها. لن تكون الأمور على هذه الشاكلة بعد الآن. أخذت إيما على عاتقها مسألة إعادة تعريف المكان حيثما استطاعت فتح الباب أمام عالم الخارج كي يَلِجَ إلى الداخل، وكذلك كي تبتكر مشاهد داخلية جديدة بإمكانها أن توفر للعائلة طيلة فترة وجودها في المنزل التأثيرات الإيجابية المطلوبة للمشهد على المستويين الفيزيولوجي والروحي.

تم الانتهاء من إفراغ المنزل من محتوياته في أواخر شهر آذار، مارس؛ وبحلول عيد الفصح، كانت خمس حاويات قد امتلأت بمحتوياته القديمة. أما اللوحات التي رسمها الأطفال إضافة إلى صور باكراك فقد تم تغليفها بعناية بأوراق الصحف وإرسالها إلى آل هوف، وهو ما ارتأت إيما القيام به من أجل إتمام العملية بسرعة. كان من بواعث الرضا، إفراغ المنزل من كافة محتوياته التي جمعت من قِبَلِ عدة عائلات على مر السنين – منذ الأيام التي كانت فيها مقاطعة بوند بوينت مسكونة من قبل سكان بوسطن الأثرياء الذين قصدوها على متن سفن بخارية بقصد الاصطياف هنا في هذه المنطقة.

بقيت إيما تنعم بذلك الفضاء الرحب، وتستمتع كذلك بفكرة أنها بمفردها بعيداً عن واجباتها اليومية. كانت تنام على فرشة هوائية قامت بمدّها في الغرفة البرجية وكانت تلتحف غطاءً تم شحنه من مدينة نيويورك. كانت

تصغي ليلاً إلى نقيق الضفادع وأصوات ارتطام العوّامات المستخدمة لإرشاد الزوارق والسفن، وكذلك إلى هدير الأمواج التي تضرب الشاطئ باستمرار، وإلى صراخ طيور النورس. كانت تتناول طعامها وترتشف قهوتها في الكوخ الصغير الذي يقدم الكركند في البلدة التي كانت أقرب إلى قرية صغيرة منها إلى بلدة: في البداية، كان ذلك الكوخ عبارة عن موقع يستخدم للإنقاذ تحوّل فيما بعد إلى مطعم صغير يقدم خدمة المنامة والإفطار للزّبائن، وألحقت به كنيسة صغيرة ومخزن كان يعرض أيضاً أفضل أنواع شطائر الكركند في المنطقة.

كان هواء البحر المشبع برائحة الصنوبر النفّاذة عامل استقرار لدورتها الدموية؛ كما بدأت تشعر بالتماهي مع رحابة الأفق واتساع المحيط. وكانت أمواج الشتاء العاتية ما تزال تضرب الشاطئ بعنف؛ أما البحر الذي طغى عليه لون الياقوت الأزرق فقد كان يرغي ويزبد تحت السماء المنخفضة. لم تكن أي من المنازل المجاورة مسكونة، ذلك أن ألواحاً خشبية كانت ما تزال مثبتة على نوافذها. أحبت كثيراً المكان على تلك الحال، فقد كانت مقاطعة بوند بوينت غير مأهولة في تلك الفترة من السنة. مرت عدة أيام من دون أن تكلف نفسها عناء الاتصال بويل أو البنتين. كانت تتمشى بمحاذاة الشاطئ الذي ينثني عند نقطة التقائه بالنهر وصولاً إلى كوخ الكركند. كان منظر النهر الذي يخطّ مجراه باتجاه الشمال يبدو وكأنه يختصر قروناً من الزمن.

في بداية الأمر، كانت تنتاب صاحب المطعم وزوجته كثيراً من الشكوك حول إيما، تلك الوافدة الجديدة من مدينة نيويورك – كانا يلبّيان طلباتها بصمت يلفّه الكثير من الشكوك والتساؤلات؛ ذلك أن أصحاب المنازل الصيفية الجدد مصدر جذب للعديد من الأثرياء للاصطياف في المنطقة.

كانت تحتسي القهوة في المطعم، وتقرأ الصحيفة المحلية، وتسألهما عن طبيعة الشتاء الماضي؛ كما كانت تثني على الفطائر المحلاة، وتقلب صفحات مجلة أوتو ترايدر بكثير من الفضول. ابتاعت شراباً مقوياً مصنوعاً محلياً؛ لكنها لم تطلب شيئاً لافتاً أو محدداً. كان بمقدورها فهم اللهجة المحلية الثقيلة التي كانا يتكلمان بها، ولم تكن بحاجة إلى أن تطلب منهما تكرار أية عبارة يتلفظان بها، وكانت تسألهما عن الكركند، وعن ظاهرة عدم وجود الدم في جسمه، وكذلك عن ظاهرة نمو أطرافه مثل المخلب أو الرجل من جديد عندما تنسلخ عنه بشكل دوري، أو التنوع في ألوانه التي تتفاوت بين الأصفر والأزرق والأحمر والباهت والمخطط باللون البرتقالي والأسود.

تحدثت قليلاً عن الطقس، وأنصتت إلى الثرثرة التي تتمحور حول قصص تتناول حياة الآخرين. إحدى هذه القصص تناولت أحد صائدي الكركند الذي فتح سلة الصيد العائدة له ليجد إصبعاً بشرية معلقة بين عيدانها؛ ربما كان ذلك نتيجة لمحاولة فاشلة من أحدهم سرقة سلته، علماً أن أحد الأوغاد المحليين راجع المستوصف المحلي الوحيد في البلدة وكانت إصبع أبهامه مقطوعة. كان كل جانب من جوانب هذه القصة يسلط الضوء على جانب جديد، ما أدى إلى وصول الموضوع إلى المحكمة. فشلت هيئة المحلفين في إدانة المتهم، وكان السبب هو عدم وجود الدليل. كانت إيما تستمع إلى هذه الرواية وهي تتناول الفطائر المحلّاة؛ أما الرجل الذي روى هذه الحكاية، وكان شخصاً نحيلاً يعمل في فوج الإطفاء، ويعمل ساعياً للبريد،، فقد أكد على تلك الكلمات الأخيرة : «عدم وجود الدليل»، مفرداً مساحة لكل منها من أجل التأكيد على مصداقية روايته في الوقت الذي كان يصب السائل

المحلّى فوق الفطيرة، وكان يشبه في ذلك أحد أعضاء الجوقة في مسرحية إغريقية قديمة خارج أوقات العرض المسرحي. كان يؤكد للساكنة الجديدة على عدالة القرار وموضوعيته: أي أن المتهم ذا الإصبع المقطوعة قد خسر ما فيه الكفاية.

وفّر جيران إيما لها مادة دسمة للتأمل في الوضع الإنساني. وبالرغم من أن هؤلاء الجيران لم يكونوا قد وصلوا بعد، إلى هذا المكان من أجل الاصطياف، فقد كانت مشكلاتهم تطغى على مادة الحديث. فعائلة كوفين على سبيل المثال، كانت تمنع عائلة سمول من استخدام الممر الجانبي للوصول إلى منزلها، بالرغم من حصول هذه الأخيرة على إذن بذلك منذ سنوات طويلة؛ لأن عائلة سمول قامت بتعديلات في الممر ثبت في المحكمة عدم قانونيتها لأن عائلة كوفين لم تعجبها الطريقة التي أحدثت فيها عائلة سمول بعض الحفر والأخاديد في ذلك الممر، والتي تسببت فيها العربة الرياضية الثقيلة التي تستعملها عائلة سمول (ربما كان الإسراف في استهلاك الوقود غير قانوني أيضاً). كان الموظف المشرف على تطوير العقارات الذي قتلت زوجته في حادث تعرض له القارب الذي كانت تستقله، ينوي تشييد جِوارٍ للمتقاعدين في منطقة المستنقعات؛ وقيل إنه وقع من جديد في غرام إحداهن، إلا أن ابنه لم يتقبل وجود تلك المرأة الجديدة في حياته. كان حفيد أحد أعضاء جمعيات تحريم تهريب الخمور قد اشترى المنزل الريفي لأرملة من عائلة تاتل، واعتقد البعض أنه استغل وضعها؛ ولكن بالرغم من أنه لم يكن بمقدور أحد أن يتذكر مهرّب الخمور، فقد كان مجرد وجود حفيد ذلك الشخص بين ظهرانيهم سبباً كافياً للنفور منه. تناولت إحدى القصص الشائعة مجموعة

مثيرة للجدل من قاطني المنطقة الذين كوّنوا لأنفسهم شلّة مجتمعية منغلقة على نفسها: وكانوا مجموعة من مالكي البيوت التي تطل مباشرة على واجهة المحيط، والبيوت التي تطل على ضفتيْ النهر، إضافة إلى القاطنين في منازل ضمن أشجار الصنوبر التي تشكل دغلاً صغيراً يعج بالبعوض وحشرات القرادة، وهذا الدغل يعتبر ممراً إجبارياً للوصول إلى منزل إيما. لم يكن يقطن في تلك المنطقة سوى عدد قليل من السكان، ولكن لم يكن بإمكان أيٍّ كان رؤية أحدٍ منهم على شاطئ المحيط. بدا وكأن هؤلاء يفضّلون البقاء بالقرب من منازلهم تحت ظلال الأشجار الكثيفة والاستماع إلى أجهزة الراديو المحمولة وإقامة حفلات الشواء. كانوا يفضلون البقاء حيث هم. لم تكن إيما قبل ذلك لتعير الكثير من الاهتمام لأي من هذه المظاهر، لكن الأمور الآن أضحت مختلفة. كانت تتمنى أن تكون بالقرب من هؤلاء في أيام الآحاد من فصل الصيف، عندما تفتح أبواب الكنيسة من جديد، وتشاركهم في إنشاد التراتيل الدينية وتتجاذب معهم أطراف الحديث عندما يكونون يحتسون القهوة في منزل الكاهن بعد الصلاة، في محاولة منها أن تنشئ روابط اجتماعية لها ولأسرتها معهم.

كان صاحب المطعم الذي كان أيضاً صائداً للكركند، ذا قامة ضئيلة الحجم ووجه طفولي؛ وبالرغم من أنه كان ينحدر من أصول متجذرة في ولاية مين (وهو الشخص الذي يولد هنا من أبوين ولدا هنا بدورهما)، فإنه كان أشقر الشعر وكانت عيناه زرقاوان تشبهان عينيْ صبيٍّ في إحدى مدارس المرحلة المتوسطة في ولاية كينيتكت. أما زوجته المطواعة فقد كانت تضع جهاز تقويم للأسنان وكانت دائماً منهمكة في روتينها اليومي المتمثل في أعمال التنظيف

والطبخ. لم تكن تبتسم كثيراً، ولكن عندما كان ذلك يحدث، فقد كان هذا يعني أنها سمعت شيئاً لافتاً. أما أخت الزوجة، وهي أرملة شابة تعاني من سعال مستمر بسبب التدخين، فقد كانت تجلس إلى نفس طاولة إيما حتى عندما تكون الطاولات الأخرى في المطعم خالية من الزبائن؛ لم تكن تتلفظ بالكثير من الكلمات، إلا أنها كانت سعيدة كونها تجالس أحد الوافدين الجدد إلى المنطقة. هنا في هذا المكان، لم يكن تجاذب أطراف الحديث ضرورياً دائماً. كان باستطاعة إيما أن تنحّي مدينة نيويورك جانباً – فضاء المدينة والحراك الاجتماعي والتوجس من مسألة نجاح ويل في توجهه المهني الجديد من عدمه – وتنكفئ عائدة إلى الجزء الأكثر نقاء وصفاء في ذاتها، والذي لا علاقة له على الإطلاق بأية هواجس حول مستقبلها؛ هذه الهواجس التي شطفتها أمواج المحيط ، وتبخرت في هوائه المائل إلى البرودة.

«سوف يكون كل شيء على ما يرام». كان ويل قد طلب إليها إعطاءه مهلة خمس عشرة سنة. عمل طيلة خمس عشرة سنة في وظيفة لم يكن يشعر أنها تلبي تطلعاته فقط كي يوفر لها الإمكانية المادية لتشتري تلك الشقة في حي تريبيكا، وتقوم بتلك الرحلات الباذخة وتلحق ابنتيهما بمدارس خاصة، وتتمتع بالراحة والأمان. لم يكن عليها أن تمارس أي عمل وظيفي، إذ أرادت أن تلازم المنزل مع البنتين – وهو ما يعوضها كما هي الحال بالنسبة إلى الكثير من بيننا، عن الفشل الذي مني به آباؤنا. لم تكن أمها بحكم كونها عاملة في المجال الأكاديمي، قريبة منها عندما كانت بأمسّ الحاجة إليها، حتى على المستوى الجسدي. كانت إيما معجبة بأمها لالتزامها وتكريس جهدها بالكامل للبحث العلمي، لكنها كانت دائماً تحسد الأولاد الذين كانت أمهاتهم يملكن

الوقت الذي يمكّنهنّ من إعداد وجبات الغداء لأولادهن وتقطيع أرغفة الخبز إلى شرائح صغيرة لهم؛ تلك الأمهات اللواتي كن يهتممن بأدق التفصيلات التي تتعلق بحياة أولادهن، ويقفن على خطوط التماس في الملاعب، ويبذلن أقصى ما باستطاعتهن كي يستثمرن طفولتهن إلى آخر مدة ممكنة.

كانت إيما قد قررت بكل بساطة التخلي عن وظيفتها في دائرة المطبوعات واللوحات في متحف الميتروبوليتان، حيث كانت تشرف على عمليات الجرد والتصنيف التي لا تنتهي – وكانت تلك الوظيفة الخطوة الأولى في طريق تقلّدها منصب أمين عام المتحف. توقفت عن كتابة أطروحتها وتخلّت عن طموحها للحصول على شهادة الدكتوراه، ولم تكلّف نفسها عناء النظر إلى الخلف بعد ولادة الطفلتين. حسنٌ، ربما كانت تلتفت إلى الماضي بشيء من الحنين بين الحين والآخر عندما كانت تحاط بأمهات يمتهنَّ بعض الأعمال الوظيفية، وكان يتم التعريف بهنّ بشكل جميل على أساس طبيعة العمل الذي يقمن به كمدّعيات عامّيات، أو محاميات في مجال القانون الجنائي، أو محللات في مجال النفط واستخراجه، أو رئيسات تحرير لمجلات نسائية، أو مديرات في مجال التسويق الدولي – نساء لا يجدن وقت فراغ إلا بالكاد، ويسافرن إلى أماكن بعيدة حول العالم في رحلات عمل. نساء يبدو أنهن لا يعرفن ما تعنيه عبارة «البقاء في المنزل»، واللواتي يرين في مثل هذا الخيار هزيمة ودحضاً لكل ما حققته المرأة على امتداد الثلاثين سنة الأخيرة وناضلت من أجله. كانت إيما تعرف أن أسوأ الأحكام التي تُوَجّه إليها لا يطلقها عليها الآخرون بل هي من تطلق مثل هذه الأحكام على نفسها. كانت ولاية مين هي آخر وعود ويل لها، والآن هي تعرف أن دورها هي قد حان في إغداق الوعود عليه.

تعلمت إيما من زوجة صاحب الكافتيريا، واسمها نورا، كيف تعد فطائر عنب الأحراج من حبوب الديس التي قطفتها نورا بكميات كبيرة وحفظتها في الثلاجة الصيف الماضي؛ صحيح أنها كانت من الفطائر المعروفة في ولاية مين، ولكنها أضافت إليها أيضاً كميات من حبوب الديس المجمدة في أكياس حملتاها معاً وهما تسيران عبر مواقف السيارات في تجمع وول مارت في مدينة باث ضمن كمية كبيرة من المشتريات من أحد المحال التجارية، وكان أحد هذه الأكياس منتفخاً من كثرة الأغراض التي حشرت فيه، وكان ذلك عصر أحد أيام شهر أيار، مايو، الذي كان الجو فيه حاراً قبل أوانه. كانت «لمسة ولاية مين» من نوع آخر تماماً بانتظار إيما، وهي لمسة روحانية وجدتها ممتعة في البداية. قامت نورا بأصابعها الخشنة بتحضير العجينة حيث بدأت بتقطيع العجينة المصنوعة من الطحين والزبدة إلى قطع صغيرة تشبه حبات المسبحة أعدادها غير معروفة، ثم توضع في الفرن فتتحول إلى كرة كبيرة الحجم. كان الطحين يتناثر على وجه نورا وكذلك على مئزرها. التمعت ابتسامتها التي كشفت عن جهاز تقويم الأسنان الذي تضعه في فمها.

أحبت إيما نورا لأن هذه الأخيرة لم تكن تعلم شيئاً عن طبيعة حياة الأولى في مدينة نيويورك، أو عن التغيرات الفجائية التي طرأت على حياتها، أو رحيل لولي – الذي كان بمثابة نذير شؤم، وكذلك مراقبةُ الأمهات في المدرسة، و«ضغط النفقات»، وتَوَفُّرُ فرص لم تكن في الحسبان فرضتها الضرورة عشية تغيير زوجها لطبيعة مهنته. كان دور إيما بصفتها زوجة رجل مصرفي محدداً، أما دورها كزوجة كاتب روائي فكان متعدد الجوانب؛ كان أشبه بقوس مفتوح ومثير للقلق. كانت النجاحات التي حققها ويل بصفته كاتباً روائياً غير مرئية،

بينما نجاحاته بصفته مصرفياً يمكن إطلاق أية صفة عليها إلا صفة غير المرئية. وجدت نفسها تقول: «سأسافر طيلة فصل الربيع من أجل الإشراف على عملية تجديد المنزل الصيفي في ولاية مين»؛ لم تقل ذلك بنيّة الكذب، بل كانت تقصد أن تبرر غيابها، ولأنها أرادت أن توحي من خلال الإعلان عن نيتها السفر أن شيئاً في حياتها لم يتغير. كان بإمكانها فيما مضى أن تتلفظ بهذه الكلمات بصدق من دون أن تفكر كثيراً بما قالته.

كانت نورا، على غرار أختها، قليلة الكلام لكنها كانت سعيدة برفقة شخص جديد ومثير للاهتمام، ولكن بالطبع ليس مثيراً للاهتمام بدرجة كبيرة. ذلك كان الدور المتوازن الذي لعبته إيما، وأجادته بين سكان ولاية مين. كان الصمت الذي يلفّ حياة هؤلاء يستجدي من يملؤه، لكن إيما استوعبت فكرة أنه لا يجوز التسرع في فعل ذلك. النكات السمجة حول عائلة هوف غير مسموح بها البتة هنا! لذا، فقد تحمّلت إيما تلك الثرثرة البريئة والمملّة؛ وكانت أحياناً تكافأ على صبرها. عرفت إيما من نورا أين توجد أفضل الحقول التي تنمو فيها حبوب الديس؛ علمت أن هذه الحقول موجودةٌ في بعض المنحدرات التي يغلب عليها الطابع الصخري والتي تبرز من بين السهول الكتيمة وتشرف من علٍ على الشاطئ، وتطل على النهر من ناحية، وعلى المحيط من الناحية المقابلة. من هناك، وتحت ضوء فترة ما بعد الظهر عندما يكون المحيط في مرحلة الجَزْر، يمكن للمرء رؤية شخص يلبس جزمة من المطاط تصل إلى ما فوق الركبة يصطاد البطلينوس في مصب النهر حيث يتحول لون الماء إلى خليط من لونيْ الكهرمان والفيروز.

اصطحبت إيما الفتاتين عصر أحد الأيام بعد وصولهما لزيارتها من نيويورك

إلى تلك المنحدرات الصخرية حيث كانت جذور أشجار الصنوبر تلتفُّ حول الصخور مثل المخالب، وحيث تتغلغل أطراف فصائل أخرى من شجر الصنوبر داخل التربة في الاتجاه المعاكس لحركة الرياح. تحولت ولاية مين إلى جزء من حياة ابنتيها، ما جعلها تؤثر في طريقة تفكيرهما لاحقاً. كانت ولاية مين قد أصبحت مقترنة بإجازة الصيف بالنسبة إليهما. كانت تتجول برفقة الفتاتين في أحد الممرات الضيقة في تلك المنحدرات حيث وقعنَ على مقبرة تكاد تكون مطمورة في الغابة. هناك، ومن خلال البساط المكوّن من أوراق الصنوبر التي تفترش أرض الغابة، يتسلط شعاع من الضوء على شاهدات القبور. كانت الفتاتان في غاية الانشراح والحبور وهما تقفزان من فوق شاهدة إلى أخرى وهما تبحثان عن تاريخ أقدم واحد من تلك القبور وتقرأان بصوت عالٍ أسماء العائلات التي يمكن أن ترى أسماءها على أرومات المحال التجارية وأسماء الشوارع في القرية — مثل عائلة بيرسي وعائلة بيركينز وعائلة سبيني. في هذا الموقع توجد شاهدات لأسماء مثل أفرايم وماري ولورنزو سبيني. «من هم هؤلاء يا أمي؟» أفرايم عاش إحدى وتسعين سنة، أما زوجته فقد توفيت في سن السادسة والسبعين؛ لكنّ ابنهما أفرايم الذي كانت تدل عليه شاهدة من المرمر، فقد «قضى في البحر» عندما كان عمره تسعٌ وثلاثين سنة.

«هذا محزن يا أمي.»

«صحيح إنه محزن، لكن هذه البقعة الهادئة تجمعهم الآن، أليس كذلك؟»

قالت كاثرين التي تطغى عليها هالة من الجدية والصدق: «أجل، إنه

كذلك.» كانت عيناها تنمّان عن أفكار كبيرة لم تكن تستوعبها تماماً لكنها أرادت بشدة أن تفهمها. كانت تنتابها أفكار في منتهى البراءة، ومنها أن الموت هو تجربة يمر بها الآخرون فقط، وتحدُثُ عندما يتقدمون في العمر. أما إليزابيث فقد كانت تحوم حول شاهدات القبور، وقررت أنها تريد أن تدفن في هذا المكان، ما وضع كاثرين في مواجهة مع الحقائق الصعبة.

كان شريطٌ من مآسي أجيالٍ بأكملها يُعرَضُ في تلك البقعة الصغيرة من الشاطئ؛ كانت شاهدات القبور سجلاَّت أرّختْ للحب والخسارة ويوم البعث الأخير. يا له من مكان يقضي فيه المرء الأبدية. كانت تنوي إخبار ويل عن كل ما اكتشفته في هذا المكان، وعن مدى عشقها لمقاطعة بوند بوينت كونها أضحت بشكل أو بآخر، جزءاً من ممتلكاتهم إلى الأبد.

مع نهاية شهر نيسان، أبريل، كان يعمل لدى إيما طاقم مكون من ستة أشخاص لصيانة المنزل وتجديده – كانوا رجالاً من ذوي الحرفية العالية، وكانوا أيضاً مغرمين باحتساء قهوتهم الصباحية التي يمزجونها أحياناً بشراب الشنابس[44] بطعم النعناع (هذا ما كانت تظن أنهم يفعلونه لأنه كانت تبدو عليهم أمارات الانشراح الدائم) لأن أصواتهم الجَذِلة كانت تعبّرُ عن مدى التقدم الذي كانوا يحرزونه في عملهم. أعادوا تثبيت ألواح السطح الخشبية، كما قاموا بإصلاح الألواح الخشبية الخارجية لجدران المنزل التي كانت تتعرض للعطب بفعل الرياح الشتوية؛ كما أعادوا طلاء المنزل من الخارج وثبّتوا زجاجاً جديداً من النوع النادر وغالي الثمن على النوافذ يتناسب

44 - شراب ألماني مسكر ثقيل (المترجم)

وروح العصر بدل الزجاج القديم المكسور. كما أعادت بناء الرواق المتآكل بفعل عوامل الطبيعة والإهمال وقامت بتعليق أرجوحة ثبّتت عليها مفرشاً من الشنيل المتين باللونين الأرجواني والضارب إلى الصفرة. كما طلبت من العمال تشييد غرفة خلف المنزل لتبديل الملابس مزودة بحمام فيه كل وسائل الراحة، وركن ثبتت فيه غسّالة كهربائية وآلة لتجفيف الملابس. كانت أرضية المنزل بحاجة إلى نزعها ورصفها من جديد، كما أن إطارات النوافذ كانت بحاجة إلى طلاء هي الأخرى. أمضى طاقم من فنيي الكهرباء أسبوعاً ونصف الأسبوع في تمديد أسلاك كهربائية إضافية، ووصْلِ خدمة الكابل والإنترنيت. تم كذلك تركيب مطبخ جديد مزود بخزائن من الأكريليك وثلّاجة مطليّة بالمينا إضافة إلى موقد وحوض لغسيل الأطباق وأرضية مرصوفة ببلاط بلون القرميد. تم إبدال المراحيض القديمة بأخرى جديدة، كما أن الحمامات أضحت أكثر اتساعاً. أنجزت أعمال التجديد والترميم بسرعة، وكان هناك ما يشبه السباق حول المدة الزمنية التي يستغرقها إنجاز كل هذه الأعمال. اختارت كل واحد من هذه التفصيلات بنفسها: الثوابت وأزرار الكهرباء ومقابض الأبواب. كانت تنام باكراً في كل ليلة بعد أن يكون الإنهاك قد نال منها.

كانت تشعل الموقد في الصباح وتحضر لنفسها فنجاناً من القهوة (سعادتها كانت لا توصف بمطبخها الجديد) وتجلس بعد أن تلتحف شالاً من الصوف في الأرجوحة، ثم تبدأ بتدوين المواد التي يتعين عليها شراؤها؛ كانت تراقب الشمس وهي ترتقي في السماء في الوقت الذي كانت تلفحها الرياح الربيعية التي تتسلل عبر الرواق. بدأت تظهر اهتماماً بتنظيم حديقة المنزل وحفر

التربة وتنظيف مرج الحديقة العشبي، واقتلاع الأعشاب الضارة؛ وترافق ذلك مع كثير من الحماس والاهتمام اللذين يبديهما المالك عادةً تجاه ما يملك. هذا النوع من الأعمال يبدو منهكاً وشاقاً بالنسبة إلى الآخرين. قامت بتثبيت ستائر من الكتان القشدي اللون على قضبان خشبية بسيطة الشكل، في نهاية كل منها كرات للزينة إضافة إلى حبال مزركشة للمّ الستارة إلى الخلف على طرفيْ النافذة. ابتاعت عدداً من الصحون والقدور والأواني الزجاجية والفضية والكراسي إضافة إلى طاولة وأريكة حمراء رائعة وطاولة للمكتب من سوق للأدوات المستعملة ومخازن تبيع الأثاث القديم.

أضحت ملمّةً جداً بأعمال الكنس والتنظيف – فقد تحولت إلى إنسانة مقتصدة وحصيفة وبدأت تزن الأمور بميزان الحكمة والتعقل، كما أصبحت تتفحص الأشياء بعين الخبير. كانت تقوم بتجديد ما يلزم تجديده بنفسها مثل حفّ ما يجب حفُّه بالورق المرمّل أو أعمال الطلاء وإعادة ترتيب بعض الأعمال التي لا تتطلب كبير جهد. كان المنزل بمثابة مشروع فني استهلك جل وقتها في الوقت الذي كانت تعمل جاهدة من أجل تقديم ذلك النوع من العمل الفني الذي تجيد القيام به أيما إجادة. اختارت أن تكون أغطية السرير لحافات من الطراز القديم المصنعة يدوياً؛ أما جدران الغرف فقد قامت بطلائها بألوان مختلفة بدلاً من اللون الأبيض الذي كانت مطليّة به سابقاً. عندما سافرت إلى نيويورك لزيارة عائلتها، اشترت من أحد معارض بيع العينات الأولى هناك، كل الأغطية والمفارش والمناشف، وشحنتها إلى بوند بوينت. وعندما فتحت تلك الرُّزم فيما بعد، شعرت وكأنها تفتح العلب التي تحتوي على هدايا عيد الميلاد. كانت تستمتع بتلك الوحدة، وبترتيب الأسرّة، وكيّ

أغطية المخدات، ووضع البدلات الصوفية والسراويل المنزلية للبنتين، إضافة إلى الخفّين اللذين يُنتَعَلان داخل المنزل وملابس النوم وملابس السباحة. كان جانب من داخلها يحس كذلك بوزن حسن الطالع هذا، وبهشاشته أيضاً.

ثم، فجأة ومن دون سابق إنذار، أنهى طاقم العمال أعمال التجديد والصيانة تاركين المنزل خاوياً من جديد، ولكن بحُلّة رائعة هذه المرة، بعد أن انتهوا من تمديد الأنابيب النحاسية في القبو وتركيب صنابير المياه وإعادة تلميع أرض المنزل، والانتهاء من تركيب أجهزة المطبخ الرائعة ومن بينها موقد «الطباخ الساحر» المتلألئ. أصبح المنزل جاهزاً بالكامل. هو نفس المنزل، لكنه الآن يبدو مختلفاً تماماً: إنه الآن منزلها الذي هيّئ ليكون مريحاً وجميلاً ونظيفاً من أجل عائلتها. الوقت الآن هو بداية شهر حزيران، يونيو. لم يبقَ ما يمكن القيام به سوى التمتع بمنظر زهور اللّيْلك والتعرف عن كثب على الجيران الذين بدؤوا بفتح منازلهم من أجل قضاء العطلة الصيفية فيها، وتوافدوا زرافات ووحداناً من باب الفضول لإبداء إعجابهم بالمنزل وطرح أسئلتهم العَرَضية العامة؛ أطلق هؤلاء صفير الاستحسان عندما شاهدوا المطبخ بعد ترميمه وإجراء عمليات الصيانة والتجديد فيه وما تضمّنه من خزائن فخمة كان يمكن إغلاقها بلمسة خفيفة، إضافة إلى الثوابت والفرن الجديد.

كم أنجزت من أعمال ضمن هذه الفترة القصيرة جداً! صرخ بعضهم قائلاً بصوت تشوبه الدهشة: «انظروا إلى جنبات الزينة تلك، التي تشبه ثمارها

أكواب شرب الماء؛ نحن غير محظوظين بجنبات الزينة في منازلنا.» قالت إيما في سرّها: إذا كانت جنبات الزينة تنمو في مقاطعة بريتاني، فلماذا لا تنمو هنا أيضاً؟ الطريقة التي تحدث بها الجيران والمدائح التي كالوها للمنزل، جعلتها ترغب في دعوة ويل للقدوم لرؤيته. استحالت ألوان الأعشاب البحرية في الكثبان المطلة على الشاطئ إلى اللون الزمردي، وكان الهواء يرتعش وهو يمر عبر نقائها ونضارتها. كان كل يوم يأتي، أكثر صفاء من اليوم الذي يسبقه، أما الجزر المقابلة التي بدت بعيدة بفعل الضباب الربيعي، فقد أضحت الآن أكثر قرباً من ذي قبل. كان الماء يعكس الضوء مثل بريق الألماس. كانت مستعدة لأن تجلس إلى الأبد وهي تراقب الماء والحركات الخادعة التي يقوم بها، وألوانه التي تتغير من الأزرق إلى الأخضر ثم إلى الفضي، وهي حركات توحي وكأنها ترخي بظلالها السديمية على الكون بأسره. كانت الأيام تمضي، الواحد إثر الآخر، وتتكرر فيها مشاهد الزوارق التي تبحر من أمامها، وأصحاب اليخوت الذين يحتفلون بقدوم الموسم، وصيادو الكركند وهم يلقون بشباكهم؛ باختصار، كان كل شيء هنا يستيقظ من سباته الشتوي. كان الجو مليئاً بعبق براعم شجر التفاح. كان ذلك العبق خفيفاً ولذيذاً ونفّاذاً. استطاعت مقابل 195000 دولار أن تحوّل ذلك المنزل الفيكتوري العتيق القابع على تخوم مقاطعة بوند بوينت إلى ما أصبح عليه، وبالتالي فقد كان يحق لها أن تتباهى بتملك هذه البقعة الرائعة. إنه منزلها. منزلها في ولاية مين.

علّقت فوق الباب الأمامي لوحة بسيطة محفور عليها تاريخ بناء المنزل: سنة 1880.

سألها ويل: «ما الذي كان يجول في خاطرك؟» كان صوته يوحي بأنه يجاهد كي يبدو صبوراً، إلا أن بعض التغضن كان واضحاً على حاجبيه، وكان ذلك مؤشراً على القلق الذي كان ينتابه. تابع قائلاً: «إنه جميل يا عزيزتي ولكن فكّري قليلاً، إن كلفته توازي نصف السلفة التي حصلت عليها تقريباً.»

«لكنك قلتَ إن بإمكاننا القيام بذلك.»

«ظننت أنكِ تعرفين أننا نعاني من بعض الانكماش في نفقاتنا.»

قالت وقد طغت على ملامحها أمارات الاضطراب لأن التأقلم مع واقع مصروف العائلة الجديد لم يكن بالأمر الهيّن: «لقد ذهبت إلى أبعد مدى ممكن في اقتصادي بالنفقات.» لقد كان خفض معدل المصروف هائلاً لدرجة أن العائلة كانت بحاجة إلى وقت طويل كي تعتاد عليه. لم تكن سابقاً تعير أدنى اهتمام لحجم الإنفاق؛ أما الآن، فهي كما أكدت له، فإنها تحسب ألف حساب لكل مبلغ أنفقته صغيراً كان أم كبيراً؛ كما لو أن حساب الحقل ينطبق على حساب البيدر.

«أعرف ذلك يا حبيبتي؛ لكننا الآن بحاجة إلى تغيير في نمط حياتنا. ظننتُ أنك كنتِ تستوعبين ذلك.» كان ويل قلقاً؛ كان أكثر من قَلِق. كان لمثل هذا الإنفاق على المنزل الجديد أن يدفع بهما إلى حافة الإفلاس. ربما كان بإمكانه أن يستوعب هذه الصدمة: مثل ثعبان ابتلع فيلاً؛ لن يكون مثل هذا الأمر سهلاً. ستتقلص ميزانيته الآن أكثر فأكثر. زاح عن صدره بعض الثقل لأن ابنتيه قررتا ألا تتابعا دروس التزلج على الجليد، ولأن إلغاء دروس

تعلم الهندية وفّر لهما وقتاً أطول للتركيز على الدراسة. كما بدأت العائلة بالتفكير بنقل الفتاتين إلى مدرسة حكومية في الجوار لأنها على سوية ممتازة. هذه النقلات في حياتهم كانت كافية لتغطية ما أنفقوه على المنزل. لقد تبين لويل كم تغيرت صورة وضعهم المالي وما آلت إليه، وكيف أن الصورة تلك كانت ما تزال غامضة وغير ملموسة بالنسبة إلى إيما.

قالت وهي تنظر إليه بعينين مقطّبتين كما لو أنها كانت تحاول انتزاع الحقيقة منه ولو بشيء من التردد – ذلك أنها شعرت أنه لا يبوح لها بكل الحقيقة: «نحن لا نعتمد على السلفة التي قبضتها.» كانت غرفة نومهما في الشرفة العُلْوِيّة من شقتهما هي الستارة الخلفية لهذا المشهد؛ كانت ليلة حالكة السواد وكانت الفتاتان تغطّان في نوم عميق، وكانت أصواتهما خافتة. ليس بمقدور أحد الحصول على كل ما يشتهيه.

عند وصولنا لقضاء نهاية أسبوع طويلة مدتها أربعة أيام تصادفت مع حلول عيد الاستقلال في الرابع من شهر تموز، يوليو، كان المنزل قد أصبح مُلْكاً بالكامل للعائلة – تم تثبيت لوحات فنية على الجدار رسمتها الفتاتان، واحتلت ألعابهما مكانها على إحدى الطاولات الصغيرة، أما كتبهما فقد تم وضعها وترتيبها على الرفوف، وعُلّقت معاطفهما وقبعاتهما وواقياتهما المطرية على مشاجب مثبتة على لوحات خشبية حيث كتب اسماهما على كل واحد من تلك المشاجب بأحرف غامقة ملونة. كما علقت مضارب التنس ومناشف السباحة في غرفة الاستحمام الجديدة التي حَوَتْ أنواعاً مختلفة من الصابون المعطر والمراهم والزيوت الخاصة للاستحمام؛ أما الخزائن البرّاقة في المطبخ فقد ملئت بالمنتجات العضوية وكؤوس الشمبانيا وفناجين القهوة

الصغيرة وآلة تحضير قهوة الإسبريسو من ماركة لا بافوني المصنوعة من الكروم الصقيل. كان المنزل صيف السنة الماضية مليئاً بالمواد المستعملة والمؤقتة. لكن النظام الجديد حل محل نظيره القديم مصطحباً معه كل أنواع الأواني والمستلزمات المنزلية من ماركات معروفة ومنظمة بدلاً من الأدوات القديمة والبالية.

قالت إيما مستذكرة أيام الربيع الفائت في معرض روايتها لقصص مرت بها في مرحلة الإشراف على ترميم المنزل وتجديده: «كانت الوحدة التي مررت بها تجربة مترفة.» كنا نسترخي على كراسي شاطئية على حافة الماء تحت فَيْءِ مظلة كبيرة من القنب حمراء اللون، وكانت طيور النورس تحوم حولنا باحثة عن غذائها المكوّن من السرطانات التي كانت تلتقطها بمناقيرها ثم تهشّمها على الصخور. كان البحر في مرحلة الجزر. قالت إيما وهي مستغرقة في التفكير: «هل تتذكرين كيف كان هذا المكان منذ سنة؟ أو منذ أقل من سنة في الواقع.»

كان ويل وثيودور والفتيات يجمعون قنافذ البحر الرملية أو ما تسمى دولارات البحر؛ كان ويل قد اقتطع لنفسه إجازة من عمله طيلة مدة زيارتنا. كان قد اصطحبنا بالطبع في جولة على الاستديو الذي يستعمله كمقر للكتابة في قبو المنزل. كان حينها يضع اللمسات الأخيرة على روايته بعنوان: «لا تقل مُتْ أبداً». كان ينوي نشر الرواية في ربيع سنة 2005، يتبعها الجزء الثاني منها بعد سنة على صدور الجزء الأول. كان ناشر أعمال ويل ليوناردو كافيللي قد حلل العمل تحليلاً رائعاً، ولقد وصفت لنا إيما ذلك بقولها: «لقد فعل ذلك بنفس المهارة التي يستعمل فيها الجراح مشرطه. بالتالي، سوف

تتضاعف الأرباح المترتبة على بيع الكتاب. من المثير للدهشة كيف تتحول رواية واحدة إلى رواية من جزأين بمثل هذه السهولة.» على طاولة المكتب، كان هناك حامل أقلام رصاص بحجم الكأس مصنوع في تايلاند. كانت الغرفة ملأى بحقائب من الكتب؛ كانت تضم مكتبة ويل الصيفية كما وصفتها إيما – طبعاً لم يكن من بينها أية كتب نفيسة. كان على مكتبه رف طويل وضع عليه مخطوطه (الذي أشّرَ عليه باللون الأحمر) ونسخة ذات غلاف عادي من رواية : «أيها الملاك. تطلّع باتجاه الوطن[45]» التي قرأها ويل على ما أتصور من قبل، لكنه يعيد قراءتها الآن كي يتمكن من إجراء مقارنة بين روايته ورواية فيرجينيا وولف. بينما كنت أجيل بصري في أركان طاولة المكتب، انتابني شعور مفاجئ بأن هذا المشهد مألوف وغريب في الوقت ذاته، كان مزيجاً من التصوف والوحدة، كما لم تكن ذرة واحدة من كياني تحنُّ إلى ذلك المزيج الممتع، أو تشعر بالحسد أو الغيرة من ويل لأنه كان يقوم بحساباته بكل دقة ويكون دائماً مصيباً في توقعاته، ولدقة استيعابه للكيفية التي بواسطتها يستطيع أن ينظم ميزانيته، ومع ذلك يعيش في بحبوحة. لكنني عرفت أيضاً بحكم خبرتي وتجربتي أن المراقب من الخارج الذي ينظر إلى الداخل ليست لديه فكرة حقيقية عما هو مخبأ تحت تلك المظاهر البرّاقة التي قد تكون خادعة أحياناً.

كان يظهر إحساسه بالفَخار بشكل خجول، إلا أنه كان مع ذلك يتفاخر بما حققه من خلال ابتسامة عريضة فيها مسحة طفولية تعبّر عن استمتاعه بوجوده في ولاية مين وبالتجديد الذي أجْرَتْه زوجته على المنزل، وبروايته

45- Homeward Angel رواية السيرة الذاتية (1929) للكاتب الأمريكي توماس وولف

وبعلاقته الوطيدة مع كافيللي، وبعملية النشر نفسها ودعوات الغداء التي تستغرق وقتاً طويلاً ويتخللها احتساء الخمر، وبالشعور بالمجازفة التي توازن بين الكَرَم وبين حُسْنِ الطالع الذي أغدقته الحياة عليه: أعني بذلك ابنتيه الذكيتين والأنيقتيْ المظهر، وزوجته الجميلة الموهوبة التي كما أعلن لاحقاً، تفكر في اتّباع دورة في التصميم الداخلي.

من ناحيتي، لم ألحظْ عليهم أية أمارة من أمارات التغيير فرضتها ظروفهم المادية الجديدة، على الأقل من ناحية المظهر. كنت أتوقع مثل هذا التغيير على أية حال، وأعني بذلك على الأقل، وجود لمسة من لمسات الخلاعة التي يتفرد بها بعض الفنانين، لكن ذلك لم يحصل. إذ لم يمضِ على حدوث ذلك التغيير في حياتهم وقت طويل، وهم حسب ما أرى، لم يخضعوا لمثل هذا الامتحان بعد. بالمناسبة، إلى أي مدى كنت أنا مختلفة عنهم؟ كنت ما أزال أدوّن ملاحظات في الدفتر الصغير الذي أحتفظ به في حقيبة يدي، مسجلة كل التفصيلات التي أمر بها كما كنت أفعل دائماً، لصالح المشروع الذي كنت وما زلت ألهث وراء تحقيقه، والذي أشعر أنه لا بد أن يتحقق يوماً ما. عندما كنا نجلس إلى مائدة العشاء في الليلة السابقة على الشرفة على ضوء الشموع التي تنفث رائحة معطرة لدفع البعوض بعيداً عنا، كان ويل يمارس دور المضيف الجواد والسعيد باستخدام كافة الأدوات والتجهيزات المطلوبة لتحضير العشاء التي تمثل آخر نجاحاته وأعني بها شراء هذا المنزل بالطبع (منقل الشواء المتصل بخط الغاز الخاص به من أجل إيقاد النار والمَهَزّتيْن الخشبيتين اللتين تستند إليهما أسياخ الشواء). بدأت تلمع في الجو الحالك

الظلام المفرقعات والألعاب النارية التي لم يكن مسموح بها قانونياً؛ كانت تُطلق فوق مياه المحيط مسلطة الضوء على حشد من الأشخاص المتحلّقين حول عدد من النيران التي أضرمت في الهواء الطلق وحولت الشاطئ إلى نقاط مشتعلة متناثرة، كما لو أن النار أضرمت في أكوام متباعدة من القش. تحول الحديث باتجاهي، وتناولَ بالتحديد مسألة انضمامي إلى شركة بي أند بي، وهي فكرة كان ما يزال يقاومها بشدة لأنه كان يعتبر أن إقلاعي عن الكتابة مردّه إلى أنني كنت ألهث وراء المال وحسب. كان ضوء الشموع يتناثر فوق أجزاء صغيرة من وجهه بشكل اعتباطي عندما بدأ بمحاصرتي من خلال أسئلة وجّهها إلي حول تجار السندات والأسهم، وحول وين، وكذلك حول تغيير المهنة.

قلت: «أنت تعلم أن الطاقة التي تعتمل في داخل المرء مثيرة ومتوثبة؛ لقد أمضيتُ جلَّ حياتي كشخص ناضج وأنا أعمل جالسة لوحدي إلى طاولة المكتب لا يشاطرني فيها أحد أو شيء سوى مخيلتي. لم أكن أعرف ما الذي يعنيه أن تعمل بالاشتراك مع الآخرين.»

«وماذا عن الكتابة؟»

«لم أعد أفكر بعقلية الكاتب مطلقاً.»

«كيف يفكر الكاتب؟»

«بالله عليك! أنا، كما تعلم، لا أتفرّس فيما وراء الوجوه كي أخمّن طبيعة القصة أو ماهيتها. توقفت من زمن عن القيام بمثل هذه الأشياء.» لم يكن

ما قلته صحيحاً، لكن كان عليّ أن أجعله يبدو كذلك.

قال ويل: «هذه استعارة لفظية يصعب على من هم مثلي استيعابها أو تصديق ما تقولينه.»

«أنا أركز تفكيري على ما يحدث في السوق، وكيف هي الأحوال فيها.»

سأل ويل متجهاً صوب ثيودور: «هل هذا صحيح؟»

أجاب: «أعتقد أنها تؤمن بذلك. فأحاديثنا هذه الأيام مختلفة عما كانت عليه في السابق بالتأكيد. فأنا أسمع الآن الكثير عن أخبار السوق.»

«وماذا عن السوق؟»

قلت: «مجنونة، مثيرة؛ لا أستطيع أن أقارنها بأي شيء آخر أعرفه.» تبين لي أيضاً أنه لم يتوفر لي الحد الأدنى من الوقت كي أفكر بالفوارق الدقيقة بين الناس، أو الشخصيات، كما كنت أفعل سابقاً.

قال ويل مُوضِحاً ما يجول في خاطره: «الحقيقة هي أن هذه قصة جديرة بالمشاهدة، ولو التزمتِ بها فسيكون موقعكِ في الصف الأول. أعني بذلك أن تجزيء الحلم الأمريكي بما يتضمن ذلك من مقامرةٍ به وفرمٍ له، يشبه الإمساك بقطعة من اللحم وطحنها وتحويلها إلى قطعة هامبرغر، ثم شحنها إلى شركات التأمين الأوروبية، وصندوق تكساس المالي المتخصص في الحد من الخسائر، ومصرف الصين المركزي. هذه هي منازلنا، ومنازل جيراننا. هذه الرهانات العقارية الغربية سوف يحل وقت سدادها قريباً، ويتوجب على

أحدهم دفع فاتورتها؛ أنا لا أتحدث عن أعداد محدودة من هذه الرهانات؛ لذا يمكنك أن تتصوري عامل التموج والنتائج المترتبة عليه.»

قلت وأنا أحاول استفزازه: «لا أظن أنك تفتقد حياتك القديمة أو تحنّ إليها.» كان ينتابه الفضول، وكان يتمنى أن يخوض غمار هذا الحديث معي ليعرف فيما إذا كنت قد حشرت في زاوية حول هذه النقطة تحديداً — هل بإمكاني الخوض في غمار هذا النوع من الكلام؟ شعرت أن في داخله إنساناً يهيج به الحنين إلى تلك الفكرة المنسية التي أُلقِيَ بها على شاطئ الماضي وضاعت بعدها. كان المصرفي في داخله يطل خلسة من داخل جلباب الفنان الذي يرتديه، ويتوق إلى الخروج من قمقمه.

قال ثيودور: «لم أشعر يوماً أنني منجذب إلى عالم سوق الرهانات العقارية، لكن ما يثير دهشتي هو مقياس هذا العالم. أنا أتحدث هنا عن لوحة زيتية هائلة الحجم.»

هنا، سألت إيما ويل: «ولكن يا عزيزي ألسنا نحن مشتركين في واحد من برامج إعادة جدولة أقساط الرهان العقاري كذلك؟ ماذا أطلقتَ عليه من تسمية؟ برنامج أ 2 و 28، أو شيء من هذا القبيل؟»

«أجل، يا عزيزتي، ولكننا لسنا أغبياء. إن الآخرين هم الذين لا يعرفون أن ذلك سيودي بهم إلى مهاوي الإفلاس.»

أحسست بشيء من الصدمة؛ كان ذلك ناجماً عن الكشف عن شقٌّ صغير في جدار وضعهم المالي، ما سمح لي بالكاد أن أسترق النظر إلى ما

يجري في الداخل. ما اكتشفته يوحي بأنه يراهن أنه خلال سنتين من الآن، سوف يحصل على مبلغ وفير من المال يسمح له إعادة كتابة مفهوم الرهان العقاري بشكل إيجابي. قضمت شفتي وامتنعت عن التعليق عما سمعته للتو.

سألني ويل فجأة: «هل تقومين بذلك من أجل المال فعلاً؟»

نهرته إيما قائلة: «ويل!» كان واضحاً أن رنّة صوتها المعنّفة تشير إلى أنهما تحدثا في هذا الموضوع قبلاً، وأنها طلبت إليه أن يتعهد بعدم الخوض في الحديث عن المسار الذي اخترت السير فيه. لكنني لم أمانع في سماع مثل ذلك السؤال. فقد كنا أصدقاء حميمين، وكان سؤاله من باب الفضول ليس إلا. كنت أعي ذلك جيداً.

قلت لويل وأنا أغمزه بطرف عيني: «لم تكن تنظر بازدراء إلى المال منذ بضع سنين.» حرّكت يدي بعد ذلك بشكل دائري شملت أرجاء الشرفة التي كنا نجلس فيها من أجل الإحاطة بكل جوانب المنزل. ربما كان بإمكاني الإسهاب أو الاستفاضة في شرح ما كنت أرمي إليه: عبء الديْن القاتل في بحر من الثروة من حولي؛ كان ذلك هو ما دفعني إلى التخلي عن ذاتي القديمة وعن موهبتي. ربما كان باستطاعتي التحدث بنفس اللغة التي تحدّثَ فيها ثيودور إلي حول نزوع الفنان باتجاه العمل في المجال التجاري. لكنني لم أشعر أنني بحاجة كي أبرر لأيٍّ كان ما قمت به من تحوّل. أردت أن أسأله: لو كنتُ رجلاً، هل كنتَ ستطرح علامات استفهام حول خياري؟

حينئذ، شاهدنا فجأة مناظر أخّاذة للألعاب النارية الواحد إثر الآخر

بألوان متعددة كالأحمر والأبيض والأزرق؛ تذكرت عندما كنت طفلة صغيرة كيف أن أبي كان يضعني في حضنه أثناء العرض الاحتفالي في بلدتنا في ذكرى الرابع من شهر تموز، يوليو، وماذا كان يقول عند وصول الاحتفال إلى مرحلة معينة: كان يقول، «العرض الختامي الكبير». كنت أحب سماع تلك الكلمات تخرج من فمه. كانت لتلك الكلمات نكهة خاصة، وكانت تنضح بالمعرفة والحكمة، وترتقي بتلك اللحظات الأخيرة من الاحتفال التي تعج بالتكرار الرائع لإطلاق المفرقعات وأصوات انفجارها إلى مرتبة رفيعة من مراتب الحقيقة. لقد كان للعرض الأخّاذ والهاوي وغير القانوني للألعاب النارية الذي يحدث الآن نفس التأثير والروعة.

عندما انتهى العرض الاحتفالي جاء دور ثيودور لتغيير وجهة مادة الحديث؛ حيث سال إيما عن الكيفية التي قضت فيها فصل الربيع، وهل بإمكانها تَحَمّلُ البقاء في هذا المكان طيلة السنة. «أبداً.» قصّت علينا إيما حكايات شتى عن السكان المحليين؛ تحدثت عن الأصابع المقطوعة ولصوص الكركند ومهربي الخمور بواسطة السفن، كما روت لنا تلك الحكاية المرعبة عن امرأة تقطعت أوصالها إرباً، إرباً بواسطة أحد الزوارق المزودة بمحرك آلي – كانت مثل تلك القصص التي تروي حكايات عن الأشخاص الذين تتمنى التعرف بهم هي المفضلة لديها.

قال ثيودور: «لا عجب في أنك تحبين هذا المكان.»

عندما كنا نسير بمحاذاة الشاطئ في اليوم التالي وكانت أشعة الشمس تضفي عليّ إحساساً بالدفء المترافق مع بعض الرذاذ الذي ينثره البحر

فوق وجهي، تذكرت الطائرة الصفراء التي انقضّت يوماً باتجاهنا من أعالي السماء. هبّتْ ريح خفيفة فوق سطح مياه البحر في الوقت الذي قفزت من الماء سمكة هائلة الحجم فجأة في الهواء، تبعتها أخرى بجسم مشدود فضي اللون. ركضت الفتيات باتجاهنا وهنّ يحاولن أن يصِفْنَ لنا حيوانات الفقمة التي رأيْنَها. كان عددها يربو على العشرين وكانت تسترخي تحت أشعة الشمس على صخور جزيرة فوكس. كانت يد روبي ملأى بالعديد من دولارات الرمل، وكانت غوينيث تحاول إقناع روبي بأن تلك ليست دولارات حقيقية ما جعل هذه الأخيرة تتبرم وتشتكي منها. قبّلت كاثرين وإليزابيث أمهما وركضتا باتجاه البحر حيث رمتا بنفسيهما في مياه خليج مين الباردة بكثير من السهولة والتلقائية. تبعتهما ابنتاي اللتان رمتا بنفسيهما أيضاً في المياه.

أحبت الفتيات هذا المكان كثيراً. فقد كنَّ يشعرن بالحرية في التجول حيث شئن لاكتشاف المكان. ليس بعيداً عن الفتيات، كان هناك جذع شجرة عملاق يطفو فوق الأمواج. كان المدّ يدفع به باتجاه الشاطئ، وكانت إيما تحثنا على التجمع بمساعدة بعض الجيران كي نسحبه إلى منطقة الكثبان بحيث يصبح جزءاً من البوابة التي كانت تبنيها، والتي نوت أن تجعلها بمثابة نقطة علّام تحدد مدخل منزلها. قالت لي إن ذلك جهد لا طائل من ورائه، وأن عليهم تكراره في السنة التالية لأن العواصف الشتوية سوف تجرف ذلك الجذع بعيداً. إلا أنها كانت تحب تكرار هذه التجربة التي اعتبرتها بمثابة التمرين — سوف يتحول هذه التمرين إلى طقس سنوي، وسيكون تكراره علامة على بدء فصل الصيف، وهو ما يشير إلى التواتر الأزلي للزمن على

امتداد الأسابيع والأشهر والسنين.

سألتْ إيما: «بعد أن تربحي الرهان، هل تعتقدين أنك ستستمرين في العمل لدى شركة بي أند بي؟»

«من قال إنني سأربح الرهان؟»

«سوف تربحين الرهان بالتأكيد.»

قلت: «لم يتم اختباري بعد.» تذكّرتُ عشاء الليلة الفائتة والحديث عن الرهانات العقارية الغريبة؛ نظرت إلى إيما الآن متسائلة فيما إذا كنت سأرى أي صدع أو فجّ في حياتها لأنني أعرف أنه كما يمكن أن يحدث في الحياة الزوجية، فإننا لن نعرف أبداً حقيقة الوضع المادي للناس مهما حاولوا أن يُظهِروا منه. شعرت وأنا أراقبها مُحاوِلة أن أقرأ ما هو مكتوب خلف ما تُظهِرُه بأنني قريبة جداً من جميع أولئك الذين أشبعوني دراسة وتمحيصاً عندما كنت أعمل في مجال الفن، في محاولة منهم لفهم ما نفعله أنا وثيودور، وكيف نؤمّن مصادر رزقنا ومعيشتنا.

سألتني إيما: «هل تشتاقين إلى الكتابة؟» كانت تعرف أنها تكرر الحديث الذي دار ليلة البارحة، لكنها كانت تريد أن تعرف المزيد عن هذا الموضوع. لم يكن سؤالها يتعلق بي أو بالكتابة بحد ذاتها. كان هناك شيء ما، فيها يَسِمُها بالطيبة والسذاجة؛ وهو شيء لم يسبق لي أن لحظته فيها من قبل.

«صدّقيني، ليس لديّ وقت كي أشتاق إليها. أحب هذا الشعور — أعني أنه لا يوجد وقت كاف لكي أفكر بأي شيء يمكن أن يثير قلقي.»

نظرت إليّ إيما نظرة فيها الكثير من الأسئلة؛ نظرة توحي بأن ويل لم يملأ الوقت الذي يخصصه للكتابة بالقلق – أو، لو فعل ذلك فإنه لم يشاطرها أيّاً من تلك اللحظات القلقة. كانت تلك النظرة توحي أيضاً بأنها بدأت تفهم جانباً جديداً في شخصيتي، بدت وكأنها تتعاطف معي؛ فقد تكشَّفَتْ لها طبقة جديدة في شخصيتي. تبين لها أنها لم تكن تعرف أن عالم الكتابة لا أثر فيه لأية فتنة أو جاذبية. ربما بدوتُ لها حينها متماسكة ومتزنة، وربما كانت منظومة حياتي تعمل كما أردت لها أن تظهر للعيان – أعني بذلك الآلية التي تجعل من حياة الفنان ممكنة ظاهرياً على الصعيد الاجتماعي. ولكن في ضوء هذا، وكما هي الحال في القماش المصنوع من الحرير الصيني، فقد كشف تدرج الألوان عن ظلال خبيئة أخرى.

سألتني: «هل قصدتِ وين لأنك كنت قلقة بشأن ... المال؟»

حاولت تجاهل السؤال بضحكة أطلقتُها، لكنها أصرّت على سؤالها وكانت عيناها مثبتتيْن عليّ. لأول مرة منذ أن توطدت علاقتنا لاحظت خيوطاً واهية مبعثها القلق تظهر على قسمات وجهها، أم أنني كنت أتخيل ذلك؟ فقد كانت إيما تعطي الانطباع بأنها تحصل على كل ما تريده بالضبط حتى بعد حدوث ذلك التغيير الهائل في حياة زوجها المهنية. كانت تقف بحجمها الضئيل يلفها رداء وَبَرِيٌّ مخصص لشاطئ البحر أمام ذلك المنزل الريفي الفخم المبني منذ العصر الفيكتوري الذي ينتصب خلفها مثل ستارة خلفية. كانت هي الملكة الحاكمة لهذا المكان. وسواء كان هذا المنزل كرتونياً أم لا، وبغض النظر عن حقيقة أنه مرهون عقارياً، فهو مُلكها. لقد أمضت الربيع بأكمله وهي تحوّل هذا المنزل إلى ما آل إليه الآن، وإلى ما أرادت له

أن يكون. كان بإمكاني رؤية ما كان يحدث حينها، كما رأيته على أرض الواقع في وقت لاحق. لقد تبين لي أنها ذلك الشخص الذي يخرج من أية معمعة يخوضها منتصراً مرفوع الرأس حتى عندما يعاني من الخسارة ويواجه التحدي – تبين لي أنها دائماً ما تقوم بفعل ما هو صائب لها ولعائلتها.

أجبتها: «أنا أعشق التحدي.» مرَّ في خاطري طيف رادالبينو، والمقابلة التي أجراها لي، وطلبه مني أن أحدد المبلغ الذي أود أن أتقاضاه لقاء عملي معه – أي إلى أي مدى كنت أحب المال.

قالت: «أظن أنك أظهرتِ شجاعة استثنائية، فأنا أستطيع تخيل حجم الضغط الذي كنتِ تعانين منه.» أردفت قائلة فجأة ومن دون مقدمات: «لقد أنفقت مبلغاً كبيراً على تجديد المنزل وترميمه. لقد استشاط ويل غضباً على طريقته، لعدة أيام، لكن الأمور بيننا عادت إلى سابق عهدها. دائماً ما تؤول الأمور بيننا هكذا.» أشارت بعد ذلك بيدها صوب الجزيرة التي تطفو قبالة الشاطئ من دون أن تترك لي فسحة من الوقت كي أعلّق على ما قالته. ذكرت لي أنه في ستينيات القرن العشرين، كانت تلك الجزيرة معروضة للبيع مقابل ثلاثة آلاف دولار. كان لبرِّ الجزيرة شاطئ يبدو مرتفعاً عند حدوث الجَزْر إضافة إلى صف طويل من شجر الصنوبر يحميها من أمواج المحيط. أصبح سعرها الآن يربو على مليونيْ دولار.

قالت إيما: «عندما تجمعين مبلغاً كبيراً من المال، أريد منك أن تبتاعي هذه الجزيرة، أريد أن يكون منزلي ومنزلك متقابليْن، وأريد لبناتنا أن يجدّفن القوارب من الجزيرة وإليها.» كانت الإشارة من قِبَلها إلى الارتفاع الكبير

في السعر – سعر الجزيرة التي يفترض أنها ستصبح يوماً ما، ملكاً لي بحيث يمكن أن نكون جارتيْن – يعني بأسلوبها الخاص كيف تسير الأمور هنا: أي أن الحقيقة التي لا مفرّ منها الآن، تكمن في أنه بعد تجديد المنزل وإصلاحه، سوف يرتفع سعره كثيراً في المستقبل.

كان بإمكاني تصور ذلك الحلم: حُلْمُ أن يكون منزلي مقابلاً لمنزلها. أطل أحد ذكور الفقمة برأسه من بين الصخور ليس بعيداً عن الشاطئ، كما قفزت سمكة في الهواء. كان قعر البحر العميق الغور الأزرق والمائل إلى الخضرة يومض بشكل خافت ويبعث بالزبد إلى سطح الماء، وكانت أمواجه تلتف حول نفسها وتتكسر أمام أقدام الفتيات اللواتي كن يضحكن ويتسابقن وهن يحملن دلاء من الرمال من أجل بناء قلاعهن في ضوء عصر ذلك اليوم الصافي.

الفصل الخامس عشر

ينقسم عالم الرهن العقاري إلى ثلاث مناطق: وكالات الرهن العقاري، والرهانات العقارية المكفولة، والرهانات العقارية غير المكفولة. تعتبر الرهانات العقارية جزءاً من الدخول الثابتة التي تشكل قسم أسواق رأس المال عندما تُضَمُّ إليها الأسهم العادية والخدمات الرئيسية. كان عملي محصوراً في مجال الوكالات والضمانات المدعومة من الرهن العقاري وهي أكثر أنواع سندات الرهن العقاري شيوعاً، إضافة إلى الرهانات العقارية المكفولة من قبل الوكالة، والمدعومة من قبل المضاربين في بورصة القروض المنزلية التي يتقدم للحصول عليها أشخاص من ذوي الدخول الثابتة والمحدودة. ليس هناك شيء استثنائي في طبيعة عملي الجديد، أو أية مخاطرة تذكر.

لم تكن الرهانات العقارية التي كلفت بالإشراف عليها من النوع الذي يوفر الفرصة لشراء شقق فخمة في مدينة نيويورك أو المنازل الريفية الفاخرة المعدة للاصطياف في ولاية مين التي يبلغ ثمن الواحد منها ما يربو على مليون دولار. لم يكن حجم هذه الرهانات يتجاوز سنة 2004 مبلغ 417000 دولار. كان مكتبي الذي يعمل فيه ستة من الباعة يشرف على سندات لصالح شركات فاني وفريدي وجيني ماي وهي سندات ذات معدلات فائدة ثابتة تتراوح فترة سدادها بين خمس عشرة سنة وثلاثين سنة. كان مكتبي يتعامل مع من يخططون لإقامة الأسواق، وكذلك مع التجار من مالكي العقارات؛ لكن مجال عملنا كان يركز في المقام الأول على الفئة الأولى وذلك من أجل توفير السيولة المطلوبة لصالح قاعدة شركة العميل

المؤسساتية. ولكن كان هناك أيضاً مبلغ معين موجود في حساب خاص، إضافة إلى رأسمال لتغطية الأخطار مرتبط بطبيعة العمل الذي أشرف عليه، والذي حاولت أن أكسب أرباحاً من خلاله لصالح القطاع الذي أعمل فيه وكذلك من خلال المنتجات التي يمكن أن تشكل تعويضاً لأية خسارة محتملة (من بينها الأموال، وما يتم التداول فيه مستقبلاً، وصندوق التمويل الفدرالي للبضائع التي يتم التداول فيها مستقبلاً، واليورودولار). كنا ستة أشخاص نعمل في هذا المكتب ونتداول في ثلاثة مجالات. كنا نعقد مابين ثلاثمائة وثمانمائة صفقة تجارية في اليوم الواحد.

كانت انطلاقتي في العمل متواضعة حيث بدأت بالاتّجار بمواد كانت نسبة احتمال الخسارة فيها محدودة جداً، وهو ما ساعدني على البدء بداية صحيحة. مع ذلك، فإن ارتكاب خطأ بسيط قد يعرّض صاحبه لخسارة كبيرة، والأسوأ من ذلك، أن يكون هذا الخطأ في التعامل مع الزبون. استغرق مني استيعاب كل هذه الأمور حوالي ستة أشهر. تعلمت لغة المهنة، والأهم من ذلك أمضيت جلّ تلك الفترة وأنا أراقب كيفية سير العمل. في نهاية المطاف، توصلت إلى نتيجة مفادها أنه لا يمكن تعلم أيّ جزء من الأجزاء الهامة في طبيعة هذا العمل، تماماً كالكتابة الرفيعة المستوى التي لا يمكن لأحد أن يزعم أن بإمكانه تعليمها. كانت محاولة تعلّم هذا العمل أكثر مدعاة للحيرة من محاولة تعلم كيف يمكن لأحد أن يصبح بائع كتب، على سبيل المثال، لأن من أهم متطلبات القيام بمثل هذا العمل الدقة وتفهّم مدى استعداد الناس لشراء السندات مقابل معدلات فائدة مقبولة لديهم، وتوليف صفقات حديثة من أجل تثبيت قيمة سوقية لها، والإطلاع على آلية عمل السوق؛

وبالطبع، التعرف على اللاعبين وبناء علاقات معهم؛ ومن ثم، تطويرها. بناء العلاقات كان يستغرق وقتاً أطول.

من ضمن المخطط الذي قام وين بتصميمه، واعتماداً منه على معارفه وسرعة البديهة التي راهن على أنها إحدى سمات شخصيتي، كان يريد أن يرى قفزة لافتة للنظر. أرادني أن أنتقل من دخل لا يتجاوز 150000دولار سنوياً إلى مبلغ لا يقل عن مليون دولار. كان يعلم أنني سأواجه بعض الصعوبات: أولاً، كانت هناك عقبة التعلم التي عليّ أن أجتازها وكانت أشبه بالانعطافة الحادة؛ وهناك أيضاً الأشخاص الذين سيقفون ضدي لأنني جئت من عالم آخر مقتحمةً عالمهم. فبالنسبة إليهم، كنت لا أنتمي إلى ذلك المكان، إضافة إلى أنني لم أتسلق سلم العمل درجة، درجة. كنت أنا الكاتبة الروائية، كنت اللعبة، وكنت أمثل كذلك الرهان الأخير، فربما لم يكن الجميع يرغب في رؤية وين يكسب الرهان. كان التحدي يتمثل في تحويلي إلى تاجرة متمرسة خلال ثمانية عشر شهراً. ما لم أفهمه حينها هو أن الرهان لن يتوقف عند ذلك الحد، بل سيستمر؛ سوف يزيد وين من قيمة رهانه عليّ إذا كان أدائي مُرْضياً بالنسبة إليه، وكما يتوقع خلال السنة الأولى.

وصلت إلى حيث أرادني وين أن أصل في مدة لم تتجاوز ثمانية أشهر حيث تبوأت في المكتب موقعاً أعلى من موقع المحلل، لكنه كان في المرتبة الدنيا بين مراتب المساعدين، وكان قد اقترب كثيراً من النقطة التي سوف تكسبه الرهان. كنت قد بدأت الولوج إلى داخل هذا العالم عندما حدث ما يشبه الجنون في عالم التجارة والأسعار، وهو ما ساعدني في شق طريقي باتجاه الأعلى على سلم التجارة. كان حدّي التجاري متواضعاً في البداية، ولكن

بحلول شهر تشرين الأول، أكتوبر، وصلت إلى نقطة ال250000 دولار، ما يعني أنه أصبح بإمكاني أن أتاجر بصفقات يصل حد الخسائر فيها إلى هذا المبلغ، لأن مبلغ 250000 دولار يعتبر خسارة مهمة حتى في مؤسسة تبلغ قيمتها السوقية مليارات الدولارات، ويمكن أن تصل أرباحها إلى مبالغ مشابهة.

لكي أنخرط في جو العمل بشكل فاعل، وجّهني وين كي أظهر «بمظهر الشباب». لم يشأ أن يراني وأنا أهتم بالزوج أو البنتين، كما لم يرغب في أن أضع صور أفراد عائلتي على طاولة المكتب، أو أنخرط في أحاديث حول مباريات كرة القدم في نهاية الأسبوع أو رياضة اللاكروس، أو دروس الباليه، أو التقارير المدرسية أو تذمر مربية الأطفال. وهكذا فقد طلبت من أبريل أن تهتم كلياً بشؤون المنزل، وكانت هي بالفعل من تدير لنا شؤون حياتنا اليومية، لكن الأمر الآن أصبح بشكل رسمي، مضافاً إليه علاوة في الراتب الذي تتقاضاه. كانت هي المسؤولة عن كافة الدروس، وأوقات اللهو والتسلية، ومواعيد كتابة الوظائف اليومية، وتَسَوّق أغراض المنزل، ومواعيد زيارات الأطباء في عياداتهم، إلخ، إلخ. كنت كريمة معها، وتلك كانت واحدة من مزايا الوظيفة الجديدة التي كنت أستمتع بها أيما استمتاع. قالت لي أبريل التي كانت سعيدة بالتغيير الذي طرأ على حياتي: «صلّيت من أجلك، أصلي لك كل ليلة، وعلّمتُ ابنتيك أن تصليا أيضاً.» من المدهش السرعة التي كنا نتأقلم فيها مع حياتنا الجديدة. ظننت أنني سوف أشتاق إلى البنتين وأنني لن أطيق قضاء وقت طويل بعيدة عنهما. لكن غيابي ترك فراغاً ملأه ثيودور، ووجدنا أنفسنا مستقرّين تماماً ومتأقلمين مع أوضاعنا الجديدة.

الظهور بمظهر الشباب يعني أن أبقى يقظة ونَهِمَة. فقط الأشياء التي تستثير في الرغبة في التنافس والفوز هي ما تنتمي إلى مكتبي: على سبيل المثال، صلصة الفلفل الحار من بيليز التي جلبتها كاثي بارك بعد عطلة أمضتها هناك، كانت تذكّرني أن السرعة هي مقياس النجاح؛ كان هناك أيضاً مجسّمٌ لسيارة جاغوار، وصورة لفرقة رولينغ ستون من أيام فرقة أو «الأصابع الدّبِقة»[46]؛ وكانت هناك أيضاً سيارة سباق، وزوج من الثقّابات. كان سنيك يحتفظ بمسحوق الكاري وضعته له أمه في مرطبان زجاجي صغير. وكان ماكسي يحتفظ بقلم رصاص منحوت عليه رسم لحصان السباق المفضل لديه (قبل أن يتم نقل ماكسي إلى موقع جديد وأحتل أنا مكتبه). أما تايغر، فكانت على مكتبه صورة لصديقته في ثوب سباحة من نوع البيكيني وهي تحدق فيه مباشرة وتغمز بعينها بغنج. وأما جوش فكان يضع صورة لنجميه السينمائيين المفضلين كلينت الذي يلوح بأنشوطة في يده وأمامه وينونا اللص، لأنه كانت تستهويه فكرة الهروب وجمالية الحصول على فرص جديدة. وهناك أيضاً، سام الذي كان يضع مجسّماً فضياً لمضرب يستعمل في رياضة اللاكروس أهداه إياه أبوه قبل أن يتوفى بسكتة قلبية في سبعينيات القرن العشرين. كان سام أيضاً يحمل معه شارة أبيه التي كان يبرزها لرجل الشرطة الذي كان يوقفه عند تجاوزه حدود السرعة. وأخيراً، غاس، الشاب الكوري الذي كان يُبرِز على مكتبه رسومات ومعادلات مكتوبة بخط يده الأنيق وملصقة على حواف أجهزة المراقبة أمامه: وكانت تمثل نماذج من استمارات الدفع المسبق للفواتير، ونماذج لتكاليف الضمانات المدعومة من الرهن العقاري، وترتيبات ضمانات الشيخوخة، والملفات السميكة لخبراء مركز أبحاث الأنظمة الحديثة.

Sticky Fingers - 46

كان ذلك المشهد مثيراً؛ فهناك غاس المحلل الذي ينخرط في عمله بمنتهى الجدية؛ ويقضي ساعات عمل طوال؛ أطول بكثير من جميع أقرانه في الشركة خلال نهاية الأسبوع. أما أنا فكانت على مكتبي صور، لبيوت وفنادق تملكها بعض الشركات الاحتكارية.

سألني وين عما أريد، وإلى أي مدى أنا بحاجة للحصول عليه. سألني: «ليس هناك من طريقة أخرى لطرح مثل هذا السؤال، لذا فإنني سأطرحه عليك مباشرة. ما الذي سيجعلك متماسكة و«منتصبة» دائماً؟ أو ما يعادل ذلك.»

ابتسمت وأنا أرمي جوابي في وجهه: «الرخاوة؟» (قال لي سنيك: «هذا ما يحبه في شخصيتك. فأنتِ تقولين له في وجهه: اذهب إلى الجحيم»).

«كلا، ما يميزك هو أنه لا يمكن انتهاكك. أهلاً بك في عالم الرجال.»

كان ذلك أشبه بموقف غريب الأطوار تشوبه مسحة من الغضب، ويتعلق بالمال والمجازفة والتسارع المطّرد وديمومة اللحظة التي تكون فيها المراهنة هي الحاضر الدائم؛ إذ ما المغزى من وجود صالة للبيع إذا لم تكن عبارة عن كازينو منظم (وممأسس) أيضاً، أي بيئة أو محيط يتم فيه تحويل الرغبة العشوائية إلى شيء يمكن التداول به أو مقايضته، ثم إلى مادة، وبعدها إلى شهادات، ثم إلى كوبونات، ثم إلى بضاعة، وأخيراً إلى ربح مالي صرف؟ «ربما يكون هذا اليوم هو اليوم المنشود». هذه العبارة تجدها مكتوبة داخل كافة عربات القطارات التي تمر في محطة «بن ستيشن». لم أكن معصومة عن مثل هذه الرغبة: فقد أردت أن يكون لي قصر يشبه قصر إيزابيلا باور. أردت أن أتذمر من حقيقة

أن المرآة التي ابتعتُها لم يكن من الممكن إيلاجها عبر الباب – أو على الأقل أن أكون قادرة على مثل ذلك التذمر لو قُيِّضَ لي ذلك. أردت أن أكون جزءاً من الحديث الذي يتناول نيويورك وأمريكا. فقد قال رئيسنا ذات مرة: «إذا امتلكتَ الرغبة في أن تقتني شيئاً، فإنك عندها ستساهم مساهمة فعالة في صنع مستقبل بلدنا.» ألم نكن جميعاً، أو على الأقل 70 بالمائة منا جزءاً من هذه الأسطورة؟ وهكذا فقد شعرت بأنني أنتقل من خانة الأماني إلى خانة الفعل الدلالي. أردت أن أُظهِرَ أيضاً – أو أثبت – أنني قادرة على العمل بمنتهى الجد، لساعات طوال في مكتب، مثلي مثل جميع أولئك الأشخاص، وأستنبط الوسائل التي تساعدني في تحقيق كل ما أصبو إليه.

المسألة لم تعد إذاً مسألة «لو»، بل «متى». هذا هو الثقل الذي كان وين قد رمى إليه بسؤاله ذاك. كان المرء بحاجة إلى عباءة أو تعويذة من نوع ما. الكلمة المفتاح هي «متى»، أو الغموض المرتبط بكلمة «متى». إنها لحظة الوصول إلى التماهي مع الحافز ومع قوة الدافع والديمومة؛ هي القوة الدافعة. إنها الزخم. إنها ما تُدِبُّ الحياة في صالة البيع – وتضعها على الطريق الصحيحة. فالأرباح والخسائر تُسَجَّلُ هنا بالأسود والأبيض، ويقاس مدى النجاح بمنتهى الموضوعية.

بدأ اسمي يلمع بحلول سنة 2004 بصفتي مساعدة لوين – بالرغم من أنني لم أكن قد اختُبِرتُ بعد. كانت الرغبة التي تتملكني بمثابة الضوء المسلط عليّ. فقد أردت بشدة أن أتواجد في هذا المكان، وتعلمت كيف أصبح صلبة في عالم الرجال. وكان هذا الانعطاف في حياتي، أعني هذا الانعطاف المفاجئ – وأنا أعني ذلك بكل جدية – هو ما جعلني أحلم بأنني

قادرة، وربما مقدمة على عقد صفقات تجارية كبيرة؛ وأن شركة براماونت (وهي أحد عملائنا) سوف تتصل بي وتطلب إليّ أنا شخصياً القيام بإجراءات إتمام الصفقة. هذا ما كان يدفعني إلى الاستيقاظ يومياً الساعة الخامسة صباحاً؛ وهو ما حداني إلى عدم الإحساس بأي ندم بعد أن أبلغت الجامعة التي أدرّس فيها أنني لن أعود إلى وظيفة التدريس مجدداً. «أعتذر عن عدم المتابعة، وأنا مصممة على موقفي هذا.» هذا ما كنت أرغب في قوله لعميد الكلية الذي يضع نظارة على عينيه في اجتماع اللجنة الداخلية لتطوير المنهاج المنعقد برئاسته الساعة الرابعة بعد الظهر. شعرت بأنني أتقمص جي. بي. مورغان. شعرت بأنني ديفي كروكيت. «أنا آسفة، فأنا بصدد جعل الشمس تشرق من جديد». كنت أشعر بأنني على وشك أن أكتشف الرافعة التي تغير العالم. سوف أقوم، كما يقولون، بتكديس الثروة؛ وسيكون لهذا التكديس قوته الجاذبة؛ انطلاقاً من وحي أن الربح يجر الربح، ويجلب معه المزيد والمزيد من المال. كان بإمكاني شمّ رائحته. كان بإمكاني شمّ رائحة الشوارع المغسولة بمياه الأمطار والمعدن الذي تصنع منه البنادق التي تبدو أصواتها بالنسبة إليّ كالصوت المنبعث من قرع البراميل، والذي يبدو لي آمناً مثل دقات الساعة.

لكن ما لم أكن قد استوعبته بعد، هو أن ذلك الحافز يجب أن يتم ضبط إيقاعه. أجل، من المستحسن أن يكون المرء صلباً، ولكن ليس إلى درجة لا يمكن للمرء أن يتحكم فيها بهذا التصلب. يتعين عليك أولاً أن تراقب ما يجري حولك، وأن تحس به وتتلقفه. إنه نظام يعتمد على الشيكات والحسابات، مثل الكاتب الذي يتعين عليه بصورة دائمة أن يجري توازناً بين

«أناه» الشخصية وشكوكه حول ذاته كي تكون كتابته مُرْضِية. لكن عبارة «الشكوك حول الذات» لا مكان لها في الصالة. كنا نطلق على هذه العبارة في الصالة وصف «السيطرة على الانفعالات»، واستوعبنا من خلال ما لم تلهج به ألسنتنا، ما كنا نعنيه بتلك العبارة. كان أصعب تحدٍّ يواجهه أيٌّ منا هو ذلك القرار الذي يجب أن نتخذه في اللحظة القاتلة؛ وهو القرار الذي تستلهمه من مخزون شخصي تمتلكه في لا وَعْيِك، ولكنك لا تستطيع أن تفسره. هذا ما يصنع الفرق. فكلما تمركزتَ حول ذاتك، ازدادت قدرتك على اتخاذ مثل هذه القرارات.

هذه سماتٌ لا يمكن اكتسابها أو التدرب عليها؛ فأنتَ إما أن تمتلكها بالفطرة، أو لا تمتلكها. كل ما عليك هو أن تنتظر الفرصة السانحة كي تُظهِر مثل هذه الإمكانيات. عليك أن تطور حسّك الداخلي حول كيفية عمل السوق وطبيعة ردة فعلها على ما قد تقوم به؛ وهذا فن لا يمكن تحديده بشكل تفصيلي، ولا يمكن نقله من شخص لآخر بواسطة أية وصفة، لأن مثل هذه الوصفة ببساطة غير موجودة أصلاً. يمكن تمريرها فقط من خلال أمثلة يضربها المعلم للتلميذ، أو المدرب للمتدرب. وبما أن وين لم يكن منخرطاً في عملية التجارة بشكل نشط وعملي، فقد كان مدرّبي هو سنيك. كان متّزناً وأنيق المظهر، وكان كمّا قميصه مزرّرين دائماً؛ لم تكن تسيل منه قطرة عرق واحدة، وكان هادئ الطبع. كان وهو في وسط معمعة عملية تجارية ضخمة، يبدو أحياناً في منتهى الهدوء والسكينة لدرجة أنك قد تتخيل أنه أنهى لتوه جلسة يوغا، أو أنه تحول إلى جثة هامدة. يضغط بإبهامه وسبابته معاً وفي وقت متزامن على زرّي «طلب الرقم» كما نسمي هذه العملية في مصطلحاتنا حيث

يطلب آلهة فيثاغورث، وآلهة لاس فيغاس. لم تكن تهمه كل تلك الفوضى التي تلف المكان من حوله، أو أن تايغر (الشخص الثاني في المكتب الذي أعمل فيه) كان يعبّر عن نفاذ صبره بحركة ساقه العصبية واللا إرادية فوق السجادة الباهتة اللون مثل محرك خارجي مثبت في مؤخرة زورق يدفعه باتجاه الأمام. (لا عجب في أنه كان يمتنع عن احتساء الخمر، لأن الخمر يشعل فتيل طاقته المتوثبة، ويخرجه عن طوره.)

لم يكن جميع التجار مثل سنيك؛ الحقيقة أن قلّة قليلة من التجار يشبهونه وهم من تلك الفئة الممتازة فعلاً. فكلما ازدادت المخاطر، بدت عليهم أمارات الهدوء أكثر فأكثر كما لو كانوا يستمعون إلى موسيقى منبعثة من أسفل البئر. القصص التي تدور حول التاجر الذي يرمي بالكراسي بعيداً، ويصرخ في من حوله ليغربوا عن وجهه، ويضرب الهاتف بالأرض ويخبط على الجدران – صحيحة بالتأكيد وبأعداد أكبر من القصص حول من هم على شاكلة سنيك. ليسوا بالتأكيد جزءاً من الماضي، أعني ذلك النمط من التجار الذي كان سائداً في ثمانينات القرن العشرين. لكن سنيك كان من ذلك النوع المتميز. كان الهدوء جزءاً من طبيعته، وكان ذلك ما يميزه إيجابياً عن الآخرين، كان سرُّه في العمل وعلامتَه الفارقة. لم يكن التجار المتميزون يفشون أسرارهم عموماً، ولكن حتى عندما يقومون بذلك، فلم يكن ذلك يعني سوى القليل لأن هذه السمة فيهم هي ترجمة لموهبة فطرية يمتلكونها. الطريقة الوحيدة التي يمكن لك من خلالها تعلم شيء من هؤلاء تكمن في مراقبتهم والاستماع إليهم وهم يقومون بإجراء الصفقة، تماماً كالكاتبة التي تحلل الكتب التي تقرأها كي تستوعبَ كيف تُؤلّفَ مثل هذه

الكتب بحيث تستطيع فيما بعد أن تستلَّ أو تسرقَ بعضاً من الحِيَل التي يستخدمها مؤلفوها كي تضعها في الكتاب الذي تنوي تأليفَه مستخدمةً في ذلك موهبتها الداخلية. في إحدى المراحل، يجب أن يقذف بالمبتدئة إلى خضم تلك المعمعة كي تبدأ بعقد الصفقات بمفردها من أجل أن تكتشف أسلوبها وتكوّن أسرارها الخاصة بها.

وهذا يقودنا إلى موضوع السيارات المستعملة: التويوتا والهوندا والفورد مستثنين من ذلك سيارات المرسيدس بنز والبي إم دبليو؛ والبينتلي — فهذه الماركات لا يتعامل بها سوى التجار المتعاملين بالكفالات العالية القيمة، كونها تنتمي إلى طبقة السيارات ذات القيمة الأعلى والسعر الأغلى في عالم الرهانات العقارية؛ تدخل هذه ضمن نطاق اهتمام مالكي القصور والأبنية ذات الشرفات الواسعة بمتطلباتها من الرهانات العقارية الباهظة التكاليف. سيارات التويوتا — لقد استهلكني هذا النوع من السيارات. كان اهتمامي منصباً على تسعير سيارات التويوتا وكنت بارعة في ذلك. كنت أثق في حدسي، وكنت محقة في ذلك لفترة قصيرة؛ لذلك كان عليّ أن أشرف على تفريغ العديد منها. كنت أعرف العميل الذي يرغب في بيعها والتمويل الذي يحتاجه من أجل القيام بذلك. كانت تتم استشارتي في مسألة تسعير البضاعة (على سبيل المثال، عرض في سوق نيويورك للأسهم لسيارات تويوتا مستعملة ذات سرعة دوران محرك 100م لشهر حزيران، يونيو). كنت أضع تقديراتي على مثل هذا النوع بقيمة (97-04). هنا كانت تبدأ عملية المساومة مع الزبون، وتنهمر معها العبارات اللطيفة والحلوة عليَّ من أجل حملي على تخفيض قيمة العرض، ممزوجةً بكلمات تحمل في طياتها طابع الدعابة والمزاح

والتبجح الذكوري في محاولة منه لإقناعي بخفض العرض إلى (97-02).

من بين هؤلاء، كان روبرت شين على سبيل المثال، بكرشه المنتفخ الذي يشبه القِدر، وكان كبيراً لدرجة أنه كان باستطاعته صفّ عدة أقلام فوقه من دون أن تقع (وقد كرر تلك التجربة مراراً). لديه زوجة وثلاثة أبناء. رأيته يعيد الكرّة مرات ومرات. كان شخصاً بسيطاً، وكان معجباً بجاك دانيال. تبين لي من خلال لسانه الذي لا يتوقف عن الكلام أن زوجته الضئيلة الحجم بضفائرها المجعّدة الصغيرة ووجهها النحيل الذي يبدو وكأنه منحوت بإزميل قد وجدت لحياتها معنى من خلال إدارتها لرابطة الآباء في مدرسة الأولاد. كانت لديه ابنتان مغرمتان إلى حد الهوس بآشتون كاتشر (رغب إليّ شين في أن أتحدث إلى ابنتيه وتناول العشاء مع العائلة، وان أخبرهما عما يعنيه أن تقوم امرأة بعمل خارج المنزل). كان ابنه الصغير السن يتلهّى بألعاب من بنادق وسيوف بلاستيكية، ويظهر براعة في استعمالها، كاشفاً عن موهبة فهمها الأب على أنها مؤشر على ذكاء ابنه، وما سيحققه في المستقبل. جلست بينهم محاطة بكل أنواع المشروبات وبدأت أستمع إلى العديد من القصص، وأطلب منه توضيح تفصيلات أكثر حولها. عندما كان يضحك، كنت أجاريه في الضحك، وهو يتحدث عن تصوره عن مستقبل ابنه. حاولت أن أعطي شين الانطباع بأنه فريد عصره. كان اهتمامي بتلك العائلة حقيقياً. أحببت هؤلاء القوم؛ فقد كانوا طيبين ولديهم نفس التوجهات — كانوا أشخاصاً طيبين ومجدّين في أعمالهم وممن تعلموا اختيار أقصر الطرق لتحقيق السعادة على الطريقة الأمريكية، وها نحن جالسون في أحد البارات نحاول أن نُذْكي لهيب هذا الأمل من خلال تعليقاتنا وما نبديه من إعجاب بما

نشاهده من خفة ورشاقة بوبي شين الصغير وهو يلعب بسيفه الصغير. بدوت في منتهى اللطف والكياسة لدرجة أن الناس من حولي كانوا يظنون أن من السهولة بمكان أن يحصلوا مني على ما يريدون؛ لكن ذلك كان السلاح الذي كنت أجيد استعماله.

أقول الآن على الهاتف: «البضاعة مباعة لك»، وأعني بذلك «أنني غير مستعدة لقبول ذلك المبلغ.» يسأل شين بصوت مبحوح: «هل أنتِ واثقة؟» هو على الجانب الآخر من الخط، كما أن مذياع الهاتف مفتوح. جميعُ مَنْ حولي ممن يرغب في (ويحتاج إلى) سماع ذلك الصوت المبحوح بإمكانه سماعه الآن. الجميع يعرف أن الشخص على الجانب الآخر من الخط هو شين. بالطبع، سنيك كان يستمع إلى الحديث لأن الرهان على هذه الصفقة ليس قليلاً. أقول: «من مصلحتي أن أبيع»، فيجيب هو: «لقد فعلتِ عين الصواب.»

بعد ذلك مباشرة، يصبح المزاد على الصفقة التالية هو (97-03). حدسي يحثني على المتابعة. يقول سنيك وهو يبتسم: «يا إلهي. حسنٌ، دعونا نحاول طرح مزاد آخر. ربما كانت المحاولة الأولى مجرد ضربة حظ.» ربما كانت كذلك. ولكنها لن تكون كذلك إذا تكررت؛ ليس إذا كنتَ مُتَساوِقاً.

أظهرت مثل هذا التساوق حالاً؛ وقريباً جداً ستكون النتائج واضحة وضوح الشمس أمام الجميع تماماً مثل النتائج التي تعرض في مباريات البيسبول. كنت بارعة في ما قمت به. انتشر الخبر، ومفاده أنني نجحت فيما أقدمت عليه. كان للجميع شكوكهم في البداية أما الآن، فقد رفع الجميع

أبهام أصابعهم اعترافاً بالنجاح الذي حققته؛ وكنت ممتنة لكل أولئك الفتية غير المعقّدين العاملين في صالة البيع الذين تقبّلوا فكرة أن أكون واحدة منهم. كان سنيك يقول وهو يرخي بظهره على كرسيه إلى الخلف كي يراني بشكل كامل لأن ثلاثة مقاعد كانت تفصل بيني وبينه: «تابعي ضرباتك الإفرادية الموفقة.» الجميع سمعه وهو يتلفظ بهذه العبارة، وقد أسعدني سماعهم لها. كما أن العاملين الآخرين الذين لا علاقة لهم بمكتبنا أخذوا طريقاً دائرية أطول عند توجههم إلى الحمّام كي يمروا من خلفنا ويطّلعوا على ما كان يجري وكيف كنتُ أسيّر الأمور، ومن أجل الْتقاط عبارة يمكن أن يجعلوا منها مادة للثرثرة. كان الناس يعرفون أن وين راهنَ عليّ، لكنهم لم يكونوا يعرفون أنني كنت أيضاً رهاناً بالنسبة إلى رادالبينو. كان بإمكانهم في أفضل الأحوال الاستنتاج أن الرهان عليّ كان قد ارتفع بشكل ملحوظ.

تلك الضربة الموفقة، أي أن تنجح في كسب المال استناداً إلى تحكيم عقلك بشكل صحيح، تعطيك إحساساً عظيماً بالنشوة. أجل، هناك عامل الخوف أيضاً في كل هذا تماماً مثل وضع كمية من الزيت في حجر رملي – لكن لا بد من وجود عامل الخوف في ما تقوم به. أصبحت جزءاً لا يتجزأ من هذا الفريق، لكنني كنت مجرد متواجدة هناك، كنت غارقة في العمل، وقد جرفني زخم العمل. ارتقيت في عملي. ارتقت تجارتي من مستوى ضربات إفرادية إلى ضربة أحوذ فيها أحياناً على قاعدة إضافية. كنت أشعر بالنشوة. كل الناجحين يعرفون معنى الإندفاعة التي ترافق الإحساس بالنجاح وما تمثل من فقدان للتوازن والحث على القيام بالمزيد والحاجة إلى تحقيق المزيد. أردت تحقيق المزيد، وكان هناك المزيد من النجاح بانتظاري، كان هناك الكثير،

الكثير من النجاح بانتظاري، تماماً مثل التقاط ثمر التفاح من أشجار التفاح في فصل الخريف، وربما كان أسهل من ذلك. كان المال يبدو رخيصاً لشدة وفرته. كنت أعمل يومياً عشر ساعات، أو اثنتي عشرة ساعة وأحياناً أربع عشرة ساعة، لكنني لاحظت شيئاً بمحض المصادفة – مثل عودتي إلى منزلي في سيارة الليموزين التي أمر وين بتخصيصها لي. كان يتباهى بي، وهو ما دفعني إلى بذل جهد أكبر في العمل. اللعبة الكبرى لم تعد ترهبني. فعشرات الملايين أخذت حجمها الطبيعي – أو ربما بدأت أجد ملاييني الخاصة بي – حيث وجدتني أنتمي إلى أصحاب تلك الوجوه التي تضحك بعد الانتهاء من الدوام، بربطات أعناقهم المائلة وهم يحتسون الخمرة في بارات في وسط المدينة؛ هؤلاء هم الأشخاص الذين يقومون بهذه الصفقات التجارية. إلى ذلك الجو، ولجت خارج ذاتي بشكل كامل ولا عودة عنه كي أتحوّل إلى عالم، بالكاد كنت أستطيع أن أتميزه؛ لكنني مع ذلك، كنت أشعر في غاية الإثارة وأنا أراقبه.

ثم وقعتِ الواقعة. للمرة الأولى. أتذكر جيداً ما الذي كنت أرتديه في ذلك اليوم: بلوزة من الحرير زرقاء اللون، أفتح بقليل من السترة التي كنت أرتديها. عندما وقفت أمام المرآة في صبيحة ذلك اليوم، لاحظت أن القميص كان يبدو جميلاً؛ فقد ساعد في إبراز زرقة عينيّ. أذكر تاريخ ذلك اليوم جيداً: الخامس عشر من شهر تشرين الأول، أكتوبر، أي بعد مرور سنة تقريباً على نشر روايتي: «جيل النار». كانت نسخة الرواية ذات الغلاف الورقي موجودة في المكتبات، وكانت المطالعات النقدية عن الرواية منتشرة في الصحف، ولكنني لم أكن آبه لأي من ذلك وأنا في طريقي إلى العمل. كنت أفكر في

القميص، وكم أحببت ذلك القميص. بعدها قررت أن أحتفظ به على سبيل الذكرى، لأنني صممت ألّا أرتديه مجدداً على الإطلاق. تعلّمك سوق البورصة شيئاً عن الحظ والتعاويذ أو الطلاسم: لا تكتب أبداً باللون الأحمر؛ إذا وجدت قطعة نقدية معدنية صغيرة، التقطها؛ لا تضع القبعة على السرير؛ لا تستعمل المصعد الذي ركبتَ فيه يوم تعرضتَ للضرب؛ لا تطلب طعاماً من المطعم الذي تناولت فيه طعامك في ذلك اليوم المشؤوم. لم يكن سنيك ليسمح لي بارتداء تلك البلوزة ثانية حتى لو أردت أنا ذلك. قال بعد انتهاء الصفقة: «هذا القميص يمثل هنا سوء الطالع.» ما حدث من سوء في المحصلة كان بسبب ارتدائي لذلك القميص، أما في البداية، فقد كنت أنا المتسببة في الفوضى التي أوقعتُ الشركة فيها، وهو ما لم يدفع أحداً إلى الضحك.

كان خطأي بسيطاً: فقد اشتريت سيارات تويوتا اليوم بتسعيرة البارحة. ابتعت عدداً لا بأس به منها، ما أدى إلى زيادة نسبة الخسارة التي تسببت بها. دعوني أشرح الموضوع على هذه الشاكلة: البارحة على سبيل المثال، كان ألف من المنازل قد بيعت بمبلغ 95. ولكن بين عشية وضحاها، حدثت بعض الأمور في اليابان، وأثّرت ارتدادات هذه الموجة على مناطق عديدة في العالم تاركة بصماتها على معدلات الفائدة التي تدفعها المصارف عندما تقترض من مصارف أخرى، وعلى معدلات الفائدة التي أتاحت لمالكي المنازل، وحتى لي أنا، فرصة الاقتراض من المصارف. وبما أنني كنت متلهفة لتغطية المخاطر الناجمة عن صفقة الأمس، فقد فاتني أن أراقب حركة الأسواق الأخرى، وتجاهلت البيانات المتعلقة بها.

أردت شراء السندات؛ ولكن كانت تنقصنا القاعدة، وكان من المستحيل

علينا تقريباً العثور على سندات للأسهم. حاولت أن أكسب مبلغاً كبيراً، وأن أحقق أكبر نسبة أرباح حتى الآن، ولكن بسبب حدوث تلك التغيرات المفاجئة ليلة البارحة فقد تدنى معدل قيمة الألف منزل والبالغة 95، إلى 94-18. كانت الحسابات السريعة التي قمت بها تستند إلى الانعطاف الذي حدث بالأمس. وقد أدت هذه الحسابات المتسرعة إلى خسارتي لمبلغ يفوق المليون دولار. كان ذلك نتاجاً كارثياً للمغالاة في الثقة بالنفس كما يحدث لمتزلج مبتدئ على الثلج تؤدي به مثل هذه الثقة بالنفس إلى الاصطدام بشجرة. دعوني أعرض للمسألة بصورة أخرى: يباع كوز الأيس كريم في كافة أنحاء المدينة بدولار واحد وبعشرة دولارات للغالون الواحد من النوعية الممتازة. بين عشية وضحاها، يرتفع سعر الكريم لأن هناك نقصاً في مادة الحليب نتيجة مشكلة تعاني منها البقرات في المراعي. ما يحدث هو أنك تنسى أن تدقق في معلومة في منتهى الأهمية يمكن أن تطلعك على حقيقة ما إذا كانت الأسعار ثابتة أم لا؛ تظن في داخلك أنك تحصل على صفقة ممتازة عندما تبيع كل تلك الغالونات بمبلغ 11 دولار للغالون الواحد، لكن المشتري هو الرابح الحقيقي لأن الواحد من تلك الغالونات يباع في المناطق الأخرى ب 14 دولار للغالون الواحد. لو أخفقتَ في الكشف عن حقيقة وضع البقرات – أخبار البقر لا بد أن تكون أمام ناظريك إذا كنتَ تعمل في مجال تصنيع الأيس كريم – فإن معلومةً في غاية الأهمية سوف تضيع منك. إذا كان الجو مشمساً بالأمس، فهذا لا يشكل أبداً أية ضمانة في أن الجو سيكون مشمساً اليوم حتى لو استيقظتَ صباحاً ووجدتَ السماء زرقاء صافية والشمس مشرقة. عليك أن تتأكد من نشرة أحوال الطقس، وأن تتحسس الهواء أيضاً، والطريقة التي يلامس فيها حدسك.

مليون دولار. شعوري بأنني خسرت مليون دولار طغى عليّ دفعة واحدة؛ كانت تلك خطيئة صادمة وواضحة تمام الوضوح؛ هي حالٌ تجعل دمك يجف من وجهك خلال ثوانٍ معدودات، وينتابك شعور بالغثيان؛ ومع ذلك، فأنت تشعر أنك ما زلت تنتمي إلى الصالة، وأنك تراقب نفسك وأنت تتعرض للقتل. تشعر بألم فظيع في قعر معدتك، وتشعر أيضاً أن الغرفة بكل ما فيها ومن فيها قد اختفت من الوجود وبقيت أنت لوحدك، لا أثر لغيرك في تلك الغرفة. أعطاني هذا الجو إحساساً غريباً بالراحة. انغلقت على ذاتي وأغلقت ذاتي عن الآخرين. كان المال الذي تحوِل إلى فكرة مجردة قد تحول فجأة وبشكل إعجازي ومؤلم في آن بالنسبة إلي، إلى شيء حقيقي من جديد. لقد اختفى مبلغ مليون دولار أمام ناظري في دورة المياه وانسكب في خزينة شخص آخر. طبّقتُ أسعار الأمس على أسعار اليوم؛ وكان ذلك خطأً قاتلاً. كل ذلك كان يعتمل داخل رأسي وأنا منغلقة على ذاتي داخل شرنقتي. لكن مصابيح الصالة أضيئت من جديد، وتحلّقَ من حولي جميع الباعة الذين انتابهم الفضول لمعرفة ما جرى بالضبط. ازداد معدل فضولهم أكثر من المعتاد بسبب الفوضى والجدل اللذين أحاطا بي. كانت الهواتف ترن، وبسبب شعوري العارم بالخسارة، بدا وكأن تلك الهواتف تنشر أخبار فشلي وإخفاقاتي. فانا لست سوى كاتبة روائية: هذا ما قلته لنفسي؛ ولن أتمكن يوماً من بلوغ هذه القمة.

قال تايغر: «الصبر.»

لم أكن متأكدة من أنه كان يوجه كلامه إليّ، أو أن هذا كان بالضبط ما قاله. فنفاذ الصبر كان إحدى سمات أو نقاط ضعفه، وقد أصبح ذلك

إحدى نقاط ضعفي أنا أيضاً. كنت أذكى من ذلك؛ فقد كرّستُ جلّ وقتي من أجل التدقيق في أخطاء الآخرين. أردت أن أنهض من مقعدي وأترك العمل، وكان جزء مني يشعر بأنني قادرة على فعل ذلك. فاللعبة انتهت. لقد خسرت. طاولة الكتابة في بيتي وعائلتي، كلهم بانتظار عودتي. شعرت بأنني مدعاة للسخرية وأنا أرتدي تلك السترة، وبأنني نصّابة أو دجّالة. فقوانين الحياة بدأت تفرض نفسها من جديد. ليس من المسموح لك أن تقوم بهذا التحول الكبير على هذه الشاكلة. لا يمكن أن تتحول إلى شخص جديد آخر بعد أن بلغت سن الثمانية والثلاثين. فكّرتُ في كافة التعليقات التي تلقيتها والتي تتسم بالذهول، على ما فعلت؛ كما جالت في خاطري صور أولياء أمور أصدقاء وصديقات ابنتيّ الذين تعلو الدهشة والاستغراب وجوههم. عندما انتهت هذه الزوبعة في رأسي، سألني سنيك بصبر ممزوج بالحزم عما حدث، وكيف انتهيت إلى سعر – 95. أرادني أن أتعلم. كان أسلوبه مزيج من البرود والتركيز والكياسة.

سنيك: ماذا حدث؟ كيف توصلت إلى تلك التسعيرة؟

أنا: تقصد تسعيرة ال: 95؟

سنيك: أجل. اصطحبيني في رحلة إلى داخل أفكارك عندما فكّرتِ بهذه العملية.

أنا: حسنٌ. بعت يوم أمس تلك الأسهم من فئة 5،5 التي اشتريناها في شهر حزيران، يونيو بقيمة 95-04 وقد انخفضت القيمة بحلول شهر تموز يوليو بمقدار ثلاث نقاط؛ لذا كنت أحاول تغطية المخاطر من خلال إضافة

نقطة واحدة على البضاعة.

سنيك: هناك مشكلتان. الأولى هي: هل 95 هو الرقم الصحيح للمزاد في بداية الشهر؟ الثانية هي: هل النقاط الثلاث تمثل الانخفاض الصحيح في شهر تموز، يوليو؟ أين كانت الملاحظة التي عمرها عشر سنوات عندما بعتِ أسهم سوق نيويورك الليلة الفائتة؟

أنا: 97-12

سنيك: وأين هي الأن، وعلى ماذا استقرّت؟

أنا: استقرت على 96-24.

سنيك: إذاً، مع معدل الحماية من الخسارة بنسبة 70 بالمائة، كم سيكون سعر الأسهم من نوع 5S صباح هذا اليوم؟

أنا: 94-21.

سنيك: ومن أين حصلتِ على النقاط الثلاث المضافة إلى الانخفاض الذي حصل في شهر تموز، يوليو؟

أنا: حسنٌ، اشتريتَها أنت البارحة.

سنيك: البارحة هي البارحة. اختفت. ما هي التسعيرة في السوق اليوم؟

أنا: 3،25/3،75.

سنيك: إذاً، ما هو كم الانخفاض الفعلي؟

أنا: 3،75.

سنيك: إذاً، ما هو المزاد الصحيح لنسبة 5،5 في شهر تموز، يوليو؟

أنا: 94-172.

سنيك: وكم تبلغ كلفته؟

أنا: 14،75 نقطة.

سنيك: كلا، كم أنفقت فعلاً على السندات من فصيلة 250م؟ قومي بحساباتك.

اللافت في شخصية سنيك أنه في منتهى اللطف والكياسة؛ فقد أرادني أن أتعلم قواعد اللعبة. كان يرغب في أن يتعلمها الآخرون في المكتب أيضاً. كانت لديه من الثقة بالنفس ما يكفي لأن يكون كريماً بمعلوماته. كان الحديث الذي جرى بيني وبينه آنفاً موجّهاً للجميع. أناقته كانت محط أنظار الجميع بدءاً بالكمّيْن الطويلين لقميصه الأبيض المكوي بشكل أنيق والخالي من التجاعيد على مرفقيه، مروراً بشعره القصير الذي يكشف عن عنق ناعم ونظيف، وانتهاء ببشرته السمراء الداكنة التي تشكل تبايناً مع لون ياقة قميصه. بعد أن أكمل رحلة استعراض جملة الأخطاء التي وقعتُ بها، كان الأمر بالنسبة إليه قد انتهى؛ أصبح كله جزءاً من الماضي. انتقل بعد ذلك إلى ممارسة عمله المعتاد.

ولكن في ذلك اليوم بالتحديد، وبسبب الكم الهائل من المال الذي خسرته، لم ينتظر وين طويلاً قبل أن يخرج من مكتبه بطريقة لم أعهدها فيه من قبل. كانت قدماه تطرقان أرض الصالة بقوة أكبر من المعتاد وهو يخطو فوق السجادة الرمادية اللون. تبين لي من خلال سرعة خطواته والتقطيب الصارم لحاجبيه أنني على وشك أن أواجه جانباً في شخصيته لم يسبق لي أن عرفته. شعرت بأن ظله يخيّم عليّ بالكامل. الدقائق العشر التي استغرقها وين للحديث عن الخسارة التي تسببت فيها، اختصرها وين إلى دقيقة واحدة فقط كرّس جلّها في الصراخ في وجهي للمرة الأولى. كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها يفقد أعصابه. كان سلوكه الهادئ التقليدي قد انهار. تبين لي أيضاً أن هدوءه لم يكن سوى واجهة؛ أي أن الهدوء لم يكن بالأساس جزءاً من طبيعته، كما كانت حال سنيك. لقد أمطرني بغضبه الذي انهمر عليّ مثل عاصفة مطرية مفاجئة.

«كلا، ليست هذه هي المقاربة الصحيحة! إنها المقاربة الخطأ لمسألة الانخفاض في الأسعار. لماذا استخدمتِ عنصر المزاد في الكشف في المقام الأول؟ أنتِ تعرفين أن المزاد على تسعيرة ال95 هو خطأ بالأساس لأن ما عُرِضَ في المزاد كان أقل من ذلك! عليكِ أن تعرفي أن ذلك المزاد لم تكن له قيمة تذكر. كيف لم تتمعّني بهذه النقلة الليلة الفائتة؟ ثم، ماذا عن النقلة على حدود ذلك المنعطف، حيث تتسع دائرة المقايضة؟ هل أنتِ على دراية بطبيعة العمل في السوق؟ هل تركّزين على عملك بما فيه الكفاية؟ إن هذا العمل شاق بما فيه الكفاية حتى من دون أن نحتسب الخسارة المالية. ركّزي أكثر!»

كانت كل النظرات مُرَكّزةً عليّ. كانت الصالة غارقة في الصمت. شعرت بحرقة في عينيّ. انتابتني للمرة الأولى والوحيدة، الرغبة في البكاء. جاهدت كي أمنع نفسي من البكاء. بقي واقفاً مخيماً بظله فوق رأسي بعد ذلك لثوانٍ معدودات. خمّنتُ أنه لو استشرت سنيك حينها حول هذا الموضوع، لكان ذلك ساعدني في تجنب هذا الخطأ الشنيع؛ لكن نشوة الخيلاء كانت تسيطر عليّ، وكنت واثقة جداً من موهبتي، وحدسي.

غادر وين المكتب أخيراً، ما يعني عليّ أن أتبعه إلى مكتبه. ما حدث كان في نهاية الدوام الوظيفي، وكان الظلام قد هبط في الخارج. لم تكن قد ظهرت في قبة السماء بعد في تلك الليلة الصافية، سوى مجموعة من النجوم الأكثر سطوعاً. لو قررت النظر إلى نافذته بشكل سطحي، وليس عبرها، لكان بإمكاني رؤية انعكاس صورتي كما أراها في المرآة. كنت سأرى بذلتي والخفّيْن اللذين أنتعلهما وقميصي الحريري والسوار الذهبي على شكل خنفساء كانت أمي قد أهدتني إياه، والذي لم أشعر أنني بحاجة إلى ارتدائه عندما كنت أعمل في مجال الكتابة. لم أكن أرى جدوى من التزين أو التبرج عندما كنت أجلس خلف مكتبي وحيدة طيلة اليوم. ولكن تبين لي فيما بعد أهمية أن أظهر بمظهر لائق من خلال نوعية الثياب التي أرتديها والجواهر التي أضعها، ومن خلال معرفة أن بإمكاني أن أنفق بسخاء من أجل تحقيق هذه النزوات الشخصية مثل الظل الذي أضعه فوق العينين وترتيب الحواجب، وتناول طعام العشاء مع بعض الأصدقاء. شعرت أكثر بحضوري. ربما كان ما ذكرته آنفاً هو مجرد وصف عام لأية بداية مترنحة. ماذا حدث لتلك المرأة التي كان بإمكانها الجلوس لوحدها طيلة اليوم، والغوص في تفكير

عميق، والتي كانت تهتم كذلك بسبر غور الأعماق التي تقبع تحت مظاهر الأشياء؟ استرعت صورتي المنعكسة على زجاج النافذة انتباهي: شعري المصفف بمنتهى الأناقة وحركاتي المحسوبة بدقة، والممتلئة حيوية ونشاطاً. تُرى من هي تلك المرأة التي تقف أمامي؟

أغلق وين الباب وجلس. لم نكن نسمع ما يدور من لغط في الصالة، لكن كان بإمكان جميع من فيها رؤيتنا. كان الألم في قعر معدتي ما يزال ينهش فيها. أدار وين كرسيه بحيث أصبح يواجه النافذة ومن ثم، يستطيع أن يراني. نظرت في عينيه مباشرة. كنت أعرف يقيناً المسافة التي تفصلني عن الشاطئ، وكنت أعرف كم كان من الصعب عليّ الإبحار إلى بر الأمان. كان هناك أمل كبير، لكن يبدو أن ذلك الأمل قد تبخّر. فأنا لم أعد أمثّل تلك الموهبة الواعدة. انتابني ذلك الشعور الذي يشبه ما تشعر المرأة به عندما تستيقظ وترى نفسها مع عشيقها في الفراش مخلّفة عائلتها وراءها، لتتبين فقط أن ذلك العشيق ليس كما تخيلته – فهو ليس سوى نسخة من الزوج الذي هجرته: فهو يتجشأ مثله ويطلق ريحاً ويعاقر الخمرة مثله؛ وله عيوبه ونقائصه وتاريخه الخاص به. إنه ليس تلك الورقة البيضاء الناصعة التي بإمكانها أن ترسم عليها كل خطوط السعادة التي افتقدتها في حياتها الزوجية.

قلت له: «ظننت أنه ليس من طبعك الصراخ. أنت قلت لي بنفسك إنك لا تصرخ.» رمقني وين بعينين فاحصتين من الأعلى إلى الأسفل لكنه لم ينبس ببنت شفة. تذكرت أنه لم ينتابني شعور بالخوف أو الرهبة البتة من رادالبينو.

قلت له: «لقد ساعدتك في الفوز بالرهان الذي وضعتَه عليّ». لأن هذا ما قمت به فعلاً. كنت أعي تلك الحقيقة جيداً. الخسارة هي الخسارة، لكنه نجح في أن يجعل مني تاجرة؛ أليس هذا ما قال إنه سوف يفعله؟ وقد حقق ذلك في زمن قياسي، أي في أقل من سنة. بدأ الموظفون بمغادرة الصالة بعد انتهاء الدوام؛ لكن وين استمر في التحديق بي محيطاً بي بناظريْه.

أرادني أن أتكلم وأملأ جو المكتب بشيء من الحيوية. لكنني لم أتفوه بكلمة. النهر الشرقي يمخر عباب عتمة الليل؛ إنه خندق مائي هائل الحجم تجوبه أضواء خافتة لزورق صغير يبحر عبره. على ضفة ذلك النهر، تم العثور على بقايا جثة امرأة اختفت بينما كانت تصطحب كلبها في نزهة. نجح المختصون في تحديد هوية المتوفاة بعد تسعة أشهر على وجود جثتها في المياه. أتصور أن تسمية «المياه» أتت من اختلاط ماء الأنهار بماء المحيط. عندما كنت في المدرسة الابتدائية، أذكر أن إحدى الأمهات المعروفات في الوسط الاجتماعي آنذاك وجدت مقتولة وملفوفة مثل قطعة النقانق في سجادة عجمية؛ كانت قد رُبِطت داخل السجادة بإحكام وشحنت من ماريلاند إلى نيويورك كي يتم التخلص منها عن طريق رميها في النهر الشرقي. أذكر أن أبويّ كانا يتحدثان في هذا الموضوع. لم ينتبها إلى أنني كنت أصغي إلى حديثهما، ولكن هذا ما كنت أفعله بالطبع. أي طفل مكاني كان سيفعل الشيء نفسه. امرأة ملفوفة داخل سجادة، مقتولة على يد زوجها – على الأقل، كان قد تم توجيه اتهام لزوجها بقتلها – وأذكر أن أبي الذي صعقه هول الحادثة كان يردد: «هذه كليشه نمطية، إنها ليست سوى كليشه نمطية». يبدو أن ما أزعجه جداً لم يكن الجريمة بحد ذاتها بل غباء القاتل. كانت

أضواء زرقاء اللون تومض من الطرف العُلْوي لرافعتين بدتا في عتمة الليل وكأنهما هيكلان عظميان هائلا الحجم لاثنين من الديناصورات على شاطئ حي بروكلين.

قال وين: «أثبتَّ أنك بالفعل ما توقعته أن تكوني، بالرغم من أن الفشل الذي وقعتِ فيه تأخر أمد حدوثه أكثر مما توقعنا. كما أنكِ تسببتِ في خسارة مبلغ أكبر مما توقعنا؛ لكننا نعترف بأن مسؤوليتنا عن هذا الخطأ أعظم إلى حد كبير من مسؤوليتك.»

«كم كان رهان رادالبينو على فشلي؟»

«سوف أخسر قليلاً من الرهان الذي وضعته عليك، ولكنني سوف أفوز في نهاية المطاف. لذا ليس عليك أن تقلقي بشأن ذلك.» كنت ما أزال أرى انعكاس صورتي على الزجاج، وكانت أضواء المدينة تضفي ألواناً إضافية على البذلة التي كنت أرتديها. هنا وفي هذا المكان كنا جميعاً متساوين. هنا لا وجود للماضي أو للمستقبل.

لم يكن سنيك يختلف عني في شيء بالرغم من أنه كان أكثر خبرة وذكاء ورجولة وهنديّة. كانت شخصياتنا ممحوّة. كان اسمه باللغة الهندوسية «شيشناغا»، وكان هذا هو الاسم الذي استعمله عندما بدأ العمل في شركة بي أند بي. تقول الأسطورة إن شيشناغا، أو الثعبان، وُلِدَ من بقايا المخلوقات التي استمرت على قيد الحياة بعد أن تم خلق الكون وأهله. كان ملكَ الثعابين، له ألف رأس، وكانت هذه الرؤوس كلها تتميز بسرعة الحركة والخفة، كما كان للعينين المثبتتين في كل من هذه الرؤوس قدرة فائقة على تنويم من

تحدق فيهم مغناطيسياً. كانت رؤوسه الألف على شكل قلنسوة هائلة الحجم، وتحتها كان يقبع «فيشنو» كما لو كان جالساً فوق أريكة، محمياً بواسطة هذه الرؤوس من العواصف المدارية. قيل إن الكرة الأرضية مستقرة فوق رؤوس شيشناغا، وكان يعتقد أنه كان ينفث نيراناً مسمومة تدمر كل مظاهر الخليقة في نهاية كل عصر من العصور الممتدة على مدى الزمن. كان هذا الإله هو الأكثر مهابة بين كل آلهة الثعابين. أما هنا في شركة بي أند بي، لم يكن سنيك (أي الثعبان) ذلك الفتى الذي اصطحبته أمه إلى أمريكا حيث انضمت إلى زوجها الذي كان يتابع دراسته في معهد ماساشوستس للتقانة[47] عندما كان عمره لا يتجاوز الأشهر التسعة، كما لم يكن ذلك الفتى الذي كان يسافر جواً إلى كلكوتا مرتين في السنة ليقيم في قصر العائلة، تحت رعاية جدتيه الودودتين اللتين لم تكونا تحبذان فكرة أمركته، واللتين حاولتا بكثير من اللهفة تدريبه على الأعراف والتقاليد البنغالية بحيث تستطيعا تهيئته كي يصبح رجل المستقبل الذي تأملان أن يَكُونَه.

بدلاً من كل ذلك، تحول شيشناغا إلى «سنيك» ذلك الرجل اللطيف؛ أجل، كان ذلك الشخص الحريص دائماً على ارتداء القمصان الأنيقة التي تحيط ياقاتها بعنقه بشكل جميل وأخّاذ. كان بارعاً في التعامل مع الأرقام وكان في غاية التهذيب. لكنه كان يمكن أن يكون قد وفد إلى أمريكا من أي مكان آخر. لو شاءت الأقدار ووُلِدَ في زمن مختلف، عندما كان دخل الطبيب لا يقل عن دخل من يعملون في وول ستريت، لاختار أن يعمل في مجال الطب.

47 - Massachusetts Institute of Technology - MIT من أرقى المؤسسات الجامعية في العالم

سألت وين وأنا أحدق في عينيه مباشرة: «وما الذي سوف تفعله بي عندما تقضي وطرك مني؟» شعرت فجأة بأنني أكره هذا الرجل.

«ما رأيك في احتساء بعض الشراب؟»

«إن شئت.»

«أرغب في أن تصبي لي قليلاً من الويسكي.» كان وجهه في الظل، وكانت عيناه السوداوان تبدوان وكأنهما حفرتان. تذكرت انطباعي الأول عنه عندما التقيته للمرة الأولى على الشاطئ في مين بنظارتيه الشمسيتين السخيفتين وسترته الجلدية. تذكرت أيضاً موقفه في مكتب رادالبينو حيث بدا لي حينها أنه كان متوتراً قليلاً. تذكرت ملاحقته لي خريف السنة الفائتة. لقد نال مني، واستطاع تحويل اللا مبالاة التي كنت أبديها إلى نوع من أنواع الخوف، وهو بذلك، استطاع أن يستحوذ عليّ.

وقفت وتوجهت إلى الخزانة وسحبت أحد الأدراج. أمسكت بزجاجة ويسكي من نوع «ماكالان» التي كان يحتفظ بها هناك. صببت له كأساً ووضعتها أمامه على طاولة المكتب محدثة بذلك ضجة أعلى مما كنت أنويها.

سألني: «لماذا لا تصبي كأساً لكِ؟»

قلت: «شكراً على اهتمامك». تذكرت ابنتيّ وشعرت بشوق شديد إليهما نظراً لأنني لم أشرف على خلودهما إلى النوم على امتداد ليالٍ طوال. هذه الليلة ستكون كسابقاتها. أحسست بألم كبيرٍ في داخلي. مرةً أخرى، شعرت بأن صورتي في زجاج النافذة تنظر إلي. كيف سمحت لنفسي

بالتورط في كل ذلك؟ كانت لدي حياة أخرى مختلفة تماماً. كانت تلك هي الحقيقة. ولكن هل كانت على ذلك القَدْر من السوء؟ لقد كافحنا كثيراً بالتأكيد، ولكننا كنا ننجح دائماً في تجاوز كافة الصعوبات التي واجهناها. نظرت إلى الباب. كم كان من السهل عليّ أن أفتحه وأترك هذا المكان مرة وإلى الأبد. لم أصبَّ لنفسي كأساً من الويسكي.

«ما زال أمامي الكثير كي أفيد من وجودك في هذا المكان. سوف تتركين بصماتك على العمل هذه السنة؛ ولكنني أرغب في رؤيتك وأنت تقفين على قدميك من جديد.»

قلت: «تكاد السنة أن تنقضي.»

«هناك ثمانية عشر شهراً، تليها سنة أخرى.»

«وإذاً، فأنت ما تزال متمسكاً بالرهان؟»

«هذه هي الطريقة التي تسير بها الأمور.»

«وعندما تقضي وطرك؟»

«لا أفهم ما ترمين إليه.»

«أنا. عندما لا أعود ذات فائدة بالنسبة إليك؟»

«ما الذي تلمّحين إليه يا إنديا؟»

ولجت إلى هذا المكان بعينين مفتوحتين. أنا أعي ذلك جيداً؛ لكنني أردت

أن أنحو باللائمة عليه كي أبرر حماقتي المتمثلة بالسماح له أن يستغلني، ومن ثم، يهينني، والسماح لنفسي بإلغاء ما أنفقته من سنين طوال وأنا أكافح كي أخرج إلى العالم بأعمال إبداعية، والسماح له في واقع الأمر بإغوائي.

«أنت تعرف ما الذي أرمي إليه بسؤالي. ، إلى أين سينتهي بي المطاف بعد أن تربح رهانك؟»

«لقد ربحتُ الرهان. لقد قلتِ أنتِ ذلك للتو.»

كررت سؤالي بإصرار: «إلى أين سأذهب؟»

«آه، هذا ما ترمين إليه، أنت قلقة أليس كذلك؟ هذا ليس من شيمك يا إنديا. أفضّلُ أن أراك وأنت غاضبة.» دفع بظهره إلى الخلف بعنف وهو جالس في كرسيه. أمالَ الكرسي باتجاه النافذة بحيث أصبح رأسه قريباً منها؛ كانت شخصيته تطغى على المكان، يجسدها رجل واثق من نفسه كل الثقة.

«أنت غاضب جداً مني لأنني أخفقت بشكل مريع اليوم، أليس كذلك؟»

«لم يحدث شيء اليوم. هذا ما نطلق عليه وصف رسم الدراسة.» اعتدل في جلسته فجأة، ووضع مرفقيه على سطح طاولة المكتب. لاحظت حِدّةً من نوع جديد في عينيه. «أجل، خسرتِ مبلغاً كبيراً من المال؛ وهو ثمن كبير، لكن هذا ما يمكن أن يحدث للجميع. لكن هذا يصبح مشكلة إذا كان ذلك هو أقصى ما يمكنك تقديمه. عليك أن تتذوقي طعم الخسارة وتعرفي ما الذي تعنيه هذه الكلمة لأنك سوف تعرفين حينئذ أين هو القاع حيث لا تريدين

أن تسقطي فيه مرة أخرى. هذا النوع من التجارة يحتمل بشكل متساوٍ الخسارة والربح. نحن بحاجة إلى خاسرين يا إنديا. هناك دائماً خاسرون؛ لكننا نريد أن يكونوا في مكان آخر. الكثيرون يصنفون في خانة الفائزين هذه الأيام، لكننا نعرف أن ذلك لن يدوم طويلاً، وعندها ستصبح اللعبة قذرة، قذرة بالفعل؛ حينئذٍ سيسقط كثيرون في مهاوي الخسارة. لو قررتِ البقاء بيننا فإنني سأراهن بمبلغ كبير من المال على حقيقة أنك ستطّلعين على حقائق مريعة. سوف تلتهم المصارف بعضها بعضاً حيةً، وسوف يراهن بيروقراطيّو صندوق المضاربات ضد أشخاص أمثالنا. لماذا؟ لأن باستطاعتهم فعل ذلك. وإذا كانت أصواتهم عالية بما فيه الكفاية، فسيكون باستطاعتهم إسقاط العملية برمتها من خلال زرع قليل من الخوف في النفوس. لو تذوّقَ الجميع رشفة من طعم الخسارة، واستفاد منها فيما بعد، لَتحوّلَ وول ستريت إلى مكان أكثر تعقيداً وأضحى أكثر إثارة للاهتمام. أما الحال كما هي عليه الآن، فتتمثل في أننا ننتقل من مخاض الأزمة إلى فورة الفرص الجديدة. إنهم يدفعون لي لقاء تحقيق التوازن بينهما، كما أن اكتشاف الطريق إلى هذه المعادلة يبدأ بالرسوم التي دفعتيها أنتِ اليوم.»

ارتشفَ جرعة طويلة من الويسكي بعد أن رجّها في قَدَحه. بدأت أشعر أن قعر معدتي قد أصبح الآن فارغاً إلى حد ما. هذه الجدران تحولت بسرعة لتشكل محيط وجودي بأكمله.

قال: « هَوَسُ ورد الخزامى». اعتدل بعدها في كرسيه ورفع كأسه قليلاً محدقاً فيها. تابع قائلاً: «هل تعرفين ما الذي أريده منك؟ أريدك أن تعودي إلى بيتك وترتدي هذه الخسارة التي تسببت فيها هذا اليوم كما ترتدين

فستاناً رائع الجمال. وأريد أن تحسّي بها في كل جزء من أجزاء جسدك. أريد لهذه الخسارة أن تتلبّسَكِ.

لم أنبس ببنت شفة لبرهة قصيرة، لكنني تداركت هذا الصمت بالقول: «وماذا إذا لم أرغب أنا في القيام بذلك؟»

«ليس لديك الخيار، أليس كذلك؟»

«لا خيار لديّ؟»

«لقد اشتريتكِ. أنتِ الآن مُلْكي.»

جَفلْتُ، ولكن تجلّى لي بشكل مفاجئ ولا يقبل التأويل أن ما قاله كان صحيحاً بشكل قاطع. لقد فقدت وظيفتي في الجامعة؛ استقلتُ من عملي فيها الصيف الفائت من دون أي تردد. لن يقبلوا بإعادتي إلى وظيفتي أبداً، لقد فقدت مصداقيتي بالنسبة إليهم. فمن دون وظيفتي القديمة أو الجديدة، لن يكون لدي أي راتب أو تأمين على عائلتي. كيف سأدفع رسوم الدراسة للفتاتين، أو لأبريل، أو للأطباء أو أجرة المنزل؟ شعرت بأن تلك الجدران بدأت تطبق عليّ شيئاً فشيئاً.

«وماذا بعد أن تقضي وطرك مني؟»

«سوف تعودين إلى مهنتك القديمة في مجال الكتابة. أنت امرأة ناضجة. سوف تحصلين على وظيفة هنا أو في أي مكان آخر.»

بدأت هذه القصة كلعبة. كنت أعي ذلك جيداً — لعبة كنت أتوق

إلى خوض غمارها تماماً كما كنت تواقة إلى التماهي مع تلك الثقافة: ثقافة المراهنات والهامبرغر، والسهر إلى أوقات متأخرة من الليل، والأرقام. أما اليوم فقد وصلِ كل ذلك إلى طريق مسدودة؛ اللعبة توقفت بالنسبة إليه، كما بالنسبة إلي.

الفصل السادس عشر

انخرطتُ في هذه اللعبة لأنني أردتُ أن أتحقق من إمكانية تغيير مسار حياتي. أردت بطريقة أو بأخرى، أن أتكيف مع واقعي الجديد، أن أمحى من الوجود، وأن أولَدَ من جديد كي أعيش الحلم الأمريكي؛ أن أحيا حياة غير ملطخة بالقلق الدائم والديون. لكن ما الذي كنت أقوم بتقييمه فعلاً في حياتي الجديدة هذه، كما يقال في لغة وول ستريت؟ ما الذي أنبتته تلك الحقول الفردوسية؟ «أرض السعادة...التي أقام فيها المُنعَمون فيها منازلاً.» فُوَطٌ بقيمة ستين دولاراً؟ مرايا بقيمة مائة ألف دولار؟ منتجعات لممارسة رياضة اليوغا وتخفيف الوزن، ومدربون خصوصيون، وسائسو خيول خصوصيون ومرشدون روحيون ومرافقون شخصيون يساعدون في أعمال التسوق؟ سيارات من ماركات أفضل؟ منازل أفضل، ومن باب تحصيل الحاصل، حدائق أفضل؟ دروس خصوصية – تمثل لحظات مقدسة بالنسبة للأولاد – مكرسة لهم خصيصاً؟ خيرة أساتذتهم يُستضافون في غرف المعيشة لإعطاء دروس لهؤلاء الأطفال؟ جولات خاصة في معارض تقام في سرادق خارج المتحف بعد ساعات الدوام – بإشراف دليل سياحي يبذل أقصى ما يستطيع من جهد لشرح أعمال فنانين مثل ديغاس وريمبراندت وإيل غريشو وأربوس وموراكامي لأطفال لم يتجاوز الواحد منهم الرابعة من العمر؟ مربيات في المنازل مدى العمر؟ مدارس خاصة، وجامعات خاصة، وطائرات خاصة، وبطاقات مرور مخصصة لرجال الأعمال عبر ردهات مطلية بماء الذهب، إلى عالم نظيف فردوسي؟ تمارسون متَعِكم وتتمتعون بمغرياتكم وأنتم تعبرون هذه الردهات؟

المسألة تبدأ على الشكل التالي: تحصل على وظيفة، لكنك تريد وظيفة أفضل. تشتري سيارة، لكنك تريد أن تستبدلها بأخرى أفضل منها. تبتاع بيتاً، لكنك تريد أن تنتقل إلى بيت أكثر فخامة. يولد لك طفل، لكنك بعدها تريد طفلاً ثانياً، وثالثاً. اليوم، أنت تقبل أن تصطاف في بيوت شاهقة الارتفاع، لكنك تريد أن تصطاف تالياً في آسبين ثم في غستاد. الزوجة؟ لقد وقعتَ على امرأة أخرى؛ امرأةٍ خفيفة الظل. ما حدث لي يشبه قصة خرافية: هي قصة كاتب لا يهتم إلا بما هو جميل وأخلاقي وصادق، حشرته ظروفه القاسية في الزاوية ما جعله يشعر بالعوز والفاقة لأن العالم من حوله لا يعير الفن أي اهتمام. في لحظة يأس، يوافق هذا الشخص بشكل مؤقت على أن يتبادل المواقع مع ظله؛ إلا أن ظله الذي يعرف كيف يتحرك العالم من حوله، انتهازي وجذاب وواثق من نفسه؛ إنه ناجح بكل المقاييس ومحبوب من قبل الجميع بالرغم من أنه ليس سوى ظل للأصل. بمرور الوقت، يستطيع الظل أن يزيح الأصل جانباً، وفي نهاية المطاف، يندسُّ هذا الظل في فراش زوجة الأصل. يمضي الزمن، يعود الأصل إلى رشده ويستعيد وعيه ويبدأ بالتهديد بفضح كل شيء. تتآمر الزوجة مع الظل لقتله. إنها كوميديا سوداء واضحة في مغزاها المباشر، لكنها دائماً تنزلق بشكل أو بآخر، بعيداً باتجاه تخوم رؤية المرء ووعيه.

عندما كنت برفقة ثيودور والفتاتين في حديقة سنترال بارك على سبيل المثال، وكنا نقف أمام مياه البحيرة المملوءة بنماذج مصغرة من القوارب، وكان ذلك يوم السبت الذي تلا مباشرة فشلي الذريع والمدوي كرأسمالية

مبتدئة، كنت أفكر بوين. كان قد قال لي: «لا تنسي هذا؛ إن ما حدث لك هنا يشبه تلك المراجعات النقدية السلبية التي تقولين إنك لا تنسيها مطلقاً؛ إنها المراجعات التي توقظك بعنف في منتصف الليل. ما هو الوصف الذي كنتِ تطلقينه عليها؟ جلمودُ صخرٍ غرسه أحدهم في معدتك؟ إنه وصف معبّر. إذا أردتِ أن تحتفظي بموقعك هنا، لا تنسي هذا الجلمود.»

كنت ما أزال أشعر بفيض تلك المهانة يغمرني. بعد الكارثة الكبرى التي تسببت بها بفضل أول خسارة للسندات تعرضت لها، أحسست بأنني تلك الكاتبة الفاشلة التي تبادلت بمنتهى الغباء المواقع مع ظلها، وأن الظل نفسه، فقط في هذه النسخة من القصة، يتلقى التوبيخ الذي يستحقه بعد أن يسقط أرضاً في سوق السندات المالية التي تسحقه بعد أن تدهسه كحافلة من أجل أن تذكّره، بطريقة لا يمكن أن تحدث إلا في مدينة نيويورك ، أنه في نهاية المطاف، ليس سوى ظل بالٍ.

كان ذلك يوم سبت خريفي بارد، وكانت الأشرعة الصغيرة البيضاء لمجسّمات القوارب وحيدة الصواري تصطدم ببعضها بعضاً برفق على أمل أن تتخذ سبيلها ضمن مسار تلك النسمات الخريفية التي تهب فتدفعها إلى الأمام. كانت أرزات لبنان بأطرافها العارية تزيّن الأشجار التي تشبه الشمس على الشاشات اليابانية الصنع. وكان بعض الخدم الذين يرتدون ثياباً رسمية ينزّهون سيدات عجائز يجلسن في كراسي متحركة. كانت جليسات الأطفال يهدهدنَ الأطفال الرضّع في عرباتهم الصغيرة. أما الصبيان والبنات فقد كانوا يقفون متسمرين أمام زوارقهم الشراعية الصغيرة بينما كانت السحب

تزحف ببطء وتتجمع في كبد السماء مثل مناطيد موجهة عن بعد. هذا العالم جميل وحزين في آن – فنانة تقف أمام مسند للرسم عليه لوحة قماشية، وترسم هذا المشهد بالألوان المائية. كان هناك أيضاً مجموعة من الأجانب الذين كانت تبدو عليهم أمارات السعادة وهم يرطنون بلغتهم الأجنبية.

قال ثيودور: «لستِ مضطرة للاستمرار في هذا العمل إن شئتِ.» كنت قد سألته قبل ذلك، لماذا لا نستطيع الهرب بعيداً عن هذا المكان ونعيش على متن قارب لمدة سنة، نقوم خلالها بتعليم ابنتينا منزلياً. لقد سمحت لنفسي أن أصبح ألعوبة في أيدي مقامرين كبار يتلهّون بألعاب كبرى. كان بإمكاني تخيل وجه ليلي بتعبيراته اللائمة والحائرة في آن. لقد تحدثتْ عن نفس هذه النقطة ولكنني لم أعِرْها أي اهتمام. لقد خسرت نفسي حتى عندما فزت لصالح وين. عندما تم كل شيء وقيل ما قيل، كنت أنا من خسرت كل شيء؛ لقد كنت أنا من ضاعت. كشّ ملك.

كانت ابنتاي قد استأجرتا قاربهما الموجّه بواسطة جهاز التحكم عن بعد، وكانتا توجهانه بدقة في عباب الماء بين الزوارق الأخرى وكانت تستلهمهما الرغبة الأكيدة في أن تنجحا فيما تقومان به. ركضتا باتجاهنا حيث كنا نجلس على أحد المقاعد في الحديقة (كان هذا المقعد وضع هناك من قبل عائلة سيلفرستين تخليداً لذكرى مارني ري 1999-1909) لالتهام لقيمات صغيرة من البسكويت الهش ألقمناهما إياها كما العصافير الصغيرة، عادتا بعدها راكضتين باتجاه البحيرة من جديد. كانت روبي بعينيها البنّيتيْن البريئتين قد أعلنت لنا ونحن في طريقنا إلى الحديقة (ممتطين الدرجات الهوائية) أن صديقتها أدا لا تعجبها ممارسة رياضة الزوارق الصغيرة في هذا المكان، وأن

ممارسة هذه الرياضة في حديقةٰ لوكسمبورغ هي أكثر إثارة. أعلنت روبي أنها تود أن تذهب إلى تلك الحديقة بدلاً من هذه. بسرعة، علّقت غوينيث التي لم تكن تفوّتْ فرصة لتوبيخ أختها: «أنتِ مدللة كثيراً. فحدائق لوكسمبورغ موجودة في باريس وليست هنا.» أجابت روبي: «وإن يكن؟». ردت غوينيث وهي تقلب عينيها: «أنتِ لا تُطاقين.» ثم أتت الشكوى مباشرة: «أمي، غوينيث لئيمة.»

هل هذا ما أردتُ لهما أن تَرِثاه؟ السير في مضمار الحياة بسهولة ويسر، ومن دون أية عوائق برفقة أصدقاء يمكن أن يمارسوا هواية اللعب بقوارب صغيرة في قارات أخرى؟ في شركة بي أند بي هناك أشخاص من كافة أنحاء العالم: هنود وأمريكيون من أصل أفريقي وصينيون وكوريون، وأمريكيون بيض بروتستانت من أصول أنغلو سكسونية ويهود، وآخرون. هؤلاء يصلون إلى هنا كل سنة؛ إلا أنك لا تشعر بأي تنوع. فالرغبة في كسب المال وحّدَتْ بينهم وجعلتهم سواسية؛ كما أزالت الحدود فيما بينهم وجعلت منهم لوحة متجانسة موَحّدة.

كانت إحدى الأمهات تقف أمامنا مُحاوِلة أن تهدّئ ابنتها البالغة من العمر سنتين وكانت تبكي لأن الأم نسيت نظارتيْ الصغيرة الشمسيتين في البيت، فقامت الأم بوضع نظارتيها الشمسيتين من ماركة شانيل على عيني الابنة. «هذا أفضل، أليس كذلك؟ انتبهي أن لا تقعا من على عينيكِ لأنهما غاليتان جداً.» كانت كلتاهما ترتديان ملابس جلدية من نفس النوع واللون، وتضع كل منهما لفحة من الكشمير حول عنقها. كانت النظارتان على عيني

الطفلة بشعارهما البارز على أحد سواعد النظارتين تبدوان مناسبتين لوجهها وهما تسترخيان على أرنبة أنفها الصغير.

قال ثيودور: «افعلي ذلك، إذا كان هذا ما تريدينه؛ أما إذا كان الأمر عكس ذلك، فانسحبي وقولي: وداعاً.»

«ولكن ماذا عن الوظيفة؟ سوف لن تكون لدي أية وظيفة.»

«سوف نتدبر الأمر. هذا يندرج في إطار المرح. عليك أن تتذكري ذلك دائماً.» انعكست أشعة الشمس على شعره الفضي ما جعله يبدو أكبر عمراً من سنه الذي يبلغ التاسعة والثلاثين. كان شَعْرُ مِفْرَقَيْهِ أشيباً بشكل كامل. متى حدث له ذلك؟

قلت: «لو انسحبت الآن، فسيبدو الأمر وكأنه عجز عن الاستمرار في هذه الدرب.» هذا هو الاتجاه الذي آلت إليه الأمور: الخوف من كيفية تلقّي هذا القرار.

قال: «أنتِ تمزحين، من دون شك.»

تَقَرَّرَ أن يُفتَتَح معرض ثيودور في حيّ فورت وورث بعد بضعة أسابيع. أمضى ثيودور أشهراً عدة في عمله للتحضير لهذا المعرض والترويج له من خلال مقابلات أجراها مع مختلف وسائل الإعلام، والترتيب لاقتراض أعمال يمتلكها بعض المولين والمتاحف. كم أحببت في تلك اللحظة أن أكون مجرد زوجة فنان. كان بإمكاني الإشراف على كافة مستلزمات هذا النشاط الفني في الوقت الذي يكون هو منهمك في عمله. ربما كان بإمكاني أن أكون

مصدر وحي له. فكرت في إيما؛ فعائلة تشايمان عادت الآن إلى نيويورك لأن ولاية مين ليَست المكان المناسب للسكن في الشتاء، إضافة إلى أن ويل كان مشغولاً بالترويج لإعادة طباعة روايته، وكان قد اتصل بي ليسأل فيما إذا كانت جولة على امتداد ستة أيام تكفي من أجل هذا الغرض، وليقرأ لي المدائح التي كيلت للرواية والتعريف بها، وليبلغني عن خطط إيما لإقامة حفل مفاجئ بالاشتراك مع وين وكافيللي محذراً إياي من إفشاء هذا السر. كان ائتمان ويل لي على هذه الأخبار عن روايته مصدر تقدير وإزعاج لي في نفس الوقت. فقد أشعرتني رغبته في إطْلاعي على أخباره أنه ما يزال لي موطئ قدم في عالم يريد أن يستحوذ عليه، وأن بإمكاني إسداء نصائح ذات قيمة حول هذا الموضوع، بإمكانه الإفادة منها واستثمارها.

قلت: «أريد أن تنقذَني.» لم يكن ثيودور شخصاً عاطفياً. فهو لا يضيع وقته في التفاهات. لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين يغازلون زوجاتهم وهم يتناولون العشاء في أماكن عامة على ضوء الشموع أو يقدمون لهم الورود أو يافطات كبيرة مكتوبة من أجل أن يشاهدها الآخرون ويبدون إعجابهم بها: انظروا إليه، ياه! كم يحب زوجته، أو ممن يستأجرون طائرة تطوف أجواء المدينة ومعلقة عليها من الخارج يافطة كبيرة مكتوب عليها كلمة «أحبكِ»؛ أو يقومون بإنفاق مبلغ خمسمائة ألف دولار على معرض للألعاب النارية فوق نهر هدسون. كلا، فعواطف ثيودور خصوصية جداً مثل قبلاته؛ وهو لا ينتمي كذلك إلى فئة المنقذين. لذلك فإنه يضحك عليّ الآن. عدتُ بالذاكرة إلى الأمسية التي قضيناها معاً لأول مرة، ونحن نسير بمحاذاة «جدول الخلاص» كما أطلق عليه حينئذ؛ كم تخيلت نفسي كمّاً منبوذاً عثر هو عليه

في تلك المياه وانتشله منها وأعاده إلى الحياة ، وخلق منه كائناً كلياً متكاملاً من جديد.

«لن تدعيني أنقذك حتى إن حاولتُ ذلك.»

رفعتُ كتفيّ مبدية نوعاً من اللا مبالاة وقلت: «أظن أنك محق.» لكن ذلك لم يكن صحيحاً أبداً. لقد أردت المستحيل: أي أن أصبح ما لم أَكُنْهُ، أن ينقذني رجل من نسج خيالي، ولا يمتُّ بِصِلَةٍ في فعله ذاك إلى طبيعته التي أعرفها فيه. في غضون ذلك، كنت أغرق باتجاه أعماق أكبر وأنا أراقب ابنتيّ في ضوء ذلك اليوم الخريفي. كانتا حرّتيْن. كان بإمكاني تبيُّنُ ذلك لأنني غيّرت مهنتي؛ لقد تأقلمتا مع الواقع الجديد وتجلّى ذلك في نظرتيهما إلى العالم من حولهما، كان ذلك انقلاباً دقيقاً، لكنه انقلاب أتت به المصادفة بالنسبة إليهما على أية حال؛ وهو انقلاب تعاملتا معه من خلال الفطرة وليس من خلال الاستيعاب. كانت وتيرة تواجدي معهما أقل من السابق، لكن قلقي بشأنهما كان قد أصبح أقلّ أيضاً. بدأتا تشعران من خلال ذلك الفضاء المفتوح أنهما تنتميان إلى هذا العالم، وأن من حقهما أن تطالبا بحصتيهما فيه باعتبار ذلك حقاً من حقوقهما لا يمكن لهما التفريط به، كما شعرتا بأن كافة رغباتهما مبررة وشرعية، وأن من الضروري ربما، تحقيق كافة نزواتهما الطائشة. أتذكر ما قالته ذات مرة إحدى الأمهات بعد أن خسر زوجها وظيفته: «لكن الأطفال متعودون على نمط من الحياة لا أملك إلا المحافظة عليه.»

حقاً! طالبت ابنتاي بترميم الشقة التي نسكن فيها بحيث يصبح لكل منهما غرفتها الخاصة بها – كان هناك خيار آخر أفضل بالنسبة إلى كليهما

يتمثل في الانتقال إلى منزل أكبر، وهو أمر سبقت لنا مناقشته كثيراً لكنه الآن تحول إلى أمر لا بد من تنفيذه. أضافت غوين قائلة: «وسوف يكون مُلْكنا.» كان بإمكان الفتاتين حتى في هذه السن المبكرة استيعاب أهمية امتلاك منزل للسكن. استطاعت الفتاتان، بالتأكيد، من خلال شرحي لهذا الموضوع، استيعاب طبيعة سياسة الضرائب الحكومية التي تقدم تسهيلات لمالكي المنازل. ما الذي كنت أنقله لابنتيَّ؟ ما الذي أصبحتُ عليه؟ بدأت أشعر بأن مجامعي مأخوذة بقوة خارجية – هل كانت تلك أسواق رأس المال في العالم؟ تساءلت مرة أخرى: لماذا سمحت لنفسي الانزلاق إلى هذه المتاهة.

بينما كنت أتمرغ في اليأس الذي سقطتُ في براثنه بسبب نوع الحياة الجديدة التي انغمست فيها، تراءى لي فجأة طيف كل من تايغر وصديقته – لأن هذا بالضبط ما كانا يقومان به. كانا منغمسيْن فيما يمكن أن يُطلَقَ عليه وصف السير بخطى وئيدة صادقة. هي تحمل قارورة محكمة الإغلاق في داخلها فقاعات، ترتدي قميصاً صيفياً، دائمة الابتسام وتفيض حيوية؛ وهو يمسك بيدها كما لو أنه يريد أن يشكمها من ناحية، ويتماهى معها من ناحية أخرى. تايغر هذا، هو مساعد سنيك، وهو ثاني أفضل بائع في الصالة؛ في نهاية العشرينات من العمر، بجانبه حبيبته، وهي نفس الفتاة التي يضع صورتها بالبكيني على طاولته؛ كانت برفقته هناك لتشجعه من أجل الفوز بالسباق. لقد أتيا إلى هذه الدنيا تحت أشعة الشمس كما لو كانا قد خرجا من إحدى اللوحات الفنية. في هذا اليوم الصيفي الهندي، كان يرتدي قميصاً واسعاً وبنطالاً قصيراً يكشف عن بطّتيْ ساقيه المتناسقتين. كان

يبدي اتزانَ من يمسك بمقاليد الأمور. في عالم الواقع، وبعيداً عن أفراد الفيلق الذين يشبهونه، كان هو أشبه ما يكون بالنسخة طبق الأصل التي تم إعدادها وصقلها في سن مبكرة؛ كان يتوق إلى أن يصبح ذلك الرجل الذي أراد لنفسه أن يكون؛ مثله في ذلك مثل الكثيرين من أقرانه. هي أيضاً تم إعدادها وصقلها في مثل هذه السن المبكرة من قبل أبويها اللذين وجّها بناتهما لتوقع نيل الكثير، من أجل أن تتكئ على ذراع مثل هذا الرجل، وعدم القبول بأقل مما يردن بالضبط. كان ذلك جلياً على قميصها (خصوصاً في منطقة العنق المتصلة بالصدر)، وفي مشيتها وابتسامتها السلسة التي تطفو على كامل شفتيها، وخطواتها الواثقة. (ألم أتعلّم القيام بكل هذه الأشياء؟ أجل، لكن أحد الجينات الخاصة في داخلي دفعني في وقت مبكر من حياتي إلى السير في طريق الفن، وقد قررت أن أعيش حياة الفنان بأي ثمن، خصوصاً بوجود زميلٍ لي وقف إلى جانبي وساعدني في تحقيق هذه الأمنية.)

كان هذان الشخصان نتاجاً خاصاً لهذه اللحظة التاريخية. سوف يتصدران قريباً الزوايا التي تغطي حفلات الأعراس في مانشيتات صحف يوم الأحد، بوجهيهما الباسمين وكأنهما يقولان إن الحياة جميلة. أردت أن أستبق الأمور وأتخيل ما الذي سوف تخبؤه الحياة لهما. أردت أن أرى مسبقاً القوس الكامل للقصة. (توقفا حينها فجأة لمشاهدة القوارب: هو يمسك بيدها بإحكام أكبر.) أردت أن أرى ذروة القصة وخاتمتها — طلاق يتم بشكل بشع بين الزوجين، مال كثير يتبدد في كل اتجاه، أحداث غير لائقة تتورط فيها مجموعة من النسوة وطلبات يُشتَمُّ منها رائحة المراوغة والخداع

من أجل الحصول على المزيد. أظن أنني ما زلت أفكر بأسلوب الكاتب الروائي، ما جعلني أشعر بالسعادة والرضا.

خطر ببالي حينها أنني مشدودة إلى وين منذ مدة طويلة (شعرت بأنها كانت مدة طويلة على أية حال) لأنه أعلن أنه عرّاف، وبالتالي فبإمكانه استشراف ما سيجري، وكذلك قراءة المستقبل. على نفس المنوال، فقد كان هو مشدوداً إليّ لأنني كنت بدوري، أعتبر نفسي عرّافة. الآن، انتهت مرحلة الإغواء المتبادل، ولم يبق منا سوى حقيقة ما نحن فيه وعليه: أعني إخفاقاتنا، وحقيقة أن اللعبة التي كنا نلعبها قد شارفت على النهاية. لقد طلب إليّ ارتداء الخيبة والمهانة، وأجسدهما بالكامل، ثم أعود فأهيئ نفسي للقتال من جديد. هل بإمكاني القيام بذلك؟ هل كنت أريد ذلك فعلاً؟ هل كنت أريد الاستمرار في الاستثمار في عالم وضع فجأة هذين الزوجين المنسيين أمامي، واللذين كما تبين لي لاحقاً، لَم أكن أرغب في أن يرياني وأنا أجلس على ذلك المقعد في الحديقة أو في أي مكان آخر؟ فإذا كان هذان الشخصان قد خَطَوَا خارج رسم أو صورة حيث كانا يقبعان أصلاً، إلى العالم الحقيقي، فإن ذلك بالضبط هو ما حدث لي أنا أيضاً، لكنني كنت أرغب في أن أبقى متوارية عن الأنظار.

كان ثيودور قد نهض لينضمّ إلى الفتاتين اللتين كانتا ما تزالان تلهوان في قاربهما. تمنيت، بينما كنت أراقبهم، أن يمر بنا تايغر وصديقته. كان وين قد نصحني بأن أظهر «بمظهر الشباب»؛ وها أنا اليوم أجلس محاطة بالوجبات السريعة والشطائر والعائلة، وأظهر بمظهر متوسطي العمر. عاد ثيودور متجهاً صوبي، ثم سمعت أحدهم ينادي عليه بالاسم؛ كان الصوت مألوفاً. لقد

كانت تلك رنة الصوت الرخيمة تشبه لكنة ويل تشابمان وناشر رواية ليلي ستار – كافيللي، و ليوناردو بيكاديللي.

«ثيودور لارسون.» كانت اللكنة أكثر أناقة من مجرد إخفاء حرفيْ الراء في اسمه الأول وكذلك في اسم عائلته، فقد أوحت هذه اللكنة أن هذين الحرفين غير موجودين أصلاً في الاسم والكنية. ثم، فجأة ظهر بجسمه بعد صوته أمامي مرتدياً سترة صوفية خشنة من ماركة هاريس، وربطة عنق صوفية تتماشيان مع صورة الرجل المحترم: سيارة وسائق ومقصورة في دار الأوبرا، وطاولة محجوزة بشكل دائم في مطعم دينو. كان شذى عطره يفوح في المكان ويدل على مدى نجاحه. كان مثلَ وين، مقامراً ذكياً وإن من نوع آخر؛ كان بإمكانه معرفة مَنْ مِنَ الكُتّاب يحقق نسبة أعلى من المبيعات وبالتالي يمكن أن يتم تقديم الدعم له – هذا هو المزج الفريد بين الموهبة والجرأة السطحية. استطاع منفرداً بشكل أو بآخر، تغيير اتجاه السوق في أيامه من خلال التركيز على عبادة الشخص.

حتى لو لم تكن لديكم أية فكرة عمن هو هذا الشخص، فقد جسّدَ صورةً من نوع أو آخر للمتأمل وصاحب الرؤية الشجاع؛ كان يعرف كيف يتحرك العالم وفي أي اتجاه، واستثمر تلك المعرفة إلى أقصى مدى ممكن. كانت زوجته الهندية الأصل وابناه الصغيران يتبعونه (زوجته كاتبة روائية أصغر منه سناً بكثير؛ ونعم، كان هو من ينشر لها رواياتها). ثم تلفّظ باسمي سائلاً ثيودور أين يخبئ زوجته الفاتنة إنديا بالمر. قال اسمي بصوت مرتفع ومسرحي شَرْعَنَ لقبه: كان لقبه هو «الجسور»؛ كان جسوراً جداً. كان وجهه عريضاً وذا ملامح قوية، وكان متوسط الطول ووقفته مدروسة. شعرت بالتوتر

المعهود الذي كنت دائماً أعاني منه في حضوره والناجم عن شخصيته الطاغية التي كانت تهيمن عليّ — كنت أشعر أن بإمكانه تغيير مجرى حياتي إن شاء، وأن بإمكانه إنقاذي من خلال نشر رواية لي بطريقة لائقة. في تلك اللحظة، بدأت أرتجف كما لو كنت أقف أمام حبيب قديم. هذا الإحساس أصابني بالفزع.

بعدها، وبمجرد أن سمع أحدَهم ينطق اسمي، استدار تايغر، الذي كان يقف أمام البحيرة ويشاهد القوارب، واتجه نحوي. كنا نحن الأربعة — تايغر وثيودور وكافيللي وأنا — نشكل رباعياً حيث وجدنا أنفسنا نتبادل تحيات تحمل في طياتها طابع المفاجأة. كانت مفاجأة كبيرة بالنسبة إلي وإلى تايغر أن نرى بعضنا بعضاً خارج نطاق العمل كما لو أن أشعة الشمس جعلت منا أشخاصاً مرئيين وحقيقيين. ثم كان هناك بيننا أيضاً كافيللي الذي بدأ يتفحص تايغر من خلال إجراء مسح عينيٍّ شامل له؛ كان يقيسه من الأعلى إلى الأسفل قرر بعدها أن ذلك الشخص أتى من مدار مختلف. قدّمَ تايغر صديقته بعد أن طلب إليها الانضمام إلى ذلك الجمع. اسمها فيرونيكا. الاسم كان يناسبها فقط بالطريقة التي كانت ترمي فيها شعرها إلى الخلف. مدت يدها إلى كل من كافيللي وثيودور مصافحةً. عرّفَ تايغر بنفسه مستخدماً اسمه الجديد روبرت ليبينكوت الذي لم يستعمله أبداً. كان اسماً طريفاً بل ومضحكاً كما لو أنك تتحدث عن شخص غريب — وهو كان كذلك في المحصلة بالنسبة إلي لأنني أراه للمرة الأولى في ضوء النهار. أوضح لهما أنه زميلي في العمل. أنا متأكدة من أن كافيللي افترض بدايةً أن تايغر كان زميلي في الجامعة. جاء بعد ذلك دور كل من كافيللي وثيودور ليعرّفا بعلاقتهما بي:

ناشر سابق وزوج. كان المشهد برمته مثيراً للإرباك – هناك لحظات تمر بالمرء في حياته تلعب فيها المصادفات التي تتواتر وراء بعضها بعضاً لعبتها فتشكل ما يشبه الانهيار الثلجي. قالت فيرونيكا موضحة الالتباس كما لو أن تلك المعلومة يمكن أن تغير من الأمر شيئاً: «ولكنه يدعى تايغر.» أجاب كافيللي مبتسماً بينما كان يمد يده لمصافحتها: «حقاً؟»

استوعب تايغر تلك الإجابة فطفت ابتسامة رضاً على شفتيه اللتين كانت تبدو عليهما علامات نفاذ الصبر. يمكن أحياناً لنفاذ صبره أن يكون عاملاً مساعداً له، ولكنه غالباً ما كان يشكل عائقاً أمامه. توجّه بعد ذلك بنظره صوبي، وكان يبدو أنني كبرت قليلاً – كانت الفتاتان تتسابقان وهما تتوجهان صوبي لمعانقتي، وكما لو كانتا تنتظران بالدور، ألقمتُ كلٍّ واحدة منهما قطعة من البسكويت الهش – وهذه الحركة تحديداً جعلتني أبدو أكثر تقدماً في العمر، فلنقل من سن الثلاثين إلى سن الخامسة والأربعين. كان تايغر يشاهد المكوّن الذي صنعه وين عارياً وعلى حقيقته أمام عينيه وبكل تواضع، ما جعله يصبح أكثر توتراً. كافة الباعة يستمتعون بهذا الحس من التوتر بالرغم من أنه لم يكن متأكداً من ردة فعله إزاء هذا التوتر الذي لم يألفه من قبل.

كان كافيللي يتفحص تايغر الذي كان بدوره يتفحصني. كان كافيللي بأسلوبه الغريب يتطلع إلى سبر أعماق تايغر الذي أعلن للأشخاص الخمسة الحاضرين أنني «النجمة الصاعدة». وقال أيضاً: «سيكون بإمكانها أن تروّج لروايتها بنفسها في غضون سنة من الآن.»

عَلَتْ وجه كافيللي أمارات الدهشة وسأل تايغر عما يعنيه بكلامه الغريب هذا. لمعت عيناه. لم ينتابه الفضول يوماً كما يشعر به الآن لمعرفة ما أنا بصدده. نظر تايغر إلي، ونظر كافيللي إلى ثيودور وقد رفع حاجبيه من شدة الدهشة: مَلِكُ عالمي القديم ينتظر جواباً، أما عالمي الجديد فإن ملكاً آخر جديداً يعتلي عرشه. وبالرغم من أن كافيللي لم يعرني أي اهتمام لسنين طويلة فإنه ابتسم وأظهر في الوقت المناسب اهتماماً مُضمَّخاً بالتقدير والاحترام، وكان ذلك رائعاً. كنت أنا من تركه وليس هو من تركني. كان قد قدّم لي عرضاً معقولاً بشأن روايتي الثالثة، لكنني رفضته حينها لأنني اعتبرت أنه كان غير منصف بحقي. كان يتفهم كيف يتحرك العالم، وبالتالي لم يشعر بالغضب أو المرارة؛ لذلك فقد أخبرته عن التحول في حياتي.

قلت: «أصبحت تاجرة أسهم وسندات.» لم يكن ذلك بعيداً من حيث الشكل عما واجهته في بداية حياتي المهنية ككاتبة؛ فقد كنت أقول للناس (عندما يسألونني عن طبيعة عملي) إنني كاتبة روائية. كنت أقول: «أنا روائية»، وكنت أشعر حينها أن قامتي أطول من المعتاد. أنا كاتبة روائية. أنا تاجرة أسهم وسندات. باستثناء أن معظم الناس لم ينفجروا بالضحك عند سماعهم هذه العبارة كما فعل كافيللي حينها. يا له من ارتقاء في سلم المهنة.

مع ذلك، حدث شيء رائع؛ رائع وغير متوقع: فقد تولدت لديَّ رغبة عارمة للعودة إلى شركة بي أند بي صباح يوم الاثنين حيث سأسير باتجاه مكتبي وأبدأ بعقد الصفقات التجارية من بيع وشراء، وأتعلم من الخطأ الذي ارتكبته، ثم أتعلم كيف أكون أكثر استعداداً للانخراط من جديد في عالم

التجارة، ليس من خلال منطق اللعبة بل من منطلق العاطفة. أقول بكل بساطة، إنني لن أقبل بأن أكون مادة للتندر. ما كنت لأقبل بعد ذلك أن يعتريني الخوف من كافيللي (بكل ما يمثله)، بكل بساطة. حدقت في وجهه وأنا أشاهد أيضاً كيف يمكن أن تكون الضحكة جميلة.

قال كافيللي: «سوف تشرحين لي عن كل هذه الأمور في وقت لا حق يا إنديا».

قلت بينما كنت أضع فوق شفتيّ أعذب ابتسامة يمكن أن أخرج بها: «أعدك بذلك.»

فيرونيكا التي أصبحت الآن واحدة من هذه المجموعة اعترفت بأنها تعتقد أن ما حدث لي يعتبر قصة مدهشة: «كانت هذه القصة محور حديث تايغر في جلساته الخاصة على مدى أشهر.» رمقتني بنظرة إعجاب صادقة بعثت في أوصالي الدفء وجعلتني أشعر بأنها قريبة مني، ما دفعني إلى الرغبة في أن أتعرف إليها عن كثب.

قال كافيللي: «علي أن أعترف بأنني لم أكن أتصور أن إنديا يمكن أن تنتهي بها الأمور إلى ما آلت إليه.»

كنت أعرف كافيللي معرفة جيدة؛ أو دعوني أقول، إنني أعرفه حق المعرفة بصفته ناشراً. كان يحب تناول الغداء الذي يمتد إلى وقت طويل مترافقاً مع بعض أقداح النبيذ (ومن حين إلى آخر، كان يطلب زجاجات من النبيذ)على طاولته الخاصة في مطعم دينو. لم أكن مميزة في هذا السياق، لأنه كان يفعل

ذلك مع كل المؤلفين المحليين، أو المؤلفين الذين يفدون إلى المدينة، والموجودة أسماؤهم على قائمته. لم يكن يميز بين هؤلاء. فإذا كان عملك يستحق النشر، فأنت تستحق أن تُدعى إلى طاولته لتناول الغداء. أعلن كافيللي أنني كنت كاتبة مرتبطة بدار النشر التابعة له لكنني تركته من أجل حفنة قبيحة أكبر من المال. رمقتني فيرونيكا بنظرة فيها الكثير من التعاطف، لكن كان من الواضح أنها لم تستسغ عبارة «المال القبيح»؛ عند هذه النقطة ربتت بلطف على يد تايغر وذكّرته بأنهما سوف يتأخران إذا لم يغادرا الآن. غادر الاثنان بعد أن تبادلا تحيات الوداع مع الجميع.

توجّه ثيودور إلى الفتاتين بعد أن نادتا عليه؛ بقيت أنا وكافيللي لوحدنا لفترة وجيزة قبل أن تنادي عليه زوجته كي يستعدا للمغادرة. قال: «كانت تلك غلطتك يا إنديا»، مفترضاً أنه ملم بالصورة الكلية، أي الدرب التي قادتني إلى هذا المسلك – ماذا يمكن أن نطلق عليه؟ – هذا القرار؛ ومن جديد، تبدّى أمامي بوضوح الشوق الذي أشعر به للعودة إلى العمل صبيحة يوم الاثنين. لقد سبق لي أن لبست ثوب الفشل، ولا يمكن لي أبداً أن أنسى مقاسه. لن تكون لعالمي القديم أية سلطة عليّ بعد اليوم أبداً. فقد تحررت. كنت أحرر نفسي. لأن ما أضحى واضحاً حينها وضوح الشمس في رابعة النهار أنني كنت راغبة في ترك مهنة الكتابة لأنها لم تعد تنتمي إليّ. مهنة الكتابة أصبح يسيطر عليها للأسف رأي الآخرين وقوى السوق الغامضة وقوة تأثير المال؛ المال الذي يعتبر المؤشر الأعظم على قيمة المرء. لم يعد بإمكاني بذل جهد كبير في العمل في مجال الكتابة بعد أن قطعت صلتي بهذه المهنة.

تابع كافيللي قائلاً: «كنت دائماً مستعداً لنشر رواياتك يا إنديا؛ فأنا أكنّ احتراماً شديداً لموهبتك. أرجو أن لا تزعجك طبيعتي الأبوية الحميمية.» سار بعيداً عني ليلحق بزوجته، وكان الولدان يركضان أمامهما. وحالما اختفيتُ عن ناظريه، اختفيتُ من تفكيره؛ لكنه لم يغادر تفكيري بهذه السرعة. أيُّ خيرٍ أرجوه من نشره لرواياتي؟ راقبته وهو يشق طريقه باتجاه البحيرة بخطوات بطيئة تاركاً وراءه أولئك الذين يستمتعون بقضاء يوم سبت لا عمل فيه؛ ليس كبجعة تفارق البحيرة، كما قد تصورته ذات مرة، بل كرجل متقدم في السن على شاكلته. فعلت هذا الشيء قبل ذلك، لأنني تحدّيْتُ نفسي هنا، وكدت أنجح في ذلك. لم يكن لذلك أية علاقة بوين. لقد حملتني رغبتي في العودة بعيداً للحظة، على متن موجة عظيمة من الأمل. الرهان الآن هو بيني وبين نفسي.

الفصل السابع عشر

كنت أريد تحقيق شيء واحد فقط. أردت أن أفوز.

أردت أن أواجه الخطر، وأحس بنشوة اللحظة الحاضرة وقوتها، أردت أن ألامس «الآن» الدائمة. الخطر يدفعني للرقص على حافة الجرف؛ وهي الفرصة التي أبحث عنها منذ مدة طويلة. فمن دون المخاطرة، تكون مجرد بائع وثائق مالية حكومية. ستنضم إلى عداد الكادحين. المخاطرة بالنسبة إلي هي بمثابة الريح التي تعصف بشراعي؛ وهي الإكسير الذي يمدني بالطاقة. بدأت أحيا تحت تأثير إثارته، تحت تأثير دوامة الأحداث التي تعصف بشاشة بلومبيرغ. التحدي الأكبر كان يكمن في تسيِّد هذه الدوامة واستخدامها في كل ما قد يخدم صالحي.

كانت تلك القوة تشعرني بالرهبة والخوف، وكانت سرعة حركة السوق تُدبُّ الذعر في أوصالي، وكذلك المبالغ الطائلة التي تستثمر في السوق. ولكن كما ذكّرني وين، فلا يمكن للمرء أن يتحسن أداؤه في العمل إلا إذا كان ينتابه شيء من الخوف بين الحين والآخر. عليك فقط أن تروّض هذا الإحساس. تأكدْ من ثباتك فوق مزلاجيْ التزلج على الثلج؛ فالمطبّات والعقبات لا بدّ قادمةٌ ولن يكون بمقدورك الهروب منها، ولكن إذا لم تخاطر بشيء ما، فإنك لن تجني الكثير. أردت أن أفوز، ولذلك فقد قررت أن أواجه مخاطر كبيرة.

سجّلتُ بعض النجاحات الصغيرة بالتأكيد، وحزت على احترام من حولي وتقديرهم. لكن يبدو أن الناس لا يتذكّرون سوى العمليات الكبرى؛ أي إما عندما تلتهمُ مَنْ هم حولك، أو عندما يلتهمك الآخرون. لم يكن ذلك من

باب الشماتة، هذا إذا غضضنا الطّرْف عن مسألة الطقوس المرافقة للمسابقات - مثل مسابقات التهام الهامبرغر وما شابه ذلك - بل لأن التخبط المالي كان هو الامتحان الحقيقي الذي يظهرك على حقيقتك، ويعرّفهم على نوعية الشخص الذي يتعاملون معه. إن رباطة الجأش عند الفشل هي ما تشدّك إلى القبيلة وتربطك إليها. كانت الخطة حينها تقضي بضرورة تطوير ذاكرة انتقائية رائعة في داخلك ورعايتها من أجل مثل هذه الأشياء التي أضحت مع مرور الوقت - لأن سنتين في مثل هذا العالم تعتبران عمراً جيولوجياً بحد ذاته - تشبه طبقات من الترسبات التي تعتبر المادة المكوّنة والمحددة لك داخل إطار عقلك كما في العقل الجمعي للقبيلة التي أصبحت الأرضية التي وقفتَ أخيراً عليها من دون مساعدة أحد؛ عندها تكون شخصاً صنع نفسه بنفسه كما يقول أفراد العصابات؛ أي أنك تصبح نداً لمن هم حولك.

كان الجميع يعرف أشكال الكوارث وطعمها. أضحت تلك العقدة في المعدة مثل الحربة. راحات الكفوف التي تتصبب عرقاً. الإحساس بالوحدة القاتلة؛ إنه الإحساس الناجم عن كونك غير مؤهل البتة لتبوء الموقع الذي اؤتمنتَ عليه في الوقت الذي تكون صالة البيع تعجُّ بأصوات الباعة والتجار الذين يشقون طريقهم نحو الشهرة والنجومية، والذين سيسخرون منك بينما تجلس على البيضة التي بِضتَها وتهيئ نفسك لتلبية دعوة وين للمجيء إلى مكتبه. ثم يأتي بعد ذلك دور الصراخ وقذف الأشياء عبر الغرفة. جميع الفتيان أرادوا الإطلاع على ما كان يحدث - كان ذلك بالتأكيد تسلية رائعة؛ وهي من النوع الذي يتحدث عنه فنانو الكوميديا عندما يطلقون العنان لنكاتهم على خشبة المسرح. «حقاً، إن الأمر مضحك للغاية!» لا

شيء في عالم الكوميديا ما هو أكثر إثارة للضحك. لكن الشباب أرادوا أن يراقبوا كيف سأخرج من هذه الورطة، وكيف سأنجو بنفسي. سوف يراقبون ذلك بعين الخبير العارف لأننا في نهاية المطاف كنا نعتمد على بعضنا بعضاً. كنا بمجموعنا عرضة للكثير من الهجوم والانتقادات. لقد رغبوا في أن يتعرّفوا أكثر على تلك المرأة التي انضمت إليهم في حفرة الثعلب تلك.

وهكذا، ففي اليوم الذي أعقبَ الإخفاق الكبير، ارتديت تنورةً عند ذهابي إلى العمل – أي عند توجهي إلى حفرة الثعلب، كما يقال – كانت تنورة صوفية فضفاضة بنية بلون الشوكولاته ومزينة بشرائط على أطرافها، كما ارتديت قميصاً عاجيَّ اللون من الساتان مزيناً بشبكة بنية اللون على الظهر، ووضعت حول عنقي عقداً ذهبياً مليئاً بأحجار كريمة وردية اللون (قام بتصميمها ثيودور الذي كان قد بدأ يطرق باب عالم المجوهرات لإرضائي أنا في الغالب) – وهو مظهر من مظاهر الأناقة يمكن أن يطلق عليه وصف «الأناقة الشاملة». لم أكن لأقبل أن تكون أنوثتي في موقع التبعية بعد الآن. الأهم من ذلك كله، أنني رسمت على وجهي ابتسامة عريضة. كان هناك شيء واحد أعيه بشكل جليّ: لا يمكن لي أن أجد لنفسي موطئ قدم في هذه المهنة لو رضيت بأن أبقى في موقع المساعد التابع. مرّرْتُ بطاقتي الأمنية كما يفعل المحترفون، وولجت إلى المصعد باتجاه الطابق الذي أعمل فيه. مرّرت بطاقتي مرة أخرى وتوجهت نحو مكتبي. ألقيت التحية على الجميع، ولم أكلف نفسي عناء النظر إلى الماضي، ولم أعد أحاول اجترار ذكرياتي من العالم الذي تركته خلف ظهري.

مرّت سنتان. كانت حماستي وتصميمي مثل محرك يمخر عباب الزمن

وحطامَه. سنتان مرّتا بدءاً من شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2004 إلى شهر أيلول، سبتمبر، 2006. كان جورج بوش قد انتخب رئيساً للولايات المتحدة رسمياً. مات خلال هذه المدة ياسر عرفات، وتم تنصيب حامد كرزاي رئيساً لأفغانستان. حدثت موجات تسونامي في المحيط الهندي تسببت في مقتل 225000 شخصاً في إحدى عشرة دولة. عزفت روبي مقطوعة الباركارول لباخ بشكل متقن تماماً في حفلها الشتوي كما تعزفه أية فتاة بارعة في السادسة عشرة من عمرها؛ وهو بالمناسبة حفل أخفقتُ في حضوره كما هي العادة في معظم المناسبات التي تخص الفتاتين. لكن هذه المرة، كان الأمر كما يجب أن يكون عليه؛ إذ كنت مقتنعة بأن معرفة أن أمهما متواجدة على رأس عملها كان درساً لهما. كما أن ثيودور كان بإمكانه دوماً حضور مثل هذه الفعاليات. حاز فيلم «جبال بروكباك» على جائزة المجمع الفني. عرض على غوينيث اللعب في مركز حارس المرمى في فريق اللاكروس، وقد قبلت العرض. توفي البابا جون بولص الثاني. أما رواية ويل تشابمان «لا تقل مُتْ أبداً» فقد تم نشرها في تلك الفترة.

دعوني أتوقف هنا لبرهة وسط كل هذه السفاسف التي تنتشر على طول الخط كي أعلمكم أن المراجعات النقدية كانت رائعة بالمجمل. ففي الثالث من شهر أيار، مايو، سنة 2005 انطلقت حملة ترويج ضخمة للكتاب بتمويل وإشراف من قبل وين أقامها على سطح شرفة منزل يخص أحد أصدقاء ويل تشابمان المصرفيين – قدمت فيها الشمبانيا وشطائر محشوة بالجبن؛ وكان هناك نادلون يرتدون بذلات وقفازات ويقدمون الأطعمة والمشروبات على أطباق من الفضة. كان المدعوون مجموعة من الفنانين والمصرفيين الذين

اختلطوا ببعضهم بعضاً بشكل جيد كونهم ارتقوا إلى المستوى نفسه. بذل كافيللي الكثير من الجهد من أجل جمع هذا العدد الكبير من المدعوين. قال لي: «ها أنتِ يا عزيزتي تاجرة السندات والأسهم. الرهانات العقارية المدعومة بالضمانات؟» أجبته: «أنت تتمتع بذاكرة جيدة». عقّبَ قائلاً: «علينا أن نتحدث في تفصيلات هذا الموضوع.» لكنني، وبعد أن ربّتَ وين على كتفي، وجدتُني أنخرط في حديث من نوع مختلف تماماً. قال: «أنت لا تشعرين بشوق إلى مثل هذا العالم». لم يكن ذلك سؤالاً، بل أمراً. هو يواعد هذه الأيام فتاة اسمها جينجر، وهو اسم يبدو ألطف على السمع من اسم بياتريكس إلى حد ما؛ كانت في مقتبل العمر ومليئة بالحيوية؛ وكانت عيناها مركزتين عليه طيلة الوقت بطريقة تشي بأنها تملكه ونحن نتحدث إلى بعضنا بعضاً – كانت فتاته الوحيدة التي التقيتها؛ فقد ظهرت معه في هذا الحفل فقط، ولم تظهر معه في أية مناسبة عامة بعد ذلك. كانت بشعرها الحريري الطويل تبدو في منتهى الأناقة.

كانت المراجعات النقدية لرواية «لا تقل مُتْ، أبداً» تقول: «تشابمان عاجز عن كتابة أية جملة غير ممتعة.» و «لا توجد في ذهن المؤلف فكرة سخيفة واحدة.» و «يستطيع أن يكتب عن خفايا مشاعر المرأة ورغباتها كما لا يقدر عليه أي كاتب روائي معاصر آخر.» و « «لا تقل مُتْ أبداً» هي عمل عبقري.» و «شبّههُ ناشر روايته بتوماس وولف، لكنه في هذا التشبيه أظهر أن تشابمان أطول قامة من وولف.» كانت صفحات روايته تشير إلى أن التغيير الذي أجراه على مجرى حياته لم يبدد ثروته سدى. كان ويل مسيطراً على الوضع، وكان فكه القوي يرمز إلى الثقة التي يتمتع بها شخص عرف كيف يشق طريقه في

هذا العالم. كانت إيما متألقة، وكانت كل الإشارات السابقة حول التصدع الذي كان يهدد مستقبل تلك العائلة قد اختفى كليةً بسبب إكسير النجاح الشبيه بالإكسير المضاد للشيخوخة بكل الإيجابيات المرافقة له.

كل ذلك كان جيداً، بالرغم من أنه كان متوقعاً. من ناحيتي، فقد ذهبت في الاتجاه المعاكس، وقمت بما هو غير متوقع. فصاحبة التنورة في تلك الوكالة التي يسيطر عليها الذكور أضحت تحاكي الرجال وأصبحت تعرف بالتاجرة العاقلة ذات الأراء الثابتة والواضحة حول أوضاع السوق. كانت طبيعتي الواضحة ملهمة للمتعاملين الذين كانوا ينشدون الوضوح في عالم السوق المليئة بالغموض. كان ذلك الفضاء الممنوح لي مناسباً جداً، وكانت فكرة الحاجة إلى التركيز الدائم على عشرين قضية في وقت واحد تناسبني.

قال وين ذات مرة: «قليل من فقدان التركيز بين الحين والأخر، قد يكون أمراً جيداً.» فهمت الآن ما الذي كان يرمي إليه. أستيقظ في الساعة الثانية صباحاً مع اليابانيين وأبدأ بحساب الأرقام والحد الأدنى من الضمانات على الرهن العقاري في الوقت الذي تدبّ الحركة في السوق. ثم أبدأ بالاتصال مع وكلائنا على الهاتف — مع بلاكرايد وجونسون، ومع تكساس وجورجيا. كان بإمكاني القيام بذلك. لم يكن ذلك يختلف كثيراً عن إدارة شؤون العائلة — أعني شؤونها المالية (أو، ربما يجب عليّ أن أستخدم كلمة «ديونها»)، ومواعيد زيارات الأطباء والتأمين وأوقات اللهو، ومواعيد الخلود إلى النوم، وترتيب جدول الذهاب إلى المدارس وأوقات الدروس، كيف نعيد خلط الأوراق كلها، وكيف نغطي نفقات ومصروفات العائلة — أحمد الله أن هذه المنغصات لم تعد تشغل بالي أبداً. كنت ألعب بالكثير من الكرات التي

أطيح بها في الهواء في نفس الوقت، ولقد استمرأت هذه اللعبة؛ كنت أستمتع بالإمساك بها للحظة فقط كي أعيد قذفها في الهواء من جديد. سافرت بالطائرة إلى جورجيا وأيوا وتكساس وساوث داكوتا لمقابلة الزبائن وممارسة لعبة الغولف أحياناً. هذه اللعبة السخيفة التي تعلمتها بدايةً بإشراف أبي، كان عليّ أن أتعلمها مجدداً على يد أحد مدرّبي اللعبة، وبدأت أجيدها إلى حد ما. أردت أن يشعر أولئك الزبائن أن هواياتي تشبه هواياتهم. استمعت إليهم وهم يتحدثون عن أولادهم، والمشكلات التي يعانون منها في حياتهم الزوجية، وطموحاتهم في امتلاك منزل ثالث: شاليه على البحر في أسبينا — كنت قد دُعيتُ إلى هناك في رحلة تزلج في جبال منطقة أجاكس كان يشرف عليها مدرب تزلج في غاية الوسامة. انسلّت بي زوجة أحد زبائني بعيداً عن منحدرات التزلج للذهاب إلى أحد مراكز تقليم أظافر اليدين والقدمين في القصر الريفي الذي كانت تديره سيدة متخصصة في هذا المجال كان وجهها محقوناً بشكل واضح بالبوتوكس — كان سنُّها مخفياً في وجهها الذي يشبه صورة ظليلة باهتة لقارب غرق في مياه البحيرة الضحلة — وقد قالت عدة مرات: «أنا لا أستعمل سوى الطلاء الفرنسي»؛ أمطرتنا تلك السيدة بوابل من القصص هي عبارة عن ثرثرة تحدث محلياً (نجم سينمائي، أو رئيس سابق للولايات المتحدة، أو أحد كبار المديرين التنفيذيين المشهورين، مع عشيقاتهم اللواتي يتم إبدالهن بأخريات من حين لآخر). اعتقدت الزوجة أنني كنت أفضل أن أخضع لجلسة تقليم الأظافر بدلاً من التزلج برفقة الآخرين. كنت أدّعي مجاراتهم في حفلات السُّكْرِ الملحمية التي يحيونها، وكنا جميعاً نعتقد (إذا لم أقل: نعترف) أننا بخير، وأننا لم نثمل بعد — أننا ما نزال بخير — ونحن نقف في الخارج لاستنشاق بعض الهواء المنعش.

السابع من تموز، يوليو، 2005: قطارات الأنفاق في لندن وإحدى الحافلات ذات الطابقين تتعرض للتفجير بالقنابل من قبل مجموعات إرهابية إسلامية، وتتسبب في قتل اثنين وخمسين من الأشخاص، وتجرح أكثر من سبعمائة. كان هذا هو أسوأ هجوم تتعرض له لندن منذ الحرب العالمية الثانية. يستمر مؤشر داو في الصعود مسجلاً أرقاماً قياسية، وتتضاعف أسعار الأسهم. نقضي عطلتنا مرة أخرى في ولاية مين حيث نمضي عطلتنا الممتدة أسبوعاً في أحد المنازل المستأجرة بمحاذاة الشاطئ وكان هذا المنزل قريباً من منزل آل تشابمان؛ أحبت عائلتي تلك البقعة خصوصاً ذلك المشهد الذي يأخذ بمجامع قلوبنا ويدخل في عروق دمائنا، إلى حد أن ابنتينا بدأتا تشعران بأن مقاطعة بوند بوينت هي بمثابة المصيف السنوي بالنسبة إلى العائلة، الذي يجب أن نؤمّه كل صيف. يضرب إعصار كاترينا ساحل الخليج ويتسبب في مصرع أكثر من ألف شخص، ونزوح الملايين منهم عن المنطقة، ومحو مدينة نيو أورلينز عن الخريطة تقريباً. بدأت التصدعات تظهر في بنيتنا التحتية مشيرة إلى انهيار لا مفر منه — الجسور تنهار والطرقات تتشقق. صدّام حسين يخضع للمحاكمة، وفي اليوم نفسه يحدث زلزال في كشمير يحصد حوالي تسعاً وسبعين ألفاً من الأرواح.

«هذه الكوارث لا تتوقف أبداً. كل مرة، هناك كارثة من نوع جديد. إنها لا تتوقف أبداً.» هذا ما كانت أمي تردده عندما كنت صبية صغيرة. كنت أنظر إليها وأتساءل عن العواقب الناجمة عن توقف تلك «الكوارث»؛ العواقب الناجمة عن توقف«ها» بشكل مفاجئ.

تضاعف دخلي السنوي مرتين، ثم ثلاث مرات، وبعدها ازداد بمعدلات

لا حدود لها. بدأت شركة بي أند بي تكدس ثروة هائلة من خلال ازدياد قيمة أسهمها وسنداتها. الثروة شأنها شأن الزوارق ذات الأشرعة الصقيلة الملساء، التي تساعد في زيادة وتيرة سرعتها، وهو ما حصل في هذه الحال؛ إذ أن المدة التي استغرقتها الشركة في تكديس ثروتها كانت أسرع من حركة ريح السوق.

قال لي أبي إنه فخور بي كوني قررت أن أتحمل مسؤولية حياتي ومستقبلي؛ إلا أنه سألني: «ولكن ما الذي فعلتيه؟ ما الذي تفعلينه الآن؟ ما هي طبيعة الخدمات التي تقدمينها؟»

أما أمي فقد سألتني وهي ترمقني بعينين قلقتين ويساورهما الكثير من الشكوك عما إذا كان ذلك حقاً هو ما أريد لنفسي أن أنتهي إليه.

أخي لم ينبس ببنت شفة. أردت أن أسمع رأيه. أتذكر المرة الأولى التي ذهب فيها إلى التخييم الصيفي، كما أتذكر عودته من ذلك المخيم. بقيت ملازمة له كظله لأيام طوال، كما كنت أقبّله في كل لحظة حانت لي فرصة تقبيله. كانت تلك المرة الأولى التي فهمت فيها ما تعنيه فكرة أن يذهب الناس بعيداً.

ارتفع مؤشر داو إلى نسبة غير مسبوقة حيث وصل إلى إحدى عشرة ألف نقطة للمرة الأولى منذ سنة 2001. يطلق ديك تشيني النار بالخطأ فيصيب صديقه في وجهه وصدره عندما كانا يصطادان طيور السلوى. عضو مجلس النواب توم ديلي أو ما كان يطلق عليه لقب «المطرقة» يستقيل ويختفي من معترك العمل السياسي. تنتهي محاكمة صدام حسين بالحكم عليه

بالإعدام لارتكابه جرائم ضد الإنسانية. يعترف كل من جورج بوش وتوني بلير بارتكاب أخطاء ويعبّران عن أسفهما للتجاوزات بحق السجناء في سجن أبو غريب.

الكوارث لا تتوقف أبداً: الصحفيون يقتلون في العراق، الجنود يقتلون في العراق، المدنيون يقتلون في العراق؛ اضطرابات وأعمال عنف في أفغانستان؛ تجارب إطلاق صواريخ نووية في كوريا الشمالية؛ الحكم بالسجن على كل من كينيث لي وجيفري سكيللينغ، المديرَيْن التنفيذييْن في شركة إيرنون؛ الآلاف من الإندونيسيين يموتون في أعقاب زلزال حدث في تلك البلاد؛ العنف الطائفي يجتاح المثلث السني؛ إبادة جماعية في دارفور؛ فيديل كاسترو ينفي أن مرضه خطير؛ مشروع بقوْنَنَة الزواج المثلي يتم رفضه؛ إحدى المحاكم تقر حكماً بالتجسس على المكالمات الهاتفية؛ الولايات المتحدة تقوم بإجراء مراجعة لتعديل سياسة التعذيب؛ يعدّل الديمقراطيون الجدول الرئيسي؛ كينيث لي يموت؛ تقارير متشائمة حول العراق؛ بلوتو خُفِّضت منزلته ولم يعد يعتبر في عداد الكواكب.

أرْغَتْ سوق الرهان العقاري وأزْبَدَتْ. ارتفع معدل المنازل التي تم شراؤها في تلك الفترة إلى معدل يفوق السبعين في المائة. أتذكّر تحديداً ثلاثة عناوين صحفية رئيسية:

حزيران، يونيو، 2005

رهان بقيمة تريليون دولار – مُلّاك المنازل

يخاطرون في طلبهم تخفيض قيمة أقساط الرهان العقاري

تموز، يوليو، 2006

الطريق الجديدة باتجاه العبودية – دليل مزود بالرسوم التوضيحية

عن الانهيار القادم في سوق العقارات

أيلول، سبتمبر، 2006

الرهانات العقارية تنزلق إلى مهاوي أكثر خطورة

والمستثمرون يعتبرونها أكثر جاذبية

في شهر نيسان، أبريل، سنة 2006، نشرت ليلي ستار روايتها الثانية. تحولت هذه الرواية إلى قنبلة انشطرت شظاياها في كل الاتجاهات. فقد واجهت هذه الرواية انتقادات شديدة في الصحف اليومية كما في صحف يوم الأحد: «استغرقت كتابة روايتها المتألقة الأولى عشرين سنة. يبدو أن هذه هي المدة التي تحتاجها لكتابة رواية أخرى جديرة بالقراءة.» و «هذه المحاولة الركيكة تثبت أنها كاتبة لا تستطيع الخروج إلى العالم بأكثر من رواية ناجحة واحدة.» بحلول شهر حزيران، يونيو، تم دفن هذه الرواية تحت ركام العديد من الكتب والمطبوعات الأخرى. شعرت بالأسى لما آلت إليه حال ليلي؛ وتذكرت الشعور بالمهانة التي واجهتُها قبلاً؛ فالمراجعات النقدية قد تكون جدُّ ظالمة. لكنني لم أكن أملك الكثير من الوقت للتفكير في مثل هذه الأمور. فقد غُصْتُ في أعماق عالمٍ دائمِ الحركة؛ عالمٍ من التبادل التجاري

بقيمة ملايين من الدولارات والليالي المبهرة. هل كنت مبذّرة؟ أجل كنت كذلك. ولكن كلما بذّرتُ أموالاً أكثر، ازداد دفع الريح لشراع سفينتي إلى الأمام، وبالتالي تَدَفُّقُ أموالٍ أكثر في حسابي المصرفي.

كان ثيودور قد اكتشف مساحة محددة فعّالة وجديدة كل الجدّة سمحت لي أن أتبين للمرة الأولى أنه لم يكن ذلك الرجل اللا مبالي بالمطلق في وضعنا الحياتي الماضي، كما كنت أظن دائماً. فقد كانت أوضاعنا المادية المقلقة التي كانت تضغط على أنفاسنا تزعجه أيما إزعاج، لكنه الآن يبدو متحرراً من هذا القلق، ما جعلني أنا الأخرى في غاية الانشراح الذي كنت أستمتع به كل يوم. أحببت حقيقةَ أنه كان غارقاً في عمله؛ فقد أنهى عملين فنيين كان قد تعاقد على إنجازهما، إضافة إلى الاشتراك في معرض فني أقيم في أمستردام. كما تعاقد مع مساعد لمعاونته في عمله – وهو طالب دراسات عليا اسمه هاريسون كان يرتدي نفس القميص القصير الكمين يومياً، وكان يلازم ثيودور مثل جروٍ خجول، ولكن بكثير من الجدية – وكان الاستديو مليئاً بضجيج أصوات السمكرة والطّرْق. كانت رسومات ثيودور معلقة في أرجاء جدران الاستديو، وكانت الخطط المتعلقة بمشروعاته الجديدة في توسع مطّرد. في أوقات فراغه، كان يصنّع عقوداً رائعة في تصميماتها البالغة الدقة. كان بعد أن يصل إلى المنزل من الاستديو، ينخرط معي في أحاديث طويلة وممتعة ونحن نتناول عشاءنا في الهزيع الأخير من الليل؛ وكنت، أنا المبهورة بذلك الوميض الذي جلا كل غِشاوة عن بصيرتي، أجدني أقول لنفسي: اسمعي يا هذه، إنه خفيف الظل، هذا الرجل الذي تزوجتِه! أشعر أنني أحبه.

كنت أعبر الجسور الواحد بعد الآخر يومياً باتجاه مانهاتن؛ كانت أشعة الشمس تغمر الصالة عبر الزجاج، وكان الباعة في الصالة يتساءلون فيما إذا كان هذا اليوم هو اليوم المنشود – لأنه سيكون كذلك، وغالباً ما هو كذلك بالنسبة إلى واحد منهم على الأقل. كل واحد من هؤلاء الباعة ينتظر قدوم مثل هذا اليوم. هذا الشعور يشبه ما يحس به الكاتب الذي ينتظر حدوث تلك اللحظة الكبيرة: أي لحظة الاعتراف به ككاتب، أي أن يُحتفى به ككاتب عظيم ويُعطَّر بالجوائز. «هذا اليوم قد يكون هو اليوم المنشود». ولكنه بالطبع سيأتي عندما لا تتوقع قدومه: اليوم المنشود في اللعبة الكبيرة.

كانت العلامة الأولى تتمثل في الأضواء المنبعثة من جهاز الهاتف. كانت تومض بشكل عشوائي. عرفت من هو المتصل؛ كان بإمكاني ذلك من خلال نفاذ صبر تلك الأضواء. لن أنسى في حياتي ذلك اليوم، ولن أنسى كذلك ما كنت أرتدي من الثياب. كانت التنورة التي ارتديتها بعد فشلي الكبير ذاك: التنورة بلون الشوكولاته، وقميصاً مختلفاً قشديّ اللون. كانت تلك التنورة تمثل فألاً حسناً بالنسبة إليّ؛ فقد جعلتني أشعر بأنني محظوظة وقوية وشديدة التحمل والصبر.

كان سنيك في كلكوتا للمشاركة في تشييع جنازة أحد أقاربه، ولذلك فقد حللتُ مكانه في المكتب. كان تايغر قد اختطفه منا أحد المصارف منذ سنة إضافة إلى جوش. وكان سام قد انتقل إلى أحد فروع الشركة في الغرب التي تعنى بأوضاع المَدِينين الذين يجدون صعوبة في دفع أقساط ديونهم برفقة الموظفة الناجحة بشكل لافت، أعني جوُن سكرابيتي. ارتقى غاس، المحلل، إلى مرتبة مساعد، وأصبح يليني في الهرم الوظيفي. أما الفتيان الآخرون، فقد

كانوا فتية مبتدئين في المصلحة، لكنهم كانوا أذكياء ولّماحين، وكانت لديهم بعض الخبرة؛ لكنهم كانوا ما يزالون في بداية الطريق كونهم خريجين جدداً من كلية لندن للاقتصاد، ومعهد ماساتشوستس التقني: جون، إنجليزي، وأحد نجوم رياضة الكريكيت، وبات، أمريكي، وأحد نجوم فريق السباحة. كان كلاهما أبيضا البشرة. كانا يناديانني بلكنة جون البريطانية المتكلفة: «ماما». أصبحت هذه الكلمة لازمة التصقت بي بعد أن اصطحبتهما إلى مكتب وين في جلسة عمل حيث أمضيت قرابة نصف ساعة وأنا أشرح لهما ماهية العمل في الصالة. هل كنت أشعر أنني أتحدث لغة أجنبية؟ أجل ولكنها كانت لغة ثانية أصبحتُ قادرة على التحدث بها بطلاقة. هل استعرت شيئاً من كتاب وين جونز؟ أجل وربما بالغت قليلاً في استخدامه. لم أكن مهيأة بما يكفي كي أرغب في إثارة إعجاب هذين الشابين من خلال إثارة حيرتهما. ما كان وين ليفعل ذلك؛ وعندما انتهيت، جلس الشابان هناك مذهولَيْن تماماً. قلت: «جون، بات، أنتما تحدقان بي.» كانا مثل صبيين في المدرسة بقميصيهما الأبيضين المكويين، وكانا فاغريْ الفم من الدهشة. قال جون: «أجل يا سيدتي، نحن متأسفان.» يبدو أنهما علقا في الشباك.

لفتت نظري الأضواء التي تومض من بعيد: سيربيوس من هيوستن على الخط المباشر. كانت قد عينت حديثاً بائعة تعمل لحسابنا هناك — كانت في الثلاثين من عمرها، وكان شعرها أشعث تماماً، تظهر في نفس المظهر يومياً بعينيها المتّقدتيْن المتطلبتين — دخلت إلى الصالة وأشارت إليّ بإصبعها كما لو أنها ترفعني بتلك الإصبع قائلة: «أنتِ، تعالي معي، فوراً»؛ وكانت نبرة صوتها تدل بوضوح على أنها نبرة صوت بائعة، وأنها عند انتهاء الدوام الطويل

تذهب إلى منزلها مستقلة سيارة أجرة بدلاً من إحدى حافلات النقل العام. قلت في سري: حسنٌ، سأتغاضى عن هذه الإشارة هذه المرة؛ فالصيد ثمين، وهي تريدني إلى جانبها.

النزوع إلى الكمال كما فهمت لاحقاً هو أمر جيد في مرحلة البداية، لكنه يتحول إلى أمر سيء عندما تبدأ بإتمام العملية التجارية؛ ذلك أنه يتوجب عليك أن تتغاضى عن بعض الأشياء حينها. عندما يبدأ الموسيقي في التدرب على المعزوفة التي ستؤدى في حفلة موسيقية، فإنه يكرر العزف المرة إثر الأخرى حتى يتقن اللحن بشكل صحيح. ولكن حين يحين يوم الحفل، عليه أن يضع كل ذلك الجهد الذي بذله أثناء التدريب خلفه، ويطلق العنان لمشاعره كي تقوده؛ عليه أن يترك لتلقائيته أن تحمله بعيداً إلى حيث يستثمر أقصى طاقات موهبته.

نهضت من وراء مكتبي لألحق بالبائعة، واستدرت نحو غاس وقلت له: «إياك أن تشتري أي رهان آخر.» كنت أعرف ماذا سوف يحدث. كان ذلك ناجماً عن شعور داخلي قوي. إنه بمثابة القرار الحاسم الذي لا يمكن لأحد أن يمليه عليك؛ فهو يبدأ بالتسرب إلى داخلك مترافقاً مع ازدياد معدل الأدرينالين في دمك. فجأة تشعر بأنك مستنفر إلى الدرجة القصوى. كنت أعرف أن سيربيوس تميل إلى تخفيف قيمة الرهانات إلى الدرجة التي تنتفي فيها الحاجة تماماً إلى أن تتحدث إليّ سراً في نهاية المسار لتحذرني. كنت بالكاد أستمع إلى ما تقول؛ وكنت أومئ برأسي موافقةً، لكن كل ما كنت أفكر فيه حينها هو كيف أقلل من احتمالات المخاطر بالنسبة إليّ. كان عليّ أن أفعل ذلك كي أواجه الكثير من المخاطر التي ستتسبب بها سيربيوس؛

وهو ما تدربت على القيام به، بطبيعة الحال. كل التجار يتم توجيههم للقيام بشيء مماثل لأن المجد في النهاية يكون عادة من نصيب النجوم الكبار.

كان اسم الرجل تشاك. كان على الخط المباشر منتظراً أن أرفع السماعة وأبادر إلى وضع سعر للبضاعة التي يعرضها. كانت لهجة تشاك التكساسية السمجة التي يتشدق بها تصلني عبر أسلاك الهاتف وتطيح بكل مزاحنا المعتاد. في الواقع، كان يريد أن يبيعني رهانات عقارية في سوق نيويورك لتداول الأسهم بقيمة خمسة مليارات دولار على المستوى الوطني. كنت قد لعبت الغولف مع تشاك وهو شخص أنيق ونحيل البنية. كان يكتب الشعر في أوقات فراغه (كان يظن نفسه أنه والاس ستيفينز آخر) وقد أعجبته فكرة أنني كنت كاتبة روائية. من بين كل زبائني الآخرين، كان هو الوحيد الذي وجّه إليّ الكثير من الأسئلة حول مهنتي السابقة، وكان قد قرأ روايتي «جيل النار». وقد اشترك مع بعض زملائه في رهان على أنني خلال خمس سنوات تبدأ من الآن، سوف أعود إلى الكتابة في المجال الروائي. لم أسمع منه شخصياً هذا الكلام. كان رجلاً مستقيماً؛ فهو لم يجرِ أية صفقات من تحت الطاولة. لكنني أوضحت له أني أعلم بشأن هذا الرهان وقلت له إنه مخطئ تماماً حول هذا الموضوع. قلت: «إن هذه المسألة مثيرة للاهتمام». قال: «أعلم ما ترمين إليه، فأنا لست غريباً عن مثل هذه الموضوعات»؛ بعد ذلك ابتسم لي تلك الابتسامة المُطَمْئِنة المتوددة التي بدت وكأنها توحي بأنه يعرف عني أكثر مما أعرفه عن نفسي. كنا نتمشّى في مضمار ستوكديل للغولف في جو حار وجاف بين أشجار الصبّار العملاقة التي تنمو في منطقة مليئة بالأوساخ والعشب الأخضر بشكل يثير الفزع كحقل من الزمرد في مثل هذا المناخ.

كان العديد من العاملين في وول ستريت لديهم نفس ذلك الاعتقاد بأنهم يعرفونك أكثر مما تعرف أنت نفسك. منحته نفس الابتسامة التي توجّه بها إلي. أصبحت تلك لعبتنا الصغيرة في بحثنا عن الحقيقة، حيث كانت تلك إحدى الطرق لمحاولة إيجاد قاسم مشترك بيننا.

الآن، على الهاتف: كان يعرف أين يتم تداول أسهم السيارات من فئة 5.5s؛ كان يراقب حركة السوق عن كثب منتظراً نهاية ذلك السباق الصغير قبل أن يعلن عن رهانه. كان ذلك هو الربع الجديد. كان بحاجة إلى التخلص منه وكان مستعداً لبيعه بعد إجراء حسم بسيط عليه في حال أبديتُ استعداداً للمخاطرة في شراء الكتلة بكاملها بضربة واحدة. خمسة مليارات دولار بضربة واحدة. كان ذلك أكبر بخمس مرات من أسهم سوق نيويورك للسيارات من فئة 5.5s التي تعاملت بها خلال أسبوع بأكمله. بضربة واحدة. قمت بوضع سعرٍ بمخاطرةٍ مقدارُها ست نقاط أدنى من حد المزاد البالغ 24-98. قال بصوت خالٍ من أية مسحة من المزاح الذي يرافق عادة المفاوضات التي تتم فيها عملية تقدير قيمة الأسعار: «أنا بحاجة إلى 26-98». كان جاداً في عرضه. كانت تلك هي نقطة التحول، أعني نقطة التحول في حياتي.

قلت: «أنا موافقة»؛ أغلقت بعدها سماعة الهاتف كي أعود إلى مكتبي من أجل التدقيق في نسبة المخاطر — إنها مخاطرتي أنا هذه المرة — تاركة خلفي البائعة من أجل تأكيد إتمام الصفقة. قلت لغاس: «حسنٌ. اليوم تبدو الأمور أكثر إثارة للاهتمام من المعتاد.»

لم أكن أعي ذلك، لكنها كانت البداية فقط. استغرق إتمام الصفقة ثلاثة أيام. في اليوم الثاني عرض عليّ تشاك حزمة أخرى وكانت بحجم العرض الكبير الذي قدّمه لي في اليوم الفائت، ومرة أخرى كانت قيمة العرض تبلغ خمسة مليارات دولار. وفي وقت لاحق من اليوم نفسه، قدّم عرضاً ثالثاً بمبلغ ستة مليارات دولار أيضاً بالقيمة الوطنية. اشتريت الحزم الثلاث جميعها.

لم يكن لديّ في واقع الأمر خيارٌ فيما قمت به. بعد شرائي لتلك الحزم الثلاث، أصبحت أنا من يتحكم بالأسعار، ولم يعد هناك أي توجس من المنافسة مع أي تاجر آخر لتبوء أي موقع. فكلما كانت سيطرتك على تدفق المعلومات أكبر، ازداد حجم إلمامك بكافة جنبات الموضوع، كما هي الحال في لعبة البوكر: إذا كان في يدك ثلاثة ملوك، وكان خصمك في اللعب يراهن كما لو أن معه ملكين اثنين، فإنك تعرف يقيناً حينها أنه يحاول خداعك. لكن امتلاكي للحُزَم الثلاث جميعها، وضعني في مواجهة مخاطر جمة. لقد أصبح بين يديّ ما قيمتُه ستة عشر مليار دولار من الأسهم والسندات، جميعها في قسيمة واحدة. كانت مخاطر هذا المبلغ أكبر بمقدار عشر مرات من قيمة كل الرهانات العقارية التي اشتريتها سابقاً، وكذلك من قيمة كل الرهانات التي اشتراها سنيك. ماذا لو لم يكن بمقدوري تحرير هذه الصفقة؟ كانت هذه الصفقة في حقيقة الأمر أكبر صفقة منفردة تمت من خلال مكتبنا على الإطلاق، وبذلك فقد وضعنا قسم المنتجات المدعومة برمته فوق حد المخاطرة بدرجة كبيرة. (جاءت الموافقة لي لتخطّي حد المخاطرة بالطبع من فوق، متخطية بذلك ويا للمفارقة، اعتراضات وين نفسه على ذلك. لم يكن يشعر بالارتياح من مدى فعالية العملية، ولكن بالرغم من اعترافه بأنني

نجحت في هذه الصفقة، إلا أنه لم يكن راضياً أن تكون تلك سابقة في شركة بي أند بي، واعتبر أن تلك العملية شجعت على توجه جديد قد يشكل خطراً على الشركة إذا ما تم السماح له بأن يكبر أكثر فأكثر. لكن الأزمنة التي كنا نمر فيها هي صعبة وعنيفة.)

إذاً، ما هي طبيعة تلك الصفقة التي استدعت تدخلاً وموافقة من صاحب المقام السامي في الغرفة البيضاء العُلْوية؟ لو عدنا إلى موضوع السيارات، يمكن لكم أن تقولوا إنني اشتريت في واقع الأمر كافة سيارات التويوتا الجديدة في أمريكا الشمالية. كلها الآن أصبحت ملكي، وأنا أرتدي تنورتي البنية بلون الشوكولاته. لم يكن كافياً بالنسبة إلي القول إنني وضعت يدي على كل سيارات البروس والكورولا. الآن يمكنني القول إنني وضعت يدي على كل سيارات التويوتا. أضحت مهمة بيع تلك السيارات وجني الأرباح من صفقات بيعها من مسؤوليتي المباشرة بشكل كامل الآن. المخاطرة الوحيدة كانت تتمثل في احتمال أن تقرر سوق السيارات أنها لا ترغب في شراء مثل هذه السيارات بعد الآن بالسعر الذي يمكن أن يكون مناسباً بالنسبة إلي. إن مثل هذا الاحتمال قد ينقلب عليّ سلباً؛ والأهم من ذلك، سوف ينقلب في حال حدوثه على ما اقترضته من أموال لعقد مثل هذه الصفقة. فشركة بي أند بي لم تكن تملك كل رأس المال اللازم من أجل إتمام مثل هذه الصفقة. في الحقيقة لم يكن أي من المصارف يملك هذا القدر من المال السائل. صحيح أن بحوزتي الآن كل سيارات التويوتا التي لم أدفع ثمنها، لكنني أيضاً أنا المسؤولة عن بيعها وتسويقها، وعليّ أنا إيجاد السبل لتسديد ثمنها إذا ما انخفضت نسبة مبيعاتها أو أسعارها. فالسوق يمكن أن تبدّل رأيها وقد تقرر التعامل مع سيارات جنرال موتورز بأنواعها المختلفة متجاوزة

سياراتي من نوع التويوتا. بطبيعة الحال، لم تكن السوق على إطلاع بأن كل سيارات التويوتا أصبحت لي، ما وفّرَ لي الإبقاء على زمام المبادرة في يدي، ولهذا السبب لم يقم تشاك بعرضها للبيع العلني. ساعدني وضع يدي على هذه السيارات في الاحتكار والقيام بالمناورة والتلاعب بما في متناول يدي للتأكد من كمّ الضغط الذي يمكن للسوق أن تتحمله. أما الآن، وبعد أن قمت بتسعير تلك السيارات، فإن عليّ أن أنحّي المخاطر جانباً.

في نهاية اليوم الثاني، أعلنت عن خطتي في اجتماع عقدناه بعد انتهاء الدوام بحضور رئيس قسم الأسعار ورئيس قسم الدخل الثابت ووين وسنيك (الذي حضر الاجتماع عبر الأقمار الصناعية حيث كان ما يزال في الهند) وغاس وآخرين. كنت أنا المرأة الوحيدة في ذلك الاجتماع. لاحظت هذه الحقيقة كما كنت أفعل دائماً، لكنني بدأت أعتاد على مثل هذه الترتيبات. (صدقوني أن التفكير بجنسي هذه المرة كان مسألة عابرة في أفضل الأحوال؛ إذ بوجود مثل هذه المخاطر، كان كل اعتبار آخر خارج السياق تماماً. ينتابكم إحساس من نوع ما، حتى وأنتم تشرحون خطتكم، أن كل ما تتمنوه في تلك اللحظة هو العودة إلى مكتبكم واستئناف عمليتيْ البيع والشراء. بالنسبة إليّ، فقد كان ذلك هو الوقت الوحيد الذي تمنيت أن أكون فيه على رأس عملي: فأنتم تستيقظون باكراً، وتصلون إلى العمل باكراً، وتتلهفون للبدء في العملية التجارية من جديد.)

أكثر من طرح الأسئلة عليّ في ذلك الاجتماع كان مارتن، وهو رئيس قسم الأسعار. اختار وين أن يجلس في أحد المقاعد الخلفية وبدأ يراقبني وأنا أمخر عباب الماء لأن ذلك كان الامتحان الأكبر بامتياز. لكننا كنا قد تجاوزنا

الرهان القديم، فقد اكتملت بنيتي الآن: أصبحتْ لديَّ الآن عينا ويدا وساقا وقلب التاجر. أبقى وين امتعاضه في داخله. فقد أراد لي أن أتألق. أما مارتن، وهو في الثلاثينات من العمر وأب لثلاثة أولاد، وله ولع بارتداء حمالات البنطال الملونة، فقد أمطرني بوابل من الأسئلة حول خطتي بشأن وضع أسعار للسيارات. بالطبع كانت لدي خطة وقد قمت بشرحها بالتفصيل.

كنت بصدد دراسة ما يمكن للسوق أن تتحمله. كنت أنوي البدء بأسعار مخفّضة، وأتحمل بعض الخسارة في السيارات من طراز 5.5S، ثم أقوم بتوسيع تصريفها بمقدار نصف نقطة إذا شعرتُ بضرورة ذلك. كان المفتاح في كل هذا يتمثل في إيجاد أرضية لوضع فائدة على المبيعات، وزيادة معدل البيع. كانت وجهة نظري تتمثل في أنني لو انتظرت حركة السوق الطبيعية لتتأقلم مع حاجتي، فسأموت ميتة بطيئة في الوقت الذي تتراكم الإشاعات حول الأداء الضعيف والبطيء. لكنني لو استطعت العثور على مشترين بمقدار عشر إلى اثنتي عشرة نقطة أكثر، واستخدمت ذلك من أجل التقريب بينهم أكثر فأكثر، فسيكون أمامي فرصة لبيع كل البضاعة نقداً – وكل ذلك يمكن أن يتم في غضون عدة أيام لا أكثر. ستة عشر مليار من الدولارات على شكل أسهم وسندات في غضون ثلاثة أيام، تشكل ضعف المعدل الأسبوعي لشركتنا.

لم يكن هناك الكثير من الثرثرة في الغرفة، فقد سادها جو من التأمل الهادئ المترافق مع الأزيز الناعم لمصابيح الكهرباء العُلْوية المتدلية من السقف. كان بإمكاني تحمّل الكثير من نظرات التشكيك في عينيْ مارتن المضطربتيْن، وليس مجرد قليل من الخوف. كانت أسنانه نظيفة وناصعة البياض. لكنني

أثبتُ لأولئك الصبية أن بإمكاني تحقيق أرباح للشركة، كما أثبتُ لهم أنني مشاكسة وقوية الشكيمة. وها أنا الآن أراهن بكل شيء. لقد تم السماح لي بوضع خطتي موضع التنفيذ – وهي الخطة التي اخترتها لأنني كنت أؤمن بأن المشترين سيتقاطرون لشراء هذه البضاعة؛ ولكن إذا لم يتم ذلك، وتبين أنني كنت مخطئة حول الفرضية الأساسية وانتهيت إلى أن أضطر إلى بيع البضاعة بمقدار ست عشرة نقطة أكبر مما اشتريت، فإنني سأكون عرضة لاحتمال خسارة ثمانين مليار دولار. باختصار سأتحول إلى قطعة خبز محمّصة. لكن الجميع كان يعرف بأن عليهم أن يتركوني أتصرف على هذه الشاكلة بطريقتي الخاصة، كما كانوا يعرفون أيضاً أن قَدَري كله يعتمد الآن على قدرتي على وضع الأمور في نصابها الصحيح. كانوا جميعاً – أو جلّهم – يعرفون أيضاً بالطبع، أن بإمكانهم تصحيح المسار في حال فشلت في وضع خطتي موضع التنفيذ. حدث هذا كله في الأيام الأخيرة من شهر أيلول، سبتمبر، سنة 2006. كانت تلك الفترة جيدة من ناحية حركة السوق؛ وكانت هناك العديد من الفرص لجني الأموال. لم أكن لأفشل، وكنت أعلم ذلك علم اليقين، ولا بد أنهم كانوا يعرفون ذلك أيضاً بشكل أو بآخر، لأنه في نهاية المطاف، كنت محسوبة على وين، وهو لم يفشل في حياته المهنية أبداً.

اعترف لي مارتن لاحقاً بأنه كان يؤمن أن خطتي كانت إما أغبى خطة، أو أكثرها رؤية وتبصراً عرفها في حياته. أخبرني بأنه ناقش هذه الخطة مع سائقه الذي كان يقلّه إلى منزله في حيّ تينافلاي والذي تبلغ مساحته عشرة آلاف قدم مربع ضمن أرض مساحتها نصف فدّان حيث تسطع الأضواء في كل

مكان في تلك البقعة حتى في أعالي الأشجار، وحيث توجد مواقد للتدفئة في كل غرف النوم تعمل على الغاز ومضاءة بحيث توحي بمزيد من الإحساس بالدفء. سأل السائق وهو ينحني باتجاهه إلى الأمام: «إذا كان لديك عشرون ألف قميص ثمن الواحد منها خمسون دولاراً، هل تعرض تلك القمصان للبيع بسعر أربعين دولار للقميص الواحد بحيث تغري الناس بشرائها وبعد ذلك ترفع سعر القميص الواحد إلى خمس وخمسين دولار؟»

أجاب السائق: «ربما.»

في اليوم التالي، كان هذا بالضبط ما فعلته. بدأت بطرح سيارات التويوتا من نوع 5.5s في السوق بشكل واسع بدءاً بنقلتين وانتهاء بأربع نقلات بما مقداره ربع نقطة. فجأة، بدأت أضواء الهاتف تومض، فالزبائن بدءوا بالتوافد تباعاً سائلين عن العروض. بدأ الناس يعبرون عن رغبتهم في شراء هذا النوع من السيارات. ذكّرني ذلك في المرة التي ذهبت فيها لصيد السمك مع أخي في اسكتلندا. عثر على انحناء في الجدول بحيث يمكنك أن ترمي بصنارتك وتصطاد سمكة إثر سمكة في ثوانٍ معدودات. كنا نسحبها سحباً إلى خارج الماء. حتى أصغر الأطفال سناً ممن لم تتجاوز أعمارهم الثانية كان من السهل عليهم اصطياد السمك من ذلك المكان.

كل الفترة التي قضيتها في عالم المال كانت عملية صيد السمك تلك. ارمِ بالصنارة في الماء كي تصطاد المال. أنا، الكاتبة الروائية السابقة التي ليست لديها أية خبرة أو شهادة في مجال إدارة الأعمال، بإمكاني رمي الصنارة بمثل هذه السهولة شأني في ذلك شأن أي شخص آخر يعمل في هذا المجال، وربما

أفضل. بعد ذلك بدأت برفع أسعار السيارات مجدداً وطرح شروط للرهان أكثر صرامة، صانعة لنفسي الاستدارة إلى الخلف الخاصة بي.

اقتبست هذا الأسلوب من كتاب سنيك وإرشاداته. كنت هادئة جداً. خلعت حذائي. فقط الأقرب إليّ إضافة إلى أولئك الذين عليهم أن يعرفوا طبيعة تحركاتي نظراً لأن الطريقة التي اتبعها في مزاولة عملي التجاري قد تؤثر على مواقعهم الوظيفية، كانوا مطّلِعين على خفايا الصفقة التي أُجريها. كان الشباب الذين حضروا الاجتماع الذي تمت فيه مناقشة المخاطر يدعمونني فيما أقوم به. في الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً همس وين في أذني كما يهمس الأب في أذن ابنته: «أيتها الفتاة الشاطرة». حبس الجميع أنفاسهم لأن ظنونهم كانت تسير في نفس الاتجاه ومن دون ترك أي انطباع بالتعاطف؛ لأن أنظارهم كلها كانت موجهة إليّ، وإلى مكتبي الصغير، حيث كنت ببطء وتؤدة أحرّك السوق كله إلى الوجهة التي أريدها. كانوا غارقين بالكامل، كما يقال، في هذه المسرحية. «الفتاة الشاطرة».

في إحدى مراحل العمل، نزل رادالبينو إلى القبو ووقف ورائي مثل الآخرين الذين كانوا يراقبون ما أقوم به مثل النظّارة الذين يشاهدون إجراء عملية جراحية. عندما نزل إلى القبو، بدأ جميع من في الصالة يشعرون أن شيئاً كبيراً جداً سوف يحدث قريباً، وأنني كنت أنا في موضع القلب من هذا الحدث الكبير، تماماً مثل جاك لالان الذي كان يسبح في نهر هدسون وهو يجرُّ سفينة شحن بأسنانه. لم يمكث رادالبينو طويلاً بيننا؛ إذ لم يكن هناك الكثير مما يمكن له أن يقدمه. لم يكن هناك الكثير مما يمكن لهؤلاء الأشخاص

الذين يتحلقون حولي أن يفعلوه. فهم لا يعرفون من هم الزبائن ولا طريقة انسياب البضاعة أو كيف يتم تفريغها كما كنت أنا أعرف.

حافظت على هدوئي. فانا الآن في منتصف الأداء. كنت أحس برعشة الخوف تسري في أوصالي، وكانت تلك الرعشة تمتزج بشكل جميل مع اللحظة وتُبقي على أحاسيسي متحفزة ومليئة بالحيوية. كان الجميع مستمرّين في عملية الشراء. تذكّروا أنني بحاجة إلى تحرير ما يربو على ستة عشر مليار دولار. كانت السوق كلها تتحرك. كان بإمكانكم مشاهدة كل ما يجري في السوق على الشاشة. تذكّرت اليوم الذي كنت فيه في مكتب رادالبينو عندما استطاع سنيك أن يجعل الشاشات تتحرك، أعترف أنني بدأت أشعر بالخيلاء تجتاحني – ولكن بطريقة بقيت فيها مسيطرة على خيلائي، لكن الخيلاء كانت تملؤني – بسبب ما كنت أعرفه ومن كل ما تعلمته. كنت فخورة بالنتائج التي حققتها ومندهشة في ذات الوقت. كنت بارعة. كان بإمكاني أن أحس بذلك. تذكرت الأنسة فاين وهي تقرأ مقالتي حول غرفة نومي أمام طلبة الصف؛ كان كل الطلبة مشدودين إلى المقالة وهم يستمعون إلى كلماتي وهي تُقرأ بصوت الأنسة فاين ذي الرنة العذبة. كانوا منتشين؛ وكنت أشعر أنهم باتوا تحت سيطرتي. أما الآن، فقد لزمت الهدوء. كان تشاك مشدوداً إلى حقيقة أنني كنت كاتبة روائية. فحقيقة كوني كاتبة سابقة، منحتني ميزة إضافية هنا في هذا المكان. اكتشفت أن كوني روائية سابقة، كان له بعض الفوائد أخيراً.

لكن لم يكن لدي متسع من الوقت للتفكير. فقد كان الباعة من كل حدب وصوب يتصلون بي وكذلك الزبائن الذين أرادوا أن يستمعوا إلى

«آرائي» حول وضع السوق. بدأت الإشاعات تتوالى. عرف تجار السوق بأن شيئاً ما قد حدث، وأن ما حدث كان كبيراً؛ وأكثر من ذلك، فقد عرفوا أنني كنت أنا في قلب الحدث. أنا! أنا التي لم أكن منذ سنة مضت فقط على شاشة الرادار. أما الآن، إذا كان لديك رهان عقاري، فأنا على الأرجح، أعرف أكثر منك عن مدى المخاطر التي تواجهها. المعرفة تحولت إلى سلطة، وكانت معرفتي بمن لديه الملوك (لو عدنا إلى مصطلحات لعبة البوكر)، ومن ليس لديه الملوك، قد جعلت من آرائي مطلوبة ولا غنى عنها لكل من يتاجر في السوق.

كنا تقريباً قد تجاوزنا مرحلة المخاطر — فقد كنا على مسافة قريبة من تحرير آخر المليارات المتبقية، وهو مبلغ كان بإمكان حتى شخص مثلي أن لا يقلق بسببه في الليل. كان وين ومارتن قد بدأا يتنفسان الصعداء وهما يقفان ورائي. تغاضيت أنا وغاس عن بعض النكات الصغيرة التي ملأت الفراغ الذي خلّفه صمتهما الثقيل بالرغم من أننا بقينا مُتيقّظين ومُركّزين على المخاطر، وكنا نتواصل عبر حركات وإشارات بالأيدي وبواسطة لغة الاختزال حيث تدربنا على كيفية استخدام تلك اللغة.

قال رئيس قسم مبيعات المواد غير الرائجة: «التقطي سماعة الهاتف لأن ميتشيل على الخط.» كان ميتشيل زبوناً مهماً مثل سامسون. كان بالحدس الذي يملكه، يعرف ما الذي لديّ، وكان يريد أن يشتريه. رفعت سماعة الهاتف.

قال بصوت فيه مسحة من التملق: «إندي، إندي، إندي، لقد كنت مشغولة جداً هذا الأسبوع، أليس كذلك؟»

أجبته بلطف: «أنا أفعل كل ما باستطاعتي؛ على كل حال، أليس هذا هو سبب وجودي في هذا العمل؟ أنا هنا لأمارس التجارة. بماذا يمكن لي أن أساعدك؟»

تابع قائلاً بعد أن انتهينا من تلك الثرثرة التي لا طائل منها: «اسمعي، أعرف أنك بحاجة إلى بيع تلك الخنزيرات، وبإمكاني أن أعرف لماذا – من الواضح أنها ليست الأرخص في السوق. لكن لدي سيولة نقدية قليلة يمكن أن أوظفها في السوق. أظن أن بإمكاني مساعدتك هنا. لماذا لا تبيعيني سيارات من نوع 5.5s بقيمة مليار دولار. أستطيع أن أبيعك كمبيالات لعشر سنوات على المقلب الآخر. لنقل 26-99، سوف أشتري الرهانات مقابل 04-101 على أساس العشرات. إنني أتصل بك الآن لأسدي لك معروفاً.»

كان ذلك هو المطلوب. المليار الأخير ليبعدني عن حد المخاطرة، لأنني لو نجحت في إبرام هذه الصفقة فسنكون قد وصلنا إلى ضفة الأمان. ولكن ماذا عن السعر – كنت أعلم أن العرض المقدم من قبله ضئيل جداً؛ ذلك أن أسعار أسهم سوق نيويورك للسيارات من نوع 5.5s كانت 27-99 + المناقصة. ما من أحد يمكن أن يبيع بمبلغ مليار دولا ر بمثل هذه النقلة السريعة. كنت أعلم أنه كان يتوقع أن يؤدي مزاحه المُقَنّع إلى إضعاف موقفي، لكنني لم أعد ذلك الشخص نفسه الذي كنته في المرة الأولى التي دلفت فيها إلى هذا المكان منذ ثلاث سنوات تقريباً. قلت: «276-99 مقابل إتمام الصفقة».

أراد أن يعطي الانطباع بأنه صُدِمَ بقيمة العرض حين قال: «يا إنديا، أنا

أحاول أن أمد لك يد المساعدة.» بعد ذلك تنهد بطريقة تشعر من يستمع إليه أنه لا يصدق أن واحداً مثله يمكن أن يتخذ مثل هذا القرار السيئ ثم قال: «ما رأيكِ بـ 26-99 +؟»

أجبته بحزم وأنا أضع وساوس وين وشكوك مارتن نصب عينيّ، قائلة: «اسمع يا ميتشيل: أنا لا أقبل بأقل من 276. أنت تعرف أنه لن يكون بإمكانك الحصول عليها من أية جهة أخرى. هذا هو أقصى ما يمكنني الذهاب إليه، وهو عرضي الأخير؛ ولك أن تقبله أو ترفضه.» كان رقم 276 يمثل ارتفاعاً مقداره ثلاثة أرباع النقطة، وكان رقماً غير نظامي، لكنني استطعت إقناع ميتشيل بقبوله. كان بإمكاني سماع أصوات أعضاء الإدارة من خلفي – وين والآخرين – يحبسون أنفاسهم، وكانوا متوترين مثلي تماماً في الوقت الذي كنت أقاتل من أجل الحصول على مبلغ 390000 دولار إضافي بينما كنت منذ يومين سبقا هذه المخاطرة عرضة لخسارة الملايين من الدولارات.

همس مارتن قائلاً: «لماذا الثلاثة أرباع؟»

لم أتكبد عناء الالتفات إليه لأجيب عن سؤاله. بقيت مستمرة في تركيزي كما لو كنت أمارس رياضة اليوغا في أوضاع مختلفة مثل وضع التوازن ووضع الشجرة ووضع الهلال، مبقية عيني الثالثة الخبيرة في حال من اليقظة. سمعنا صوت طرقة من الطرف المقابل.

قال ميتشيل: «أنا موافق.» هللت المجموعة الواقفة ورائي.

ربّتَ مارتن على ظهري، وصاح: «ضربة موفقة!» لقد تمت الصفقة، وبنجاحي في الحصول على نسبة ثلاثة أرباع النقطة، فقد وصلت إلى نهاية خط السباق بعد أن بعت كل السيارات من فئة 5.5S، وبعد أن نقلت المخاطرة إلى الجانب الذي يقف فيه أحد الزبائن المهمين بالنسبة إلينا محققة بذلك ربحاً للشركة قدره أربعة عشر مليوناً من الدولارات؛ وهو ربح لا بأس به خصوصاً إذا كنت في مواجهة احتمال أن أخسر ثمانين مليون دولار. هذا الربح جيدٌ جداً.

«ثلاثة أرباع، هذه نسبة عظيمة، إنها تشبه صوت الديناميت»، بقي مارتن يردد هذه العبارة لعدة أيام.

قال وين أيضاً عندما التقى بي مصادفة في المصعد؛ وكانت عيناه الجميلتان البنّيتان تلمعان: «ثلاثة أرباع!» كان بإمكاني التفكير بكثير من الأشياء من بينها أن هذه ستكون سنة خير عليّ، وأنني سوف أحصل فيها على مكافأة مجزية أستطيع بواسطتها شراء ليس منزل واحد فقط، بل عدد من المنازل. هززت النرد ورميت به فحققت المزيد: ما حققته كان أكبر من مجرد الربح. هذا الشعور لم يُصِبْني بالدوار، بل بإثارةٍ ناجمة عن القناعة بأنني عصية على الهزيمة.

سألني ثيودور بعد ذلك مباشرة ونحن نسير لوحدنا في شوارع تشيلسي يوم السبت من دون أن تكون البنتان بصحبتنا: «هل أنتِ سعيدة؟» كان يحتضن يدي في يده. هل كنتُ سعيدة؟ لم يعتَدْ أن يسألني مثل هذه الأسئلة من قبل. كان ذلك السؤال بسيطاً ومباشراً بالنسبة إليه. ظننت

أنه طالما أن ثيودور لم يكن مطلعاً فعلاً على ما أفعله كل يوم، فمن الطبيعي أن يكون عيار أسئلته قد انخفض إلى أكثر المستويات ابتدائيةً. هل أنتِ سعيدة؟

بكلمة واحدة: «أجل»، أجل، أجل، كنت سعيدة. كنت في غاية الانشراح. كنت جذابة. كنت لمّاحة. كنت ذكية. كنت ذاتِ عقل وقّاد، عقلٍ سريع البديهة. الزعم بأن جاذبية المال بالنسبة إلى الذين لا يملكونه أكثر من جاذبيته بالنسبة إلى من يملكون الكثير منه، هو كذبة كبرى. إنفاق المال يشكل متعة كبرى. قام رادالبينو بضمان مكافأتي وضاعفها بمقدار ثلاث مرات. لم تعد أقساط المدرسة بالنسبة إليّ مشكلة. أصبح بإمكاننا الاستمرار في معالجة ابنتي الكبرى التي تعاني من الحساسية عند طبيبها الخاص الذي كانت ترتاح إليه. لم تعد تزعجني رؤية بطاقة مخالفة للسير ملصقة على زجاج سيارتي، أو أقلق بشأن حاجات المنزل، وكيف سندفع مرتب أبريل الأسبوعي. طلبنا إلى جانين عاملة التنظيف أن تأتي إلى منزلنا أربع مرات في الأسبوع. بدأنا البحث من أجل شراء منزل لنا في البلدة. كنت أحس بالفرق لأنني عشت النوع الآخر من الحياة، تعلمت أن أقلق حول أعمالي التجارية، وأن أهتم بأموال الآخرين بدلاً من مالي أنا، بدلاً من كل ما ناضلت من أجل الحصول عليه. وماذا عن الإنفاق؟ قررت أن نقضي عطلة عيد الميلاد في منتجع شتوي في منطقة تيلورايد. استأجرت لهذه الغاية منزلاً للعائلة مع طباخ وخادم خصوصي وأدوات تزلج يتم إحضارها يومياً إلى باب المنزل، إضافة إلى جليسة تعنى بشؤون البنتين، ومدرب خصوصي للتزلج على الثلج وسائق خصوصي – فقط كي أعرف

ما يعني أن تكون مثل هذه الأشياء في متناول يد المرء. شعرت بأنني كنت كمن يمارس متعة مخصصة لشريحة معينة من الناس ليس هو جزءاً منها بالأساس. لكنني شعرت أن من حقي أن أكون جزءاً من تلك الشريحة. قدّمتُ تبرعات لمدرسة البنتين، وللمتاحف، ولبرامج محو الأمية، وللمكتبة العامة، ولكل الجهات التي تمنح الجوائز التي حزت عليها أو رشحت لنيلها. أرسلت أبريل إلى جزيرتها وأحضرت عائلتها إلى هنا. استمتعت بالكرم الذي أغدقته على من حولي. تذكّرتُ ذلك اليوم البعيد الذي نشرت فيه آخر رواياتي؛ تذكرت أنني كنت آمل أن يحقق الكثير من المبيعات بحيث يمكن لي أن أغدق بعض الأموال على المستحقين وأن أكون كريمة. بإمكاني أن أكون كريمة الآن.

في واجهة أحد المحلات في منطقة تشيلسي، لفت نظري فستان صوفي جميل لونه أزرق غامق يصل طوله إلى فوق الركبتين، ويغطي كُمّاه ثلثيْ الذراعين؛ كما يزيّن الجزءَ الخلفيَّ من الفستان من الأعلى وصولاً إلى منتصف الظهر، صفٌّ من أزرار عِرْقِ اللؤلؤ – كان مصمم الثوب من أصول كوبية. طلب إليّ ثيودور أن أجرّبه من أجله. جرّبت الفستان وكنت أدور حول نفسي أمامه. كان يقف واضعاً يده على خده مُثنياً على جمال الفستان. أثرت إعجابه وأنا أرتدي ذلك الفستان وقد أسرّ لي أنه يتمنى لو يفك أزراره الواحد إثر الآخر عني بنفسه. ابتعت الفستان من دون أن أنظر إلى سعره. لم أشعر بالذنب حيال ذلك، أو بالقلق جراء صعوبة توفير ثمنه. تناولنا طعام الغداء واحتسينا إلى جانبه بعض النبيذ في مطعم مطلٍّ على مسبح مدفّأ ويطلّ من علٍ على نهر هدسون الذي تنتشر فوق مياهه القوارب التي يبحر بها أصحابها

الذين تبدو عليهم أمارات السعادة؛ ومن بعيد يظهر تمثال الحرية بشعلتها وأغنيتها التي تتغنى بالحرية.

مشينا بعدها بمحاذاة النهر باتجاه حي تريبيكا حيث تقيم عائلة تشابمان. قمنا بزيارة مفاجئة للعائلة – كان ويل يعمل جالساً إلى مكتبه بينما كانت إيما تمارس بعض الرياضة المنزلية. كانت بشرتهما تميل إلى السمرة وتبدو عليهما أمارات الاسترخاء. كان تأثير الصيف الذي قضياه في ولاية مين ما يزال ظاهراً على جلديهما. كانت ابنتاهما منهمكتين في تنفيذ مشروع فني حيث أفردتا طرحة من الورق المعجون أمامهما وكان الطحين والغراء يغطيان أيديهما حتى المرفقين، وكانتا تعملان عليها بجدية ظاهرة على طاولة المطبخ الطويلة. لم تكلفا خاطرهما عناء رفع بصريهما لإلقاء التحية علينا إلا بعد أن نالتا بعض التوبيخ من إيما. يا لها من أم صالحة؛ لاحظت ذلك من خلال ذلك المشروع الذي كان واضحاً أنه من تصميمها. لطالما أعجبت بجهدها المنظم. كانت الصحون في حوض الغسيل والمكان كان غير مرتب إلى حد ما. كان ويل حافي القدمين ويرتدي قميصاً قصير الكمين، وبدا لي فجأة أنني ألتقي بهذه العائلة لأول مرة؛ فهي تبدو الآن مختلفة ولم تعد تتبوأ الموقع الذي دائماً ما كنت أضعها فيه. لأول مرة أرى عائلة تشابمان كمجموعة من الناس العاديين. بدا أفراد هذه العائلة لطيفي المعشر وكادحين وطيبين. لم يكونوا يعرفون عن الحياة أكثر مما أعرف. كيف كانت مثل هذه الخواطر تنتابني فيما مضى؟ قدّم ويل لنا الشراب وجلسنا نحن الأربعة قبالة النوافذ الكبيرة في غرفة الجلوس في الوقت الذي كانت الشمس تغرب باتجاه نيوجيرسي بينما كانت الطائرات تأتي تباعاً لتهبط في مطار «نيو وارك».

هل كنت سعيدة؟ كان هذا السؤال يحوم فوق رأسي كما لو كان مكتوباً داخل فقاعة بيضاوية الشكل في قصة مصورة للأطفال. أجل. أجل، كنت سعيدة وهادئة ومتعبة بطريقة مترفة وحسية ومتحررة. كنت حرة. وبدا الأمر وكأنه يسير في طريق لا نهاية لها. كنت سعيدة لمعرفتي أنه لا أفق محدداً لها.

دعوة إلى العشاء في مطعم «بون سوار» للاحتفال: رادالبينو كان هناك؛ بدأ يروي للجميع قصة لقائي الأول به، وقد وصفني بأنني كنت مثل جرو صغير سريع الحركة أرتدي بذلة تدل على أن من يرتديها يمتُّ إلى عالم الكُتّاب. كانت بذلة من المخمل الأسود كان يتمنى لو يخلعها عني بيديه. كان وين يقرع الجرس طيلة الوقت. الكثير من الضحك يملأ المكان. أجل، ذلك الجرس. مارتن وسنيك ووين وآخرون كانوا هناك أيضاً. وصفه مارتن بالقول إنه «جرس التنوع». تابع رادالبينو وصفه لمظهري آنذاك. أعطيت حينها الانطباع المطلوب عني: كان شكل أظافري فوضوياً نوعاً ما، وكذلك حذائي وحقيبة يدي. «لقد كانت حينها هي إليزا دوليتل الحقيقية التي تحتاج إلى عملية اغتسال جيدة في الحمام.»[48] سألت مارتن بعد أن ضبطني جرس التنوع ذاك، وقد غاب عن بالي ذلك: «إليزا مَنْ؟» أجاب: «كي لا يخرج أحد عن الإطار العام، وكي ننتبه إلى ما نتلفظ به. عندما تتفوهين بما لا يجوز أن تتفوهي به، يتم قرع الجرس. عندها ستدفعين غرامة قدرها مائة دولار في كل مرة يرن فيها الجرس، ويخصص هذا المبلغ لجمعية خيرية تختارينها بنفسك. هناك استمارة مخصصة لهذا الغرض تحتفظ الآنسة لين بنسخ منها

48 - الإشارة هنا إلى إليزا دوليتل، وهي الشخصية الرئيسية في مسرحية «بيغماليون» لجورج برنارد شو (المترجم)

حيث ندفع المال لها في نهاية كل شهر بعد ملء هذه الاستمارة.» الكثير من النبيذ، وأنواع لا حصر لها من الأطعمة تملأ المائدة. وكان مارتن بحمّالات بنطاله الملونة يكرر للمرة العاشرة رواية تلك المحادثة بينه وبين سائقه حول القمصان، وتساؤلاته المتكررة حول غبائي أو جرأتي. سألت: «أين الجرس؟ لو كان الجرس على طاولتي لكان قد قرع مثل جرس الإنذار.»

قال رادالبينو: «سأعطيك الجرس. سأحضره لك غداً صباحاً وأسلمه لك بيدي شخصياً.» تابع الجميع حديثهم إلى أن أخذوا كفايتهم من الطعام والشراب؛ انسحبوا بعدها من المطعم الواحد إثر الآخر. سألني رادالبينو مرات عدة فيما إذا كنت سعيدة وراضية معلناً خلال ذلك أنني أصبحت ملكه هو من الآن وصاعداً. غادر الجميع المطعم وبقيت أنا ووين لوحدنا. كنا لوحدنا فقط نجلس إلى تلك الطاولة الكبيرة وكانت عيناه البنيتان تلمعان تحت ضوء الشموع.

قال: «الجميع يحبونك.»

قلت: «لهذا اليوم فقط.»

قال بعد أن ساد الصمت لبرهة: «أنت مخطئة في هذه النقطة.» كان نادلو المطعم منهمكين في ترتيب المكان، وأصبح المطعم فارغاً من زبائنه. أعاد وين ملء كأسينا بالنبيذ.

قلت: «اليوم، أليست المسألة برمتها تتعلق بما حدث هذا اليوم؟» كنت منتشية بالنجاح الذي حققته. شعرت بأنني أتربع على عرش العالم: أنا، سيدة الكون.

قال: «عليك أن تبقي عينيك مفتوحتين على الغد أيضاً. هذه هي طبيعة

اللعبة.»

«هناك دائماً ألعاب. لا يمكنك أبداً أن تَدَعَ أياً منها تفلت من بين يديك.»

«ليس إذا أردتِ أن تبقي في الحاضر.»

«هذه أحجية. ابقِي عينيك مفتوحتين على الغد كي تستمتعي بالحاضر.»

صحح لي العبارة قائلاً: «كي يدوم هذا اليوم.»

قلت بعد أن أخذت رشفة من النبيذ: «أنت حكيم دائماً؛ هذه عبارة تنم عن حكمة. اقرأ لي المستقبل الآن.»

«تريدين أن تلعبي هذه اللعبة؟»

«إنها لعبة مسلية.»

«لعبتكِ أو لعبةُ السوق؟»

«كلاهما.»

«لعبة السوق سهلة. فنحن بحاجة إلى سنة أخرى كي نخفف بالتدريج من المشكلات التي تعترضنا بسبب القذارات التي نواجهها هناك، مثل الديون التي لا نستطيع تحصيلها، وأشياء أخرى من هذا القبيل. سكرابيتي انتهت بالنسبة إلينا.»

قلت وكأنني لا أصدق ما أسمع: «حقاً؟» لو سمعت مثل هذا الكلام قبل عدة أشهر أو قبل سنة لما فوجئت؛ لكن شيئاً ما كان قد تغير في داخلي. لقد ذهبت بعيداً باتجاه الأعماق ولذلك لم أعد أتبين ما يجري من حولي أفقياً. لم أعد أريد أن أرى ما الذي يجري من حولي بسبب أنه لم تعد هناك متعة في ذلك، خصوصاً في المجال الذي أعمل فيه. لقد دلفت إلى مغارة أفلاطون التي تعتبر مضرب الأمثال؛ وهناك، لا يمكنك أن ترى الحقيقة بشكل مباشر. ترى بدلاً من ذلك ظل الحقيقة يتراقص من حولك على شكل أرقام على شاشة الكومبيوتر — وهذه أقرب نقطة يمكن للتاجر أن يتماسّ معها إذا كان يريد أن يصل إلى الحقيقة. كل ما يبتغي التاجر معرفته هو وضع تجارته الآن: أي كيف يضع سعراً للبضاعة، وكيف يتعامل مع المشكلات التي تعترض طريقه. أضفت قائلة: «الديون التي من الصعب تحصيلها هي موضوع حساس جداً.»

تحدث وين بكثير من الموضوعية التي يتّسم بها عادة. قال: «الجميع يطمرون رؤوسهم في الرمال. وهذا ليس الموضع المناسب. حتى الصفقة التي قمتِ بها اليوم ما كان لها أن تتم لو حاولتِ إجراءها بعد ستة أشهر من الآن.»

قلت: «سوف نلجأ إلى التحايل في عملية المقايضة.» كان ذلك نصف سؤال ونصف تصريح. هناك دائماً مخرج في مكان ما، عند مواجهة أية مشكلة. لقد تم اجتراح الأدوات والمنتجات والأنظمة والأساليب والتصميمات من أجل انتشال المرء من أية ورطة محتملة قد يقع فيها. هذه هي المخاطرة الآمنة.

«التحايل؛ هذه هي العبارة بالضبط.»

كان ذلك بمثابة الأجر، هذا الحديث؛ ضمن هذا النطاق، وبعد أن اطمأن وين إليّ بالكلية، فقد ولجت إلى داخل اللعبة.

قلت: «ألا ترى معي أننا دخلنا في موضوع جاد للغاية؟» رفعت كأسي باتجاهه، فقام بصب مزيد من النبيذ فيها. كنت قد بدأت أشعر بالانشراح نتيجة لتأثير الشراب عليّ. بدأ شخصه ومظهره يحتلّان حيزاً هاماً في حياتي خلال تلك السنين التي قضيناها معاً. كانت هناك لمسة لطيفة في اللمعان الذي ينعكس على وجنتيه. كانت الحياة على هذه السوية من اللعبة حلوة بشكل مذهل، وقد كنت للتوّ موضع احتفاء بعضٍ من كبار لاعبيها. كانت الوليمة عالية الكلفة بشكل لا يصدّق؛ إضافة إلى أن رئيس شركة بي أند بي نفسه أتى لتناول العشاء على شرفي، ووعد أن يسلمني بنفسه الجرس الفضي صبيحة اليوم التالي. سوف أقرع الجرس في اللحظة التي يسلمني فيها إياه لأنه سوف يمنحني المبرر كي أقوم بذلك بالتأكيد، وسوف يضحك ويتفوه بكلام غير لائق أكثر من ذي قبل. سوف يأخذ العاملون في الصالة علماً بالحديث بيننا. كنت أستطيع رؤية نفسي وأنا أرتقي في هرمية الشركة، وقد منحني ذلك إحساساً بالسعادة. كنت أطمح إلى تحقيق المزيد. بدأت أفهم السبب وراء حب الناس للسلطة؛ إنهم يطمحون إليها لأنها تمنحهم مزيداً من الإحساس بالقوة. عندما تبدأ بتذوق طعم السلطة، فسيتبين لك كم هي لذيذة؛ وسيكون من المستحيل عليك كما أتصور، أن تبدأ فجأة بالخضوع إلى حمية للتخفيف من وزنها وحجمها.

قلت بجرأة: «والآن، ماذا عن مستقبلي؟»

«اعطني راحة يدكِ.»

أعطيته إياها. اقترب منا النادل لكننا تجاهلناه تماماً. لم يبقَ من الزبائن في المطعم سوانا. كنا قد حجزناه لبقيّة الليلة كوننا دفعنا الكثير من المال مقابل وجبة العشاء تلك. كان بإمكاننا البقاء هناك متى شئنا. كان الوقت قد تجاوز حينها منتصف الليل. أمسك وين بيدي وقلبها بيده بحيث أصبحت راحة يدي إلى الأعلى. قرّب منها شمعة. كانت يده دافئة وناعمة. شدّني إليه أكثر. تلامس كتفانا. تسمرت عيناه على خطٍّ ذي شعب ثلاث في راحة يدي، وعلى روافد هذه الخطوط. قلت: «حسنٌ؟»

قال: «هل أنتِ خائفة؟»

«بالطبع، لا! أيها العرّاف الكليّ المعرفة.» استدرنا كي ينظر الواحد منا في وجه الآخر، وكان وجهانا قريبين جداً من بعضهما بعضاً. تفرّس في وجهي لبرهة؛ وكان بإمكاني رؤية سحابة من الجدّية تغمر كيانه مرة أخرى وتحجب الشمس البرّاقة والرائعة في عينيه. كان صبري معه قد نفذ حينها. فقد كنا نحتفل في نهاية المطاف. أنتم تعرفون كيف تَحلّ تلك اللحظات: هناك اتجاه واحد لا غير، نهايته هي قوس القزح الذي يتوضع فيه قِدْرُ الذهب الموعود – لا أقل من ذلك ولا أكثر. أما الآن، عندما أسترجع تلك اللحظات، أستطيع رؤية وين جالساً إلى تلك الطاولة، وأرى كذلك عينيه الجميلتين وهما تعكسان لهيب الشموع. إنه هو من صنعني؛ وكأي أب يكتشف فجأة كم هو هش ذلك الابن الذي أتى به إلى الحياة، فإن مزاجه ينقلب رأساً على عقب.

كان هو نفسه حيث كنت أنا، يسبح في بحيرة النجاح المتلاطمة الأمواج، وهو مؤمن تماماً بأنه لا يقهر. كنت بالتأكيد أعرف أن مثل تلك اللحظات، مآلها الزوال. كان يمكن أن أقول ذلك بنفسي لو سُئِلتُ رأيي. لكن أحداً لم يطلب مني إبداء رأيي حول هذا الموضوع.

قال: «أنا فخور بكِ». إذا كنت قد ولجت إلى الداخل — أي لو توغلت بعيداً في أعماق المغارة — فهو لم يلجْ إلى داخلها قطّ. كان هو في الخارج. كانت لديه القدرة أن يبقى في الخارج دائماً بحيث تمتد رؤيته إلى مسافات بعيدة. لقد حذّرني من مغبة الولوج إلى الداخل. كانت موهبته الفريدة تتجلى دائماً في قدرته على النظر إلى البعيد؛ وهو لهذا السبب كان دائماً في عداد الناجحين.

قلت بإلحاح: «راحة اليد».

«هل تعلمين ما الذي أنجزتِه؟» تحوّلَ ما بيننا إلى لعبة لها علاقة بالجرأة؛ كانت مباراة لاعبوها عيوننا، من منا سوف يفعل ماذا، ومن بيننا سوف يشيح بصره عن الآخر أولاً.

قلت من دون أن تَطْرَفَ عيناي: «أجل، أعلم. هل تخيفك راحة يدي؟»

«أليس مسلياً أكثر أن لا تعرفي؟»

قلت: «أأنت خائف من كرتك البلورية تلك؟ لم أرَكَ يوماً خائفاً». بدا عليه الخوف، كما لو أنه أراد شيئاً لم يعرف كيف يطلبه. أستطيع أن أتذكره الآن، أتذكر دفء يده التي تحتضن يدي، وأتذكر كذلك الطبيعة الجادة

لهدوئه واتزانه – انتهت اللعبة، وكذلك الرغبة في التكلم بوضوح وأن يُستمَعَ إليه بوضوح أيضاً. لكن من هي تلك المُراهِقة التي تستمع إلى أبويها. في تلك الليلة بالتحديد، بدأ ينظر من خلالي. كان هو مَن صنعني، لكنني لم أعد ملكه الآن، ولم يكن يملك من الوسائل ما يكفي كي يحميني.

في غضون ذلك، كان وين قد أعدّ العدّة لترك شركة بي أند بي، كما علمت فيما بعد. كان يقرأ في راحة كفي فيما إذا كان يريدني أن أرافقه حيث يقرر الذهاب. كان يزين الأشياء: العلاوة التي حصلت عليها، وعلاقتي برادالبينو والآخرين، وفيما إذا كنت سأجيبه بالإيجاب، أو فيما إذا كنت سأقرر المجازفة، وفيما إذا كان هو يريدني أن أرافقه. كان قد قرر الانضمام إلى صندوق الوقاية من الخسارة المالية. كانت لديه خطة رائعة تقضي بأن يتخلى عن كل هذا الهراء، وأن يبدأ عملية بحث واستقصاء، وأن يخرج بنتيجة مفادها أنه سيكون في موقع قوي عندما تنهار العملية بالكامل. نقل عنه فيما بعد قوله إنه لم يفهم النقاط أو التفصيلات الدقيقة، أو البنية بشكلها الكلي، أو التعقيدات المرتبطة بها؛ ولكن كان لديه إحساس عميق بأن وول ستريت، وعالم المال قد صنعا آلة ستؤدي إلى دمار العالم – وهي آلة لا يعرف الناس حول العالم أي شيء عنها لأنهم اعتقدوا أننا كنا نعرف ماذا نفعل هنا.

«الأشياء تتغير بسرعة»؛ كان ذلك كل ما قاله وهو ينسحب مبتعداً عني ويبدو أنه قرر أن لا يطلب إليّ أن أنضمّ إليه.

«أتظن أنني لا أعرف ذلك؟»

«أنتِ لم تريه.» تقدم نادل حينها منا، وصب في كأسينا بعض الماء.

سألني: «هل تفكرين في ورود الخزامى على الإطلاق؟ أنا أفكر فيها طيلة الوقت. عقلي مليء بورود الخزامى: بألوانها وأشكالها المختلفة.» قام نادل آخر بإطفاء الشموع المتوضّعة فوق الطاولات المجاورة.

تثاءبت. كنت متعبة لكنني لم أكن جاهزة بعد للذهاب إلى البيت. أردت أن أبقى برفقته طيلة الليل. قلت: «أنا لا أفكر في ورود الخزامى». بقينا جالسين في المطعم لفترة وجيزة بعدها، وكان واحدنا يحدق في عينيْ الآخر. كانت لعبة الجسارة قد انتهت. الآن تحولت إلى لعبة تصفية الحساب. في نهاية المطاف، أعجبتني فكرة مقارنة قصتي مع قصة بيغماليون. لم أمانع في أن أُشَبَّهَ بقطعة حجر تكون بمثابة مادة خام يصنع منها أحدهم تصميماً يرمز إلى الحب. ولكن عبثاً حاولت ألّا أبدو متوترة في الوقت الذي شعرت بأنني تحت مجهر عينيه اللتين تحدقان بي وتنفذان إلى داخلي. لم أعُدْ إنديا بالمر، الكاتبة الروائية، ولا إنديا بالمر، سيدة الأعمال. لقد تحولت إلى مخلوق أقل جاذبية بعد أن أصبحت بالنسبة إلى وين مجرد استعارة. حاولت أن أستعيد توازني. قلت وأنا أحاول سحب يدي من يده بلطف: «الحفلة انتهت»، لكنه لم يفلت يدي فوراً، كما لو كان يحاول بدوره أن يبقى مُسَمّراً إلى الحاضر.

الفصل الثامن عشر

عدد شهر شباط، فبراير، سنة 2007 من مجلة «المرأة»:

السير على الحبال:

الكاتبة الروائية التي تحولت إلى سيدة أعمال، إنديا بالمر تطوي المسافة بين الفن الراقي وعالم المال الراقي

بقلم سيمون دو سافوي

أنتم ولا شك، تعرفون مسار القصة — مصرفيٌّ ناجح يتحول إلى عالم التصوير الفوتوغرافي؛ مديرُ أحد المصارف يستقيل ويتوجه إلى ولاية فيرمونت لتربية الماعز والعمل في إنتاج الحليب والجبن؛ المديرُ التنفيذي لإحدى الشركات الكبرى يترك وظيفته ويسافر إلى دارفور للتطوع في برامج إغاثة الفقراء الذين يعانون من المجاعة هناك — جميعُ هذه القصص التي تتحدث عن أشخاص غيّروا مجرى حياتهم، تسير في اتجاه واحد: الرأسمالي المُنْعَم يتخلى عن كل مظاهر النعمة من أجل الأعمال الخيرية؛ هذا الوصف يكاد يتحول إلى كليشيه.

دعوا الأمر لإنديا بالمر التي كان اسمها في عالم الأدب يبرز بالخط العريض بين الحين والأخر؛ إنها مؤلفة رواية 'الطريقة التي تحدث فيها الأشياء هنا' التي أثارت الكثير من الاهتمام في الدوائر النقدية؛ ومؤخراً، رواية 'جيل

النار'؛ هذه الروائية قلبت هذه الكليشيه رأساً على عقب وفاجأت عالم النشر والأدب بتخليها عن عالم الكتب بشكل كامل من أجل أن تصبح (ويا للمفارقة) تاجرة أسهم وسندات. خبر عاجل: عُيِّنَ زادي سميث الآن رئيساً لمكتب موازنة سعر الصرف في مصركريدي سويس[49]. سيتم إجراء مقابلة تلفزيونية لريتشارد سيرا مساء اليوم في برنامج: 'المال السريع'.

أنا أمزح هنا، إلى حد ما. أما بالنسبة إلى إنديا بالمر على الأقل، فإن انتقالها من عالم موباسانت إلى عالم المؤسسات المندمجة الضخمة وعالم الكسب والثراء، وكل تلك القذارات، ليس مزحة على الإطلاق؛ لأن ما ذكرته بشأنها صحيح تماماً. فقد وردتني معلومات من مصادر موثوقة من داخل الأبراج التي يملكها شياطين الثروة والجشع أن بالمر شوهدت هناك، وكانت تبدو في منتهى الجدية والأناقة في بذلة جديدة من تلك التي ترتديها سيدات الأعمال، محاطة برعاية واهتمام كبيرين من واحد من أكبر أقطاب المال وهو واين جونز الشهير ب «وين» في مجمّع شركة بي أند بي إخوان، في الطابق الثالث والثلاثين في بناية وينشستر. لكنها لم تكن موظفة متدربة على ما يبدو، كما أنها لم تكن تجري أية أبحاث هناك من أجل روايتها الجديدة. كلا؛ فإنديا بالمر حجزت لنفسها مكاناً على العَجَلَة الرأسمالية، وبدأت تشق طريقها باتجاه الصفوف الأمامية في هذا المضمار بدءاً من العتبات الدنيا المتمثلة في وظيفة 'مساعد' وصولاً إلى موقع المدير الإداري. وقد حققت هذه القفزة الكبيرة خلال ثلاث سنين فقط أمضتها في وول ستريت. وتقول مصادري إن ارتقاءها السريع والمتألق أدى إلى خلط بعض الأوراق في عدة مؤسسات

Credit Suisse - 49

مدعومة من قبل الحكومة في مجال الضمانات المدعومة من الرهن العقاري في شركة بي أند بي؛ لكنها تؤكد أيضاً أنها ليست مجرد نمر من ورق. فقد قامت بعقد عدد من الصفقات الكبيرة وحققت نسبة كبيرة من الأرباح بالرغم من اللغط الذي كان يدور من حولها. مع ذلك، سوف أكون صادقة معكم – ذلك أن مجرد التفكير بالسندات، أو بصناديق السندات يجعل عينيّ تتسمران من الدهشة، ولذلك فقد قررت أن أتتبّع ما تقوم به إنديا بالمر الجديدة والتحقق مما يجري في واقع الأمر.

التقيت بإنديا بالمر في يوم من أواخر أيام شهر تشرين الأول، أكتوبر، كان الطقس يميل فيه إلى الاعتدال في بولون للحديث معها حول التغيير اللافت في حياتها المهنية. وصلت الشقراء بالمر الشبيهة بالتمثال وذات العينين اللتين يشبه لونهما لون زرقة السماء متأخرة عن الموعد بعض الشيء؛ وكانت محاطة بالعديد من الأمهات اللواتي تعوّدْنَ أن يتناولن طعام الغداء وهنّ ينتعلن أحذية من ماركة لوبوتين،و ثياباً من الأقمشة المزركشة برسومات فنية من ماركة بالينسياغا. كانت ترتدي ثياباً محافظة قريبة إلى نمط الأزياء الهيبية – مكشوفة الظهر وتنورة فضفاضة ناعمة (رائعة) من تصميم جيمي تشو، مصنوعة من قماش يشبه غطاء الطاولة من تصميم بهناز سارافبور، وسترة قصيرة ملفوفة صممها بشكل فني رائع الفنان سيلين. اعتذرت بشدة على تأخرها عن الموعد. أظن أنه لم يعد مناسباً الاستفاضة أكثر في الحديث عن سترتها. كان جيدُها مزيناً بعقد من تصميم لارسون في وسطه فَصٌّ حجر كريم كبير أزرقَ اللون ملفوفٍ بشرائحَ رقيقةٍ من الذهب ومربوطٍ إلى سلسلة من الذهب قام بتصميمه وصنعه النحّات الوسيم ثيودور لارسون، زوج إنديا بالمر.

صرختُ قائلةً: «هل لكما أن تتوقفا أنتما الاثنتان!» ضحكتْ وبعد قليل من التردد، قامت بتغطية فمها بظاهر كفها.

علّقت بالمر على العالم الذي تعيش فيه الآن والذي تتحكم به قوانين الذكورة، قائلةً: «أنا لا أشعر بالدونية بسبب الجانب الأنثوي في شخصي. أنا منفتحة جداً على حقيقة كوني أنثى؛ وأخوض في أحاديث رائعة مع الشباب حول شكل ملابسي. إنهم لا يعترفون أبداً بذلك، لكنهم، بحسب تقديري، يحبون التغير الذي أحدثه تواجدي معهم في الشركة.»

قال أحد المراقبين الذي أحب أن يبقى اسمه طيّ الكتمان: «إن وجودها منحهم بعداً جديداً أدى إلى صرف أنظارهم عن كل الأجساد التي داست عليها – أعني جميع الرجال الذين لم تتم ترقيتهم وظيفياً بسبب ما قامت هي به.» 'مياو! إلى الأمام أيتها الفتاة!'

بالمر التي كانت قد أخذت لنفسها إجازة من عملها في شركة بي أند بي، ارتشفت جرعة من شراب البرغندي من نوع شاتو ليفروا (من اختيارها هي) وقالت: «أنتن متواجدات هنا من أجل سماع جواب على سؤال يرنّ في أذهانكن، وهو: بماذا كانت هذه المرأة تفكر بحق السماء؟» في الواقع، هذا ما جئت من أجله. قالت: «التحول كان سهلاً جداً. جميع المحيطين بي كانوا يجنون مبالغ طائلة من المال؛ وأخيراً قررت أن أكسب مبالغ طائلة من المال أيضاً. أردت أن أثبت لنفسي أنني قادرة على ذلك. وقد قدّم لي ثيودور الكثير من الدعم لتحقيق أمنيتي.» تابعت قائلة وهي تضحك: «كان ثيودور يصف ما أقوم به بالتجربة الدو شامبية.»[50]

50 - إشارة إلى مارسيل دو شامب، الرسام الفرنسي ذي النزعة السوريالية 1968 - 1887 (المترجم)

ما قامت به كان دو شامبيّ النزعة بامتياز. فقبل أربعة أسابيع من اجتماعنا بها، قدّمت بالمر عرضاً مدهشاً كان حديث البلدة (تقول الإشاعة إنه كان أحد أهم الصفقات التي جرت في تاريخ شركة بي أند بي). لكن بالمر هي أمٌّ في المحصلة وهو ما تحققت منه عندما سألتها عن بعض التفصيلات. وبّختني وهي تضحك قائلة: «لا يجوز أن تخوضي في مثل هذه الموضوعات. فقد تجدين نفسك في ورطة كبيرة لن تخرجي منها أبداً.»

«هل كان دو شامب ليوافق على ما قامت به بالمر؟» توقفتْ قليلاً وأخذتْ رشفة من كأسها. قالت لي وهي تبتسم: «المسألة كلها تتعلق بالمال يا عزيزتي»؛ ثم وبعد أن اعتدلت في جلستها، تابعت قائلة: «ألا يصلح ذلك أن يكون عنواناً؟ دعيني أسميه: 'المال العزيز'.» تحسستْ طعم الشراب في فمها ثم أردفت قائلة: «هو بالأساس عبارة مالية تستخدم في بريطانيا للدلالة على المال النادر، أو المال الذي يصعب الحصول عليه — أعني الأسواق ذات الأصول المجمّدة.»

المال العزيز: ربما كان ذلك شكلاً من أشكالا النعي — بالرغم من أنني لن أدعَ إنديا بالمر تفلت من يدي بمثل هذه السهولة، تماماً كما حصل عندما بدأت إحدى الطالبات المستجدات تنتحب في جلسة إرشادية في سوارثمور عند قراءةٍ لمقاطعَ من رواية 'الطريقة التي تحدث فيها الأشياء هنا'. أريد أن أقف بقوة إلى جانب الفائزة بجائزة واشنطن للأعمال الروائية. (فهي قد فازت بتلك الجائزة عندما كان عمرها لا يتجاوز السادسة والعشرين.) أريد أن أحتفي بكاتبة لم يتم بيع كتبها بكميات كبيرة بالرغم من أنها حققت لنفسها سمعة أدبية قوية، وتقديراً عالياً من جانب النقاد.

أرجو أن تسامحوني على استحضاري حادثة حصلت منذ أربع عشرة سنة عندما طلب إليّ أن أعدّ لمقابلة قصيرة مع إنديا بالمر، وهو ما أثار ارتباكي وشعوري بالرهبة حينها. تلعثمت وأنا أقرأ من قائمة مكونة من خمسة وثلاثين سؤال كنت قد أعددتها مسبقاً، لكنني لا أنسى أن بالمر كانت في منتهى اللياقة والكياسة معي. مع صدور روايتها التالية، تمت سرقة إنديا بالمر من ناشر أعمالها الأول وكانت شركة دويتش للنشر، من قبل ليوناردو كافيللي لصالح شركة بيكاديللي التي يملكها هذا الأخير. شكلت هذه النقلة توجهاً جديداً استمر إلى حين صدور روايتها الأخيرة سنة 2003. كانت تنتقل من ناشر إلى آخر، وفي كل مرة كانت تتلقى مردوداً مالياً أكبر من الذي سبقه (أقلّه من حيث المبدأ) مرفقاً بوعود تتضمن نشر عملها الجديد على نطاق أوسع من جمهور القرّاء الذين يتوق جميع الكتّاب والمؤلفين للتواصل معهم.

قالت لي في أحد لقاءاتنا على مائدة الغداء مؤخراً: «كان طموحي كبيراً جداً بشكل أو بآخر، في أن أكون كاتبة روائية؛ كان لدي الكثير من الطموح ولكنه كان مترافقاً مع القليل من الأمل.»

الآن، هي تجول في منطقة غير مألوفة بالنسبة إليها، لكن ذلك الطموح الشديد لم يفارقها قط: «لا أؤمن برفرفة الجناحين على تخوم الأشياء. لا أظن أنني كنت يوماً من هواة جمع الفضائح بطبعي، وهو ما قد يبدو واحداً من متطلبات العمل بالنسبة إلى الكاتب. ما أردته ببساطة هو أن أشعر بالدهشة، أردت أن أفاجئ نفسي، ليس من خلال مراقبة ما يجري وأنا أقف على خطوط التماس؛ بل من خلال ما أقوم به بالفعل.»

البداية انطلقت من على أحد شواطئ ولاية مين: «انطلاقاً من السماء الزرقاء الصافية» كما كانت تحب أن تقول، عندما هبطت من تلك السماء حرفياً إلى حضنها تلك الفرصة. فمن خلال صديق لها وهو ويل تشابمان الذي أصبح الآن كاتباً روائياً معروفاً (وكان يعمل في المجال المصرفي حينها)، تعرّفت إلى وين جونز الضخم الجثة – الذي اشتهر بتسببه في إفلاس شركة سيلفر ستار سنة 1999، وبتحقيق أرباح للشركة التي يعمل لصالحها تقدر بمئات الملايين من الدولارات خلال فترة وجيزة جداً. قام جونز هذا، بضمّ بالمر إلى طاقم العمل في الشركة على سبيل النزوة كما تقول بالمر نفسها: «كان معجباً بأعمالي الروائية، وكنت بدوري معجبة بما يقوم به. وتطورت الأمور منذ ذلك الحين إلى أن وصلنا إلى هنا.» (لم يكن بالإمكان الاتصال بجونز نفسه للتعليق على ما قالته بالمر.)

أين تكمن أكثر مظاهر التغيير في حياتها بعد هذه المرحلة؟ «العمل المُضني الذي يمتد إلى ست عشرة ساعة يومياً. التوتر والضغط الناجمْين عن الإحساس بأنكِ مستهلكةٌ في هذا الجو التنافسي الذي تفرضه طبيعة العمل. وطبعاً، هناك النكات السمجة والسخيفة التي يتم تداولها في المكتب، إضافة إلى الرهانات الجانبية التي تتم هنا بين الحين والآخر.»

«رهانات جانبية؟»

قالت بالمر وهي تبتسم باستهزاء: «الجميع هنا يراهن على كل شيء. إن المشهد أشبه ما يكون بتورطك مع مجموعة من الموهوبين في مجال الحسابات والأرقام والمدمنين على المقامرة الذين قد يراهنون على أي شيء ويقامرون

بأي شيء. أي شراب مذاقه أفضل، البيريير أم البيلليغرينو؟ كان هذا أحد الرهانات التي تمّتْ في المكتب مؤخراً. من بإمكانه التهام أكبر عدد من شطائر الهامبرغر – أنا ربحت ذلك الرهان – لا أقصد الجانب المالي من الرهان، بل الجانب المتعلق بالتهام الشطائر. كان الجميع يراهنون عليّ أو يراهنون ضدي، لكنني فزت بالمباراة. ذلك الفوز وضعني على الخريطة كما يقال، بمنطق الاستهلاك المتزايد لشطائر الهامبرغر، وأصبح يحسب لي ألف حساب بعدها». أسرّت لي بالمر بعد ذلك أن كل تلك السخافات تتعلق ببناء وتوطيد الروح المعنوية لدى العاملين في الشركة. وقد شرحت هذه النقطة بالقول: «ذلك النوع من اللهو الراقي يمثل تبايناً ضرورياً من أجل التخفيف من الضغط الذي نعانيه في العمل؛ وهو أمر داخلي محض؛ ولكنني لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث لو لم يكن لدينا ذلك المتنفس لتخفيض النسبة العالية من الاحتقان والضغط اللذين نعاني منهما في مجال عملنا.»

مع ذلك، كان من الصعب تصور مؤلفة رواية «السليل» وهي تلتهم شطائر الهامبرغر بهذه الطريقة ولهذا الهدف. أردت أن أعرف فيما إذا كانت تشعر بالحنين إلى عالم الكتابة، وإلى الطريقة التي تعمل فيها على أحد الفصول الرائعة في أيٍّ من رواياتها. قالت: «أحد أساتذتنا عندما كنا طلاباً في الدراسات العليا، وكان موضع احترام منقطع النظير بالنسبة إلينا، كان يوجه كلامه إلى طلبة الصف قائلاً – وكان يردد ذلك كثيراً – إنه لو كان بمقدورنا أن نتخيل أنفسنا نقوم بأي عمل آخر، أي شيء عدا الكتابة، فإن علينا ألا نتردد في القيام به.» حدّقتْ في عينيّ مباشرة وتابعت قائلة: «إذاً، فالجواب

السريع على سؤالك هو 'كلا'. فأنا لا أشعر مطلقاً بالحنين إلى الكتابة، لأنني وجدت شيئاً آخر أحب أن أقوم به، ربما أكثر من الكتابة.»

لم يكن بإمكاني أيضاً مقاومة إغراء طرح السؤال التالي عليها: «ما الذي يمثله هذا التغير في نمط حياتك المهنية في طبيعة ثقافتنا؟»

أدارت عينيها في محجريْهما وقالت لي موبّخة: «لا أعرف. أقترح عليك أن توجهي هذا السؤال إلى متخصص في علم الإنسان، أو ربما، إلى أحد الكتّاب الروائيين.»

الفصل التاسع عشر

اتصال من كافيللي، أتى بعد يوم على نشر آخر مقالة عني، وهي المقالة التي احتلت الصدارة في أكشاك بيع الصحف. جاء هذا الاتصال على شكل طقس متقلب لكنه متوقع. أعلن المتصل عن هويته بالقول إن ذلك الاتصال آتٍ من شركة بيكاديللي للنشر. لو ورد هذا الاتصال في الماضي لكان جعل قلبي يثب من بين أضلُعي؛ فمثل هذا الاتصال قد يُميل كفة الميزان وإن بدرجة قليلة لصالح المرء.

قال كافيللي بصوته المتهدج نتيجة تقلص عضلي يعاني منه في وجهه ويؤثر على فكّه، بلهجة سكان وادي لوكست متلفظاً باسمي بطريقة توحي وكأن آخر مرة تحدثنا فيها إلى بعضنا بعضاً كانت منذ عدة دقائق وليست منذ عدة سنين: «إنديا، يا فتاتي، إنني عاجز عن التعبير عن إعجابي بك الذي يفوق الوصف. إنني أتحرق لهفةً لسماع المزيد منك عن تجربتك تلك، في وول ستريت. إنها تجربة رائعة! أحسنتِ!» ما الذي يمكن أن يقال عن مخلوقات مثل كافيللي الذي ينطبق عليه ما قيل مرة عن ذلك الرئيس الوسيم الذي وفد إلى البيت الأبيض في واشنطن من ولاية أركنسو من أنه في حين تكون إحدى يديه تحيط بخصركِ وهو يعانقكِ، تكون يده الأخرى مشغولة في فك أزرار سروالكِ وسحبه إلى الأسفل؟ قلت: «ليوناردو، يا لها من مفاجأة.»

قال كافيللي: «أرجو ألّا تكوني غاضبة مني يا فتاتي العزيزة.» كان بإمكاني تخيُّله وهو يبتسم، مُطلِقاً سهمه التحذيري من قوسي أنا، في حال كنت غاضبة منه – بالطبع لم أكن كذلك – لأنه انقطع عن الاتصال بي

منذ مدة طويلة. كنت أعلم علم اليقين تماماً كما كان هو يعلم، كيف تجري الأمور. ففي نهاية المطاف، كنت أنا من تركته وليس العكس. لكنه كان دائماً يحفظ خط الرجعة، وكانت له الكلمة الأخيرة دائماً حتى عندما يكون هو مخطئاً. لا بد من الاعتراف بشيء عندما يتعلق الأمر بمراقبة هذا الرجل، كنمط بشري، وتعقيباً على مشاهدته وهو يتصرّف. قال: «هذه المهنة هي في طريقها إلى الجحيم، وكنتِ أنتِ تتمتعين بما يكفي من الرؤية والتبصر كي تتركي هذه المهنة عندما سنحت لك الفرصة. أحسنتِ صنعاً.»

«إنها دائماً تسير في الطريق باتجاه الجحيم.»

قال: «أنت محقة في هذه النقطة». كان بإمكاني سماع صوت القعقعة الصادر عن كرسيه الجلدي الدوّار الذي يجلس عليه بعد أن أسند ظهره إلى مسند الكرسي، إنه يستطيع ركوب الموجات المتلاحقة القادمة من المستقبل التي تحمل في طياتها كل ما هو جديد تحت الشمس. الأمر نفسه لا ينطبق على المؤلفة التي لا يكون مستقبل كتابها بعد طباعته ونشره وصلاحيته أكثر من تاريخ صلاحية الحليب المنزوع الدسم، بالرغم من أنها تكون قد صبّت فيه نسيج روحها. كان مكتب كافيللي نموذجاً لحركة المستقبل الاحتفالية — كانت أكوام من المخطوطات تتكدس فوق طاولة مكتبه؛ وكانت المروحة السقفية بشفراتها المغطاة بالغبار تدور ببطء فوق رأسه. كان ضوء الصباح ينسلُّ عبر اثنتين من النوافذ اللتين تطلان على برج مائي مبني من الخشب. كرر كافيللي عبارته: «أنت محقة في هذه النقطة»، كما لو كانت هذه هي المرة الأولى التي خطرت له تلك الفكرة. مضى قائلاً: «متى سوف أستمع إلى شرح مفصل منك يا عزيزتي حول مغامرتك هذه؟»

في عالم يعج بمثل هذه المشاعر الجشعة، استطاع كافيللي بالمقارنة، مقاربة شكل من أشكال الكرامة واحترام الذات. فقد وقف إلى جانبي عندما كان هو ناشر رواياتي بغض النظر عن النتائج. بعد أن تركته وتعاقدت مع ناشرين آخرين، لم ينقطع عن الاتصال بي وكان يُبقي على يده دائماً في يدي، كما يقال. كان يريد أن يعرف ما هي خطوتي التالية إلى أن حلّت المواسم وانقضت، وباعد الزمن المسافة بيننا أكثر فأكثر. كنت دائماً أميل إلى التفكير بالتعاون معه مهنياً من جديد، وكان مستعداً دوماً للنظر إيجابياً فيما أقدمه له. كان جاهزاً لشراء روايتي في حال قررت المضيّ قُدُماً في مسألة التعاون معه. لكن المسألة بالنسبة إلي كانت تتعلق بكبريائي؛ ربما كنت غبية حينها، لأنه بالعودة إلى الماضي، فقد كان من السهل عليّ آنذاك تصديق أي شيء. لو بقيت ملتزمة معه لاتّخذتْ مهنتي ككاتبة روائية مساراً أكثر أماناً ووجهاً أكثر وضوحاً وتفضيلاً. أما الآن، ومن خلال أسلوبه المبالغ فيه، وطريقته في حذف حرف الراء من الكلمات التي ينطق بها، فإن كافيللي أراد لقاء خاصاً يجمعني به كي أشرح له ما الذي يجري في عالم الرهن العقاري، كما أرادني أن أفسر له ماذا يجري في عالم المال العُلْوي. لم يكن لدي الوقت الكافي لإتمام مثل تلك الزيارة حينها مباشرة، لكنني بالطبع استطعت أن أرتب موعداً كي أقوم بذلك في وقت لاحق؛ ذلك أن وقتي لم يكن يسمح بالاستجابة الفورية للقائه كما كنت آمل فيما لو أراد ذلك.

سألته: «ما الذي تقترحه؟» كان أزيز الأصوات من حولي يملأ صالة البيع. أما كافيللي بأسلوبه البطيء والهادئ، فلم تكن لديه أية فكرة عما يريده مني بالضبط. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً. كانت

الأسواق تمر في مرحلة يشوبها الكثير من الاضطراب والهياج. كانت تصدر عن بعض المصارف مظاهر الفوضى؛ وكانت تمويلات بعض صناديق الوقاية من الخسارة المالية تتقلص باطّراد، أما بعضها الآخر فكان قد بدأ يواجه بعض التصدع، وكانت مليارات الدولارات تواجه خطر الانخفاض الملحوظ في قيمتها. اضطر اثنان من صناديق الوقاية من الخسارة المالية وهما صندوق بول وصندوق سمارت آند سميث التابع للشركة التي كان يعمل لديها ويل تشابمان إلى الإغلاق. لم يكن كافيللي مخطئاً عندما اتصل بي؛ فقد كان وقتاً مثيراً للفضول.

كيف بدأت هذه الفوضى؟ وإلى أين كانت تتجه؟ كنت أنا مَنْ بحوزتها الكرة البللورية في هذا اليوم الجميل في منتصف سنة 2007 – أو هذا ما كان كافيللي يعتقده. ربما كان بإمكاني التنبؤ بأسماء المؤسسات أو الشركات التي كانت على وشك الانهيار؛ لكنني كنت في واقع الأمر كمن يحاول التزلج هرباً من انهيار ثلجي يكاد يبتلعه. لم يكن لدي الكثير من الوقت للتأمل فيما قد يقع مستقبلاً على المدى الطويل. المدى القصير هو الزمن الوحيد المتوفر أمام التاجر. الآن جاء دور ركوب المزلاج السريع. أمامنا أسبوع من السقوط الحر؛ أما الأسبوع القادم فستعودون إلى حيث بدأتم، كما لو أن الأسبوع الذي سبقه لم يأتِ أبداً. أحدهم ترك مظلة هبوط في مطبخ المكتب على سبيل الدعابة. كان الموظفون الذين يعملون في قسم القروض التي يتعذر سدادها يكتبون قصائد على نمط القصيدة التالية، وكانت تُغنّى على لحن أغنية «الفطيرة الأمريكية»:

منذ زمن طويل، طويل

ما زلت أستطيع أن أتذكّر

كيف كانت تلك الغلّة الوفيرة ترسم على وجهي ابتسامة.

وكنت أعلم أنني حصلت على فرصتي،

كان بإمكاني تمويل ديوني الناجمة عن التزامات الرهان الإضافية

وربما دفع فواتير مترتبة عليّ لفترة قادمة.

لكن شهر شباط جعلني أرتعش

مع كل تصريح صحفي كان يصدر،

وبعد قراءة الأخبار السيئة في بريدي الإلكتروني –

هل سأنهار بالتزامن مع عقد تلك الصفقة الأخيرة؟

لم أعد أذكر إذا كنت قد بكيت

عندما شاهدت عرض جمعية التمويل التعاونية

لكن شيئاً لامس شغاف قلبي

عندما أُغلِقَ قسم القروض المتعذر سدادها.

إذاً، وداعاً، وداعاً يا موارد أموال الجباية

فقد أرسلت كفالاتي إلى أربعة من التجار

لكنهم سألوني عن سبب إرسالي إياها.

كان الفتية الكبار منتشين بعد جولة في عالم الأفيون

وكانوا يغنون قائلين: «هذا هو اليوم الذي ستلغى فيه القروض

هذا هو اليوم الذي ستلغى فيه القروض.»

هل وقّعتَ على مقايضات على قروض يتعذر سدادها؟

هل نثرتَ الدولارات على أجهزة الآي فون؟

هل أخبركَ كريم، ذلك الغبي بذلك؟

والآن، هل تصدقُ مقولة مراقبة الأسعار؟

وهل ستبيع روحكَ مقابل إعفاءات ضريبية فيدرالية؟

وهل الاستجابة للائحة طلباتك جدُّ بطيئة؟

حسنٌ؛ عليك زيادة تلك الغلة يا صديقي.

فزخم مبيعاتك قد خرجت عن مسارها المرسوم

وسيذكر اسم بيرنانك في نشرة الأخبار

لكن غرينسبان أضاء الشعلة.

كنتُ هندياً أحمر في منتصف العمر، غنياً على الورق،

كانت في ذهني خطة رائعة والكثير من العزم والإقدام

ولكنني تبينتُ أن حظي عاثر

يوم أغلق قسم القروض التي يتعذر سدادها.

إذاً، وداعاً، وداعاً يا موارد أموال الجباية

فقد أرسلت كفالاتي إلى أربعة من التجار

لكنهم سألوني عن سبب إرسالي إياها.

كان الفتية الكبار منتشين بعد جولة في عالم الأفيون

وكانوا يغنون قائلين: «هذا هو اليوم الذي ستلغى فيه القروض،

هذا هو اليوم الذي ستلغى فيه القروض.»

• • • • •

كنت أستيقظ كل ساعة تقريباً لأدقق في الحال التي آلت إليها السوق خلال الليل. كان كل يوم يمر أشبه ما يكون بالتوجه نحو الحرب، وكان لديّ إحساس أن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ. لكنه كان مجرد إحساس. فنحن التجار ليست لدينا الصورة الأكبر والشاملة لكل ما هو تحتنا وما هو فوقنا. الأمور لا تستقيم بهذه الطريقة. فكل الأغاني والنكات المرافقة كانت مجرد دعابة، كما لو أن مجرد الاعتراف بوجود مثل هذا الشؤم من خلال طَرفةٍ من عين يمكننا من إبقائه بعيداً. ببساطة، كي تواجه مثل هذا الشؤم، عليك أن تتحرك بسرعة ورشاقة وحسم. كنت أستمع إلى قائمة بالقصائد والأغاني

التي كان يعدّها ثيودور والبنتان لي من أجل أن يمدوني بشحنة نفسية تدفعني إلى الأمام: أغانٍ مثل 'تعالي كما أنتِ' و 'لا تنسي أن ترقصي'. (لم يكن لدي وقت أبداً لرؤية عائلتي، أو الشعور بالاشتياق إليها.) بعض الأيام تنتهي وسيقف الجميع هناك مثل الأفاعي التي تهز رؤوسها. فالإحساس بالرعب الذي تنفثه الجحيم سوف تتلوه عودة احتفالية مظفّرة.

على الجانب الآخر من خط الهاتف، ومن داخل شرنقة الناشر، ، لم يكن الهياج والاضطراب، أو الضغط الهائل الذي كان يرمي بثقله على ذلك المستنقع المتوضع في ركن البورصة، والمتجمّع من عرق العاملين هناك، يعني شيئاً بالنسبة إلى كافيللي الجَسور. كان يريد أن يعرف كما الجميع، إذا كنت أعرف مسبقاً بقدوم مثل هذه العاصفة. وبالطبع كنت أفكر في وين، ورحيله الوشيك كي يلتحق بعمل آخر؛ وهو ما جعلنا نشعر جميعاً بأننا تعرضنا للخيانة من قبله – فهو كان قد تنبأ بقدوم مثل هذه العاصفة. ولكن ماذا عن طبيعة تلك العاصفة؟ هل كان وين يحتفظ برباطة جأشه في ذلك الركن الصغير الذي يقبع فيه؟ كان كافيللي شأنه في ذلك شأن أي شخص آخر، يريد أن يعرف ما الذي سنفعله حيالها، وكيف سنتصرف إزاءها. كانت تلك العاصفة الوشيكة تحتل الحيّز الأهم في نشرات الأخبار منذ شهر شباط، فبراير: «المستثمرون الأمريكان قلقون حول مشكلة القروض التي يتعذر سدادها»؛ «في الوقت الذي تتفاقم أزمة الرهن العقاري، تزداد نسبة المتضررين»؛ «الأزمة تلوح في أفق عالم الرهن العقاري»؛ «تحليلات متفائلة»؛ «زيادة في كلفة تحقيق الحلم الأمريكي»؛ «ازدهار في زمن الانفجار»؛ « أمّةُ مَدينة: كبار المستثمرين يقفزون باتجاه قروض السكن المضطربة»؛ «متى

يتحول الانهيار في مجال الإسكان إلى إفلاس؟» «هل هذا انهيار آخر يشبه الكساد سنة 1929؟»

كانت هناك العديد من المؤشرات على ذلك: أصدقاء لا تعوزهم النباهة، وأصدقاء كان يستحسن أن تكون رؤيتهم للمستقبل أفضل، لأنهم لم يكونوا على إلمام بالتفصيلات الدقيقة للبنود الملزمة في عقود رهاناتهم العقارية. تجمّعَ بعض الباعة والتجار حول شركة بي أند بي مثل الضباع التي تتحلّق حول حيوان جريح. (كان وين قد تركنا لوحدنا في الساحة.) كانت الرهانات تركز حول مسألة أن العديد منا سوف يغرقون — أي أن رافعتنا كانت عالية جداً، وأن امتدادنا كان شاسعاً جداً، وأن عتبة المخاطر عند رادالبينو سوف تؤدي بنا إلى مزالق الإفلاس. (تذكرت تحذير وين لي عندما قمت بعقد تلك الصفقة الكبيرة الشهيرة، ولم يُعِرْ أحد هذا التحذير أيَّ اهتمام حينها.) هاكم المقارنة التالية: أنت صاحب عائلة مكونة من أب وأم. تملك منزلاً، وتعتقد بأن قيمته آخذة في الارتفاع، ولذلك فأنت تقوم بترميم المطبخ وتجديده، وترسل أبناءك إلى مدارس خاصة، وتحصل على إجازتين سنويتين — عطلة الربيع وعطلة عيد الميلاد. يفترض أنك سوف تحصل على علاوة، أو مكافأة. (المصرفيون مثل النادلين؛ فأكبر دفعة يتلقاها هؤلاء هي البقشيش.) هناك وجهة واحدة في مثل هذا العمر (منتصف العمر) وهذه الوجهة هي باتجاه الأعلى؛ وبالتالي فأنت لا ترى مشكلة في الديون المترتبة عليك؛ وعليه، فأنت سوف تدفعها مترافقة مع مكافأة، وتبدأ بدفعها بتواتر أكبر بعد أن تستثني أقساط المنزل.

باختصار، كنا جميعاً ومن دون استثناء، حمقى. ولكن من الصعوبة بمكان توقع موعد وقوع الانهيار. ثم وحين يحصل ذلك، كل ما تقوم به

هو محاولة البقاء على قيد الحياة في خضم هذا الانهيار الثلجي. يجب أن تعرف متى يجب عليك أن تدير ظهرك للسوق. يرى وين أن النساء يمكن أن يكنَّ تاجرات ناجحات لأنهن أكثر حساسية تجاه ضعفهنّ واحتمال فشلهنّ. كما أن من الممكن قيامهنّ بإعادة تقييم موضوعي للوضع، والخروج من عالم التجارة بشكل كلي بدلاً من مواجهة الانهيار الثلجي. ولكن لم تكن هناك سوى حفنة قليلة من النساء اللواتي يعملن في مجال التجارة في وول ستريت. الآن، من السهل رؤية هذا الانهيار الثلجي وهو ينزلق داخل المَسقَط، وكافيللي كان يرغب في التحدث في الموضوع.

سألته: «ما الذي تقترحه؟»

عرفت ما الذي كان يريده. هناك شيء واحد يرغب الناشر في الحصول عليه.

«هل أستطيع أن أستدرجكِ للقدوم إلى مكتبي؟»

«متى؟» تصورت أن مداعبة هذه الفكرة الخيالي يمكن أن تكون شكلاً من أشكال الفضول الذي يدفعني باتجاه قضاء بعض الوقت معه. كنت ما أزال أتمتع ببقايا حس الكاتب في داخلي؛ وهو ما حضّني على الرغبة في سلوك هذا الممر. يمكنكم تسميته سياجاً إن شئتم. ربما كنت أبحث عن طريق بديلة يمكن لي فيها أن أنهي قصتي هذه.

«هذا المساء؟ أي بعد أن تنتهي من العمل. أتصور أنك مشغولة جداً الآن.»

«ما رأيك في أن نلتقي بعد ظهر يوم الخميس؟ لأنني سوف آخذ إجازة في ذلك اليوم.»

«هذا رائع يا صغيرتي. اعتبريه موعداً بيننا.»

جميع مكاتب الشركة موجودة في نفس المبنى منذ أربعينات القرن العشرين. المصعد يوصلك حتى الطابق الرابع الذي تشغله شركة بيكاديللي – متاهة من المخطوطات مكدسة على شكل أكوام صغيرة، إضافة إلى العديد من الكتب والعلب غير المفتوحة، وأكوام من الورق – وهو أشبه بشَرَك النار، ناهيك عن الانطباع الذي تأخذه عن المكان الذي يوحي بأنه كان في يوم من الأيام مليئاً بدخان التبغ الأزرق اللون. كان هناك أيضاً عدد من المساعدين الذين يرتدون بذلات سوداء يتحركون بسرعة في أرجاء المكان الذي لم يكن فيه ما يلفت النظر أو يوحي بالفخامة. كان بالإمكان الإحساس بالفخامة في مطعم دينو؛ وهو المطعم المفضل لكافيللي، والذي يقع على زاوية الشارع حيث حجز لنفسه طاولة خاصة به وبضيوفه؛ هناك كان يتناول أطباقه المفضلة من المحار وبلح البحر والبيستيكا ألا فيورينتينا المضمّخة برذاذ عصير الليمون إضافة إلى كأسين من شراب البارولو اللذين تحسب كميتهما بدقة. هناك يجتمع عادة مع الكتّاب والمحررين ببذلاتهم الأنيقة. أما هنا في هذه المكاتب، فإن المحررين الذين يعملون لديه يتكوّرون أمام مكاتبهم المتوضعة في مقصورات صغيرة، وينحنون فوق الكتب وأجهزة الهاتف. كانت رائحة القهوة القوية تعبق في المكان. ولقد تم تخصيص جدار بأكمله من أجل عرض الجوائز التي حصلت عليها دار النشر – مثل جائزة واشنطن والجائزة الدولية وجائزة إيسيمان وجائزة نوبل. كانت هناك بالطبع

كتبٌ نشرت مؤخراً معروضةً في الردهات، بعضها كان وراء الزجاج، وبعضها الآخر كان مكدساً في منطقة عُلْوية في ردهة الاستقبال.

ظهرت أمامي فجأة الآنسة بارثيلم، وهي امرأة عجوز غطى الشيب رأسها؛ كانت متوازنة وأنيقة ببذلتها الصيفية بلون الخزامى. وبالرغم من أنها كانت أكبر سناً من الآنسة لين التي تعمل لدى رادالبينو، فقد كانت تبدو من نفس الصنف من النساء اللواتي ينتمين إلى زمن لم يعد له وجود عندما كانت النساء فيه يشعرن بأنهن مُنعَماتٍ لأن وظيفتهن كانت تملي عليهن تكريس حياتهن لخدمة الرجال العِظام.

قالت وهي تقبّلني بلطف على خدّي: «لم أرَكِ منذ مدة طويلة يا إنديا.» قادتني عبر الدهاليز؛ وتبعتُها كأية تلميذة مطيعة. فجأة توقفت الآنسة بارثيلم واستدارت نحوي مبدية إعجابها بي، كما لو أنه خطر في بالها فجأة ونحن نشق طريقنا وسط أكداس الورق والكتب، الصورةَ التي كنتُ عليها، والتي اختلطت بما أصبحتُ عليه الآن، وأنا أرتدي سروال الجينز الباهظ الثمن والبلوزة المصنوعة من الكتان، والخفّ الباهظ الثمن، والمجوهرات الجميلة التي أتحلى بها، وشعري المقصوص والمصبوغ والمصفف بأناقة.

قالت: «لا يبدو عليكِ أنك تاجرة سندات وأسهم، كائناً ما كانت طبيعة هذا العمل». تابعت سيرها في الرواق وصولاً إلى مكتب كافيللي. من جديد، تظهر أمامك أكوام من الكتب والورق مكدسة كل أرجاء ردهة الانتظار خارج مكتبه بحيث لا تترك لك مجالاً كي تجلس إلا بالكاد. كان الباب مغلقاً، ولكن كان بإمكاني سماع صوته وهو يرتفع وينخفض، ثم يرتفع

من جديد مخترقاً الجدار الرقيق الذي يفصله عن ردهة الانتظار. رمقتني الآنسة بارثيلم – اسمها له نغمة أدبية لطيفة – بعينيها العسليتين وسألتني: «هل تودين أن تشربي شيئاً – بعض النبيذ أو الماء أو الشاي أو القهوة؟ أظن أن الآن هو وقت تناول الشاي.» أشارت بيدها باتجاه أريكة جلدية داعية إياي كي أستريح عليها. أطعت إشارتها وجلست عليها بعد أن أزحت بتؤدة جانباً بعض الكتب المتوضعة فوقها. اختفت من أمام ناظريّ بعد أن ابتسمت لي ابتسامة دافئة.

حالما جلست، فتح باب مكتب كافيللي، وكان هو واقفاً وراء عتبة الباب. بدا أكبر سناً وظهره منحنياً بعض الشيء، لكنه لم يفقد وقاره. كان يرتدي بذلة كتانية، أما شعره الأسود الموشّى بالأبيض فكان مردوداً إلى الخلف؛ وتحت حاجبيه الكثيفين علت وجهَه ابتسامةٌ واثقة. ترنّم باسمي بطريقة أعادتني سنين طويلة إلى الوراء عبر الزمن والقارات قائلاً: «إنديا، كم أنا سعيد بزيارتك».

قبّلني على وجنتيّ بينما كنا نلج إلى مكتبه الذي يعج بالكتب والأوراق. على طاولة مكتبه، كان هناك جهاز هاتف أسود اللون يعود إلى فترة الأربعينات من القرن العشرين، وذكّرني هذا الجهاز بجهاز مماثل رأيته على طاولة مكتب رادالبينو. مع ذلك، كنت متأكدة أن الهاتف الموجود على طاولة رادالبينو كان تقليداً للجهاز الأصلي بينما جهاز الهاتف في مكتب كافيللي هو صناعة أصلية، وكان دائماً يرنّ على طاولة مكتبه منذ أن افتتحت شركة بيكاديللي أبوابها.

جلس في كرسيه الجلدي المقابل لطاولة مكتبه بعد أن أزاح بعض الكتب جانباً، وقام بجمع بعض الأوراق. كان خزان الماء الهائل الحجم قريباً جداً من نافذة مكتبه بدرجة تثير الضحك؛ وكان منظره يشبه بياناً كتبه أحد الفنانين حول أهمية ماء الشرب في عالمنا الحديث. كان الخزان يحجب جزئياً نوافذ مبنى آخر من المكاتب التي لم أستطع أن أرى فيها سوى عدد محدود من الأشخاص يتسكعون بين مكاتبهم – وكان أغلبهم من الخياطين وصانعي الستائر. أثواب كبيرة من القماش كان يتم تعليقها على الجدران وقياس أبعادها والتدقيق فيها، وكانت تلك الأثواب تتدلى من أعلى الأسقف. لكن خزان الماء كان يعيق تنفيذ مهمتهم بشكل كبير. بحسب معرفتي، كان يمكن أن يصنعوا أوراقاً صغيرة ملونة لنثرها على رؤوس المحتفلين بالنهاية الوشيكة للعالم. أما في الصالة الموجودة في الطابق الأعلى فوقنا، فقد كان هناك رجل يقترب من النافذة ويحدق عبرها إلى الخارج. كان الضوء منحشراً بين المبنيين ومنبسطاً بشكل خفيف بينهما.

أتذكّرُ المرة الأولى التي قدمت فيها إلى شركة بيكاديللي. أتذكر أنه غمرني حينها إحساس بالانتماء إلى تلك الخلية الرسمية الجاثمة في تلك المنطقة والمضاءة إضاءة خفيفة، وأنا أصنع لنفسي اسماً مشهوراً في عالم نجوم الأدب الأمريكيين؛ تلك الخلية التي رفعت اسمي عالياً وأنقذتني وجعلتني أشعر أنني من تلك القلة المختارة.

حدّق كافيللي فيَّ لبرهة ثم قال وهو يبتسم: «كيف هي حال ثيودور؟»

قلت متباهية وأنا أُريه قرطيْ أذن كان قد صنعهما خصيصاً من أجلي: «رائع».

قال: «إنه جميل. تقول باتل إن تصميمات لارسون قد تبوأت مكانها اللائق في السوق.» باتل هذه، هي أرونا باتل، إنها قصة نجاحه وزوجته الهندية الأصل. كان دائماً يناديها باسم العائلة وليس باسمها الأول. أخذت علماً بأننا كنا مادة دسمة للحديث بينه وبين زوجته؛ وقد أسعدتني هذه الحقيقة.

قلت: «إنه مشغول جداً، ولكن أرجو أن تبلغها بأنني أضمن لها معاملة خاصة.»

أجاب ببعض الهمهمة.

قلت: «إنه يجري أبحاثاً على المياه التجارية أيضاً.»

«ألا توافقينني الرأي أن النجاح طعمه رائع؟ ففي بداياتهم، لا يكترث الفنانون للمال كثيراً. لقد رأيت هذه السيناريوهات وهي تُمَثَّلُ في العديد من المناسبات.»

كان يمكن أن أمضي طيلة فترة بعد الظهر وأنا أستمع إلى كافيللي وهو يسرد قصصاً عن جميع الكتّاب الذين ينطبق عليهم هذا الوصف، ولو من أجل تذوق متعة صحبتهم، لكنني سألته بدلاً من ذلك: «كيف هي حال أولادك؟»

«رائعة. إنهم كثيرو الصخب؛ فهرمون الذكورة بدأ يطغى على سلوكياتهم، كما تعلمين.»

لا أستطيع القول إنني لم أشعر بشيء وأنا أجلس هناك. فقد كانت كلمات أفضل الكُتّاب في العالم ترتاح فوق سطح مكتبه، وعلى الرفوف التي تمتد على طول جدران مكتبه. لكن فطنة كافيللي المهنية هي التي أثارت إعجابي أكثر من أية ميزة أخرى في شخصه: أعني كيف حوّل بصمته إلى علامة تجارية كان الكتّاب يلهثون وراءها لدرجة أن أحد الحائزين على جائزة نوبل الذي طلب مبلغاً كبيراً من المال كدفعة أولى على الحساب قبل نشر روايته سمع الجواب البسيط التالي من كافيللي: «اذهب إلى الجحيم،» لأنه كان يعلم علم اليقين أن كاتبه ذاك، سوف ينفق على ملذاته من مردود روايته حتى آخر يوم في حياته. قال: «وكيف هي حال بنتيْكِ؟» تأثرت بحقيقة أن تذكر جنسهن.

«إنهما بخير؛ لكنني لا أراهما كثيراً هذه الأيام.»

سألني فجأة بحدّة: «هل الأمر يستحق كل هذا العناء؟» جعلني سؤاله أجفل.

«هل الأمر يستحق كل هذا العناء بالنسبة إليك؟»

أجاب: «لقد أصبتِ.»

اعترفت له قائلة: «لا وقت لدي لأسأل نفسي هذا السؤال. أنا أحاول الصمود فقط ومواكبة طبيعة العمل؛ أحاول ألاّ أقع من فوق مزلاجي، كما يقال.»

«المسألة تتلخص في أنك لا تعرفين شيئاً عن وول ستريت، وأن هذه

المغامرة كانت مجرد مغامرة بين اثنين من المصرفيين لديهما الكثير من الوقت والمال.»

«ما قلتَه يلخص المسألة برمتها.»

«هل كانت الكتابة على هذه الدرجة من السوء؟»

«لا تدفعني إلى البدء بالحديث حول هذا الموضوع.»

«وماذا عن أستاذكِ المشرف عليك في كل هذه الأمور، أعني جونز؛ هل ربح الرهان؟»

«هذا صحيح أيضاً. ولكن من وجهة نظري، فقد أصبح الرهان جزءاً من الماضي. إنه مجرد ماء تحت الجسر. أعني، أجل؛ أظن أنهما يستحضرانه من الذاكرة لو أرادا ذلك، أو إذا كان ذلك يخدم قضية ما. ثم، أنا مجرّد قصة تعطي بريقاً ولمعاناً لصورتيهما اللتين لهما أهمية كبرى في هذا العالم. المال على هذا الصعيد، يصبح بصفته علامة تميّز، فاقداً للقيمة. صحيح أنهما يملكان كماً هائلاً من المال؛ ولكن كون ما حدث يشبه قصة يمكن استثمارها، فإنني أظن أنه سيكون من الصعوبة بمكان أن يكون هذا الكم أعلى مما فعلاه بي.»

«لا أظن أن لك علاقة بكل هذا.»

لاحظت أن رأس كافيللي قد أصابه نوع من الارتعاش الناجم عن الشلل الارتجافي. رفع خدّه باتجاهي وابتسم لي ابتسامة فيها لمسة من الحزن. تحركت

في مقعدي؛ وفجأة، ومن دون مقدمات، شعرت برغبة قوية في تدخين سيجارة. سألته: «ليوناردو، لما جئت أنا إلى هذا المكان؟»

«دعيني أسألك سؤالاً واحداً: هل جونز رجل صالح؟»

«إنه رجل في غاية الذكاء. لقد استقال من شركة بي أند بي. إنه يعتقد أننا متجهون إلى الجحيم؛ أما بالنسبة إلى سؤالك فأجيبك: أجل، إنه رجل صالح.»

«هل أنتِ امرأة – صالحة؟»

«هل أنا صالحة؟ هل تمزح معي؟ أنا امرأة في منتهى الصلاح إذا أخذنا في الاعتبار مثل هذه الظروف. وين كان يفضّل الدفع نقداً عند استثمار الأموال». كان جهاز البلاكبيري يرجّ مثل جرذ أسود صغير داخل حقيبتي.

«هل المسألة على هذه الدرجة من السوء؟»

رن جرس هاتف كافيللي. رفع سماعة الهاتف وقدّم اسمه، ثم أردف ذلك بكلمة 'كلا'، ثم أعاد وضع سماعة الهاتف على الجهاز، ونظر إلي قائلاً:

«أنتِ تعرفين جيداً لمَ أنتِ هنا.»

«حقاً؟»

«بالطبع، أنتِ تعرفين.»

قلت: «الفقاعات انفجرت.»

«لقد سبق وانفجرت قبل ذلك. كيف يمكن أن يكون الأمر مختلفاً هذه المرة؟ ما هي القصة؟»

«هل تريد قصة متفائلة أم كارثية؟»

«أعتقد أن القصة الكارثية أفضل على مستوى المبيعات، أليس كذلك؟ عندما تقومين بكتابة قصة، أين تكمن المتعة في التفاؤل؟ هل الجميع يفلحون في تدبير أمورهم، ويستمتعون بوقتهم أيما استمتاع؟ من الطبيعي أن تكوني بحاجة إلى مثل تلك اللمسة في النهاية.»

بدا وكأنه جاهز لمنحي كل الوقت الذي أرغبه. شعرت بأن جهاز البلاكبيري يرج في حقيبتي من جديد. لو كنت برفقة شخص آخر، لرددت على تلك الرسائل؛ ولكن ربما تكون هذه هي المرة الأخيرة التي آتي فيها إلى هنا، لأتحدث إلى هذا الرجل.

«أنتِ تعرفين صديقنا المشترك ويل تشابمان؟»

سألته: «كيف هي حاله؟»

«إنه يكتب بهمّةٍ عالية، كما دائماً؛ لكنه يعاني من مشكلة صغيرة مع القرض العقاري. يبدو أنه غير قادر على الاستمرار في دفع أقساط المنزل في ولاية مين، ولذلك فهو بحاجة إلى عرضه للبيع.»

«لا بد أنك تمزح!» كان ذلك خبراً جديداً ومفاجئاً. فكرت في إيما؛ كما فكرت في مقدار محبتها لولاية مين، وتذكرت أنها أخبرتني كيف استشاط

ويل غضباً منها بعد أن علم أنها أنفقت مبالغ طائلة على تجديد المنزل. تذكرت القرض الغريب من نوعه الذي ابتدعه ويل. فقد حلّ أوان سداده. انتابني شعور بالخوف عليهما، وتزامن ذلك مع شعور بالارتياح لأن مثل هذا الموضوع لا يشكل أي مصدر قلق بالنسبة إليّ. لكنني سأعترف بأنه انتابني شعور فوري يبرر قناعتي بأنه من غير الواقعي أو المنطقي أن ترغب في الحصول على مثل هذه الامتيازات، وأن تكون كاتباً في الوقت نفسه.

قال كافيللي بتجهّم، ولكن بطريقة تعطي الانطباع بأن مثل هذه المعلومات قد تكون مثيرة لاهتمام الشخص الذي يتحدث إليه: «إنهم يمرون بظروف صعبة». كان يقرأ الانطباع الذي تركته هذه المعلومة على وجهي. وكان بإمكانه رؤية الكثير من الفضول مرتسماً عليه. كان لا يقل ثرثرة عن أي واحد منا. تابع قائلاً: «من الواضح أنه كان يعتمد على خيارات السندات والأسهم من الشركة التي كان يعمل فيها سابقاً، لكن قيمتها انهارت قبل أن تتحول إلى عهدة شركة أخرى. لم أكن أعرف أن ثلث المكافآت السنوية هي عبارة عن سندات لا يمكن لك المساس بها أو استخدامها. لماذا بحق السماء تقوم المصارف بإقراض أموال للناس الذين ليس لديهم سوى الوعد بالحصول على المال الذي لا يمكن لهم سداده؟ لم أستطع استيعاب أيٍّ مما قرأته.»

قلت كما قال وين في تلك الليلة في مكتبه، وفيما بعد، على مائدة العشاء الذي أقامه احتفالاً بنجاحي في عقد تلك الصفقة الكبرى: «ورود الخزامى»، كما لو كانت هذه العبارة وحدها يمكن أن توضح أين نقف اليوم. شعرت

بشكل غير متوقع، بالارتياح لأن وين استقال من الشركة بالرغم من أنني لم أعترف بذلك لأحد. لم أكن أتصور أن هناك وجود لعصر "ما بعد وين"؛ ولكن ها هو هذا العصر قد حلّ؛ وتزامن هذا الشعور بالارتياح مع رحيله عن الشركة. إحساسي بأنني قطعة كرتون مُعَدّةٌ للقطع والتفصيل لم يعد له وجود. تحدثت إلى وين من حين لآخر، ولكننا لم نكن نتحدث كثيراً نظراً لأنه ترك السوق. هذا الشخص الذي حلّق في سماء حياتي على متن طائرة مزدوجة الجناحين وقامر عليّ، يحاول الآن بكل ما أوتي من قوة أن يدفننا جميعاً. أردت أن أعرف أكثر عن ويل، وعن ولاية مين؛ وما هو مدى صعوبة الوضع الذي تمر هذه العائلة به؟ كنت قد سمعت إشاعات حول مصرف بول ومصرف سمارت وسميث. ولكن بعد أن تم إغلاق مصارف ضمان الخسائر، فقد أكد هذان المصرفان لمالكي الأسهم والسندات أنهما سيستعيدان عافيتهما. يمكن أن تنقلب الأمور رأساً على عقب حتى بالنسبة إلى أشخاص مثل ويل. لكن ذلك لم يكن سوى جزء من عملية ركوب العربات الأفعوانية في مدينة الملاهي.

قال كافيللي مبتسماً: «ورود الخزامى»؛ انحنى إلى الأمام ليشعرني بأنه فهم المقصود من تلفظي بهذه العبارة، وأنه يرغب في الاستزادة حول هذا الموضوع.

مكثت في مكتبه لفترة وجيزة بعد ذلك تحدثت إليه خلالها عن موضوعات مثل الضمانات التي تقدم مع القروض، والقروض البديلة ذات المخاطر العالية وكذلك عن القروض التي لا تتطلب إبراز وثائق من أجل الحصول عليها. كما تحدثت إليه حول وكالات تخمين العقارات، والسوق التي تقرر حجم

القيمة. بعد ذلك، قمت بطرح نقاش حول المقايضة بين السلفة وبين العجز عن سدادها فقط من أجل جعل المشهد يبدو أكثر جنوناً. وحتى يستعصي هذا المشهد على الفهم، قمت بالإشارة إلى فكرتيْ رفع القيود عن القروض وما يتفرع عنها. حاولت أن أضع كافيللي في قلب دوامة الكارثة لأن هذا ما كان يريد أن يسمعه على ما يبدو. في النهاية، لم تكن نهاية ورود الخزامى سعيدة بطبيعة الحال. فإذا كان آل تشابمان على وشك خسارة منزلهم في ولاية مين، فإن ذلك يعتبر علامة فأل سيء بالنسبة إلى السوق. وإذا كان ويل بصفته مصرفياً سابقاً، لم يقدّر تقديراً صحيحاً مدى قدرته على دفع أقساط القرض، أو بالغ في تقدير مبلغ دخله المستقبلي، فكيف نصف حال عامة الشعب الأمريكي الذي لا تعرف غالبيته الساحقة الكثير عن عالم المال؟

قال كافيللي وهو يربت بأصابعه على خده: «وماذا عن الشخصيات؟ هل لكِ أن تضعيني في صورتها؟»

فكَرتُ للحظة ثم سألته وأنا أبتسم: «من هؤلاء الذين سيسكنون داخل حرم الرواية؟» بدا الآن أنه استمرأ فكرة الانخراط في لعبة ما. فقد أرادني أن أجعل شخصيات تستوطن القصة. «حسنٌ، هناك وين الذي يهوي بطائرته الصفراء ذات الجناحين المزدوجين، ثم يهبط كي يحوّل كاتبة روائية وربة منزل إلى مليارديرٍ مصرفيٍّ، وهناك أيضاً زوجة، وزوجها المصرفي الذي يريد أن يصبح كاتباً روائياً يعمل من داخل منزله، كما أن هناك كبير المديرين التنفيذيين في شركة بي أند بي الذي يملك الكثير من الوقت، والذي يطالب العاملين لديه بأن ينزفوا دماء خضراء: أي أن يصبّوا الكثير من الدولارات في حساب الشركة، والذي يهز جرساً صغيراً مصنوعاً من الفضة الخالصة، في كل مرة يتلفظ بعبارة

عنصرية أو غير لائقة سياسياً أو مسيئة إلى الجنس الآخر، والذي يتحكم بكل مفاصل الشركة من داخل برج زجاجي».

قاطعني كافيللي قائلاً: «إنها مدعاة للإعجاب.»

تابعت: أضيف إلى ما ذكرت، جميع المباريات التي أقيمت، وفوزي في مباراة شطائر الهامبرغر ونجاحي في عقد صفقات سيارات التويوتا واللحم المقدد، بقيمة مليارات الدولارات. وبينما كنت أعرض باستفاضة لهذه التفصيلات المتعلقة بهذا العالم التافه واللا معقول والمليء بالبهرجة، كدت أشعر بالهمة والنشاط. ذكّرتني الطريقة التي سردت فيها هذه القصة باليوم الذي أخبرت فيه ثيودور للمرة الأولى عن تركي لمهنة الكتابة – في النهاية، كان اعترافي له بذلك مدعاة لارتياحي ومحفّزاً لهمّتي. خطر ببالي التمثال الذي صنعه ثيودور: فالعالم كله يقبع فوق حافة هشة على وشك أن تطيح – وربما لا – بعبارة التكساسي المعربد: «أنت حاذق جداً أيها الصبي العجوز.» كان على ثيودور أن يسلّم التمثال؛ فقد أطلقه إلى العالم، ولم يعد يملكه بعد ذلك. هذا ما كان مُقدّراً للأمور أن تجري. وسأعترف هنا بشيء؛ توقفت متأملةً وتساءلت في لحظة عابرة، كما يحدث عادة عندما تحتل كثير من الأفكار الحيز الأكبر من عقلك وتفكيرك في ومضة من الزمن: أردت أن أعود إلى ما كنت عليه؛ كان بإمكاني العودة، كنت أستطيع استعادة زمام المبادرة بشأن مستقبلي، كما كانت الحال عليه في البدايات عندما كان الزمن بامتداده الرحب ما يزال أمامي، حيث يكون فصل الصيف بأكمله طوع بناني، أتماهى فيه إلى آخر الشوط مع عالم من صنعي أنا، ويكون مُلكي وحدي تماماً كما كان التمثال يوماً مُلكاً لثيودور وحده. انتابني شعور بالندم ممزوج بالألم، وفي

نفس الوقت، الإحساس بإمكانية العودة إلى حياة الفن والإبداع حيث يتم تعويض كل ما ضحّيتُ به من خلال الرغبة في الخَلْق والتفكير والاستيعاب. تكونت لديّ في تلك اللحظة رغبة جامحة في العودة إلى الكتابة من جديد ولو عبر جملة واحدة، أو مقطع. كنت أشعر بالمحرك يحاول الدوران في داخلي من جديد مثل سيارة تُرِكتْ مركونة دون حراك طيلة فصل الشتاء الطويل.

كانت عينا كافيللي مثبتتيْن عليّ طيلة الوقت. كان يبدو حاذقاً ومتذوقاً للأدب وعلى درجة عالية من اليقظة. كان خدّهُ يرتاح على راحة يده وهو ينظر عبر الباب الذي فتحته له أنا وكلماتي. لم أشعر بمثل هذا الشغف منذ سنين طويلة. كنت أشعر بدفء يسري في جسمي، وبتورد في وجنتيّ. أردت أن ألجَ إلى هذا الجو، وأستذكره من جديد. كنت تواقة إليه. كان بإمكاني التحدث عنه مع كافيللي لوقت طويل.

قرعت الآنسة بارثيلم الباب وفتحته بحذر، توجهت إلى كافيللي قائلة: «الشخص الذي أعطيتَه موعداً لمقابلتك ينتظر في الخارج.»

أنزلتُ إحدى رجليّ عن الأخرى استعداداً للاستئذان بالمغادرة.

قال: «امنحيني دقيقة واحدة.» غادرت الغرفة مغلقةً الباب وراءها بهدوء.

«وكانوا يظنون أن بإمكانهم أن يسرقوك من عالمكِ الطبيعي، ويزرعوك في ذلك العالم؟»

قلت، بعد أن أعدت وضعي رجلي فوق الرجل الأخرى، واعتدلت في

جلستي: «في الحقيقة، هذا ما فعلوه. في البداية، انتابني شعور بالقذارة؛ كان ذلك الشعور يشبه علاقة قذرة وغير شرعية ومثيرة في آن. لكن تلك كانت طبيعتي كما تبين لي لاحقاً، حيث جرفتني أهوائي. اكتشفت أن ذلك العالم كان أكثر تعقيداً مما كنت أظن؛ عالم يحتله أشخاص حاذقون ومتعلمون، بعضهم ما يزالون أطفالاً، كما أن من بينهم من يجد وقتاً للقراءة أيضاً.» ابتسم، وهو يشاطرني الدعابة الضمنية التي يتمتع بها عادة أولئك الذين يعيشون خارج عالم المال – تتمثل هذه الدعابة في قناعتنا أن رجال المال هم من الأميين. «وهكذا، فقد استسلمت لهذا الإغراء.» كان بإمكاني تخيل القصة. كنت أكتبها في عقلي. نظرت إلى باب مكتبه. في الخارج، كان هناك شخص ينتظر الدخول. كنت أفرض على أحدهم أن ينتظر. أردت لذلك الشخص أن ينتظر في الخارج إلى الأبد بحيث يمكن لي أن أبقى هنا في الداخل، قابعةً داخل شرنقة هذه الذاكرة الجميلة.

«ألا تشعرين بأن ذلك يشير إلى نقطة ضعف قاتلة فيكِ؟»

سألته: «تقصد، الاستسلام؟»

قال: «للمال.»

أيقظتني تلك العبارة من حلم اليقظة الذي انجرفت إليه، وشحذت قدرتي على التبصر والرؤية. قلت: «أليس هذا ما حدث للعديد منا؟ كلنا كنا نسعى وراء المال؛ لقد كنا واثقين بأنفسنا بشكل لا يرقى إليه الشك، لدرجة أننا ارتهنّا مستقبلنا من أجل اقتناء سيارة من نوع مرسيدس اليوم، وشراء مطبخ جديد، والتعديلات التي أجريناها على المنزل، والرحلات إلى

أوروبا. أليس هذا ما فعلته أمريكا؟» لكن الأمر مضى إلى أبعد من ذلك. فقد فهمت ماذا كان يعني ذلك الأمر برمّته بالنسبة إلي. شعرت بأنني كنت أنتمي إلى تلك اللحظة، وأنني لم أعد بحاجة لكي أخطط لأي شيء؛ كنت أحاول فقط الحصول على ما يجعلني أطمئن إلى مستقبلي. شعرت بأنني أنتمي الآن في هذه اللحظة من خلال المدرسة وداخل المنزل وفي السينما والمحال التجارية وعيادات الأطباء التي تزورها ابنتاي، إلى ذلك العالم الذي صنعني.

كرر قائلاً: «هذه نقطة ضعف قاتلة.»

قلت: «ربما هي كذلك. لقد وجدت نفسي بطريقتي الخاصة داخل حلقة الجنون تلك.» خطرت ببالي صورة كل من إيما وويل ومنزلهما في ولاية مين.

استمر الحديث بيننا بعد ذلك لمدة تزيد على عشرين دقيقة، عدنا فيه إلى الخوض في الفوضى التي اكتشف بما لا يرقى إليه الشك، أن دوري فيها كان أحد مظاهرها. كان مقتنعاً أن ذلك سوف يكون بمثابة انفجار مالي نووي، ورأى أنني كنت خير من يمكن أن يقص تلك الحكاية، خصوصاً إذا تم توليفها مع حكايتي الشخصية المثيرة للفضول، ودوري فيها.

قلت: «المصرفيون سوف يطويهم عالم النسيان. لن يكون بوسع أحد النظر إلى وجوههم، وسيجللون بالعار.» رمقني بعينيه وقد علت وجهَه ابتسامةٌ متكلفة. تابعت قائلة: «بالطبع، سينتهي بهم الأمر حيث بدءوا، حين سيخرجون إلى العالم بمنتجات جديدة لها نفس مفعول المنتجات السابقة — على شكل رزمة يتم تقطيعها إلى شرائح ومكعبات وشحنها إلى أماكن

مختلفة من العالم، وسوف تستأنف حفلة الجنون دورتها من جديد. لن تكون مادة الجنون هي المنازل السكنية هذه المرة بل شيئاً آخر. هذه المرة، ستتمحور حول تأمين أقساط الجامعة، والتأمين على الحياة — سوف يقامرون بحياتكم. سوف لن يخسروا أبداً.» ابتسمت له وقلت: «الأغنياء يعيشون بطريقة مختلفة.»

سألني وابتسامة تعلوها مسحة من البلاهة: «من تظنين أنه سوف يكون مهتماً بالكتابة حول هذا الموضوع؟»

سألته: «ألا تظن أن كثيرين سيبدون اهتماماً بالكتابة حوله؟ سحرة المال سوف يقدمون آلاف المقترحات حول هذا الموضوع، أليس كذلك؟»

قال: «لا أقصد هذا النوع من الكتب. أنا أتحدث عن كتاب صادر عن شاهد عيان.»

قلت: «يؤلفه أحد المتفرجين الفضوليين.»

قال وهو يقف أخيراً، ثم يخرج من خلف مكتبه كي يعانقني مودعاً: «يا إنديا، ستفكرين بالموضوع، أليس كذلك؟»

أُديرَ محرّك الاحتمالات من جديد، لكنه توقف بسرعة.

«لا أمل بذلك، يا ليوناردو، على الرغم من أن عرضكَ مغرٍ جداً؛ فأنا جد سعيدة بما أقوم به. أشعر للمرة الأولى في حياتي بسعادة غامرة لأنني حقاً أحب ما أقوم به.»

لقد رفضت عرض كافيللي، وفي اللحظة التي أعلنت له عن ذلك، تراءى لي استوديو الكتابة أمام خيالي. لم أشأ التخلي عنه طيلة تلك المدة، وبقيت أدفع إيجاره بالرغم من بقي مقفلاً منذ فترة طويلة وتراكم الغبار فيه وعلى أثاثه الذي بقي على حاله منذ أن تركته. ودّعتُ كافيللي وأغلقت باب مكتبه ورائي في طريقي نحو غرفة الانتظار حيث وقفت هناك مشدوهة للحظة. كانت تنحني فوق مخطوطة. ليلي ستار كانت تجلس هناك وبيدها قلم أحمر؛ ثم لفت نظري كتاب تدون عليه الدرجات، ولاحظت أن تلك «المخطوطة» ليست سوى كومة من أوراق إمتحانية للطلاب. كنا في أواخر شهر حزيران، يونيو، أي موعد الامتحانات الصيفية.

«ليلي.»

قالت وهي تبتسم وتقذف بمحفظتها فوق أكوام القصص أمامها: «إنديا. ما الذي تفعلينه هنا بحق السماء؟»

«مجرد زيارة.»

«إلى أي مدى يمكن اعتبار هذا جنوناً؟ فأنا موجودة هنا كي أدردش مع كافيللي.»

قلت وأنا أشير بيدي إلى القصص أمامها: «هذا جنون. هل تدرّسين هذه الأيام؟»

قلَبت عينيها في محجريهما ووضعت الأوراق في حقيبتها؛ وكانت حقيبةً مرسومٌ عليها تمساح أزرق بقوائمه الصغيرة الفضية اللون.

قالت: «تبدين بحال رائعة.»

وقفنا نحن الاثنتان لبرهة في حجرة الانتظار؛ المديح الذي كالته لي كان من النوع الذي يمكن أن يسمعه المرء أحياناً في لقاءات لم الشمل أو في الجنازات – وهو نوع من أنواع الإقرار العلني وغير المباشر بأن الزمن وقانون الجاذبية ومقياس الطاقة وقانون الضرائب الفدرالي والكحول والأكوام السميكة من أوراق امتحانات الطلبة التي تنتظر من يصححها والعيوب التي يعاني منها المرء في شخصيته والتي لا يمكن له التغلب عليها بمفرده؛ كل هذه المتاعب تتآمر لتجعلك تبدو بحاجة على الأقل إلى الاسترخاء في حوض استحمام مليء بالماء الساخن، وبعدها إلى استنشاق الهواء النقي تحت شمس إحدى الصحارى بعيداً عن ضوضاء المدينة، ربما بمساعدة واحد أو اثنين من كهنة الشامان لوضعك من جديد على السكة التي انحرفتَ عنها وأنت تقبع في العربة الأخيرة من قطارك.

قلت: «قرأت في إحدى المجلات أنكِ ابتعتِ منزلاً في ساوثامبتون»، لم أكن أعرف ما الذي يمكن لي أن أقول لها غير ذلك.

صححت لي هذه المعلومة بطريقة فيها شيء من الاعتذار قائلة: «بل في حي سبرينغز.» قطّبت شفتيها وتابعت قائلة: «ولكننا ندفع إيجار هذا المنزل طيلة الوقت. فنحن ندفع أقساط القرض العقاري كما تعلمين.» توقفت قليلاً ثم قالت: «هذا ضرب من الجنون.» ثم، بعد أن عجزت عن مقاومة طرح هذا السؤال، سألتني: «هل هناك رواية جديدة؟»

قلت: «صدقيني، أنني لست متأكدة من سبب وجودي هنا.»

لاحظت أن هناك ومضة من الارتياح تشع من عينيها. قالت كما لو أنها كانت تحاول أن تزيح عبئاً يجثم فوق كاهلها: «اشتقت إليك يا إنديا؛ فقد مر وقت طويل على آخر مرة التقينا فيها». لماذا ابتعدنا عن بعضنا بعضاً؟

قلت: «كلتانا مشغولتان جداً. بودّي أن نعوّضَ ما فات. هل انتهيت من كتابة رواية أخرى؟»

«أنا بصدد كتابة مذكراتي الآن؛ أما الرواية فهي مشروع مؤجل حالياً.»

فتح كافيللي باب مكتبه للترحيب بليلي ستار، قائلاً: «أهلا بنجمتي.»

قالت: «أتمنى لكِ حظاً موفقاً. أرجو أن تتصلي بي.»

الفصل العشرون

كيف تعرفون أن النهاية قَرُبَتْ؟ عندما يكون الصبية الذين يعملون في تلميع الأحذية هم من يزودونكم بالمعلومات عن أسعار الأسهم والسندات. تكمن المشكلة في أنكم تكتشفون بعد فوات الأوان الطريقة الوحيدة التي تستطيعون من خلالها استيعاب هذه الحقيقة. في الأمس، كان مصدر معلوماتكم هو الصبي الذي يعمل في تلميع الأحذية؛ أما اليوم فقد تستقون معلوماتكم حول هذا الموضوع من حَمَواتكم. يتوضّعُ محور هذه الدعابة في أرض التوقعات والحكمة التي تصل متأخرة. ولكنكم إذا كنتم تعيشون الحاضر لحظة بلحظة، أو تنفثون النار من أفواهكم؛ أو إذا اشتركتم في مباريات التهام أكبر رقم من شطائر الهامبرغر، كما تحولت أنا – «إنديا بالمر إلى واحدة من هؤلاء الصبية» – حينئذ، لن يكون بإمكان أحد رؤية أي شيء خلا الأرقام.

كنا جميعاً مهتمين بالواقع؛ والأرقام كانت حقيقية وثابتة، إلى ما هنالك. الأرقام تسمح لكم أن تروا ما وراء النسيج المُشَوّش، إنها تمزق حُجُبَ الأوهام التي يعتبرها الناس خطأً، حقيقةً. ولكن حتى لو حاول أحدنا الكشف عن أساليبنا الكمية للجمهور بشكل عام – لنقل إننا ننفخ في بوق ونحن نقف في مؤخرة إحدى الشاحنات التي تتجه صوب برودوي – فإن جمهور المستمعين سوف سيقتله الضجر أو التّشويش. لم أكن أنا من يدير الدفة؛ فأنا لست من حَمَلَة شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة برينستون، ولست بصدد محاولة الحصول عليها، لكنني تعلمت أن أتحدث لغتهم. وبدأت أؤمن أشد الإيمان أنه في تسع وتسعين بالمائة من الحالات، لن أخسر أكثر من قيمة

الرهان الذي أضعه على أي شيء. فلو فرضنا أن الرهان كان بقيمة خمسين مليون دولار، فإن هذا هو المبلغ هو أقصى ما قد أخسره في تسع وتسعين بالمائة من الحالات. أما الأرقام، فكانت هي ما أبقتني واقفة على قدميّ تماماً مثل الأرض التي أقف عليها.

مشيت كما لو كنت فوق سدٍّ منيع، ولاحظتُ بكثير من الرضا كيف أن المياه بقيت محجوزة خلف هذا السد. لاحظت كيف أن الناس كانوا من الضآلة بحيث تكاد لا تراهم، وكيف أنهم يعيشون حياتهم من دون أن يكونوا على دراية بوجود مثل هذا السد. هذا ما قصدته عندما ذكرت نسبة التسعة والتسعين بالمائة. التجربة كانت ناجحة؛ وكانت صلبة ومتينة بكل المقاييس. بإمكانكم الإيمان بمتانة هذا السد بنفس الطريقة التي تؤمنون فيها بقوة جيش قوامه فيلق من المهندسين. فقد كان مُقنعاً ومُرْضياً ضمن إطار استخدامه اليومي. كان متيناً جداً. كان محرّكه يعمل بشكلٍ مُرْضٍ. وكان بإمكان المرء أن يتقبله كحقيقة مقرَّرة تماماً كحقيقة أن الشمس سوف تشرق في اليوم التالي.

لكن السير فوق خط الاحتمال المُقارِب الذي يزداد تضيّقاً، وعند تخوم الفكرة في أبعد نقطة من نقاط الاحتمال، أشيع عن وجود رقم مظلم وبارد ونادر. كان ذلك الرقم هو الاحتمال الذي يمثل نسبة الواحد بالمائة في أن يتعرض هذا السد للانهيار، وأن تجربة التصادم القصوى سينتج عنها نوع من الجزيئات الذرية المضادة التي بإمكانها أن تصهر أي شيء – الهواء والأشجار والمحيطات والبشر – وتحولنا جميعاً إلى كرة كونية هائلة من الدمار. نسبة

الواحد بالمائة تلك كانت الإلهة كالي، إلهة الدمار التي تمتطي مُذنّب سفر الرؤيا الافتراضي. سوف لن يكون بإمكانك تجاهلها أو رفضها؛ هذا إذا حاولتَ أن تحتفظ بمصداقيتك كمتخصص بالأرقام. يعود ذلك إلى حقيقة أنها رقمٌ في نهاية المطاف. لن يكون بإمكانك القول بصدق: «هذا غير ممكن»؛ لأن ذلك كان ممكناً. كل ما يمكنك قوله هو إن حدوثه غير محتمل.

نسبة الواحد بالمائة متوضعة حيث تعيش التّنّينات. فالأشخاص الذين كانوا يملكون مفاتيح أماكن تخزين كميات هائلة من المال الذي كان يجنيه الجميع ويضيفونه إلى حساباتهم ليس لأن ذلك كان صحيحاً أو حصيفاً، بل لأنه كان بإمكانهم القيام بذلك – أعني بذلك أولئك المضاربين في القوانين الذين يُبقون أعينهم مفتوحة على منطقة التنينات، ويتوجسون مما تستطيع هذه التنينات أن تسببه من دمار هائل وشامل – هؤلاء الأشخاص بمجموعهم لا يملئون مصعداً. لم يقم أحد بدعوتهم إلى الحفل. إنهم بمثابة أذرع للكارثة. لقد أصبحوا خارج زماننا. من بيننا من يتمنى أن يقول وداعاً للزمن السعيد؟

الطريقة الوحيدة لاستيعاب الأمر تأتي متأخرة؛ إلا إذا كان اسمك وين جونز. عندما قرر وين ترك الشركة، انتشرت إشاعات غريبة عن سبب تركه للعمل: لأنه تسبب في خسائر جمة للشركة؛ لقد ضبط متلبساً وهو يقوم بعملية تبييض أموال للرجل الذي يعيش على سطح القمر؛ كان هو أحد سماسرة سوق الرق الأبيض في رومانيا – هذه الإشاعات المستفِزّة انتشرت انتشار النار في الهشيم عشية رحيله عن شركة بي أند بي. إلى أين؟ إلى

حيث يقوم بعملية خداع أخرى في السوق، بالطبع. أما بالنسبة إلينا جميعاً، فقد كان يمكن أن يكون قد توجّه إلى فيجي، أو أوز، أو قاع الخندق الإلتيوني قبالة ساحل ألاسكا.

تدهشني السرعة التي تحركت بها السوق لجعل موقع وين السابق في الشركة مطوياً في عالم النسيان. لم يعبّرْ أحدٌ عن اكتراثه بذلك. كان هناك اتفاق بعدم إفشاء أية أسرار أو أية فقرة من فقرات العقود المبرمة، وعدم وضع أية شروط للمنافسة بشرط أن يبقى وين خارج دائرة الأضواء، وبعيداً عنها بعد كوكب بلوتو عن الأرض. وكما لو أنه كان ينظر من فوق ذلك الكوكب الذي لم يعد يعتبر من فصيلة الكواكب. فقد كان بإمكانه أن يسترجع منظر تلك البقعة الصغيرة التي تطفو في تلك الظلمة فوق البحيرة التي هي نحن، من دون أن يستطيع فعل أي شيء حيالها أو قول أي شيء حولها يمكن أن يُسمع في تلك المجرّة التي تسري الحمّى في أوصالها، والتي تتحرك كما كانت دائماً تتحرك، كما نعرف جميعاً بالرغم من العقبات الخفية المثيرة للاضطراب، والتي تتحرك أحياناً في اتجاه واحد. ليس باستطاعة أي امرئٍ أن يراهن على المجرّة. ما كان يهمّ في المجرّة التي صنعناها – وهي القاعدة التي استندت إليها أحلامنا، واعتمدت عليها الصفقات التي عقدناها، والأرصدة التي اخترعناها، والتي تتحرك بشكل غير متلازم؛ هذه الدوائر الغريبة والدوائر الأصغر التي تدور في فلكها والمشتقة من الأحلام – هو أنها كانت تعني لنا الكثير. كانت شيئاً خارج نطاق المنطق أو الحسابات. كانت ثابتة وصلبة تحت أقدامنا، وقد أبقتنا في حالٍ من الدفء في الليل، وأمّنت لنا الحماية من المطر الذي قد ينهمر فوق رؤوسنا. كانت شيئاً لا بد من إلقاء نظرة عليه، باعتبارها

مشهداً يجب إلقاء نظرة شاملة عليه؛ ومن ثمّ، تقييمه وأخذه بعين الاعتبار. هذه المجرّة هي حقيقة ملموسة. إنها عالم العقارات.

لم تقع حرب مراهنات بيني وبين إيما، كما كان وين قد توقّع. فقد ابتعتُ المنزل لأن آل تشابمان كانوا بحاجة إلى بيعه، ولأنني كنت قادرة على شرائه. ارتكب ويل وإيما أخطاء في حسابات الرهن العقاري، كما العديد من أقرانهما الآخرين. اشتريت المنزل لأنني كنت قادرة على دفع ثمنه؛ ولأنه كان بإمكاني ذلك، فقد خطّطت للقيام بهدمه تماماً، وإعادة بنائه من جديد على نفس النمط الذي كان عليه؛ كنت سأعيد بناءه على أساس التصميم السابق نفسه، ولكن بصورة أفضل، وأكثر تنظيماً ولفتاً للأنظار، وأكثر راحة؛ سأجعل كل غرفة أكثر اتساعاً واستيعاباً، وستكون الحمامات كبيرة بما يكفي كي تستوعب أحواض الاستحمام ومعدات الاغتسال؛ وسأهيئ ركناً في المنزل كي نستخدمه عند مجيئنا إليه شتاء وسأزوده بمدفأة لا تعيق استمتاعنا بالمشهد الخارجي. لم أرغب في التلاعب بالتاريخ؛ أعني تاريخ المنزل، لأنني سأحافظ على هيبة تصميمه الأصلي في الوقت الذي سوف أقوم بتحديثه؛ لذا لن يكون بإمكانكم أن تلاحظوا أي تغيير يذكر عليه في حال كنتم مطّلعين على تصميمه السابق.

لكن شيئاً آخر كان يشغلني. فقد كنت أفكر في بناء غرفتين برجيّتين بدلاً من واحدة من أجل خلق نوع من التناظر أو التوازن في المنظر بحيث يكون لكل واحدة منهما باباً يمكن الخروج منه إلى الشرفات. كنت أنوي أن أعيد تأهيل العليّة والقبو بحيث أجعلهما قابلين للسكن. قال سيمز، وهو مهندس معماري من نيويورك كان قد قام ببعض الأعمال الهندسية في منزل

عائلة هامبتون، كما اشتهر بتصميمه للواجهات الحجرية والزجاجية، وبخبرته في مجال الطباعة بواسطة ورق الكربون: «لن يبدو كل هذا العمل أكثر من عملية إعادة طلاء للمنزل بالنسبة للعين غير الخبيرة. سوف يبدو الآن كما لو أن شخصاً ما، اهتم به أكثر قليلاً.» طبعاً لم أذكر أي شيء من كل ما تقدم، لإيما.

بالنسبة إلى شخص طارئ على عالم المال، وعلى قدرة المال على إحداث تغيير في حياته، وعلى – كيف لي أن أعبّر عن ذلك – موسيقاه الطَرَبيّة، فإن الخطط التي وضعت من أجل ترميم المنزل وإعادة تصميمه في مقاطعة بوند بوينت، بدت وكأنها مختصرة بشكل متشدد إلى حد ما. كنت أراقب على امتداد أسابيع، المخطط الذي يعدّه سيمز. كان كل شيء تحت تصرّفي. كان بإمكاني إعادة مَوْضَعَة المنزل. كنت أستطيع أن أفتح فيه نوافذ إضافية من جهة الشرق كي تدخل الشمس إلى كافة أرجائه، وكان باستطاعتي مدُّ الممر باتجاه العشب البحري، وتركيب حوض جاكوزي. ولكن نظراً لكون سيمز شاباً ومتعطشاً للمزيد، ولأنه كان قد قرأ أفكاري جيداً، وتبين له أنني لا أقلُّ عنه تعطّشاً للحصول على المزيد، فقد اقترح عليّ مخططات أكثر تطرّفاً لبناء منزل جديد كل الجِدّة؛ منزلٍ من النوع النادر، صديقٍ للبيئة، ومبنيٍّ من مكعّبات قوية وأرضيات متوازية الأضلاع ومزود بجهاز للطاقة الشمسية بحيث يبدو مثل كاتدرائية متعددة الأسطح، أو مثل سفينة متجهة صوب خليج ولاية مين مصممة بحيث لا تكون عُرْضةً لتقلبات الزمن وتتحدى حركتيْ المد والجزر؛ أو كعصفور ينفش ريشه وهو يطير بين منطقتيْ سيباسكو كوف ورأس جيلبرت في ولاية مين. سيكون بإمكان أصحاب اليخوت استخدامه كمرشد

أو منارة لهم قبالة الشاطئ. اما صيّادو الكركند، فسيتأملون مشدوهين إلى درجة التجديف، بهذا الصرح.

حسبت الكلفة بالأرقام؛ كانت الأرقام فلكية. كانت حساباتي المصرفية حبلى بالمال. وبالتالي، فقد كانت كلفة هذا المشروع لا تتعدى كونها تلّة صغيرة مقابل جبل ضخم. المشروع لم يكن فقط قابلاً للتنفيذ من الناحية المالية؛ بل كان يمكن اعتباره قد أنجز فعلاً. كان بإمكاني قضاء طيلة فصل الشتاء في وول ستريت أكدّس المال. أحببت عبارة 'جبل آخر'؛ وبحلول فصل الربيع، سيكون بإمكاني الانتقال إلى ذلك المنزل الذي سيشبه واحداً من سلسلة الفنادق الفخمة. سيكون إنجازاً لافتاً ومُبهراً في آن. وهكذا فقد قررنا، أنا وسيمز، بدء العمل على هذا المشروع. كنا نخطو خطوة واحدة إلى الأمام لكنها كانت منحرفة قليلة عما كنا ننوي القيام به بادئ ذي بدء (كان نفس التوجه، لكنه مُحسّنٌ قليلاً) تحقيقاً لرغبته في إبراز فنه الذي يتميز بكثير من التباهي ولكن من دون أن تكون له قيمة فعلية. كنا نتقدم خطوة إلى الأمام، ثم نتراجع أخرى، إلى أن اكتملت حلقة الإغراء؛ ونتيجة لذلك، فقد تجمّعت أكداسٌ من المسودات أمامي تمهيداً لرواية القصة.

كانت مسألة بيع المنزل أمراً واقعاً. كانت تلك فكرة إيما التي عبّرتْ عنها بدايةً خلال زيارتنا العائلية السنوية لهم. قالت لي كما لو أنها كانت تتحدث إلى شريكة لها في التآمر: «لماذا لا تشتريه أنت؟ أفضّل أن تشتريه أنتِ بدلاً من أن يشتريه أحد الغرباء». كانت أقدامنا مطمورة في الرمال وكان يسترخي على حضن كل واحدة منا كتاباً لم تكن أيٌّ منا تكلف نفسها عناء قراءته. كانت الفتيات يركضن على الشاطئ؛ أما ثيودور وويل فقد كانا يمارسان رياضة

الهرولة. كنت دائماً أتوقع أن إيما ستواجه مثل هذه اللحظة وكان حدسي ينبئني بأن انفجاراً من نوع ما، سوف يقع؛ لكنني لم أكن أتوقع أن ردة فعلها ستكون بمثل هذه الرزانة: «ليس بإمكاننا الاحتفاظ بهذا المنزل للأسف؛ آه كم اضطررنا للتنازل عن امتيازات من أجل الفن! من كان يظن أن حالنا ستؤول إلى ما آلت إليه؟»

قلت: «أنا جدُّ آسفة.»

قالت: «لا ضرورة لأن تشعري بالأسف؛ إنه مجرد منزل. إذا قررتم شراءه، فسيبقى ضمن إطار العائلة؛ أعني أنكم سوف تدعوننا لزيارتكم فيه». كان ضجيج الأصوات يحيط بنا ويعلو فوق رؤوسنا: هدير الأمواج والدوّامات وهدير محركات الطائرات المضادة للغواصات التي كانت تطير فوقنا في طلعات تدريبية انطلاقاً من قواعد بحرية قريبة – كانت تبدو كبيرة وهائلة الحجم ومخيفة مثل سمكات قرش تدور من حولنا بشكل متواتر.

قلت وأنا أتصور الصورة وهي إلى جانبي: «سوف تكون لك غرفتك الخاصة». كنت أعني ما أقول، بشكل أو بآخر.

قالت إيما وهي مستغرقة في التأمل: «لم يخطر ببالي أبداً أن بوند بوينت يمكن أن تتغير». لفتت نظري بضع خصلات من الشعر الأبيض تتخلل شعرها، كشفتها أشعة الشمس. كان ذلك نوعاً من الإيحاء. تابعتْ: «كنا نعود إلى هنا كل صيف، وكان المكان على حاله تماماً كما تركناه السنة السابقة. لم يتغير شيء. كانت الأذرع الرملية تمتد باتجاه الجُزُر عند انحسار المد، وكان منسوب الكثبان يرتفع كما هو متوقع؛ وكان الشاطئ فسيحاً والأنهر كانت

تجري لمستقرٍّ لها حيث يقودها مجراها؛ وكان المد منحسراً طيلة فترة بعد الظهر؛ أما القمر فكان يميل إلى الحُمْرة في الليل فوق الجزيرة الصغيرة التي تتوضع مقابل الشاطئ». كانت إيما تحدق في الأفق، وكان صوتها أشبه ما يكون بصوت غيتار يتم ضبط إيقاع أوتاره قبل عزف لحن مقطوعة شعرية مكونة من ثمانية أبيات. أشارت إلى الجزيرة التي نصب فيها علماء متخصصون بالطيور خيامهم التي كانوا يدرسون فيها طيور الزقزاق ذات الأصوات الحادة. كانت الأمواج التي يعلوها الزَّبَد الأبيض تتدحرج بدءاً من الجزيرة باتجاهنا بإيقاع هادئ.

تابعت إيما قائلة: «لكن الأمور لم تكن على هذا المنوال طيلة الوقت؛ فكل صيف كان يحمل في طياته مفاجأته الخاصة به؛ شيء مختلف تماماً: رمل أقل هنا، ورمل أكثر هناك. أما المسافة القصيرة التي تفصلنا عن الجزيرة المكسوّة بالأشجار فكانت تختفي كلياً عند فترة انحسار المد، ولذلك فكان يتعين علينا أن نخوض في الرمل كي نصل إلى هناك، ونجرّ البنتين اللتين كانتا صغيرتين حينها على متن طوّافات كي نقطع تلك المسافة القصيرة من الجهة الأخرى من النهر الصغير. كان المكان يعجّ بالحياة؛ كان يتوسع ويتغير ويموت ثم يولد من جديد. ابنتايَ تغيّرتا. الشيء الوحيد الذي لم يبدُ عليه أي تغيير كان المنزل. لقد كان في مكانه وبقي حيث هو منذ الأزل متحدياً العواصف والأعاصير الشاطئية التي لم تستطع أن تهزّه. منازل أخرى في الجوار شُيِّدَتْ وأزيلتْ؛ عدا منزلنا. هناك الكثير من القصص المحزنة عن منازل ابتلعها البحر؛ لكن منزلنا لم يتأثر بذلك. أجيال إثر أجيال من البشر اصطافت هنا. أين كل هؤلاء البشر؟ لقد اختفوا جميعاً؛ حتى نحن سوف نختفي يوماً ما. لكن المنزل سوف يبقى.»

ظننت حينها أنها سوف تنهار. لكنها بقيت متماسكة، فهي لا تنهار أبداً. اتفقنا على أن أبتاع المنزل ولذلك فلم تتهاوى بسبب ما آلت إليه أحوالهم. ما الذي كنت أريد الوصول إليه؟ هل أردتُ أن أراقب إيما، من المنظور المريح للشخص الذي أصبحتُه، وهي تُضحّي بمثل ما كان عليّ أن أضحّي به قبلاً؟ ربما كان جزءً من داخلي يريد أن أفعل ذلك، لكنني ادّعيْتُ أن الأمر لم يكن كذلك. أمسكت بها من كتفيها في محاولة مني لتهدئتها بينما جلسنا في كرسييْنا بصمت ونحن نتأمل في المياه أمامنا؛ لكنها لم تكن بحاجة إلى من يهدّئ من روعها. فقد تقبّلت الخسارة، وقررت المضي قُدُماً في حياتها.

قامت إيما بهدوء ومن دون إحداث أي ضجيج، بتوضيب الأغراض والمقتنيات التي أرادت أن تشحنها إلى نيويورك مُحَوِّلةً عنوان حلمها الذي عاشته على مدى سنين طويلة إلى عهدتي. كان حلمها يتمحور حول الاستمتاع والتمسّك ببساطة الصيف الأبدي، والمحافظة على ابنتيها اللتين أرادت لهما أن تبقيا طفلتين إلى الأبد. كانت اللحظة تلك، عاطفية وغريبة نوعاً ما؛ ذلك أنه عندما كانت العائلة تملك المال، (كما فهمت الآن) فإن ذلك المنزل الآيل إلى السقوط كان يمثل رمزاً موازياً للترف الذي كانوا يتمتعون به. فهمتُ أيضاً ما كان يعوزني حينها – أي أنني لم أكن محتاجة أو راغبة في الحصول على رمز موازٍ للترف. لقد أردت الحصول على المال كي أقوم بما يمكن للمال أن يساعدني في القيام به. لهذا السبب، فقد جعلني سيمز والمسودات العديدة للمخطط الذي يحتوي على التعديلات التي اقترحها أحلّق بعيداً في عالم الخيال. علم ويل من خلال الثرثرة التي انتشرت في الجوار، برغبتي في إجراء تعديلات على المنزل؛ وعندما بدأ يمطرني بالرسائل الإلكترونية واتصالاته الهاتفية يناشدني

فيها بتغيير رأيي، لم يكن في مقدوري الرد عليها. لكن الأحداث المتوالية دفعتني باتجاه النقلة الأخيرة في مشروعي، وهو يومٌ كنت أخشى إلى حدٍّ ما، حلوله في نهاية المطاف عندما رأى ويل بأم عينيه ما كنت أنوي القيام به، أو تغييره في المنزل. لم يكن من السهل عليه التخلي عن المنزل؛ فقد كان علامة فارقة في مقاطعة ساغاداهوك باغل في ولاية مين.

التحقت الفتاتان بالمدرسة وانغمستا في الجو الدراسي والتزاماتهما المدرسية؛ أما ثيودور فقد كان في إيطاليا لافتتاح معرضٍ لأعماله الفنية هناك. سافرت إلى ولاية مين لوحدي من أجل وضع اللمسات الأخيرة على الصفقة مع ويل، ومن ثمّ الإعداد لعملية هدم المنزل. كان ذلك يوم الجمعة في الحادي والعشرين من شهر أيلول، سبتمبر، سنة 2007؛ وكان ذلك أول يوم من أيام الخريف، بالرغم من أن الطقس حينها كان يشبه طقس الصيف، حيث كانت نسمات قوية تهب من الشاطئ باتجاه البر. كانت هناك قلة من الناس يلهون على الشاطئ في محاولة منهم للتمسك بآخر أذيال الصيف في عطلة نهاية الأسبوع. كانت الطائرات الورقية تلامس سطح المياه، ثم تغوص فيها. كان الممر الصغير المؤدي إلى المنزل يعج بالآلات والأدوات: كان هناك بلدوزر وحفارة هيدروليكية، كما كان هناك طاقم من العمال يجوبون أرجاء المكان ويدقّون أسافين هائلة الحجم في قواعد ذلك المنزل الفيكتوري العتيق. (لم أكن أعرف أن منزلاً يمكن أن تكون له مثل هذه القواعد أو الركائز.) كانت تلك الأسافين مزودة بخطّافات مربوطة إلى أسلاك معدنية في منتهى المتانة، وعندما يتم لفّها حول المنزل من كافة جوانبه، كان باستطاعتها في حال شدّها بقوة، أن تسوّي المنزل بالأرض.

كان ويل تشابمان يقف هناك ويراقب ما يجري؛ كان يلبس سروالاً قصيراً باللون البني الفاتح، وقميصاً وردي اللون من ماركة بولو؛ وكانت نظارتان شمسيتان تسترخيان فوق شعره. قال بشكل مباشر، وإن بكثير من الاحترام: «ربما لا يجدر بي أن أقول لك هذا يا إنديا، ولكنني أتمنى ألا تفعلي ذلك». ضربت أمواج المحيط الشاطئ بقوة؛ وترافق ذلك مع انهمار زخّات مفاجئة من المطر فوق رؤوسنا. بعد عدة دقائق، سطعت الشمس من جديد مُرسِلةً مع طيات شعاعها أعمدة من البخار فوق الشاطئ. انهمر المطر بعدها بغزارة.

قلت مُبتسِمةً: «أعدك بأنك سوف تحب المنزل أكثر بعد بنائه من جديد». كنت أعتقد جازمة أنه سيحب المنزل بعد إعادة بنائه. تابعتُ قائلةً: «سيمز مهندس معماري من الطراز الأول. جميع المنازل التي يبنيها تصبح لافتة جداً للنظر. الجميع يهدمون منازلهم من أجل إعادة بنائها».

قال: «بالله عليك...» كان على وشك أن يتفوّه بكلمات أخرى، لكنه لم يفعل. نظر إلى المنزل ثم إلى الحاوية الطويلة التي تم تجهيزها كي يوضع فيها حطام المنزل.

لم أكن أرغب في أن يستشيط مني غضباً، لم أكن أرغب في أن أغضِب أحداً. أردتهم أن يحبوني ويأخذوا انطباعاً عني بأنني إنسانة صالحة بالرغم من أنني لم أكن أكترث بآراء الآخرين عندما كنت أعمل تحت إمرة وين.

استدار نحوي وقال: «المسألة لا تتعلق بالمنزل بحد ذاته.» أزاح الشعر المتدلّي فوق عينيه بفعل الرياح، وتابع قائلاً: «أظن،» توقف قليلاً ثم قال:

«أظن أنك لن تفهمي ذلك مطلقاً». كان المنظر الذي يحيط بنا من كل جانب أخّاذاً. كان العمال ينتظرون مني إعطاءهم إشارة البدء. كنت قد طلبت إليهم التوقف احتراماً لمشاعر ويل. كنت أنتظر ويل كي يقول كل ما لديه. فجأة انتابني شعور بالشوق إلى ثيودور؛ تمنيت لو كان حينها هنا إلى جانبي. بعض العمال بدءوا بطرق الأسافين التي تشكل دعائم للمنزل. «هل تعرفين يا إنديا أننا نغبطكِ لأنك تمتلكين كل هذا الزخم وهذه الحيوية، ولأنك حققتِ الكثير لثيودور وللبنتين. فأنت تتمتعين بروح الالتزام والتصميم.»

سألته ممازِحَةً: « وهل تظن أن الزخم والحيوية يعوزانني الآن؟» كنت أعرف ما الذي كان يرمي إليه، ولكن كان من الأسهل أخذ ذلك على محمل الدعابة.

خرجت مجموعة من الفتية الجامعيين من أحد المنازل المحاذية للشاطئ، وكان يقع ضمن مزرعة صغيرة أقيمت على أنقاض المنزل الذي بني في العصر الفيكتوري الذي كانت مياه المحيط قد جرفته فيما مضى. أطلقت إيما على هؤلاء الفتية لقب «مجموعة المرحين» لأنهم كانوا يمارسون دوماً واحدة من الرياضات الحركية. كانوا يحملون ألواح إبحار وزوارق صغيرة جلدية، وكان عددهم ستة شباب يتهيئون للإبحار بعد أن ارتدوا ثياب البحر الواقية من الماء. كنت قد بدأت أضيق ذرعاً بويل.

«لن تكون الحال عليه دائماً كما هي الآن يا إنديا؛ فهذه ليست نهاية المطاف، كما تعلمين. الأسواق دائماً عرضة للتغير.»

وقف أمامي في واحدة من تلك اللحظات النادرة في حياته؛ بدت وكأنها

لحظة الحساب، أي مثل اللحظة التي تقف فيها أمام فرقة الإعدام؛ أو اللحظة التي تكون فيها مربوطاً إلى بلدوزر، وحينها يكون من غير المهم أن تكون على صواب أو على خطأ؛ ففي تلك اللحظة يكون الوقت قد أزف كي تقول كلمتك وليكن بعدها ما يكون. لكنه لم يكن قادراً على البوح بكل مكنونات صدره؛ ومن منا يستطيع أن يفعل ذلك في حقيقة الأمر؟ كان بإمكاني رؤية نفسي من عَلٍ، وأنا واقفة يبللني رذاذ المطر، وشعري مردود إلى الخلف ومعقوص بمشبك، مرتدية سروالاً مخصصاً لرياضة اليوغا وقميصاً فضفاضاً أبيضَ قصير الكمين، وأظافر قدميّ مطلية باللون الأحمر. أما ورائي، فكان البلدوزر والحفارة الهيدروليكية على أهبة الاستعداد للقيام بعملية الهدم.

«أردنا أن نتقمصكِ يا إنديا. ربما لم نتحدث عن ذلك قبلاً، ولم نَبُحْ بها بشكل مباشر. لكننا كنا نفهم بعضنا بعضاً بشكل جيد. استطعتِ أن تجعلي الأمر يبدو ممكناً. لقد منحتينا الشجاعة.» صمتَ بعدها لبرهة، مُفسِحاً المجال لكلماته أن تأخذ سبيلها إلى مداركي. كنا على وشك الوصول إلى نقطة اللا عودة. بعد هذه اللحظة، سيكون كل شيء في عداد «ما بعد». سوف أتوضّعُ بعد ذلك في الماضي، وسأكون بمثابة الضمير الغائب. ʻهناك لحظة مفصلية تلك التي التقاها فيها للمرة الأولىʼ – كنت شبه متأكدة من أن هذه ستكون الجملة الافتتاحية لرواية ثانية أطول من سابقتها قد تبصر النور قريباً – ʻفي حديقة تريبيكا برفقة ابنتها الصغيرة وثيودور، وكان يعرف أنه يرغب في انتشالها مما هي فيه. فقد أحس أن في داخلها كيان هشّʼ، ويمكن للقصة أن تستمر على النحو التالي: ʻشيء ما، في داخلها أراد أن يطلق سراحهʼ.

قلت: «أنت لا تفهم ما أرمي إليه». تذكرت لقائي مع كافيللي، وتبين لي بما لا يدع مجالاً للشك بأن ويل هو من كان حثّ هذا الأخير على الاتصال بي وطلب هذا اللقاء. كانت لحظة إلهام ومضت في عقلي لكنها تبخرت منه بنفس السرعة؛ فهي لا تعني شيئاً في نهاية المطاف. تركت لقوة إرادتي أن ترتشف الإثارة التي أحسست بها في أنفي وعينيّ. لقد أثبتُّ بما لا يدع مجالاً للشك بأنني قادرة على فعل ما فعلته. لم أعد أكذب بعد الآن؛ ولن أدعه يسلبني قوة هذه الإرادة.

«هل أطلعكِ على شيء سخيف يا إنديا؟ كنت أنا وإيما نتندّر حول هذا الموضوع. فبالنسبة إلينا، لم تكوني أنت وثيودور سوى...» قطع ويل عبارته ونظر إلى المنزل ثانية؛ وفجأة انتابته موجة من الضحك ثم تابع قائلاً: «أفراد من عائلة جونز؛ فأنتما من عائلة جونز اللعينة».

تركني ومضى في حال سبيله، وبقيت بعد ذلك وحدي.

عاد المطر ينهمر، ولكن بشكل أشد هذه المرة. قرر العمال وقف العمل لهذا اليوم. أما المتعهد فقد طلب إليّ أن أبلغه في صباح اليوم التالي بقراري حول موضوع هدم المنزل؛ لأن الأمر من وجهة نظره يستحق التفكير فيه بجدية أكثر. كانت لهجته المحلية الثقيلة على الأذن تبتلع العديد من أحرف الكلمات والأصوات التي تفوّه بها. لفت نظري، لا بل حذّرني بأنه بمجرد هَدْم المنزل، فلن يكون بالإمكان إعادته إلى ما كان عليه من جديد. كان رجلاً ضخم الجثة، وكانت وجنتاه ورديتين مضطربتين. أدار قبعة البيسبول التي يرتديها إلى الجهة المعاكسة، كما لو أنه أراد أن يؤكد على ما قاله.

أحضرت من داخل المنزل مظلة شاطئية وفتحتها كي أتّقي البلل، وقمت بتثبيت كرسي تحتها، ثم لففتُ نفسي ببطانية. كان الشباب المَرحون يتسكعون في قواربهم الجلدية بجرأة وجسارة، لكنهم اختفوا الآن بحثاً عن ملجأ يقيهم من المطر الشديد. اشتدّ هطول المطر أكثر فأكثر، وتحوّلَ النهار إلى لون رمادي داكن؛ أما الأمواج فقد كان يعلوها الزبد الناصع بلون الثلج. ظهر أحد طيور النورس الشاردة وهو يطير بمرح تحت زخّات المطر الشديد. تسرّب الماء من خلال تشققات في سطح المظلة وتناثر على البطانية التي ألتحف بها، وقد ذكّرني ذلك بالسطح الذي يتسرب منه الماء في الشقة التي سوف تصبح عما قريب شقتي السابقة؛ فقد اشترينا طابقاً عُلْوياً في إحدى البنايات في حي تريبيكا. بدأت أستمع إلى صوت طقطقة المياه بعد أن خفّت حدّة المطر. كانت فترة العصر بطولها ما تزال أمامي، وعندما حلّ العصر، بدأت أشعة الشمس تشق طريقها وسط الغيوم، كما بدأ المد البحري ينحسر تدريجياً باتجاه المحيط مخلّفاً رقعة عريضة من الشاطئ الرملي وراءه؛ وفي غضون ذلك، خرج الفتية المرحون من منزلهم مرة أخرى وهم يحملون عدداً من كرات القدم وأقراص رمي كي يتقاذفوها فيما بينهم.

كان منزلي ينتصب بمهابة بين الكثبان الرملية. كانت تبدو عليه الفخامة. ربما لو تمعّنتُ فيه جيداً، لفهمت لماذا كانت إيما متعلقة فيه إلى هذا الحد. طابقٌ بأكمله في أحد الأبنية في حي تريبيكا، وبيتٌ صيفيٌّ في ولاية مين، حدّدا كثيراً من أحلامي التي يفترض أن مهنتي الجديدة وحياتي الجديدة سوف توفرهما لي. لقد جازفت بكل شيء، ولن أتردد في المجازفة من جديد. غالباً ما كنت أشعر كما لو أنني أقفز من فوق عارضة مرتفعة في الظلام، ما كان يمنحني إثارة

بدأت أتعود عليها؛ إثارة تبدأ بالتلذذ بطعمها خصوصاً عندما ينتهي الأمر بك هنا على هذه الرمال، وأمامك الأفق بطوله وعرضه، وكذلك منزل يمكنك تسويته بالأرض إن شئت وإعادة إعماره من جديد فقط لأنك قمتَ بتلك القفزة. عالم العقارات! يا لعالَم العقارات الساحر! عصر أحد الأيام في شهر أيلول؛ السُّحُبُ الآن تبدو مثل مساند بيضاء متموجة هائلة الحجم في السماء المائلة إلى الزرقة الفاتحة. المشهد برمّته كان يبدو متجانساً ومتّسقاً.

ربما بدأت القصة حول موضوع أحد المنازل. وتوقّفَ المطر كما يحدث دائماً؛ ثم خرج الفتية المرحون من منزلهم من جديد كي يجمعوا الحطب من أجل إيقاد نار على الشاطئ؛ وهو ما كان يعني كما علمت لاحقاً أنهم سوف يبدءون حفلاً للمفرقعات والألعاب النارية حالما يهبط الظلام. كان هناك الكثير من المشعلات على مد النظر تضطرم في الظلام في مناطق مبعثرة من قوس الشاطئ. كانت مجموعات من الناس تتحلّق حول النيران الوهّاجة التي أضرمت فوق الرمال بينما كانت الأقمار الصناعية تبث بشكل مستمر عبر ظلمة الليل، والأسواق تتقلّب وتتحول من وضع إلى آخر. جلست أرقُبُ العرض، وأدوّن بكثير من المتعة المرَح الذي استنبطه أولئك الفتية المرحون لأنفسهم، وكنت أستنبط المرح الخاص بي. فقد كان عليّ أن أعطي أمراً للبدء في العمل على حقبة جديدة ونظام جديد. هل سيكون هذا الأمر على شاكلة كابلات مشدودة إلى قواعد المنزل، أم أنه سيكون على شاكلة أخرى؟ أياً ما سيكون ذلك الخيار، فإنه سيكون خياري أنا. أما غداً، فهو لناظره قريب، وسوف أفعل بالضبط ما يحلو لي أنا فعْلُه.

إصدارات وحدة الترجمة، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة

	العنوان	المترجم/المراجع	الزوج اللغوي	الطباعة والسنة
1	سمك القرش والنورس البحري دومينيك دو فيلبان	هاشم صالح ومحمد مخلوف. مراجعة د. حسام الخطيب	فرنسي - عرب	بيروت 2005
2	مسلمو الغرب ومستقبل الإسلام طارق رمضان	د. إبراهيم الشهابي مراجعة د. حسام الخطيب	إنكليزي - عربي	بيروت 2005
3	تاريخ اللغات ومستقبلها، عالم بابلي هارالد هارمان	سامي شمعون، مراجعة محمد فرززات	ألماني- عربي	بيروت 2006
4	فلسطين في الشعر الهسباني المعاصر محمد الجعدي	محمد الجعدي، مراجعة د. حسام الخطيب	إسباني - عربي	بيروت 2006
5	شجرة الغاف باحثون من جامعة قطر	مجموعة باحثين، جامعة قطر	عربي	الدوحة 2007
6	شجرة الغاف باحثون من جامعة قطر	مجموعة باحثين، جامعة قطر	إنكليزي	الدوحة 2007
7	هل كنّا مثل أيّ عاشقين؟ نفتاج سارنا	د. منذر محمد	إنكليزي - عربي	بيروت 2006
8	القضية المشتركة د. فيليب آغران	عبدالودود العمراني مراجعة د. حسام الخطيب	فرنسي - عربي	دمشق، 2007
9	عصر النفط	د. إبراهيم الشهابي	إنكليزي - عربي	الدوحة 2008

	ليوناردو ملوجري			
10	حكايات من الأدب الشعبي الفارسي ملتقطات من شهنامه الفردوسي	د. مصطفى بالكور	فارسي - عربي	دمشق، 2008
11	بنت عرب إلين شاكر	أمل منصور، مراجعة د. فائقة صديقي	إنكليزي - عربي	دمشق، 2008
12	عناق الأسرة نوبو كوجيما	د. منذر محمد	إنكليزي - عربي	دمشق، 2009
13	عروق القدس النازفة مجموعة باحثين، تحرير د. منير العكش	د. منير العكش	إنكليزي - عربي	الدوحة، 2010
14	اللغة والثقافة كلير كرامش	د. أحمد الشيمي مراجعة عبدالودود العمراني	إنكليزي - عربي	الدوحة، 2010
15	مستقبل الدراسات الأدبية هـانس غومبرخت، والتر موزر	د. ربى محمود ود. منذر محمد	فرنسي وإنكليزي - عربي	الدوحة، 2010
16	عصارة الأيام سمرست موم	د. حسام الخطيب	إنكليزي - عربي	الدوحة 2010
17	كُتُب تحترق، تاريخ تدمير المكتبات لوسيان بولاسترون	هاشم صالح ومحمد مخلوف. مراجعة عبدالودود العمراني	فرنسي - عربي	تونس 2010
18	الترجمة والعولمة مايكل كرونين	محمود الهاشمي وعبدالودود العمراني مراجعة د. حسام الخطيب	إنكليزي - عربي	بيروت، 2010
19	الظم في الترجمة	إبراهيم الشهابي	إنكليزي - عربي	الدوحة، 2010

	سكوت مونتغومري	مراجعة وفاء التومي		
20	ضفدع مقاطعة كالافيراس وقصص أخرى مارك توين	خليفة الهزاع	إنكليزي - عربي	بيروت، 2011
21	محاضرات الحائزين على جائزة نوبل في الأدب	عبدالودود العمراني مراجعة وفاء التومي	إنكليزي وإسباني وفرنسي وألماني - عربي	بيروت وتونس، 2011
22	جسور إلى اللانهاية مايكل غيلن	د. عامر شيخوني مراجعة بدرالدين علاء الدين ووفاء التومي	إنكليزي - عربي	الدوحة، 2011
23	الهند تظفر بالحرية . أبو الكلام آزاد	د. نبيلة الزواوي مراجعة أ.د. محمد لطفي اليوسفي	إنكليزي - عربي	الدوحة، 2011
24	منظومة حيوانات قطر محمد جاسم العبدالجبار	بدور القحطاني وسامي بن صغير. مراجعة فرانسيس غيلسبي	عربي - إنكليزي	الدوحة 2011
25	الحرية الافتراضية دلون تونسياتو	أنور الشامي. مراجعة وفاء التومي	إنكليزي - عربي	الدوحة 2011